المقتطف

الجزء الاول من المجلد السادس بعد المائة

١ يناير سنة ١٩٤٥ — ١٧ محرم سنة ١٣٦٤

عقّار جديد

لعلاج السل والجذام

في دار قديمة ألوت بها الرياح على ضفة نهر دترويت ، كان رجلان يتحدثان ، وكان أحدهما الدكتور ليون سويت مدير البحث الكيميائي في شركة بارك دايفس المشهورة في صناعة العقاقير ، وكان الآخر الدكتور لويس بامباس المتوفر على تركيب الذرّات بعضها مع بعض لإنشاء مركبات كيميائية جديدة .

وطوَّف الرجلان في حديثهما بموضوعات كثيرة ، ولكنهما لم يعرجا على الجذام والسل ، اللذين ما فتئا منذ قديم الزمان في الطليعة بين نكبات البشر ، وقد عجز العلم عن أن يحرز غلبة تذكر عليهما أو على أحدهما . وقد باءت بالإخفاق جميع بحوث العلماء لكشف لقاح واقٍ أو علاج شاف للسلّ . . وعجز الباحثون عن نقل الجذام الى حيوانات التجارب ، عجزهم عن العثور على علاجٍ لهُ . وجلّ ما استطاعهُ العلماء ، هو أن يصفوا الراحة والغذاء الجيد للمصاب بإحدى العلّتين .

ومع ذلك فالسلُّ يقتل ستين ألفاً كلّ سنةٍ في الولايات المتحدة ، ويمرض ثلاثمئة ألف . والجذام ينكب من ثلاثة ملايين إلى خمسة ملايين في جميع أقطار الأرض . وقد كان سويت وبامباس يعرفان هذه الحقائق ، وما كان يقابلها من فتك سائر الأمراض بالناس ، ولكن همهما يوم اجتمعا وتحدثا لم يكن منصرفاً الى السلّ ولا إلى الجذام .

قال سويت : إن ثمة باحثين كثيرين يبحثون عن عقاقير عجيبة في أسرة السلفوناميد ،

لعلاج طائفة من الأمراض لم تدن لعقار ، ولكن من المستغرب أن يهمل الجميع طائفة المركبات المعروفة باسم : سَلفون .

واقترح سويت على بامباس أن يعني بهذه المركبات عسى أن يجد فيها عقاراً ناجعاً في كفاح الجراثيم الستربتوكوكية ، التي تسبب تسمم الدم والتهاب الجروح وتعفنها ، وعسى أن يكون هذا العقار أفعل من عقاقير السلفا وأقل منها فعلاً ساماً .

فقال بامباس : إن هذا بحث على غير هدى ، وقد يستغرق وقتاً طويلاً ويستنفد نشاطاً عظيماً ثم لا ينتهي إلى شيء له قيمة ما . فليس ثمة ما يدل على أن لطائفة « السلفون » فائدة في الشفاء ومع ذلك فلنجرّب .

وهذا القول يمثل لوناً من العلم ينبع من الحاجة وينساق مع الواقع ، وغرضهُ محدودٌ لا يعدو حبةً أو سائلاً يحقن به تحت الجلد ، فيشفي من مرض ويقبل عليهِ الأطباء، ولكنهُ ذلك اللون من العلم الذي أسفر أولاً عن كشف عقاقير السلفا .

وعاد بامباس الى معمله وبدأ يبحث . وكان البحث يبعث السآمة ، ويجري فيهِ الباحث على نمط معيَّنٍ لا يكاد يكون عنهُ محيد . فعلى الباحث أن ينفق الأسابيع الأولى في إبداع مركَّب كيميائي جديد ، ثم يحقن بهِ أرنباً أو فأراً . فاذا وقع الأرنب أو الفأر ميتاً ، فقد وجب نبذ المركب لأنه سمٌّ زعاف ، فيضيع معهُ جهاد أسابيع . ولكن إذا بقي الفأر على قيد الحياة ، فعندئذٍ يضع الباحث قليلاً من هذا المركب في أنبوب اختبار حافل بالجراثيم. ثم يراقب ما يحدث في الأنبوب . فاذا قتل المركب الجراثيم في الأنبوب اغتبط الباحث بما يتمّ ، واذا أبطأ المركب نموَّ الجراثيم بالفتك بأجهزة الهضم فيها أو بأجهزة التكاثر ، اغتبط الباحث كذلك .

وبعد أن يتبيّن الباحث هذه الحقائق يخطو الخطوة التالية ، بأن يحقن بالجراثيم فأراً أو أرنباً هندياً ، ثم يحقنهُ بعد ذلك بجرعة من هذا المركب لكي يرى هل ينقذهُ المركب من فتك الجراثيم .

فالبحث يجري على هذا المنوال ، بمركّب في أثر مركب ، على نمط خليق بأن يبث السآمة في نفس الباحث — إلاّ إذا كان موفقاً .

وانقضى على بامباس أشهر وهو يتبع هذا الطريق المملّ في البحث ، ثم أشرق لهُ وجه التوفيق في أحد الأيام . وكان قد سبق لهُ فركّب من ذرّات النتروجين والايدروجين

والكربون والأوكسجين والكبريت والصوديوم مركباً غريباً كان مسحوقاً أصفر أطلقت عليه شركة بارك دايفس اسم برومين Promin

***

لننتقل الآن إلى معهد مايو في مدينة روتشستر بولاية مينسوتا ، فنجد هناك باحثاً يدعى الدكتور وليم فلدمان ، وكان معنيًّا ببحث العقاقير الجديدة التابعة لأسرة عقاقير السلفا. وقد كتب فلدمان إلى الدكتور سويت يسأله أوجد أحد الباحثين في شركته عقاراً جديداً ما من عقاقير السلفا. فيرسل إليه سويت ، بالبريد ، حفنة من مسحوق بامباس الأصفر.

ويتبع ذلك بحث طويل مملّ . فيجرّب المسحوق بالجراثيم الستربتوكوكية ، فيؤثر فيها بعض التأثير وحسب . ثم يجرب في الجراثيم النموكوكية التي تحدث التهاب الرئتين ، والجونوكوكية التي تحدث السيلان . فيؤثر فيها ولكن تأثيره ليس باهراً . ثم يخطر لفلدمان أن يجرّبه بباشلس الدرن (السل وما أشبه) .

وعليك أن تذكر أيها القارئ الكريم ، أن عقاراً ما لم يؤثر قبلُ في هذه الجرثومة البطيئة الصلبة المراس ، التي تسبب السلّ .

فمنذ سنوات كانت جماعة من الباحثين قد جرّبت السلفانيلاميد فوجدت أن هذا العقار لا يؤثر تأثيراً ما في باشلس الدرن إلاّ حين تبلغ الجرعات مبلغاً كبيراً ، فتقتل بستين في المئة من حيوانات التجارب ، فلم تتبين الجماعة أملاً ما في مكافحة السل بالسلفانيلاميد . فليس ثمة مسلول واحد يرغب في أن يتعاطى دواءً يبلغ احتمال فتكه به هو ، ستين في المئة .

ولكن فلدمان قال في ذات نفسه : إنّ هذا العقار الجديد ، ليس من أسرة السلفا . إنهُ من أسرة السلفون . فثمة أمل . وعلى كلّ حال إنهُ جدير بأن يجرّب . فبعث إلى زريبة حيوانات التجارب يطلب ثمانين أرنباً هنديًّا .

والأرنب الهندي خير حيوان لإجراء تجارب السلّ . فليس في جسمهِ مناعة طبيعية ضدّ المرض . وما عليك إلاّ أن تحقنهُ تحت الجلد ببضعة من باشلس الدرن ، فلا تنقضي أسابيع حتى تستقرّ الجراثيم في أجسام الأرانب وتستأصل في الطحال والكبد والرئتين . وفي فترة تتفاوت من ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر تموت جميعاً .

وكذلك حقنت الأرانب الهندية الثمانون بجرع فتاكة من هذه الجراثيم ، ووضع الباحث اثني عشر أرنباً منها جانباً ، تنتظر ما لا مفرّ منهُ . وأما الثمانية والستون الباقية ، فستعطى

البرومين ، في طعامها . وليس للباحث بعد أن نعطى البرومين من عمل إلاّ أن ينتظر وهو يراقبها .

فلم تكد تنقضي أسابيع حتى كانت الأرانب التي حقنت بالجراثيم ولم تحقن بالعقار في طريق الموت . وأما الأرانب الأخرى فكانت سليمة لا تزال . وما انقضى اليوم الثاني والتسعون بعد المئة ، حتى كانت الأرانب الأولى قد ماتت جميعاً ، بتأثير باشلس الدرن . وأما أرانب الطائفة الثانية فكانت ٨٤ في المئة منها لا تزال سليمة . ونصف الأحياء من هذه الأرانب لم تبدُ عليه أعراض سل مستفحلة . والنصف الآخر بدت عليه أعراض هيّنة . وكان وزن جميعها قد زاد بدلاً من أن ينقص .

على أن فلدمان وزميليه في البحث ، سلكا طريق الشك العلمي في نتائجهما الأولى فأعادا التجربة ، وظفرا بالنتائج نفسها . واهتمت جماعات أخرى من الباحثين بضبط النتائج فثبتت صحتها ثبوتاً لا يرقى إليه الشك . فهذا المسحوق الأصفر الشاحب ، يتخير من الجراثيم جرثومة الدرن ويؤثر فيها .

وحين كانت التجارب بالأرانب الهندية قائمة على قدم وساق انصرف بامياس وأعوانهُ إلى تركيب مركبات سلفونية جديدة ، بدا عليها أنها أهدى إلى الغرض المطلوب من البرومين وكان الطريق قد مهّد لتجربة هذه الجرائيم الجديدة في الناس .

سارت التجارب في الناس ، على الطريق المتبع ، وهو أن تختار المصابين الذين لا رجاء لهم في شفاء ، فإذا ظهر أن العقار سم قاتل ، فانما يودي بمصابين لا يرجون . وكان المصاب الذي عرض على الأطباء ، طفلاً في الثانية من عمره ، وكان مصاباً بالتهاب سحائي درنيّ .

وهذا مرض مخيف ، يحدثهُ باشلس الدرن ، حين يهجم على أغشية المخ والحبل الشوكي فيتألم المصاب ألماً فظيماً . ويصيح من شدة الألم حتى يحبسه الاعياء . ثم تستولي عليه الغيبوبة وتتبعها الوفاة . والمرض قاتل لا ينجو منه أحد .

فبدأ الأطباء يحقنون الطفل بجرعات كبيرة من البروميزول — أحد أبناء عمومة البرومين . فلم تكد تنقضي ساعات ، حتى طفقت أعراض المرض تتحسن . وفي اليوم السادس كان الطفل منتصباً في سريره يلعب ، وبعد أسابيع غادر المستشفى .

وحين يبرأ مصابون ، مثل هذا البرء العجيب ، يقرر الأطباء الباحثون ، أن ثمة خطأً ما ، فربما كان التشخيص خاطئاً والولد لم يكن مصاباً بالتهاب سحائي درني . إذ يشق عليهم أن يصدقوا لفورهم ، أن مرضاً فتاكاً استعصى على الأطباء والباحثين منذ قرون ، قد ذاق لهم

بمثل هذه السهولة وهذا الحسم . فلذلك ارتابوا في صحة ما شاهدوه في حادثة هذا الطفل .

ولذلك عمد فلدمان وعشرات غيره يشتغلون في مصحات كثيرة في طول البلاد وعرضها إلى استعمال البرومين ليكون استعماله تجربة سريرية واسعة النطاق . فأخذه مئات من المرضى في أحوال ومراحل متفاوتة من المرض، وقد أخذه بعضهم من طريق الفم وحقن به بعضهم حقناً.

كان بعض المصابين ، حديث الاصابة ، وكان بعضهم قديمها ، وكان منهم المصاب بالدرن في الكليتين ، أو المصاب بدمامل درنية . فكانت استجابة بعض المصابين للعلاج الجديد ، موسومة بميسم المعجزات .

على أن البحث العلمي يقتضي ، أن يعرف معدل تأثير العقار في طائفة كبيرة من المصابين الذين أجريت فيهم التجارب ، لا أن يقتصر على مريض واحد وحسب . فاليك خلاصة الاحصاءات الخاصة بطائفة مؤلفة من ٤٢٣ مريضاً .

من هذه الطائفة ، تحسنت حالة الثلث تحسناً لا ريب فيه ، وكان التحسن في بعضها سريعاً أتاح للمصابين أن يعودوا إلى عملهم . وقد مات تسعة وأربعون مصاباً ، منهم النصف قضوا بالالتهاب السحائي الدرني . أما في بقية المصابين فقد كان التحسن مشكوكاً فيه ، أو ظل المصابون على حالهم . وقد أثبتت هذه التجارب أن العقار الجديد ، شديد التأثير في المراحل الأولى من المرض .

وإذا كانت هذه التجارب لم تثبت حتى الآن ، أن العقار الجديد علاج ناجع حاسم للسل ، فانها أثبتت على الأقل ، أنه أفعل وأنجع من أي عقار سابق .

***

هذا النجاح في علاج السل — وإن لم يكن تامّاً حتى الآن — حمل الباحثين على تجربة العقار الجديد ، في إصابات الجذام . فبين الداءين وجوه شبه كثيرة . إن سببهما كليهما جراثيم عصوية ، ومن لم يكن مدرباً على التفريق بين فصائل الجراثيم ربما تعذر عليه أن يفرق بين جراثيم الدرن وجراثيم الجذام . والمرضان كلاهما ، يقتلان المصاب قتلاً بطيئاً ولا يقضيان عليه بهجوم خاطف كما تفعل الجراثيم الستربتوكوكية . فقد يعيش المجذوم مجذوماً عشرين سنة أو ثلاثين . وقد ينزل الجذامُ بالمصاب العمى ، ويغطي جسمه بالقروح ثم ينتهي به المطاف إلى أن يموت بشيء آخر — كالالتهاب الرئوي .

وإذا كان السل مرضاً يحيط به الغموض ويحير الأطباء والباحثين ، فالجذام أشد غموضاً وتحييراً . وقد وصف منذ ستة آلاف سنة ، ومع ذلك فقليل ما يعرفه العلم عنه . وقد كشف

جرهارد هانسن الباحث النرويجي جرثومة الجذام سنة ١٨٧٤ ولكن جميع مساعي العلماء لاستحداث الجذام في حيوانات التجارب قد باءت بالخيبة .

وقد عمد فريق من الباحثين إلى محاولة استحداث الجذام في أبدانهم فحقنوهم بجراثيم الجذام . ولم تسفر جميع تجارب استحداث الجذام إلاّ عن حادثة واحدة أصيب فيها رجلٌ في جزائر هواي . وقد كان الرجل محكوماً عليه بالاعدام فتطوّع للتجربة ، وحقن في بدنه بجراثيم الجذام في سنة ١٨٨٤ فمات مجذوماً سنة ١٨٩٠ . ومع ذلك كان الشك يحوم حول صحة إصابتهِ فقد قضى حياتهُ كلّها يجاور المجذومين ويخالطهم ، ومن المحتمل أن المرض كان كامناً فيهِ قبل أن حاول الباحثون أن يستحدثوه في جسمه .

والتاريخ يحدثنا أن الجذام اكتسح أوربة في القرون الوسطى فكان في القارة الأوربية عشرون ألفاً من ملاجىء المجذومين . ثم زال المرض من أوربة ، ولكنه آخذ في الازدياد في البرازيل .

والمرض لا ينتقل بسهولة ، على خلاف ما يُظن . فاصابة الأطباء به بالعدوى في مستشفيات الجذام نادرة ، وتدلُّ الاحصاءات أن اثنتين من كل مائة من زوجات المجذومين أصيبتا بالجذام . ويكاد يوجد في كل مدينة كبيرة عدد من المجذومين يزاولون أعمالهم .

كان اعتماد الأطباءِ في علاج المجذومين ، على الراحة والطعام المغذّي ووقاية المصاب من الأذى . وإذا استثني زيت الشولموجرا — وهو زيت يستخرج من جوز شجرة هندية — فان الأطباء لا يملكون عقاراً ما لعلاج المرض ، ومع ذلك فالكثيرون يشكون في فائدة هذا الزيت

فلم يكن أمراً غريباً أن يسترعي عناية المعنيين بمسائل الجذام ، ما عرف عن فعل البرومين في المصابين بالسل ، وكان في طليعة الذين عنوا بهذا العقار ، جماعة الباحثين في مستشفى الجذام بمدينة كارفيل في ولاية لويزيانا الأميركية . فقرّر الدكتور « فاجت » أن يجرّب البرومين في طائفة من المرضى ، اعتماداً على ما بين السل والجذام من وجوه شبه .

فاختار عشرة مجذومين لهذه التجربة ، وأعطاهم جميعاً هذا العقار جرعاً . فرض معظمهم وأصيبوا بالغثيان والصداع ، وتفاقمت فيهم حالة فقر الدم . فقرر فاجت أن يعطيهم العقار حقناً في الوريد ، واختار لذلك اثنين وعشرين مصاباً .

ثم وضع خطتهُ : يعطى المرضى جرعات تختلف من جرام واحد الى خمسة جرامات كل يوم خلال أشهر . ثم تلي ذلك فترة أسبوعين ، يعفى فيها المصابون من الحقن بالعقار ثم

يستأنف العلاج . ويبلغ عدد فترات الراحة ثلاثاً في السنة . ولكي يدفع فقر الدم أعطى فاجت كلّ مصاب منهم طعاماً يحتوي على الكبد والحديد .

فأسفرت هذه التجربة عن نتائج تختلف كل الاختلاف عن نتائج التجربة السابقة . وقد ندر بين المصابين الذين أجريت عليهم هذه التجربة ، من أصيب بردّ فعل يذكر — نعم إنّ ثلثهم أصيب بالغثيان ولكنهُ كان خفيفاً وعابراً . على أن المصابين الذين حقنوا بهذا العقار ، لم يستجيبوا استجابة سريعة تستوقف النظر ، ولكنّ البقع النحاسية على جلدهم — وهي علامة الجذام — بدأت تتحسن رويداً رويداً ، وأخذ الجلد يستردّ حالتهُ السوية ، وشفيت القروح الفاغرة ، وتحسنت الالتصاقات الجذامية في العين ، بعد أن كانت تهددها بالعمى ، وقل تورّم الالتصاقات التي في المسالك الأنفية والحلق ، وهي التي تحدث الاختناق ، واندملت القرح التي في اللسان والشفتين وسقف الحلق .

وتتلخص التجربة التي أجريت على اثنين وعشرين مجذوماً في أن خمسة عشر منهم تحسنت حالهم تحسناً لا ريب فيه . وظل ستة على حالهم . وساءت حالة واحد منهم . ويرى الدكتور فاجت أن هذه التجربة أحفل بالأمل من جميع التجارب التي أجريت على الاطلاق .

***

ومجمل القول الآن أن عقار البرومين والعقاقير التي على شاكلتهِ ليست حلاً نهائيًّا لمشكلتي السلّ والجذام . فهذه العقاقير يلازمها فعل سام خفيف وليست نوعيةً تماماً ، وكل علاج بها يحتاج إلى جرعات كبيرة منها للظفر بنتائج طيبة . وقد بلغ ما حقنت به أوردة بعض المصابين الذين عالجهم الدكتور فاجت ، خمسة أرطال .

فلا يجوز أن يذهب أحد ممن يقرأ هذا المقال إلى أن هذه العقاقير هي العلاج الناجع المطلوب فهي لا تباع الآن في الصيدليات ، وربما لن تباع في حالتها الحاضرة على الأقل .

ولكنّ العلماء الذين وفقوا إلى هذه العقاقير أشبه ما يكون بجماعة من الباحثين عن الذهب . فقد رفعوا التراب عن عرق من الذهب ، ولا يزال عليهم أن يستخرجوا الذهب المدفون في جوف الأرض . ولعلّ الدواء الساحر الذي يقضي على السلّ والجذام ، عند منعطف الطريق .

(نقل بتصرف يسير عن مجلة « خلاصة العلم »)

على الشفة ...

قصة

محمود تيمور

« تحية لصديقي اليوزباشي عبد المنعم
أبي السعود ضابط سجن سوهاج »

كان جالساً القرفصاء في حجرته الفردية من السجن ، معتمداً ذقنه بيديه ، رانياً إلى الحائط المعتم أمامه . ولم يكن له غير الحائط مجالاً للنظر ، فحجرته ليست كلها إلا أخوائط متشابهة ...

وذلك الظلام المخيم على كل شيء كان يراه شائعاً حوله ، ويحسه يغمر دخيلة نفسه . إنه الظلام الدائم العابس ، ذلك الزميل الوحيد الذي يلازمه ولا يريد له فراقاً .

لقد أمضى في هذه الحجرة أياماً لا يحصى لها عدداً ، ولم يكن يستطيع أن يميز بين ليلها ونهارها ، فقد كانت الحجرة متغلغلة في مبنى السجن ، كأنها هاربة تريد أن تلوذ بمكان سحيق تختفي فيه عن الأنظار !

ولا يذكر أنه رأى ما يسمونه ضوء الشمس ، وإن كان يذكر أن بصيصاً يدلف إليه حيناً بعد حين ، فلا يعرف : أبقية هي من أشعة الشمس استطاعت أن تفلت من بين الجدران والسدود ، أم فضلة هي من فضلات أضواء المصابيح الشحيحة في ذلك البناء الكئيب ؟

وذلك الصمت الثقيل . . . كان يتمثل في مخيلته كأنه كتل ضخمة من الحجارة تتراكم على كاهل ذلك المأوى الضيق الذي يحتويه . . . صمت متواصل يقطعه رنين أجراس السجن في فترات متباعدة ، فيترامى هذا الرنين إلى أذنه مضطرباً متخاذلاً ، مزّق بُعد الشقة أشلاءه ، فلا يبلغه إلا أصداء غامضة لا يدرك لها كنهاً ، حتى إنه ليتخيلها بعض وساوس نفسه الموحشة .

وقد اتخذت هاته الحجرة في ظلامها وصمتها وحوائطها المتشابهة الدائرة

حوله شكل بئر بعيدة المهوى ، كأنما انطبق فيها فلا منفذ لها ، وهو ملقى في قرارتها كأنه إحدى الهوام التي تأوي إلى جحورها في بطون المغاور والكهوف!

وأحس السجين ضغطاً يتكاثف على صدره ، واحتبست أنفاسه ، فراح يتلمس الهواء جاهداً ...

لقد أبرم القضاء منذ أيام حكمه فيه بالإعدام شنقاً... وسينفذ الحكم يوماً ما إن تراخى قليلاً فهو آتٍ لا ريب فيه . . . إنه ليذكر تلك اللحظة التي نطق فيها كبير القضاة بحكمه ، وقد تلقى هذا الحكم واقفاً شامخ الرأس بقامته المديدة، وجسمه الصلب المكتنز ، ووجهه المستدير المطهم ذي العينين التألقتين . . .

كان في قفص الاتهام والحراس حواليه ، وعيون الناس في قاعة المحكمة تنتهبه بنظرات التفحص والفضول ... وإنه لواثق أنه استقبل ذلك الحكم بجأش رابط وقلب جسور . ولم لا يكون كذلك وهو يشعر شعوراً قوياً ، في تلك اللحظة التي سمع فيها الحكم عليه ، بأنهُ كائن موجود لم يمس بسوء ، ويرى الناس حياله أحياء مثله يستمتع بما يستمتعون به من مجالي الحياة ، فقاعة المحكمة أمامه رحبة تزخر بالنور والهواء والضجة . . . لم يتغير شيء ، ما زال على حاله حيًّا يتحرك ويتنفّس ويستطيع أن يتكلم وأن يبتسم ، بل يستطيع أن يضحك وأن يقهقه إذا أراد ... لقد صدر عليه حكم الإعدام ، ولكن أين منهُ ساعة التنفيذ ؟ كل جارحة من جوارحه تكذب أن حكم الإعدام نافذ فيه . . . وتهيأ وقتئذ ليتحرك حتى يثبت لنفسه أنه يمتلىء قوة وفتوة ، وأنه جياش القلب بحرارة الحياة ، فلم يلبث أن أحس رعشة تتمشى في أوصاله فتوهن ساقيه ، وهمّ بأن يبتسم فأحس بعضلات وجهه تتقلّص كمن أجهش بالبكاء ، أما الضحكة التي أزمع إطلاقها فقد ألفاها ترتدّ إلى حلقه متخاذلة . وأحب أن يتكلم بصوته الجهوريّ الحاد ، شأنه فيما اعتاد من مناقشة وحوار ، وأن يقول : ليس في طوق أحد أن ينالني بضر . فإذا بشفتيه تجمجمان بنغمة مختنقة قائلاً :

ما قتلت إلاَّ منتقماً لشرفي ! ... ربنا عادل ... الأمر لله ...

وعجب لما أدركه من ضعف ، أليس هو الشيخ عبد المتجلّي عزيز قومه

وعميد بلدته في الصعيد ، رجل الدين والدنيا ، من أصاب من علم الشريعة قدراً ومن السلطان والتحكم نصيباً ، من استطاع أن يوفق في نظره بين روح التديّن وطابع الحياة ، ويستخلص منهما فلسفة فريدة له ، الرجل الذي أقام نفسه بسطوة شخصيته ونفوذ جاهه حاكماً مهيب الرأي مخشيّ الجانب ، يفصل في المنازعات وينزل العقوبات بأصحابها دون ن يردّ له أمر أو نهي ...

إنه ليعرف الحق والعدل أكثر من أولئك الحكام والقضاة الذين نصبتهم الدولة يقرون الأمن والنظام . إنه يحكم بقلبه وضميره ، أما أولئك فيحكمون بمنطق القوانين المصنوعة . إنه وحده القانون والقاضي والمحامي . وهو في ذلك كله عادل في قسوته ، حكيمٌ في شدته . إذا اعتقد أن المتهم جانٍ فهو جانٍ ما من ذلك بدّ . إنه لشديد الاعتداد ببصيرته النافذة التي لا تخطىء ، فليس هو بمفتقر إلى شهود نفي أو إثبات ، وإلى مرافعة أو دفاع ؛ بل إنه في أغلب الأحيان ليس في حاجة إلى أن يستنطق المتهمين أو يستدرجهم إلى اعتراف . وكان في أسلوب قضائه يقرر ما يراه وينفذه في آن ، لا تعقيب لحكمه ولا استئناف .

وقد جرى على تلك الخطة لمّا أسرّ إليه أحد أعوانه « سعداوي » أن « ستيتة » حقّ عليها العقاب ، إذ فرطت في شرفها وخاضت في حديثها ألسنة الناس . وكان النبأ شديد الوقع عليه ، فإن « ستيتة » شقيقته الباقية من إخوته الراحلين ، وهو لذلك يحمل لها كبيراً من الحب والإعزاز . . . وبعد أن استيقن من « سعداوي » أن الأمر جدّ لا يحتمل التأويل أحس على الفور حميّة الشرف تهب أعاصيرها بين جوانحه، فأقسم أن يثأر للشرف المثلوم، وأن يغسل ما لحقه من عار . وما عتم أن أصدر في دخيلة نفسه حكمه الفاصل على شقيقته وعلى شريكها في الإثم ، ولم يبح بما تمّ في محكمة نفسه لأحد .

أما التنفيذ فقد جرى على أهون سبيل، ترصد لغريمه المتهم بهتك عرض أخته وراء أكمة في منطقة غير مأهولة ، وما إن رآه في الطريق آيباً إلى البلدة قبيل الغروب حتى رماه بطلق ناري وهو يغمغم : هذا جزاء الفاسق الأثيم !

وفي منتصف الليل دلف إلى مخدع أخته «ستيتة» وهي مغرقة في سبات، فلم يزعجها بإيقاظ ، بل أخذ رأسها توّا وأعمل السكين المسنونة في رقبتها فغارت في أوداجها حتى كاد يهوي الرأس عن الجسد، وهو يهمهم : الله أكبر !... فلتموتي أيتها الفاسقة

الأثيمة ! ... وترك الجثة تختلج اختلاجاتها الأخيرة ، والدم يشخب منها دفاقاً. ومضى يمسح السكين في قبائه، ثم ذهب فاغتسل وأوى إلى فراشه ونام ملء جفنيه .

إنه لا يذكر على وجه الدقة ماذا وقع بعد ذلك من أحداث ؟ تجمهر الأهلين ، هرج ومرج ، شرطة ورجال تحقيق ... ثم ألفى نفسه نزيل السجن . . . وترادفت الأيام ، وتوالت المشاهد ، وهو يتنقل بين محبسه ومكتب النيابة : شاهد يقسم ، ومحام يجادل في صيحة واحتداد ، ومحقق يضرب المكتب بكلتا يديه ، وحجاب يغدون ويروحون ، وشرطة يتراءون هنا وهنالك يهزون الأرض بأحذيتهم الضخمة ويقعقعون بأسلحتهم المرهوبة ... تشابكت في رأسه المشاهد ، واختلطت الأيام ، وتداخلت الحوادث ، وغشى ذلك كله ضباب متراكم ، ولكن صورة واحدة بين ألفاف هذه الصور الغامضة ظلّت ماثلة في مخيلته واضحة الملامح لا تبرح مكانها من رأسه ، تلك هي صورة « سعداوي » الذى سعى إليه بتهمة أخته ، وهو بين يدي المحقق يعترف أخيراً اعترافه الخطير الذي لم يكن في الحسبان . . . إن اعتراف هذا « السعداوي » ما زال يقرع سمعه بكلمات كأنها قذائف حامية صخابة ... لقد أدلى الرجل أمام المحقق بأن اتهامه القتيلين في شرفهما لم يكن إلاّ تبليغاً مكذوباً ، ووشاية مقصودة ، وأنهُ إنما عمد إلى هذه المكيدة منتقماً من الرجل القتيل لضغائن كمينة ، ومن « سكينة » لأنها حرمته ما كانت تجزله لهُ من عطاء ... إذن لقد وضح للشيخ عبد المتجلي أن جنايته المزدوجة لم تكن في موضعها ، لقد قتل نفسين بريئتين منساقاً بدافع وهم وخدعة، قتل أختاً عزيزة كريمة وصديقاً وفيًّا أميناً بلا جريرة كأنهُ يلهو ويعبث ...

وغضّ من بصره ، وجعل يقرض أظفاره بعنف ، حتى أدمي أنامله . وصعّد زفرات حرّى ... وسرعان ما لاحقه الريب : ليس بمعقول أن يقتل نفسين بغير حق . إن فراسته لم تخطيء مرة وبصيرته لم تكذبه يوماً ... ولكن ماذا يصنع أمام اعتراف ذلك «السعداوي» بأنه واش كذوب ؟!... وماذا يصنع بما أقنعه به محاميه من أنه قتل بلا موجب ، وأن شهادة الشهود وقرائن الحادث كشفت هذه الحقيقة ساطعة ناصعة ؟.

وغامت الدنيا أمام عينيه ، وازداد المكان تجهماً وحلوكة .

ورفع رأسه ، فاصطدم بصره بهذه الجدران الكالحة البغيضة ، جدران

البئر المظلمة التي لا منفذ لها ... وفتح عينيه جهد إمكانه ، وراح يحملق تائه النظر ... وتمثلت له اللحظة التي نطق فيها كبير القضاة بحكم الإعدام : إنه ليراه الآن أمامه جليّ الصورة ، واضح القسمات ، منكبًّا على أوراقه ، فاذا رفع رأسه تراءت عيناه الصغيرتان خلف نظارته وهو يركز بصره دائمًا في موضع ثابت لا يعدوه إلى منصة المحامين ولا إلى صفوف الجمهور ولا إلى قفص الاتهام ، كأنه لا يعنيه من هذا كله شيء . . . وكان ذلك القاضي لا يفتأ يتابع حركة يده إلى رأسه يخلع طربوشه ثم يعيده مكانه ، فتظهر صلعته ملتمعة وتختفي سريعاً ... وقد نطق بحكمه في صوت أخنّ ولهجة فاترة ، كأنه يتحدث إلى جارٍ له حديثاً تافهاً لا يثير الانتباه .

وبينما كان الشيخ عبد التجلي منسرح الفكر في هذه الأخيلة ، إذ انتفض في جلسته انتفاضة مباغتة ... كلا لن يشنق ولن يمسه أحد بضر ... لقد قتل من قتل ثأراً للشرف ... إن أخته وصمت اسمه بل اسم الأسرة بالعار ، فحقّ عليها القتل ... ولكن أيكون قتل من قتل بلا أناة ولا روية ؟ أينسى ساعة دنا منه « السعداوي » والتحقيق آخذ مجراه ، وانكبّ على يده يغسلها بدموعه ويستغفره ، ويردّد بصوت متحشرج : لقد خدعتك يا عبد المتجلى . لقد أثرت حفيظتك على بريئين . أختك طاهرة طهر الملائكة ، وصاحبك مخلص لم يخطر بباله أن يهتك لك ستراً ولا أن يلحق بك عاراً . عفوك عفوك .

وكان يصغي إلى استغفار هذا « السعداوي » ولا يلفظ من قول . إنه يسأل نفسه الآن : لماذا لم يُجبه حتى بكلمة واحدة يصب فيها عليه اللعنة ؟ لماذا لم ينقض على هذا الوغد ويصرعه بدفعة واحدة ؟ لماذا كان خاملاً كالمعتوه لم يحرك ساكناً ؟ إنهُ يذكر أن كل ما فعلهُ ساعتئذٍ أنه ازورّ ببصره عن « السعداوي » وهمهم : إن الله لا يظلم من عباده أحداً . . .

ثم طفرت من عينه دمعة فلم يمسها ، بل تركها تتهاوى على خده .

إنهُ ليذكر كيف خلا به محاميه بعد ذلك وجعل يتحدث إليه حديثاً مسهباً مستفيض الحواشي ، لم ترسخ منه في ذهنه إلاّ هذه الجملة التي ختم بها قوله : « ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان مهما يكن من أمر يا شيخ

عبد المتجلي . الحاكم هو الله ! » . . . وانصرف عنه المحامي ، وعاد هو إلى تلك البئر في حلوكتها وصمتها المرهوب ، وظلت هذه الجملة ترن أصداؤها المفزعة في حنايا نفسه ... لقد أحسّ بها تأخذ عليه سبيل تفكيره ، بل تلهب رأسه وتسري في أوصاله تخزه وخز الإبر !

وألفى لسانه يردّد وهو مطأطىء الراس : ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله ! واعترته بغتة نوبة بكاء حادّ ، وتمادى في نشيجه وهو يشعر أن ليس لهذا البكاء من آخر . ثم أدرك أنه لا يجمل به أن يبكي ، قد يمر على مقربة منه أحد الحراس فيسمعهُ ، فليكفكف دمعه ، وليكبح ثائرة نفسه ...

ورفع بصره وجمجم : إنما الحاكم هو الله ! أيكون في سوابق أحكامه على الناس قد وقع في مثل هذا الخطأ الذي وقع فيه ؟ وإذا فرض أنه كان عادلاً في أقضيته لم يحد عن جادة الحق مرة ، فمن الذي نصبه قاضياً يتحكم في شؤون العباد ؟ وأولئك الذين أدانهم من أهل بلدته على فرض أنهم قد اقترفوا حقّاً جرائمهم التي اتهموا بها وتصدّى هو للفصل فيها ، أليس لهم من ملابسات حياتهم ودوافع عيشهم وحدود تفكيرهم ما يزجّ بهم في مزالق الجريمة دون أن يستطيعوا لها ردّاً ؟ أينسى كيف حكم بالجلد على سارق لأنهُ تسلل إلى أحد البيوت فاستولى على جانب من الذرة ، وتبين بعد ذلك أن هذا السارق لم يقدم على فعلته إلاَّ ليطعم بنيه الجياع ؟ . ولماذا يذهب في التفكير بعيداً ، وها هو ذا قد قتل متوهماً أنه يؤدي واجباً لا قِبَلَ له بالتغاضي عنهُ ، فهو في حساب نفسه بريء شريف الغرض ، ولكنه في حساب العدالة مجرم يستأهل أقصى عقاب . . . إن أي رجل لو كان في مكانه ، وحاطت به هذه الملابسات ، وكان صاحب كرامة وحمية ، لما تردّد في أن يفعل ما فعل ويقتل من قتل : المأمور الذي قبض عليه ، ووكيل النيابة الذي حقق معه وأدانه ، والقاضي الذي أصدر حكمه فيه ، هؤلاء جميعاً لو وقفوا موقفه من هذه الحادثة لما تردّدوا في أن يرتكبوا جريمته !

ليس لأحد أن يقاضيه ، ليس لأحد أن ينفذ فيه حكماً ، ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله ، الله وحده هو الذي

يقدر على الإنسان ما كسبت يداه من خير أو شر ، فما يجوز لنا أن نجادل فيما اقتضت حكمته أن يكون . هي إرادة علوية تتصرّف فينا منذ الأزل، فليدع البشر حكم السماء للسماء !

واعتمد الشيخ عبد المتجلي رأسه بيديه ، وما لبث أن راح في سبات لا يدري أطال به أم قصر ، ثم رفع رأسه ودار بنظره مستطلعاً حوله وقد قامت بنفسه رغبة في أن يتبين : في أي وقت هو ؟ أفي مهبط الأصيل أم في مطلع الفجر ؟ ليس من شيء حولهُ إلاّ الصمت والظلام . . . وأحسّ بالوقت يمر بهِ الهوينى ثقيل الخطا ، وشعر بأن تفكيره قد تعطلت حركته وجمد ... لقد أضحى لا يفكر في شيء على الإطلاق !

وانتابه شعور مفاجيء غريب ، شعور غامض لم يعرف كنهه يتوثب من أعماق قلبه متلمساً له منفذاً ... وتكاثف هذا الشعور ، وازدحمت طبقاته يدفع بعضها بعضاً ، تريد الانطلاق ... وألقي في روعه أن الوقت الذي هو فيه إنما هو طلائع الصباح . وتأكد له هذا الحدس ، أنفحة من هواء رطب لامست وجهه هي التي ألقت في روعه هذا الشعور ، أم بصيرته هي التي أوحت بذلك إليه ؟

الشمس الآن في طفولتها تتهادى على بساط الأفق بسامة تنثر الضياء وتشيع النشاط والحركة في رحاب الكون ، وهل نسي قط تلك الساعة الرائعة في قريته ؟ لقد طالما استقبلته بواكير النهار في منصرفه من المسجد وهو ينقل حبات المسبحة بين أصابعه مردداً الأدعية والابتهالات التي ألف أن يختم بها صلاة الصبح ، ولقد طالما حياه نسيم السحر وهو على المصطبة الفسيحة أمام داره بسطت عليها مفارش صوفية زاهية الألوان ، وقد جلس يقرأ بعض كتب الشريعة والسِّيَر متذوّقاً مستمتعاً بما تُهْدِي إليه من غذاء روحيّ ورضاً نفسيّ ! ...

على هذه المصطبة نعم حيناً من الدهر بصحبة صديقه المتهم بتدنيس شرف أخته ، قضى مع هذا الصديق أوقاتاً كلها مؤانسة وصفاء ، وبادله أحاديث كلها مؤازرة وتعاون ، وكانت نهاية هذه الصداقة أن سدد إليه طلقاً ناريًّا أرداه قتيلا . وأمام هذه المصطبة تمتد الساحة الرحبة التي كانت تزخر بطلاب الحاجات ومن يفزعون إليه يطلبون قضاءه في المنازعات . كان يقضي

في هذا المكان شطر نهاره ، يتناول فيه الطعام الذي تعده أخته له بارع الطهي مختلف الألوان شهيًّا .

أخته !.. وتراءت له السكين المخضبة، وهو يمسحها في قبائه، ورأس القتيلة يتسايل منه الدم غزيراً ... أبريئة هي حقًّا ؟ لقد اعترف « السعداوي » بأنهُ كان أفَّاكاً مخادعاً فيما رماها به من تهمة العار ... وعلى فرض أنها ليست بريئة ، أفكان له أن يحاكمها وأن يحكم عليها ؟ ... إن للكون خفايا وأسراراً لا يسوغ للبشر أن يحاولوا كشف الغطاء عنها ... الله هو العالم بالنيات والسرائر ، فلهُ وحده الحكم ، وإليه يُرجع الأمر كله !

وخيل إليه أنه يسمع شيئاً : أحركة هي أم صوت ؟ أرهف أذنيه ، وأحدّ من بصره . إن الوقت صباح حتماً ... وفاجأته رعشة ، لقد حدث أنه سمع قبل ذلك أصواتاً وحركات في مختلف الأوقات ، ولكن جسمهُ لم يكن يختلج لها أية اختلاجة ، ففيم هذه الرعشة الطارئة ؟ إنه يصغي في اهتمام ... لا ريب أن هناك حركة وهمهمة : أمن الدهليز صادرة أم من تلك الكوّة الضيقة التي عجزت عن أن تأذن للضوء أن يرسل بصيصه ؟ ... إنها أصوات ... إنه وقع أقدام .. وأحسّ بقشعريرة تسري في جسده ، ووجد نفسه كأنما تحوّل كله آذاناً صاغية . أحُرّاس إليه بالطعام قادمون ؟ أم ... أم ...

وتسمَّرت عيناه نحو الباب يرقبه .

وتعاقبت لحظات ، ثم فتح الباب إلى آخره ، وظهر مأمور السجن والطبيب وشرذمة من رجال الشرطة ، وتقدموا إليه على مهل ... وخُيِّلَ إليه أن حديثاً يوجّه إليه ، وفطن إلى أن صدره يعلو ويهبط متلاحق الحركة ، ووضع أمامه أحد الحرّاس فطوره ، إنه أجود فطور وقعت عليه عيناه منذ حلّ في السجن ... ووجد يده تمتد في تباطؤ وتصيب من الطعام لقيمة ، وأحسّ بها تضطرب في يده حتى كادت تسقط ، ولكنه استطاع أن يضبط أنامله ، وأن يلقي باللقيمة بين شدقيه ... لقيمة واحدة لم يتناول سواها ، أردفها بجرعة ماء ، ثم قال بصوت خافض منقطع النبرات : الحمد لله !

ومسح فمه بظهر يده ، وردّد في صوت أجهر من ذي قبل :

الحمد لله على نعمتك يارب ...

وإذا به ينهض من تلقاء نفسه ، وألفى الجمع يتأهبون للخروج ، وقد عقدت ثلة الحرّاس حوله نطاقاً ، وساروا جميعا ...

كان ممتقع الوجه ، بارد الأطراف ، خفاق القلب ، ولكنه على الرغم من ذلك كله يكسوه ظل من السكينة والهدوء . وشاعت على محياه بسمة غامضة : أبسمة أسى هي أم بسمة تهكم ؟ وكان لا ينفكّ يردد :

الحمد لله على نعمتك يا رب !

وسار في الدهليز تغمره لجة من تفكير متقلب عميق . إنه مقبل على رحلة طويلة مبهمة ، بيد أنه على يقين من رحمة الله ، إن الله واسع المغفرة تواب . من هو الشيخ عبد التجلي بالنسبة لعظمة الخالق ؟ إنه لأهون من جناح بعوضة . الناس تجازي الناس سوءًا بسوء وإحسانا بإحسان ، أما الله جل شأنه فإنه لن يقابل الذنب إلاّ بالعفو والرضوان .

وسيق إلى حجرة لا تختلف عن سائر حجر السجن إلاّ بهذه المنصة الصغيرة التي تدلّت عليها من السقف أحبُولة مفتولة ... أتكون المشنقة ؟ ليست كما يتوهم الناس مرهوبة مفزعة ، ليس فيها ما يبعث على العجب ، إنها لأشبه بأرجوحة الصبيان في القرية

وتجمع إحساسه حول نفسه ، وتعمق في دخيلتها ، فلم يعد يشعر بما حوله ولا بمن معه . لقد أصبح نائياً عن المحيط الذي هو فيه بجثمانه . وكانت شفتاه تختلجان بالدعوات سريعة مختلطة ...

وخيل إلى الشيخ عبد التجلّي أنه يسمع من بعيد صوتاً يتلو أسباب الحكم عليه . وأبصر خلف الضباب الذي كان يغشى عينيه شبحاً يدنو منه ويأخذ بكتفيه ، فألفى نفسه يدفعه عنه . ووجد قدميه تخطوان نحو المنصة ...

وفي هذه اللحظة طرق سمعه صوت قائل : ألا تشتهي شيئاً ؟ بماذا توصي ؟ وأحسّ يداً تدير الأحبولة حول عنقه ، فأجاب بصوت بيّن :

إني بريء ... كانا أبرياء .. الله وحده هو الذي يملك الحكم على عباده !

على هامش الطب

بعض ما يجب أن يعرفه الانسان عن جسمه و نفسه
في صحته ومرضه

للدكتور سليمان عزمي باشا

أكتب بهذا الأسلوب للمثقفين من الأطباء وغير الأطباء موضوعات تلتقي فيها المعلومات الطبية المبسطة بالمعلومات العامة وببعض ما له اتصال بشؤون الحياة الاجتماعية والنفسية والجسمية والخلقية وغيرها . ولعلي أوفق للوصول إلى الغاية التي أرمي إليها، لأني أشعر بحاجة الجمهور إلى ما يفيده من المعلومات الطبية المبسطة ليحافظ على صحته ويساعد طبيبه على العناية به إذا ما مرض .

وقد ابتعدت عما يشوش الذهن ويلقي الوساوس في النفوس، وتجنبت مناقشة الموضوعات التي لم يبت فيها ، مكتفياً بما اتفقت عليه الآراء واعتمده جميع الأطباء والباحثين .

حرارة الجسم

• كلنا يلاحظ أن للإنسان حرارة يشعر بها عند ملامسة جسمه أو ملابسه الملتصقة بجسمه بعد خلعها أو مرقده على الفراش بعد تركه — فما هي هذه الحرارة ؟ وكيف تتولد ؟ ومن أين مصدرها ؟ وكيف توزع على أجزاء الجسم ؟ وكيف تتصرف ؟ هذا ما سنعالجه .

أصبح من المعلومات العامة أن حرارة الانسان الطبيعية normal هي حول ٣٧ درجة بالترمومتر المئوي . وهي حرارة شبه ثابتة . فقد تنقص أو تزيد بمقدار لا يتجاوز بضعة أشراط ، ومعلوم أن كل درجة من الترمومتر المئوي مقسمة عشرة أشراط .

• تنخفض هذه الحرارة بضعة أشراط وقت الجوع وأثناء النوم، وتزيد قليلاً على معدلها أثناء عملية الهضم ، وبعد مجهود عضلي شديد . وتتغير الحرارة على حسب أوقات الليل والنهار، فبعد منتصف الليل بين الساعة ٣ صباحاً والساعة ٥ صباحاً تكون في أدنى درجاتها إذ قد تصل إلى ٣٦ $\frac{٤}{١٠}$ أو أقل قليلاً ، وبعد الظهر في نحو الساعة ٥ تكون في أعلى درجاتها إذ قد تصل إلى ٣٧ $\frac{١}{٢}$ أو أقل قليلاً ، ثم تنخفض تدريجيًا وهكذا . وقد تنعكس الآية فتزيد الحرارة في الليل وتنخفض في النهار في حدود هذا التغير البسيط عند من يسهرون

ويعملون في الليل ، ويستريحون وينامون بالنهار . وعلى أي حال لا تتجاوز هذه الفروق زيادة أو نقصاً عن بضعة أشراط، وإن نقصت أكثر من درجة أو زادت أكثر من درجة عُدَّ ذلك غير طبيعي ووجب البحث عن سببه .

• أدنى حرارة وصل إليها جسم الانسان — كما يحصل حينما يطمر في الثلوج — واستعاد بعدها صحته وقوته وحيويته بوسائل التدفئة والعلاج ، هي درجة ٢٤ مئوية وهذا نادر .

• يجب أن نشير إلى أن الحرارة في الحالة الطبيعية فضلاً عن أنها تتغير قليلاً في فترات الليل والنهار وأثناء الهضم—وبُعد المجهود العضلي كالألعاب الرياضية والجري والسفر الشاق وما شابه ذلك — ليست على وتيرة واحدة عند كل الأفراد . وإذا اتخذنا درجة ٣٧ حرارة طبيعية فذلك على حسب المشاهد بين ٨٠و٩٠ في المئة من الأشخاص— فبعض الأفراد حرارتهم العادية ٣٦ دون أي عارض . وتزيد بضعة خطوط وتنخفض بضعة خطوط تبعاً للملابسات التي ذكرناها . وتعد عندهم درجة ٣٧½ ازدياداً غير طبيعي في حرارتهم . كما أننا نلاحظ في أفراد آخرين أن حرارتهم الطبيعية ٣٧½ دون أي عارض ، وهي تزيد أو تنخفض بضعة خطوط تبعاً للملابسات التي ذكرناها، فعند هؤلاء لا تُعدّ درجة ٣٨ ازدياداً غير طبيعي ، بل تعد درجة ٣٦ نقصاً غير طبيعي يجب البحث عن سببه .

• هذا الشذوذ يوجب على كل إنسان أن يعرف معدل حرارته الشخصية ليخبر بها طبيبه إذا ما مرض . ولتبين معدل الحرارة تؤخذ في فترات مختلفة بضعة أيام في الصيف وبضعة أيام في الشتاء مرة واحدة كل عشر سنوات ، أو في فترات التغيرات الطبيعية عند الإنسان أي في سن الطفولة قبل الخامسة وبعد الخامسة وفي سن البلوغ وفي سن الرجولة وفي سن الشيخوخة — والساعات التي تؤخذ فيها الحرارة لهذا الغرض هي الساعة ٨ صباحاً والساعة ١٢ الظهر والساعة ٤ بعد الظهر والساعة ٨ مساءً والساعة ١٢ نصف الليل . وهذا مهم أثناء المرض ليقدر الطبيب ذلك العامل الشخصي عند تشخيص المرض وعلاجه.

***

• الحيوان على حسب حرارته نوعان : الأول ذو الدم الحار كالانسان والقردة والخيل والحمير ، والثاني ذو الدم البارد كالزواحف والسمك والبرمائيات .

فالإنسان وغيره من ذوي الدم الحار لا تتغير حرارته بحسب الجو المحيط به إلاَّ مدة قصيرة، فلا تزيد بمجرد الحر ولا تقل بمجرد البرد إلاّ درجة خفيفة مدة قصيرة، وإن زادت أو نقصت كثيراً دخلت البنية في دور مرضي، خصوصاً إذا استمرت الزيادة أو النقص فترة

طويلة . والإنسان في ذلك كغيره من الحيوانات كالكلاب والقططة والقردة والغنم والخيل والحمير ، وكل الحيوانات الثديية والطيور غيرها تعد حرارتها ثابتة لا تتغير بحسب الجو المحيط بها . وتسمى ذوات الدم الحار لتميزها عن غيرها من الحيوانات ذوات الحرارة المتغيرة على حسب البيئة التي تعيش فيها، فإن كانت حرارة هذه البيئة ٣٠ كانت حرارتها ٣٠ وإن كانت ١٠ كانت حرارتها ١٠ وهكذا . وتسمى هذه الحيوانات ذوات الدم البارد مثل الزواحف كالثعابين والسحالي وما شابهها والسمك والبرمائيات وكثير من الحشرات . والدم هو الذي يوزع الحرارة على جميع أجزاء الجسم في كلا النوعين حتى تكون الحرارة متقاربة في كل الأعضاء.

***

• أجنة الحيوانات الثديية داخل الرحم تتبع حرارتها حرارة جسم الأم . ويلاحظ أن الحيوانات التي ترقد وتعتكف في الشتاء hibernating . وإن كان بعضها من ذوات الدم الحار تتغير حرارتها على حسب مقتضيات حرارة البيئة التي تعيش فيها مدة سباتها الاعتكافي في الشتاء .

• ثمة ظاهرة عند الحيوانات ذوات الدم الحار ، وهي أن حرارة الجلد أقل قليلاً منها في الفم الذي تقل حرارته عن الأمعاء ، وهذه حرارتها أقل قليلاً من الدم الذي تقل حرارته عن الكبد ، ولكن كل هذه الفوارق لا تتجاوز بضعة أشراط . وحرارة الجلد تسمى حرارة سطحية ، وحرارة الأمعاء تعد داخلية .

قلنا إن الحيوانات ذوات الدم الحار ثابتة الحرارة، والسبب أن لديها وظيفة خاصة تكيف بها الحرارة في تولدها وتصريفها حتى تحافظ البنية على ثبات حرارتها بعملية فزيولوجية لا بد لفهمها من ذكر بعض معلومات تمهيدية .

• لاحظ كل من اشتغل في معمل الكيمياء أنه عند ما يجري بعض تجاربه الكيميائية ويضع محلولاً على محلول آخر يحدث بينهما تفاعل كيميائي ، وقد يحدث هذا التفاعل تغييراً في حرارة المخلوط نشعر به حينما نلمس أنبوبة الاختبار . وجسمنا معمل كيميائي معقد تحدث داخله تفاعلات كيميائية كثيرة بعضها يولد الحرارة وبعضها يصرفها .

وحديث التفاعلات الكيميائية يذكرنا ببعض ما عرفنا من احتياج الخلايا للأوكسيجين والتخلص من ثاني أوكسيد الكربون ، إذ يحدث ما يسمى التأكسد oxidation . ونرى أن استهلاك الأعضاء والأنسجة والخلايا للأوكسيجين وتخلصها من غاز ثاني أوكسيد الكربونيك وغيره من الفضلات يزيد كلما زاد عمل العضو ، ومن نتيجة هذه العملية تتولد

الحرارة . وهي عملية تشبه عملية الاحتراق لأن أنسجتنا تستهلك الاوكسيجين الذي يتحد مع المواد السكرية والدهنية، ويحدث تفاعل أو شبه احتراق تكون نتيجته خروج غاز ثاني أوكسيد الكربون . وتنتج حرارة من هذا التفاعل .

• كما أننا إذا أوقدنا ناراً ووضعنا عليها وقوداً أوفر زاد شبوبها ولهبها وكثر دخانها واستهلكت أوكسيجيناً أكثر من الهواء لمساعدة الاحتراق،كذلك يلاحظ أن أعضاء الجسم تحدث حرارة أكثر عند ما تعمل باجهاد أثناء تأدية وظيفتها وتحدث حرارة أقل عند ما تعمل ببطء أثناء تأدية هذه الوظيفة . وتقل حرارتها التي تحدثها جداً حينما تكون ساكنة لا تعمل .

• أهم عضو في توليد الحرارة الجسمية هو العضلات ، ووزنها يساوي تقريباً نصف وزن الجسم ، فيجب أن تكون الحرارة التي تولدها مساوية لنصف حرارته . وقد شوهد بالاختبارات الفزيولوجية أن عمل العضلات يسبب ازدياد الحرارة درجة أو درجتين عن الحرارة الطبيعية ، وتتولد هذه الزيادة من ازدياد عملية تأكسد المواد الغذائية بعد امتصاصها والتي يحملها الدم إلى العضلات فتستسيغها وتتصرف فيها . وقد يتولد بعض الحرارة من العمليات الفزيولوجية في الكبد والأمعاء والغدد وغيرها من الأنسجة ، ولكن إذا وازنا بين العضلات وبين بقية أعضاء الجسم باعتبار كل منها مصدراً للحرارة فإن النسبة الكبرى من حرارة الجسم تولدها العضلات ، ويعد مصدرها من الأعضاء الأخرى تافهاً قليل الأهمية .

• زد على ذلك أن العضلات وهي ساكنة بدون إجهاد ولا حركة لها عمل وقوة خاصة tone لحفظ مفاصل الجسم في مواضعها، وحفظ شكل الإنسان وقوامه وتوازنه ، وهذه القوة الخاصة tone وحدها تولد حرارة . وإذا ما فقدت العضلات هذه الخاصّة بأن أصيبت بالشلل أو حدث فيها ارتخاء ، قلّ تولد الحرارة منها ، وهذا ما يشاهد في بعض الأمراض الناهكة للقوى، إذ ترى بنية منهوكي القوى والطاعنين في السن إذا ما أصيبوا بمرض حُمّوِيّ تكون زيادة الحرارة عندهم بسيطة جداً بالنسبة لما يجب أن تكون عليه عند الأقوياء ، وهي علامة سيئة لا يطمئن إليها الأطباء، وتسمى هذه الحالة «حمى بدون حرارة» apyrexial fever.

• إذا استمرت الحرارة في التولد بواسطة العضلات وغيرها وجب أن تستمر حرارة البنية في الازدياد . ولذا أوجدت الطبيعة وظيفة أخرى فزيولوجية لتصريف الحرارة من الجسم لفقدها حتى تعتدل وتكون ثابتة ، والأعضاء التي تؤدي وظيفة « تصريف الحرارة » هي الجلد بالعرق وغيره ، والرئة مع التنفس ، والكلى بواسطة البول ، والأمعاء بواسطة التبرز ، بالوسائل المختلفة التي سنشرحها . وأول هذه الأعضاء أهمية في تصريف الحرارة هي

الكلى والأمعاء . وانتظام وظيفة توليد الحرارة ووظيفة تصرفها يسمى اصطلاحيًّا «تكيف البنية لحفظ حرارتها ثابتة » .

• العضلات إذاً هي وسيلة الحركة البدنية ومولدة الحرارة . والجلد هو غطاء الجسد الخارجي وله وظائف كثيرة أهمها تصريف الحرارة . وهو عضو من أعضاء الجسم الرئيسية له جملة وظائف هامة ، لا مجرد غطاء . وتستمد العضلات موردها لتوليد الحرارة من المواد الغذائية التي تأكلها ، ولكل نوع من أنواع الطعام مقدرة على إعطاء وحدة حرارية أو طاقة حرارية (سُعْر calory) خاصة به تستعين العضلات بها لتتولد منها الحرارة أثناء عملية التبادل الغذائي metabolisme في أنسجتها ، بأن تأخذ الأوكسيجين وتعطي غاز ثاني أوكسيد الكربون . ووحدة الحرارة (سعر calory) هي مقدار الحرارة الكافي لرفع حرارة لتر واحد من الماء درجة مئوية واحدة من الحرارة .

ويعد الرجل المعتدل في جسمه وعمله محتاجاً لمواد غذائية تعطي ٣٠٠٠ وحدة حرارية في أربع وعشرين ساعة يحصل عليها من الطعام الذي يأكله فيُهضم في الجهاز الهضمي ثم يمتص في الأمعاء ويسير في الدم إلى القلب فيوزعه على أعضاء الجسم المختلفة . وعندما تستسيغهُ خلايا الجسم ويحصل التفاعل تتولد الحرارة اللازمة . والدم هو الذي يوزع الحرارة على كل أعضاء الجسم كما ذكرنا آنفاً .

• أجريت جملة تجارب فزيولوجية لمعرفة ما يصرفه الجسم من وحدات الحرارة، ولتقديره أثناء الراحة التامة والرقاد مدة ٢٤ ساعة ، فوجد أنه تلزم وحدة حرارة واحدة في الساعة الواحدة لكل كيلو جرام واحد من وزن الجسم . أي أن الرجل الذي وزنه ٧٠ كيلو يحتاج ١ × ٧٠ × ٢٤ = ١٦٨٠ سُعراً ليعوض بها ما يفقده جسمه منها . ويحصل عليها من غذائه . فالطعام هو الواهب والمنبه لانتاج الحرارة ، وأعضاء الجسم وأهمها العضلات هي التي تولدها مما يصل إليها من المواد الغذائية بعد هضمها وامتصاصها .

• المواد الغذائيـة هي المواد الزلالية proteines والمواد الدهنية fats والمواد النشوية carbohydrates . والمتفق عليه بعد عدة تجارب أن كل جرام من المواد الزلالية يعطى من وحدة الحرارة ٤٫١ ، وكل جرام من المواد الدهنية يعطى ٩٫٣ ، وكل جرام من المواد النشوية يعطى ٤٫١ .

• المواد الزلالية هي أهم المواد الغذائية التي يستمد منها الجسم حرارته ، ولذا نرى أن الإنسان يميل بغريزته لأكلها مدة الشتاء لاحتياجه لحرارة جسمية لمقاومة البرد في الشتاء

أكثر من الصيف ، حقاً إن المواد الدهنية تعطي وحدات حرارة أكثر ، ولكن زيادة الأكل منها تحدث اضطرابات في المعدة . وسكان البلاد الباردة على وجه العموم أغلب طعامهم اللحوم والمفضل من اللحوم والسمك والمواد الدهنية . وعندنا في مصر يقول العامل : أشتغل لأحصل على الخبز والملح ، أما في أوربة فيقول : أشتغل لأحصل على الخبز والزبدة !

• كلنا يلاحظ كثرة العرق في الصيف وقلته في الشتاء ، والسبب في ذلك أن الجسم محتاج لفقد حرارته حتى لا تزيد من شدة الحر ، لأن العرق يتبخر والتبخر يمتص الحرارة فتقل حرارة الجسم ولا تزيد على حسب حرارة الجو الموجودة فيه . ويلاحظ أن أوعية الجلد الشعرية تتسع فيحمر الجلد فيمر الدم في هذه الأوعية بغزارة، لكي تساعد على كثرة العرق وتلطيف الحرارة . وأما في الشتاء فيلاحظ انقباض الأوعية الشعرية وقلة العرق أو فقدانه لكي لا يفقد الجسم حرارته . ويلاحظ في الصيف أيضاً نشاط الرئة لكي تتلطف حرارة الجسم بالتبخر مع التنفس . وفي الشتاء يقل نشاط الرئة .

• من الأسئلة التي يسألنا إياها الجمهور : لماذا يقل البول في الصيف؟ بل لقد حضر عندي مرضى عصبيون يشكون قلة البول في أيام الحر ، والجواب سهل لأن العرق يكثر في الصيف ويتصرف الماء من الجسم بواسطته وبواسطة التنفس . ويكفي أن يضع المرء أمام فمه سطحاً مصقولاً مثل المرآة ويتنفس فيها ليرى قطرات البخار متجمعة على صفحتها .

وفي الشتاء يزيد البول لقلة العرق ولقلة ما يتصرف من البخار مع التنفس ، وإن كنا نشاهد البخار مع التنفس في الشتاء، وذلك راجع لبرودة الجو لا لكثرة التبخر في الشتاء .

وتقدر كمية العرق في مدة ٢٤ ساعة لشخص سليم وفي جو معتدل لا حار ولا بارد بنحو ٧٥٠ جراماً وتركيبها مبين في الجدول الآتي على وجه التقريب . ففي كل مئة جرام يوجد

٩٩	— جرام ماء
٤ .٪ جرام	— كلورور الصوديوم
٨ .و. جرام	— بولينا
آثار	— فسفات الصوديوم وكلورور البوتاسيوم وأحماض دهنية .

وفي الحالة الطبيعية وفي الجو المعتدل تفرز الكلى أكبر كمية من الماء الذي تفقده البنية، وجزء من هذا الماء يفقد من الرئة ومن الجلد ومع التبرز . وفي الجو البارد يزيد إفراز الكلى للماء وتزيد كمية البول إذ يقل العرق . وفي الجو الحار يكثر العرق ولذا تقل كمية الماء الذي تفرزه الكلى فتقل كمية البول .

• يعرق الإنسان في الجو المعتدل الحرارة ولكنه لا يشعر به لأن الملابس تمتصه ويتبخر، وأما في الصيف فإنه يشعر به لكثرته.

• إذا ما انتقل المرء من مكان بارد إلى مكان دافىء كيّف الجسم حرارته لكي تكون ثابتة بواسطة وسائله في زيادة توليد الحرارة ووسائله في زيادة تصريفها، والعكس بالعكس. وللوصول إلى انتظام وظيفة توليد الحرارة ووظيفة تصريفها وتعاونهما وانسجامهما في الجسم، يوجد في المخ مركز منظم للحرارة، ولم يحدد بعد مكانه بالضبط، ولكنه في أحد المواضع الآتية:

الجسم المخطط corpus striatum، أو المهد البصري ... أو الجزء أسفل المهد البصري hypothalamus.

ويعد هذا المركز الأعلى لتنظيم الحرارة، فهنالك مراكز مساعدة له في النخاع المستطيل، وهذه المراكز هي التي تنظم وتكيف الحرارة وفق حاجات البنية فتُنبِّه أعضاء توليد الحرارة لتزيد نشاطها فتعطي حرارة أكثر أو تهدئ وظيفتها لتعطي حرارة أقل، كما تنبه أعضاء تصريف الحرارة من الجسم وتنشطها فتصرف حرارة أكثر أو تهدئها ليكون فقد الحرارة أقل، ويتبع ذلك زيادة احتياج الانسان للطعام والماء أو نقص احتياجه.

• قلنا إن حركة العضلات وانقباضها تزيد حرارة الجسم، ولذا يحتاج الإنسان في الجو البارد لأن يجري تمرينات عضلية وألعاباً رياضية وسيلةً للتدفئة وتنشيط البنية. والملابس لا تزيد تولد الحرارة وإنما تحفظها من التبخر والتشعع بواسطة الجلد لكي لا يفقد المرء حرارة جسمه بسهولة، ومن يكثر من الملابس في الشتاء ويبقى جالساً في مكانه لا يكون جسمه نشيطاً لأن أعضاءه لا تعمل على إيجاد حرارة فيه. ويلاحظ في الشتاء أن المرء يكثر من الأغطية عند رقاده في الفراش لأن تولد الحرارة أثناء الراحة والنوم يكون أقل بكثير منه أثناء اليقظة والحركة، فيستعين الانسان بالتدثر للمحافظة على الحرارة. والملابس الصوفية لها هذه الخاصة أكثر من غيرها لضيق مسامها، ولذا تتخذ في البرد وكذا الفراء لكثرة وبرها. وأما ما يتخذ للباس من الأصناف الأخرى مثل الجلد فإنهُ يحفظ الحرارة أكثر لتماسك أجزائه وعدم وجود مسام فيه بعد دبغه، ويلاحظ في مصر أن بعض من يخشون البرد يضعون ورق الجرائد على صدورهم ويشعرون بدفء من ذلك، لأن الورق متماسك الأجزاء خال من المسام لا يتخلله الهواء، مثله كمثل الجلد المدبوغ.

• ويجب الاحتراس من كثرة الملابس لأنها تسبب الخمول وتسهل عند خلعها الإصابة

بالبرد كما أنها تعوق البنية عن المحافظة على حرارة الجسم بنشاطها وعملياتها الفزيولوجية ، ويحدث مثل هذا الضرر من كثرة التدفئة في الغرف ، وقلة الملابس لها عكس هذا الأثر إذا ما كانت في حد المعقول لكي لا تضر . وفي البلاد الحارة كبلادنا يجب ألاَّ تضيق الملابس بحيث تكثر العرق وتعوق تبخره .

والدجاجة ترقد على صغارها وتجمعها حولها لتدفئتها بحرارة جسمها إلى أن يخرج ريشها فتستغني به .

• ثمة مسألة هامة تحتاج إلى التنبيه ، وهي أنك في فصل البرد إذا دخلت منزلاً يجب أن تخلع رداءك الخارجي (المعطف) وتضعهُ في مكان غير بارد ، ومما يؤسف له أن أكثر الناس يضعون في منازلهم أماكن وضع الرداء بجوار الباب الخارجي ، أي في مكان بارد ، فعند ما يلبسها المرء وهو خارج من الغرفة يشعر ببرودتها وتضايقه هذه البرودة . فيحسن أن تخصص للمعاطف مكاناً غير مجاور للباب الخارجي . وعند خروجك من منزل في الشتاء لا تخرج بسرعة من حجرة دافئة إلى برد الشارع مباشرة ، بل يجب الخروج تدريجاً ، أي من حجرة دافئة إلى ردهة أقل منها دفئاً ، ثم تلبس رداءك وتخرج ، لكي لا تتأثر ببرد الشارع . ومن هنا تحسن السيدات صنعاً بكثرة الكلام وطول الحديث في الردهة قبل الخروج ، لأن هذه الفترة تمهد لأجسامهنَّ التكيف لاستقبال تغير الحرارة .

• وفي الصيف يستعين المرء بما يخفف الحرارة ، ومن ذلك قلة التغذية خصوصاً قلة المواد الزلالية والمواد الدهنية وتخفيف الملابس ، ونجد الطبيعة تساعدنا بكثرة العرق الذي بتبخره يمص الحرارة من الجسم فتقل ، وترى أوعية الجلد الشعرية تتسع فيغزر الدم فيها فيزيد العرق وتفقد الحرارة بواسطة التشعع أيضاً أكثر مما لو كانت الأوعية الشعرية منقبضة . ويلاحظ أن الكلاب يكثر نفسها ويسرع لغزارة الوبر على جسمها . وهذا التنفس الكثير السريع وسيلة من وسائل فقد الحرارة من الجسم بواسطة التبخر من اللسان والفم ومن الرئة ، وترى الكلاب في الصيف أيضاً تبحث عن مكان بارد مثل الرخام أو الحشائش وترقد عليها لفقد الحرارة بتوصيلها من جسمها إلى الأشياء الباردة ، لأن وبر جلدها يمنع تشعع الحرارة ويمنع فقدها بواسطة الجلد ، وليس عند الكلاب غدد عرق مهمة ، فالجلد عندها قليل الفائدة إذا نظرنا اليه من جهة تصريف الحرارة .

« يتبع »

أبو العلاء وبيئته

في أي شيء أطاعها وأي شيء عصاها؟

لادوار مرقص

من أعضاء المجمع العلمي العربي

كانت بيئة أبي العلاء بيئة تطاحن وتنازع له أول وليس له آخر في العقائد الدينية والمذاهب السياسية والنظريات الاجتماعية، وكان المسلمون منقسمين إلى فرق كثيرة قائمة في وجه أهل السنّة — وهم الفريق الأعظم والأشهر — فمن تلك الفرق الشيعة والمعتزلة والخوارج والقدرية والجبرية والمرجئة والمجسمة والظاهرية . مع أن الاسلام في عصرنا الحاضر منحصر في ثلاث فرق هي السنية والشيعة والوهابية .

وكان الخليفة العباسي السابع وهو المأمون ابن الخليفة هرون الرشيد علاّمة الخلفاء غير مدافع يطلق العنان لكل واحد من خواص رعيته في ميادين التفكير والبحث والاعتقاد بشأن الدين والعلم والفلسفة . فلما توفي وأسندت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله نهج منهجه في هذا الاطلاق وهذا التسامح ، ثم أفضت الخلافة إلى ابن المعتصم الواثق بالله، والمظنون أن منهجه في ذلك كان وسطاً بين الشدة واللين ، ثم أعقبه أخوه جعفر المتوكل على الله فشدد النكير والعقاب لكل من خالف أهل السنة منحرفاً نحو التعطيل أو الزندقة وكذلك كان شأن من جاءوا بعده من الخلفاء في التشديد والاستنكار . ومن ثمّ أصبح المفكرون بغير ما يرضي الدولة وسواد الأمة، يتسترون ويتحجبون . واتفق فريق من كبار المفكرين قبل نبوغ أبي العلاء بسبعين أو ثمانين سنة على آراء فلسفية لها تأثير عظيم في عقائد الدين ورسومه وألفوا في المرجعية منهم سموها جمعية إخوان الصفا وأصدروا على التوالي نيفاً وخمسين بحثاً هي المسماة في أدبنا العربي برسائل إخوان الصفا دسوها بين الناس بطرائق خفية وكانوا يزعمون أن الشريعة دنستها الجهالات لأنها أدخلت عليها ما ليس منها . وإنما يمكن إصلاحها وردها إلى الطهارة باستنجاد الفلسفة اليونانية بما لا يخالف جوهر الدين الاسلامي من هذه الفلسفة . وفي رسائلهم فندوا وعابوا أشياء كثيرة في السياسة . وقد وافقهم على آرائهم

ومذهبهم فريق من خاصة الناس وخالفهم فيه فريق آخر ، ولا غرو فان مطالبهم ومباحثهم العويصة من جهة الذات الالهية والقضاء والقدر والثواب والعقاب وقدم العالم وحدوثه وما جاور هذه الموضوعات كانت وما زالت مثار الجدل والمناظرة والحيرة والشك من أوائل نشأة العلم والفلسفة إلى أيامنا الحاضرة . ومن علماء تلك المؤسسة الفلسفية جمعية إخوان الصفا الذين اتصلت بنا أسماؤهم زائد بن رفاعة ومحمد البستي وأبو الحسن وأبو أحمد . وكان أصحابها يكتمون أسماؤهم خوفاً من أن يصيبهم أذى أو ضيم من قبل الدولة أو قبل فئات من الشعب .

فلما ظهر أبو العلاء وفي رأسه عقل جبار وبين جنبيه نفس جريئة طموح واطلع على ذلك المعترك الديني العلمي الفلسفي في ميادين الفرق الدينية وفي جمعية إخوان الصفا وفي اختلاف نظريات العمران والاجتماع والسياسة ـ استهوته هذه المباحث وكان لها عليه وقع بعيد الأثر فجعلها دأبه وديدنه وبدرت منه بوادر أقوال وآراء يستنكرها الأكثرون . وما كان أسرع عودته عنها إلى ما نشأ عليه في حجر أبويه من عقائد ومبادئ . وسأورد ذلك بإيضاح .

ومرَّ أبو العلاء في إحدى رحلاته بمدينتنا اللاذقية هذه وكانت أعظم وأجل بكثير مما هي عليه الآن . وفي أثناء إقامته هنا ـ ولا أعلم مدتها ـ عرف راهباً يونانيًّا من أهل الذكاء والعلم وهو من رهبان دير مار جرجس المبني على هضبة القاروس ، وإلى جانب الدير كنيسة باسم هذا القديس الشهيد سماها الناس حينئذٍ « كنيسة نصف البلد » وهي تسمية تدل دلالة واضحة على عظم المدينة واتساعها في عصر أبي العلاء . والظاهر أن الراهب اليوناني كان يحسن أيضاً التعبير باللسان العربي، فكلفه أبو العلاء أن يطلعه على أشياء في الفلسفة اليونانية ففعل، ولا نعلم أي ناحية فلسفية اختارها أبو العلاء : أفلسفة ما وراء المادة أم فلسفة القوى العقلية أم فلسفة الاجتماع ونظم العمران أم ماذا ؟ وذكر أبو العلاء اللاذقية ذكراً كنا نود وروده بغير السياق الذي اختاره . قال :

في اللاذقيــة ضجّــة ما بين أحمد والمسيحْ
هذا بناقوس يد قّ وذا بمئذنة يصيح
كلٌّ يعظّمُ دينه يا ليت شعري ما الصحيح

ولو كنت إلى جانبه يوم نطق بهذه الأبيات لقلت له : رويدك يا أستاذنا وموضع حبنا وإكرامنا . إن ضجة الخلاف والشادة لم تقم قط بين أحمد والمسيح بل بين تبّاع هذا وتباع ذاك ، فقد أوصلتهم طرق التعليل والتأويل والاطراد والتعريج إلى اختلافات ومهاوٍ

سحيقة مع بقاء أحمد والمسيح على اتفاق تام في جوهر العقيدة والمبدإ. وكيف يمكن أن يقع اختلاف جدي ونفور بين رجال الله وأصفيائه عزّ وجلّ ؟

ولما مرّ أبو العلاء بطرابلس وكانت فيها مكتبة عامرة كلف بعض الناس أن يقرأ له شيئاً من محتوياتها على حسب اختيار المكاشف ، ففعل وأضاف ما استمرأه ذهنه منها إلى ما عنده من علم وأدب .

***

وكما أثرت في أبي العلاء بيئته باستدراجه إلى قضايا الدين الجدلية أثرت فيه كذلك باستدراجه إلى زخرف الكلام وتزويقه بالبدائع اللفظية من جناس وتقفية ولزوم ما لا يلزم مع ما يجاور هذه الصور من طول الاستطرادات وعبارات الدعاء والمجاملة ، فإن أدبه نظماً ونثراً ممتلئ إلى حد البطنة بهذه الأغذية وبينها ما لا يخلو من قبول ودسم وما هو تافه تماماً ليس له طعم ولا يرجى من وراء هضمه وتمثيله مدد وعافية . وكذلك كان مذهب أدباء ذلك العصر وما تقدمه وتخلف عنه. ومن مشاهير أصحاب هذه الطريقة أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وأبو منصور الثعالبي والوزير المهلبي والحريري والصابىء وابن العميد والصاحب بن عبّاد . وكل هؤلاء كان إنشاؤهم ناصعاً جميلاً دالاً على مقدرة عجيبة وذخيرة وافرة من أوضاع اللغة ومجازاتها . ولكننا لا نشك أنهم كلهم وبينهم أبو العلاء المعري لو لم يتقيدوا بهذه الطريقة التزويقية لجاء إنشاؤهم أجمل وأمتن ولما عابه ما في بعضه من أثر التكلف والاعنات والاسهاب الممل . ونريد بذلك الإشارة إلى طريقة إنشائية غير طريقتهم، طريقة الحرص على الرشاقة في مواضعها والجزالة في مواضعها بغير تسجيع وتصريع وترصيع إلاّ ما جاء من ذلك عفو الخاطر . هكذا كان مذهب فحول إنشاء آخرين نبغوا في صدر الاسلام قبل من أوردنا أسماءهم ومنهم عبد الحميد الكاتب وعمرو بن مسعدة الكاتب والجاحظ وابن المقفع وزياد بن أبيه والمهلب بن أبي صفره والحجاج بن يوسف الثقفي . وأما من ظهروا بعد أولئك فمن أشهرهم ابن خلدون وجلال الدين السيوطي . وبديهي أن ديوان اللزوميات لأبي العلاء لم يظهر على تلك الصورة إلاّ مجاراة لذلك المذهب في البديع اللفظي .

وأطاع أبو العلاء أيضاً بيئته في مظهر آخر من مظاهر الأدب العربي لم يكن عصره يستهجنه أو يستغربه ولا ما تقدمه وتخلف عنه من عصور القدماء والمولدين . والمراد به باب

التمدح والفخر ، فقد دخله أبو العلاء صريحاً فصيحاً . وأظن ظنّـاً راجحاً يقرب من اليقين أنهُ تعمد الافتخار بنفسه ردّاً ودحضاً لما كان يلمحه من مساعي خصومه وحساده وفلتات أقلامهم وألسنتهم ضده . وكان يعلم أن بين رجال العلم والأدب جمهوراً ينتصرون له ويشدون أزره إذا رأوا ضرورة لمؤازرته . ولولا هذا الحافز الذي يعذره عليه كل عاقل عادل لما خرج قيـد شبر عن شرط الدعة والتواضع كما هو المعهود في أمثاله من العلماء الأثبات .

ومما يروى عن أفلاطون الحكيم اليوناني الشهير تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو أنه قال : قضيت حياتي في طلب العلم والشيء الوحيد الذي علمتـه إلى اليوم هو أني لا أعلم شيئاً . ويروى عن أبي عبيدة العلامة الراوية العربي في صدر الدولة العباسية أن شابّـا سأله مسألة لغوية فقال له أبو عبيدة : لا أدري . فارتاب الشاب في صدق جوابه وظنه يحاول أن يضن عليه بالفائدة ، فقال له : كيف تقول في هذه المسألة لا أدري وإليك تضرب آباط الابل من مشارق البلاد ومغاربها انتجاعاً لفضلك ، وكان في أبي عبيدة حدة طبع ، وحدة لسان فأجابه : ويحك لو كان لأمك بعر بقـدر ما لا أدري لاستغنت . وكان من العاملين في دار الحكمة ببغداد على عهد الخليفة المأمون عالم وقور طاعن في السن ، فسأله أحدهم مسألة أدبية أو فقهية فقال : لا أدري ، فاستغرب الجواب وقال له : إن أمير المؤمنين يجري عليك من الخيرات والأرزاق كل شهر جراية عالين ثم تسأل سؤالاً واحداً فتقول لا أدري ، والله إن هذا لمن العجب العجاب . فأجابه بلين وتؤدة : « يا بني إن أمير المؤمنين أيده الله إنما يجري عليّ خيراته جزاءً لي على ما أدري ولو كانت عطاياه جزاءً على ما لا أدري لنفدت خزائنه قبل أن ينفد جانب يسير مما لا أدري » ولما بلغت مقالته المأمون قال : هذا هو العالم الحق . ثم زاد في إكرامه ورعايته .

هذا شأن العلمـاء الناضجين في التواضع وإنكار الذات ، ولا شك أن أبا العلاء أحد الممتازين بينهم . ولكن هؤلاء المتواضعين إذا تعمد متعمد أن يتنقصهم أو يهينهم ظهرت فيهم أنفة وشمم لقمع كل عدو ومفترٍ وكبح جماحه . وإلى هـذا الناموس الاجتماعي اشار الشاعر بقوله :

إن المعلم والطبيب كليهما لا ينفعان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن أهنت طبيبه واصبر لجهلك إن أهنت معلما

ولعلّ هـذا الناموس الاجتماعي فكر فيه أب عاقل حين أوصى ابنه وقال له في جملة وصيته : « يا بنيّ لا تمار العلماء فيمقتوك » والمماراة هي سوء الجدل أو إدخال العناد

والمماحكة في الجدل . ولا يخرج عن هذا الصدد ما رواه بعضهم من أن شابًّا مغروراً بنفسه كان يعمل في حقل الأدب فنظم أبياتاً وأسمعها أحد رجال العلم واللغة فطرق أذن العالم منها لفظ استنكره وسأل الناظم عنه سؤال متعجب : ما الذي تريد به ؟ فأجابه الشاب مكابراً « هذا حرف في العربية لم يبلغك » فابتسم الشيخ وقال له : « يا ابن أخي لا خير لك في مالم يبلغني منها » يريد أنه لا يفوته منها شيء .

وهذه الدعوى ما كان ليظهرها لو لم يلجئه اليها الشاب بغروره وغطرسته . أفلا يظن القارىء مثلي أن أمثال هـذه الدواعي هي التي ساقت أبا العلاء إلى تمدحه وافتخاره بنفسه ولا سيما في قصيدة لاميّة له مشهورة ؟ ومنها قوله :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل   عفاف وإقدام وحزم ونائل
أعندي وقد مارست كل خفية   يصدق واش أو يخيَّب سائل
يفاخر يومي فيَّ أمسي تطولا   وتحسد أسحاري علي الأصائل
وإني وإن كنت الأخير زمانه   لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

إلى أن يقول في أواخر القصيدة بلهجةٍ حادَّة تدل على التعريض مع منتهى السخط والاشمئزاز مما يؤيد رأينا في الدواعي التي دعت الناظم إلى هذا التمدح والافتخار :

إذا باهت الأرض السماءَ سفاهةً   وعيّر قسًّا بالفهاهة باقلُ
وقال السهى للشمس أنت ضئيلة   وقال الدجى للصبح لونك حائل
فياموتُ زر إن الحياةَ ذميمةٌ   ويا نفسُ جدّي إن دهرك هازلُ

ثارت ثائرة أبي العلاء لذلك الوضع المعكوس في المجتمع البشري لعهده مما أشار اليه بهذه الاستعارات البليغة، فما قول القراء فيه رحمه الله وغفر لنا جميعاً لو أدرك عهدنا الحاضر وشاهد ما نشاهد وأحس بما نحس به من عجائب الشواذ وغرائب التناقضات.

***

ومن تأثير بيئة أبي العلاء عليه ما رآه حواليه من مفاسد الناس ونفاقهم ولؤمهم فأساء ظنهُ فيهم وفي الدنيا التي احتوتهم ، ومن ثمَّ نما فيه خلق التشاؤم وأعراض السوداوية وكانا قد اختمرا في نفسه بما أصابه من العمى في طفولته ثم بفقده أبويه ، ولما فقد الوالد منهما لم يكن الولد إلاَّ صبيًّا قاصراً في الرابعة عشرة من عمره . وأما أمه فتوفيت وقد نيف على الثلاثين ولأجلها أسرع في ترك بغداد عائداً إلى المعرة لـكي يودعها قبل موتها فلم يبلغها إلاَّ

وهي في قبرها . كل هذه الحوادث المؤلمة توالت على أبي العلاء فطبعت أقواله بطابع الكآبة البالغة حد اليأس .

فرغنا من أهم ما أثرت به البيئة في أبي العلاء ، وحان لنا أن نلتفت إلى ما عصاها فيه :

كان الغالب على بيئة أبي العلاء رغد العيشة ورفاهيتها ومباهاة الأقران بكثير من كماليات الحياة . وهذه المظاهر الساطعة الخلابة لم تجد لها أصغر موقع ولا أقل منتجع في نفس شاعرنا العظيم وفيلسوفنا الحقيقي بل تنكب طريقها واكتفى له بمستغل له صغير ورثه عن أبيه لا يزيد دخله السنوي على ثمانين ديناراً مما يساوي بالتقريب ٣٥ ليرة ذهبية من نقود أيامنا الحاضرة،وهذا المبلغ كان ينفقه على نفسه وعلى خادم له خاصٍّ في معيشة بسيطة مأكلاً ومشرباً وملبساً ومأوى ، وكان يغلب على طعامه العدس المطبوخ وقد تعمد تجنب اللحوم بعد ما اجتاز الأربعين من العمر عاملاً برأي فلسفي كان يقول به ، وقد شاع يومئذٍ بين فلاسفة الهند ومؤداه أن الانسان حيوان ناطق لا يجوز له سلب حياة غيره لكي يغذي حياته ، بل يجدر به أن يكتفي بالثمار والنبات .

ولعلَّ أصدق صورة ذهنية تنطبق على أبي العلاء في استقامته وثقته بنفسه واحتياطه من شرور الناس أبيات للطغرائي في لاميته المشهورة وهي هذه :

وشان صدقك بين الناس كذبهُم وهل يطابق معوجٌّ بمعتدل
أعدى عدوك أدنى من وثقت به فحاذر الناس واصحبهم على دخلِ
وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعوّل في الدنيا على رجلِ

وأوضح خلة عصى بها أبو العلاء بيئته هي الأنفة وعزة النفس، وكانت البيئة ممتلئة في صميمها وزواياها برجال التملق والتزلف والنفاق استدراراً للمال من أيدي الملوك والأمراء والأعيان والأغنياء ، وهذه الخلة هي أخت شقيقة لما ذكرناه من قناعته ورضاه بشظف العيش، ومما يروقنا ذكره ويعزينا بعض التعزية عن مفاسد الزمان وأهل الزمان أن جماعة من رجالات العرب كانوا على هذه الشاكلة ومنهم الامام الشافعي القائل :

عليَّ ثياب لو تباع جميعها بفلس لكان الفلس منهنَّ أكثرا
وفيهنَّ نفس لو تقاس بفضلها نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

والقاضي أبو الحسن عبد العزيز الجرجاني وهو القائل :

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موطن الذل أحجما

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وفي موضوع الأباء وعزة النفس تحضرني خاطرة سديدة من خواطر الأدب الفرنسي وهي للكاتب الفرنسي لاروشفيكو إذا صدقتني الذاكرة . قال : « ليس من الويل أن تحسن إلى لئيم فيبخسك حقك ويجحد معروفك . ولكن الويل كل الويل أن تحتاج إلى لئيم يسعفك إسعافاً خفيفاً ثم يمن عليك طول حياتك منـًّا لا تحمله أرض ولا سماء »

***

بقي علينا أن نذكر شيمة واحدة من الشيم الكريمة التي خالف بها أبو العلاء بيئته بل خالف معظم ما عهدناه من البشر في كل مكان وكل زمان . وأظن هذه الشيمة تفوق جميع الشيم في نبلها وسمو قدرها ، وأريد بها شيمة الأثرة أو إنكار الذات . فإن أبا العلاء على ما هو عليه من ضعف ثقته بالناس وشدة استيائه من مفاسدهم كان قلبه الكبير ينطوي على ود صحيح لهم وإرادة كل خير وبركة تشملهم، ومما يدل على شفقته الفطرية عدم استحلاله لحم طير أو حيوان أو سمك لأجل تغذية الانسان . ثم إذا رأينا الأمير أبا فراس الحمداني يقول ولو في معرض نسيب وتشبيب :

معللتي بالوصل والموت دونه إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر

وبهاء الدين زهيراً المصري يقول :

وإذا ما متُّ من ظمإٍ لاجرى من بعدي النيـلُ

رأينا أبا العلاء المعري وكان عصره بين عصريهما يقول :

ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

ومما لا شك فيه أن أبا العلاء لو رزقه الله ثروة واسعة ومع نفوذه الأدبي سطوة حكم رسمي جاء بالشيء الكثير من أعمال الخير ومشروعات الاصلاح : وهذه منية تشعرنا بصدق الشعور في قول من قال :

كفى حزناً أن الكريم مقترٌ عليه ولا معروف عند بخيل

اللاذقية (سورية)

مياه عين الفيجة *

﴿ لمحة تاريخية ﴾ كانت مياه الفيجة في أيام الرومان كما كانت في أيام العرب موزعة بواسطة قناة محفورة في الصخور، مارة على سفح الجبل في وادي بردى من نبع الفيجة حتى أعلى نقطة في حي الصالحية، ولا تزال آثار هذه القناة موجودة إلى يومنا هذا، ولكنها مخربة في أكثر أقسامها. وهذه القناة كانت تسقي القرى الواقعة بين نبع الفيجة ومدينة دمشق، وما زاد منها بعد ما تأخذ مدينة دمشق حاجتها يتخذ لأعمال الري. وكان الاهمال سبب تخريب هذه القناة إذ أن صيانتها وترميمها وإصلاحاتها كانت تقوم بها، على ما يظهر، لجان من أهل المدينة والقرى على طريقة كري الأنهر المتبعة الآن في غوطة دمشق، ولذلك صارت عرضة للتخريب بسبب هجرها وعدم العناية بها.

وكذلك بقيت مدينة دمشق مدة طويلة محرومة المياه النقية. وكانت تستعمل مياه الأنهر التي كانت موزعة على البيوت بشكل طوالع ومجرات وجداول توزيعاً فنياً دقيقاً، فتستقي البيوت منها حاجاتها للشرب والاستعمال باستمرار وغزارة. إلا أنها كانت غير نقية، ولذلك كانت المدينة دوماً عرضة للأمراض والأوبئة. لهذه الأسباب لم يكن بد من وجدان مياه نظيفة صافية لأجل تأمين شرب الأهلين ولانقاذ دمشق من الأمراض والأوبئة. وعلى ذلك فكرت الحكومات منذ خمسين سنة ونيف في جلب كمية كافية من نبع الفيجة، وقد تأسس في ذلك الحين مشروع لإسالة مياه الفيجة بواسطة قساطل حديدية. وتم تنفيذ المشروع في زمن الوالي التركي المشهور ناظم باشا. وكانت المياه النقية المسحوبة تبلغ ألفي متر مكعب وزعت على ما يقرب من خمسمئة سبيل كانت تسيل في ساعات معينة في الصباح والمساء، وبذلك أنقذت المدينة من تفشي الأوبئة.

﴿ تأسيس مشروع الفيجة العام وتوزيعه على البيوت ﴾ قام بدرس هذا المشروع بعض رجالات دمشق في عام ١٩٢٢ إذ كانت حاجة العمران تقضي بتوسع المدينة. ولما كانت المياه الموجودة لا تكفي للقيام بانشاء أبنية حديثة فكروا في جلب كميات كافية من نبع

* استندنا في كتابة هذا البحث الى استطلاع خاص، فضلا عن بيان بعث به الينا السيد خالد سعيد الحكيم المهندس الدمشقي

الفيجة الذي يبعد عن دمشق ثلاثة وعشرين كيلومتراً فهو أقرب الينابيع إلى المدينة، ومياهه غزيرة ونقية من وجهة التحليل الجرثومي والكيميائي وكان قسم من مياهه قد اسيل في أنابيب ووزع بواسطة الاسالة. فتقرر في ذلك التاريخ تأسيس لجنة باسم «لجنة مياه عين الفيجة» في سبيل درس مشروع جديد لجلب مقادير كافية، تمهيداً للتوسع العمراني، لأن الكمية الموزعة بواسطة الاسالة عادت لا تكفي لري الأهلين. فتألفت عندئذٍ في دمشق جمعية بالاشتراك مع غرفة التجارة لتهيئة المشروع والدعوة اليه. وإذ كان هذا المشروع من المشروعات العامة اتفقت جمعية ملاكي الماء مع بلدية دمشق على تنفيذه بعد أخذ امتيازه من الحكومة، وذلك بالرغم من وجود شركات أجنبية كانت تسعى إلى أخذ الامتياز على قاعدة الاستثمار. وفي ٢٣ شباط (فبراير) من عام ١٩٢٤ عقدت اتفاقية بين حكومة دمشق ورئيس بلديتها نصت على كيفية العمل وعلى إدارة المشروع من قبل لجنة مزدوجة. ولقد كان لمعالي لطفي بك الحفار فضل الظفر بامتياز المشروع باسم مدينة دمشق، وقد بذل الكثير في سبيل تحقيق المشروع سنين طويلة ثم قام بالاشراف على أعماله بهمة عالية وإخلاص.

وفي الخامس عشر من شهر حزيران (يونيه) من عام ١٩٢٥ عُرض المشروع للالتزام. فتقدمت من مختلف بلاد العالم شركات قديرة من الجهتين المالية والفنية للمناقصة، بعد دراسة المشروع دراسة فنية، ثم نالت الالتزام إحدى الشركات الكبرى. وبوشر العمل في أول أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٢٥.

وقد كان الرأي الأول سحب الماء بوساطة أنابيب حديدية، كما جرى من قبل. ولما كانت تكاليف الأنابيب الحديدية تقارب النفقات اللازمة لإنشاء قناة في شكل نفق أوثرت الطريقة الثانية لجملة أسباب فنية. أهمها إمكان جلب مقادير كافية من المياه لسد حاجة دمشق وتخفيف نفقات الترميم والاصلاح، وبذلك تقل نفقات الاستثمار علاوة على أنه يستفاد من حجم قناة النفق لتأسيس شلال للماء. وبعد أن تقرر إنشاء القناة بدئ العمل في آخر عام ١٩٢٥. وقد بلغ طول القناة المذكورة ثمانية عشر كيلو متراً، لأن القناة طريقها يقرب من الخط المستقيم، وهي مؤلفة من أربعين نفقاً وثلاث قنوات مبنية بالأسمنت المسلح وأربعة جسور يختلف طولها بين ١٥ و ٥٠ متراً بنيت بالأسمنت المسلح ثم مماصّ (سيفون) كبير مبني بالأسمنت المسلح طوله أربعمئة متر في وادي قرية دُمَّر التي تبعد عن دمشق سبعة كيلومترات. وعمق الوادي تحت سطح النفق يبلغ أربعين متراً. وقد بني المماصّ (السيفون) في شكل أنبوب بمقطع دائري قطره متر واحد من الداخل.

أما مقادير المياه التي تسيل في هذه القناة فتبلغ ثلاثة آلاف لتر في الثانية . تأخذ المدينة منها خمسمئة لتر ، أما الباقي وقدره ألفان وخمسمئة لتر فينصب في شلال الماء المنشأ لبناء معمل كهربي في موقع «الهامة» لإضاءة المدينة ، لأن الشلالات القديمة صارت لا تفي بالإنارة .

وقد بلغت نفقات الأعمال الإنشائية ٢٧٠ مائتين وسبعين ألف ليرة عثمانية ذهبية . وقد انتهى المشروع في عام ١٩٣٢ ، فأسيلت المياه في بيوت المدينة .

وأما طريقة التوزيع فهي طريقة لا تشابه الطرق الجارية في سائر المدن العالمية ، لأن المشتركين في دمشق يملكون أمتاراً من الماء ويدفعون قيمتها لأجل تأمين رأس مال المشروع ، وهم يستمتعون بالماء في بيوتهم ويدفعون عنه رسماً سنويًّا في رأس كل سنة لقاء نفقات الترميم والإصلاح والاستثمار . وهذا الرسم السنوي يختلف في كل سنة إذ يزيد أو ينقص بنسبة النفقات السنوية الضرورية والاستثمار ، وبنسبة نصف المتر أو متر الماء الذي يكون قد اشترك فيه المشترك وسحبه إلى داره . وتوزّع المياه المشترَك فيها بطريق الممارسة حصراً لمقادير الماء المسحوبة . وبعض أهل دمشق يطلبون الاشتراك بطريق العداد ، وعددهم لا يزيد على ألف مشترك إلى الآن . ويبلغ مجموع المشتركين ٣٠٠٠ مشترك ، منهم المقيمون بالمناطق العسكرية ، واشتراك هؤلاء نحو ٥٧٥٠ متراً مكعباً . ولم يدفع الأهلون حتى عام ١٩٤١ من مجموع الـ ٢٧٠ الف ليرة عثمانية ، وهي مقدار النفقات ، سوى مبلغ ١٣٠ ألف ليرة ذهبية ، وسُدد الفرق بفضل اللجنة بوساطة قروض عقدت مع الحكومة التي لمست الحاجة إلى إتمام هذا المشروع الحيوي للمدينة والذي ينفذ بعناية من الوجهة الفنية وبانتظام من الوجهة الادارية . وقد وفقت اللجنة لإلغاء جميع الفوائد التي نصت عليها عقود الدين مع الحكومة ودفع القسم الكبير من الدين أو قيمة القروض التي اقترضتها اللجنة من الحكومة لقاء ضمانات كبيرة . ثم قُسِّطت بقية هذا الدين على مدد محددة ينتهي جميع الدين بانتهائها .

ثم أنشئت دار المصلحة في أشرف بقعة من المدينة ، وهي آية من آيات الطراز الحديث في صورته العربية من حيث البناء والنقش والزخرفة والأثاث ، ولا يكاد يماثلها بناء في جميع الشرق العربي . وأما الذي أبلغها هذه الروعة الفنية السليمة فهو المعلم محمد علي الخياط الشهير بأبي سليمان ، فقد قام بمعاونة أولاده بصناعة هذه التحفة قيام الحاذق العارف بدقائق الفنّ العربي السليم .

كانْت والعقل الجرماني الحديث

نقله باختصار وتصرف عبد الكريم الحمود

عن مقال بالانجليزية للاستاذ ياجست

لقد عشت عشر سنوات مع فلسفة «كانْت» Kant . وظلّت في نفس الوقت بيتي وسجني ، تنفستها كتنفسي الهواء ، وإني أشكّ في أن أحداً لا يعمل عملي هذا يستطيع أن يفهم عصرنا وما فيه من رذائل وفضائل . فلنشكر عبقرية كانتْ التي أظهرت في ما اوحت إليه حياةَ الغرب المتسقة في قالب ميكانيكي ثم قوّتها وراء هذه المثالية الميكانيكية التي كيفت التاريخ الأوربي منذ عصر النهضة .

على أن تكون «كانتيّا» مخلصاً مدة طويلة هو من الافتراضات الواجبة ،فذلك يمهد السبيل إلى انقطاعك عن فلسفة كانت،إذ لا خلاص من سيطرة كانت الفلسفية إلاّ بالخضوع لها زمناً. هذا، وإذا أردنا أن نبني روحاً جديدة في عالم الفكر العالمي الحديث، فلابدّ لنا من أن نعيش مع كانت ما دام هو الحجر الأساسي في بناء الفكر العالمي الحديث وما دامت الفلسفات الحديثة تأخذه بعين الاعتبار عند ما تبحث مشكلاتها الأساسية .

منذ أكثر من قرن ظهرت فلسفة كانت في مكان معين من التاريخ الأوربي ، وذلك حين تنفس عهد « الركوكو » النفس الأخير وانفجر العصر الرومانتيكي . هذه الساعة البهيجة الجليلة يمكنني ان القبها بكل شجاعة : الذروة العليا في التاريخ الأوربي .

لا يسأل كانت ما هي الحقيقة وما هي الأشياء وما هذا العمل ؟ بل يسأل عن إمكان معرفة الأشياء والعمل . لقد ضرب كانت بالأشياء عرض الحائط وانطوى على نفسه هذا الانطواء العميق الذي لم يكن جديداً في عصر كانت ، بل كان من خصائص عصر النهضة على العموم . وما كانت في الواقع إلاّ الفيلسوف الذي ألبس هذا الاهمال للاشياء صورتـه النهائية . وبهذا نرى كانت يهمل المشكلة «التافيزقية» للوجود وينصرف جهده إلى مشكلة المعرفة . فهو لم يهتم بكونه يعرف ، ولـكنه اهتمّ بكونه : هل يعرف . وبكلمة أخرى، انصرف كانتْ إلى إمكان المعرفة .

***

وإذا نظرنا إلى الفلسفة المعـاصرة نراها تجعل من الفلسفة ابتـداءً من « كانت » علماً

للمعرفة ، فهي تصرّح بأنهُ قبل أن نعرف أي شيء ، علينا أن نتثبت أولاً من إمكان المعرفة ، وهذا الأسلوب الجديد في الفلسفة لم يقتصر على إدخال الشك في عقل الرجل العصري فحسب ، بل منذ ديكارت Descartes لم نأل جهداً في اعتبار الأمر الطبيعي والمعقول لدى الفلسفة أن تبدأ في توضيح طريق المعرفة المؤدية إلى الحقيقة .

وهنالك زمان لم يكن فيه شعور الفيلسوف مماثلاً لشعور فيلسوفنا الحديث، ففلسفة اليونان وفلسفة القرون الوسطى لم تكن علماً للمعرفة بل علماً للوجود . وأن علم المعرفة كان بالنسبة إليهم أمراً ثانويًّا ، ولهذا نرى أن هذه النزعة في الروح العاصرة التي تحفزنا إلى السؤال عن إمكان وجود حقيقة وعن طريق معرفتها غريبة عن عقلية اليونان والقرون الوسطى .

إن أفلاطون والقديس أغسطينس قريبان من الروح العاصرة ولكنهما لا يشكان أبداً في إمكان معرفة الحقيقة. والواقع أن أفلاطون اطمأن بقوة العقل كل الاطمئنان حتى إنه تعجب كثيراً من جواز وقوع الخطأ .

وهنا لا بد أن معترضاً يقول بأن أفلاطون قد كرَّر كثيراً اثارة مشكلة المعرفة مستعملاً نفس الألفاظ التي استعملها الفلاسفة المحدثون . ولكن هذه الاثارة والتكرار فيهما شيء ظاهري لا يفيد إلاَّ البعد بين تفكيره وتفكيرنا الحديث . فديكارت وهيوم Hume وكانت يسألون : هل لدينا معرفة صحيحة بشيء ما ، ولكن أفلاطون لا يشك ولو لحظة واحدة في قدرتنا على معرفة أشياء كثيرة ، وهو وإن أنكر معرفة الأشياء الجزئية لم يشك مطلقاً في معرفة الكليات أو الفكر كالعدالة والحب ، وبكلمة أخرى : يثير أفلاطون مشكلة المعرفة لا لأنهُ يعتقد مقدماً أن العقل البشري قاصر عن المعرفة ولكن ليتثبت هل هناك موضوعات للمعرفة اليقينية .

***

هذه الملاحظات مع ما فيها من التشابه الظاهري هي في الواقع الحد الفاصل بين الروح اليونانية والقرون الوسطى من جهة ، والروح الحديثة من جهة أخرى . وهذا الفاصل قد خلق بدوره نظريتين مختلفتين للحياة . فيبدأ القدماء من الشعور بالثقة في هذا العالم ونظامه ولكن الرجل العصري يبدأ بعدم الثقة في هذا العالم ، ويعبر كانت عن هذا بقوله « إن العالم في تشويش وسوء انتظام». على أنهُ لمن الخطأ أن نذكر كسابق لهذه النزعة العصرية نزعة المشككين عند اليونان ، ونحن وإن كنَّا لا ننكر أن التفكير الحديث قد تعلَّم من اليونان

المشككين كثيراً واستعمل أسلحتهم مراراً لنرى أن هناك فرقاً أساسيًّا بين عصر الشك السكلاسيكي وعصر الفلسفة النقدية الحديثة . فالمشككون عند اليونان لم يبتدئوا بالشك بل توصلوا إليه، على حين الفكر الحديث يبتدئ بالشك .

ليس الشك بالأمر المهم كما يقول « كانت » وذلك لأن أول شاك كبير عصري ، وهو ديكارت ، قد توصل إلى حقيقة ذاتية بعد أن تساءل عن فكرة القدماء عن الحقيقة ، ولهذا فكل الجدل حول الشك في العصر اليوناني أصبح لا يجدي شيئاً بعد أن توصلنا إلى حقيقة ذاتية، ولكن ذلك لا يمنعنا القول بأن روح الشك في العصر اليوناني قريبة إلى حدّ ما من روح العصر الحاضر . ولهذا السبب نجد روح عصر الشك عند اليونان يقف موقفاً مضاداً للروح العامة، حتى إن اليونان لخوفهم من هذه الفئة لقبوها بالوساوسة .

وليس أدل على معنى هذا الخوف الذي يعتري اليونان من هذه الفئة من كلمة « الشك ». فكلمة الشك عند اليونان معناها « الازدواج » ولكن اليونان يكرهون هذا الازدواج ويميلون إلى الوحدة .

إن الشك الذي كان من البطولة الوصولُ إليه أصبح ظاهرة طبيعية لدى الروح الحديثة «فكانت» الذي يمثل هذه الظاهرة بأجمعها لم يكتف باتخاذ الحذر طريقة فلسفية، بل جعل من الفلسفة علماً له . ولهذا فإن الفلسفة النقدية الحديثة ليست إلاّ العلم الذي لا يهتم بأن يعرف بل يهتم بأن يتجنب الخطأ . فالفلسفة القديمة — فلسفة اليونان والقرون الوسطى — هي ثمرة الثقة والشعور بالاطمئنان، ولهذا نرى أن مجتمعها يتجسد في الفارس المغامر في حروبه، بعكس الفلسفة الحديثة التي أنتجها عدم الثقة والحذر والتي هي من خلق رجل الطبقة الوسطى في المجتمع الأوربي . إن رجل الطبقة الوسطى هذا قد تغلب على المغامر وعلى الروح الحزبية القديمة وجعل من نفسه نموذجاً لمجتمعه . ولكنهُ بفقدان هذه الروح المحاربة وبسبب حذره اضطرَّ إلى السعي وراء الطمأنينة بالتشريع والاقتصاد وسيلةً لتجنب ما يحذره ويخافه .

وليست فلسفة كانتْ النقدية إلاّ صورة لروح الطبقة الوسطى التي تحكمت في مصير أوربة منذ عصر النهضة، والتي سارت في تطورها جنباً إلى جنب مع تطور الرأسمالية . ولهذا نرى أن تشبع كانت بالفلسفة الانكليزية التي كانت تمثل الصورة المثلى لتطور الفلسفة النقدية والرأسمالية في إنكلترة ليس من قبيل المصادفة . على أن ذلك لا يعني أن هذه الملاحظات التي أبديتها تفيد الاعتقاد « بمذهب المادية التاريخية » . أنا لا أقول إن الفلسفة النقدية هي

من نتاج النظام الرأسمالي الحديث ولكني أقول إن الفلسفة النقدية والرأسمالية هما من خلق هذا الإنسان الذي يحركه الحذر والشك . إن أية قيمة تقيمها لأي عمل ثقافي يجب أن تسبق بفحص الظاهرة « البيولوجية » أعني نوع الشخص الذي أنتج العمل .

***

على أن هذه الملاحظات على ما فيها من التعدد لها قيمتها في معرفتنا لأنفسنا . فلأي نوع ينتمي رجلنا المعاصر ، هل هو متمم لحذر رجل الطبقة الوسطى ؟ الجواب عن ذلك يتطلب تحليل الفلسفة المعاصرة، وهو عمل يعجزنا ما دامت الفلسفة المعاصرة لا تزال في طور النمو ولم تكتمل بعد . إلا أن هناك ملاحظة في وسعنا الإشارة إليها دون أن نتحمل خطر التبعة ، أعني أن الفلسفة المعاصرة تعتقد أن الشك ليس بالطريق الصالح وأن الرجل الحذر في تفكيره في استطاعته التخلص من ذكائه او براعته . إن الانسان لايستطيع أن يتوصل إلى طريق المعرفة قبل معرفة الحقيقة ، لأن المعرفة تتضمن معرفة طريق الحقيقة ، وبعبارة أخرى : إن الثقة أصلح من الحذر أو الشك .

ليس الحذر وحده الذي يميز فلسفة كانت . فديكارت وهيوم كانا حذرين ، ومع ذلك تختلف فلسفتهما كل الاختلاف عن فلسفة « كانت » ، وإن هذا الاختلاف ناتج عن الطريقة التي بها هدأوا حذرهم وشكهم والاعتقادات التي نتجت عن هذه التهدئة ، لهذا نرى الروح الجرمانية وروح حوض البحر المتوسط تختلفان أكثر مما نعتقد، لأن هاتين الروحين تبتدئان من تجارب متناقضة كل التناقض . فساعة تفيق الروح الجرمانية لا ترى في هذا العالم إلا نفسها : الفرد منطو على نفسه وليس له أي علاقة بفرد آخر . وإن روح الفرد الجرماني لا تشعر إلا بنفسها ، وإن شعرت بالمجتمع الذي حولها فلا تشعر به إلا كنظام أعمى أو كموج يلطم شاطىء جزيرتها .

على أن فرد حوض البحر المتوسط يفيق وهو في سوق البيع ، وهو منذ الولادة رجل الساحات . وأول مؤثر فيه هو الحياة الاجتماعية، فتجاربه في «أنت ، هي ، الشعب ، الأشجار ، النجوم » تسبق معرفته لنفسه . إن الشعور بالوحدة أجنبي عنه ، وإذا أراده وجب عليه أن يخلقه ويحارب من أجله ، وإن حصل عليه فلا يكون ذلك إلا من قبيل الصناعة والتمثيل . إن روح حوض البحر التوسط في بنائها فلسفتها تعتمد على العالم الخارجي وتعتبر الأشياء الحسية صورة الحقيقة ، ولهذا هي زاهدة في قيمة وجودها بالنسبة إلى المنزلة التي تنزل بها الأشياء والناس . إن هذه الروح لا تعي إلا سطحية « الأنانة » [1] حيث الأشياء تترك

(١) قولك : أنا (التحرير)

طابعها، وذلك بعكس الروح الجرمانية التي تستدبر العالم الخارجي وتنطوي على وليجة نفسها . فالجرماني لا يرى العالم مباشرة بل يراه من طريق تفكيره وإحساسه، وبهذا يصبح عالمه عالم فكرة أو صورة . وما مثله إلاّ كمثل رجل يريد أن يرى الطبيعة فيذهب إلى شجرة ويراها منعكسة في شعاعات سائلية .

إن حقيقة وعي الأنانة صورة لرجل حوض البحر المتوسط، وليس الشعور بها عند الجرماني إلاّ مرضاً في العقل . فالوعي لا يكون موجوداً إلاّ إذا كان وعياً بشيء . ولهذا نرى في النظام الطبيعي أسبقية العالم الخارجي على الوعي . إن وعيك كموضوع لوعيك شيء ثانوي ويتطلب العالم الخارجي، وهذا عكس ما يفكر فيه الجرمان . فالأشياء الحسية عند الجرمان أمر ثانوي بالإضافة الى الوعي الداخلي . وهنا يمثل كانت أوج الذاتية في الروح الجرمانية التي تقود الفرد إلى الاعتقاد بأن « الأنانة » هي الحقيقة الأولى في هذا الوجود . وهكذا فإن كل محاولة من جانب الجرمان في الوصول إلى ما بعد الذات خاسرة، ولا يكون الاتصال مباشراً بل صناعياً مكوناً قبلياً في الذهن apriori .

أما رجل الجنوب فشاعر منذ البداية بالعالم الخارجي ومقضي عليه بالعيش في جلبة أسواق العالم، وليس لهُ من سبيل إلى الانفراد بنفسه . فمشكلته تنحصر في كيفية الغوص في نفسه وتفهّم حقيقة الأنانه . وإن وصل إلى حقيقة نفسه فما يكون ذلك إلا بعد أن يختبر الأشياء في « أنت » ثم يرجع بها إلى « أنا »، لهذا فهو أميل إلى تفسير « أنا » من الخارج على الصورة التي اختبر بها الناس والأشياء . وليس ذلك بالغريب لأن فلسفة البحر المتوسط تركب الأنانة على الصورة التي تركب بها الجسم، وذلك باستثناء فلسفة القديس أغسطينس التي تعرف الأنانة على الصورة التي يعرفها فلاسفة العصر الحديث .

على أن هذا الاختلاف بين تلك الروحين أدى إلى صراع عنيف بين رهبان الشمال ورهبان الجنوب في أوربة . فهوجو وسكوتس وأوكام من أهل الشمال شغلوا أنفسهم بالحياة الداخلية على حين أن القديس توما الاقويني – الايطالي الصميم – أحيا فكرة الجسم الروحي الارسطالية التي يتكوّن نصفها من المادة والتي ليست لها سلطة على التفكير فحسب بل على نمو الجسم أيضاً . ومن هنا نرى أن التفكير لم يكن ليفهم من الداخل كما هو عند الجرمان، بل اعتبر حقيقة داخلة في نظام حركات الأجسام .

« شرق الاردن »

منشأ الدولة الأتابكية

لناجي الطنطاوي

من أعضاء مكتب الدراسات الاسلامية بدمشق

يبدو للمتأمل في مجرى التاريخ أن الدول الحاكمة ينشأ بعضها عن بعض في تسلسل منظم، فلا يكاد يضعف أمر أمة بعد العزة والمنعة والقوة، وتدب اليها عوامل الانحلال والفوضى، حتى يستيقظ فيها عنصر جديد فتيّ يتسلم الحكم فيها، أو يغزوها حاكم أجنبي قوي يستولي عليها. هذا هو شأن الأمم والممالك في الشرق والغرب. انقضى عهد الخلفاء الراشدين، فتلاه عهد الأمويين ثم أعقبهم العباسيون ثم . . . ثم . . . . ثم تلاهم بنو بويه فبنو سلجوق، فالأتابكيون، فالأيوبيون...

كانت الدولة السلجوقية [1] على جانب عظيم من القوة ومنعة الجانب وسعة السلطان، عمّ نفوذها خراسان والري وكرمان وبلاد الروم وامتد إلى العراق وسورية، وتعاقب عليها ملوك ذوو طموح وهمة وحزم، وطدوا بدهائهم وحسن سياستهم هذا الملك الشاسع وحفظوه من طمع الطامعين وكيد الخائنين، ولكن لم يكد ينقضي القرن الخامس الهجري حتى مال نجمها إلى الأفول منذ قضى عاهلها العظيم ملكشاه، فتفككت عراها وانحلت أواصرها وتقوضت دعائمها، فاستقل الأميران سليمان وتاج الدولة تتش بمملكتيهما — الأول في آسية الصغرى والآخر في بلاد الشام — استقلالاً تامـًا، وعادا لم يربطهما بالسلطان غير السيادة الاسمية، وتبعهما في هذا الاستقلال عن الدولة الأمراء الآخرون الذين لم يجسروا على ذلك إلا بعد موت ملكشاه ونظام الملك، وكلاهما من ذوي العبقرية الفذة والشخصية القوية، فماتت بموتهما عظمة الدولة السلجوقية وانهار بناؤها الشامخ المتين.

كان لملكشاه هذا مملوك [2] تركي يدعى آق سنقر بن عبد الله [3] تزوج حاضنة السلطان إدريس بن طغان شاه، وحظي بثقة ملكشاه فأصبح من أمرائه وصار من المقربين إليه ومن خواصّه، واعتمد عليه ملكشاه في مهماته، وزاد قدره علوًّا إلى أن صار يتّقيه مثل

---

(١) دامت الدولة السلجوقية الكبرى التي أسسها طغرل بك ٩٣ عاماً (٤٢٩—٥٢٢ هـ) ودامت الدولة السلجوقية في سورية — وهي التي نشأت عنها الدولة الاتابكية — ٢٤ عاماً (٤٨٧—٥١١ هـ).

(٢) وقيل إنه اصيق له لا مملوكه أي من أصحابه وأترابه ومن ربي معه في صغره (٣) وقيل إن اسم أبيه آل ترغان من قبيلة ساب يو

نظام الملك، مع تحكمه في السلطان وتمكنه من المملكة فأشار نظام الملك على السلطان أن يولي آق سنقر مدينة حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية ، وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان ويتخذ عنده يداً بذلك ، فأقطعه السلطان جميع ذلك . قال ابن الأثير : ومن الدليل على علوّ مرتبته تلقبه بقسيم الدولة وكانت الألقاب حينئذٍ مصونة لا تعطى إلاّ لمستحقيها(١).

ولما قدم ملكشاه حلب في رمضان ٤٧٩ هـ قاصداً أخاه تاج الدولة تتش ، قدم معهُ آق سنقر وانهزم تتش ، وبعد انقضاء عيد الفطر رحل ملكشاه عنها وقرر ولايتها لآق سنقر هذا في مستهلّ عام ٤٨٠ ولقبه قسيم الدولة فبقي فيها والياً إلى أن توفي وليّ نعمته ملكشاه ولم يزل بها حتى قتله تاج الدولة .

وأجمع المؤرخون على أن آق سنقر كان حسن السيرة إدارياً حازماً ، ساد في أيامه العدل والإنصاف . وانتشر الأمن في أرجاء حلب وعمّ الرخاء . كان قطاع الطرق منتشرين في البلدة يزعجون الناس ويثيرون مخاوفهم ، فتتبعهم وتتبّع اللصوص في كل مكان حتى استطاع أن يستأصل شأفتهم ، وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله فأمنت الطرق بعد خوفها وملكت السبل بعد انقطاعها ، فشكر له الناس ذلك ، وبلغ به الاهتمام أن وضع نظاماً يقضي بأنه إذا وقعت حادثة سرقة في إحدى المناطق فرضت قيمتها على جميع القرى المجاورة لها (٢) .

قال ابن الأثير الجزري : « كان قسيم الدولة آق سنقر أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظاً لهم وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع ، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو غيره غرّم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق وتحدّث الركبان بحسن سيرته » .

وشنق من قطّاع الطرق خلقاً ، وكلما سمع بقاطع طريق في موضع قصده وأخذه وصلبه على أبواب المدينة ، وكان ذا هيبة عظيمة . وقرّب الحلبيّين وأحبّهم الحب المفرط وأحبوه أضعاف ذلك ، وأقام الحدود وأحيا أحكام الإسلام ، وكثرت في أيامه الأمطار وتفجرت العيون والأنهار ، وعامل أهل حلب بالرفق وقدّم اليهم من الجميل ما أحوجهم أن يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر(٣) .

وبلغت السياسة المالية في عهده مبلغاً استغلّت به حلب في كل يوم ألفاً وخمسمائة

(١) الروضتين ٢٤ (٢) وقد أخذ بهذه النظرية بعض الأمم الحديثة .

(٣) الروضتين ، من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي .

دينار [1] . أما الناحية العمرانيـة فإن مدينة حلب قد عمرت في أيامه بعد الأمن الذي ساد أرجاءها ، إذ كثر ورود التجار عليهـا فقويت حركة التعامل وانتعشت الأسواق ، وتقاطر الناس إليها للمقام بها بعد ما عرف من حسن سـيرته وعدله ، وجددت في عهـده منارة حلب بالجامع عام ٤٨٢ ونقش اسمه عليها ، وأمر ببناء مشهد قرنَبْيا ، لمنام رآه بعض أهل زمانه ، ووقف عليه الوقف .

هذا وكان السلطان ملكشاه يفكر قبيل وفاته في القيام بمشروعات كبيرة ، منها إخضاع الخليفة الفاطمي في مصر ، فأمر لهذه الغاية آق سنقر وبوزان عامل الرها أن يلتقيا بجندهما مع تتش الذي تولى قيادة الجيش ، ولكنهم ما وصلوا إلى طرابلس حتى اختلفوا فيما بينهم . ويقال إن ابن عمار والي هـذه المدينة رشا آق سنقر ووزيره زرين كمر ، ومهما يكن من شيء فقد عاد آق سنقر ادراجه فاضطر تتش إلى التخلي عن هذه الحملة ، وبعـد قليل توفي ملكشاه فانتهز تتش الفرصة للوصول إلى السلطنة .

ولهذا سار مسرعاً إلى حلب ، وبالرغم من كراهية آق سنقر لتتش ، لم ير من الحكمة أن يقف في سبيله فتبعه مرغماً وحذا بوزان حذوه . وبعد أن سارت جنودهم مسافة طويلة وكانت الحرب وشيكة الوقوع بينهم وبين بركيارق الوارث الشرعي لملكشاه لم يكن من آق سنقر وبوزان إلاَّ أن تخليا عن تتش وانضما إلى بركيارق فأجبر تتش على الارتداد إلى الشام ، ولكنه مع هذا ظلَّ متشبثاً بأطماعه في السلطنة .

كانت كراهية آق سنقر الباطنة لتتش تبدو في بعض الأحوال بشكل واضح ، من ذلك أن تاج الدولة تتش نزل مرة إلى السلطان ملكشاه ، فلما رآه ترجل له ـ وكان في الصيد ـ خيفة أن يسيء به الظن ، وحضر هو وقسيم الدولة في حضرته ، فقال تتش :كان من الأمر كذا وكذا ، فقال له قسيم الدولة : تكذب. فقال له السلطان : تقول لأخي كذا ؟ قال : نعم ،يطلع الله في عينيه ما يريده لك ويطلع في عيني ما أريده لك ، فأسرها تتش في نفسه وأضمر السوء له.

ولما توفي السلطان ملكشاه كان تتش في دمشق ، فأراد العبور مختفياً ليمضي إلى خراسان ويرث ملك أخيه ، وخرج في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٧ ومعه خلق من العرب وقطع عاصي ورعى عسكره الزرع ونهب المواشي وغيرها ، واتصل الخبر بآق سنقر وهو بحلب فنهض إليه وكاتبه السلطان بركيارق وخطب له بحلب ، فجمع وحشد واستنجد بمن يجاوره فوصل إليه كربوقا صاحب الموصل وبوزان صاحب الرها ويوسف بن آبق صاحب الرحبة في ألفي فارس وخمسمئة فارس منجدين قسيم الدولة ، وحصل الجمع بحلب ، واستدعى آق سنقر منجماً ليأخذ

(١) كتاب عنوان السير وكتاب شذرات الذهب

له الطالع فحضر عنده واختار له وقتاً وقال : تخرج الساعة فركب ومعه النجدة التي وصلته وجماعة كبيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل وكان أطلقهما من الاعتقال، ومحمد بن زايدة وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية في أحسن زي وأكمل عدة ، وقيل إنهُ قدر عسكره بعشرين ألف فارس وقيل كان يزيد على ستة آلاف، وقصد تاج الدولة في ٩ جمادى الأولى . وتقول إحدى الروايات إن قسيم الدولة خرج إليه وقال لأصحابه : إلحقوني بكتاف الأسرى – استصغاراً لخصمه – فقال له سكمان بن أرتق : حركشتهم ؟ – أي : أرأيتهم ؟ – ولم يتمهل إلى حين تصل خيله فمضى واستعجل .

قطع آق سنقر سواقي نهر سبعين [1] قاصداً تتش ، وكان تتش قد وصل إلى الحانوتة ورحل منها إلى الناعورة وأغارت خيله على المواشي بالنقرة وأحرقوا بعض زرعها ورحل من الناعورة قاصداً الوادي وادي بزاعا ، وحصلت الواقعة عند قرية سبعين أو بكارس [2] وكان أول من برز للحرب آق سنقر ، فالتقى الفريقان ولم يثق آق سنقر بمن كان معه من العرب خوفاً من قائديه اللذين أخرجهما من السجن ، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة في وقت المصافّ ثم نقلهم إلى القلب فلم يغنوا شيئاً ، وحمل عسكر تتش على عسكر آق سنقر فلم يثبت ، وانهزمت العرب وعسكر كربوقا وبوزان معهم إلى حلب ووقع فيهم القتل وثبت قسيم الدولة فأسر وأكثر أصحابه ، ورحل تتش من موضع الكسرة إلى حلب فملكها واستولى على المواضع التي كانت لقسيم وجلس في قلعة حلب وشرب فيها وأحضر قسيم الدولة.

وقتل آق سنقر بين يدي تتش في سبعين أو بكارس وقال له تتش قبل قتله : لو ظفرت بي ما كنت صانعاً فيّ ؟ قال : أقتلك . قال : فأنا احكم عليك بما كنت تحكم عليّ ، وقتله صبراً ، وقطع رأسه وطيف به البلاد وحملت جثته فدفنت عند مشهد قَرْنَبْيا وهي هضبة تقع قرب حلب ، وقيل إن آق سنقر قتل بقرية بكارس قرب حلب . ولما ولي ابنه عماد الدين زنكي — أبو نور الدين — نقله إلى مدرسة كان قد ابتدئ بعمارتها ولم تتمّ ووقف عليها ضيعتين هما شامر وكارس يساوي مغلهما ألف دينار كل سنة وعمر بهـا عمارة معجزة ونقل رمّته إليها ، وجعل قبره قبالة المسجد من الشمال وأجرى إليها قناة ماء وغرس وسطها وجعل القبر مثل قبر أبي حنيفة رضي الله عنه .

وكان قتل آق سنقر يوم السبت ٩ جمادي الأولى سنة ٤٨٧ وقتل معه أربعة عشر مقدّماً.[3]

« دمشق »

---

(١) قرية من قرى حلب من نقرة بني أسد على نهر الذهب (٢) وفي رواية : في أرض تبل وهي قرية قريبة من إعزاز وضواحي حلب . وفي دائرة المعارف الاسلامية : عند قرية ريان . وهو خطأ

(٣) المصادر: الروضتين، وشذرات الذهب ، والنجوم الزاهرة ، وتاريخ ابن الأثير، وعنوان السير وغيرها.

التمثيل الخارجي*

للدكتور نجيب الأرمنازي

منذ خمسة وعشرون عاماً والبلاد السورية تجد وتدأب في سبيل إدراك استقلالها وتحقيق وسائله ، فأجرت في سبيل هذه الغاية محاولات جمة ، وكانت تجدد المساعي في كل بضعة أعوام حتى دخلت البلاد في وضع سياسي أصبحنا نتطلع فيه إلى المستقبل بثقة تزداد مع الزمن ، ونحن نتوقع أن نستوحي من عبر الماضي وعظاته ما يكون عوناً لنا في تسديد خطواتنا ، ودليلاً ومرشداً في معالجة ما نحن مدعوون إلى معالجته من أمورنا .

والاستقلال الذي هو مظهر سلطان الأمة وحريتها إنما يتجلى في سيطرتها على أمورها الداخلية وأمورها الخارجية ، والتمثيل الخارجي أو السلك السياسي جزء من هذا السلطان . وسنبدأ في البحث بالأوصاف والميزات التي يجب أن يتحلى بها رجال السياسة ، ثم نبحث عن رجال السلك السياسي وما يقومون به من الأعمال ، ونورد بعد ذلك بعض ما جاء في كتب العرب من الآراء في شأن السفراء والرسل والعيون والجواسيس ونشر الأخبار ، فنشاهد هذا التشابه العجيب في الآراء التي يأتي بها الفكر الإنساني في أجياله المختلفة لحل المعضلات المتشابهة التي تعرض عليه . والأمم والشعوب تتوارث الآراء والمذاهب ، والتشابه عظيم بين القواعد التي أخرجت للناس ، وميراث الفكر والعقل عام مشترك بين الجميع .

١ — أوصاف رجال السياسة وميزاتهم

قد لا تكون صناعة أكثر تنوعاً واختلافاً من السياسة في معناها الدبلوماسي لأنها مرتبطة بجميع المشكلات التي يعالجها العالم ، ولذلك كانت وظيفة السياسي دقيقة غامضة تحتاج إلى خبرة نادرة وتجربة شاملة وفراسة بعيدة وفكرة سديدة وقدرة على العمل وصيانة للأسرار ، فينبغي لمن يتعاطى السياسة أن يكون متمكناً من نفسه مسيطراً على هواه لا يستفزه حال إلى البوح بما لم يكن قد صح رأيه على أن يبوح به ، وعليه أن يكتم ما يعرض في خاطره ، فلا ينطق بكل ما فكر فيه ، ولكن يفكر في كل ما ينطق به ، وليس الصمت في

---

* من كتاب المؤلف معد للطبع

معرض البيان بحزم، ولكن الحزم أن يحسن المرء القول حيث ينبغي أن يكون . وليست قلة الكلام من شروط السياسة وقواعدها، فإن كثيراً من الساسة البارعين عرفوا برقة الحاشية وحلاوة المحضر وحسن الحديث وطلاوة النكتة . وكان (تليران) نزر الكلام في المجامع ولكنه متبذل في مجالس ثقاته ، وكان (مترنيخ) أحسن الناس حديثاً وأكثرهم نادرة ، وكان اللورد (ليتون) أحد مشاهير السفراء البريطانيين في أوائل الجمهورية الثالثة في باريس موصوفاً بفصاحة الأسلوب وسلاسة الكلام وخصب البيان ، ولكن هذه المزايا لم تمنعه أن يكون شديد الكتمان لا يفتح شفتيه عن كلمة لا يريد أن يقولها ، وقلما وجد رجل مثله يجمع مختلف المواهب العظيمة التي يتمم بعضها عمل بعض . وقد كتبت جريدة التيمس حين مات هذا السياسي قالت : كان يجمع بين التفكير والثقافة وبين صفات الرجل السياسي الدائب المتبصر وبين الرقة والعذوبة والفن والأدب .

والفوز في عالم السياسة يحتاج إلى لين في الجانب ورقة في الحاشية وملاءمة في الطباع، وبذلك يستطيع السياسي أن يستطلع خفايا القلوب ، ثم لا بد له من أن يستمد من أعماق نفسه نبل العواطف ومكارم الأخلاق وصحة العزيمة وقوة الإرادة . فإذا اقتضت منافع بلاده أن يدافع عنها دافع بكل صلابة وشدة وثبات على الرأي الذي أنضجته الفكرة وهذبته التجارب، ولا شيء يودي بمصالح الأمم مثل التردد والتواني . كما أن من أشرف الخصال التي يسمو بها الساسة المضاء في الأمور والوقوف عند الرأي الذي قطع به ومسايرته الى أن ينفذ ويبلغ أجله ، وقد كان الكردينال (ريشليو) واسع الحيلة بعيد النظر ولكنه متردد عند ما يصير الأمر إلى الغاية القصوى ولا يبقى سوى إنفاذه ، ففي هذه الساعة الأخيرة كان يسرع إليه الأب (جوزيف) مستشاره فيمده برأيه وحزمه .

وكذلك يجب على السياسي أن يكون حسن النظام في جميع أعماله وأطواره ، بعيداً عن النقائص والمثالب ، خالصاً من شوائب التخبط والاضطراب ، وماذا ترتجي المنافع العامة من رجل أخلى شؤونه الخاصة من كل تدبير ونظام أو أفرط في اللهو واللعب والتهالك . فانه لا يستحق أن يدخل في عداد الساسة أولئك الذين تحكمهم أهواؤهم ولا يحكمونها وتستعبدهم نفوسهم ولا يستبدون بها ، على أنه لا يكفي الرجل الذي يجدر به أن يمثل أمة أن يكون معروفاً بالعفة والنزاهة موصوفاً بالذكاء والفطنة ، بل عليه فوق ذلك أن يكون على جانب غير يسير من الاطلاع والمعرفة ، راسخ القدم في تدبير المصالح السياسية ، يغشى مجالس العظماء فيستفيد منها جليل الفوائد وتعقد بينه وبين رجالها روابط المودة . فالفوز في كثير من الأحاديث الخطيرة يرجع في الغالب إلى قيمة المحدث وما له من شأن ، وقد يكون هذا

الشرط كما قال (براديه فودره) ، مثبطاً لهمم فريق من الناس الذين تسمو بهم الانقلابات إلى المنازل التي لم يكونوا أهلاً لها .

وقد وصف (سان سيمون) أحد رجال السياسة في القرن السابع عشر (أرنولدوي بوميون) بقوله : كان رجلاً متفرداً بشعور الحق والعدل ولين الجانب ودماثة الخلق ، يزن كل شيء ويصنعه بنضج دون بطء ، ويمتاز بمعالجة الأمور بفن وبراعة ودقة ومرونة ، فيصل إلى أغراضه بلا حيلة ولا استفزاز ، وهو على رقته وصبره لا يقصر في حزم ولا يغمز بنقص ولا يتوانى في الدفاع عن مصلحة الدولة وعظمة المملكة ، وعلى هذه الصفات التي عرف بها استمال جميع الذين فاوضوه في مختلف البلاد ، فكان موضع التقدير والثقة مهذباً محسناً ، لم يأتِ وزير مثله في حياة متشابهة منسجمة ، بعيدة عن البذخ والترف ، لا يدع عمله العظيم إلا لأسرته وأصدقائه وكتبه ، وعلاقاته العذبة تستهوي النفوس وتسحرها ، وأحاديثه من غير أن يريد وأن يتكلف ، لا تنتهي فائدتها لسامعيه .

وصوّر الكاتب الفرنسي (لابروبير) رجل الدولة الذي يخلع عنه رداء المواكب ولباس الحاشية بسطور بليغة تنطبق على أوصاف رجال السياسة في كل مكان فقال : الوزير أو الوزير المفوض هو كالحرباء في تلونه ، فلا يغير أسارير وجهه إلاّ عمداً ، ويستشير في أعماله الزمان والمكان ويتحين الفرص ، ويتعرّف ما لديه من قوة أو ضعف ، ويترقب أحوال الشعوب التي يعاملها ويتأمل طبائعها وأمزجة رجالها الذين يفاوضونهم أو الذين يخلفونهم ، وكل آرائه وكل قواعده ونظراته وكل تدقيقاته السياسية وكل محاولاته إنما ترمي إلى غاية واحدة هي أن لا يكون قد خدع وأن يتمكن من خديعة سواه . ومن أعظم وسائل النجاح أن يعرف كيف يقول الحقيقة ، وهو فن يجب أن يبلغ الغاية من الإحاطة ، فعليه أن يكون بعيد الغور شديد الإبهام عند ما يريد إخفاء حقيقة يذكرها لأنه يهمه أن يذكرها وأن لا يصدق فيما قاله عنها ، ويتظاهر بأنه صريح صادق حتى يستطيع أن يخفي ما لا تجوز معرفته ، ويقنع مخاطبه بأنه قد أطلعه على ما يريد الاطلاع عليه ولم يكتم شيئاً في نفسه ، وهو كذلك يؤازر حلفاءه إذا وجد في ذلك ما يعينه على تحقيق أغراضه ، ويؤازر أيضاً الضعفاء ويؤلف بينهم لمقاومة الأقوياء والاحتفاظ بالتوازن بين القوى المختلفة . ويكون أيضاً لطيف العشرة ، ظاهر التمسك بقواعد الشرف بعيد الأثر في إدراك شؤون الحياة وإتقان تصاريف الكلام ووجوهه ، مقتدراً على الإتيان بالحجج الشريفة ، مكيناً في معرفة ما يوافق الزمان ويناسبه ، لا يتكلم إلاّ عن السلم وعن المحالفات وعن الطمأنينة العامة والخير العام ، ولكنه في الحقيقة

لا يفكر إلاّ في منافع سيده أو جمهوريته،وهو لا يخدع بما يقول ولا يعتقد به ، ويرمي في مساعيه الى الجوهر والغاية ، ويستعد دائماً لبذل الأمور الصغيرة وإهمال مسائل الشرف الموهومة .

وأوصى (الـكونت دي بيلوف) ابنه الذي أصبح بعد ذلك (البرنس دي بيلوف) المستشار الألماني بوصية أورد فيها جملة من المزايا التي ينبغي أن يتصف بها رجال السياسة ويحرصوا عليها ، فقال فيما قال :

« الزم الحقيقة كل الحقيقة بدون هوادة ولا تساهل في كلما تنقله وترويه ، وإياك أن تحمل من الأنباء ما لا تعتمد على صحته وما يمكن أن تتضح حقيقته ذات يوم ، وإياك أن تقع في الاسفاف ونشر الشوائع والمبالغات والفاخرات الباطلة وتلوين الأشياء بألوان زاهية جداً ، واحذر الافراط في الاستنتاج ، واجتهد كل الاجتهاد في تحري الحقيقة وأنت تذكر الأرقام ، ولا تقع في الأشياء المخترعة والأساليب المستحدثة ، ولا تصف أمراً بأكثر مما هو على حقيقته إذا تأملته بهدوء وسكينة ، وكن حذراً فيما تقرره من حكم ، ولا تتكهن فيما ترويه وتخبر عنه ، فقد انقطع عهد النبوات والمعجزات والإخبار بالغيب والكهانة والنجوم ، وكل شيء يمكن حدوثه ولكن لا يمكن عقد الأيمان على شيء لأن التغير والتبدل من الأمور التي لا مفر منها ، ولا تجعل أحداً يقع في مشكلة بسبب تقاريرك ، فإنه لا يتفق مع أصول اللباقة وأسباب الحزم . ولا تكتب شيئاً في ساعة غضبك ... وعليك بالحذر فيما ترسلهُ من برقيات ولكن كن أكثر حذراً عند وضع الأرقام التي يجب إعمال الفكرة كثيراً فيها . وإياك أن تفرط في النقد في تقاريرك فالنقد سهل والعمل صعب . . . وكن هادئ النفس معتدل المزاج رزيناً وقوراً ، ولا يأخذك الجزع في شيء ولكن تعمد الجد في كل شيء،واحرص على السبق وانتبه إلى كل ما حولك ولا تستسلم أبداً إلى عواطف البغض والكره ، ولا تقل كلمة تحدث للحكومة مشكلة إذا لم تكن أذنت بها وزارة الخارجية ، واجعل أسلوبك واضحاً موجزاً لا اضطراب فيه ولا تعقيد ولا إملال » .

٢ — السلك السياسي

أ — وزير الخارجية

يتألف السلك السياسي في سفاراته وبعثاته من رجال شتى سياسيين وعسكريين وبحريين وتجاريين ، ويلحق بهم القناصل والخبراء ، وتوزع في السفارات الأعمال بين مكتب سياسي ومكتب إداري ، ووزير الخارجية هو المرجع الأعلى لرجال هذا السلك وعماله .

وقد اشتدت الحملة في بعض الأحيان على السلك السياسي ، ولا سيما بعد الانقلاب العظيم الذي حدث في المواصلات إذ دعا الناقدون إلى الاستغناء عنه وجعله نظاماً لا يختلف عن النظام القنصلي ، واقترح الآخرون تسمية رجال هذا السلك بمرسلين ، ولكنه برغم التطور الذي حدث فإنه لا يزال على حاله في علاقات الدول وارتباط بعضها ببعض .

وإن الطابع الذي يطبع به وزير الخارجية سياسة بلاده ينبغي أن يكون صورة حقيقية لنيات الحكومة ومقاصدها . ويجب عليه أن يختار أحسن الأساليب ويتفق عليها مع حكومته حتى يبلغ أفضل الغايات في خدمة مصالح الدولة والوطن ، ولا يكفي أن يكون عارفاً حق المعرفة بدعاوي دولته وحقوقها وواجباتها وقواها واستعداداتها وما ضمنته لها العهود والعقود ، بل عليه كذلك أن يعرف الوسائل المادية والمعنوية للدول التي بينها وبين بلاده روابط وعلاقات .

وفي الحق أن المزايا التي يجب أن يتحلى بها وزير الخارجية كثيرة الاختلاف ، والأعمال التي يقوم بها تدل على تمكنه في الفن الدقيق الذي هو سياسة أمة ببراعة وإتقان ، ومن الصعب إدخال الصفات المبتغاة تحت حصر وإحصاء ، ففي الأمور الخارجية — كما قال (مارتنس) في كتاب الدليل السياسي — لا يمكن تحديد شيء ولا الإكراه على شيء ، وهي تقوم على الطلب والرجاء والمفاوضة ، وأقل كلمة في غير محلها قد تؤذي شعباً بأسره ، والسعي الخاطئ والحساب الباطل واتخاذ الخطط بحسب المصادفات قد تحط من كرامة الحكومة ومصلحة الدولة .

ووزير الخارجية بوصفه رئيساً للسلك السياسي يستدعي السفير متى أراد ، وللسفير كذلك أن يطلب المقابلة ويعنى بطريقة إثارة البحث ، وإذا كان ذلك بتكليف من الحكومة فسبب البحث ظاهر ، وكثير من الصفات التي تطلب من وزير الخارجية تطلب كذلك من السفير ، كتبادل الثقة واجتناب الدسيسة وحسن التصرف في تمويه الحقيقة وتحاشي الأخبار السيئة وفي الصمت والنظر ، وعدم الإفراط في تقدير وجود الدسائس والمكايد، وهدوء الأعصاب حتى في المناقشات الشديدة التي يظهر فيها فضل الرجل الذي يستطيع ضبط نفسه على الرجل الذي لا يستطيع ، واجتناب الغضب وكل ضعف إنساني يخرج الرجل عن طوره ويحمله على البوح بمكنون سره ، ويجب على السياسي أن يفصل بين شعوره والأمور التي يعالجها مهما تكن العواطف الوطنية التي تملأ قلبه . بل إنه ليقال أيضاً — وإن كان في ذلك إثارة وإغضاب لحماسة الكثيرين — إن أفضل سياسي ليس الذي ينقاد إلى قلبه ولكن الذي ينقاد إلى المنطق الهادئ ، ويتساءل ماذا يستطيع أن ينال وما هو سبيل الوصول إليه . ولما

كان التمكن من النفس ليس من صفات كل إنسان وطبائعه ، فعلى من يريد أن يكون جديراً بالعمل السياسي أن يسعى لمراقبة نفسه والتغلب عليها، وإذا عزّ عليه إدراك ذلك فلابدّ أن يصبر في إنفاق الجهد وبذل العناء حتى يناله مع الزمان ، ومن الواجب أيضاً تحليل نفس المخاطب ومعرفة ما يؤثر فيه ، والخطأ في المرمى قد يعقب ضرراً لا يمكن تلافيه ، ويجب في الأمور الكبرى الاعتناء بالاستفادة من الفرص السانحة أكثر من الاجتهاد باحداثها، فإن (ريشليو) و (بسمرك) لم يبدعا الفرص ولم يخلقا الظروف التي مهدت السبيل لنجاح خططهما.

ووزير الخارجية الجدير بهذه المهمة الخطيرة يستطيع أن يقود المساعي والمفاوضات نحو الغاية السياسية الموضوعة فيهدي الرجال السياسيين بخططه وآرائه ويراقب أعمالهم حتى لا يخرج أحدهم عن النهج المرسوم ، ويطلعهم على ما يجري من الشؤون التي تؤثر في مصلحة البلاد ويرسل إليهم حيناً بعد حين وصفاً موجزاً للموقف الخارجي حتى يكونوا على بينة من سياسة الحكومة ومقاصدها .

ووزير الخارجية بوصفه مرجع ساسة الدول الأجنبية في بلاده له مهمة مزدوجة ولكنها مرتبطة من ناحيتيها ، فهو يعالج الشؤون السياسية في الغالب بالحادثات الشفوية وليس ذلك لأن الحكومات تريد أن تتخلص عند الحاجة من العهود المكتوبة بل لأنها تريد أيضاً اجتناب الوثائق التي يطلع عليها الآخرون ، وقلما تسجل المحادثات السياسية مع وزير الخارجية ، وذلك بعكس العقود والاتفاقات والاعمال الادارية التي تسجل وتودع بطون الصحائف والدفاتر . وعلاقات السفير مع وزير الخارجية ذات أشكال شتى فمنها ما هو رسمي وما هو شبه رسمي وما هو موقت وسري وخاص وما هو لتنفيذ الأوامر والمناقشة في الشؤون الجارية والمسائل الادارية والمفاوضات السياسية والاقتصادية واستطلاع الأنباء والمحافظة على حسن العلاقات ، وهنالك مسعى ومطلب وتصريح وتبليغ واحتجاج . وعلى السفير أن يحافظ على العلاقات الحسنة مع وزير الخارجية ، وان لا يقاطعه مهما تتحرج الحالة بينهما وأن يحسن اغتنام الاجتماعات الاسبوعية أو الاجتماعات الخاصة والعامة لمعرفة ما يريد الاطلاع عليه، إذ لا يستحسن أن يكتب إلى الوزير يسأله رأيه عن حادثة أو ثورة ولكنه يستخرج ذلك في أثناء مجاذبته الحديث ومخاطبته إياه ، وقد قال (تليران) في وزير الخارجية كلمة تنطبق على كل سياسي وهي : « يجب أن يكون عند وزير الخارجيــة شيء من الفطرة والملكة يحذرانه بسرعة وينمانه قبل كل محادثة من الوقوع في مشكلة » .

ولا بد في بعض الاحيان من الالتجاء إلى الكتابة ، فالاحتجاج مثلاً يكون حينئذ

أكثر تأثيراً ، على أن اختيار هذه الطريقة غير تابع لقاعدة معينة . وقد تفتر العلاقات بين وزير الخارجية وبين السفير فيلجأ حينئذٍ للمكاتبة ، على أن هذه الحالة لا تكون إلا إلى حين ، فإما أن يتلوها استئناف العلاقات وإما انقطاعها . ومن المجمَع عليه أن يتفق مع الحكومة على هذا الأمر ، وقد يستلزم الغياب والمرض الكتابة وكذلك المسعى الذي يقوم به السفير لدى الوزير وما ينتظر أن يكون من تأثيره عنده فيطلعه عليه أو على بعضه كتابةً بعد استئذان الحكومة في الغالب ، وذلك أملاً في أن يكون أكثر استعداداً للتفاهم بعد الكتابة إليه .

ويغلب أن يبقى السفير للوزير بعد الحديث مذكرة لتأييد ما قاله في حديثه ، وذلك في المسائل المعقدة خاصة ، وتكون الوثيقة المكتوبة ملحقة، أما إذا قدم السفير وثيقة بأمر الحكومة فحينئذٍ يكون الشرح الذي يلحق بها مضافاً .

والعلاقات الكتابية تأخذ صيغاً شتى ، فالمذكرة يخاطب بها الوزير وتحتوي على صيغة المجاملة الختامية ، وقد تكون بصيغة الشخص الثالث. والمذكرة الشفوية لا توقع ولا بأس من احتوائها صيغة المجاملة ، والمذكرة والخواطر في صيغها الأخرى لا توقع أيضاً وأسلوبها مختصر مجرد ، وقد يضاف إلى هذه المذكرات أنها بأمر الحكومة لتعزيز ما فيها ، على أن هذا من الفضول والزوائد لأن ما أرسل يكون بأمر الحكومة ، وقد تضاف كلمة «سري». ويجب أن يكون المكتوب واضحاً محدداً مهذباً بعيداً عن الجفاء الذي هو مغاير للقواعد السياسية ، ولا بدَّ من المجاملة في الألقاب . وأما الشؤون المهمة السياسية فتعالج بمذكرة موقعة ، والرسائل الخاصة توضع في الشكل الذي تقتضيه العلاقة بين المتراسلين .

ب — السفراء

يقوم السفير بمهمة تمثيل بلاده، فينبغي عليه أن يكون رسول سلام وأن يجعل شخصه قريباً من القلوب بمظهره وكلامه وأساليبه، وهو لا ينال ذلك إلا بتربية صحيحة وثقافة عالية ولهجة أنيقة وعشرة طيبة، فيحافظ على كرامته بدون كبر ولكن بإباء وترفع، ويكون حسن البزّة ولكن بغير تكلف ولا تصنع ولا إغراق . وتختلف الحاجة إلى المظاهر باختلاف البلاد التي يكون السفير فيها واختلاف أوضاعها . وعلى كل حال فإنه لا يجوز الافراط الذي ينقلب إلى حد الهزؤ والسخرية . والسفير الذي يمثل سياسة ليست الفضيلة عنصرها المميّز عليه أن يكون في حياته الخاصة بعيداً عن كل ما يدنسها، فهو عرضة للمراقبة، والسيرة الحسنة تنفعه كما تنفع بلاده لأن العالم يألف التعميم ، وهو بذلك يكون أيضاً مؤثراً في معاونيه ،

ولا يكون قدوة لهم في عمل سيئ . وإذا استعمل السفير الدهاء والحيلة في بعض حاجاته فينبغي عليه أن لا يخرج عن شروط الرجل الشريف، والحيلة تدل في الغالب أن الرجل قليل الرأي ضعيف التدبير ، وأصحاب الأخلاق الكبيرة يتنزهون عنها . وعلى السفير أن لا ينصب نفسه للدفاع عن قضية البلاد التي هو فيها ولا ان يقاومها بكل ما لديه من روح المقاومة والمعارضة وهو في البلاد المحمية . فمهما تكن درجته فعليه أن يكون مضاعف البراعة وأن يحسن التفريق بين البلاد الحامية والبلاد المحمية . وعليه أن يفي بما يعد به ، فما قيمة السفير إذا أصبحت كلماته باطلة ووعوده كاذبة وضميره ساقطاً . وعليه أن يتجنب المفاجأة والكبرياء وأن لا يضايق محدثه بمحاولة إظهار براعته والإدلال بصحة رأيه . ومن مقتضيات الحذر الإصغاء برفق وتواضع لحجج الآخرين وعدم التشبث المطلق بحججه. وعندما يريد الاعتراض على رأي يجب أن يحمل إلى المناقشة إنصافاً وعدلاً مهما تكن القضية التي يدافع عنها حقاً ، فلا يشعر أحد بتحامل على رأي يبديه . ولا بأس بالتسليم في بعض الاحيان لاستمالة المحدث ثم الاستئناف بعد ذلك للوصول إلى الغاية المطلوبة .

وينبغي اجتناب الافراط في الحماسة أو في البغضاء والحذر من قلق النفس الذي يعطل العمل ويحرم الصبر والدأب . ومهما يكن الرجل الذي يراد إقناعه فينبغي حسن العناية به والالتفات إليه ، وكلمة طيبة في محلها تصلح من الأمور أكثر من جواب عنيف أو طلب مثير. ويجدر بالسفير أن لا يكون كثير الانطلاق وأن يظل بعيداً في فكرته قريباً في نفسه . والتواضع السياسي — وإن كان تظاهراً في بعض الأحيان لتحقيق بعض المآرب ومعرفة بعض الأمور — يحمد أثره إذا لم يكن مقروناً بالمبالغة . واجتناب الغضب يجعل المرء متمكناً من نفسه فلا تبدر منه بادرة تثقل كاهله أو كاهل بلاده كما وقع (لبنمن هولوغ) عند ما وصف حياد البلجيك بأنه قصاصة ورق. ثم يطالب السفير باحترام الشعائر الدينية مهما يكن مذهبه ، وأن لا يهتم بالاتصال بالذين يتهافتون عليه منذ وصوله ، فقد يكون هنالك أشخاص لا قيمة لهم وأشخاص مغرضون ، والتهالك على تغيير كل شيء لا تحمد عواقبه ، فينبغي السير هوناً في التجديد والاصلاح ، وإذا لم يكن حسن التصرف فطرياً فالطبيعة تساعد على نموه .

وهنالك قضايا لا تزال موضع الجدل والمناقشة فيما يتعلق بجواز ما يصنعه السفراء أو عدم جوازه كالكذب والافساد والتجسس والرشوة . وقد كانت تتناقل الألسن فكاهة مشهورة وصف بها سفراء البندقية ، وهي أن السفير رجل شريف أرسل إلى الديار الأجنبية حتى يكذب باسم الجمهورية ، وقيل أيضاً مثل ذلك في السفير : إنه يتجسس لدولته بصورة

رسمية . ولم يكن (مكياڤللي) ومن حذا حذوه يشاركون الأديان والمعتقدات في استنكار الكذب واعتبار بعضها إياه من الكبائر ، لأنهُ في نظرهم لا يجوز البحث والمناقشة عند ما تكون سلامة الدولة في خطر . ولكن ما أنبل الذين يستطيعون أن يقفوا بين أيدي الحقائق غير مفتقرين إلى تحريفها . على أن الصمت يكون في بعض الأحيان منجاة لأصحابه من قول الباطل أو من التعرض للخطر بذكر الحقيقة . أما الافساد واستخدام الجواسيس فهو من الضرورات المزدراة ، على أنه يعذر سفير إذا قام بشيء أمره به رئيسه . ولكن هل يجوز له أن يتدخل في سياسة محلية ويعارض الدولة التي هو فيها . وإذا كانت مهمة السفير خدمة بلاده لا خدمة البلاد التي هو فيها أو دفع الضرر عنها فانه يقتضي مع ذلك إذا كلفه سيده بأمر أن يحذره قبل أن يطيعه ، وإن كان الرفض به أجدر والتحريض على الجريمة شر من ارتكابها . وتقدر الأمور بقدرها في حالات يرجى فيها اجتلاب خير أو دفع شر .

أما المال فقد كان (فيليب المقدوني) يقول إنه يفتح كل حصن مغلق ، وهو عند المعاصرين كذلك ، وقد كانت الهدايا من العادات المألوفة عند الملوك والسفراء وأعضاء المجالس العامة ، ولكن الأمر الذي يصعب تمييزه هو أين تنتهي المجاملة وتبدا الرشوة ؟ فعلى السفير أن يكون شديد الحذر في قضايا المالَ حتى لا يصيب سمعته بأذى ، ويجب عليه أن يأبى قبول أية هدية يمكن أن تؤول أو أن تتخذ وسيلة لغاية حتى إنه إذا استطاع أن يرد هدايا مواطنيه كان ذلك خيراً له . وينبغي عليه أن يكون جواداً سمحاً ولكن بدون إسراف ولا إفراط ولا محاولة للظهور بمظهر الفائق على أصحاب الغنى والجاه في البلاد التي هو فيها .

ولما كان في مقدمة الأعمال التي يقوم بها السفير إطلاع حكومته على سير الأمور فعليه أن لا يتهاون في تتبع الحوادث ومراقبة اتجاهاتها . ومن وسائل الاستطلاع الاتصال بالملوك والرؤساء والأمراء والوزراء وكبار موظفي الدولة ورجال الحكومة المتقاعدين ورجال المعارضة ورجال السلك السياسي ، واتخاذ المخبرين المؤتمنين ومراقبة الشؤون الداخلية بحذر وأناة ، وإقامة المآدب والحفلات ، وتأمل الأشياء والأشخاص ، والاستعانة بصدق الشعور والحكم الصحيح في الأمور على إدراك الحقائق . والصحافة وسيلة مهمة للأخبار سواء صحافة البلاد التي فيها السفير أو صحافة البلاد التي تنتمي اليها ، ومهما كانت أنباء الصحف تحمل الحقائق والأباطيل ولا يكفي تمييز بعضها عن بعض فانه لا يجوز إهمال شيء منها . على أن الأخبار الملفقة تفيد فائدة كبرى لأنها تكشف القناع عن روح التحزب عند الذين يخترعونها ، سواء أمرضية كانت الانباء أم غير مرضية ، فالذي يهم هو معرفتها في حينها .

وقد كان (لويس الرابع عشر) الذي يعد من كبار الملوك السياسيين قد حض سفراءه على موافاته بجميع الأنباء لأنهُ يريد معرفة الأنباء السيئة كما يريد معرفة غيرها. على أنهُ يحسن اجتناب الأنباء التي لا تفيد إلاّ إثارة النفوس، وقد وقعت حادثة لسفير إنكلترة في فرنسة أيام حرب السبعين بقيت مكتومة ثلاثين سنة، وذلك أن السفير قبض عليه بتهمة الجاسوسية ثم أخلي سبيله وكان معهُ بعض موظفيهِ فأمرهم بالصمت إذ لا فائدة من ذكر الأنباء التي لا علاقة لها بأعمال الدولة.

وقد تكون مهمة السفير أصعب في بلاد منها في غيرها، وذلك بحسب ما تستطيع البلاد كتمانهُ من شؤونها العامة وما تعرضهُ لأنظار المراقبين لها، ولا يجوز للسفير أن يعتمد في أنبائهِ على الخونة ولكن على مقدرة في الملاحظة والاستطلاع، وينبغي أن يكون على حذر من الجواسيس إذا لم يجد بدًّا من استخدامهم لأن هذه الطائفة من الناس لا تبالي في سبيل المال أن تخترع الأنباء، ولما كانت صناعتهم تقصيهم عن أن تكون لهم ضمائر تحاسبهم فهم لا يترددون في خيانة الذي يبذل لهم المال إذا وجدوا من يزيد في عطائهم.

والسفير يعرف ماذا ينتظر منهُ بحسب البلاغات والأوامر التي لديهِ، ويحسن أن ترسم له خطة قبل سفره وأن تكون واضحة بينة لا تحتمل شكًّا أو تأويلاً. على أنهُ بوجوده في مكان عملهِ له حق التقدير ويمكنهُ أن يجد من الدلائل والبينات ما لم يكن عند واضع الخطة. وإذا كانت مهمة السفير تقتصر على نقل ما كلف بهِ وحمل الأجوبة التي يتلقاها فلا حاجة إلى أن يكون حذراً أو فصيحاً ولا أن يبذل العناء في حسن الاختيار.

وجملة ما يقال أن في حسن إدارة الأخبار وتلقيها وملاحظة الأشياء والأشخاص والاستدلال بالوقائع والأحوال والجد في تسيير الأمور وتمثيل البلاد خطر مهمة السفراء.

وقد كان يتوقف عليهم فيما مضى المحافظة على توازن الدول، فكانوا هم المفاوضين العاملين في وضع المعاهدات التي كان بعضها مثل معاهدة (وستفاليه) Westphalie من الحوادث الخطيرة في تاريخ العالم، وقد أريد أن تقوم عصبة الأمم مقامهم في تسوية قضايا الشعوب، فأصابت بعض النجاح، ولكنها لم تصل إلى الغاية التي أرادها منها منشئوها وانتهى أمرها إلى الإخفاق.

ج — القناصل

كان القناصل في الماضي رجال تجارة وكانت التجارة تسبق السياسة وتمهد لها السبل. والقناصل هم الرجال المقيمون في الديار الأجنبية للسهر على مصالح مواطنيهم، وقد وصفهم

(تليران) بقوله : إن خصائصهم تختلف اختلافاً لا حد له ، وهم يقومون بوظيفة ضابط الأحوال المدنية وكاتب العدل وأحياناً بوظيفة القاضي والحكم ، وأحياناً بوظائف بحرية ومراقبة الاحوال الصحية في السفن ، ويمكنهم أن يروا رأياً صحيحاً في التجارة والملاحة والصناعة في البلاد التي يقيمون بها . ويفيد القناصل بما يبدونه من آراء تجار البلاد وأرباب المصانع . وقد قررت المحاكم الفرنسية في اجتهادها اعتبار القناصل موظفين عامّين ولكنها رفضت لهم صفة التمثيل التي ليست إلاّ من حق رؤساء البعثات السياسية والسفراء والوزراء . والقناصل لا يتلقون كتب اعتماد من حكوماتهم ولكن كتباً تعترف بهم ، ولا يمكن القيام بوظائفهم ما لم تمنحهم الحكومات التي يعينون لديها صفة التنفيذ من غير أن يكون لهم صفة سياسية ، ما عدا بلاد الشرق ، فقد كانوا يتمتعون فيها أحياناً بهذه الصفة وبما يترتب عليها من مكانة .

وعلى كل حال فانه ينبغي الاعتماد على القناصل والثقة بهم وإن كانوا يسرفون في الغيرة على مصالح المواطنين الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، ويحسبون أن كرامة بلادهم تتعرض للاهانة في الصغيرة والكبيرة ، وهذا النوع من الاسراف هو الذي اتفق على استنكاره أقطاب السياسة مثل (تليران) و (بسمرك) و (تييرس) .

﴿ الذيل ﴾

بعض الآراء الاسلامية فيما يلابس ذلك

الدبلوماسية من منشآت العصور الحديثة . ولكن الفكر الانساني كان عليه أن يعالج الأمور المشابهة لها ، لذلك تجد المؤلفين في ابان الدولة الاسلامية والحضارة العربية يعرضون بطبيعة الحكم وحاجات السلطان الى مثل هذه الامور التي أوردنا ذكرها نقلا عن الغربيين ، فبحثوا في أساليب الكتابة في الأحداث الخطيرة وفي شؤون السفراء والرسل والعيون والجواسيس ، وكانت هذه الأبحاث تتصل بنواحي الشرع والفقه والسياسة والأدب ، ونحن نقتبس هنا بعض ما أوردوه من ذلك :

١ — الكتابة في الأحداث الخطيرة

ذكر صاحب « صبح الأعشى » نقلا عن كتاب « مواد البيان » ما يكتب به عن السلطان من خبر يريد التورية عنه وستر حقيقته كالاعلام بالحوادث الحادثة على الملوك والنوائب الملمة بالدولة : من هزيمة جيش أو تغيير رسم أو احداثه أو تكليف الرعية ما لا يسهل عليها تكليفه وما اشبه ذلك . فيجب أن يقصد بذلك الى الاختصار والايجاز ويعدل عن استعمال الألفاظ الخاصة بالمعنى الى غيرها مما يحتمل التأويل ولا تنفر الاسماع منه ، ولا تراع القلوب به ، من غير أن يحتمل كذباً صراحاً ، فانه لا شيء أقبح بالسلطان ولا أغمض لشأنه وقدره من أن يضمن كتابه ما ينكشف للعامة بطلانه . وينبغي للكاتب أن يتخلص من هذا

الباب التخلص الجيد الذي يزين به الأثر ، من غير تصريح بكذب ، وأن يخرج الباطل في صورة الحق ويعرض سلطانه في ذلك للاحماد والتقريظ من حيث يستحق التأنيب والاذمام ، فان هذه سبيل البلاغة وطريقة فضلاء الصناعة لأن الأمر الظاهر الحسن المجمع على فضله لا يحتاج في التعبير عن حسنه الى كد الخاطر واتعاب الفكر ، وانما الفضل في تحسين ما ليس بحسن وتصحيح ما ليس بصحيح ، بضروب من التمويه والتخييل واقامة المعاذير والعلل المغفية على الاساءة والتقصير من حيث لا يلحق كذب صريح ولا زور مطلق ».

ب — السفراء والرسل

وجاء في « كتاب رسل الملوك » المنسوب الى أبي علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء فصول جليلة الفائدة على قصر فيها وايجاز تذكر الحدود التي يجب أن يقف عندها الرسل في سفاراتهم والصفات التي ينبغي أن يتحلوا بها كالصبر والوقار والاناة والشجاعة والحذر والصدق . وقد جاء في هذه الفصول ما يلخص بعضه في ما يلي هذا :

« اختر لرسالتك في هدنتك وصلحك ومناظرتك والنيابة عنك رجلا فصيحاً بليغاً حولا قلباً قليل الغفلة منتهز الفرصة ذا رأي جزل وقول فصل ولسان سليط وقلب حديد ، فطناً للطائف التدبير ومستقلا بما ترجو وتحاول بالحزم واصابة الرأي ، متعقباً له بالحذر والتمييز ، سامياً الى ما يستدعيه اليك ويستدفعه عنك ، ان حاول جر أمر أحسن اعتلاقه وان رام دفعه أحسن رده ، حاضر الفصاحة مبتدر العبارة ظاهر الطلاقة وثاباً على الحجج ، مبرماً لما نقض خصمه ناقضاً لما أبرم ، يحيل الباطل في شخص الحق والحق في شخص الباطل ، محتالا في محاورته ومكايده ، وليكن من أهل الشرف والبيوتات ذا همة عالية ، فانه لا بد مقتف آثار وليه مجيب لمناقبها مساو لأهله فيها . فمتى اجتمعت لك فيه هذه الخصال فاجعله من بطانتك واطلعه طلع أمرك خطيره وحقيره واستشره في شؤونك لطيفها وجليلها .

ويحسن أن يكون الذي تختاره للتوجه في الرسائل جهير الصوت حسن الرواء مقبول الشمائل جيد البيان حافظاً لما يبلغ ليؤديه على وجهه . ولا يمنعه الصدق عن سلطانه رغبة يقدمها فيمن يتوجه اليه ولا مهانة يستشعرها في نفسه فيه وتقديم النصيحة لرئيسه . فانه متى لم يكن المستكفي لهذا العمل واستعمل باباً من التحريف والتمويه فيما يختلف فيه بين السلطان وبين من يراسله ويشافهه على لسانه بما يحتاج اليه ، فان عدا هذه الصفة وقع في أعمال السلطان بذلك أظهر خلل وأعظم ضرر ، ولذلك يجب على السايس أن يجتهد في تخيره لهذا العمل من يصلح له ويستقل به ويجري به على وجهه . . وينبغي أن يكون الرسول حاد البصر ذكي القلب يفهم الايماء ويناظر الملوك على السواء ، فانه انما ينطق بلسان مرسله . . فاذا ذكر عرف واذا نظر اليه لم يحتقر . . لا تقتحمه العين ولا يزدري بالخبرة . . والعامة ترمق المنظر أكثر مما ترمق الكفاية والسواء . ويجب أن تزاح علله فيما يحتاج اليه حتى لا تشره نفسه الى ما يبذل له ويدفع اليه فان الطمع يقطع الحجة والرسول أمين لا أمين عليه فيجب أن يرتهن بالاحسان اليه والافضال عليه . . ثم ان للرسالة حدوداً لا يتسع تعديها وحقوقاً يلزم القيام بها ، أولها ايثار الصدق وتعمد النصح وأن يصدع بالرسالة وله أن يدع المعنى الغليظ منها في الألفاظ اللينة . . والرسول محتاج من الاقدام والجرأة الى مثل ما يحتاج اليه من الوقار والرزانة ، لأنه ليس على كل الطبقات يشتد ولا لكلها يلين ، وربما لم يسعه الا أن يصدع بالرسالة على ما فيها ، فان لم يكن جريئاً حرفها وأخل بها » .

وقد أورد الوزير نظام الملك في كتابه « سياست نامه » الذي وضعه بالفارسية فصلا في الرسل وطريقة معاملتهم نصح فيه بمراقبتهم والاحسان اليهم حتى يرضوا وذكر انهم يقومون مقام الملك الذي أرسلهم ، فكل حرمة لهم تكون موجهة له . وقد تعارف الملوك على أن يتبادلوا حسن المعاملة وأن يكرموا الرسل الذين يأتونهم فيعزوا شأنهم ويرفعوا ذكرهم واذا اختلف الملوك وتنازعوا فان السفراء كانوا يقومون دائماً خير قيام بما يعهد اليهم من الأمور المهمة على حسب ما لديهم من الوصايا والتعاليم . ولم يعرف أن الرسل أسيء اليهم وأنهم عوملوا بغير ما ألف من المجاملة ، واذا وقع شيء من ذلك أنكره جميع الناس .

ولم يرد الملوك بارسال السفراء أن يبعثوا برسالة ويكتفوا بها ولكن يريدون أن يعرفوا كثيراً من أحوال المملكة ودقائق شئونها ، ولا يجوز أن يركن اليهم بالثقة فهم كالعيون والجواسيس وأصحاب الأخبار . واذا أراد ملك أن يرسل رسولا فعليه أن يحسن انتخابه من أولي المعارف الواسعة والمدارك البعيدة وطلاقة اللسان وبهاء المنظر وحسن المخبر .

ج — العيون والجواسيس

قال صاحب «صبح الاعشى» : «النظر في أمر العيون والجواسيس جزء عظيم من أسس الملك وعماد المملكة وقد شرطوا في الجاسوس شروطاً : منها أن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه ، فان الظنين لا ينتفع بخبره وان كان صادقاً لانه ربما أخبر بالصدق فتهم فيه فتفوت فيه المصلحة، ومنها أن يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة ليدرك بوفور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو بالمشاهدة ما كتمه . ومنها أن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة ... ومنها أن يكون له دراية بالاسفار ومعرفة البلاد التي يتوجه اليها ومنها أن يكون عارفاً بلسان أهلها ... ومنها أن يكون صبوراً على ما لعله يصير إليه من عقوبة ان ظفر به العدو بحيث لا يخبر بأحوال مليكه ولا يطلع على وهن في مملكته ، فان ذلك لا يخلصه من يد عدوه ولا يدفع سطوته عنه .

فاذا وجد من العيون والجواسيس من هو مستكمل لهذه الشرائط وما في معناها فعليه أن يظهر لهم الود والمصافاة ولا يطلع أحداً منهم في زمن تصرفه له انه يتهمه ولا أنه غير مأمون لديه ، فربما آذاه ذلك في أضيق الاوقات ان يكون عيناً عليه ... وعليه أن يجزل لهم الاحسان والبر ولا يغفل تعاهدهم بالصلات قبل احتياجه اليهم ، ويزيد في ذلك عند توجيههم الى المهمات ، ويتعهد أهليهم في حضورهم وغيبتهم .. واذا قضي على من يبعثه منهم بقضاء أحسن الى من خلفه من أهله ، وجعل لهم من بعده من الاحسان ما كان يجعله له اذا ورد بنفسه عليه ليكون ذلك داعياً لغيره على التضحية . واذا قدر ان عاد منهم أحد غير ظافر بقصد أو حاصل على طلبة وهو ثقة فلا يستوحش منه بل يوليه الجميل ويعامله بالاحسان . وعليه أن يحترز من أن يعرف جواسيسه بعضهم بعضاً لا سيما عند التوجه للمهمات، وان استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة فعل ، وان لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولى ايصاله اليه . . وأيضاً فانه لا يؤمن اتفاقهم عليه وممالأتهم لعدوه . . وعليه أن يصغي الى ما يلقيه اليه كل من جواسيسه وعيونه وان اختلفت أخبارهم ويأخذ الأحوط فيما يؤديه اليه اجتهاده من ذلك ، ولا يجعل اختلافهم ذنباً لأحد منهم ، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله . . واذا عثر على أحد من جواسيسه بزلة فليسترها عنه وعليه ولا يعاتبه على ذلك ولا يوبخه عليه فان وبخه ففي خلوة بلطف .. فان ذلك أدعى لاستعلائه .. واذا أحضر اليه جاسوس يخبر عن عدوه استعمل فيه التثبت ودوام البشر ، ولا يظهر تهاوناً عليه تظهر معه الخفة ولا اعراضاً عنه يفوت معه قدر المناصحة ولا يظهر له كراهة ما يأتيه من الأخبار المكروهة ، فان ذلك مما يستدعي كتمان السرعة فيما يكره فيؤدي الى الاضرار ...

واعلم أنه لا يمكن أحد أن يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوه فيجب الاحتراز منهم بكتمان السر وستر العورة ما أمكنه ، على انه ربما دعت الضرورة في بعض الأحيان الى أن يعرف الملك عدوه بعض أموره على حقيقته لأمر يحاول به مكيدته . والطريق في ذلك أن يتلطف الى أن يصير جاسوس عدوه جاسوساً له ، بأن يتودد اليه بالاستمالة والبر وكثرة البذل . حتى يستخرج نصيحته ، فحينئذ تلقي اليه ما أراد تبليغه الى صاحبه الأول مما فيه المكيدة فيوصله اليه فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتهمه» .

« دمشق »

المآصر في بلاد الروم والاسلام

لميخائيل عوّاد

— ٩ —

(هـ) مأصر القاهرة

أشرنا غير مرّة في ما مضى من بحثنا هذا، إلى أن كلاًّ من المآصر النهرية والبحرية اتخذت لصدّ أخطار الغزو الذي يقع بين حين وآخر على البلاد، ولتنظيم سبل التجارة وتسهيل أمر استيفاء الضرائب والعشور، ولكنها هاهنا في القاهرة لم تتخذ لهذه الأغراض، بل أصبحت لأمرٍ فريد غريب انفردت به دون ما سواها من المدن الراكبة سواحل البحار الملحة وضفاف الأنهار. وسأقصّ عليك من أخبار هذا المأصر الفريد ما وقفت عليه من الأنباء.

إن من جملة الخلجان الخمسة التي بظاهر القاهرة، خليجاً[1] يعرف بـ «خليج فم الخور[2]» قال المقريزي إنهُ « يخرج الآن من بحر النيل ويصبّ في الخليج الناصري ليقوي جري الماء فيه ويغزره، وكان قبل أن يحفر الخليج الناصري يمدّ خليج الذكر . . . »[3]

وكان هذا الخليج من متنزهات أهل القاهرة، وأحد مواطن اللهو والتيه، يعبرون فيه بالمراكب للتنزه، وكان أكثر روّاده من أهل القصف والبطالة، « فظهر من المنكرات ما لم يعهد في مصر في وقت من الأوقات . . . فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة في مراكب في نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهنّ المزاهر يضربنَ بها وتسمع أصواتهنّ، ووجوههنّ مكشوفة وحرفاؤهنّ من الرجال معهنّ في المراكب لا يمنعون عنهنّ الأيدي ولا الأبصار، ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الإنكار، وتوقّع أهل المراقبة ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة»[4].

وكان على خليج فم الخور قنطرة واحدة هي المسماة بقنطرة القسي[5]. قال المقريزي إن قنطرة القسي هذه « على خليج فم الخور وهو الذي يخرج من بحر النيل ويلتقي مع الخليج الناصري عند الدكة فيصيران خليجاً واحداً يصبّ في الخليج الكبير. كان موضعها جسراً يستند عليهِ الماء إذا بدت الزيادة إلى أن تكمل أربع عشرة ذراعاً فيفتح ويمرّ الماء فيه

(١) خليج، « انظر الذيل رقم ١ » (٢) الخور، « انظر الذيل رقم ٢ » (٣) خطط المقريزي (٣ : ٢٣٥) (٤) خطط المقريزي (٣:٢٣٣) (٥) انظر كلاما متصلا على القسي في خطط المقريزي (٢ : ٢٠٨ — ٢٠٩، و٣ : ١٩٦ — ٢٠٢ و ٤ : ٦٥ — ٦٦)

إلى الخليج الناصري وبركة الرطلي [١] » . . . وما زال موضع هـذه القنطرة سدًّا إلى أن كانت وزارة الصاحب شمس الدين أبي الفرج عبد الله المقسي في أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فأنشأ بهذا المكان القنطرة فعرفت به ، واتصلت العمائر أيضاً بجانبي هذا الخليج من حيث يبتدئ إلى أن يلتقي مع الخليج الناصري ، ثمّ خرب أكثر ما عليه من العمائر والمساكن بعد سنة ست وثمانمائة . وكان للناس بهذا الخليج مع الخليج الناصري في أيام النيل مرور في المراكب للنزهة يخرجون فيه عن الحدّ بكثرة التهتك والتمتع بكلّ ما يلهي إلى أن ولي أمر الدولة بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حُسَين الأميران : برقوق وبركة فقام الشيخ محمّد المعروف بصائم الدهر بمنع المراكب من المرور بالمتفرجين في الخليج ، واستفتى شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني ، فكتب له بوجوب منعهم لكثرة ما ينتهك في المراكب من الحرمات ويتجاهر به من الفواحش والمنكرات ، فبرز مرسوم الأميرَيْن المذكورَيْن بمنع المراكب من الدخول إلى الخليج ، وركبت سلسلة على قنطرة المقسي هـذه في شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ، فامتنعت المراكب بأسرها من عبور هذا الخليج إلاّ أن يكون فيها غلّة أو متاع ، فقلق الناس لذلك وشقّ عليهم . وقال الشهاب أحمد بن العطّار الدنيسري في ذلك :

حديث فم الخور المسلسل ماؤه — بقنطرة المقسي قد سار في الخلق
ألا فاعجبوا من مطلق ومسلسل — يقول لقد أوقفتم الماء في حلقي

تسلسلت [٢] قنطرة المقسي ممّا — قد جرى والنع أضحى شاملا
وقال أهل طبنـة في جمعهم — قوموا بنا نقطع السلاسلا

ولم تزل مراكب الفرجة ممتنعة من عبور الخليج إلى أن زالت دولة الظاهر برقوق في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، فأذن في دخولها وهي مستمرة إلى وقتنا هذا » [٣] .

وقد تطرّق السيوطي إلى هذه السلسلة حينما ساق الحوادث الغريبة الكائنة بمصر في ملّة الإسلام ، فقال : « في سنة إحدى وثمانين (وسبعمائة) رسم الأمير بركة ... بأن يُعمل على قنطرة فم الخور سلسلة تمنع المراكب من الدخول وإلى بركة الرطلي . فقال بعض الشعراء في ذلك :

أطلقتُ دمعي على خليج — مذ سلسلوه فراح مقفل
مَن رامَ من دهرنا عجيبا — فلينظر المطلق المسلسل [٤]

(١) انظر بركة الرطلي في خطط المقريزي (٣ : ٢٦٣ — ٢٦٤) ، وفي بدائع الزهور (١ : ١٦٣ — ١٦٤) (٢) في المطبوع « تسلست » وهو تحريف ظاهر (٣) خطط المقريزي (٣ : ٢٤٤ — ٢٤٥) (٤) حسن المحاضرة (٢ : ١٦٣ ، المطبعة الشرفية) — (٢ : ١٨٢ ، مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢١ هـ)

وفي أيّام ازدهار هذا الخليج وارتياده مِن أهل الخلاعة والقصف وذوي الآداب والظرف عُـمِّـرَت البقاع المطلّة عليه ، فأنشأ الناس « بها دياراً جليلة تَـنَـاهى أربابها في إحكام بنائها وتحسين سقوفها ، وبالغوا في زخرفتها بالرخام والدهان وغرسوا بها الأشجار ، وأجروا إليها المياه مِن الآبار ، فكانت تُعدّ مِن المساكن البديعة النزهة ، فكم حوت تلك الديار ، مِن حسن ومستحسن » ، قال مَـن شاهَـدَها : « ما مررتُ بها قط إلاّ وتبيَّـن لي مِن كلّ دار هنـاك آثار النِـعم ، إما روائح تقالي المطابخ ، أو عبير بخور العود والندّ ، أو نفحات الخمر ، أو صوت غناء ، أو دقّ هاون ونحو ذلك ، ممّـا يبين عن ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغضارة نعمهم . ثم هي الآن موحشة خراب ، قد هدمت تلك المنازل وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ، فزالت الطرق وجهلت الأزقة » تلك هي العاقبة « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً » (١)

الضرائب والعشور بمصر

كان الاهتمام بأمر هذه الثغور على مدى السنين عظيماً يأتي في طليعة الأعمال الرئيسة وقد وقفنا على تقليد الخليفة إلى السلطان من إنشاء فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء بمصر في حدود سنة تسع وخمسين وستمائة يقول له فيه : « ....واجعل أمرها (الثغور) على الأمور مقدماً ، وشيد منها كل ما غادره العدو منهدماً ، فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع ، وأولاها بالاهتمام ما كان البحر لمجاوراً والعدوّ له ملتفتاً ناظراً ، لاسيما ثغور الديار المصرية ، فان العدو وصل إليها رابحاً وراح خاسراً ، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثراً »(٢) . وهنالك عامل آخر غير صد الغزاة والطامعين ، هو استيفاء الضرائب والعشور ، وهي من الأسس التي عليها ثروة البلاد ، وقد كانت المآصر بمصر تعين الضرائبيين على إتمام عملهم على الوجه الحسن . وذكر البشاري المقدسي أن الضرائب بمصر كانت ثقيلة خاصة بتنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، فقد كان « يؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ، ومثل هذا وأشباهه ، ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال . رأيت بساحل تنيس ضرائبيًّا جالساً قيل قبالة هذا الموضع في كل يوم ألف دينار ، ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الإسكندرية ، وبالإسكندرية أيضاً على مراكب الغرب ، وبالفرما على مراكب الشام ، ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم » (٣) . ولنا شاهد حسن فيما يرويه الرحالة

(١) سورة الاسراء (١٧ : ١٥) (٢) السلوك للقريزي (١ : ٤٥٦—٤٥٧) ، وراجع بهذا الصدد : مقدمة ابن خلدون (٢ : ٣٢—٤٠ ، طبع باريس) ، وصبح الاعشى (٣ : ٥٢٣—٥٢٤)

(٣) أحسن التقاسيم (ص ٢١٣)

ابن جبير، الذي وصل ثغر الإسكندرية في يوم السبت ثاني ذي الحجة من سنة ٥٧٨ للهجرة، قال: «فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها، لتقييد جميع ما جلب فيه، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل»(١).

خاتمة البحث

هذا ما انتهى إلينا من أخبار المآصر، وهو كما رأيت، كلام جمعت أجزاؤه من غير كتاب، وضمت فوائده بعد أن كانت منثورة في كثير من المظان، تلك التي حاولنا جهد الطاقة أن نجمع أشتاتها، ونصل ما بين حلقاتها لنخرجها على الوجه الذي بين يديك.

وقد بان لك من مطاوي البحث أن هذه المآصر بصنفيها: النهري والبحري، كانت جليلة القدر، عظيمة الخطر، وعلى أيديها كانت تنتظم أمور الحرب وسبل التجارة مدى أجيال كثيرة في بلدان الروم والاسلام.

«بغداد» ميخائيل عواد

الذيل

(١) الخليج على ما في التاج: نهر في شق من النهر الأعظم وجناحا النهر خليجاه، وأنشد:

إلى فتى فاض أكف الفتيان فيض الخليج مده خليجان

وفي الحديث أن فلاناً ساق خليجاً، الخليج نهر يقتطع من النهر الأعظم إلى موضع ينتفع به فيه. والخليج شرم من البحر. وقال ابن سيده: هو ما انقطع من معظم الماء لأنه يجبذ منه وقد اختلج. وقيل الخليج شعبة تشعب من الوادي والجمع خلج وخلجان.

(٢) قال في التاج (٣ : ١٩٢، مادة: خ ا ر): «الخور مثل الغور المنخفض المطمئن من الأرض بين النشزين، والخور: الخليج من البحر، وقيل مصبّ الماء في البحر، وقيل هو مصب المياه الجارية في البحر إذا اتسع وعرض. وقال شمر: الخور عنق من البحر يدخل في الأرض والجمع خؤور، قال العجاج يصف السفينة:

إذا انتحى بجؤجؤ مسمور وتارة ينقض في الخؤور تقضي البازي من الصقور»

---

(١) رحلة ابن جبير (ص ٣٥ ط رايت، ص ٣٩ - ٤٠، دي غويه، ص ٧ - ٨، ط السعادة)

التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى .

بشر فارس

المقتطف ، يناير ١٩٤٥

المشتمل

سنة مضت

صورتان من الفن العربي في دمشق

١ — الكتب

أبو نواس	نقد	بقلم	محمد عبد الغني حسن
جمهور أرسطفانس	—	—	وهيب كامل
رسالة الملائكة	—	—	رفعت فتح الله
كتاب فتوح إفريقية والأندلس	—	—	زكي محمد حسن

كتب ظهرت :

تاريخ جرح — جبران خليل جبران — رسالة الهناء — الشوامخ — الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية نقد بقلم *

٢ — المجلات

«الأديب» العدد الخاص بأبي العلاء بقلم عبد السلام محمد هارون

٣ — المسرح

صفق الجمهور فصفق النقاد — زكي طليمات

٤ — الاستدراك

الامتاع والمؤانسة الجزء الثالث — مصطفى جواد

٥ — المسائل

الأديب وحرفته — بشر فارس

سنةٌ مضت

رضي نفر من إخوان الصفاء في ألفة الذهن والإخلاص لخلوص الأدب والائتمار بما يرسمه العلم أن يروا رأيي في استحداث هذا الباب ، بل شاءوا أن أكون صاحب توجيهه وتدبيره ، فشرفوني بثقتهم . وما أدري هل كنت عند حسن ظنهم بي . (ثم انضم إلى هؤلاء الاخوان بعد ذلك نظراء لهم فضلاء من مصر وغير مصر .)

وكان مقصدنا الأبعد إرضاء فئة من القراء هم شركاؤنا في الصفاء والاخلاص والائتمار ثم تهيئة جيل من القراء ينبذون ماسقط ورخص وزعم . وقد تخيرنا هذه المجلة الجليلة الثابتة لتكون مجال قرائحنا . فأصبنا من أحد منشئيها — مدّ الله في عمره — عونَ العالم وحث الرائد ، ثم من رئيس تحريرها ترحيباً وتفويضا .

هذا ، وكنا أجمعنا الرأي على أن يكون الأمر على سبيل التجربة مدة سنة كاملة . وهذه اثنا عشر شهراً ولت . فانتهت التجربة . على أنها دلّت — وكم نفرح بالدلالة — أن شركاءنا من القراء كثير ، وأن المهذبين من الجيل الطالع منجذبون إلى مثل هذا الجد الصادق . فقد أقبل علينا هؤلاء وهؤلاء من أمصارٍ شتى وراسلونا وأيّدونا . فأي ثواب خير من هذا الثواب ؟ وإن نحن أمسكنا اليوم عن المضيّ في هذا الباب وطويناه في المقتطف فانما ذلك إلى حين ، ريثما نتجمع لخطوة تلي التي خطوناها فيطّرد النشاط .

ألا شكراً للمقتطف على حفاوته ، وسلاماً على من رجع الينا وركن .

ب . ف

١ — الكتب

• أبو نواس • بقلم عبد الرحمن صدقي

١٥ × ١٩ سم ١٩٠ ص عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٤٤

قيل إن أبا نواس لم يكن خليقاً أن يكتب في شانه في سلسلة موقوفة على أعلام الاسلام ، وقيل مثل هذا حين أخرج الأستاذ المازني كتابه في هذه السلسلة عن بشار .

وكأنّ الأستاذ عبد الرحمن صدقي توقع الاعتراض على هذا الاختيار ، فكتب مقدمة يعلل في شطر منها الحكمة في هذا الاختيار ويدفع عن نفسه وعن صاحب بشار وممّن يعتزمون الكتابة في مثل هذه الشخصية الماجنة .

غير أن دفاع المؤلف لا يعفيه من الوقوع في اللوم . فإننا لم نفته بعد من الترجمة لأعلام الفقه والسياسة والفتح والفكر حتى نستبق الى الترجمة لأعلام الخلاعة واللهو . إلاّ أن المؤلف قد شاء ذلك ، فليكن له ما شاء ، وليكن لنا أن نقول ما نعتقد .

وهذا الكتاب — في الحق — لم تخرجه العجلة ، ولكن أخرجته الأناة وطول الصحبة لأبي نواس . ولهذا تجد فيه الصدق في الترجمة ، وحسن التصوير لحياة شاعر شاء القدر الساخر أن يجعله مثلاً للحياة العابثة في العصر العباسي الأول .

وطريق المؤلف في الترجمة طريق صحيحة شائقة . فهو لا يصحب الشاعر من يوم ولادته ، ولكن يذهب بعيداً الى أصله والعوامل الفعالة فيه ، ولا يزال يعرض ألوان حياته وألوان الحياة التي أحاطت به حتى يشيع فيه الفناء من طول ما مجن ، فيتذكر طاعة الله وهو نضو هزيل . والمؤلف رفيق بصاحبه الشاعر ، بل قد يلتمس له العذر فيما وقع فيه ، وقد يحمل تعريضه بالدين على محمل الهزل واللهو لا محمل القصد والجد (ص ٦٧) .

وكان من الطبعي أن يذكر المؤلف شعراً للشاعر على سبيل الاحتجاج والاستشهاد . ولكن ما باله — غفر الله له — لا يتحرى وجه الصحة في الرواية فيكون بعض ما رواه غير مضبوط ، أو ناقصاً في الوزن ، أو جارياً على غير الرسم الصحيح للشعر . ولو جاز هذا من مؤلف فلن يجوز من عبد الرحمن صدقي الذي ظهرت عنايته بالشعر في كثير من مواضع الكتاب . وما بال من يهدف الى الدقة في صفحة من الكتاب يهملها في صفحة مواجهة ؟

ففي ص ٦٧ : اسقنيها ملاً وفا لا أريد المنصّفا
والصحيح : اسقنيها ملا وفا لا أريد النصّفا

وفي ص ٨٠ : قد رأينا عربيات يواصلن نبيطا
والرسم الصحيح للبيت : قد رأينا عربيا ت يواصلن نبيطا

وفي ص ٨٣ : لست أحظى به سوى نظر يشركني فيه كل إنسان
والبيت ناقص وتمامه: مَن لستُ أحظى به سوى نظر يشركني فيه كل إنسان

وفي ص ٥٩ : تحيرت والنجوم وقف لم يتمكن منها المدار
والصحيح : « لم يتمكن بهـا المدار » . (راجع ديوان ابي نواس ص ٢٧٤ من طبعة آصاف، وغيرها في ص ٩٢ سطر ٩ ، ص ٩٩ سطر ١٦) .

ثم إن في شعر أبي نواس كثيراً من الألفـاظ التي تنغلق على الافهـام ، ففسر المؤلف بعضها وأغفل كثيراً منها . وكان خيراً للقراء لو فسرها جميعاً :

ففي ص ١٠٦ فسر كلة « الجاثليق » وترك جارتها في البيت نفسه وهي كلة « مطر بليط » والذي أعرفه أنها تعريب لـكلمة Metropolite ، وهو منصب رفيع عند المسيحيين .

وفي ص ١١٤ ترك البيت الآتي من غير تفسير ألفاظه :

نيط بتفاح إلى مشمش بين نخيل الطُن والبَرْنِ

والطُن : الرُّطَب الأحمر الشديد الحلاوة . والبرني : نوع من التّمْر العراقي . وهناك كلمات كثيرة جدًّا في شعر النواسي لم يتعرض لهـا المؤلف بالشرح ، مثل هذه : قِرَاة القس . ص ١٠٥ ، وشمعلة ص ١٠٦ ، وآيين ص ١٠٨ ، ودير نهر أذان ص ١٠٧

وقد يفسر المؤلف الـكلمة بأخرى أكثر منها غرابة ، كما فسر « الدهليز الأزج » « بالساباط » ، والساباط أدخـل في الغرابة من الدهليز الأزجّ .

وما كان أتم الترجمة لو أن المؤلف عقد فصـلاً في التهكم عند أبي نواس ، بدلاً من الاشارات العابرة إليه . أليس التهكم لوناً من ألوان نفسية الشاعر كان خليقاً باطالة الوقوف لديه ؟

ثم الوفاء يا أخي ! أيكفيك ويكفي أبا نواس أن تتحدث عنه في بضعة أسطرـ ص ١٧٧ ؟

ولـكنها ملاحظات لا تبخس قدر عمل المؤلف ، ولعله مستدركها فيما نرجوه منه من مستقبل الانتاج .

محمد عبد الغني حسن

• جمهور أرِسطُفانِس • بقلم فيكتور إرنبرج

The People of Aristophanes by Victor Ehrenberg

٢٤×١٧ سم ٣٢٠ ص وألواح أكسفرد ١٩٤٣

هذا الكتاب على اتجاه جديد في دراسة الأدب من ناحية علم الاجتماع ، وهذا الاتجاه وليد السنوات الماضية ، وروّاده النقاد الجامعيون في فرنسة وإنجلترة وقد أخرجوا أبحاثاً في الأدبين الفرنسي والانجليزي تدور على تعرف صفات البيئة وأخلاق أهلها على ضوء النصوص الأدبية . وفي أدبنا العربي الحديث مَثل على ذلك هو بحث في اللغة الفرنسية للدكتور بشر فارس عن « مجرى الأدب في مصر سنة ١٩٣٨ » (١)

أما في نطاق الأدب اليوناني القديم فالرائد هو الأستاذ طُمسُن Thomson بكتابه الجليل « إِسخيلُس والآثينيون » (لندن ١٩٤١) ، وتلاه الأستاذ لِتِل Little بكتابه « الأساطير والشعب في المسرحية الآثينية » (أكسفرد ١٩٤٢) ، والكتاب الذي نحن بصدد مراجعته الآن حلقة في هذه السلسلة الجديدة .

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ السابق للتاريخ القديم في جامعة براهة (تشيكوسلوفاكية) . وقد أفرد مقالات لدراسة الملابسات الاجتماعية والاقتصادية في آثينة معتمداً كل الاعتماد على النصوص المتبقية من « الكوميدية » (الأضحوكة المسرحية) فجاء كتابه مرجعاً لدراسة أرسطفانس والتاريخ الاجتماعي والاقتصادي لآثينة جميعاً .

وتنفرد الكوميدية في أنواع الأدب في ما تسوقه من شواهد على أحوال البيئة بهذه الميزة : أن هذه الشواهد تجري في الكوميدية عفواً دون عمد ، فهي بذلك فوق التجريح وفي ذلك يقول المؤلف : « إن الكوميدية وحدها دون سائر أنواع الأدب تعرض أدلة اجتماعية واقتصادية لا غرض من ورائها سوى إحداث الجو الفني المسرحي » (ص ٦) .

ونحن نرى أن الحيطة واجبة هنا على كل حال ، فان تصور الجو الفني المسرحي يتوقف إلى

---

(١) القاه في مؤتمر المستشرقين بمدينة بروكسل سنة ١٩٣٨ ونشرته مجلة القاهرة La Revue du Caire (أغسطس ١٩٤٢) ووصفته المقتطف (دسمبر ١٩٤٢ ص ٥٤٠) قالت : « وقيمة هذا البحث في طرافة المعالجة وملخصها أن الكاتب يستنقذ مجرى الحياة الاجتماعية من التآليف فيستخرج الحالات الذهنية والنفسانية والثقافية والارادية وتبيين النزعات المختلفة من ثنايا الكتب »

حد بعيد على وجهة نظر المؤلف المسرحي . هذا وثمة صعوبة أخرى إذ ليس هناك من سبيل إلى التفرقة بين النصوص التي يمكن أن نقف عند المعنى الحرفي في تأويلها والتي ترد مشوهة ممسوخة لأجل إثارة الضحك والسخرية . ولكن مؤلف الكتاب كان حصيفاً في جل ما تناول من شواهد فقد تحذّر وتحوّط.

هذا ، وإن النتائج التي وصل إليها المؤلف — على حداثة الطريقة التي اتبعها في تناول الموضوع — لا تروع القارئ المستطلع إذ ليس فيها من جديد ، والسبب أن كل من عنوا بدراسة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في آثينة القديمة لم يهملوا النظر في مسرحيات أرسطفانس ولم يغفلوا شاهداً من شواهدها ، ولو أنهم لم يدرسوها تلك الدراسة المستفيضة. ونحن لا نستطيع أن نتخيل صورة للقانون اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد لا تكون مستقاة في بعض دقائقها من مسرحيات أرسطفانس .

وهناك مسائل معدودات نخالف فيها المؤلف ، فقوله إن الحلّـفين كانوا يقيدون أسماءهم في مقاطعات مختلفة « ليحصلوا على أكثر من مرتب واحد » (ص ٢٤٢) لا يبدو صحيحاً لنا ، إذ أنهم كانوا يلجأون إلى هذا المسلك ، ليضمنوا اختيارهم في إحدى الدوائر.

ولقد عجبنا للمؤلف كيف يهمل الاستشهاد بالمقطوعة (سطر ١٥٣ — ١٧٠) من مسرحية « آخارنين » في معرض حديثه عن استخدام الجنود المرتزقة في الحرب البيلوبونيزية (ص ٢٢٣) ، فالمقطوعة تدور على كره أهل آثينة لهؤلاء الجند ونفورهم من استخدامهم .

• • •

وبعد ، فهل نحن نرضى عن هذا الاتجاه الجديد في الدرس ؟ أليس من التطرف أن نعد التاريخ الاجتماعي موضوع مسرحيات أرسطفانس ، كما يرى المؤلف (ص ٨٠ وما بعدها) وهل أراد أرسطفانس حقاً لمسرحياته أن تكون وثائق للتاريخ الاجتماعي ؟ (ص ٩٠) . نحن لا ننكر أن بعض مسرحياته وعلى التخصيص بلوتس Plutus كانت معنية أشد العناية بالمشكلتين الاجتماعية والاقتصادية ، إذ تناولت مسألة العدل الاجتماعي وإعادة توزيع الثروة وأثر شهوة الإثراء في الأخلاق . ونحن نوافق أصحاب هذه المدرسة الحديثة على أنه ليس أجدى على دراسة الأدب اليوناني القديم من تبين الصلة الوثيقة بينه وبين أبعد ما يشغلنا الآن من أحداث . ولكن ليس معنى هذا أن نقحم الآثار الفنية الرائعة في مجموعة الوثائق التاريخية ، ولا أن نستقبل هذه الآثار في غير الوجهة التي رسمها أصحابها الخالدون .

وهيب كامل

• رسالة الملائكة • للمعري

بتحقيق وشرح محمد سليم الجندي

١٧½ × ٢٥ سم ٣٠٢ ص دمشق ١٩٤٤

قد كان هذا الكتاب دفين المكتبات الخاصة ، ثم انتقل إلى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، على حين تناقل الأدباء قطعة منه ظنوها « رسالة الملائكة » . وهذه الرسالة قد طويت تحت أجنحة هذا العنوان ، لأن أبا العلاء ألّفها في سن الأشياخ ، فتخيل في مطلعها حواره للملائكة يحاول أن يشغلهم بتصريف الألفاظ . . . انظر قوله « والظعن إلى الآخرة قريب ، أفتراني أدافع مَلَكَ النفوس فأقول أصل ملك : مألك ، وإنما أخذ من الألوكة ، وهي الرسالة ، ثم قلب ، ويدلنا على ذلك قولهم : الملائكة ، في الجمع ، لأن الجموع تردّ الأشياء إلى أصولها ، وأنشده قول الشاعر :

فلست لأنسيّ ولكن لملأك تنزل من جو السماء يصوب

فيعجبه ما سمع ، فينظرني ساعة لاشتغاله بما قلت ، فإذا هم بالقبض قلت : وزن مَلَك على هذا القول مَعَل ، لأن الميم زائدة ... قال عمر بن أبي ربيعة : . . . وأنشد أبو عبيدة : . . . فيقول الملكُ : من ابن أبي ربيعة ؟ وما أبو عبيدة ؟ وما هذه الأباطيل ؟ إن كان لك عمل صالح فأنت السعيد ، وإلاّ فاخسأ وراءك ، فأقول أمهلني ساعة حتى أخبرك بوزن عزرائيل ، فأقيم الدليل على أن الهمزة زائدة فيه ، فيقول الملك : هيهات ليس الأمر إليّ ، إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . أم تراني أداري منكراً ونكيرا فأقول : . . ؟ » (ص ٥ — ٩) .

وهذه الرسالة — وإن بدئت بالتواضع المغرق — آية على علاء أبي العلاء في علوم العربية ونفاذ رأيه في طرائف اللغة والتصريف ، حتى إنه يوجه الكلمات الأعجمية في المعرض العربي فيكاد يخفي سَحْنَتها الأعجمية (١) .

وقد جهد الأستاذ الجندي في بحث الرسالة جهداً موفوراً ، وبث في مسائلها شرحاً مشكوراً ، ولعله يتقبل أن نسوق إليه بعض الخواطر التي ساقها نظر الرسالة وشرحها .

---

(١) قد كان أبو العلاء يعلم أن الاعجمي المعرب لا يجري مع الاصول العربية ، وعثل ذلك رد على أبي إسحاق الزجاج (« رسالة الملائكة » ص ٣٨) ولكنه إذا فاض علمه بالعربية طغى على بعض الكلمات الاعجمية .

جاء في ص ١١٦ : « أبو داود (كذا ذكره مرتين) جارية وقيل جويرية بن الحجاج من إياد ابن نزار بن معد ، شاعر قديم ، يقال إنهُ أوصف الناس للفرس ، وأكثر شعره في وصف الخيل » ، والذي نعلمه أنه « أبو دُوَاد » (انظر القاموس ، وشرحه ، والأغاني ، والشعر والشعراء ، والمؤتلف والمختلف ، والخزانة ، وغيرها) . والبيت الذي ذكره أبو العلاء في هذا الموضع جاء في موضعين من الصحاح واللسان والتاج (ج و ب ، ش و ه) ونسبه أصحابها إلى أبي دواد ، ولولا ما صنعه الشارح في آخر الرسالة لحسبناه من الغلط المطبعي ، ولكنه ذكر في « فهرست أسماء الأعلام » (ص ٢٨٨) ما نصه : « جارية بن الحجاج (أبو داود) ١١٦ » ، وذكر في ص ٢٩٠ ما نصه : « أبو دؤاد الإيادي ٧٤ ، ... » .

وجاء في ص ٥٩ قول أبي العلاء : « ولو قال قائل : ما وزن أُنْ ؟ (وهو الأمر من آن يؤون ، أي رفق في السير) لقيل : وزنه فُلْ وأصله أُفْعُلْ ، لأنه من باب قتل يقتُل ..... ولو نطق بذلك على الأصل لقيل أُووُنْ ، بواوين ، الأولى منهما كانت همزة فجعلت واواً . . . وكذلك قالوا : رُويَة ، فجعلوا الهمزة واواً ، ومن قال رُيَّة في رؤية ، ألزمه القياس أن يقول أُوٌّ ، فيدغم » .

وهذا موضع وعر من مواضع التصريف يحتاج إلى ضبط وإحكام ، فما « أُوٌّ » ؟ وهل هذا تنوين ؟ والصواب : أُوُّنْ .

وجاء في ص ٣٠ : « المطيبون خمس قبائل : بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى وبنو تيم وبنو زهرة » . وهؤلاء أربع ، فأين الخامسة ؟ لعله سقط منه : « وبنو الحرث بن فهر » .

ولقد كنا نود أن يستكمل الأستاذ الجندي أشياء ذكرها في شرحه دون ترجيح أو رجع إلى الأصول . جاء مثلاً في ص ٢٤ البيت :

فقلت لصاحبي لا تحبسانا ... بنزع أصوله واجتزّ شيحا

وذكر الأستاذ الجندي نسبته إلى يزيد بن الطثرية وإلى مضرس بن ربعي الأسدي ، ثم ذكر شيئاً من ترجمة يزيد . ولعلّ الأستاذ يعلم ردّ العلماء على نسبة البيت إلى يزيد ، فلو رجح نسبته إلى مضرس وذكر شيئاً من قصيدته التي منها هذا البيت لكان أقرب إلى جنى التحقيق :

وضيفٍ جاءنا والليلُ داجٍ ... وريحُ القرّ تحفزُ منه روحَا
فطرت بمُنصُلي في يَعملاتٍ ... خفافِ الوطءِ يخبِطْنَ السَّريحَا
فمَضْ بساق دَوْسرَةٍ عليها ... عتيقُ النّيِّ لم تخفِزْ لقُوحَا
وقلت لصاحبي لا تحبسني ... بنزْع أصوله واجتزّ شيحَا

وجاء في ص ١٢ قول أبي العلاء : « وقد ذكر الفارسي هذا البيت مهموزاً :

أحب المؤقدين إلي مؤسى وحزرة لو أضاء لي الوقود

وعلى مجاورة الضمة جاز الهمز في : سوق ، جمع : ساق ، في قراءة من قرأ كذلك » .
وكان كل ما ذكره الأستاذ الجندي في هذه القراءة قوله : « نسبها البيضاوي إلى ابن كثير »
وكان خيراً للأستاذ أن يذكر قول ابن جني — تلميذ الفارسي هامز البيت — في « سر الصناعة » (وقد ذكر كلام شيخه أبي علي) : « وروى قنبل عن ابن كثير ، بالسُّؤق : فهمز الواو ، ووجه ذلك أن الواو وإن كانت ساكنة فإنها قد جاورت ضمة الميم ، فصارت الضمة كأنها فيها ، فمن حيث همزت الواو في نحو : أُقِّتَتْ وأجوه ، لانضمامها كذلك كان همز الواو في : المؤقدين ومؤسى ، على ما قدمناه » .

وجاء في ص ٢٧ ذكر « سفرجل » وتصغيره ، ونقل الأستاذ عن سيبويه في موضعين ، وكان خيراً أن يتم ذلك بذكر كلام سيبويه في الكتاب (ج ٢ ص ١٠٧) .

وكذلك كنا نحب أن يراجع الأستاذ الباحث تصحيح الطبع ، لتقل الأغلاط المطبعية ، وليتنبه القارئ عليها إذا كان لها جدول في آخر الكتاب ، ونحن لا نعنى بعديدها هنا ، فإن البحث أجلّ من ذلك ، ولكننا نذكر منها مثلاً :

جاء في ص ٥٥ : « لا أنهم ... السنين ... الثواب » والصواب « لا أنَّهم ... السنين ... الثوابّ » ... الخ . وكذلك كنا نحب أن يضع الأستاذ الجندي من علائم الترقيم ودلائل الفصل في مفاصل الكلام ما يمهد طريق النظر إليه . وللأستاذ عندنا تقدير كريم .

رفعت فتح الله
أستاذ النحو بكلية اللغة العربية بالأزهر

• كتاب فتوح إفريقية والأندلس • لعبد الرحمن بن عبد الحكم

نشره وترجمه : جاتو .

Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne
édité et traduit par Gateau

١٤½ × ١٩½ سم ١٦٣ ص éditions Carbonel الجزائر ١٩٤٢

هذا هو الكتاب الثاني من سلسلة المكتبة العربية الفرنسية — Bibliothèque Arabe Française التي تصدر بإشراف المستشرق الفرنسي الأستاذ هنري بريس Henri Pérès والتي أريد بها نشر بعض عيون المؤلفات العربية ، ومع كل منها ترجمة إلى الفرنسية ومقدمة

في سيرة المؤلف وآثاره العلمية فضلاً عن بعض الشروح والتعليقات .[١]

ومؤلف الكتاب هو عبد الرحمن بن عبد الحكم المؤرخ المصري المتوفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ — ٨٧١ م) والذي كان مرجعاً ثميناً لكثير من أعلام المؤرخين المصريين ولا سيما الكندي والسيوطي .

عني ابن عبد الحكم بالفتوح الاسلامية فكتب فيها مؤلفاً كبيراً سماه « ذكر فتوح مصر » وقد وقف على نشره الأستاذ تري Ch. Torrey سنة ١٩٣٢ .

وختم المؤلف هذا الكتاب بالكلام على فتح إفريقية والأندلس بوصفها امتداداً لتاريخ مصر ، ولا عجب فابن عبد الحكم مؤرخ مصري قبل كل شيء . ومع أن كلامه على تلك الفتوح لم يكن باسهاب عني به المستشرقون الفرنسيون المشتغلون بتاريخ إفريقية حتى أعادوا نشره في الكتاب الذي نحن بصدده اليوم .

وكتب الأستاذ جاتو Gateau تصديراً لهذه الطبعة تحدث فيه عن غموض حوادث الفتح العربي في إفريقية والأندلس وعن سيرة ابن عبد الحكم وعن كتابه ومراجعة المؤرخين الذين نقلوا عنه وتأثروا به ، كما عرض لسائر المصادر المعروفة في دراسة الفتح الاسلامي في إفريقية . ونحن نرى أنه اعتمد في ما كتبه بشأن سيرة ابن عبدالحكم وآثاره على ما جاء في المقدمة التي عملها المستشرق الانجليزي جست Guest لكتاب « الولاة والقضاة » للكندي . ويلي ذلك التصدير نصوص ابن عبد الحكم في ذكر فتح برقة ، وذكر أطرابلس ثم استئذان عمرو بن العاص عمر بن الخطاب في غزو إفريقية ثم ذكر فتح إفريقية ومن كان يخرج على غزو المغرب بعد عمرو بن العاص وفتوحه ثم ذكر فتح الأندلس . وإزاء كل صحيفة من النص العربي ترجمتها بالفرنسية .

وختم الناشر الكتاب بطائفة من الشروح والتعليقات أشار فيها إلى بعض المراجع ، ووازن بين نصوص ابن عبد الحكم ونصوص جاءت في مراجع أخرى وعرّف فيها ببعض من جاء ذكرهم في النص العربي ، وأتى بغير ذلك من البيانات التي تعين على فهم الكتاب ، وعمل الفهارس التي تيسر الانتفاع به . والحق ان الترجمة الفرنسية دقيقة وحسنة ، وإنّ جهد الناشر هنا جليّ وجدير بالثناء .

زكي محمد حسن

* * *

(١) ظهر في السلسلة جزءان ، هذا المفقود فوق ثم « فصل المقال » لابن رشد وهو في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال (سنة ١٩٤٢) . وحسبنا اليوم هذا التنويه .

• تاريخ جرح • بقلم فؤاد الشائب

١٢×١٨ ١٨٢ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٤

تدل هذه المجموعة من الأقاصيص على أن فن الحكاية في الشام ـ والمؤلف منها ـ آخذ في الاستواء . ففي هذه الأقاصيص معرفة بأصول المدخل والمخرج والتفصيل والتحليل، وإن كان الذهاب في التفكير والتوجيه غير حافل بعد ولا ظاهر . وأما العبارة فتدفقة على تلوّن ، وإن كانت على اكتظاظ في التركيب .

• جبران خليل جبران • بقلم ميخائيل نعيمة

١٨×٢٥ ٣٠٤ ص مكتبة صادر بيروت ١٩٤٤

من الفائدة أن نخبر القراء بأن هذا الكتاب أُعيد طبعه في بيروت ، فقد نفدت نسخ الطبعة الأولى أو عزّت . وليس في هذه الطبعة مزيد، ولم يلتفت المؤلف إلى ما أثارته الأقلام يوم خروج الطبعة الأولى ، فلم يعلّق ولم يناظر ، وهذا يدل على شدة اطمئنانه إلى ما كتب أولاً . ومن دأب الاستاذ نعيمة أن يكتب وحليفه الاخلاص . وقد نقدت المقتطف هذا الكتاب حين ظهر ، فهل نزيد أنه من خير النماذج في السيَر ؟

• رسالة الهناء • المعري شرح وتحقيق كامل كيلاني

١٣½ × ١٩½ ٢٩٦ ص دار الكتب الاهلية القاهرة ١٩٤٤

في هذه الرسالة يبين المعري كيف ينتقل الطبع الانساني من الكذب إلى الصدق . وينحو في التبيين منحى التمثيل ، شأنه في كثير من رسائله ومن صفحات في « الفصول والغايات » . والرسالة جدّ صغيرة ، إلاّ أن الناشر صنع لها مقدمات وترجمات وحلاها بحواش وتعليقات بحيث أخرج سفراً لم يكن لأحد أن يظنه خارجاً في هذا الحجم . وفي هذه الاضافات لفتات وتنبيهات (هوامش نص الرسالة ص ٢٢١ — ٢٦٤) . ولا شك أن الشارح جد في قراءة ما انتهى إلينا من آثار أبي العلاء ، ولا شك أنه رغب في تقريبها إلى الأذهان.

غير انه مال إلى التطويل الترديد (قدم للرسالة في ثلاثة فصول : التمهيد والشرح والترجمة،علاوة على الحواشي) ورضي بفضول الكلام . من ذلك ترجمته لفاتحة الرسالة بهذه الكلمات : «يستهلّ أبو العلاءرسالته بالهناء ، هناء يقرن به نور وضياء ، وحسن وبهاء ، ورفعة وسناء ، وسمو واعتلاء . لا بل يستهلها بآيات من التهاني، يُرغم لها أنف المبغض الشاني » . ثم دونك نص فاتحة الرسالة : «هناء يقرن به نور وسناء . بل تهانئ يُرغم لهن الشانئ » وفي الهامش يعود الشارح فيقول :« الهناء : بهجة وفرح — نور وسناء : رفعة وعلو» .

والرأي أن هذا غلو في التقريب ، حتى الأحداث ليست بهم حاجة إلى مثل هذا . والذي عطف بنا إلى تصور الأحداث أن الشارح يجتهد في شكل الكلمات كلها ، حتى الحروف مثل الواو وفي وإلى . وإذا هو قصد إلى إرشاد الاحداث إلى أبي العلاء — وهذا مقصد حسن حقا — فيا ليتهلم يؤثر التزام السجع في كثير من فقره ، فهذا أسلوب قد ولّى زمنه .

والرسالة على كل حال غنيمة ، والتحقيق حسن ، وفي الشرح فوائد .

• الشوامخ • الجزء الثاني بقلم محمد صبري

١٦½ × ٢٥ سم ١٥٢ ص دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٤

يحلو للأستاذ محمد صبري الدكتور في الآداب من السربون أن يعنى بالنقد الأدبي ، وله فيه اجتهاد ، ذلك أنه ينظر في « الشعر الجاهلي » وهو موضوع هذا الجزء وكذلك في النثر الجاهلي بعين تدربت على قراءة الروائع في الآداب الاوربية وتصفح آيات الفن من نحت وتصوير . ومن هنا موازناته ولفتاته . ومن هنا أيضاً تركه المأثور من أقوال النقاد السابقين إذ تلتقي لديهم ملكات الشعراء في عبارات متعادلة أو متجاورة . فهو يبحث عن الخصائص والميزات ليفرز عهداً من عهد وطبقة من طبقة . وفي ذلك فضل وجدّ .

غير أنه يسرف أحياناً ، في ما يبدو لنا . من ذلك قوله إن وصف أبي ذؤيب الهذلي لصراع الفارسين في قصيدته العينية « خير ما جادت به قريحة الشعراء على الاطلاق » (يعني من العرب والافرنج ، ص ١٤٦) ، ومهما يكن من إسراف فان المؤلف أحسن في تبصيرنا روعة هذا الوصف وما وراءه من قوة ، وحركة ، وصورة قد شبهها بلوح من مرقم المصور الاسباني فيلاسكويز . ومن الاسراف أيضاً عقد موازنة بين قول حميد الراجز وهو يصف فؤاده فيقول :

كأن قلبي والفراق محذور وقد جرى طائر بينٍ مزجور
غصن من الطرفاء راح ممطور

وبيتين للشاعر الفرنسي فرلين ، هما :

Il pleure (non : pleut) dans mon cœur comme il pleut sur la ville

وقد ترجمها المؤلف هكذا : « وكأني بالمطر يسقط في فؤادي كما يسقط على المدينة» (ص١١١) . والترجمة عندنا هي : « إن في القلب بكاء (لا مطراً ، كما روى المؤلف وترجم) كالمطر الساقط على المدينة » .

• الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية • بقلم عيسى اسكندر المعلوف

١٢ × ١٨½ سم ١٢٨ ص مطبعة الرهبانية المخلصية صيدا (لبنان) ١٩٤٤

للمؤلف عناية خاصة بتاريخ الأسر اللبنانية والشامية ، وله في هذا سفر ضخم لم ينشر بعد، أعانه على تصنيفه ذاكرة قوية وخزانة كتب زاخرة . ومن طلائع ذلك السفر الجليل الجزء الاول من هذه الرسالة وهي موقوفة على سِيَر المشايخ اليازجيين في أسلوب مختصر ، همّه الرواية والنقل .

واليازجيون مشهورون في جميع الأقطار العربيــة ، عَلمهم الشيخ ناصيف ونبراسهم الشيخ إبراهيم . وفي هذا الجزء سرد لأخبارهم الاجتماعية والأدبية ، وفيه فوائد وطرائف، وفيه على وجه التخصيص شعر ونثر مطويان وإشارات إلى مخطوطات ومفقودات نفيسة، من ذلك كتاب « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » وهو معجم كان الشيخ ابراهيم شرع في وضعه ولم ينجزه، وقد كان سلك فيه المأنوس من كلام قدماء العرب بأسلوب علمي وتطرق فيه إلى موضوعات المولّدين والمحدثين .

ومثل هذه الرسالة يُعدّ التأليف في تاريخ الأدب الحديث لما تضم من الأخبار المجهولة والآثار ، فهي من باب التنقيب لا من باب النقد .

• قصة البنيسلين • بقلم مصطفى عبد العزيز

١١½ × ١٦½ - ١٥٦ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

فن النجارة في دمشق

نماذج لحشوات قديمة من الخشب المصنوع في الشام (المئة الـ١٥ والـ١٦) مجوّفة وملوّنة

أنموذج مستحدث من المقاعد ، خشبها مخروط ومحفور

في مصنع المعلم محمد علي الخياط الشهير بأبي سليمان

٢ - المجلات

« الأديب » العدد الخاص بأبي العلاء حزيران (يونيو) ١٩٤٤

يقرأ الباحث في كثير من الكتب التي تطرق موضوعاً خاصًّا ، فلا يجد فيها تلك اللذة ولا تلك الأصداء المتجاوبة التي تتردد في ثنايا مجلة تنتظم موضوعاً واحداً . ولعل ذلك لتعدد الأقلام التي تتناول بأفكارها وقراءاتها المتباينة ذلك الموضوع وتنظر إليه من زوايا متعددة . وقد جمعت مجلة « الأديب » البيروتية أبحاثاً طريفة حقًّا ، منها : « أبو العلاء المعلم » و « سر أبي العلاء » و « القرامطة وأثرهم في أدب المعري » و « أبو العلاء المفكر الحر » و « لغة المعري » و « رسالة الغفران ومنابعها » و « فصل من كتاب الأيك والغصون » .

وكان الدكتور إسحاق الحسيني موفقاً في إظهار الرسالة التي اضطلع بها أبو العلاء المعلم والنشاط الذي كان يشيعه فيمن حوله من الطلاب والمريدين . وأما « سر أبي العلاء » فهو فرض ساقه الأستاذ الخولي ، يذهب إلى أن أبا العلاء إنما منعه من الزواج مانع العجز الطبيعي ، وأن الممر إنما يرد « إلى سبب مادي طبيعي لا لزهد ولا لفلسفة » . ولكن كيف نتصور تلك العبقرية المتدافعة المتزاحمة ، في تلك الرجولة الناقصة ؟ إن العبقريات الممتازة لم تكن يوماً في ضعاف الرجال . بل إني لأذهب إلى أن أبا العلاء كان من قوة طبيعة الرجل بالمكان الذي يحمله على التقالل من المطعم والمشرب ، ليكفّ عوارم هذا الميل ، ويصير إلى حال من العفة وضبط النفس . وليس فيما ذكره الأستاذ من شواهد اللزوم ما ينهض حجة صالحة لدعواه الطريفة .

وقال الدكتور أسعد طلس في مقاله القيم «القرامطة» : «وأنا مؤمن أننا حين نعثر على كتاب المجالس للمؤيد في الدين أبي النصر (هو أبو نصر) بن أبي عمران داعي الدعاة . ... » وكتاب المجالس المؤيدية لم يفقد ، فمنه نسخة بالهند أخذت منها صورة مودعة بخزانة جامعة فؤاد الأول . وقد اقتبست لجنة أبي العلاء بالقاهرة نصًّا منه في كتابها « تعريف القدماء بأبي العلاء » (القاهرة ١٩٤٤ ص ٣٨٧) .

إنا لنهنىء « الأديب » بمجهودها البارع ، وندعو أدباء مصر أن يوثقوا من صلتهم بمجلات الأمم الشقيقة ، ليتحقق بذلك ما نأمل من توطيد العلاقة بين الأمم العربية وتدعيم التقارب .

عبد السلام محمد هارون

٣ - المسرح

لما أنشىء هذا الباب شمخت فيه كوة نحو المسرح إذ جعل من مقاصده « مراجعة ما يخرج في الفن أداء ». والمسرح من أسباب الثقافة الحق ، ومن شواغل الحس الناعم . غير أن مسرحية واحدة لم تستحق المراجعة (١) . وكانت الفرقة المصرية (وهي حكومية) مما عقد عليه الامل . غير أنها آثرت خطة أرادت بها أن ترضي طبقات شتى لتضمن إقبالاً كبيراً على لياليها . وفي ما أدته ما يقصيها عن مرتبة فرقة رسمية وما يحرف الغاية التي أنشئت من أجلها أولا . وقد أذعت من راديو الشرق ببيروت في خاتمة شهر اكتوبر لهذه السنة رأيي في هذه الفرقة ، فنبهت الاذهان الى فساد خطتها على أيدي الموجهين والمؤلفين وبعض النقدة . واليوم نحمد الله على ثورة الاستاذ زكي طليمات نفسه ، فقد راجعته جلالة الفن الخالص ، والاماء الأسن طافح بين يديه .

ب . ف

صفق الجمهور فصفق النقاد

قدمت الفرقة المصرية في الشهر الماضي مسرحية عنوانها « شارع البهلوان رقم ٧٧٧» في مسرح دار الأوبرة الملكية بنجاح لم يألفه مسرحنا منذ عهد بعيد ، فقد تجاوز دخل هذه المسرحية في الأسبوعين الأولين خمسمئة والفين من الجنيهات . الجمهور مقبل على مشاهدتها بحال يذكرنا رواد المسرح في باريس ولندن وبرلين ، فالصف من الجمهور المصري في مسرحيتنا هذه ينتظم تجاه شباك التذاكر ويطول حتى مشارف الطريق متحوياً كالأفعوان ، وصارف التذاكر يعلن عن نفادها قبل ميعاد رفع الستار بساعات ، وقد اتخذ صوته نبر السيد الآمر غير الآبه بشيء ، وإدارة الفرقة تزيد في عدد حفلات إضافية ، ولجنة ترقية التمثيل العربي ، وهي اللجنة المشرفة على الفرقة ، يتبادل أعضاؤها أنخاب الابتهاج والتفاؤل في صحة الفرقة ونجاحها ، والذين يشتركون في تمثيل الرواية كلهم في طرب ، والذين لم يشتركوا في كمد إذ يعز عليهم أن تحظى الفرقة بنجاح لا يكونون من بواعثه وعوامله . . . ولا يخفى أن لحسد المهنة منطقاً لا يعرفه المنطق السليم ، ولا سيما أن الممثلين المصريين يحيون بغرائزهم أكثر مما يعيشون بأذهانهم ، ويعملون بوحي التفردية فوق ما يعملون بروح التماسك .

---

(١) سوى مسرحية « يوليس قيصر » لشكسبير ، أخرجها زكي طليمات هذا الخريف ، فما استطعت الكتابة فيها لغيابي عن مصر في ذلك الفصل .

وعلى الجملة ، إن جنبات المسرح المصري ممثلة في هذه الفرقة المصرية تدوي بانفعالات كان طبيعياً أن تمتد إليّ وأنا مخرج الرواية ومقوّم غير المقول والمقبول فيها...

وأصارح القارئ بأن ما بنفسي من جراء هذا كله إنما هو أخلاط من العجب العاجب ، والأسف المرير ، والتشفي السادر ، وسرعان ما تتبلور هذه الانفعالات عن غيظ خانق كلما أراد نفر تهنئتي بإخراج هذه التحفة الفنية ، كما هي في زعم المهنئين (!)

وأغالط نفسي من حيث إن إجماع الناس على الإعجاب لا يجوز أن يكون على شيء باطل أو زهيد تافه . . فأعود الى المراجعة والتأمل ثم الى سؤال نفسي : هل أتى التأليف المسرحي في مصر بهـذه المسرحية رائعته المنتظرة ؟ وهل أتيت حقـاً في إخراجها من الجديد الموفق والطريف الممتاز ما أستأهل من أجله التهنئة والثناء ؟

وهل أصبح جمهورنا ، في طرفة عين ، من رواد المسارح الأمناء حتى يقبل على دور التمثيل ينشد غذاء الروح ؟ ثم أين هو غذاء الروح في « شارع البهلوان ، ٧٧٧ » ؟

ولـكن سرعان ما أفيق بعـد أن يشرع الضمير الأدبي ميزانه وتنبري مقاييس الفن ومعاييره تراجع وتحاسب ، وها أنذا أقرر بقين النفس فأقول : لا شيء من هذا ألبتة . . . « وهذه عقدة المسألة » كما يقول (هملـت) .

إن مسرحية « شـارع البهلوان رقم ٧٧٧ » من الأدب الماحل الذي يعوزه الدسم والخصب وهي من سقط متاع الفن باعتبار أنها « ڤودڤيل Vaudeville » ، أي من اللون الفكاهي المزيل من حيث تحليل شخوص مسرحياته وتقويمهم التقويم الانساني الصحيح ، والمنحرف عن شرعة (الـكوميدية) الخلقية من حيث عوامل التشويق فيها ، وأما دوافع الضحك فتقوم على المفاجآت المفتعلة ، والنكات المتكلفة والعبارات المتبـلة التي تلذع ولا تخلف ما يلوكه الذهن أو يردده الخاطر ليتغذى به . .

وإخراجي الرواية ليس فيه جديد ولا طريف ، فقد أخذت فيـه بالنزعة الواقعية الخالصة ، وذلك أن الرواية خلت من عوامل الايحاء والتركيز وجرت سياقة مشاهدها على نمط راتب لا يشحذ خيال المخرج فيبعثه على التوليد والخروج على الطوق التقليدي .

بل لقد تورطت — مكرهاً — في خطإ فني ، فقد جاءت مناظر الرواية ، على بساطتها ، لا تعرض الصبغة المحلية للرواية ، بل لا توحي بصبغتها النفسية ، فقد كانت كلهـا مناظر حُـجُـرات « دُوَلية » مما يشاهد في بيوت أوربة . وليس فيها ما يشير إشارة واضحة إلى طابعهـا المصري . والأثاث كذلك نمطه أوربي قديم ، (طراز لويس السادس عشر

ولويس الخامس عشر) ، وليس بينه وبين رسم المناظر علاقة من حيث الطراز ، فقد نسيت أن أقول إن مناظر الرواية مرسومة وفقاً لشرعة الفن الحديث . هذا والذوق السليم والحس الصائب — وبهما يجب أن يأخذ المخرج في عمله — لا يستسيغان حجرة تخضع في تصميمها وتلوينها إلى أحدث فن، وأثاثاً يرجع إلى عهد طابعه من مئات سنين . أكرهت على التورط في هذا الخطأ عالماً وعامداً ... والصمت عما خفي خير .

والممثلون والممثلات ، وإن أدوا أدوارهم في حذق ومهارة ، فإنهم لم يأتوا بالطريف الذي يشد اليهم الجمهور هذا الشد العجيب ويبعثه على الإغراق في الضحك حتى يصرخ منه الوقار . وإني أتجاوز عن نقد الممثلين والممثلات بالمقياس الذي اعتمدته في نقدي للمسرحية لأنهم نهضوا بما حملوه أحسن مما نهضت بحملي ... وأيضاً لأن أجسامهم هشة رقيقة .

إذن لم كل هذه الانفعالات من ابتهاج وحسد ؟ ومن أين يأتي هذا الاقبال الكبير على الشاهدة ؟ وكيف نجم هذا الاجماع على الاشادة بفتنة المسرحية وروعة مواقفها ؟

الجواب يسير ومرير . . إن المسرحية صادفت هوًى من الجمهور ... إذ أجابت رغبته في التفكهة وأشبعت نزعته إلى التسلية الخفيفة الباسمة في هذه الآونة التي اسودَّ فيها كل شيء حتى الرغيف بفعل الحرب ، وإذ تملقت بعض خصائص الطبع المصري في ناحية من نواحيه السهلة اللينة . إذن : صفق الجمهور فصفق النقاد ، وأقبل الجمهور على الشاهدة وأقبل النقاد على الكتابة مهللين مستبشرين ، واطرد امتلاء قاعة دار الأوبرة بالنظارة فطربت الفرقة وزُهيت إدارتها . . ولو لم يقبل الجمهور هذا الاقبال لانبرى النقد يزعم أن الرواية لم تنجح ، وأن المخرج لم يوفق ، وأن الممثلين لم يحسنوا تلبس أدوارهم . ولو لم يقبل الجمهور لاغتمت إدارة الفرقة . وعلى الجملة لو لم يقبل الجمهور لما ذاع صيت للرواية . ولا يهم أن تكون الرواية سقيمة المبنى هزيلة المعنى ، خالية خاوية مما يثقف ويهذب ويصلح ويشق الأفق الفسيح للتفكير المثمر، ليس فيها من شيء تهفو له الأذن ، ويشد إليه النظر سوى فرقعة الصواريخ : وهي أصوات وأضواء سرعان ما تخفت وتخبو وتمّحي من عالم الرؤية والسمع .

وإحقاق الحق يقضي بأن نصرح بأن لا لوم على الجمهور إذا أقبل على مشاهدة المسرحية التي تجاوب نزعاته في الساعة التي هو فيها ، وأن لا تثريب على إدارة الفرقة إذا جعلت بعضاً من رواياتها للسواد الأعظم من الجمهور حتى تكفل الإقبال على حفلاتها ، وبهذا يتيسر لها أمر تقديم المسرحيات الرفيعة مبنىً ومعنى ، وهي مسرحيات لا ترضي إلا الخاصة ، وهم — ويا للأسف — قليل .

لكل هذا جانب من الصواب ، ولكن أن يقف النقد والنقاد من مسرحية موقف عامة الجمهور فتلبسهم نزعات الدهماء في الحكم على الرواية وتأديتها ، وتكون مقاييسهم في الحكم من مقاييسه التي يجفوها الحس المرهف والذوق المصفّى ، وتعوزها المعرفة بفن كتابة المسرحية وبحرفة الاخراج ، وينقصها الاستقصاء الفني السليم ، فهذا أمر له خطره ، وظاهرة عجيبة جديرة بالانتباه .

إن النقد — ذاتيًّا كان أو موضوعيًّا — يجب أن تكون أحكامه أسمى من أحكام الجمهور وأقوم منهجاً وأوفر نصيباً من الدقة والإحكام ، وأن يكون للتبصير والتنبيه ، وأن يكون حركة إيجابية عنيفة نحو الإصلاح والتوجيه إلى ما هو جميل حقًّا وإلى ما يجب أن يكون ولا يبالي في سبيل هذا بالخروج على بدوات الذوق السائد ، وقد يكون معتلاً سقيماً ، ولا يأبه بالأوضاع القائمة ما دامت في حاجة إلى التبديل والتحوير .

يقولون « لا شيء ينجح مثل النجاح » وهي قولة لها ما لها وعليها ما عليها ، ولكن الذي لا شك فيه أن النقد إذا جرى في إثر هذه القولة ولم يراجع ويمحص انعدم غرضه وامّحى أثره بل إنه يغدو بوقاً عزافاً بالدعاية لكل براق خلاب .

• • •

ذلك وجه من وجوه النقد المسرحي الذي طالعني ، ويا للأسف ، عقب إخراجي مسرحية « البهلوان ... » . ولا أتحدث عن وجوهه الأخرى التي تنجم الفينة بعد الفينة ، نجوم قرن الماعز ، فتكون — إلاّ أقلها — للتشيع والمناصرة من غير حق ، أو هي للتخذيل والمناجزة من غير أصل ، وقد اتسمت في الحالتين بالجهل المزدوج ، جهل الناقد بمعارف ما ينقد وأصوله ، وجهله بأنه يجهل الأرض التي سخر قلمه العابث الضليل للخوض فيها .

أما بعد ، فهذه تأملات أردت تسجيلها مهيباً بحملة الأقلام النزيهة العاملة أن يعالجوا شؤون المسرح في أسلوب جدي رصين يشع فيه الصدق والإخلاص والمعرفة ، فمسرحنا في حاجة الى الهداية والتوجيه والوعد والوعيد والهدم والبناء . .

وبوصفي من سدنة هيكل هذا المسرح أحمل على أكتافي وفر السنين وتجاريبها ، وأنوء بأثقال من النقد ، مدحاً وذمًّا ، وثناء وشتماً ، أقول لهذا الناقد الحق المرتجى ظهوره : « اشتمني واصدق أيها الشاتم » .

زكي طليمات
المدير الفني للفرقة المصرية
ومدير معهد فن التمثيل العربي

٤ – الاستدراك

• الامتاع والمؤانسة • الجزء الثالث للتوحيدي

صححه وضبطه وحققه وشرح غريبه ورتب فهارسه : أحمد أمين وأحمد الزين

١٧ × ٢٤ سم ٢٣٠ ص سوى الفهارس القاهرة ١٩٤٤

— ٢ —*

ص ١١١ س ٢٠ « فقد بان أنَّ النفس متى لم تكن ... أنها لا تكون أيضاً ... » بفتح همزة « أن » الثانية ، والصَّواب كسرها فتكون « إنها » لأنَّ الخبر جملة لا مفرد مؤوّل ولا يجوز جعْل خبر « أنَّ » المفتوحة مَصْدراً مؤوّلاً من « أن » المفتوحة نفسها وما بعدها كما ورد في الكتاب .

ص ١١٦ س ١٠ « حاولنا عند علمها أن تكون » وفي الحاشية أن الأصل «علمائها» وأنه تحريف . قلنا: وصورة الكلمة تدل على أن أصلها المحرف «علمنا بها» فما الداعي إلى الإغراب ؟

ص ١١٩ س ٩ « مداجاةً في العلم وخيانة للحكمة وجناية على المستنصح » بنصب المصادر الثلاثة . ولا نرى وجهاً له ، وإنما المداجاة خبر لمبتدأ متقدم هو « إدخال » ، فتكون الجملة « وإدخال العريض .. مداجاة » ، ويتبعه في الرفع خيانة وجناية .

ص ١٢٦ س ٢-٣ « ليس في بضائع أصحابنا الذين حولي من يُدرك هذه المعاني ... فكيف من يفزعَ في شرحها وتهذيبها إليه » وقال الناشران في الحاشية : « الظاهر أن (من) زائدة » . وليس هذا عندي بالظاهر لأنَّ حذف « مَن » يخلّ بالعبارة ويغير المعنى المُراد . فانَّ القائل نفى وجود المدرك للمعاني وبنى عليه نفي وجود الشارح وإنْ كان التعبير استفهاميًّا ، فكأنه قال : « ليس فيهم من يدركها فضلاً عمن يشرحها ويهذبها ، وحذفُ «من» يجعل العبارة غَلَطاً .

ص ١٣٤ س ١٤ « والقواعد تسيحُ » بالحاء المهملة . والصواب « تسيخ » بالخاء المعجمة أي تغور وتذهب في الأرض ، ومثله « تسوخ وتثوخ »

ص ١٤٨ س ١٣ « وليسَ للإنسان عنها مرتحل » . قلت المشهور في كلام العرب « مَزْحَل » كقول الشاعر « وإن لم يكن عن شفرة السيف مَزْحَل » وهو اسم مكان من « زَحَلَ »

* راجع مقتطف دسمبر الفائت ، باب التعريف والتنقيب

أي تنحى وابتعد .

ص ١٤٩ س ٣ « فقبلَ أن لَقيتُ الملك أفصح له الذي كان معي مشرفاً عليّ » وفي الحاشية أنّ في الأصل ما صورته : « ما أفصح » بالنفي وأنّ « ما » زيادة من الناسخ . وهذا غير صحيح لأن المعنى يكون به معكوساً ويدلُ على انّ المشرف لم يفصح لعضد الدولة أنه كان متشوقاً متشوقاً إلى سماع الجواب ويقول : « هات الجواب عمّا نفّذتَ فيه ... أنت حُمّلتَ الرسالةَ وأطالب غيرك بالجواب » ؟!

ووردت « نُفِّذتَ » المذكورة في النقدة السابقة على وزن « خَرَجْتَ » . وهذا غلط في الضبط ، والصواب تشديد الفاء وبناؤه للمجهول ، أو « أُنفذت » فانهم كانوا يقولون « نفذته وأنفذته في رسالة تنفيذاً وانفاذاً » أي أرسلته وبعثته ، أمّا « نفذ فلان القومَ أي تجاوزهم » فلا يصحّ ها هنا — كما هو واضح — لأنّ الرسول أرسله غيرُهُ ولم ينفذ هو بنفسه .

ص ١٦٧ س ١ « رمى عمر بن هبيرة ... إلى عُرام بن شتير بخاتم له فضة — وقد زوج — فعقد عليه عرام سيراً » . فليت شعري من كان قد زوّج وما سرّ التعريض الوارد في الخبر ؟ إنّ هذا تحريف غريب والأصل « فيروزج » و« فصهُ » ، حرّف إلى « قد زوج » وفضة ، والصواب « رمى . . . بخاتم له فصُّهُ فيروزج فعقد ... » اتخذ الفيروزج معراضاً للزرقة المكروهة عند العرب .

ص ١٧٦ س ٨ « الذي أُتي به ابن هبيرة الفزاري فأمر بصلبه » بنصب « ابن » . والصواب رفعه لأنه نائب فاعل .

ص ١٧٨ س ٦ « فلم يَحر إليه جواباً » بفتح ياء « يحر » . والصواب ضمُّها ، يقال : « ما أحار ولم يُحر جواباً »

ص ١٧٩ س ٧ « فيكتفي مؤونتي » . وهو غلط صوابه : « فيكفى مبنيًّا للمجهول ثلاثيًّا ، وقد ورد في الصفحة بعينها « س ١١ » : فيكفى مؤونتهم . والأول لا يعضده القياس ولا يؤيده السماع ، لأن الاكتفاء اعمال بالنفس و « يكفى » عمل لغير الانسان المكفيّ وهو المراد لدلالته على المعونة .

ص ١٧٨ س ١٦ قول حسّان بن ثابت :

أناس تهلك الأحساب فيهم   يرون التيس يعدلهُ الحبيب

ولا أرى نسبة بين التيس والحبيب وهلاك الأحساب ، ولو جاز الاستغراب لقيل على الأقلّ « الجنيب » وهو الفرس المجنوب . وأرى أن الأصل : « يعدلهُ الحسيب » أي يسوّون بين التيس والرجل الحسيب ، وهو إيضاح لقوله : « تهلك الأحساب فيهم » .

ص ١٨١ س ٨ « ويتصامم عن العَـوراء » بفك الادغام في « يتصامّ » وهو غلط والصواب « يتصامّ » بالادغام لوجوبه ولم يشذ من القاعدة إلاّ قولهم « تجانن » في الشعر دون النثر.

ص ١٨٤ س ١٢ « ومر جرير بالأحوص وهو يفسق بامرأة وينشد » . وهذا الفسق محال لا يجري بصورته في أسوإ الأمم أخلاقاً فكيف العرب في عصور الاسلام (وفي «مرّ» إشارة إلى أن الحادث جرى في الطريق) ؟ والصواب : « وهو يشبب بامرأة » ومصدره التشبيب ، ويوضحه قوله « وينشد » .

ص ١٨٦ س ١ « إنّ هذا الباب مختلف فيه ولاسبيل إلى رفعه » . والصحيح «إلى دفعه» أي دفع الاختلاف ، وقد تقدم في الكتاب (ج ١ ص ٧٧) : « مما لا سبيل إلى دفعه » .

ص ١٩٠ س ١٤ « هذا ينبغي أن تعلمه بقلبك ولا تدع الله به » . والصواب « ولا تدعوَ » بالنصب لا بالجزم ، معطوفاً على المنصوب « تعلمه » . ولا يجوز عطف فعل طلبي بالأمر والنهي بحرف العطف (الواو) على فعل خبري مثل « تعلمه » فلا يقال « هذا تأخذه ولا تبعه » أو « تأخذه وبعه » .

ص ١٩٧ س ٢ « الجنة إذاً أولى من الحمام إذ قيل بئس البيت الحمام» . والظاهر أن الأصل «أولى (بالذم) من الحمام » لأن وجه الأولوية غير مذكور في العبارة .

ص ٢٠٠ س ١٤ « وحدثني أن امرأة تظلمت » . ولا مرجع لفاعل «حدثني» في الإخبار ، ولعل الأصل «حُدِّثتُ» مبنيًّا للمجهول .

ص ٢٠٢ س ٦ «وتعلم الحاضر بالتعارف والمشاهدة ومجال الحس » أي النفس . وفي الحاشية أن التعارف وردت بهذه الصورة ولا معنى لها . قلت : وكيف لا يكون له معنى وهو مبالغة من المعرفة والتعرف كالتباعد والتقارب والتعالم والتسامي والتعالي في المبالغة من البعد والقرب والسمو والعلو والعلم ، ثم إن المشاهدة والاحساس يجعلان تعارفاً بين الشيء الحاضر والنفس ، فهو على الوجهين صحيح .

ص ٢٠٦ س ٥ « وليس لهم (عليها) معير للخوف منهم » . ولا داعي إلى إقحام «عليها» في الكلام ، فان لم يكن بد من الايضاح فالواجب إقحام « بها » لأنهُ يقال « عيَّره كذا تعييراً وعيّره به » على لغة يدعي اللغويون أنها ضعيفة وإن كان هذا الادعاء مضاداً لطبيعة الكلام لأنّ الحذف والايصال تخفيف للعبارة ، والتعدي الطبيعي في الفعل لا يكون إلاّ إلى مفعول واحد .

ص ٢٠٨ س ٤ « وطرف عازم » وفي الحاشية أن لفظ « عازم » وردت بهذه الهيئة ولعلها تحريف إذ لم يظهر للناشر معنى وصف الطرف بالعزم . قلت : الصواب « طرف عارم »

بالراء من العرامة وهي الشدة ومنه قول ابن أبي ربيعة : « ولي نظر لولا التحرّج عارم »

ص ٢٠٩ س ٢ « يتلقى ما أعيا من ذلك بالليّ » وفي الحاشية أن الأصل « بالكيّ » وأنه تحريف لا معنى له . قلت: لا بل هو الصواب، وهو مأخوذ من قولهم في المثل « آخر الدواء الكي »

ص ٢١٣ س ١٣ « كما يطربُ سامع الغناء على الشبابير » وفي الحاشية أن الأصل هو « الستائر » لا الشبابير وأنه تحريف استوجب هذا التصحيح . وهذا القول غير سديد لأنّ كلمة « الستائر » اصطلاح على الغناء في تلك العصور التي قيلت فيها الكلمة وقبلها ، ووُصف ناس بأنهم من أصحاب الستائر أي ذوي جوار يغنين خلف الستائر .

ص ٢١٤ س ١٣ « بين حَيطة وورطة » بفتح الحاء من حيطة . والصواب « كسرها » لأنها في الأصل مصدر هيئة ثم صارت اسم مصدر كما هو مألوف في لغة العرب . ولو كانت الحاء مفتوحة لقيل « حوطة » أو « حاطة » كالعودة والعادة والقولة والقالة ، فالعين واو .

ص ٢١٨ س ١٠ « فإذا نقبَ الخفُّ دَمِي الأظلّ » . فليت شعري ما الأظل ؟ إنه اسم تفضيل من « ظلّ » أي بقي ومكث ولا محلّ له هنا . والصواب « الإظلُ » على وزن شبر وهو لحم باطن الخف فإذا نقب الخف دَمِيَ ذلك اللحم .

ص ٢٢٠ س ٦ « لما يدخل هذا الوارد ويدنون طرف البساط تندر رأسه » . و « لما » لا تدخل على المضارع من الأفعال وهي ظرف للزمن الماضي فكان الفعل الماضي بزمنه وصورته أحق بها من غيره ، ومن المستبعد أن يستعملها أبو حيان بخلاف ما ورد في لغة العرب ، وقد وردت على هذه الصورة القبيحة في شعر شهاب الدين الخيمي المتوفى سنة ٦٨٥هـ قال : لكن ينازع شوقي تارةً أدبي فأطلب الوصل لما يضعف الأدب [١]

فلعلّ الأصل : « طالما يدخل » أو « حينما » أو « عند ما » على لغة ضعيفة أوجه من وضع « لما » كذلك .

ص ٢٢١ س ١٤ « ومن الجالس فوق مشرعة مكان الروايا » . والذي علمناه من خطط بغداد أنها « مشرعة الروايا » لا « مشرعة مكان الروايا » [٢] ، والظاهر لنا أنّ في الأصل « كان » مقحمة فتزحلقت وصارت « مكان » أعني أنّ الأصل « من الجالس — كان — فوق مشرعة الروايا » .

ص ٢٢٦ س ١ « ولم أظلم معنى بالتحريف ولا ملت فيه إلى التحوير » ، وفي الحاشية أنّ

(١) ابن الفرات في تاريخه (ج ٨ ص ٤٢)

(٢) أصول التاريخ والادب ، من مجموعاتنا الخطية (ج ١٩ ص ١٦١) وكامل المبرد (ج ٩ ص ٢٢٣) و (المنتظم ج ٨ ص ٢٣٢)

التحوير في النسخة التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هو على صورة « التجويز » وأنه تحريف . قلت : وما التحوير إلا التبييض ولا محل لها ؛ فالصواب « التجوّز » أي الترخص في التعبير والتسامح فيه ومنه قول المؤلف في الجزء نفسه ص ١١٠ س ١٥ : « إلا أن تجعل إفادتها للقابل منها استفادةً لها وفي هذا تجوز ظاهر » ، ولو جاز أن يكون مصحفاً عن غير التجوز لكان « التحويف » مصدر « حوّف » أي مال إلى الحافة .

• • •

ومن الغلط في أعلام الناس :

ص٧ س ٨ « رأيت أبا خليفة المفضّل بن الحباب » . والذي حفظناه أنه « الفضل » وقد راجعنا ماوصلت اليه يدنا من الكتب في الاسكندرية[1] فتأكد لنا أنه أبو خليفة الفضل بن الحباب ابن محمد بن شعيب بن صخر الجمحي القاضي السّجاع وهو ابن أخت محمد بن سلام الجمحي مؤلف طبقات الشعراء ، كان من رواة الأخبار والآثار والأشعار والآداب والأنساب وتوفي بالبصرة سنة « ٣٠٥ » هـ[2] .

ص ١٣ س ٨ « قال أبو الحسن أخبرني الثوري عن أبي عبيدة » وفي الحاشية أن هذا « الثوريّ » ورد في نسخة ب بصورة « التوزي » وأن كليهما معروف . قلت : كونهما معروفين لا يكفي في تحقيق الاسم ، فانّ سفيان الثوري لم يرو عن أبي عبيدة وإنما روى عنه التوزي .

ص ٧٥ س ٩ « على المائدة أبو علي بن مقلة وأبو عبد الله اليزيدي .. وكان اليزيدي .. » ولم يشتهر يزيديّ في ذلك العصر فضلاً عن أن يؤاكل ابن مقلة الوزير فالصواب « أبو عبد الله البريديّ » . وهو الأمير المشهور في تاريخ ذلك العصر وورد في ص ٢٢٢ « ابن اليزيدي » .

ص ٧٦ س ١ « وحدثني ابن مبعون الصوفي » . والمشهور « ابن سمعون الصوفي » وهو الذي ذكره الحريري في المقامات وهو محمد بن أحمد ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وابن الجوزي في المنتظم (ج ٧ ص ٨٨ و ص ١٩٨) وابن خلكان في الوفيات وغيرهم .

ص ١٠٠ س ١٧ « لأبي الحسين السبتي » وفي الحاشية قال الشارحان « في ب الليثي » . وهذا لا يكفي فانّه لا يجوز أن يكون بالنسبتين معاً صحيحاً ، فالصّواب « أبو الحسن البستي » لا أبو الحسين الليثي ، واسمه أحمد بن علي ، وترجمته في معجم الأدباء (ج ١ ص ٢٣٣) من طبعة مرغليُث وغيره من كتب التراجم والأدب .

---

(١) بعث الينا الاستاذ مصطفى جواد الدكتور في الآداب من السربون والاستاذ بدار المعلمين العالية في بغداد بهذا الاستدراك وهو نزيل الاسكندرية ، في الصيف الماضي .

(٢) الصفدي في « نكت الهميان في نكت العميان » ص ٢٢٦

ص ١٥٣ س ٤٠٣ « ومحمد بن صالح بن شيبان ». والذي علمناه أنه « ابن أم شيبان» وهو الذي سأل المتنبي عن سبب لقبه كما في الجزء الثامن من « نشوار المحاضرة » وكان من القضاة الهاشميين ترجمه الخطيب في تاريخ بغداد (ج ٥ ص ٣٢٦) وذكره مسكويه في التجارب (ج ٥ ص ٤ ص ٢٩) وابن الجوزي في المنتظم (ج ٧ ص ١٠٢) واشتهر ابنه علي بابن أم شيبان أيضاً كما في تاريخ الخطيب (ج ٢ ص ٩٩) .

ص ١٥٣ أيضاً س ٧ « وابن رُباط شيخ الكرخ » . رُباط جاء على وزن غُراب وفي ص ١٩٧ س ٣ « ابن ربّاط » على وزن شداد ، وفي هذا تناقض يجب دفعهُ .

ص١٩٦ س ٨ « قال ابن عثمان الآدمي ». الآدمي منسوب إلى آدم من الآدمين ، والمشهور « الأدمي » بلا مدّة وهي الجلود المدبوغة والنسبة نسبة الحرفة .

ص ٢١٥ س ٦ « هذا التركي ساسنكر ، تفيأ بظله » وفي الحاشية أنّ الشارحين لم يجدا هذا الاسم في معجمات الأعلام التركية التي راجعاها والذي وجداه سنجر . قلت : المراجعة لا تكفي في وجدان الاسم ومعرفته . لأن المسألة تاريخية لا لغوية حتى تكفي فيها صورة اللفظ ، فصاحب الاسم المحرّف « ساسنكر ، هو « سبكتكين » الحاجب غلام معز لدولة ، وذكره مستفيض في كتب التاريخ كالكامل وتجارب الأمم وكتب الأدب مثل الفرج بعد الشدة للتنوخي وغيره .

ص ٢٢٢ س ٤ « ولذوي مليحا في هذا الباب نفخ » وفي الحاشية أنّ هذا ورد في نسخة ب ولم يتبين الشارحان من هم ذوو مليحا . قلت : هو مكيخا الجاثليق كان ببغداد وأخباره في « كتاب بطاركة كرسي المشرق » لماري بن سليمان ، وذووه : أصحابه من النصارى .

ص ٢٢٨ س ٩ « سرحني رسولاً ... أو إلى أبي السؤل الكردي » وفي الحاشية أن أبا السؤل ورد بهذه الصورة ولم يهتديا إلى وجه الصواب فيه . قلت : إنما هو أبو الشوك الكردي المشهور في حوادث القرن الرابع للهجرة كما في الكامل وتجارب الأمم وغيرهما .

* * *

هذا ما استطعت التنبيه عليه بعد قراءة سريعة والابانة عنه بعد التأمل والروية ، وهو يسير — كما قلت — بالاضافة إلى هذا الجزء الفاخر الذي تدل العناية الفائقة باخراجه على علم وفضل وتبحر واستفراغ للطاقة وحرص في الحفاظ على تراث الأمة الأدبي . فللأستاذين الناشرين أتم الشكر وأطيب الثناء .

مصطفى جواد

٥ — المسائل

الأديب وحرفته

كما أن الأدب لا وزن له إذا غلّته القيود سواء أتته من جهة السياسة أو من جهة الاجتماع أو من جهات أخرى ، كذلك الأديب لا يصدق إنشاؤه ولا يعظم شأنه إلاّ إذا انطلقت يده فاطمأن قلمه إلى صناعة الكتابة . والأديب أو المنشئ لا بدّ له من حرفة يحترفها تكون مرتزقه ، وذلك لأن الإنشاء لا يدرّ عليه ، في غالب الأمر ، ما يقيم عيشه ويسدّ حاجه . تلك حال الأديب من الزمن الأول حتى اليوم — تلك حاله في أوربة هذا العهد ، وإن قيل لنا إنّ الأدب هناك سوقُه نافقة ، وإن زعم زاعم أنّ متعاطيه هناك لا يشكو الضنك بل ربما أثرى . ولا ريب أن تلك حاله أيضاً في بلداننا الناطقات بالعربية . وطبيعي أني أعني الأديب المخلص لفنه ، الحابسَ همه على محض الأدب ، لا الواغل على أهل تلك الصناعة ، ولا المنعطفَ اليها عن هوًى عابر ، ولا المتخذَها وسيلةً أو ألهية .

وللأديب أن ينجو من هذه المشكلة فيعدلَ عن اختيار حرفة يتكسّب بها ، قد يكثر معها التصرف والتقلب ، وذلك بالانزواء والقناعة بكفاف الرزق والاجتزاء بقسمة القدر ، بما يتقطر له الحين بعد الحين من هنا ومن هنا . فتكون سيرته من سيرة شيخنا أبي العلاء الحبيس . غير أن الزهد والتقشف لا يقدر عليهما إلا الأقلون . وليس لهذا النحو من العيش أن ينتصب قاعدةً يُجرىَ عليها . وللأديب بعد هذا أن يحظى بعطف ملك أو كبير يقرّبه ويؤثره ويقدرهُ ، فيجري عليه راتباً أو يصله مرة بعد مرة ، لوجه الرعاية . على أن هذا اللون من الحظوة ، وإن كان شائعاً في العصور الماضية ولا سيما عند العرب ، لنادرٌ حدوثه اليوم . وإن وقع ، فلغاية معلومة . ولكنه كثيرُ الحدوث للعالِم ، ومن الأدلة على هذا تلك الأموالُ المرصودة للمعامل والمخابر والمعاهد ثم للرّحلات والتنقيبات والتجارب ... عهدُنا اليوم أوفر انصرافاً إلى حقائق العلم منه إلى رقائق الأدب . وفي هذا مجلبة للحسرة ، ففي الأدب غِذاء وسموّ لا تجدها والله في العلم الصرف .

• • •

* حديث أذاعه الكاتب من « راديو الشرق » ببيروت في ١١ / ٦ / ١٩٤٤

هذا ، والحق أن الأديب يشق عليه أن يختار حرفةً تباعد فنّه وتغاير خطته ، إذ أنه منجذب إلى صناعته ، محوّلٌ اليها سكناته وحركاته ، مشغولٌ بها في يقظته وغفوته . لذلك نرى الأديب في عصرنا هذا قليلا ما يزاول صناعةً تحيد عن طريق فنه أو تفلت من سلكه. فهو موزّع بين التدريس والصحافة والتأليف المتصل . وإن خرج عنها فهو في أكثر الحال موظّف سواء عليه أسايرت وظيفته هواه الأدبي أم جانبته .

وفي رأيي أن في تلك الحرف الثلاث ثم في التوظف ما قد يضر بصناعة الأدب وينقص من ثقافته :

أما التدريس ، عندنا على وجه التخصيص ، فيحصر الذهن في الكلام المعاد سنة بعد سنة . وأخوف من هذا أنه يغرق من يمارسه في الكتب والكراريس ، ويلزمه لوناً أو لونين من الفنون ، ويدفعه إلى الاستبحار في اللون أو اللونين ، ويلفته قليلاً أو كثيراً عن سواهما ، فيمط الادراك من جهة ويقبضه من جهة . ثم إن الكراريس والكتب تيسر التلقف والاقتطاف من غير إعمال الروية . وعلى هذا نبه قديماً إمامنا الجاحظ ، وهو يلهو في إحدى رسائله — ولعلها « التربيع والتدوير » — بالصحفي ، وكأنه يريد ما يقال له في الفرنسية livresque والانجليزية bookish ، وهو المتلقي معارفه من بطون المجلدات . هذا ، والتحقيق أن تصفح وجوه الحياة كما يرى الفيلسوف الفرنسي ديكارت Descartes وتدبر مطاوي النفس كما يرى المفكر الألماني نيتشه Nietzsche إنما هما مصدرا الفهم الأعلى والحس الأوفر . ثم إن تكرار الحديث سنة بعد سنة ، أو تناول الموضوع الواحد موسماً بعد موسم ، يولد في الذهن مثل الركود والفتور ، على حين الأدب كما أظنك تعلم : وثبان وفوران .

وليس خطر التدريس على صناعة الأدب بشيء إلى جنب خطر الصحافة . ولا يزال الجمهور يخلط الأدب بالصحافة ، بل إنك ترى صحافيًّا ينزل نفسه منزلة الأديب لأنه يرفع الفاعل ويخفض المجرور — وقد لا يرفع ولا يخفض ! — ولست بعارض هنا لهذا الضرب من الصحافيين المقتحمين مسالك الأدب المنتحلين اسمه على غير استبصار ، ولكني أريد الأديب الذي يشتغل بالصحافة ويرضى بها حرفة له . والكلام على سوء أثر الصحافة في الأدب المحض يطول ، فحسبي الاشارة إلى أمرين :

الأول أن للصحافة أساليب ، من ينتهجها طويلاً يجر عليها في طريق الأدب من حيث لا يحتسب . ومن هذه الأساليب العناية بالحادث فوق العناية بما خلف الحادث من الأسباب

الدقيقة وعما بعده من المسببات الجليلة : فلا غوص على البعيد ولا تمهل عند الخطير . بل الهم منصرف إلى الحاضر الظاهر ، وليس الحاضر بالنقطة الثابتة حتى يعظم شأنه ولا بالجوهر القائم حتى تعتمد حاله . وأما الأمر الثاني فالسرعة التي يضطر اليها الصحافي إذا كتب : فالخبر أو المقال يجب أن يطبع اليوم أو في غدٍ ، والقارىء منتظر ملحّ . فالصحافي لا ينفسح له مجال التبصر ، ولا قارئ الصحف يقوى على ما لطف مرماه وبعد مغزاه .

هذا ، ومن أثر الأمر الأول — وهو الوقوف عند الحاضر الظاهر — أن الأديب يعتاد الكتابة الهينة القريبة ، فلا تشغله علل الحوادث ولا تزعجه مصاير الأمور . وأما الانسانية فتنزل عنده منزلة القافلة التي أناخت وسط الصحراء واطمأنت فجمدت ، لا القافلة التي تقطع المراحل وتفوّز ، فتشقى ثم تنعم ، ويأخذها السراب ثم تنكشف لها البئر ، وتدنو من الهلاك ثم ينجيها الأمل الرفاف .

ومن أثر الأمر الثاني — وهو التسرع في الكتابة — أن الأديب متى ينشئ ينصرف عن التأمل والتفهم في باب التفكير ويهمل التهذيب والتشذيب في باب التعبير — وما أعرف آفةً أضرَّ بالأدب من التسرّع ... الأدب الحقّ ولادة مُعسِرة — أريد جهة الفكر لا جهة الأداء .

ثم يلحق بهذين الأثرين أثر ثالث لا بدَّ لي من ذكره خطفاً . وهو انحراف الأديب الصحافي إلى الجدَل والمحك ، وذلك لأن حرفتـه تسوقه إلى الدفاع والهجوم عن دوًى أو تحازب ؛ فليست الحقيقة التي تجذبه وتقلقه ، ولكن الغلَبة والانتصار . وليس في هـذا الأسلوب ما يُغني أو يُرقي .

• • •

وأما حرفة التأليف المتصل ، ففي ظن أكثر الأدباء أنها أليق بهم ولهم أنفع . والحقّ أنها بضد ذلك أو بخلافه . ودعني أمثّلْ لك بدلاً من أن أحكمَ على سبيل التجريد في الكلام . وليكن المثل الذي أختاره ما يجري حولك الآن في ميدان النشر . فهذه دورُ الطباعة همُّها إخراجُ الرسائل والكتب إلى القراء إخراجاً متواصلاً متعاقباً . فهي لذلك تقصد الأدباء ، وهي تؤثر الملحوظين منهم المشهورين رغبةً في الرواج وطمعاً في الكسب . وينشأ عن ذلك أن هؤلاء الأدباء — إلى جنب سائر أعمالهم ، مثل إنشاء المقالات وإلقاء المحاضرات — ملزَمون بدفع كتاب أو أكثرَ من كتابٍ في السنة الواحدة . فمن أين

الوقتُ الذي يستوعب فيه الموضوع ، وتنضج الفكرة ، ويستوي التأليف ، ويستقيم الأداء؟ وقد وقع بعض هذه الكتب بين يديّ في السنة التي نحن فيها ، وهي التي نشطتْ فيها المطابع فتواردت ثمراتُها . فوجدتُ تلك الكتب — في جملتها — فجّةً أو ذاوية ، وعلى أكثرها طابَع الارتجال . ولا يكاد يكون فيها كتاب يغذو الضمير أو يثير الفكر أو يشق أفقاً أو يرفع حجابا . ذلك أدب رخيص أو كالرخيص . وشرّ ما في الطريقة أن الناشر يقترح الموضوع على الكاتب ، أو يقيده في سلسلة معيّنة ، كأنما الأديب رَهنُ التاجر أو طوعُ السوق .

بقيت حرفة التوظف ، وهي خارجة عن الصناعة كما قدّمتُ لك ، وضررُها أنها كثيراً ما تولد في النفس فتور الذهن وقعود الهمة ، وتطرد من الطبع غضبةَ الحرّ وثورةَ الشامخ . فإن استطاع الموظف أن يجاهد ما يتولد في نفسه ، ويستردّ ما يُطرَد من طبعه ، فحرفته تمكّنه من معالجة الأدب في تغلغل وروية وتمهل واستقلال .

وليست تلك الحِرَفُ كلَّ ما يتقدّم بين يدي الأديب ، فهنالك حِرَفٌ أجنبية عن دائرة القلم والمداد . هنالك الحرف اليدوية مثلاً . وقد أوصى بالاقبال عليها أمثالَ الفيلسوف الفرنسي رينان Renan وتولستوي الروسي . وبها كانت فئة من أدباء العرب يتكسبون، ولا سيما الشعراء : كان فيهم البزاز والخياط والرفاء والسقاء وغير ذلك ، وهم في سلّم القيم الانسانية أرفع مرتبة وأجل شأناً من الأدباء الطفيليين،أولئك الذين رَضُوا بالمديح تارةً والهجاء أخرى ، مرتَزَقاً . فأقبح بهم ، وإن كان فيهم أضراب الأخطل وبشار . ومما يحزن النفس أنّ لهؤلاء الجناة على جوهر الأدب أذناباً في العهد الذي كُتب لنا أن نعيشَ فيه ، وقد توافر فيه التملّقُ والتجريس .

* * *

وبعدُ ، فلم أعرض هنا إلا للحرف التي يختارها أدباؤنا . فأشرت إلى ما فيها من النواحي التي تضر بالإنشاء ، ولعلي لم أتحكم ولم أجازف . وإنما غرضي أن أنبه وأن أبين ، وأما همي فصون البهاء الذي في الأدب وحوط الجلال الذي يلفه .

بشر فارس

باب الأخبار العلمية

ثمرات الحرب الحالية

في العلوم والفنون

قد يكون غير ضروري كشف سبب داء السرطان ، ما دام علاجه ليس ميسوراً . ولكن قد تبين من المباحث التي تمت في الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٤٢ أن بعض أنواع المواد الكيميائية تحول دون قيام خلايا سرطان الثدي بوظائفها . بيد أنها لا تستطيع مناوأة أية خلية من الخلايا السليمة . ومن المعلوم أن العلماء لم ينجحوا في اختراع أي علاج كيميائي لذلك الداء العُضال ، فإذا أسفر هذا البحث (الذي ما زال في طور أنابيب الاختبار في المعامل الكيميائية) عن نتيجة مرضية ، كان بلا شك دليلاً على القضاء على ذلك الداء العياء .

وما فتئت الڤيتامينات ذات تأثير خطير في علاج أوصاب الناس . وأحدث ما ظفر به العلماء منها في هذا الصدد هو ڤيتامين ب ١ B.1 وهو هيدروكلوريد الثيامين الذي يزيل الألم المبرح من أسناخ الأسنان المؤلمة في الفك عندما تخلع منه الأسنان ، إذ تحقن هاتيك الأسناخ بذلك الڤيتامين فيذهب عنها الألم في ثلثي الاصابات في نحو نصف ساعة .

وفي أكداس الدريس قد يوجد العلاج المنقذ للبشر من تجمد الدم في عروقهم وغير ذلك من المضاعفات لتصلب الشرايين ، لأن تعفن النفل sweet clover يولد مادة كيميائية تسمى ديكومارين Dicoumarin تنقص من قوة تجمد الدم . وهذه خاصية مفيدة في علاج الحالات التي مدارها تجمد الدم . وقد تمَّ تركيب هذه المادة الكيميائية وهي رخيصة . ويستطاع إعطاء المريض إياها من طريق الفم وحقناً بالمحقنة تحت الجلد . ويتوقع العلماء نجاح هذا الدواء لأن الخبراء قد شاهدوا أن المواشي التي تعلف بالنفل الذي دبَّ فيه العفن كثيراً ما تموت من رضوض خفيفة يتولد منها نزيف قتَّال مصدره عجز الدم عن التجمد . وإليك تاريخ الديكومارين :

كان الديكومارين يستخرج في بدء الأمر من النفل المتعفن ثم شرعت جامعة ويسكونسن الأميركية في تركيبه بالوسائل الكيميائية . ويرى العلماء أنهُ سيصبح عاملاً جديداً خطير الشأن في علاج تخثر الدم في العروق إذ يقيها منه . وهذه الجلط الدموية من أشد الأخطار التي تنتاب المريض عقب الجراحات . وقد أعلن هذا الاختراع ثلاثة أفواج من ثقات

الباحثين المحققين وذلك في الاجتماع الذي عقدته الجمعية الطبية الأميركية كما جاء في جريدة التيمز النيويوركية بقلم مندوبها ل. لورنس. ولا غرو فتكوُّن الجلط الدموية من أشد الأخطار التي تساور الجراحة سواء أبقيت في مكان تولدها فتعرف باسم (روبة الدم) أم انتقلت من منشئها إلى عرق أبعد وأصغر مما نشأت فيه حيث تعوق الدورة الدموية فتحدث حينئذٍ حالة تسمى السدادة الشريانية .

ما الهيبارين ؟

أما الهيبارين Heparin فهو دواء موجود الآن في الصيدليات المصرية ومخازن الأدوية وقد استعمله صديقنا الدكتور رمسيس جرجس الخبير الفني في لجنتي الطب والكيمياء في مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة ، وذلك في علاج أحد أقطاب الوفد المصري ، فشفي . ويستخرج الهيبارين من كبد الحصان ويقاوم تجمد الدم أيضاً ، ولكنه غالي الثمن ولا بدّ من إدخاله في العرق حقناً . وهذا العمل يتطلب دقة الملاحظة .

مجاري الكهيربات تفوق موجات الضوء

وكان التقدم العلمي الذي تم في الميادين الأخرى فائقاً أيضاً ونافعاً جدًّا في الظروف الحالية الطارئة . ومثال ذلك أن طول موجات الضوء المرئي ، كانت تعدُّ منذ سنوات ، مقياساً لحجم المرئيات التي تستطيع العيون البشرية رؤيتها . ثم تبين ان مجاري الكهيربات ، وهي جزيئات المادة من جهة ، وجوهر الكهربية من جهة أخرى ، تكاد تقوم مقام الضوء ، الذي تكون موجاته أقصر منها جدًّا ، فيتسنى بها توسيع نطاق المكتشفات الدقيقة الجوية وتصوير الأشياء التي لا يمكن إبصارها بالمجاهر العصرية ذات العدسات المصطلح عليها ، وإن تكن من أجود الأنواع . فظهر أن الجراثيم ذات أشكال تختلف عما كان معروفاً وذلك حينما تمّ تكبير صور أقطارها بالمجهر الكهيربي من ٢٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ مرة . ثم ثبت أيضاً أن المواد الكيميائية الشائعة الاستعمال تختلف كل الاختلاف عما كان يزعم الناس . وأحدث ما أضيف من التحسينات إلى ذلك المجهار الكهيربي ، جهاز للاضاءة سوف يتيح نقل الصورة التي تصور بالمجهار المشار إليه ، وذلك بالراديو المصور . غير أن الزمن الحالي غير صالح للانتفاع بهذا التحسين . ويؤلف المجهار الكهيربي المكشاف المشار إليه من مجهار كهيربي وراديو مصور وراديو مقلّد .

المجهار الكهيربي

وبهذا الجهاز الجديد يتمكن العلماء من دراسة تركيب الذرات في الأجسام غير

الشفافة ، مثل الفلزات ، درساً محكماً لم يحلم به إنسان . ويتيسر استعمال الجهاز الكهربي أيضاً في تقصي الأشياء الدقيقة وتحديد بنائها الذري . وبهذا التعديل تغدو الصورة التي تلتقط به ليست ممثلة لهيئة الجسم التي تبدو للناظر (إذا استطاع رؤية هاتيك الأشياء الدقيقة) بل تكون في الواقع رسماً برسمه تشعع النور تشععاً يتمكن به علماء الطبيعة من إدراك كيفية ترتيب الذرات في الجزيئات وفي خلال بضع دقائق يستطاع التقاط صورة من هذا القبيل ثم استخراج نموذج لها بتشعع النور عنها فتأتي بمنافع جليلة في كثير من ميادين العلم .

وثمة تحسين في الجهاز الكهربي هو إنتاج صور تمكن بها رؤية الأشياء مجسمة . وقوام هذه الخدعة العلمية هو عمل صورتين من زاويتين تختلف كل منهما عن الأخرى اختلافاً طفيفاً . وتتاح مشاهدة هاتين الصورتين المزوجتين بوساطة المجساد .

جهاز للاشعة السينية

يولد مئة مليون فولط

وتستعمل الكهيربات الفائقة السرعة والطاقة بأسلوب مختلف جداً ، وذلك في أقوى ما اخترع في العالم من أجهزة أشعة رنتجن ، حيث تقوم آلة خاصة أطلق عليها اسم (معجلة تحريك الكهيرب) بقذف الكهيربات بسرعة فائقة تمكن ذلك الجهاز الضخم حينما يدور من توليد أشعة سينية تبلغ ٢٠ مليون فولط . هذا والعمل دائر الآن في وضع رسوم جهاز جديد لتوليد أشعة سينية تبلغ مائة مليون فولط .

وقد استوجب تركيب الجهاز السابق الذكر ، تشييد مبنى من الأبرق المسلح ، بلغت ثخانة حيطانه ثلاث أقدام ، وذلك لينصب فيه هذا الجهاز الضخم القوي ، صوناً للناس من ضرره . وهو مستعمل لفحص ألواح المعدات الحربية . والأشعة السينية الفائقة الطاقة التي سوف يولدها الجهاز المرتقب والتي تبلغ طاقتها مائة مليون فولط ستكون ذات موجة طولها يشبهُ أضعف موجات الأشعة الكونية . وهذا مما يجعل العلماء يأملون كشف أشياء جديدة خاصة ببناء الكون يمكن تحقيقها حينما تتاح لهم فرصة تذليل تلك الأشعة القوية جداً .

الأورانيوم رقم ٢٣٥

وما زال في طي الكتمان ، الذي يلازم دائماً المباحث الحربية ، خبر أي تقدم يتقدمه العلماء في استخلاص الطاقة من ذرة الأورانيوم بتهشيمها . ولكن زفت إلى العلماء بشرى عظيمة قد تكون سبب تحقيق آمالهم ، وهي تحطيم ذرة تشبه ذرة الأورانيوم رقم ٢٣٥ (التي هي معقد آمالهم في طاقة الذرة في هذه الأرض) .

ومصدر هذا الحادث هالة الشمس ، وهي

مجموعة من ألسنة الضوء المنير التي تحف بالشمس ولا ترى إلاّ عند كسوفها الكلي وكان اكتشاف الأورانيوم ٢٣٥ الذي ينفجر بقوة هائلة، مشفوعاً بالعمل الباهر الخاص باكتشاف طريقة فصل نوعي ذرات الأورانيوم سبباً لاعتقاد بعض العلماء كونه ممهداً لإطلاق طاقة الذرة.

ويؤكد علماء الطبيعة أن رطلاً واحداً من الأورانيوم الذي يعادل ثقل الهيدروجين ٢٣٥ مرة تنبعث منه طاقة تساوي ثلاثة ملايين رطل من البنزين أو خمسة ملايين رطل من الفحم الحجري.

ويقول الأستاذ دننج Dunning مكتشف الخواص المفرقعة لأخف ذرتي الأورانيوم إنه لا يزال أمامه خطوة واحدة حتى يتمكن الانسان من الانتفاع بها وهي تحسين وسائل استخراج ذلك الأورانيوم من تبره إذ لا يتاح الآن استخراجه إلاّ بمقادير ضئيلة جدًّا على حين أن تبره يوجد منه مقادير كبيرة.

ويرى بعض العلماء أيضاً أن هذا الاكتشاف قد يفضي إلى إحداث انقلاب في العالم إذ أنه يبشر بجعل جميع المصادر الأخرى المولدة للطاقة، لا تزيد على لعبات للأطفال وذلك عند موازنتها به. ولاغرو فهم يقولون إن مقداراً من الأورانيوم رقم ٢٣٥ يتفاوت بين خمسة أرطال وعشرة أرطال، يستطيع تسيير احدى عابرات المحيط زمناً غير محدود.

وبحسبان هذه المادة قابلة للانفجار يولد الرطل منها ضغطاً يعدل ما يولده ١٥٠٠٠ طن من الترينيترو توليول مليون مرة. وأن قطعة منها في حجم كف المرء تمكن غواصة من قطع المحيط الهادي. وبمثل هذا المقدار تستطيع إحدى الطائرات الطيران حول العالم. وقد تبين أن الأورانيوم ٢٣٥ يمكن جعله يصدر طاقته بسهولة مدهشة إذ يوضع في صهريج ثم يسلط عليه مجرى مستمر من الماء البارد. وكلما عجلت إراقة الماء عليه، خرج الماء ساخناً جدًّا من الجانب الآخر فيتولد البخار بأي مقدار تمس الحاجة اليه.

استخراج المغنيزيوم من البحر

واستخراج المغنيزيوم من البحر، وهو معدن أخف وزناً من الالومينوم ونافع جدًّا في صناعة الطائرات، هو من أعظم الأعمال الكيميائية الحديثة التي تساعد الدول المتحالفة في مجهوداتها الحربية، وكان هذا الفلز يستخرج من أملاح آبار المياه الملحة في متشيجان ولكن الكيميائيين حوّلوا جهودهم صوب اليمّ فاستخرجوا منه مقادير أكبر مما كانوا يستنبطون من مياه هاتيك الآبار إذ تبين لهم أن في كل ميل مكعب من مياه البحر زهاء ٥٧٠٠٠٠٠ طن من المغنيزيوم فأدركوا أن المحيط معين للمغنيزيوم لا ينضب.

عوض جندي

رداء غير منظور

يقي من البلل

تمكن العلماء أخيراً من اختراع رداء غير منظور يقي من البلل ، وهذا الرداء يمكن تكوينه على الأقمشة أو الورق أو غيرهما من المواد ، عن طريق تعريض تلك المواد لأبخرة كيميائية تتصاعد من مركبٍ جديد ، فتتحول إلى سترة تطرد الماء . ومن أهم منافع هذا الكشف الجديد استخدامه في معالجة العوازل الفخّارية في أجهزة الراديو ، لأن تأثيره يفوق نحو تسعة أضعاف تأثير العوازل الشمعيّة التي تستعمل في الوقت الحالي لطرد الماء ، كما أن مزاياه مستديمة باقية .

*

أما السائل الذي يبلل بَخَرُهُ تلك الموادّ ، فإنه سائل رائق يتكوّن من موادّ كيميائية مختلفة تتبخر في درجة حرارة أقلّ من مئة درجة مئوية . وتُعَرَّض المواد التي يراد طلاؤها بهذه المادة للبخار في حجرة مقفلة خلال دقائق . ثم تنقل الموادّ من الحجرة وتعالجُ ، إذا لزم الأمر ، ببخار النوشادر ليتعادل مع الحوامض الأكالة التي قد تتكوّن عليها أثناء عملية الطلاء . والنتيجة أن تتكوّن طبقة رقيقة عازلة للماء على سطح المادة (سواء أقماشاً كانت أم ورقاً) ، وهي متناهية في الرقّة حتى لا تستطيع العين المجرّدة أو المجهر الدقيق تبيّنها . ويستعان على اختبار وجودها بالتحليل الكيميائي . وإذا سقط المطر على سطح مطليٍّ بهذه المادة ، فانه يكوّن نقطاً منفصلةً بعضها عن بعض لا يتشرّبها السطح .

*

ومن مزايا تلك المادة أيضاً أنها تستعمل في أدوات المختبرات العلمية . فكثيراً ما يتسبب الماء وبخار الماء في تغشية سطوح أنابيب الاختبار المدرّجة ، فتشقّ رؤية الأرقام رؤية واضحة . وقد أمكن ملافاة ذلك النقص ، بتعريض هذه الأنابيب إلى بخار السائل الكيميائي المتقدّم الذكر ، فسهلت رؤية الأرقام المنقوشة على الأنابيب .

البنسلين أيضاً

أعلنت جامعة أريزونا (بفونكس) أن البنسلين استخدم بنجاح في قتل مرطان النبات ، وهو مرض فتاك تتسبب البكتيريا في انتشاره .

مستقبل القطن الطبيعي

جاء في تقرير لوزارة الزراعة الأميركية أنه سيستعاض من القطن الطبيعيّ في كثير من مصنوعات ما بعد الحرب بالأنسجة الصناعية التي أصابت تقدماً كبيراً في أثناء توسع الانتاج الصناعيّ في زمن الحرب .

وينتظر في الوقت نفسه أن تفتح أسواق جديدة للقطن الطبيعيّ في المناطق الأخرى التي تقوم فيها تجارب لاستخدام القطن الطبيعيّ في صناعة الأجهزة العازلة والعجائن الكيميائية وأنواع معينة من الملابس والأنسجة والخامات التي تستخدم في صناعة الأنسجة .

وقد نجح استخدام القطن أخيراً كمادة مانعةٍ للماء والحرارة والبرودة ، وبذلك يتسنى استخدامه في الأبنية والسيارات .

وأشار التقرير إلى أن العجائن الكيميائية ستصبح من أهم وجوه استهلاك القطن الذي يستخدم الآن لتغـذية العجائن التي تتطلب المرونة والمتانة وخفة الوزن .

سلاح الصاروخ

ليس الصاروخ كشفاً جديداً، إذ عرفه الصينيون حوالي عام ١٣٠٠ . وقد أجريت في مدفعية الحرب الكبرى الماضية عدة تجارب في استخدام الصاروخ ، ولكن الصلح أبرم قبل أن يصل العلماء إلى نتائج ذات شأن . واستمر البحث زمن السلم ، وخاصة فيما يتعلق بالدسر (أي الدفع إلى الأمام) ، وأجرى العلامة « فرتز أوبل » عدة تجارب على السيارات المسيرة بالصاروخ . أما في هذه الحرب ، فقد أمكن الحصول على نتائج باهرة في هذا الفن.

والصاروخ قذيفة مُسيَّرة بذاتها ، تختلف عن القذائف المدفعية الأخرى في أن قوتها الدافعة تتولد من رد فعل الغازات المحترقة داخلها وهذا هو المبدأ العام لجميع أنواع الصواريخ .

وإليك ملخَّص طريقة عمل هـذه الصواريخ : تُشعل القذيفة الدافعة سـواء بالكهربا أو بالفتيل من أجهزة داخـل الصاروخ ، فيولّـد ذلك غازاتٍ تتمدد في جميع الاتجاهات موزعة عليهـا ضغطاً متساوياً . فالغازات الجانبيّـة يتعادل بعضها بعضاً ، أما الغازات التي تتولّـد من الخلف فإنها تخرج بقوّة فتندفع الصاروخ نحو الهدف .

وينتظر لهذا السلاح تقدمٌ كبير في السنوات القادمة .

وديع فلسطين

قواعد بسيطة للطعام الصحي

الأولى — الإكثار من شرب اللبن وما يصنع منه ويحسن إذا أمكن أن لا يكتفي الانسان بأقل من رطلين من اللبن . فاللبن فضلاً عن كونه كثير المواد الفيتامينية ، فيه مقادير يسيرة جداً من العناصر المعدنية ولكنها على يسرها لازمة للجسم . ثم هو يساعد على إنماء نوع من الجراثيم النافعة في الأمعاء ، على قول بعض الأطباء ، فيتولد حامض يدعى الحامض « اللبنيك » وهو الذي يقضي في الأمعاء على بعض الجراثيم التي تفسد الأطعمة النشوية . فاذا أكثرنا من شرب اللبن قل ما تولد المواد المضرة في الأمعاء

الثانية — في الخضر المورقة غذاء يختلف كل الاختلاف عن الغذاء في الخضر الجذرية كالبطاطس والجزر . ومن فوائد الخضر المورقة أنها تيسر حركة الأمعاء . وأهم هذه الخضر الأسبانخ والخس والكرنب والقرنبيط والبصل .

الثالثة — يجب الإكثار من أكل الخضر والفواكه غير المطبوخة لكي نحصل منها على الفيتامين الذي يقاوم ويقي من المرض الذي كان يصيب البحارة والرحالين .

***

مجموعة فريدة

الصحف الشرقية

إن في بيروت ذخيرة تزيد في ثروتها ، والذخيرة بين يدي فاضل من فضلائها وعالم من علمائها الفيكنت فيليب دي طرازي ، وهي مجموعة للصحف لا نعرف لها أختاً في العالم ، وإن اشتهرت أوربة وأميركة بالتفوق في الجمع لذخائر الثقافة .

وما نظن القارئ يجهل من الفيكنت دي طرازي صاحب كتاب « تاريخ الصحافة العربية » الكتاب الذي ألقى الترحيب والتقدير ونزل منزلة السفر المعتمد في بابه .

انصرف الفيكنت دي طرازي منذ فتوته إلى جمع الكتب والصحف على نحو ما كان يصنع رجالات العرب وعلى نحو ما صنع أحمد تيمور وأحمد زكي عندنا ، فاتسقت له خزانة كتب حافلة فيها المطبوع والمخطوط ، فأنشأ بها « دار الكتب اللبنانية » في بيروت ثم أتحف الدار بألطاف وآثار جمع بعضها إلى بعض فانتظمت في شكل معرض فني . وأما مجموعة الصحف فلا تزال في حوزته .

إن هذه المجموعة لمن الضنائن ويا ليت مصر — وفيها دار الكتب وكلية الآداب ولاسيما معهد الصحافة — أن تكون لها

حافظة . هي مجموعة تضم الشوارد والغرائب والمفاريد . أقبل صاحبها على إنشائها سنة ١٨٨٧ فراسل الأدباء والصحافيين والمولعين بما قدم من المنشورات ، وكاف من كلف بالتقاط ما انقطع خروجه أو ابتدأ صدوره ، بل رحل إلى أطراف آسية وإفريقية وأوربة فظفر بما نصفه هنا .

المجموعة على قسمين عربي وغير عربي . أما العربي فيضم العدد الأول لكل صحيفة منذ نشأة الصحافة العربية ، وربما ضم عدداً ممتازاً صدر لأمر خاص . وكان المؤلف إن عجز عن الحصول على العدد الأول اقتنى الثاني أو الثالث فأتسق له من الصحف بين جرائد ومجلات مختلفة العنوانات ظهرت في الخافقين نحو أربعة آلاف ، منها ما يزيد على ثلاثة آلاف عدد أول .

وأما القسم غير العربي فيضم الصحف التي خرجت في حروف شرقية كالتركية والفارسية والعبرية والسريانية والحبشية والكردية والتترية والأردوية والأرمنية وغيرها . وبجنب ذلك عني الفيكنت العربي بجمع طائفة من الصحف الافرنجية التي طبعت في بلاد الشرق أو التي نشرها الشرقيون في بلاد الغرب ويربي عدد تلك الصحف غير العربية على ثلاثة آلاف .

ولهذه المجموعة — وفيها أعداد مخطوطة لا مطبوعة — ترتيب حسن يجري على ناحيتين: الناحية الجغرافية والناحية التاريخية فبحسب الأولى قسمت المجموعة خمسة أقسام على عدد قارات العالم ثم جزئت كل قارة إلى دول ، وكسرت الدول على فروع ، والفروع على توابع ، فمن العواصم حتى القرى . وبحسب الناحية الثانية سُلسلت الصحف على تعاقب السنين من الزمن الأبعد إلى الأقرب . وتقريباً للمأخذ صنع صاحب المجموعة فهارس شاملة ومسارد وافية أدرج فيها على التتالي أسماء المنشئين وأسامي الصحف .

تلك هي المجموعة التي نرجو أن تبقى في الشرق العربي بل في مركزه الثقافي مصر . فاننا نعلم أن عيوناً شاخصة اليها وأن خزانات طامعة فيها . ذلك لأنها ذخيرة ثمينة من جانب تاريخ الصحافة العربية خاصة والشرقية عامة ثم من جانب النفاسة والندرة على وجه الاطلاق .

إنها المجموعة لن يتهيأ اتساقها اليوم لأحد مهما يبذل من السعي .

***

ونحن نهنئ الفيكنت الهمّام بدأبه العلمي ونذكر له فضله ونسأل الله أن يمدّ في عمره ، فهو من العلماء العاملين الذين رصدوا حياتهم وثروتهم وسعيهم لخدمة المعرفة ولتوسيع الثقافة ولبذل أدوات الاطلاع والتحصيل لمواطنيه . ولعلّ لبنان يقدر هذا الفضل ويُنزل صاحبه المنزلة التي هو أهل لها وبها أحقّ .

*

فهرس الجزء الاول

من المجلد السادس بعد المائة

١ عقّار جديد لعلاج السل والجذام

٨ على المشنقة (قصة) : لمحمور تيمور

١٧ على هامش الطب : للدكتور سليمان عزمي باشا

٢٥ أبو العلاء وبيئته : لأدوار مرقص

٣٢ مياه عين الفيجة

٣٥ كانت والعقل الجرماني الحديث : نقله عبد الكريم الحمود

٤٠ منشأ الدولة الأتابكية : لناجي الطنطاوي

٤٤ التمثيل الخارجي : للدكتور نجيب الأرمنازي

٥٧ الأمصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد

باب التعريف والتنقيب

٦١ سنة مضت : بقلم ب. ف.

صورتان من الفن العربي في دمشق

١ — الكتب : « أبو نواس » تأليف عبد الرحمن صدقي . نقد بقلم محمد عبد الغني حسن — «جمهور أرسطفانس» تأليف فكتور ايرنبرج . نقد بقلم وهيب كامل— «رسالة الملائكة» للمعري ، تحقيق وشرح محمد سليم الجندي . نقد بقلم رفعت فتح الله — «كتاب فتوح إفريقية والاندلس » تأليف عبد الرحمن بن عبد الحكم ، نشره وترجمه جاتو . نقد بقلم زكي محمد حسن — ثم كتب ظهرت

٢ — المجلات : «الأديب» العدد الخاص بأبي العلاء . نقد بقلم عبد السلام محمد هارون

٣ — المسرح : «صفق الجمهور فصفق النقاد» . بقلم زكي طليمات

٤ — الاستدراك : الامتاع والمؤانسة ، الجزء الثالث ، للتوحيدي . بقلم مصطفى جواد

٥ — المسائل : «الأديب وحرفته» بقلم بشر فارس

٨٨ باب الأخبار العلمية * ثمرات الحرب الحالية في العلوم والفنون : لعوض جندي . رداء غير منظور يقي من البلل . البنسلين أيضاً . مستقبل القطن الطبيعي . سلاح الصاروخ: لوديع فلسطين. قواعد بسيطة للطعام الصحي . مجموعة فريدة للصحف الشرقية . لدى الفيكنت دي طرازي ببيروت

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حسني

في دمشق — شعلان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في فلسطين الأستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي حريفي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين
Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. Naguib Shehadi
6012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة
ص

١٢٠ في القطر المصري والسودان

١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق « بريد عادة »

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة { يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم }

مطبوعات المقتطف

في ادارة المقتطف طائفة من أفيد الكتب العصرية والعلمية والروايات الأدبية

م		م	
٤٠	الفتح مستمر للاستاذ فؤاد صروف	٣٠	تراث مصر القديمة
٥٠	معجم الحيوان : الفريق الدكتور امين باشا المعلوف	٢٠	رجال المال والاعمال : للمقتطف
٤٠	بسائط علم الفلك : للمقتطف	١٥	رواية اميرة انكلترا
٣٥	فصول في التاريخ الطبيعي: للمقتطف	٣٥	نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية
٣٥	مختارات المقتطف	٢٠	صقور قريش : للاستاذ علي أدهم
٤٠	الرواد : للمقتطف	٢٠	معجم الاحلام : جزء اول
٣٠	مصر الاسلامية : لجماعة من الاساتذة	٢٥	القضايا الاجتماعية : للدكتور شهبندر
٤٠	رواد الشرق العربي	٤٠	موكب الحياة ٣٨ قصة عالمية

هذه الاسعار يضاف اليها ٢٠ ٪ اجرة البريد في داخل القطر المصري وخارجه

المقتطف

يوزعه

في فلسطين : شركة فرج الله

في لبنان والشام : شركة فرج الله وحتي اخوان

في العراق : محمود حلمي

المقتطف

تستهل مجلة « المقتطف » السنة السبعين من عمرها باشراف أحد منشئيها الأولين الدكتور فارس نمر باشا مدّ الله في عمره . وقد تولى تحريرها من هذا العدد الأستاذ اسماعيل مظهر ، واعدّت لها العدّة لتكون كما كانت دائماً ، مرجعاً لصفوة المثقفين في البلاد العربية ، مضطلعة بنصيبها من أعباء التوجيه العلمي والفكري في العهد المقبل .

ونحن إذ نستهل هذه السنة نتوجه بالشكر الخالص لحضرة الدكتور بشر فارس الذي تولى الاشراف على تحريرها في سنة ١٩٤٤ واستحدث فيها باب التعريف والتنقيب وغايته «مراجعة بعض ما يخرج في العلم والادب والفن كتابة أو أداء ، ونشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة » .

أما وقد آثر أن يعود الى عمله الادبي الخاص، فنرجو له التوفيق، وأن يوافي المقتطف في الحين بعد الحين ، ببعض آثاره الادبية .

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد السادس بعد المائة

١ فبراير سنة ١٩٤٥ — ١٨ صفر سنة ١٣٦٤

ألغاز العلم

العلم أسلوب من أساليب الكشف عن الحقيقة — حقيقة المادة وحقيقة الحياة . وهو أسلوب أسفر تطبيقهُ خلال القرن ونصف القرن الماضيين ، عن آيات تبهر النفس ، وتعين على تيسير الحياة ، ويناط بها الأمل حين يحزب الأمر ، بكسب الحرب من ناحية ، او الارتفاع بالانسان إلى مستوى أعلى من العيش والفكر والأخلاق من ناحية أخرى . وعلى أنَّ العلم في العصر الحديث كشف كثيراً مما كان مستمرًّا عن فهم البشر ، منذ قرن أو نصف قرنٍ وحسب ، فان العلماءَ لا يزالون على عهدنا بهم في كل عصر ، ذوي دعةٍ يتنكبون التبجُّح ، ويقبلون على بحوثهم إقبال نيوتن حين قال : أراني واقفاً على ساحل بحر الحقيقة ولما التقط من درّ حصبائهِ سوى حجر واحد .

فهم يعترفون بأن الأسرار التي تعضّهم وتومىء اليهم لم تزل فوق الحصر ، وقد استفتى باحث علميّ منذ عهد قريب طائفةً كبيرةً منهم ، في ألغاز العلم التي ما فتئت تحيّرهم ، فإذا الكثرة ممن استفتى تقدم الألغاز السبعة التالية .

١ — لغز عصر الجمد

حدث مراراً خلال العصر الجولوجي الأخير ، المتغلغل مليون سنةٍ في جوف الزمان ، أن غطى مساحات واسعة من سطح الأرض غشاءٌ فسيح كثيف من جمد ، بدأ يتكوّن عند القطبين الشمالي والجنوبي ، ثم جعل يمتدُّ ويتسع ، جنوباً من الشمال ، وشمالاً من الجنوب . ففي القارة الأمريكية ، بلغ الغشاء النازل من الشمال حدود فرجينيا ، وفي أوربا حدود فرنسا

وروسيا . ويذهب فريق من علماء طبقات الأرض ، إلى أن كتلة هذا الغشاء من الجمد ، أغرقت الأراضي الواطئة في شمال أميركا الشرقي ، ولكنها عادت فارتفعت فوق سطح المحيط .

وكلُّ غزوةٍ من غزوات الجمد هذه ، استغرقت زمناً طويلاً ، فهلك كلُّ حيٍّ في المناطق التي شملتها ، أو فرَّ منها ، إن كان قادراً على الحركة ، إلى الأقاليم الدافئة . والغالب ان الاقليم كان في الزمن بين غزوة وأخرى ، معتدلاً في المناطق التي غطاها الجمد . فترعرع النبات وتكاثر الحيوان وزخرت الحياة بوجه عام .

فما كان الباعث على هذا ؟ وهل يحتمل أن يعود الجمد فيغطي مناطق واسعة من سطح الأرض ؟ هذان السؤالان مجتمعان ، هما أحد ألغاز العلم الحديث . ويقول العلماء إنهم إذا أخذوا بالاحتمال الرياضي وحسب ، فالغالب أن يعود عصر الجمد مرة أخرى ، فيرتحل عن المناطق الشمالية البشر والحيوان ، ويقضي على منشآت الحضارة فيها . وعندهم أن الأرض تجوز الآن الزمن المتوسط بين عصرين من عصور الجمد ، وأنها جازت منتصفهُ ، أي أنها بلغت أقصى الدفء ، وهي سائرة سيراً بطيئاً في طريق البرد الشديد . بل هم يعتقدون كذلك ، ان الاقليم Climate ما فتئ يزداد برداً ورطوبة ،منذ بضعة ألوفٍ من السنين . ولكن يقابل هذا ، ان انسان العصر الحديث ، أحسن أهبةً من إنسان الكهوف لمواجهة طوارئ البرد الشديد ومكافحة الجمد .

وقد تضاربت الأقوال في تفسير هذه الظاهرة الطبيعية العجيبة . فقد قال بعضهم أنْ ثمة تحوُّل في محور الأرض ، أي ان مركز دوران الأرض كان في عصر الجمد ، في مكانٍ غير مكانه الآن ، وان أشعة الشمس كذلك ، سقطت على سطح الأرض من زاوية غير زاوية سقوطها في هذا العصر ، فأثر ذلك في الاقليم تأثيراً عظيماً . فيردُّ علماء الطبيعة والفلك ، ردًّا قويًّا ، بأن تحوُّلاً من هذا القبيل في مركز دوران الأرض يكاد يكون مستحيلاً .
وقال فريق آخر إن فعلاً بركانيًّا عنيفاً رفع جبالاً شامخة فوق سطح الأرض في المناطق الشمالية ، فأحدث ذلك برداً شديداً وبدل حالة الاقليم تبديلاً عظيماً . ولكن هذا القول إن صدق على المناطق الشمالية ، فإنهُ لا يفسر ما حدث في النصف الجنوبي من الكرة ، والحاجة إنما إلى تفسير يصدق في الحالين . والعلماء يعتقدون ان هبوط الحرارة ، شمل الأرض كلها ولكنه تجلى تجلياً عنيفاً في المناطق الشمالية والجنوبية . فهل حدث شيء في الشمس ؟ هل ثارت فيها سلسلة من الزوابع العاتية ، غطت بعض سطحها ، فأضعفت تأثير أشعتها في جو الأرض وسطحها ؟ هذا تفسير ، ممكن ولكنهُ غير مرجح ، أو هل مرت المجموعة الشمسية ، اثناء انطلاقها السريع في الفضاء ، خلال منطقة باردة بالغة البرد في تلك الرحاب .

القسيحة النائية ؟ إن العلم يأبى الأخذ بهذا الرأي . أو هل نقص مقدار ثاني أكسيد الكربون في الهواء فضعف فعل الدثار الذي يحفظ حرارتها ويقيها برد الرحاب الخارجية الخاوية ؟ وهذا غير محتمل على ما يقولون . أو هل اصطلح المد والجزر والريح اصطلاحاً ما على إحداث هذه النتيجة ؟ يتعذر على العقل أن يتصور اصطلاحاً من هذا القبيل ، حدث أربع مرات متعاقبة ، وظل قائماً كل مرة ، دهراً طويلاً ، ربما لا يقل على ربع مليون من السنين . فالجواب عن السؤال : ما سبب عصور الجمد في الزمن الماضي ، وما يحتمل أن يكون الباعث عليها في الزمن المقبل ، لا يزال مكانهُ بياضاً في صفحة العلم الحديث .

٢ — لغز الأشعة الكونية

كل بوصة مربعة من سطح الأرض ، عرضة كل ثانية من ثواني الليل والنهار ، لأشعة خفية قوية تنطلق من رحاب الفضاء ، فتصيب سطح الأرض فيما تصيبهُ من الأجسام التي تعترض سبيل انطلاقها . وطاقة هذه الأشعة عظيمة تبلغ الوف الوف الوف من وحدات الطاقة الكهربية . ومع ذلك فانها لا تحدث من الأثر البادي ما يستوقف النظر . والعلماء لم يتبينوها إلاّ من أثرها في تمزيق بعض ذرات المادة إما على سطح الأرض وإما في الغلاف الغازي الذي يحيط بها . وقد يبلغ من شدة وقع الأشعة في الذرة مبلغاً عظيماً لا يكاد يتصوره عقل . فحين تنشق ذرة ما ، بفعل من هذا القبيل ، وتنحل وتنطلق أجزاؤها في الفضاء ، فقد تكون سرعة بعضها قريبة من سرعة الضوء ، وهي ١٨٦ الف ميل في الثانية .

فهذه هي الأشعة الكونية [(١)] وهي من بعض النواحي قريبة الشبه بالأشعة السينية ، ولكنها تختلف عنها في أن بعض الأشعة الكونية تحمل شحنة كهربية موجبة ، على حين أن الأشعة السينية ، هي أشعة ضوء شديدة النفاذ ، ولا تحمل شحنة كهربية ما . ولما كانت الأرض في منزلة مغنطيس كبير دائر ، فان الأشعة الكونية الموجبة الشحنة ، تنحرف حين تدخل جو الأرض ، بتأثير مغنطيسية الأرض ، فتميل إلى الانحراف نحو قطبي الأرض المغنطيسيين . وهذا هو أحد الأسباب ، التي تجعل قوة الأشعة الكونية متفاوتة بتفاوت مكان الراصد على سطح الأرض . ويبدو أن الأشعة تأتي من الغرب أكثر مما تأتي من الشرق — في نصف الكرة الشمالي — ولعل هذا مرجعهُ إلى الانحراف المغناطيسي لأن مقر القطب المغنطيسي في مكان ما في شمال القارة الأمريكية . ولما كان الهواء يمتص جانباً كبيراً من هذه الأشعة فهي أقوى في طبقات الجو العليا منها على سطح البحر . وقد وجد الباحثون في

(١) راجع كتاب « آفاق العلم الحديث » فصل « الأشعة الكونية » صفحة ٦٤

العهد الأخير شيئاً من التفاوت في قوتها بتفاوت خطوط العرض والطول

والرأي الشائع أن الأشعة الكونية ينحل بعضها، حين تدخل جو الأرض فتتحول إلى دقائق تعرف الدقيقة منها باسم «ميزوترون»، ومدة حياة هذه الدقيقة غاية في القصر وربما لا تزيد على بعض ثانية. ولكن «الميزوترون» متصف بقدرة خارقة على النفاذ من الأجسام. فهو يستطيع أن ينفذ من لوح من الرصاص سمكه بضعة أمتار، مع أن طبقاً رقيقاً منه يحجب الأشعة السينية. وحين ينحل «الميزوترون» تتكوَّن منه — في بعض الرأي — دقيقتان غاية في الصغر يطلق على أحدهما اسم «الكهيرب»، والآخر اسم «النترينو». والنترينو جسم فرضه العلماء فرضاً، ولم يقم دليل على وجوده المادي بعد.

وعلى قدر ما يسبر العلماء غور الأشعة الكونية، يزدادون ايماناً بما لها من شأن عظيم فهي تهشم الذرات حين تصدمها في كل بوصة مكعبة من الفضاء، ولذلك فلا بد من أن يكون لها أثر في أجسامنا. فماذا تفعل فيها؟ إن قوام كل عامل من عوامل الوراثة في الصبغيات (الكروموسومات) — بحسب الرأي الحديث — جزء مفرد من البروتين. فمن الجائز أن يكون للأشعة الكونية أثر في هذا البناء العضوي. وإذا حدث تغير ما في بناء عامل الوراثة حصل ما يعرف في علم الوراثة بالتحول الفجائي. والتحول الفجائي لم يزل خير تفسير لتطور الأحياء. طبعاً ان القول بتأثير الأشعة الكونية في عوامل الوراثة داخل في باب التخمين. وعلماء الأحياء لا يقرونه. ولكننا نعلم ان الأشعة السينية، على ضعفها بالقياس إلى الأشعة الكونية، تؤثر في عوامل الوراثة، وتحدث في بعض الأحياء تحولات فجائية عجيبة. وقد جرب ذلك بذبابة الفاكهة (دروسوفيلا) تجريباً خاضعاً لقواعد البحث العلمي المحكم. وقد ذهب أحد الكتاب العلميين الذين ينحون نحو الفلسفة إلى القول منذ سنوات، بأن الكرة الأرضية جازت خلال انطلاقها في الفضاء مناطق تكثر فيها الأشعة الكونية، وأخرى تقل فيها هذه الأشعة، ففي المناطق الأولى كان التطور العضوي وظهور الأنواع الجديدة سريعين كل السرعة وفي المناطق الثانية، كان التطور العضوي بطيئاً البطء كله.

وقد اختلف العلماء في منشأ هذه الأشعة؟

بنى مليكن نظريته، على أن هذه الأشعة هي اشعاعات كهرطيسية (كهربائية مغنطيسية) أو فوتونات من قبيل الأشعة السينية وأشعة غمّا. ولكنها أكثر من هذه الاشعاعات أمواجاً وأشد اختراقاً للاجسام. وكان هذا الفرض طبيعياً لشدة نفوذ الأشعة، ثم عمد مليكن إلى الرياضة والطبيعة معاً، فقال إن أشعة لها نفس قدرة النفوذ التي تتصف بها الأشعة الكونية، يمكن أن تتولد إذا اجتمعت أربع ذرات من الايدروجين، واتحدت

فتكون من اتحادها ذرة من الهليوم . فالطاقة التي تنطلق من هذا الاندماج ، هي في قوتها وقدرتها على اختراق الاجسام ، من رتبة الأشعة الكونية .

لذلك أشار مليكن الى شماعة منها بقوله « إنها صراخ ذرة عند ولادتها » في رحاب الفضاء ، فكان قوله هذا نفخاً في بوق أهاب بالعلماء الى البحث

وعلى هـذا القياس قيل ان تولد ذرات العناصر التي تفوق الهليوم في وزنها الذري — كالاكسجين والسليكون — ينشيء أشعة كونية ، من درجات متفاوتة في قدرتها على اختراق الاجسام المادية ، وان هـذه الذرات تتفاوت بفعل التجاذب ، فتتكوّن منها السدم ثم النجوم . وتشع السدم والنجوم مادتها بتحولها الى ضوء وحرارة ، وتنطلق الطاقة الشاعّة منها في رحاب الكون ، فتتحوّل في خلال رحلتها الطويلة — وهذا فرض فلسفي — الى بروتونات وكهيربات ، ومن هـذه الدقائق تتألف ذرات الأيدروجين ومن اجتماع ذرّات الايدروجين تتكوّن ذرّات الهليوم فذرّات عناصر أخرى وتنطلق أشعة ، وكذلك ترى الكون بحسب رأي مليكن ، يبتدىء من حيث ينتهي

ما كاد مليكن يطلع بنظريته هذه ، حتى قال جينز برأي يخالفها . فالأشعة الكونية ، في نظره ، رسائل تنبيء بفناء المادة وتلاشيها ، لا بتولدها . واتخذ من الحساب الرياضي أساساً لتأييد القول المشهور في علم الطبيعة ، وهو أن الكون يتدرّج انحطاطاً في مقدار الطاقة الفعالة التي فيه ، الى حيث لا رجعى . فالكون بحسب ناموس « الترموديناميكس » الثاني ، وحساب جينز ، سائر إلى نهاية ، ولا عود له منها .

ثم جاء باحث طبيعي فرنسي شاب يدعى دوفيلييه ، فاقترح نظرية أخرى لتفسير أصل الأشعة الكونية ، ولـكن الأصل الذي بنى عليه نظريته هو أن الأشعة الكونية ليست مؤلفة من فوتونات ، بل هي كهيربات تنطلق من الشمس الى الأرض ، من مناطق عالية الضغط الكهربائي في الشمس ، فيدنو بعضها من جوّ الأرض فيؤثر في جوّها ، فيحدث الأضواء القطبية الباهرة ، ويمزّق ذرّات الغازات في الهواء فتتطاير شظاياها .

ولعل أغرب الآراء التي اقترحها العلماء لتعليل نشأة الأشعة الكونية ، هو رأي الأب لومتر الفلكي الطبيعي البلجيكي وهو صاحب الرأي القائل بأن الكون كان من ألوف ملايين من السنين ، مركزاً في حيز ضيق ، ثم اختلّ استقراره الداخلي ، فانفجر فجأة ، فانتثرت منه السدم فأخذت تبعد بعضها عن بعض ، وما فتئت تتباعد . على انه يقول ان الأجزاء التي انتثرت من الكون عند انفجاره لم تكن سدماً ونجوماً فقط ، بل كان منها دقائق صغيرة جدّاً ، ذرّات وكهيربات وفوتونات ، وعنده ان هذه الدقائق المتناهية في الصغر ، التي ما فتئت

تجوب رحاب الفضاء من بداية الكون ، هي الأشعة الكونية .

فهل ثمة سبيل الى معرفة الحقيقة في طبيعة هذه الأشعة ؟ وهل هي فوتونات كما يقول مليكن وجينز ، أو كهيربات كما يقول دوفيلييه ، أو مزيج من أشعة ودقائق مختلفة كما يقول لومتر ؟ ولا يزال البحث مستمرًّا ، ولكن ليس ثمة ما يشير إلى أن اللغز قد حل .

٣ — لغز الزكام

ان الزكام أكثر العلل التي تصيب الناس شيوعاً وأشدها غموضاً وتحييراً للعلماء . وعلى أنه يصيب عشرات الملايين من الناس كل سنة ، وينزل بالصناعة والتجارة خسارة تقدَّر بمئات الملايين من الريالات ، لتغيب المزكومين عن أعمالهم ، وتتبعه أحياناً علل أخرى بعضها مميت ، فان العلم قلما يعرف عنه شيئاً ، مع ان المنشآت العلمية انفقت في العهد الأخير أموالاً طائلة في سبيل البحث عن سببه ومنشأه وكشف طرائق لعلاجه والبرء منه .

والفرض الغالب في دوائر العلم والطب ، ان سبب الزكام « فيروس » راشح ، ولكن الدليل على صدق هذا القول ليس قاطعاً . ورجال الطب والبحث الطبي يعرفون أن تعرض الناس للاصابة بالزكام يختلف باختلاف الناس . وقد يكون هذا موروثاً . وقد حضِّرت أنواع شتى من اللقاح ولكن كفة الدليل على وقائها بالغرض مرجوحة لا راجحة .

ومن الأقوال الشائعة عن ميكروب الزكام إنه يحل بساحة كل امرئ ، ان كانت الحموضة غالبة على جسمه ، فلكي يتجنب الزكام أو يدفعه عنهُ عليه أن يتخذ من المواد القلوية ما يعدل هذه الحموضة ويميل بجسمه إلى القلوية . على ان العلم يقول إن هذا الرأي هراء لا طائل تحته . فلو زادت الحموضة في الجسم زيادة يسيرة ، لغلبت الغيبوبة على الجسم ولتبعتها الوفاة على الأثر . ومن حسن الحظ أن الأدوية التي توصف لجعل الجسم «قلويًّا» لا تؤثر في الجسم تأثيراً ما من هذا القبيل ، لأنه لو مال الجسم إلى « القلوية » ميلاً يسيراً ، لأصيب بالتشنج ولكان احتمال الموت كبيراً .

ومع أن العلم لم يكشف سر سبب الزكام ونشأته فانه هيأ وسائل شتى لمنعه كاستعمال المصابيح التي تشع ضوءًا يفتك بجراثيمه المنطلقة في الهواء ، ولكن هذه الوسيلة تدخل في باب الوقاية لا في باب العلاج .

على أن العلماء مجمعون على ان خير ما تتقي به الزكام هو العافية . وهم يشيرون على من يدركه الزكام أن يلتزم الفراش ، وإذا شاء أن يزدرد ما شاء من الحبوب ، وأن يغسل حلقه بما شاء من المحاليل ، فله أن يفعل ذلك ، ما زال يفهم أن كل ذلك إنما يخفف من أعراض الزكام وحسب ، فليس لهذه العلة الشائعة علاج شافٍ معروف .

فؤاد صروف

على هامش الطب

بعض ما يجب أن يعرف الانسان عن جسمه ونفسه في صحته ومرضه

للدكتور سليمان عزمي باشا

• من الملاحظ أن الحيوانات ذوات الوبر يقل وبرها صيفاً ويغزر شتاء وهواة الكلاب ومربو الحيوانات ذوات الوبر الغزير، يقصون أو يجزون وبرها قبل الصيف، لا لمجرد استغلال صوف الغنم مثلاً، بل لتخفيف الوبر لكي يسهل تصريف الحرارة من الجسم بالإشعاع وتوصيلها إلى خارج الجسم. ولهذا السبب نقص شعر الخيل والحمير والجمال وغيرها، وصائدو حيوانات الفراء يعرفون ذلك فيصطادونها شتاءً وصانعو الفراء من جلد الأرانب يصنعونها من جلدها في الشتاء للسبب عينه.

عرف الانسان بالخبرة قيمة الملابس صيفاً وشتاءً وتكونت هذه الغريزة عند الشعوب بتوالي العصور ثم تفنن في صنعها وزينتها وتغالت السيدات في تنويعها. وفي البلاد الباردة نجد الشعوب ترتدي الملابس المحكمة وتصنعها من الصوف. وفي البلاد الحارة ترتدي الملابس الخفيفة غير المحكمة لتسهيل تخلل الهواء فيها لتجفيف العرق وتلطيف حرارة الجسم. وعندما تعودت شعوب البلاد الحارة لبس الملابس الأوربية، وعندما حل سكان البلاد الباردة في البلاد الحارة واستمروا على لبس ملابسهم الأصلية، وجدوا عدم ملاءمتها للجو الحار، فبحث في ألوانها لمعرفة أي الألوان أنسب للبلاد الحارة. وعلى هذا نرى أن حلة السهرة المعروفة باسم Smoking قد استبدل بنسيجها الأسود تيل أبيض. ثم ابتدعوا الملابس القصيرة غير المحكمة «شورتس» المصنوعة من النسيج الخفيف، والغرض من ذلك تسهيل تصريف الحرارة بتخلل الهواء داخلها وبتعرض جزء من أطراف الجسم للهواء حتى تتصرف الحرارة من الجلد بواسطة الإشعاع وتبخر العرق. ونرى ذلك نفسه يتبع في الألعاب الرياضية شتاءً لأن حركة العضلات تولد حرارة زائدة، ولابد من مخرج لها لتكييف البنية حرارتها وتجعلها ثابتة قريبة من الحرارة الطبيعية للانسان، ولهذا السبب يلبس ممارسو الألعاب الرياضية

أثناء لعب كرة القدم والتنس وغيرها ملابس اللعب الخاصة ، وهي لا تغطي الجسم كله على نظرية لبس « الشورتس »

• يلاحظ عند انتقال إنسان من جوٍّ حار إلى جوّ بارد حصول رعشة في العضلات قد تكون موضعية في الفك وقد تعم الجسم ، وهذه الرعشة هي مشاركة العضلات في المساعدة على زيادة الحرارة ، فيزيد عملها لتتولد حرارة أكثر ، وهي ظاهرة من ظواهر تكييف البنية للمحافظة على حرارتها حتى تقاوم البرد . ونرى الإنسان يفرك يديه فيحرك عضلات الذراعين ليزيد عمل عضلاته فيزيد تولد الحرارة . ولكن هذه الرعشة أو الرجفة تعد منبئاً لنا بأن حرارة جسمنا تأثرت بالبرد ، وأن العضلات أخذت تعمل لدرء ضرره ، وتنبهنا لكي نحترس بوسائل أخرى للمحافظة على حرارة جسمنا ، لأننا لو تركنا الحيطة وشملت الرجفة عضلاتنا كلها وزادت ، انتهى بها الحال إلى أن تخور . فلهذه الرعشة ثلاث خواص : الأولى مساعدة البنيــة على التكيف بحرارة الجو البارد ، ونحن نقلدها بفرك أيدينا ، وبتحريك أرجلنا . والثانية : إنذار البنية لنا بالاحتراس ، والثالثة : ان الرعشة إذا زادت وعمت الجسم كانت إنذاراً آخر بأن البنية أوشكت أن تخور وتضعف أمام البرد القارس . وكل هــذا التكييف في حد المعقول ، إذ لا يمكن أن يستمر تكيف البنية مدة طويلة في جو غير ملائم ، ومن هنا يحدث أكثر الأخطار من تعرض الإنسان مدة طويلة لبرد قارس أو لقيظ لافح . وإذا نقصت حرارة الجسم بسبب البرد فانها ترجع تدريجاً ببطء يتناسب مع الدرجة التي هبطت إليها . وعرف بالتجارب ان من تهبط حرارته البدنية إلى ٣٥ درجة مئوية ، بسبب البرد وينقل إلى غرفة دافئة ويدثر باحتراس ترتفع درجة حرارته تدريجاً وتعود إلى الحالة الطبيعية في وقت قصير ، لأن لذلك عاملين يساعدانه على ارتفاع الحرارة ، الأول : حرارة الحجرة وتدفئة الغطاء ، والثاني : عامل البنية لإنتاج الحرارة ، لأن البنية تحتفظ بمقدرتها على توليد الحرارة ما دامت حرارة البدن لا تقل عن ٣٢ درجة مئوية . وأما إذا انخفضت الحرارة إلى أقل من ٣٢ درجة ، ووضعنا المريض في غرفة دافئة ودثرناه فإنه يتطلب وقتاً طويلاً لاستعادة حرارته الطبيعية ، إذ التدفئة والتدثر هما العاملان الوحيدان لكي تصل الحرارة إلى ٣٥ درجة ، فيظهر عامل مقدرة البنية على توليد الحرارة .

• وفي الحر يحصل عكس ذلك فإذا زاد الحر فالبنية تقاوم أيضاً ارتفاع الحرارة وتتكيف بوسائلها لتنقص عملية توليد الحرارة ، وتزيد عمليــة تصريفها وفقدها ، فيحدث ارتخاء في العضلات ويكثر العرق ، أي بعكس ما يحدث من مقاومة البرد . وتنجح هذه الوسيلة إذا ما كانت حرارة الجو لا تزيد عن ٣٧ درجة أي عن درجة حرارة الجسم العادية ، وإذا

ما زادت حرارة المكان وارتفعت إلى أكثر من ذلك وبلغت الأربعين وزيادة ، فإن انعدام توليد الحرارة من البنية لا يكفي وحده لمقاومة حرارة المكان والجو ، فيستعين المرء بوسائل أخرى من وسائل فقد الحرارة البدنية وأهمها العرق الذي يزيد فيتبخر على سطح الجلد ، وكذلك نشاط التنفس ، وإذا لم تتمكن وسائل تصريف الحرارة من خفضها زادت الأعراض شدة ويحدث مرض الإعياء من الحر . والتبخر كما هو معلوم يمتص الحرارة ، ويكفي أن يضع المرء مادة من المواد السريعة التبخر على جلد يده مثل الكحول أو الأثير ليلاحظ أن يده تبرد أثناء تبخر هذه المادة . وغزارة العرق في الصيف معروفة للجميع لأنها وسيلة طبيعية من وسائل تخفيض حرارة الجسم في الصيف . ومن المشاهد أن العرق يتبخر بسرعة في الجو الجاف أكثر مما يحدث في الجو الرطب ، ولذا تتكيف البنية لمقاومة الحر بسهولة في الجو الجاف، أكثر مما تتكيف في الجو المشبع بالرطوبة .

• من ملطفات الحرارة النسيم فانه يساعد أولاً على تجفيف العرق وثانياً ينعش الجسم، ولذا تغزل فيه كثير من شعراء البلاد الحارة في شعرهم وأغانيهم في مواضع عديدة وحملوه سلاماً وأشواقاً — ونلاحظ ان أكثر الناس يستعمل المروحة في الصيف لاحداث نسيم خفيف وتبديل في الهواء لتلطيف حرارة الجسد وتجفيف العرق . وقبل أن تخترع المروحة الكهربائية كانت تستعمل المراوح اليدوية من قديم الزمان وتوجد في الآثار صور تدل على وقوف حملة المراوح بجوار الملوك للتهوية على وجوههم — ولا تزال المراوح اليدوية تستعمل للآن وبأشكال متنوعة في جميع مناطق البلاد الحارة ، وتفننوا في صنعها ، من أبسطها وأرخصها كالمصنوع من زعف النخيل إلى أثمنها وأغلاها كالمحلى بالنقوش والصور والمزين بريش النعام، بل والمرصع بالأحجار الكريمة وكانت من حلي السيدات كما أصبحت الآن من التحف المنزلية الثمينة التي تحلى بها الحجرات وتعرض في المتاحف .

• ومن الوسائل التي يستعملها ذوو اليسار في الصيف لتلطيف الحرارة ولانعاش الجسم ماء الكولونيا والروائح العطرية الأخرى، وفائدتها أن المواد الكحولية والطيارة التي بها تتبخر بسرعة فتمتص الحرارة — ورائحتها تنعش حركة التنفس — ومن ملطفات الحرارة الضارة النافعة معاً، شرب الماء البارد وتناول المثلجات . على ان ضررها يكون أكثر من نفعها إذا شرب الماء بكثرة أو تناول المرء المثلجات بغير اعتدال لأنها تحدث نزلات معدية معوية واضطرابات هضمية _ فالماء اذا استعمل من الظاهر رشاً أو استحماماً يلطف الحرارة وينعش الجسم وينبه أعصاب الجلد وينشط التنفس . وأما اذا شرب فانه يمتص الحرارة من المعدة ويلطف الحرارة قليلاً ثم يمتص فيزيد العرق والعرق كما قلنا يتبخر ، ويكثر العطش

في الصيف من كثرة العرق ولذا نجد في البلاد الحارة كثرة استعمال المشروبات المرطبة والمثلجة مثل القازوزة وعصير الليمون وعرق السوس وما شابهها . ويعد من الاحسان والعطف تسبيل الماء وبناء أماكن الشرب الخاصة المعروفة بالسبيل في الطرقات بل ربما كان الشرقيون أول من فكر في عمل اناء حجري صغير للكلاب بجوار السبيل — غير أن شرب الماء بافراط مضر كما قلنا لأنه يحدث اضطرابات في الهضم، والماء الذي نشربه يمتص جزء بسيط منه في المعدة وأغلبه يمتص في الأمعاء الدقاق وبعضه في الأمعاء الغلاظ .

• تصرف الحرارة وتفقد من الجلد بثلاث وسائل الأولى: امتصاص الحرارة أثناء تبخر العرق ويحدث هذا في الهواء الطلق بسهولة — ويحدث في الهواء المحبوس مثل هواء الغرف وغيرها بصعوبة — كما يحدث في الجو الجاف أكثر مما يحدث في الجو المشبع بالرطوبة — والنسيم يسهّل تبخر العرق . والثانية بتوصيل الجلد لحرارة الجسم الى ما يجاوره . فالملابس تدفأ بملامستها الجسم وفي تدليك الجسم بالماء أو بالكولونيا أو الاستحمام بالماء البارد أو عمل مكمدات باردة أو ما شابهها يوصل الجلد الحرارة اليهـا فتقل حرارة الجسم . والثالثة بطريقة الإشعاع أي بإشعاع الحرارة في الهواء ولا يمكن هذا إلاّ إذا كانت حرارة الجو أقل من حرارة الجسم — ويُعد تبخر العرق أهمها . وعرف بالتجارب الفزيولوجية ان تبخر ١٢٠ جم من العرق يخفض حرارة الجسم درجة واحدة مئوية — وقد استعان الطب العـلاجي بهذه الوسائل الطبيعية وقلدها واستعمل النافع منها في علاج الحميات

إذا وجد الانسان في مكان معتدل الحرارة والرطوبة بأن تكون حرارته نحواً من ١٥ درجة، ورطوبته نحواً من ٥٠ في المائة والتهوية فيه معتدلة أيضاً وليس بهـا تيـارات هواء — وملابسه عادية لا هي بالثقيلة ولا هي بالخفيفة — فإنهُ يفقد من حرارة جسمه الزائدة عن احتياجاته بالوسائل المختلفة الخاصة بتصريف الحرارة من البنية بالنسبة الآتية :

٤٠ في المائة بالإشعاع

٣٠ « بتوصيل حرارته إلى ما جاور جسده كالملابس والكراسي والفراش وما يمسكه في يده من الكتب والأواني والأدوات إلى غير ذلك.

٢٠ « بتبخر العرق من جلده وبالتنفس .

؟ « جزء بسيط مع التبول والتبرز .

؟ « جزء آخر بسيط بتدفق الهواء الداخل إلى الرئة من الأنف والحلق والقصبة الهوائية و بتدفئة الغذاء البارد وما يشرب بارداً أثناء تناوله .

ويعد العرق أهم وسيلة من وسائل فقد الحرارة وتكييفها في البلاد الحارة ويعد فقدها وتكييفها بالوسائل الأخرى قليلاً نسبيًا ويكاد يكون قليل الأهمية .

• كلنا يشكو من لزوجة العرق في الاسكندرية وأمثالها . وسئلت كثيراً عن سبب ذلك . والسبب أن جو الاسكندرية مشبع بالرطوبة كما يلاحظ من الجدول الآتي وقد قورنت فيه ثلاثة أيام متفرقة كانت حرارتها متقاربة .

التاريخ	اسم المكان	الحرارة النهاية الصغرى	الحرارة النهاية الكبرى	متوسط الرطوبة
١٢/٤/٣٤	اسكندرية	١٤	٢١	٧٣
»	مصر الازبكية	١٤	٣٠	٥٣
»	مصر الجيزة	١٢	٣٠	٧٣
»	حلوان	١٤	٣٠	٦٦
٦/٧/٣٤	اسكندرية	٢٢	٢٩	٨١
»	مصر الازبكية	٢١	٣٤	٦٥
»	مصر الجيزة	١٩	٣٣	٦٢
»	حلوان	٢١	٣٤	٥١
٢١/٧/٣٤	اسكندرية	٢٢	٢٩	٧٣
»	مصر الأزبكية	٢٢	٣٤	٦٣
»	مصر الجيزة	٢٠	٣٣	٦٥
»	حلوان	٢١	٣٣	٥٤

وأقل بلاد القطر المصري رطوبة هي الواحات الداخلة واسوان وقنا وليس من المعقول أن يصطاف فيها الانسان فانها أماكن للاشتاء ، لأن الحرارة بها شديدة جداً في الصيف .

***

ويرى من هذا الجدول أن الاسكندرية أكثر رطوبة من مصر ومن الجيزة ومن حلوان ــ وان الحرارة في الاسكندرية أقل في هذه الأماكن خلال الأيام التي اتخذناها مثلاً ــ وحيث ان العرق لا يتبخر بسهولة في الجو الرطب ، فانه يبقى فوق الجلد ويختلط بالافرازات الجلدية الأخرى ويصبح لزجاً .

« يتبع »

المـــــرأة

ثمّ المرأة

أمِنـكِ برقٌ أبيت الليل أرقبُـه كأنَّـه في عِراض الشام مصباح ؟

نابليون : مدام : اني لا أحب أن تتمحك المرأة في السياسة.
أرملة كوندورسيه : لك الحق أيها الجنرال . ولكن من الطبيعي في بلد تحتز فيه رؤوس النساء ، أن يكون لهن الحق في أن يسألن عن السبب في ذلك .

وغالب الظن انه في بلد يعيش نساؤه مستعبدات أو في حكم المستعبدات ، يحملن للمستقبل ويعملنَ للحاضر ويقمنَ بين الحقول والمزارع بأعمال لا يصح أن يقوم بها غير دواب الحمل، وتؤكل أموالهنَّ وتغتصب حقوقهن ويشرع لهنّ ولا حق لهنّ في الاحتجاج ، ويرسم حاضرهنّ ويخط مستقبلهنّ ، ولا يمثلنَ في ناحية واحدة من نواحي الحياة الاجتماعية ، ويخضعنَ لقانون الخراج في أن يستعمل الشطر الأغلب من شطري الجمعية حق الأقوى ، حق المتسلط ذي الارادة المطلقة في إقامة الحدود التي لا ينبغي أن تتخطاها حقوق المرأة ، ... غالب الظن أن يكون للمرأة في مثل هـذه الجمعية الحق كل الحق في أن تسأل عن السبب في ذلك ؟

من حق المرأة في بلدٍ كهذا أن تسأل عن السبب في ذلك ؟ وبخاصـة حين ترى أختها الأوربية تشارك في الحرب وفي المصانع الحربية وتقطع البحار وتجوب القفار وتعمر المصانع والمعامل وتشترك في معارك الأدب والعلم والاجتماع والفن ، وحين ترى أختها الروسية تضحّي بدمها في سبيل إنقاذ ستالينجراد تحت جنح الليل وفي غمار الثلوج وتحت نيران العدو وعلى مياه الفولجا الباردة المقرورة .

من حق المرأة في بلدٍ كهذا أن تسأل عن السبب في ذلك ؟ وبخاصـة عند ما ترى ان أبناء الاوربيات اللائي ذكرناهنّ أنجب من أبنائها وأنجح في الحياة وأقوى شكيمة وأثبت خلقاً وأفرع رجولة . فمن أين أتى ذلك ؟ أظن انه من نكران الحقوق المدنية على المرأة الأوربيـة، أتى ذلك العمل الفذ الذي قام به أبناؤها ، وليس له في التاريخ مثيل مذ كان

للانسان تاريخ . أظن انه أتى من قبوع المرأة في عقر دارها وعدم تمتعها بالحقوق السياسية والاجتماعية ، على المبادئ التي يريد أن يقيم عليها بعضنا حياة المرأة في بلادنا وفي الشرق .

كيف تأتى للمرأة الأوربية أن تربي أبناءها هذه التربية الاستقلالية الحرة ، ولم يعقها التمتع بحقوقها ، التي أقول انها طبيعية ، عن ذلك ؟ كيف نشأت الرجال الذين يريدون التسود على كرة الأرض ، وهي بين جدران المصنع وفوق ظهر الباخرة وبين أجنحة الطائرة وفي القفار والصحاري والغابات . كيف تأتى لها ذلك ؟ أمن أجل انها من طينة غير طينة البشر أجمعين ؟ هل تأتى لها ذلك وهي في حجرة النوم وفي المطبخ ؟ كلاً أيها السادة : تكلموا فيما تحسنون .

لماذا يكون العمل والحرية والانتاج والمشاركة في بناء المدنية وفي الحرب والصناعة ، فضيلة في المرأة الاوربية ، رذيلة في المرأة الشرقية ؟ أفمن حق المرأة الاوربية أن تكون حرة ؛ وليس ذلك من حق المرأة الشرقية ؟ أخلقت الأوربية مختصة بهبة الحسية فتعرف اللذة والألم ، وخلقت المرأة الشرقية مكفوفة عن هذه الهبة فلا شعور لها باللذة ولا إدراك عندها للألم ؟ هل كوّنت نفس المرأة الأوربية ولها المشاعر والانفعالات والعواطف والحب والبغض ، وكوّنت نفس المرأة الشرقية محجوبة عن كل ذلك ؟ سبحانك موزع الحظوظ .

***

لانزال منذ أن أصدر قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة» في الموقف نفسه : فريقٌ يقول أن المرأة للمنزل : وفريقٌ يقول إن المرأة للحياة . لا يزال البعض منا في نفس الموقف الذي وقفه « روسو » من نساء فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر ، تؤثر فينا التقاليد التي كانت طابع الحياة القديمة والتي ما عرفت معنى الحرية ولا معنى الحقوق الإنسانية . فإن روسو بالرغم مما أشاد بالحق السياسي وبالحرية وبالرغم من أنه قال إن تلك الحقوق طبيعية لا تسقط عن الإنسان ولا تسلب منه ، حتى ولو تعاقد هو نفسه على حرمانه منها ، وقوله إن حق التصويت حقٌ عامٌ لكل أفراد الجمعية ، فقد ذهب إلى جانب هذا مذهباً عجيباً إزاء المرأة فلم يسلّم بأن لها حقاً يقال له الحق السياسي .

لقد كتب روسو كثيراً عن المرأة ، وفصّل الفوارق التي تفصلها عن الرجل . ولكن لم ينزل كاتب من كتّاب القرن الثامن عشر إلى ذلك الدرك الذي انحدر فيه روسو إذ قال : « خلقت المرأة لتكون ملهاة للرجل » . وقال أيضاً — « ينبغي أن يكون تعليمها متصلاً بحاجات الرجل ، فتكون له تسلية وفائدة وموضعاً لحبه واحترامه ، وتربي أولاده صغاراً

وتعنى بهم كباراً ، ولتبذل لهم النصح وتنفحهم بالعطف ، حتى تصبح حياتهم هادئة مرحة. كانت هذه الأشياء خلال كل العصور واجبات المرأة ، ومن أجل هذه الواجبات يجب أن تتعلمّ المرأة من الصغر ».

هذا المذهب القديم لا يزال طابع الفكر عند الكثيرين من أنصار التقاليد العتيقة في هذه البلاد وفي كثير من البلدان الشرقية ، وبخاصّة العربية منها . غير أن الفرق بين ما كتب في أواخر القرن الثامن عشر في أوربا ، وبين ما يكتب عندنا في أواسط القرن العشرين ، إن سفسطتنا قد بلغت من الضعف، أضعاف ما بلغ كلام روسو من سوء الفهم .

***

بلغت السفسطة عند بعض الكتّاب الذين تصدوا للكلام في المرأة والحياة العامة مبلغ أنْ فرض بعضهم حالات لا وجود لها في الطبيعة ولا حقيقة لها إلاّ في الخيال المحض ، وبنى على هذه الفروض وتلك الخيالات القضايا واستخلص النتائج، وراح يناضل عن وجهة من النظر لا علاقة لها بهذه الفروض على اطلاق القول .

قال بعضهم : « لو أن عالم الانسان كان كله ذكوراً ، أو أنه كان كله اناثاً ، أو كان شيئاً بين هذين : لا هو بالذكور الصرف ولا بالاناث المحض ، — أريد أن أقول : لو أن الانسان لم يخلق هكذا مؤلفاً من جنسين مختلفين ، بل كان جميعه جنساً واحداً ، — أكانت حياته هي هذه التي نراها حياة مليئة بالشر والاضطراب ، أم تكون حياة وادعة مطمئنة مليئة بالراحة والهدوء والصفاء ؟»

« أعتقد أن تسعين في المائة أو أكثر ، من هذا الوبال الذي يعانيه الانسان ، سببه مجموع أمرين : أحدهما أنه خلق من جنسين مختلفين . والآخر أنه أساء فهم النظم الطبيعية لتلك الرابطة الجنسية ، التي وضعتها الطبيعة ونظمتها الشرائع ، ليتعاون الفريقان على المرافق الحيوية ، ويتكافلا على بقاء النسل وحفظ النوع ، أو قل أن سببه هو الأمر الثاني فقط» .

فانظر أي فرض يفرضه الكاتب وأية مقدمات يتخيل لموضوع فرغت منه الطبيعة منذ ملايين عديدة من السنين . يريد أن يتخيل ثلاثة عوالم : الأول عالم كله رجال . والثاني عالم كله نساء . والثالث عالم كله خناث : نصفه خناث إلى التذكير والنصف الآخر خناث إلى التأنيث . وكل هذه العوالم الخيالية عنده تكون عوالم مليئة بالراحة والهدوء والصفاء ! أما العالم الذي نصفه رجال ونصفه نساء، فهو السبب في تسعين في المائة أو أكثر من هذا

الوبال الذي يعانيه الانسان ، وان الانسان أساء فهم النظم الطبيعية لتلك الرابطة الجنسية التي وضعتها الطبيعة ونظمتها الشرائع، إلى آخر ما يقول .

أما الطبيعة فلم تخطىء قيد شعرة . فقد خلقت من الحيوان ذكراً وأنثى وبثت فيه الميل الجنسي ليكون ذلك حافزاً لحفظ النوع وتتالي الحياة على وجه الأرض . قاعدة لم تند عنها الطبيعة الا في الحيوانات الدنيا التي استعاضت عن التبادل الجنسي فيها بالتكاثر بالانقسام أو بالتبرعم . وإذن يكون الخطأ في الشرائع التي نظمت هذه العلاقة على غير قاعدة طبيعية . هذا ما تسوق اليه المقدمات التي ساقها ذلك الكاتب .

ثم إن القول بأن خلق الانسان من جنسين خطأ ساق إلى الوبال الذي نعانيه ، لو أنك حللته تحليلاً منطقيًا لبان لك أمران : فاذا كان القائل به من الدهريين لدل ذلك على أن علمه بالطبيعة ناقص وفهمه لحقائق الحياة من الناحيتين الحيوانية والاحيائية بعيد عن الاستواء . وإذا كان من المتدينين كان ذلك اعتراض على الخلق وحكمته لا يصدر إلا من متورط إلى الكلام في ما لا يعلم . وإذاً يكون محصل ما قال ذلك الكاتب ان الشرور التي وقع فيها العالم سببها أن الشرائع نظمت علاقة الرجل بالمرأة تنظيماً جر علينا ذلك الوبال . لأن الطبيعة نظمت الخلق على قاعدة أن يكون فيه ذكر وأنثى ، فلا يعقل أن تجعل للانسان دون سائر الأحياء العليا لغة أخرى غير لغتها، ومنطقاً آخر غير منطقها .

ثم انظر اليه كيف يقول : « لم تخلق المرأة لتكون للرجل شغله الشاغل في هذه الحياة فاذا ما حارب ، كان في خبيئة قلبه أن سيرقى منصباً أو ينال رتبة ، فيفوز بتقدير المرأة ويسعد باقبالها . وإذا ركب البحار وخاض الغمار كان في قرارة نفسه إنه سيصبح ذا ثراء وفير وخير كثير ، فتزدلف اليه المرأة، وإذا ما سعى ليكون رئيساً عظيماً أو مديراً كبيراً أو وزيراً خطيراً، كان أكبر همه فيما سعى اليه ، أن يحظى برضاء المرأة وينعم بتودد المرأة» .

« لم تخلق المرأة ليعبدها الرجل أو ينافق لها نفاقاً يبلغ درجة العبادة أو يزيد . أما تراه كيف يركع لها في خشوع المتبتل وصغار المستعبد إذا أقبلت ، وكيف يلمس أناملها وقد وضع يده على قلبه يمسكه أن يخر تحت قدميها ، وكلنا يعلم إن هــذا تصنع زائف ، وإنه لا يتفق وما يعاملها به في ناحية أخرى ، حيث يصب عليها جام غضبه ويذيقهــا العذاب ألواناً حين ينتهي أربه منها» . ا.ه

صورة لم تخلق إلا في مخيلة الـكاتب ، وأوهام لم يقم عليها أي مجتمع إنساني مذ كان للانسان مجتمع . الرجل يعمل ويكد ويحارب ويقيم المدنية ويقطع البحار ويجوب القفار ،

ويمشي على الرمضاء صيفاً ، وعلى الزمهرير شتاء ، لماذا ؟ ليفوز بتقدير المرأة ويسعد باقبالها ويحظى برضاها وينعم بتوددها، فاذا أقبلت ورضيت وتوددت صب عليها جام غضبه وأذاقها العذاب ألواناً حين ينتهي أربه منها ! ! أسمعت أيها الانسان المتمدين بمثل هذا في خطوب الأولين ؟

فروض لا أساس لها من العقل ولا من الواقع ، وترهات لا يؤيدها برهان ولا يقوم عليها دليل، تتخذ أساساً لبحث في المرأة ومنزلتها من المجتمع وأثرها في اقامة دعائم التمدين، وتكييف حالات المستقبل . وهي فوق ذلك فروض ليس لها سند في الطبيعة ، ولا موئل في الطبع ، ولا تمت بصلة ما إلى مجتمع بذاته من المجتمعات الانسانية . فأين الرجل الذي يحارب متودداً للمرأة ، وأين الانسان الذي يركب البحار ويخوض الغمار لتزدلف اليه المرأة . وأين الجماعة الانسانية التي عاشت وهذا طابعها في الحياة ؟ لا شك في أن ذلك كله قد قام في وهم ذلك الكاتب لا أكثر ولا أقل وغاية همه من ذلك العنت ، بل من ذلك العبث ، أن يقول « السعي خارج المنزل وقد خص به الرجل ، والعمل داخل المنزل وقد خصت به المرأة » هو جماع ما في الجمعية البشرية من حكمة الحياة .

***

أما اذا أردنا أن نتكلم في هذا الموضوع كلاماً تفهمه الطبيعة فينبغي علينا أن نعتقد أن المرأة لها من الحقوق وعليها من الواجبات مثل ما للرجل تماماً ، وان النظامات العتيقة وحدها هي التي جعلت من المرأة ذلك المخلوق المهان المستضعف ، وأن الطبيعة أعدت المرأة أول ما أعدتها لتكون شريكة الرجل في الحياة بأوسع معانيها وبكل احتمالاتها ومطلوباتها . شريكة لها حق الحياة والعمل والكسب والسعي ، ولها فوق ذلك حق طبيعي لا يسلب ولا يُستعطَى ، هو حق الحرية، التي هي الحياة .

اسماعيل مظهر

الجاهل : لا يؤمننك شر الجاهل قرابة ولا جوار ولا إلف ، فان أخوف ما يكون الانسان لحريق النار أقرب ما يكون منها . وكذلك الجاهل ان جاورك أنصبك ، وان ناسبك جنى عليك ، وان ألفك حمل عليك ما لا تطيق ، وان عاشرك آذاك وأخافك . مع انه عند الجوع سبع ضار ، وعند الشبع ملك فظ ، وعند الموافقة في الدين قائد الى جهنم . فأنت بالهرب منه ، أحق منك بالهرب من سم الاساود ، والحريق المخوف ، والدين الفادح ، والداء العياء.

« ابن المقفع »

مبدأ سيادة الدولة

وقضية السلم العالمي

بقلم

صلاح الدين الشريف

ظلّ مبدأ السيادة قاعدة العلاقات الدولية ، ومظهر السلطان السياسي الذي تحرص أمم هذا العالم على التمسك به، في كافة ما يشغل أفق حياتها القومية والعالمية . وحق سيادة الدول في العالم المتمدين ، قرين حق الحرية عند الأفراد ، فهو قاعدة النظم السياسية والتشريعية والاقتصادية ، وشتى نواحي النشاط الداخلي والخارجي للدولة .

وبديهيٌّ أن لكل أمة نظمها الخاصة بها ، وظروفها المقصورة عليها ، وإن كان إنطباع كل الأمم بروح الحضارة السائدة كفيل بأن يقرّب بينها جميعاً، ويفتح أعينها على مشاكل الحضارة التي تأخذ بنصيبها منها ، فتشارك في علاجها بأساليب تكاد تتقارب في البواعث والغايات ، وبذلك تتبادل الحلول والمنافع ، وتقارب ما استطاعت بين صور التفاوت في وجهات النظر .

غير أن اختيار كل دولة مستقلة نظمها ، وانتخابها لأساليب خاصة تواجه بها مشاكل العيش في ظل الحضارة ، لا يتحقق لها بغير سلطان السيادة .

فالسيادة هي عونها في سلطتها التشريعية فتهيء لها أن تصوغ قوانينها وفقاً لتطوراتها الاجتماعية المقصورة عليها . وهي كذلك عونها في سياستها العسكرية ، فتدفع عن أرضها غوائل الاعتداء . كما أنها قاعدة السياسة الخارجية التي تتبعها ومناط نشاطها الخارجي كله . فبها تشهر الحرب ، وتعقد الصلح ، وتعاهد وتحالف ، وتبادل التمثيل السياسي ، وتعتمد رجاله ومبعوثيه من أبناء الدول المرتبطة معها بعلاقات سياسية .

وبهذا المعنى على إطلاقه نفهم ضرورة السيادة كحق ضروري لكل دولة تريد أن تتمتع بنصيبها من الوجود السياسي ، وتساهم في إعلاء مقاييس الحضارة التي تسود هذا العالم .

ولكن الدول اليوم لا تعيش في عزلة وراء تخومها السياسية والجغرافية ، بل تتشابك علاقاتها وتتقابل وجهاتها أو تتعارض ، حتى لينشأ من هذا التشابك والتعارض احتكاك بين

السيادات ، إذا لم يعالج دائماً بما يحقق التوازن والاستقرار ، هدّد المجتمع الدولي بفوضى الحرب ، وسيادة شريعة القوة ، تحقيقاً لمبدأ التنازع الأبدي في سبيل البقاء .

ولما كانت كل دولة ترغب في أن تحيا مطمئنة على حقوقها ومطامحها ، وأن تكون على أتم أهبة لملاقاة مخاطر النضال ومواجهة أهواله ، فهي لن تجد مفرًّا من الحرب ، تدفع بها العدوان وتحل بها ما يرهقها من عوادي الغير وغوائله .

غير أن من الدول من يتسع أفق نظرتها إلى مشاكل العالم التي تخوض محيطها ، فتنكر جدوى الحرب في حسم النزاع وفض الخلاف ، وتنظر إلى الأمر نظرة عكسية ، وتأخذ في علاجه من طرف آخر ، قد يريحها من الحرب ، ويجنبها ما تتمخض عنه من كوارث ونكبات.

وسبيلها إلى هذا ، تقوية ضمانات السيادة ، وتعزيز مقدرة الدفاع الوطني من ناحية ، والتوسل بدبلوماسية المفاوضة والمصالحة ، واقتراح شتى الحلول السلمية ، من ناحية أخرى .

وقد كان لسيادة هذه النظرية التقليدية أثر نفسي (سيكولوجي) بعيد في تشجيع بعض أمم المجتمع الدولي على التسابق إلى تقوية سيادتها ، حتى لقد التوى بها القصد ، وانكفأت أمامها الغاية ، فأهملت جانب المسالمة والمفاوضة ، وأضحى أمر العلاقات السياسية بينها مقصوراً على التطاحن بين السيادات ، يقوّيه العامل الاقتصادي ، وحافز المصلحة القومية ، دون غيرهما من عوامل الاجتماع الداعية إلى التضامن الدولي ، أو التآلف في ظل الدوليّة العالمية .

وكلمة « السيادة » بمعناها الاصطلاحي المعروف اليوم ، لم يعم استعمالها إلاّ في اواخر القرن السادس عشر ، وكان الفقيه « بودان » أول من استعمل هذا الاصطلاح في كتاباته الفقهية ، بعد أن أفسح نطاق مدلوله الفقهي الذي كان يحمله طيلة العصور الوسطى ، إذ كان مقصوراً على سلطات معينة يتمتع بها الملوك والعواهل ، بحكم مركزهم السياسي والاجتماعي ، وما خوّله لهم من المزايا والحقوق .

ولما كانت المبادىء والنظريات عرضة للتطور ، فقد كان حتماً أن تنصاع لحكم الضرورات المختلفة ، فتماشي التطورات الاجتماعية التي تكيف البيئة ، وتوجه مصاير أفرادها ، وتأمن بذلك شر الجمود والانحصار في حدود ضيقة ، وهي كثيراً ما تسوق إلى ضرب من الشلل الاجتماعي ، له آثاره السالبة ، فيتخلف المجتمع ، من ناحيتيه المادية والروحية ، عن مسايرة ركب الحضارة إلى غاياته المثلى .

ولعلّ عملية التطور هذه ، وهي الناموس الطبيعي الذي يحكم المجتمع الانساني ، هي خير

ما تختبر به المبادىء الجوهرية التي يستوعبها ضمير الجماعة ، إذْ أن هذه المبادىء تجوز بدورها سلسلة من التطورات تنالها بالتعديل والتكميل ، حتى تسامت أهداف الجماعة ، وتماشي عوامل الاستقرار أو عوامل الانقلاب التي تتناوب على البيئة .

ولما تشابكت العلاقات الدولية ، واستفحل أمر السيادات في مطلع العصور الحديثة ، ابتدأت عوامل النضال الخفي بين الدول العظمى في سبيل الهيمنة على مصاير التوازن الدولي في القارة الأوربية ، فضلاً عن خوض غمار المعارك الاستعمارية الكبرى التي اجتذبت الدول إلى مغانمها ، للحصول على موارد الحرب وخامات الصناعة .

ولما بدأ المجتمع الدولي يُعاني مغبة الأخذ بمبدأ السيادة المطلقة ، وتقديس حق الدولة في تبرير أية خطة تنتهجها في تنفيذ سياستها الخارجية ، مادامت مستندة إلى سلطان السيادة ، ظهرت بوادر حركة رجعية ، ضعيفة تُعد بمثابة ارتكاس لنظرية السيادة المطلقة المطبوعة بالروح المكيافيلّي . ذلك الروح الذي ظلّ مهيمناً على علاقات الشعوب المتمدينة ، يدفعها إلى غمار المطامع ، ويجتذبها إلى معارك الحياة والموت .

ولم يكن بدٌّ من أن يظهر أثر هذا الانقلاب الفكري في كتابات بعض الفقهاء الدوليين ممن حبذوا فكرة « السيادة المقيدة » فكتب العلامة « بافندورف » في مؤلفه العظيم De Jure Naturae et Gentium مثبتاً أن سلطان السيادة يقبل القيود ، وأن هذه القيود تحدّ من السلطة الحاكمة في الداخل حرصاً على حريات المحكومين وخيرهم ، كما أنها تحدّ من حرية الدولة في انتهاك علاقات المودة وحسن الجوار وروح التفاهم ، التي يجب أن تربطها بالدول الأخرى ، حتى لا تستغل مبدأ السيادة ، مدفوعة بنية ظالمة ، في انتهاج سياسة خارجية معادية أو مخادعة .

***

وفي القرن الثامن عشر أخذ مبدأ السيادة ، بتأثير النظريات الفقهية الجديدة يتكيّف في صور جديدة تحت ظل المحالفات والمعاهدات التي كانت تعقدها شعوب القارة الاوروبية ، مدفوعة إلى ذلك بعوامل سياسية مختلفة . ومن ثمّ بدأ يسود الأفق الدولي روح جديدة من التفاهم على وجوب تقييد حق السيادة للصالح الدولي المشترك . وجرى العرف الجديد بأن قبلت كل دولة ، تتحالف مع دولة أو مجموعة دول أخرى ، أن تتقيد مختارة ، بقيود سياسية ودبلوماسية ، طامنت إلى حدٍّ كبير من غلواء المبدأ الذي كانت تعتنقه الدول من قبل ، ونعني به مبدأ التمييز بين السيادات ، ومحاولة كل دولة التوسع في سيادتها على حساب الدول

الأخرى ، غير حافلة بما يترتب على ذلك من إخلال بمبدأ التوازن الدولي ، ومن قضاء على روح السالمة ، الواجب أن ترعاها إزاء أمم المجتمع الدولي .

على أن مبدأ تقييد السيادات قد تجلى في أبرز صورة في أعقاب الحرب العظمى الأولى ، عند ما قضت الالتزامات التي أوجبتها معاهدات الصلح ابتغاء تسوية عالمية مشتركة ، تحقق في نظر أعلام السياسة أيامئذٍ ، ضرباً من الاستقرار والتوازن ، فقبلت بعض الدول الاوروبية قيوداً سياسية وعسكرية معينة ، اعترف واضعوها بأنها لا تمس سيادة الدول الموكولة بتنفيذها أو استقلالها . وسرعان ما تقبل فقهاء القانون الدولي وأعلام السياسة الأوروبية ، الذين كانوا يسعون إلى تحقيق حلم السلام الدائم ، هذه النظرة الجديدة في فقه السياسة ، وأخذوا من ثمَّ يحشدون آراءهم في مؤلفات تناولوا فيها مبدأ السيادة بألوان من الشروح السمحة التي تحكم الصالح العالمي المشترك ، قبل أن تستهدي الصالح القومي الضيق الأفق ، مؤكدين أن سلك أمم العالم التمدين في شبه وحدة سياسية واقتصادية متآخية متضامنة ، لن يتحقق إلا إذا قنعت كل دولة بحدود جديدة لمبدإ السيادة ، يتفق والالتزامات التي يفرضها روح عصر ينشد فيه العالم سلاماً طويل الأمد .

غير أن هذا الاتجاه الانساني الجديد في تقاليد المجتمع الدولي ، لم يُرضِ جماعة من الفقهاء المحفوزين بعُرام الرغبات الملتوية ، إلى فرض سيطرة دولهم ، فاندفعوا نحو تأليه حقوق السيادة ، بطريق تأليه مقام الدولة وتقديس حقوقها حتى لتستوعب حقوق الأفراد وإراداتهم ، بله حقوق الأمم الأخرى التي لا تبدو للدول الطامحة إلا في صورة المزاحم لها على منادح العيش ومجالات الحياة .

وهم في ذلك يسوقون ضرباً من المناقضة يبدو خطله لأول وهلة ، فيقولون بل يؤكدون أنه بغير اقرار مبدأ السيادة على وجهٍ واسع ، لا يكون ثمت قانون دولي ينظم تشابك السيادات بين الدول . فتقييد السيادة إلغاء صريح للمقوّمات السياسية للدولة ، وإذا سلمنا بهذا الالغاء تدريجاً أو طفرة ، لم يعد للمجتمع الدولي وجود ظاهر . وواضح أن هذا الرأي افتراض نظري محض تلعب السفسطة فيه دوراً يذكر ، وقد تكفل الفقيه الفرنسي الكبير « Le Fur » بدحضه فقال : « إن التوفيق بين سيادات الدول وبين حقوق المجتمع الدولي هو حقًّا مشكلة المشاكل في فقه القانون الدولي . بيد أن النظر السليم المبني على قواعد الاستقراء التاريخي والمقارنة الواقعية لأسس الاجتماع الانساني ونظمه الحاضرة ، كفيل بأن يهدينا إلى القول الفصل في هذا الاشكال . وإذا أردنا عرض الأمر في أبسط صوره

دون اصطدام بالتفاصيل الفقهية المرهقة ، ظهر لنا أن المقابلة الاجتماعية بين حق الفرد في الدولة وحق الدولة في محيط المجتمع العالمي ، يضع أيدينا على مفتاح الحل المنشود » .

« فالفرد في المجتمع ، لا بدّ له من حرية تكفل له مجالاً لملكاته ومواهبه ، ومن حقوق تهيئ له أن ينمي شخصيته ويقوّي كيان أسرته التي يعمل من أجلها ويكدح ، ومن ثمت كان طغيان سلطان المجتمع على حريات الأفراد وحقوقهم ، عن طريق الجبر الاجتماعي ، بمثابة سلب المجتمع بواعث نشاطه وحيويته . كما أن في إطلاق المجال لحريات الأفراد وتعزيز استقلالهم إزاء حقوق السلطات العامة ، محطم لنظام الجماعة معطل لاستقرارها ورخائها على غرار ما تكفلت بشرحه بعض نظريات العقد الاجتماعي ، بل حقائق الواقع الاجتماعي ذاته . ثم يأتي الطرف الآخر من المقابلة في صورة مجتمع عالمي أفراده الدول . فهذه الدول الأعضاء فيه ، لا بدّ من احترام استقلالها وسيادتها حتى تكون عوامل منتجة في تعزيز الرخاء العالمي . بيد أن هذه السيادة التي تظاهر حقوق الاستقلال ، ليس من الصالح العالمي أن يرخى الحبل لاتساعها وتضخمها ، وإلا كان من وراء ذلك امتداد لمعارك السلطان بين السيادات ، واعزاز لشأن الجامعات العنصرية الكبرى على حساب القوميات الصغيرة ، وكلا الأمرين منافٍ لوجود مجتمع عالمي يقوم على تحديد السيادات في سبيل تضامنها وتوجيه حقوق الاستقلال لخدمة قضية السلم . وقوام هذا التحديد مرافق عالمية مشتركة في ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، تنمو وتتسع بتقدم العالم وازدياد الصلات والروابط بين أجزائه » .

والواقع أن العالم في صراعه الحاضر يدلل على أن روحه ترفض مبادىء الطغيان والتحكم وشهر السلاح في وجه الضعيف الأعزل صاحب الحق ، وهو اليوم يعير مبادىء الاخاء والتضامن العالمي عناية أكبر ويستوعبها بفهم أنضج من فهم الأمس الدابر . وإذا كان قد تعرّف على أخطاء الأمس التي حالت بينه وبين هذا التعاون الذي كان ينبغي أن يحكمه في تقرير الصالح المشترك بين الأمم ، فإن حاضره ومستقبله حقيقان بأن يكفلا له تأليف هيئة عالمية كبرى تكون محكمته وبوليسه وبرلمانه ، فتحكم بين الأمم وتعمل لخير العالم غربه وشرقه ، وهذا ما تعقد الانسانية اليوم رجاءها عليه .

مصادر المقال .

1 — Foreign Aff irs : An American Quarterly Review (April 1942)

2 — E. H. Carr : The Twenty Years Crisis (1919 —1939)

الفيل

ذلك المجهول

من الجائز أن الفيلة لا ترى الفئران رؤية صحيحة ، لان بصرها ضعيف . فعندما يلتقط الفيل جوزة صغيرة أو حبة من الفول السوداني ، فلا يدل ذلك على انه يراها . ذلك بأن خرطوم الفيل هو في تكوينه الحيوي ، بمثابة جهاز « رادار » الحديث ، فينقل اليه ما هو جار على بعد منه ، بأدق ما تنقل العينان أو الاذنان .

لاشك في أن الطبيعة ، أمنا العظمى ، عندما أرادت تصوير الفيل ، قد افتنّت وتريثت طويلاً ، لتبرز في عالم الحياة حيواناً لا نظير له في الخليقة . وإلاّ فأين نظيره ؟ أين الحيوان الذي تنمو ثناياه حتى تصير من الثقل بحيث ترهقه بحملها إذا مشى ؟ أين الحيوان الذي زوّدته الطبيعة بجلد سمكه بوصة ، وجهاز لتوزيع الحرارة ضعيف الأثر ، فلا يحتمل الجليد إلاّ بقدر ما تحتمله نبتة ضعيفة من نبات الفول الغض ؟ أين الحيوان الذي اندمجت أنفه في شفته العليا ثم امتدتا إلى الامام فأصبحتا ذلك العضو الغريب الذي ندعوه الخرطوم، فيقوم مقام الأصبع واليد والأنف والنافورة والمراوة .

ان أقدم أسلاف الفيلة قد انقرضوا من الأرض منذ ٢٠٠٠٠ر٢٠ سنة على الأقل ، في حين أن الفيل ، وهو البقية الباقية من عالم بائد ، قد عاش إلى الآن ، لتضفي به الطبيعة علينا آية من حيوان هو أبعد ضروب الحيوان عن أفهامنا . حيوان ورثنا بوجوده عن آبائنا قصصاً وخرافات ، وعن علمائنا أقوالاً متناقضة متضاربة .

ولعلك قد سمعت بعض ما يروى عن الفيل . ألم تسمع أن الفيل يبدأ في التوالد إذا بلغ المائة أو يزيد ، وانه لا ينسى إساءة ، وانه لا بدّ من أن يردها انتقاماً ؟ وان الفيلة الافريقية غير قابلة للايلاف ، فلا يستطيع الانسان أن يعالجها ، وان الطوّال منهم تزعجهم الفئران ؟ وأنّ قائد القطيع لا بدّ من أن يكون فحلاً هائل الحجم ضخم الجثة ، له ماضٍ في المعارك تركت أثرها في إهابه ، فتظل له السيادة حتى يتغلب عليه « جالوت » صغير يتربع على عرش القطيع ، وأن الفيل إذا توقع الموت تسلّل ليموت خفية وفي سلام ، ولكن في مقبرة لا يعرفها إلاّ الفيلة ؟ .

ليس من هـذا كله شيء حقيقي ، ولو أنك وقفت تنظر إلى فيل من غير أن تعرف أي شيء عنه ، لاستعصى عليك أن تعتقد شيئاً من صحة ذلك . ولننظر الآن فيما يقال عن عمره . ولنقف عند هذا برهة قصيرة .

***

ان لأهل « بورما » قولة في الفيل وانه يولد عجوزاً طاعناً في السن . ولهم في ذلك حق . فان فلو الفيل يلوح كأنه عجوز فانٍ ، بجلده المجعّد وحركاته الثقيلة وترنحه ترنح المعجزين ، وفيل في الأربعين يلوح لك كأنه في عمر نوح . ناهيك بإهابه المنتفخ الأغبر الأملط المشوّه بآلاف التجاعيد ، وجبهته العريضة البارزة التي تعبر لك عن أنها خزانة حكمة وتجربة ، وعينيه الصغيرتين الغائرتين ، جماع ذلك يكمل ، عند أول نظرة اليه ، صورة حيوان عاش من القـدم المديد إلى عصرك الحاضر . هـذه الأشياء إيحـاء لا غير ، تبعثه فيك صورته الظاهرة .

ويبلغ الفيل تمام نموّه في العشرين من عمره ، وأقل من ذلك شيئاً مّـا . وتلد أنثى الفيل وهي في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من سنيها ، وتظهر على الفيلة سمات الـكبر وهي في الأربعين . وأقصى عمر تبلغه الخامسة بعد السبعين غالباً .

ثم ماذا عن حقد الفيل وانه لا ينسى الاساءة ! قد يكون لذلك الجنس ذاكرة غاية في القوة . ولـكن إذا صحّ أن الفيل لا يصفح عن أذية ، إذن لتعذر أن يوجد فيل واحد في ملعب من الملاعب ، أو حظيرة من حظائر حدائق الحيوان . وكل الحقائق المعروفة تدل على أن الفيل يحترم السلطة ويخضع لها . وقد يصرع حارسه إذا شاء ، ولـكنه يحني له الرأس احتراماً إذا اضطرّ .

وللذكور أخلاق تند عن أخلاق الاناث من حيث الالفة والخضوع ، ومزاجها أخفى وأغمض . وهذا هو السبب في أن العادة اتبعت في ملاعب الحيوان أن يكون قطيع الفيلة فيها من الاناث ، ولو انهُ يجري على ألسنة أصحابها كلمة « الفحول » إشارة الى الفيلة من غير اعتبار لجنسها . والواقع أن ذكور الفيلة إذا طال بها الأسر ساءت أخلاقها واستعصت ، فنصيبها القتل بالرصاص ، طال بها العهد أم قصر .

ان « غمبو » ، وهو فيل ذكر عظيم روّضه « بارنوم » ، معروف لـكل أمريكي ولد قبل سنة ١٨٩٠ . وهو ولاشك أعظم فيل عاش في أسر الانسان . وكان « غمبو » افريقيّـا ،

وهو نوع عرف عنهُ انهُ من أبعد الحيوان عن قبول الإيلاف . ولكن آلافاً من الأطفال ركبوا ظهره ، فناقض بذلك خرافة شاعت عن الفيلة الافريقية .

ثم كيف القول في أن الفيل يرهب الفأر ، وان له مقابر يلجأ اليها ليموت إذا حان حينه وان أكبر الفحول يقود القطيع ؟

***

يقول حرّاس حديقة الحيوان في فلادلفيا ، أن فيلة الحديقة لا تأبه بالفئران ولا تعيرها أي التفات . ولا شك في أن ذلك الخلق هو خلقها في الغابة . ومن الجائز أن الفيلة لا ترى الفئران رؤية صحيحة ، لأن بصرها ضعيف . فعندما يلتقط الفيل جوزة صغيرة أو حبة من الفول السوداني ، فلا يدل ذلك على أنه يراها . ذلك بأن خرطوم الفيل ، هو في تكوينه الحيوي بمثابة جهاز « رادار » الحديث فينقل اليه ما هو جار على بعد منه ، بأدق ما تنقل العينان أو الأذنان .

كذلك لا يقود الفحل الأكبر القطيع كما يقال . ولكن الرأي في ذلك غير متفق . بيد أن الشائع أن إحدى الاناث تكون غالباً على رأس القطيع . ويقول أحد صيادي الفيلة أن جماعتها تخضع لنظام الأمومة ، وهو نظام يكون السلطان والرياسة فيه للام ، وأنه إذا حدث ووجد فيل عظيم النابين في جماعة من الاناث ، فيغلب أن يتعذر عليك قتله ، لا لسبب إلاّ للحملة الوحشية الثائرة ، التي يوجهها اليك الاناث دفاعاً عنه .

***

وقطعان الفيلة مسالمة فيما بينها وديعة في تصرفها . والظاهر أن ما يحدث بينها من التخاصم قليل ، ولا يند عن هذه القاعدة غير فئة قليلة من الذكور ينبذها القطيع لسوء أخلاقها،فتهيم على وجهها زماناً ، تغرس فيها خلاله ، ميول غير مرغوب فيها ، فتظل طريدة.

أما مدافن الفيلة ، فالظاهر أن لا وجود لها . وبالرغم من أن الكثيرين بحثوا لهم وراءها وفتشوا عنها ، رغبة في الحصول على عاجها ، فانه لم يعثر على أثر لها . وبالرغم من أن أكثر ما ينقل عن طبائع الفيلة غير صحيح ، فهنالك من حقائق حياتها العجيبة الشاذة ، ما يظهر ان هذا الحيوان من أغرب الثدييات في دنيا الحياة . فالفيل ولو أنه ذائع في بقاع فسيحة شاسعة من وقاع إفريقية وآسيا ، ولا يتورع عن المشي خمسين ميلاً ليسعد بشربة ماء ، فانه عاجز عن الجري والرَّوَيان والتقريب ، ولا يستطيع الوثب ، ومشيه عبارة عن سبح سريع

لا يزيد معدله عن عشرين ميلاً في الساعة ، ولكنه لا يقدر على ذلك غير قليل من الزمن . فاذا هاجم ، فان الصياد قلما يسبقه عدواً

***

والفيل سباح ماهر ، ويحب الغوص تحت الماء بكل جسمه ما عدا طرف خرطومه الذي يظل ظاهراً فوق السطح ، كأنه متفاق[1] غواصة . ولا يضارعه شيء من الحيوان في القدرة على القافة ، والتعلم في أخريات عمره . وقد يزن ناباه مائتي أو ثلاثمائة رطل . وهما ثقيلان يتعبانه ويضنيانه . وللفحل الكبير من الفيلة نابان من هذا الوزن الثقيل . وكثيراً ما يعمد الفحول الكبيرة إلى شجرة يسندون اليها أنيابهم ليريحوا عضلات رقابهم من حملها بعض الوقت .

ولا يعضد مثل هذه الأنياب غير جمجمة عظيمة الحجم . وجمجمة الفيل شيء يدعو إلى العجب . ففي مؤخر الطبقة العظمية الأمامية التي تؤلف الجبهة ، مسافات منفرجة قليلاً أو كثيراً ، مملوءة بعظام أشبه بأقراص خلية النحل . ومن المتعذر أن تقتل فيلاً باصابة دماغه (مخه) . فان الاهتداء اليه عسير ، ذلك بأنه مندفن في داخل الجمجمة على بعد اثنتي عشرة بوصة أو يزيد.

وأسنان الفيل الفكية شيء غير عادي في دنيا الحيوان . فهي على كبرها لا تستقر في وقوب شأن بقية الحيوان ، وإنما تنتظم في خندق غائر في عظم الفك، تنزلق فيه حسب الحاجة. ولا يظهر من أسنانه غير سن واحدة أو سن ونصف في كل من فكيه ، فاذا تحاتت سن منها، سقطت وحلت محلها السن التي تليها ولكن أغرب ما في الفيل خرطومه ، وهو عبارة عن أنبوبة من العضلات ، أو قل مئات من العضلات ، وينقسم عند منتصفه بفاصل ، وفي طرفه الأمامي بروزان يستعملهما الفيل كما نستعمل أصابعنا .

والفيلة تعبر عن الصداقة بتشابك الأنياب كما نعبر نحن عن ذلك بهز اليد . وتربت الأنثى صغيرها بنابها ، فاذا مشى وضعته فوق ظهره لتدله به على الطريق . وربما كان أعظم فائدة لخرطوم الفيل أنه عضو حس . فاذا نامت الفيلة مدت خراطيمها لتشم الهواء ، عساها تقع بالشم على عدو قريب منها .

---

(١) Periscope

في الكوخ

قصة عن فاندا فاسيلفسكا

« وقامت أنيسيا متحاملة على رجليها المهتزتين ، ولكن لتدلف الى النار . وكان آخر ما جال في خاطرها : الباب والنوافذ ، أهي محكمة القفل ؟ موصدة لا تقهر ؟ »

« جدتي ! اصغي : جدتي » .

فنظرت « أنيسيا » إلى أعلى . كانت « تتالكا » تناديها من الناحية الأخرى من السور .

« ماذا » ؟

« أتسمحين لي بالمثول دقيقة واحدة »؟

« ليس ما يمنع من ذلك . احضري إذا شئت » . وأخذت « أنيسيا » تغمغم بطريقتها المعهودة .

ما أدفأ أشعة الشمس في ذلك النهار . وأخيراً وجدت عظامها المتصلبة النابضة بالألم بعضاً من الدفء يتغلغل فيها . شمس يولية الجميلة الشفيقة . ألا ليت الأمطار تمسك ؟ أمّا ما كانت تتوقع فقد بللها وأزعجها قبل أن يقع ! المطر ! كلاً كلاً . فليس من شيء هو ألعن من أن يهطل المطر . فلو أنه هطل ، إذن لتألم كل جزء من عظامها . تألم بفظاعة . ثم تتورم مفاصلها ، ويستعصى عليها أن تخطو خطوة واحدة . ولكن عند ما تكون الشمس مشرقة ، وبالأخص كما كانت تشرق في ذلك اليوم ، فان الحالة تختلف. فما أبهج شمس يولية وهي تداعب الأرض بأشعتها الذهبية .

« جدتي » .

« ماذا بعد » ؟

« أتسمعينني » ؟

« لم لا ؟ طبعاً استطيع أن اسمعك » .

قالت أنيسيا ذلك وهي ماضية تتمتم « عجباً . ان هذه الفتاة تطلب شيئاً على الدوام . لماذا لا يتركون عجوزاً مثلي تستريح في سلام ؟ ان مثلي لا يطلب من الحياة مزيداً ؟ قليلاً من سلام النفس يمرّ بي . بضع ساعات فقط قبل أن يحضرني الموت ، الموت الذي هو آخذ طريقه نحوي » . في هذا اتجهت أفكارها .

صاحت تتالكا قائلة : « جدتي : انظري إليّ » .

فرفعت العجوز جفنيها الثقيلين نحو الفتاة بانتباه ، وثبتت عيناها الغائرتان وكأنهما

مغشاتين برق خفيف

« جدتي : إن الألمان قادمون » .

هزت أنيسيا كتفيها . لقد سمعت هذه الأخبار منذ أيام مضت . كانوا قادمين ! أقادمون هم ؟ حسناً . وماذا يحدث لو أنهم قدموا ؟ فان الألمان ولا شك سيتركون حزمة من العظام مثلها تموت في سلام . إذا كانوا قادمين ، فليكن ذلك ! الألمان — رنت هذه الكلمة في أذنيها وكأنها شيء بعيد عن سمعها . وفي الحقيقة ، لم تنقل إليها هذه الكلمة أي معنى . أهم من ذلك عندها أن تتشمس وتشعر بالحرارة اللذيذة تسري في عظامها الموجعة . الألمان — فليهتم صغار السن بالألمان ..... أمر لا يزعج عجوزاً مثلها حطمها الزمن

« جدتي : اننا سنغادر هذا المكان ونمضي إلى الغابة » .

« حسناً . اذهبوا إذا شئتم . أي شيء يعنيني في ذلك ؟ لست ذاهبة معكم » .

فأمسكت نتالكا بذراعها وقد ذهب صبرها .

« كلا لا تفعلي ذلك . إنه يؤذيني . والآن ، ماذا تريدين مني ؟ » .

« جدتي . جدتي . تفضلي واصغي إلي ، دقيقة واحدة » .

« إني مصغية »

« أتسمعينني »

« نعم . ماذا تريدين » ؟

« جدتي . نحن ذاهبون الى الغابة . والدي ذاهب معنا وأنا أيضاً . وكذلك كل من هنا » .

« حسناً . اذهبوا إذن . ان الألمان قادمون . هل هم قادمون حقيقة ؟ من الطبيعي أن تطيروا إلى الغابات . أما أنا فسوف أظل هنا ... أتشمس »

« جدتي : إن في حديقتنا رجلين من جنود الجيش الأحمر »

« اثنان ... ماذا ؟ »

« اثنان من الجيش الأحمر . أتفهمينني »

« نعم . ولكن ماذا يطلب مني إزاء هذا الأمر »

أخذت الفتاة تهزها بيأس ممسكة بكتفيها .

« جدتي : انك في سنة من النوم مرة ثانية . اجتهدي ألا تنامي »

« اني لا يأخذني النوم . وانما يهوم النعاس بجفوني لا أكثر »

« جدتي . أأنت مصغية إلي . في حديقتنا رجلان من جنود الجيش الأحمر . تحت ظليلتنا ، بقربة من شجر البرقوق »

«حسناً. وماذا يهم . أفتنت بأحدهما ؟ »

تنفست نتالكا الصعداء يأساً وقنوطاً ، فجلست القرفصاء تلقاءها ونظرت في تينك العينين الغائرتين اللامعتين بغشاوة المرض والزمن ، وأفصحت لها بصوت عال ، مخرجة كل لفظ بعناية تامة ، ضاغطة على الحروف حتى تبين تماماً .

« جدتي . ان في حديقتنا رجلين من

جنـد الجيش الأحمر . انهمـا جريحين ، ولا نستطيع أن نأخـذهما معنا . انهما مريضين حتى لا يستطيعان الحركة . أتفهمين.

« نعم . نعم . أفهم ينبغي أن يخرجا في الشمس »

« ولـكنهما يا جدتي جريحين . فيهما جراح بالغة . أتفهمينني ؟ وجميعنا سنجلو إلى الغابة . وقد يقدم الألمان أي وقت الآن . . جدتي . هم في حاجة الى من يأتي لهما بشربة ماء . أعطيهما شيئاً من عنـايتك . أتفهمين » ؟

« ليس فيما قلت شيئاً يفوت الفهم ! أفيما قلت شيئاً من ذلك ؟

«أفي استطاعتك أن تفعلي بهما ذلك »؟

« لِمَ لا ؟ ما دامت الشمس مشرقة ، وعظامي لا تدق بالألم ، فسأخدمهما بكل عناية»

« انكِ لم تنسيْ بعدُ أين هي ظليلتنا ؟ »

« كلاَّ . بالطبع لم أنس »

« إذن فستعني بهما »

« نعم . نعم . سوف أنظر في أمرهما »

« ولـكن كوني على حذر فان الألمان لا ينبغي أن يلحظوا شيئاً » !

« سوف لا يلحظون شيئاً أبداً . ولم يتعبون أنفسهم في متابعـة امرأة عجوز ؟ سوف أتظاهر بأني أطوِّف على غـير هدًى هنا وهناك ، حتى أمر بأشجار البرقوق — فأمر بأشجار البرقوق ... »

« بحقك لا تنسي يا جدتي » .

« وكيف أنسى ؟ اثنان ! أ كذا قلت ؟ هما في حاجة إلى المـاء .. وإلى إنسان يوثِّر مضجعيهما ... وأشياء أخرى من هذا القبيل. قليل من الطعام ، على ما أتخيل . ذلك ما سوف يطلبان ؟

هنا أخذ الفرح من قلب الفتاة .

« نعم . نعم يا جـدتي . غير أنهما لا يستطيعان أن يأ كلا الآن ... الشقيـان : ما أتعسهما . ولـكن بعد مضي يوم أو يومين ... ربما... عند ما يشعران بأنهما أحسن قليلاً »

« سأفعل ما في وسعي . سأحضر اليهما قليلاً من الخبز وبُـلغة من شيء آخر . سأعنى بهما » .

« ومتى تذهبين اليهما » ؟

« إني ذاهبة الآن ... وبعد قليل سأعود اليهما . لا تقلقي . فكل شيء يجري حسب مرامك » .

« لا تنسي » .

عند ذلك أخـذ الغضب من العجوز فاحتدَّت قائلة :

« لقد أوسعتني وقاحة ؛ تذكري مرة وإلى الأبد أن جدتك أنيسيا إذا وعدت بشيء فإنها تحتفظ بكلمتهـا . ماذا يقلق بالك ؟ أتظنين أن جدتك أنيسيـا حزمة قديمة من العظام لا منفعة فيها ولا قيمة لها ؟ لا شيء من ذلك ..... ما دام هنـاك شمس مشرقة فإني أستطيع أن أعمل عملاً » .

وبقيت تتالكا على اليد المرتعشة المجعدة بحنوّ

« حسناً . استودعك الله يا جدة . أكاد أكون متأكدة من أننا سوف نعود سريعاً . ولكن في الوقت الحاضر ينبغي أن نختفي ويندر ظهورنا . سنظل نرقبهم من الغابات »

تمتمت العجوز . « هـذا حسن ... من الغابات . . . لا تقلقي سوف يكونان بخير وعافية عندما تعودوا . . . . سوف لا أنسى فتييك . »

وارتفع صوت من الناحية الأخرى من السور !

« نتالكا ! أين أنت ؟ نتالكا ؟ »

« إني قادمة يا أبي ! إني قادمة » .

وأشرقت قدماها البيضاوان في ضوء الشمس . وهزت أنيسيا رأسها .

« كأنها معزاة مرحة صغيرة . حسناً ، أيتها العظام القديمة — لقد حان الوقت الذي تعنين فيه بالفتيين ..... »

جهدت حتى انتصبت على قدميها . ولا بدّ من جهد تبذله حتى تقوم . فاذا قوّمت ظهرها حملتها قدماها الموجعتان إلى حيث تريد واستندت بصلابة على هراوتها ومضت تطوف في الحديقة . وتطلعت عيناها النصف مكفوفتين في ممرات الحديقة تحت أشعة الشمس وهي بها خبيرة . تطلعت فإذا بها تتخيل أن جميع الممرات مغلقة غير مسلوكة . لقد عاشت هنا ، في هـذه البقعة . كم من السنين ؟ تسعين . واحداً وتسعين .

« كلاّ . لقد ضللت . لقد أثقلتني السنون الطوال . كم مرّ بي منها » ؟

دارت من حول السور ودخلت حديقة جارها ، والد نتالكا . وكانت أشجار البرقوق في الركن هنالك بعد صفوف عباد الشمس والقنب ودغل التوت . الظليلة ... بناء متداع مسقوف بالحطب والبوص .... مغمور في أغصان ملتفّة وأماليد كثيفة . واستدارت من حوله لتجد المدخل .

يصعب أن تعثر به . لقد أمعنوا في تنكيره حتى ليتعذر أن تجده .

جريحان مستلقيان هنالك على القش . جثت العجوز ونظرت اليهما .

« لِمَ ذا . ارحمنا ! انهما ما يزالان في ميعة الشباب » .

تنبه أحد الجريحين من الغفوة المحمومة التي أخذته ورفع رأسه المعصوب .

صاح : « من هنا » ؟

« صه . صه . انها الجدّة انيسيا جاءت لتراكما . ارقد ساكناً وكن مستريحاً »

« ماء » .

« ماء . بالطبع سأحضر لكما بعض الماء يا ولديّ . سأحضر لكما كل ما أنتما في حاجة اليه » .

« لم تعرف تلك العجوز الفانية من أين أتتها العافيـة . وقف الألم الممض الذي كان يعصر قدميها عصراً . نسيته ، فأخرجت من البئر قليلاً من الماء وملأت منه صواناً وعادت إلى الحديقة ، ثم إلى الظليلة بُعيْد

أشجار البرقوق .

« هوذا . اشرب ، اشرب يا بنيّ . ماء زلال رائق بارد . جئت به من بئرنا . إنه حقيقة مما يرد الحياة وليس ككل ماء » .

كان الجريح الآخر يتململ في حمى تقرع أوصاله وترض مفاصله . فبلت خرقة ووضعتها من فوق جبينه .

« وهكذا قد يتفق أن يكون جسد منهوك متداع بالقدم وبالزمن ذا منفعة ... ونتالكا ... ويح الطريقة التي اتبعتها معي ! ... ويحها من طريقة ! من ذا الذي يجهل أن المريض يحتاج إلى شربة ماء ... وأنت يا بني أرقد في سلام وأرح نفسك . احتمل بصبر يوماً أو يومين . سوف تتحسن حالك بعدها »

وضعت الصواع بجوار الجريحين ودلفت من ثمّ إلى صومعتها . فلما بلغتها ، جلست ثانية على درج الباب وأغفت بعد أن أتعبتها واجبات ذلك النهار . لقد ظلت نائمة حيث هي طوال الوقت شاعرة بطنين الذباب المتكاسل من حولها وبحرارة الشمس وبالنعمة التي تغشاها من الدفء الذي يمنه الشمس في جثمانها . ولكن برودة المساء أيقظتها . وبجهد جاهد انطلقت نحو الجريحين ، ثم عادت إلى صومعتها

«حسناً . لقد مرّ بي النهار في النهاية ... وفي الغد ! سيكون الغد يوماً مشرقاً صافي الأديم أيضاً .

في صباح اليوم الثاني دخل ثلاثة فناءها . أما الجدة أنيسيا فلم تأبه بهم أي شيء . ماذا يهمها من الألمان ؟ بعد أيام قلائل قد يأتيها الموت ... ذلك الموت الذي تلكأ طويلاً على الطريق

انتظرت هادئة . وكانت تسمع أصواتاً خشنة تنطلق بلغة غريبة عنها . فلتدعهم يثرثرون . ماذا يهمها ؟ انها لن تفهم شيئاً منهم نادوها . فابتسمت بطيبة قلب ، واجتهدت في أن تفحص عنهم بنظراتها لعلها تعرف أي أناس هم . نعم . هنالك ثلاثة منهم . ثلاثة رماة ، لا يكبرون الفتيين اللذين يرقدان في الظليلة — هنالك في الركن الأبعد من حديقة جارها . وسرعان ما شغلتها فكرة . أيوجد في الصواع قدر كاف من الماء ؟ أما لو ذهب هؤلاء وتركوها في سلام . لقد حان الوقت الذي ينبغي أن يعني فيه بأمر الفتيين . نعم . ستفعل ذلك بمكر ودهاء . باحتيال . وسوف لا يشتبه في أمرها أحد فمن ذا الذي يهتم بعجوز تقعد حتى عن المشي والسعي لحاجتها ؟

نادوها . ثم نادوها صارخين ، ثم ذهبوا . ظنت أنيسيا أن هذا آخر ما تراهم . ولكنها ما كادت تهم عن درج الباب حتى ملأ الالمان الفناء .

« أهذه صومعتك » ؟

رفعت ذراعها لتقي عينيها وهج الشمس . كان أحدهم يكلمها بالأوكرانية — بلغتها الاصيلة ، ولكن الكلمات كانت تخرج من فمه خشنة لا عذوبة فيها . وفهمت بالضرورة كل ما قال

ولكنها لم تجد من نفسها رغبة في الكلام.

ولكن الضابط أخذته الحدة . « تكلمي ! أهذه صومعتك » ؟

« صومعتي ! لماذا » ؟

وأخذ الضباط يتناجون . ولكن أنيسيا كانت في ثورة من الغضب الحاد، لأنهم حالوا بينها وبين الشمس ، ومضت تخرج أنفاسها بشدة ، فكان لها زحير .

« ما هذا ؟ » .

« لا شيء . انه لا شيء » .

« افتحي الباب » .

« لماذا . انه مفتوح » قالت ذلك بعجب يمازجه الغضب .

صاح فيها المترجم . « افتحيه إذا أمرت بذلك » .

بكل بطء ، وبكثير من التأوه والتوجع جاهدت حتى قامت على قدميها ، ثم مالت بصلابة على هراوتها ودفعت الباب فانفتح على مصراعيه ودخلت الصومعة . فازدحم الضباط من ورائها .

« انها صومعة صغيرة مكدسة بالأشياء » .

ذلك ما لاحظ الكولونيل مقطباً وجهه .

« يمكن أن تفتح النافذة » . فاندفع أحد صغار الضباط نحو النافذة ودفع مصراعيها، فأحدث دفعهما بتلك الشدة جلبة جلجلت في الحديقة النضرة المبللة بندى الصباح .

قال اللازم : « سلها أين ذهب الأهلون » ؟

وقفت أنيسيا حيث كانت متوكئة على هراوتها تتأمل هؤلاء الغرباء في صمت عميق.

« كيف أعرف أين ذهبوا » ؟ وهزّت كتفيها للمترجم عند ما وجه لها السؤال .

« إني عجوز فانية ، وقلما أخرج من الدار » .

« هل تبيتين وحدك هنا » ؟

« نعم . وحدي . عشر سنوات مضين الآن وأنا وحدي . لا أحد معي » .

تركوها في سلام . ولكنهم احتلوا المنزل وتبوءوا كل مكان فيه : الرفوف والمقاعد والفراش وبدءوا يتكلمون في أمر مّا صاخبين . ظلت هي حيث كانت برهة ما ثم اتجهت نحو الباب . ولكن يداً ثقيلة سقطت على كتفها وجذبتها إلى الوراء . فتحققت أنهم لن يسمحوا لها بالخروج من الصومعة . وأخذ اللازم يناقش في شيء ما مع المترجم . واستمر نقاشهما برهة غير وجيزة .

« انتبه إليها ولا تغفل . قد تكون امرأة عجوزاً عمياء . ولكن الشيطان وحده يعلم ما تخفي وراء ذلك . قبل أن تعرف ما هي ، قد ترسل نبأ إلى ناحية مّا بأننا هنا . وأوامري تقضي بأن لا تتركوها تخرج من الصومعة . ألقوا عليها نظركم باستمرار ولا تغفلوا عنها برهة واحدة » .

فلما أعرب لها المترجم عن انها لا بدّ من أن تظل في داخل الصومعة دائماً ، نغضت أنيسيا رأسها علامة الفهم مرات . أي فارق عندها ؟ لقد أمرت أن تظل في داخل

الصومعة . إذن فلتظل في داخل الصومعة .

تسلقت سطح الوقد حيث فراشها وأغفت. أما الألمان فكانوا يتكلمون صاخبين في داخل الحجرة ، وقد بسطوا على المائدة بعض الخرائط ومضوا يتشاجنون ويصفرون، وأرض الغرفة تقعقع تحت ثقل أحذيتهم ذوات الدسر الحديدية . لم تأبه بشيء من ذلك . وظلت في غفوتها ، والذباب يطن من حولها ، والأبواب تجلجل ، والجند يخرجون ويدخلون مسرعين. كل هذا كان يصل إلى حسها كما لو كان من وراء ضباب كثيف ، فان جسمها كان واقعاً تحت سلطان ذلك الخدر الذي يسبق النعاس .

ولكن القلق ساورها عند ما جن الليل. فهنالك في الظليلة المختفية وراء أشجار البرقوق قد يحتمل أن لا يكون في الصواع . نقطة ماء. والفتيان ! لا شك في أنهما ينتظران الجدة « أنيسيا » بفارغ الصبر . ولا ينتظر أن يكونا قد عرفا ما هو واقع في ذلك المكان . وكل ما يتبادر لهما أن العجوز قد نسيتهما ، وأنها أكسل من أن تأتي بحركة ...

كانت حينذاك في تمام اليقظة والتنبه ، متطلعة إلى كل ما يحدث من حولها في الحجرة. تجمعوا من حول الباب ، ولكنها كانت تراهم يروحون ويغدون في المشي . أيقف حارس إلى جانب الباب يلحظه ؟ كلا . ليس من فرصة للخروج متسللة بحيث لا ترى . وانزلقت هادرة من فوق الوقد

« إلى أين أنت ذاهبة » ؟

جملة قالها المترجم وقد ظهر فجاءة ، كما لو كان قد خرج من الارض . فردت عنها يده غاضبة بطرف هراوتها .

« والآن : كف عن هذا . . . لي أن أخرج بعض الأحيان . ألا تفهم » ؟

رجع عنها ، ولكنها لاحظت انه يتعقبها. فهزت كتفيها صامتة .

« حسناً . أأقول إن الالمان يخشون امرأة عجوزاً ؟ وعلى الرغم من هرمي ، فاني أقدر أن آتي عملاً . كذلك هم يظنون . حسناً جداً . راقبني . راقبني »

عادت أدراجها الى الكوخ ، وقبعت في مكانها من فوق الوقد . كانت مشفقة على الفتيين . وكانت الفكرة فيهما تجثم على صدرها. همس في وعيها هاتف وكأنها تقول كان من الممكن أن تتمكن « نتاشا » الصغيرة من التسلل إلى الخارج . أما أنا ... جسد متهدم عتيق مثلي .. ماذا أستطيع أن أعمل يا ولدي وهم لا يسمحون لي بالخروج إذا أردت. هم يدرجون من ورائي كما لو كنت مَنْ . . مَنْ ذا يعلم إلا الله... من أنا . والآن : ماذا أفعل . ماذا يجب علي أن أفعل ؟

ومضت تتقلب في فراشها قلقة ، ترسل أنفاسها دفينة قوية .

فلما هوم النعاس برأسها وأخذتها غفوة حلمت بهما . كانا يطلبان ماء ... يتوسلان. يطلبان الماء ولكن ليس هناك قطرة واحدة في الظليلة . انهما يناديانها . يناديان الجدة

انيسيا . والجدة أنيسيا لا تحضر . لقد انحسر الرباط عن رأس أحدهما ، وليس من يسعفه برده حيث يجب أن يكون . انهما يشكوان إلى نتالكا من أن الجدة أنيسيا لم تلزم كلمتها ، وان نتالكا تشير اليهما مهددة بطرف أصبعها معبرة عما يجول في رأسها . يا لله . انهمرت الدموع من عيني انيسيا لعنف ما سمعت . يا لله . انهما يصرخان بحدة ، يطلبان الماء . كانا يصيحان بصوت عال ، حتى فزعت انيسيا من نومها ، وشعرت أن شيئاً غير مرغوب فيه قد حدث . تطلعت من فوق الموقد ، ولكن خيل اليها انها ما تزال نائمة .

كان الضباط جالسين من حول المائدة ، على المقاعد ومن حول الفراش . وكان في مواجهتهما الفتيان صاحبا الظليلة واقفان ومن حولهما نطاق من الجند . خيل إلى الجدة انيسيا أن ذلك الرمد الذي أخذ يغشى على عينيها منذ سنوات قد انكشف عنهما فجأة . رأت كل شيء بدقة لم تتعودها منذ أعوام طوال . يا للعجب . هاهي ذي ترى اللفائف على رأسيهما وأرجلهما واذرعتهما . وهاهي ترى ما في قسمات وجهيهما من التعبيرات . كانت عيونهما تلمع بأشعة محمومة هاذية . رفعت انيسيا رأسها من فوق الموقد ، وأظافرها الحادة تقطع راحتيها غيظاً . وانما فعلت ذلك لتنصرف بهذه الحركة عن البكاء بصوت مسموع .

جلس الكولونيل في وسط الحلقة ، مستلقياً على مقعده بعظمة ، وخياله يتراءى رواحاً وجيئة على حائط البهو كلما تحرك . وكان مصباح الغاز يلقي ضوءه الى أسفل ، فكانت عينا الكولونيل تتواريان في حدقتيهما الغائرتين . وكان المترجم واقفاً إلى جانب المائدة على مقربة من الجريحين . سأل الكولونيل سؤالاً ، فأعاده المترجم بلغتهما ، ولكن بصوت أجش كريه .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

وكانت الجدة أنيسيا تستطيع أن تسمع بدقة ، كأنما تلك السدادة التي سدت أذنيها سنين ، قد زالت في لحظة . وكانت تصل اليها الكلمات واضحة بينة ، على صورة لم تعتدها أياماً طوالاً .

حتى أنفاس الجريحين المترددة العميقة ، كانت تصل سمع « أنيسيا » وهي مستجمعة من فوق الموقد . كانا يجاهدان في سبيل التنفس بقوة من فيهما اليابسين . كانا يترنحان ، ولكن أيدي الجنود الألمان كانت تسندهما بقوة وخشونة ، ليثبتا مكانهما .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

لم يجيبا . وقرع الكولونيل بيده على المائدة بشدة محتداً .

« قل لهما اني لا أحتمل شيئاً من هذا الهذر . أهذا واضح ؟ قل لهما ان نصيحتي ، ونصيحتي الخالصة ، أن يتكلما . عرفهما ان لدي طرقي الخاصة لمعاملة أمثالهما . سلهما من

أي الوحدات هما ، ومتى نزلت الوحدة هنا، وإلى أين ذهبت ، ومن أين أتت ، وأين الجيش ، وأين مكان القرية . وفي أي المعارك حاربا ؟ هذا ما أطلب . ابتدىء ! »

أدركت أنيسيا من صوته ما فيه من تهديد ووعيد. شعرت بأن قلبها يدق وكأنه سينفجر . دق قلبها دقات قوية لم تعهدها من قبل سنين طويلة ، وخيل اليها أن أولئك الجالسين من حول المائدة سوف يسمعون هدير تلك الثورة القائمة في صدرها. ولكن لم ينظر نحوها أحد منهم . كانت كل العيون متجهة إلى الفتيين الواقفين أمام المائدة ، تسندهما أيدي الجند الخشنة القاسية .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

تنفس الفتى المشجوج الرأس طويلاً وبعمق . وانتظرت الجدة أنيسيا الجواب ، وهي تنتفض من قدميها لمفرق رأسها .

« سوف لا أجيب » !

« انك لا تجيب . حسن . اليك ياهنس ساعده حتى يخرج . إنه لا يستطيع أن يخرج الكلمات من بين أسنانه . اذهب وخذ بيده »

فرفع الجندي يده وضرب الجريح الروسي على وجهه بجمع يده . ارتدت تلك الرأس الجريحة إلى الوراء . الرأس التي تغشاها تلك اللفائف القذرة المدماة . ولكن الجريح استجمع إرادته وبذل جهد الصابر فتماسك ولم يتضعضع .

« سوف لا أخبرك » !

« أين الجيش » ؟

« لا أعرف » .

« أنت لا تعرف ، إليك يا هنس . نبه ذاكرته : أيقظها ! أن الفتى المسكين قد نسى ولكنا سنجتهد حتى يتذكر . نعم : سنعمل غاية جهدنا حتى يتذكر » !

تبع ذلك ضربة على الفك ، ثم ثانية وثالثة : وظهرت على اللفافة قطرات من الدم الجديد : وبجهد عظيم كبتت أنيسيا عواطفها فلم تصرخ ، وحبست صوتها المتهدج في حنجرتها الواهية .

« أين القرويون » ؟

« لا أعرف : لم أر منهم أحداً » .

وفي سورة من الغضب لوى الكولونيل حزمة الاوراق التي كانت أمامه على المائدة وأخذ يفركها بأصابعه .

« انه لم ير أحداً منهم يا هنس . تصور. انه لم ير أحداً منهم. تقدم إذاً وأر له عينيه. أتفهم. خذ بيده حتى يستطيع أن يرى » .

سقط رجل الجيش الأحمر على الأرض . وانتصبت أنيسيا . كلاً . لن يكون ذلك . ان عينيها العتيقتين تغرران بها ! فقد استل الجندي سنكيه وجلس آخران على صدر الرجل المنطرح على الأرض، وبكل تؤدة وثبات أولج الجندي هنس ذلك النصل المحدود في عين الجريح اليسرى . وسرى إذ ذاك عويل وحشي ملأ جو المكان، ثم سكن فجأة.

«أين الجيش»

« لا أعرف سوف لا أخبرك . انك لن

تفوز بشيء مني » -- كان هذا جواب الفتى الجريح ، ولكن بصوت عميق شديد جاف . وانهدر الدم من الحدقة المفجورة إلى فمه وقام الكولونيل من مكانه وانحنى على الرجل المحتضر وارتسمت على وجهه أمارات دلت على الدهشة والعجب ، ثم ركل الجسد الهامد بطرف حذائه

«سله للمرة الأخيرة هل هو مجيب » ؟

وانحنى المترجم على الفتى الممدود على الأرض . وسمعت الجدة انيسيا صوت الدم يحشرج في صدره . ومن خلال ذلك الصوت الكريه استطاعت أن تسمع بضع كلمات تخرج بتثاقل وجهد ، مختلطة بأنات الألم ، وكأنها تسمع :

« أيها الرفقاء . هيا . تقدموا مسرعين الوقعة الأخيرة ، فلنتقدم » .

« ماذا . ماذا . ماذا يقول » . سأل الكولونيل باهتمام .

« لاشيء » .

«ماذا تعني بلا شيء . إنه قال شيئاً ؟

« قال شيئاً غير مفهوم » .

«اقض عليه إذاً » بذلك أمر الكولونيل.

« فرفع الجندي سنكيته » .

« لا ليس هنا . خذه في الخارج » .

فأمسك الجندي بذلك الجسد الهامد من تحت الإبطين وجره نحو الباب. ورأت انيسيا رجليه الواهيتين تسبحان من فوق الأرض فتتركان أثراً من الدم في طول الحجرة .

جلست حيث هي ، ويدها على قلبها ، كأنما هي تثبته مكانه. وتراءت خيالات سود على الحائط . هنالك كان الفتى الثاني واقفاً أمام المائدة . كان يتمايل ضعفاً . ولكن أيدي الجند الخشنة كانت تعضده .

« سلة »

ستترت أنيسيا رأسها تحت الغطاء . وسدت أذنيها حتى لا تسمع ، وضغطت عينيها بيدها حتى لا ترى ، ومع تنهدة خرجت من أعماق نفسها لعنت مصيرها الذي جعلها تعيش الى التسعين أو ما فوقها حتى أوصلها الى هذه الليلة الليلاء . لعنت عينيها لأنهما لم يفقدا ضوءهما، ولعنت أذنيها . لماذا لم تفقد عيناها البصر، ولمَ لم تفقد أذناها السمع؟

ومن خلال الغطاء استطاعت أن تسمع الرواية الأولى تتكرر ، الصرخة الداوية ، وأنات الألم العميقة .

« لا أعرف ، سوف لا أخبرك » .

ساد السكون . ومضت برهة لا تستطيع فيها أن تمد رأسها من وراء غطائها لتستطلع، وبعد لأي مدت رأسها بتابث . ان الألمان يتأهبون للنوم على ما يظهر . انهم يخلعون الأحزمة والأحذية . لقد أغلقوا الصواريع الخشبية على النوافذ وأقفلوا الباب ، وعسكر الجند في خارج الصومعة ، وظل حارس يذرع الأرض رواحاً وجيئة أمام الباب . ولكن الضباط على ما يظهر لم يكن لهم ثقة بأحد . فقد امتحن الكولونيل بنفسه قفل الباب

وجسّ الباب والنوافذ ، واقترب من الموقد ليرى العجوز . أنائمة هي ؟

أقفلت أنيسيا عينيها، وتنفست بتخاذل وهدوء ، كأنما هي نائمة .

وأطفيء المصباح . وأخذ الزمن يمضي ببطء وهوادة . يا لله . كم هو بطيء ذلك الزمن . وفي ظلام الحجرة الخفيف المضني ، كانت الثواني كأنها الاحقاب . أحقاب الأزل . لقد وقف الزمن فلا يتحرك . وكانت ذراعا أنيسيا وقدماها كأعمدة من الثلج ، وقد نضح جبينها بعرق بارد مثلوج . وانحدر العرق إلى ظهرها ! لا بد لها من أن تفعل فعلتها . نعم هذا قضاء .

كان بعضهم يغط غطيطاً . وجلست أنيسيا من فوق الموقد ، وخيل اليها أنها قد ترى في ذلك الظلام الدامس ، وأن كل حركة تأتيها قد تسمع ، وقد تنم عنها . ولكن الألمان كانوا في نوم عميق . وكان غطيطهم منبعثاً من انحاء المكان . هنالك هم يرقدون . متقلبين على فراش خشن من القش الجاف . ونام الكولونيل في المهد ومدت أنيسيا إحدى رجليها بحذر من فوق الموقد وانتظرت أما لو سكن قلبها عن ضرباته تلك . عسى هذه الضربات لا توقظهم . ولكن لا . انهم في غمرة من النوم . النوم العميق الهادىء الذي تطلبه أجسام انهكها التعب . وأخذت أنيسيا طريقها نحو الباب . ومن ثقبه أخرجت المفتاح بخفة ومن غير أن تحدث صوتاً . ثم مضت تحكم قفل الرتاج من وراء كل نافذة . أية قوة كانت مختزنة حتى تلك الساعة في اليدين الواهيتين المرعشتين ! والآن وقد أحكم قفل الباب والنوافذ، وسدّت جميعاً بإحكام ، فليس في استطاعة أحد أن يدخل الصومعة ليقلق النائمين أو يوقظ الضباط

انتظرت دقائق ، ثم استدارت بخفة من حول المائدة ، نعم ، كانت الزجاجة ما تزال في مكانها ، إنها مملوءة حتى القمة ، لقد أتت بها نتالكا من المخزن قبل ذهابها وتركتها هنالك ، إنها ملآنة .

وشدت العجوز السدادة ، ومن غير أن تحدث أي صوت انحنت على الفراش ، وصبت قليلاً من الكيروسين على القش عند قدمي الكولونيل ، ثم ارتدت بخفة خطوة واحدة وصبت بحذر وبطء مثلها على الأرض حيث كان يرقد الضباط ، ثم على العتبة ومن حول الحجرة بأجمعها .

كان كل شيء جاف . الجدران والأبواب والعضائد . منذ كم من السنين وقفت تلك الصومعة حيث هي ؟ كان قوامها الخشبي جافاً كالهشيم ، نعم ، الهشيم . طبعاً كالهشيم .

وبأصابع مرتعشة فتشت عن الثقاب تحت الغطاء ، وخيل إليها أن شعلة الثقاب قد رنت رنين طلقة نارية ، ولكن كل شيء كان هادئاً في داخل الصومعة ، اللهمّ إلاّ غطيط الرجال المتعبين مطرداً نظيماً، رجال أخذهم سلطان نوم عميق . وقربت الثقاب المشتعل من أرض

الحجرة ، ثم شعرت بأنها لا تقوى بعد ذلك على الحركة . وامتد اللهب بسرعة في الهشيم الجاف ، متلويًّا كأنه أفعي هاربة .

لم تستطع أنيسيا أن ترفع بصرها عن ألسنة النار ، ولم تشعر بأن ثوبها المشبع بالكيروسين قد اشتعل .

وبعد قليل نهض أحد النائمين صائحاً ، ولكن الصومعة كانت طعمة للنار الحامية ، التي اندلعت ألسنتها ، وكان أحدهم يعمل في الباب ليفتحه .

وقامت أنيسيا متحاملة على رجليها المهتزتين ، ولكن لتدلف في النار . وكان آخر ما جال في خاطرها : الباب والنوافذ : أمي محكمة القفل ، موصدة لا تُقهر ؟

وصايا صحية

الفاكهة في الغذاء اليومي

من الناس من يأكل الفاكهة بعد وجبة كاملة ، إذ تكون الشهية منقلة ، والجسم منهك بالتعب . وآخرون لا يتناولون الفاكهة حذر الاسهال ، وقليلاً ما تسبب الفاكهة هذا المرض اللهمَّ إلاّ إذا كانت قد تجاوزت حد النضج أو كانت في تخمر . وقد تسبب الفاكهة بعض الأحيان قليلاً من التاعب إذا أكلت بين الوجبات وفي وقت غير مناسب . وينبغي أن تؤكل الفاكهة كجزء متمم للطعام ، فاذا كانت ناضجة نفعت ولم تضر .

الاحتياط في تناول الطعام

يعيش أكثر الناس على نصف ما يأكلون تقريباً ويرهقون طاقاتهم الحيوية بارغام الجهاز على التخلص من النصف الآخر . في حين كان من الواجب استخدام الطاقة المفقودة في الجهد العقلي أو الجسماني . والسبب المباشر لسوء الهضم هو تلك العادة الكريهة ، عادة الجلوس إلى الطعام لأن وقته قد حان . ثم نغرى بالالوان اللذيذة فنأكل ونمتلىء في حين أن إباء الشهية وعدم الشعور بالجوع هو نذير الطبيعة،يوحي الينا بأن الأكل غير ضروري

ان آلافاً من الناقهين قد ساروا إلى قبورهم باغراء أصدقاء جهلاء أخطأوا بحسن قصد. ذلك بأنهم قد يشجعونهم على تناول الطعام والشراب ، ظانين أنهم بذلك يستردون قواهم ، فيفقدون كل شيء .

الـــتراب

يغزو الموت

كيف أدت المباحث في المتعدين إلى كشوف علمية
أغلى قيمة من كل الذهب الذي تخرجه كندا .

إن أحدث انتصار سجله العلم في العصر الحديث ، هو انتصاره على أقدم مرض أصاب الانسان منذ أبعد العصور .

في فجر التاريخ وفي مكان ما ، وقف رجل بدائي يعمل بجهد المستميت وبصبر لا ينفد شهراً بعد شهر لكي يفسح من جوانب كهفه الذي يؤويه فمضى مستخدماً عضلاته القوية في نحت صفحة من الجبل ، مستنشقاً التراب من فتات الصخور . وذات يوم تصلبت وصلات أصابعه فلم تستطع حمل أداته ، وضاق تنفسه فلم يصل إلى رئتيه الهواء حتى كادت تتحطم ، ثم خرّ صريعاً وأسلم الروح . كان هذا الانسان البدائي أول ضحية من ضحايا التجلد السليكي .

بعد أزمان طويلة لا يحصيها العد — أي في العصر الحديث — مات خمسمائة من العمال كانوا يحفرون نفقاً في خلال بضعة أسابيع . في الدهور التي تخللت الحادثين — وهي دهور تتضمن فيما تتضمن أحقاب التاريخ الانساني برمته — ظلت وظيفة التنفس الطبيعية ، وهي وظيفة تعود على الانسان بالصحة والعافية والحياة ، تقضي على العمال بالمرض والموت ، فراحوا ضحية داء خفي يحول رئاتهم إلى ما يشبه الجلد الجاف .

منذ ١٩٠٠ سنة مضين سماه الكاتب الروماني بلينيوس داء « قاطعي الأحجار » وعرفه آخرون بأنه سل المعدّنين أو عفن السنّانين أو ربو الخزافين أو سعال صناع الآجر ، إلى غير ذلك وهو يصيب طبقات كثيرة من الناس كالسبّاكين والفلاحين وصنّاع الخزف وغيرهم ، فاذا لم يقتل،أدّى الى مرض الشلال . أما الوقاية منه فانحصرت في تربية الشوارب واللحى . وكانت هذه نصيحة الأطباء الى شهر ابريل سنة ١٩٤٠ . وقد أدت فعلاً إلى منع شيء قليل من الاصابة بهذا المرض .

وليس معنى القول بأن العلم انتصر على مرض التجلد السّليكي،أن حُفّار ذلك النفق الذين قضى عليهم المرض تلقاء عملهم هم آخر من يموتون به ، كما ان استكشاف الانسولين ليس معناه ان داء السكر سوف لا يقتل أحداً من الناس . ولكن معناه الصحيح ان في يد الانسان الآن سلاحاً قوياً فعّالاً يستعمله في اتقاء فعل حبيبات السّليكا التي لا يزيد حجمها على حجم الميكروبات المجهرية . ومن أعجب الأشياء ان هذا السلاح هو بذاته ... « تراب » ، مكوّن من حبيبات دقيقة من الالومينوم تُصفّح الرئة وتحفظ رطوبة أنسجتها الاسفنجية من فعل التجلد الذي يحدثه تراب السليكا . ولكل شيء آفة من جنسه .

يرجع الى كندا الفضل الأكبر في هذا الاستكشاف ، وتليها أمريكا وبريطانيا . ففي شمال كندا الأقصى وفي مبنى عظيم مملوك لمناجم « كابوسكابنج » في اونتاريو ، وهي ثاني المناجم الكبرى لاستخلاص الذهب ، يدخل مئات من العمال في مناوبتين ، حجرة جافة ، فيرتدون ملابس العمل ، وفي أثناء ذلك يستنشقون في جو الحجرة هواءً ممزوجاً بتراب الالومينوم ، نسبة تركيزه ٣٠٠٠٠ر٣٠ جزء من ذلك المعدن المسحوق في كل سنتي متر مكعب من الهواء . ويشبع جو الحجرة بذلك التراب قبيل دخول العمال اليها . ومسحوق هذا المعدن لطيف لا يرى ، وهو فوق ذلك بلا رائحة أو طعم .

ولا يُتخذ هؤلاء العمال محل تجربة ، فان زمن التجربة قد فات منذ زمان . فليس من اصابات جديدة بالتجلّد السليكي بينهم ، والمصابون به من قدامى العمال آخذون في سبيل الصحة . والفضل في ذلك كل الفضل « لحجرة مسحوق الالومينوم » .

ولقد كان طريق البحث الذي أدّى الى تأسيس « حجرة مسحوق الالومينوم » طريقاً مملوءاً بالعوائق والشكوك والفشل. كما ينبغي أن يقال ان السبب الذي حمل على هذا البحث لم يكن فيه شيء من انكار الذات أول شيء ، فان تقريراً وضعه ثلاثة من الباحثين تضمن انه « بعيد شيوع مرض التجلد السليكي ومعرفة أنه مرض لا بدّ من أن يصيب العمال في المناجم حتماً ،اتجه فكر الأطباء والراقبين في هذه المناجم إلى أهمية تلك الظاهرة وما نشأ عنها من مشكلات في صناعة التعدين » . وقد كان تفشي هذا المرض سبباً في نفقات باهظة تنفقها ادارة المناجم ، بغير نتيجة بينة . لهذا كان للانتصار على مرض التجلد السليكي قصة تضارع قصة استكشاف التطعيم والراديوم والانسولين والسلفا والبنسلين .

فانّ أول المشتغلين باخضاع ذلك المرض لسلطان العلم أن فتات تراب السليكا الحادة الأطراف إذا دخلت الرئة عملت فيها عمل آلاف من المدى الصغيرة. فتصيب أنسجتها بقروح .

واقترح بعضهم الالتجاء إلى طريقة التهوية الصناعية، وقال غيرهم باستعمال المضخات المائية أو التقنع بالقناعات المرشحة ، غير عالمين أن تراب السليكا إنما يؤثر أثره بالفعل الكيميائي ، وأن التهوية والمضخات المائية والأقنعة المرشحة لا فائدة منها في حجب جزيئاتها الدقيقة عن دخول الرئة .

تطوّع ثلاثة رجال لواجب البحث والتنقيب عن سبب هذا المرض وعلاجه . « ج . دني » مهندس التعدين و « هـ . ب روبسون » كبير الاطباء و « ددلي ا . إرون » . والأولان من موظفي مناجم « ماكنتاير » والثالث استاذ البحث الطبي في جامعة أونتاريو . واتخذوا سير « فريدريك بانتنج » مستشاراً لبحوثهم .

ولما كان من المستحيل إزالة التراب من الجو الذي يعمل فيه العمال ، عمل هؤلاء الباحثون على قاعدة أساسية ، هي الكشف عن مادة تقضي على الأثر الذي يخلفه تراب السليكا — يزدردها العمال.

ولقد مات أجيال بعد أجيال من الأرانب وخنازير غينيا في المناجم ومعامل البحث ، طوراً بنشر التراب الطبيعي وطوراً آخر بذر السليكا وأتربة أخرى عليها . وجرى البحث على أن ترسل أعضاؤها الرئيسية إلى دكتور « إرون » في تورونتو للفحص عنها وتحليلها في حين ظل « دني » و « روبسون » يعملان بكل جهد مستطاع ويجمعان بين أنواع الاتربة والسليكا ويمزجانها ثم يذرانها في الجو الذي تعيش فيه خنازير غينيا ، لعلهما يقفان على شيء يقضي على أثر السليكا في الجسم البشري .

هنا وصل بحث علماء بريطانيا إلى أن السليكا إذا تحاتت حتى تصير ذرات غير مرئية أحيطت ببلايين عديدة من جزيئات الأوكسجين العاطشة ، فتذوب هذه الجزيئات في رطوبة الرئة وتحدث الحامض السليكي ، وهو الذي يسبب « تجلد الرئة » وربما كان هؤلاء العلماء قد أملوا أن تكون هنالك مادة تشبع عطش حبيبات السليكا المشبعة بالاوكسجين، فتقمعها قبل أن تحدث أحداثها السيئة .

وذات يوم ، وبغير سبب خاص ، ذرّوا شيئاً من مسحوق الألومينوم في منسف التراب الذي كانوا ينثرونه دائماً على مجموعة من حيوانات التجارب وأرسلت رئات هذه الارانب الى دكتور « إرون » ، فبحثها ثم أبرق : « لا أثر للتجلد السليكي في الرئات بالعينة ٣٤١٧٣» فردّ عليه « دني » و « ربسون » : « وصلت البرقية » — فكأنهما رفضا أن يملأا النفس بأن ذلك الخبر يعني شيئاً جديداً، غير أنهما ظلاّ يضيفان مسحوق الألومينوم ذرّاً في جو

المحبس الذي تعيش فيه الأرانب فكانت نتيجة البحث أن التجلد السليكي لا أثر له في رئاتها

كان من الظاهر أن البحث قد أدى إلى نتيجة حاسمة ولكنهما لم يثقا ولم يمعنا في الثقة . فان ما وصلا اليه قد يكون « شيئاً » وقد يكون « لا شيء » فقبل أن تطبق النتيجة التي وصلا اليها في معملهما الصغير على آلاف العمال في صناعات مختلفة ، رأيا أنه لا مناص من الاجابة على سؤالين :

الأول : أي تأثير لتراب الألومينوم على السليكا فيمنعه من التحول إلى محلول يستحدث حامضاً قتالاً ؟

الثاني : ما هو الأثر الذي يخلفه في الرئة إذا تكرر تزويدها بتراب الألومينوم ؟

فاذا اتضح انه ضار ، تركا الأمر كله ونسياه ، وعمدا إلى تجاريب أخرى . أما السؤال الثاني فقد أجاب عنه دكتور « فرانسيس فراري »، مدير البحوث في شركة الألومينوم بأمريكا فقد سئل : « هل لدى الشركة عمال ظلوا يستنشقون ذرور تراب الألومينوم زمناً طويلاً ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما أثر ذلك في صحتهم ؟ » فكان الجواب « ان العمال الذين يصنعون ذرور الألومينوم المستعمل للدهان والحبر يعيشون بصحة جيدة »

وقد أوضحت الأشعة السينية وسجلات العمل الخاصة بما لا يقل عن ١٢٥ عاملاً ظلوا يعملون في هذه الصناعة مدداً تتراوح بين ٦ و ٢٣ سنة ، أن الألومينوم قد يحدث فيهم آثاراً غير سوية ، ويظهر فضلاً عن ذلك أن صحة هؤلاء العمال هي في المتوسط أقوى من صحة ٣٠٠ عامل آخرين يعملون في أقسام أخرى لهذه الشركة

بل وضح أكثر من ذلك ، فان ثلاثة من المستخدمين كان قد ظهر في اللوحات التي صورت بها صدورهم بدايات السل ، ولكن هذه الآثار قد زالت من اللوحات التي صورت بعد تعرضهم مدة لاستنشاق تراب الألومينوم . وهنا عاد الباحثان إلى معملهما في غابات الشمال تملؤهما الثقة ويحدوهما الاطمئنان

ولقد علما أن حبيبات السليكا الدقيقة تنحل بسرعة إذا اتصلت بالماء ، وعلما فوق ذلك انه إذا أضيف إلى الماء $\frac{1}{100}$ من تراب الألومينوم يمنع انحلال السليكا ، وكيف يحدث ذلك ؟ تذكر صبغة تسمى الأورين — aurine — ترد الألومينوم أحمر براقاً ، فذرا على قطع من الحجارة كسرت لوقتها مسحوق الألومينوم ، وتركا قطعاً أخرى من غير أن تعالج بمثل ذلك ، وصبا عليها صبغة الأورين ، فالحجارة المغشاة بمسحوق الألومينوم انقلبت حمراء براقة ، وظلت الأخرى بدون تغيير ، فان تراب السليكا قد أصبح بذلك غير ضار ، لانه طلي بالمعدن

هنا حان الوقت لتطبيق ذلك على الانسان ، وهذا يدل على أن ما يصح في تجربة المعمل قد يتفق أن لا ينجح في التطبيق على حالات الحياة التي من أجلها أفرغ كل الجهد . وفي هذه المرحلة انضم إلى الباحثين ثلاثة من فحول العلماء هم دكتور هـ . و . كرومي كبير أطباء مصحة الملكة الكسندرا في لندن بمقاطعة أونتاريو ، وهو حجة في أمراض الصدر ، ودكتور ل . بلايسديل من كبار الباثولوجيين (علماء الامراض) والآنسة ج . مكفرسون الكيميائية بنفس المعهد . وبدأوا بحوثهم في مستشفى القديسة مارية ببلدة « تيمنس » ، وانتقوا ٣٥ عاملاً وضعوا تحت العلاج بشم تراب الألومينوم ، وعدد آخر لم يعالج به ، وكلا المجموعتين من المصابين بالتجلد السليكي ، وظل الجميع يعملون في محيط تراب الناجم في أثناء التجربة

بدأت تجربة انشاق تراب الألومينوم بخمس دقائق كل يوم ثم أطيلت المدة حتى صارت ثلاثين دقيقة ، وبعد مدة كررت فيها العملية ٢٠٠ أو ٣٠٠ مرة ، فكانت النتيجة ان سبعة منهم ظهر فيهم تحسن جلي ، واثني عشر ظهر فيهم تحسن نسبي ، ولم يتحسن الباقون . ومن الذين لم يعالجوا ٦٥ ساءت حالهم الصحية .

وقد قرر الذين عولجوا انهم أصبحوا أطول نفساً أو انهم لا يشعرون بضيق النفس ، كما زالت آلام الصدر والشعور بالتعب ، بل زاد وزنهم ، وأصبحوا أقل تعرضاً لاصابات البرد . على ان شيئاً من وجوه هذا التحسن لم يظهر في المصابين الذين لم يعالجوا . هـذا كله وقد اعتقد الأطباء أن تراب الالومينوم انما هو مانع للتجلد السليكي ، وليس بشافٍ منه . ومن ثمَّ أقيمت حجرة الاستنشاق التي ألمعنا اليها قبل

أقوال

- الحرية شيء لا تملكه حتى تعطيه
- يعيش أكثر الناس عيش من ينتظر ان يحكم عليه بما يكتب على لوحة قبره ، لا مما يعرف عن خلقه
- إن أفضل الازواج لا يقتصون ، وانما يصنعون.
- الرجل العادي ، هو الذي يظن انه غير ذلك .

***

لقد سبقتك اليوم عيناك سبقه وأبكاك من عهد الشباب ملاعبه
فوالله ما أدري أيغلبني الهوى اذا جد جد البين أم انا غالبه
فان استطع اغلب وان يغلب الهوى فمثل الذي لاقيت يغلب صاحبه

الرماح ابن ميادة

تأثير الالات الحديثة

في حياة الفلاح المصري

من حيث الثروة والعمل

همسة في أذن وزارة الشئون الاجتماعية

تخيل دانتي انساناً وأفعى . وقف الانسان على قدميه ، وانبطحت الافعى على بطنها. ولكن انقلاباً خلقياً خطيراً اصابهما . التحم ساقا الانسان واستطالا ، واندمج ذراعاه في جنبيه وانبطح على بطنه، وانفلق ذنب الأفعى فصار ساقين، وبرز من جنبيها ذراعان فانتصبت واقفة ، فصار الانسان افعى، وصارت الافعى انساناً .

كان لبضعة اختراعات قليلة اهتدى اليها في القرن التاسع عشر ، آثار اجتماعية لم يمر بخيال أحد انها سوف تترتب على تلك المخترعات . بل إن هذه الآلات ، كما أحدثت آثاراً اجتماعية ، كذلك أحدثت آثاراً سياسية ، خضعت لها الدول ، ولا تزال خاضعة لها حتى اليوم . فالآلات أحدثت كل الحركات العمالية التي شغلت العالم قرناً ونصف قرن من الزمان ، وقوّت روح المذاهب الاشتراكية والشيوعية وما اليها ، كما كانت السبب في قيام الروح التسلطية الاستعمارية في العالم الحديث. لأن العَلَم تبع التجارة في البحار، كما قال سياسيو القرن التاسع عشر . والآلة زادت الانتاج ، وزيادة الانتاج تطلبت الأسواق ، وفتح الأسواق تطلب الجيوش والأساطيل .

ولكن تأثير الآلة لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى آفاق أخرى وأحدث آثاراً سوف تشكل عالم المستقبل القريب بحسب ما خلفت من ظروف وبيئات . من تلك الآثار أثران كان لهما أعمق الفعل في حياة الجماعات : الأول تأثيرها في تحوير الرأسمالية ، والثاني تأثيرها في حياة العامل . أما تأثيرها في الرأسمالية فإخراجها رؤوس الأموال من مجرد الملكية للأرض والبناء أو للأثاث إلى أموال منتجة بذاتها ، رؤوس أموال « دائمة » على ما يقول الاقتصاديون ، تخرج من يد صاحبها وترد اليه مرات عديدة في أوقات متفاوتة على حسب طبيعة ما توظف فيه من الأعمال ، فصارت بذلك أوثق ارتباطاً

بحياة الجماهير بعد أن كانت وثيقة الرابطة بصاحبها وحده، شأنها في عصور الاقطاع . ومن ناحية أن رؤوس الأموال أصبحت وثيقة الارتباط بالناس وبالعمال خاصة، نشأ الكلام في النظام الرأسمالي في العصر الحديث، ومن الكلام فيه تفرعت المذاهب الاجتماعية الحديثة، وإن شئت أن تكون أكثر تحديداً، فقل تجددت تلك المذاهب بعد أن طمس عليها عصر الظلامية الفكرية الفاً من السنين، وبعد أن طغى عليها عسف نظام الاقطاع حتى حدود العصر الحديث . هذا من حيث أثرها في الرأسمالية .أما من حيث تأثير تلك الآلات في حياة العامل، فان الانقلاب كان أعظم . فان العامل قبيل عصر الآلات كان سيد نفسه، إذ كان يعمل تحت سلطتين : إما سلطة الأسرة وإما سلطة الطائفة . فاذا كان عمله في وسط أسرته وانتاجه له ولها، كانت الأسرة هي وحدها صاحبة السلطة العليا عليه وفائدة عمله عائدة عليه وعليها . وإذا كان عمله طائفي أو مهني فان أصحاب المهن كانوا ينتظمون طوائف كل طائفة تختص بمهنة أو صناعة خاصة تقتسم العمل وتقتسم فائدته . فلما ظهرت الآلة ظهرت معها العامل وشيدت معها المدن الصناعية، تخرج العامل من جو السيادة الذاتية إلى جو الاستعباد في ظل رأس المال والعمل . ونسي مهارته اليدوية التي كانت رأسماله وملاذ حريته، ووقف مكتوفاً أمام آلة تسيره وتحدد عمله وتحدد أجره، وفقد إرادته أمام الآلة، وفرضت الآلة عليه إرادتها، فأصبح هو الآلة وأصبحت الآلة انساناً، أشبه شيء بأفعى داتني وانسانه . ومن هنا نشأت كل المشكلات التي نسميها اليوم مشكلات النظام الاقتصادي، ونشأت إلى جانبها المذاهب الاجتماعية الحديثة على اختلاف ضروبها وتباين صورها .

***

هذه هي الظروف التي حاقت بالعالم الاوربي منذ نشوء الآلة، أو بالحري الظروف التي خلعت على أوربا ثوب الانقلاب الصناعي . فهل نحن مسوقون في مثل هذه الطريق ؟ نقول نعم نحن مسوقون فيها وبخطوات واسعة سوف تستعجلها هذه الحرب عندما تضع أوزارها. مساقون فيها من ناحيتين : من ناحية العامل، ومن ناحية الفلاّح . أما مشكلات العامل فقد سبقتنا اليها أوربا، ومشكلات العامل هنالك ستكون هي بعينها مشكلات العامل هنا . وتأثير رأس المال هناك، سيكون تأثيره هنا . ولكن تأثير ذلك الانقلاب في الفلاح المصري، أمر يحتاج الى شيء من التفكير وشيء من التطبيق، هو موضوع كلامنا اليوم .

نسأل أولاً : هل حدث في حياة الزارع المصري انقلاب أشبه بالانقلاب الصناعي الذي

حدث في أوربا ؟ نعم حدث ذلك الانقلاب . وبدأ منذ عصر محمد علي . ولكن خطواته كانت وئيدة ، ثم تسارعت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وزاد تسارعها في القرن العشرين .

***

عاش الفلاح المصري خلال ثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر عيشه الذي ألفه في عصر المماليك ، وورثه عن العصور التي تقدمته. وترجع هذه الوراثة إلى العصر الاغريقي ثم إلى العصر الروماني من بعده . عاش هذه الحقبة غير شاعر بأنه يتقدم نحو انقلاب خطير بدأته سياسة محمد علي في مصر. فصار من حيث الوضع السياسي أكثر اتصالاً بأوربا فشارك في بعض حروبها وتطلع من طريق تلك السياسة الى السيادة بحريًا على الجزء الشرقي من البحر المتوسط . ومن حيث الانتاج الزراعي أصبح أكثر اتصالاً بالأسواق العالمية التي تصرف فيها أهم محصولاته وأهمها القطن . ولكن هذه الصلة بدأت صغيرة وأخذت تنمو على الأيام . هذا الانقلاب الكبير كانت له آثاره الجلي في حياة الفلاح المصري .

فان الأسر الزراعية في الزمن الأول كانت تعيش مكفية الحاجة بعملها الذاتي . تزرع قطعة من الأرض تكفيها مؤونة العيش ، وتغزل قليلاً من القطن ثم تنسجه على مناسج منزلية، وتستغل دواجنها لحاجة حياتها، وتطحن حبها في طواحين إما يديرها الهواء ، وإمّا تجرها الدواب . وكان عمل الفلاح قليلاً فان أكثر الأرض كانت بوراً وطرق الري بدائية، إذ كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على الفيضان وحده وطرق الصرف كانت معدومة بالمرة . فكان ما يزرع من الأرض جزء ضئيل ، ولكنه كان يكفي الحاجة ويزيد عليها . كان شأن الفلاح المصري في ذلك الوقت شأن الفلاح الأوربي قبل عصر الآلات . زراعة تكفي الحاجة، وصناعة يدوية بسيطة معملها البيت وسوقها القرية .

ولكن الآلات أخذت تعمل عملها الثابت في حياة الفلاح المصري وأثرت فيه كما أثرت في حياة الفلاح الأوربي .

فان اختراع الآلة البخارية زاد سرعة الانتقال برًّا وبحراً وزادت الصلة بين مصر وجاراتها من الشمال ، وعمت مشروعات الري وتلتها مشروعات الصرف ووردت المنسوجات الأوربية رخيصة الثمن ، فقضت على المغزل والمنسج واستبدلت طواحين الهواء والدواب بالطواحين الآلية وأخذ المحراث الآلي يحل محل المحراث الذي تجره الثيران ، وسلكت السيارات الطرق ، وبالجملة قضى الحديد على جزء كبير من حياة الفلاح الأولى، وسيقضي بعد

الحرب مباشرة على الجزء الباقي منها . فما هي الآثار التي ستترتب على مثل هذا الانقلاب وما هي العدة التي أعددناها لنتوقى نتائجها ؟ .

***

إذا وضعت الحرب أوزارها وسوق مصر جائعة والبلاد الصناعية في حاجة إلى الانتاج وتصريف ما تنتج، غمرت مصر بصنوف من البضائع أهمها الآلات الزراعية . آلات الحرث والري والبذر وجمع القطن والطحن والحصد والدرس والتذرية ، وجميع هذه الأشياء سوف توفر الأيدي العاملة في الريف بحيث يصبح الفلاح في شبه تعطل أكثر أيام السنة ، ويفقد بذلك ثمانين في المئة على الأقل مما كان يربح من أجر عمله في المزارع الكبرى وهو شيء كان على كل حال يقوم بسد جزء من حاجته . وستنشأ المعامل الكبرى حوالي بعض المدن ، فتمتص قليلاً من هذه الأيدي المتعطلة ، ولكنها مهما امتصت فسيبقى الجزء الأكبر من الأيدي متعطلاً عن العمل قليل الكسب، فينزل مستواه إلى إقل من المستوى الذي هو فيه الآن.ومن هنا تنشأ مشكلتان : مشكلة عمالية : تقوم في المدن الصناعية، وسوف يكون فيها العامل مضغوطاً من جميع نواحيه . فرأس المال يريد الربح بأقصى نسبة فينزل أجور العمال لتوفر الأيدي في الريف . ومشكلة الفلاح : الذي سيظل متعطلاً ولا يجد باباً يكسب منه أجر العمل ، وسيقتصر عمله على غيطه الصغير الذي لا يكاد يقوم الآن بأوده بعد دفع نفقات الزراعة وإيجار الأرض .

هذه هي مشكلة الريف بغير إطناب . هذه هي المشكلة التي نحن مقبلون عليها . فما هي العدة التي أعددناها لتوقي نتائجها الاجتماعية ؟

لا شك في أن رفع مستوى الفلاح له طريق واحد . طريق لا ثاني له . زد ثروته ترفع مستواه . فما هي الفائدة في أن تعرفه معنى النظافة وهو لا يجد ثمن الصابون ؟ وما هي الفائدة في أن تعلمه قواعد الصحة وهو لا يجد ثمن الدواء ؟ وقس على ذلك كل وجوه الاصلاح التي ذكرها كثير من الكتاب في أزمان وظروف متفرقة . إنها ولا شك وجوه إصلاح ضرورية ، ولكنها لن تنتج ولن تثمر أية ثمرة والفلاح في فقره المدقع الشديد . زد ثروته ترفع مستواه .

ونحن بعد مقدمون على عصر سوف تشتد فيه فاقة الفلاح . عصر ستقوم فيه الآلة مقام اليد العاملة في المصنع وفي الحقل . وسيفقد الفلاح مصدراً من مصادر رزقه : ثلاثة أرباع أجر عمله اليدوي في الحقول التي سوف يلعلع فيها صوت الآلات ، فتجر على الفلاح الفقر

والخصاصة ، فوق ما هو فيه من فقر وخصاصة . آلات سوف تجلجل في الحقول فينذر صوتها بالخراب الاجتماعي ، وإن أدت إلى زيادة الانتاج وقلة النفقات . ولكنها أرباح ليس للفلاح الخامل أية فائدة منها . بل ستكون مصدر ذله واستعباده ، أكثر مما هو فيه من استعباد .

وعندي أن الحل الذي تتطلبه هذه المشكلة له وجه واحد . فالواقع أن الأيدي المتعطلة في الريف ستزيد بعد الحرب ، وكسب عمل الفلاح سيقل فينزل كسبه وايراده ، وسيحل به فقر عظيم . فاذا استطعنا أن نلجأ إلى وسيلة نتقي بها ذلك الشر كان هذا أمجد ما يقوم به أبناء هذا العصر لمستقبل مصر ، أمهم العظمى .

لكي نتقي هذا الشر ينبغي لنا أن نشيد دعائم الصناعات الزراعية في معامل صغيرة تنتشر بين القرى والضياع . صناعات تتصل بالانتاج الزراعي من جميع وجوهه . صناعات الألبان واللحوم الباردة والخضر المحفوظة وتربية الدواجن والنحل إلى غير ذلك من آلاف الصناعات التي يمكن استغلالها حتى من النفايات التي تتكدس من حول القرى وفي المدن . ويكون لنا إلى جانب هذا أسطول للنقل تام العدة يصرف هذه المصنوعات في أنحاء العالم حيث تطلب وحيث تستهلك . بذلك نجد للايدي المتعطلة عملاً يعود عليها بكسب ، ونرفع مستوى الفلاح من رجل منتج بالزراعة إلى رجل منتج بالصناعة أيضاً . هذا عمل ينبغي أن تمد له الحكومة يد المساعدة الفعالة بخبرائها ومالها . وإلاً فالنتيجة ما وصفنا . ولله درك ياشاعر البراري إذ تقول مخاطباً هدهد سليمان :

خدمت سليمان في ملكه وبلّغته نبأً عن سبأ
وقلت : أحط بما لم تحط به واجترأت أمام الملأ
وحُملت منه كتاباً كريماً فعززت بالخبر المبتدأ
فيمم أولي الأمر منا وقل معي نبأ يا له من نبأ
حسام الحقول : وأعني به فلاّح مصر علاه الصدأ
غذاها وجاع وصان وضاع وأروى الضياع وقاسى الظمأ
وأمراضه فوق هذا وذاك تناهبنه كنباح الكلا
ورث الجديدان من خوله ولم يلق بينهما ملتجأ
فيا ليت شعري : متى يعتنى به ويضاء له ما أنطفأ

مرسلات مع الريح

فوق الصخرة

السوداء

«ورست بنا السفينة في مرفإ خيل الينا أن ساكنيه من عالم آخر غير العالم الذي نعرفه . عيون تلمع كأنها الاقباس تحت جباه لوحتها الشمس الحامية ، فكانت أشبه بنحاس علاه الصدأ . أي عالم جرتنا اليه هذه السفينة ؟ »

ترنحت السفينة فوق سطح الماء ولطمها الهواء فتمايلت ، ثم استدارت شامخة بأنفها السحوق نحو السماء ، وأرسلت من جوفها ذلك العويل الطويل كأنما هي تودع اليابسة قبل أن يحتضنها اليمّ الواسع العميق ، واستقبلت مخرج ميناء « دوفر » لتدلف منه إلى الخضم الازرق ، المترامي تحت قدميها ، فتمخر فيه باسم الله مجريها .

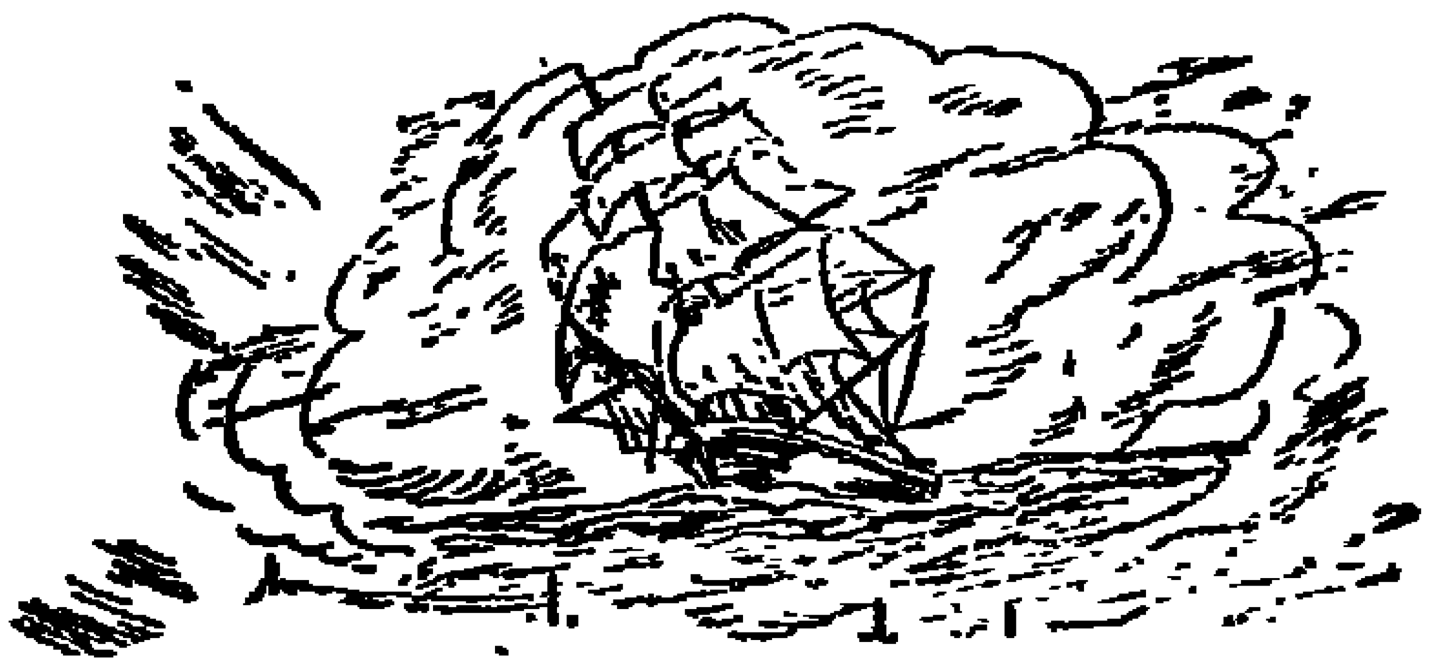

ومضت تبتعد عن الشاطىء شيئاً بعد شيء ، والشاطىء يغيب عنها هوناً على هون ، حتى بدا كأنه ضباب كثيف لا تستبين فيه من شيء ، الا قمم المطرّحات من الأبنية ورءوس المداخن ترسل دخانها الأسود كأنما هي مجموعة من البراكين الثائرة ترسل من جوفها أفاعيل طبيعية غاضبة

ولفنا الماء ، واكتنفنا الغسق ، وأخذت آلات السفينة تهدر تهدار البراكين ، تجالد اليمّ واليمّ يجالدها ، تبج صدره بحيزومها وتضرب بذنبها الملوي كأنها أفعى تسترق الخطو في الظلام المنسدل ، فيرد كيدها بأمواج كالجبال .

وبدت نجوم الليل ترسل بصيصها إلى ذلك العالم الأصمّ الذي كنـا نجتازه ، وأخذت الشعرى تبرق وتكظم ، كالغادة اللعوب ، وبدا الفرقدان : وإذا شئت :

فاسأل الفرقدين عمن أحسّا من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهارٍ وأنارا لمدلج في سواد

وأكل الناس وشربوا ومرحوا وأخذ الكرى يلاعب معاقد أجفانهم ، بعد أن أنهكهم الرقص وفعل بهم المرح ، وحتى للمرح متاعبه ، هذا والسفينة لا تأخذها سنة ، والبحر يقظ يغالبها وتغالبه . وكيف ينام وهو ذلك الشيء الذي استيقظ مع الخليقة ولم تغف له عين ، ولا سكنت له حركة ، ولا اضطرب له قلب ، ولا اهتزّ له جنان . فكيف به يعبأ بتلك الذرّة من الهشيم ؟ انها تداعبه ولا ريب . هي ألهية من ألهياته ، بل خطرة من خطراته . كلاً ، بل حلم مغيّب في جوف الزمن .

وما ذلك الصّفير الأجش الذي يضرب السفينة بنبراته السريعـة القوية ، فتميل ذات اليمين وذات الشمال ؟ انه ولا شك عبـارات الترحاب يرسـلها البحـر إلى الذين ينزلون رحابه الواسعة .

وما ذلك الدوي البعيد الذي يكاد يفجر الصدور بعمقه ويخلع القلوب بروعته . تلك هي العاصفة : هي أغنية الأزل الأول .

***

كنا في منتصف يناير والهواء زمهرير والماء زبد يتهادى فوق قمم من الموج أشبه بالتلال المتلاحقة في صحراء شهباء ، سطع عليها قمر مريض الضوء باهت اللون . ولم يبق على ظهر السفينة انسان يحيّي هذه الطبيعة الصاخبة الغضبي ، فقـد لاذ كل منهم بمنجى منها ، ولـكل امرئ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه .

واستدارت السفينة من حول شاطئ فرنسا الغربي ويممت نحو الجنوب وكلما أمعنت فيه انتعشت الأرواح ومرحت النفوس فقد استحال الهواء البارد المثلوج نسمات تخاطب القلب والعقل ، وأخذت ذكاء بأبهتها السماوية ، تحيينا كل صباح بأشعتها الذهبية ، وتودعنا كل مساء وهي منحدرة في جوف اليمّ الواسع مشيرة الينا بألسنة صفراء من نارها المتسعرة ، فكأنما هي في تحيتها ووداعهـا صديق من فقد الصديق ، في مثل عالمنا الذي كنـا نقطع رحابه ، فوق ذات ألواح ودسر .

فلما كانت السفينة في نطاق دائرة الاستواء ، تغير لون الماء فاذا به أحمر قانٍ كأنه الدم المهراق في رقعة لا يحدها البصر . وكان الى جانبي عالم أخذ طريقه الى الجزء الجنوبي من كرة الارض ليبحث طبائع بعض الأحياء في وهاد افريقية وغاباتها الموحشة . فلما أبديت دهشتي من تلك الظاهرة قال لاتدهش فالماء هو الماء ، وانما اللون من حيوانات مجهرية تتكاثر ثم تتكاثر في بعض فصول السنة ، فتصبغ البحر بهذا اللون الاحمر الأرجواني . ثم انظر ألا ترى أشياء تثب من الماء ثم تغوص . إذا إقتربت سفينتنا منها فسوف تطير . هذا هو الخطاف ، وهو جنس من السمك الطيار يتخذ من زعانفه أجنحة ، فاذا أزعجها مزعج همت هاربة ، فتضرب بزعانفها الجانبية فترتفع فوق سطح الماء وتسير في الهواء مسافة ، فإذا أخذ منها الروع ، وجدت من صدر البحر مثوى وئيداً واسع الجنبات . ثم ها هي ذي الصخرة السوداء .

***

أشرفنا عليها وهي قائمة في وسط اليمّ كأنها الحلم الفزع في خيال مضطرب. وقد استطالت قممها المشرفة على البحر وراحت تتطلع إلى سماء شملها الغيم الكثيف ، فكأنما هي امرأة مهجورة تناجي السماء بآلامها المرتسمة على صفحتها المربدّة من ظلم الأيام .

ورست بنا السفينة في مرفإٍ خُيِّل الينا أن ساكنيه من عالم آخر غير العالم الذي نعرفه ، عيون تلمع كأنها الأقباس تحت جباهٍ لوحتها الشمس الحامية فكانت أشبه بنحاس علاه الصدأ . اي عالم جرتنا اليه هذه السفينة ؟ ولكن السفينة لا بد من أن تتزود ، فألقت مراسيها على الصخرة السوداء ، يوماً وليلة .

وحملنا حب الاستطلاع على النزول إلى البرّ ، واخذنا نضرب في نواحي المدينة حتى ألقينا عصا النوى في مكان هو مجتمع الأدلاء ، فقال أحدهم : أأدلكم على الكوخ الأثري ؟ قلنا وما هو ؟ قال كوخ فيه كتاب سطوره الحياة ، وسطور الحياة كلها مكتوبة على صفحة واحدة خطتها يد القدر . فسأله أحدنا أورقة تعني ؟ قال نعم .

ووقفنا أمام الكوخ الأثري فاذا به حظيرة بها جياد لحامية تلك الصخرة السوداء . رأينا الجياد . ولكن لم نر الكتاب ولا الصفحة التي خطتها يد القدر . قال لا تعجلوا ، فهنا في هذه الحجرة نزل ضيف جاء من وراء البحار ، وظل بها سنين ، فلما مات اتخذ الكوخ حظيرة للجياد .

ولكن هذه الحجرة قد تركت مغلقة احتراماً لذكرى ذلك الضيف . وأنتم ترون كيف

عنى بها . فتلك الحشائش النابتة من خلال الجدران ، ومن بين الشقوق التي تتخلّل الأرض، دليل على أن أصحاب الأمر هنا لم ينتهكوا حرمتها . وفي هذا القمطر ورقة مكتوبة هي طلبتكم : وأخذنا ننظر في الورقة التي خطتها يد القدر .

« في تسعة الأيام الأخيرة من حياته ظلّ هاذياً وفي غيبوبة . كانت الحركة تؤلمه ، وحتى اللمس كان يؤذيه . وفي اليوم الخامس من مايو تلفظ ببضع كلمات غير مستبانة، ولكن رفيقه « مونتولون » ظن أنه يقول « فرنسا — الجيش — رأس الجيش » .

«وما إن تحرك لسانه بهذه الالفاظ حتى وثب من فراشه ثائراً وجذب معهُ «مونتولون» الذي حاول أن يثنيه إلى الرشد ، فانطرحا معاً على الأرض . كان ذلك آخر جهد بذلته ارادة لا ترد وقوة لا تقهر».

«وبعد صراع، استطاع مونتولون أن يرجعه إلى الفراش مستعيناً بزميله «أرشمبو».وظلّ المريض في فراشه ساكناً حتى كانت الساعة السادسة من المساء، فبذل آخر أنفاسه.كانت عاصفة هوجاء ترسل بأهازيجها، الصاخبة في خارج الكوخ ، الذي أخذ يهتز من شدتها كما لو كانت زلزالاً صارماً انتفضت منه الأرض . ها هي ذي العاصفة تقتلع شجرة الصفصاف التي كان يجلس اليها ذلك الخالد الفاني . وإذ كانت العاصفة تقتلع تلك الشجرة التي تفيأها الضيف الراحل، كان «مرشان» ، أحد رجاله، يسجيه بالعباءة التي كان يلتفع بها قاهر الجيوش في موقعة مارنجو » .

* * *

يا لكِ من صخرة سوداء ! أنتِ يا جزيرة القديسة هيلانة . ويا لكَ من رجل ! أنت يا ابن فرنسا ! أنتَ يا نابوليون !

* * *

قبره الآن في باريس ، ولله در « البكري » إذ يقول :

« وقفت بقبر نابوليون أمس ، أحدث النفس ، عما في ذلك الرمس ، فإذا سكون بعد صولة ، وقبر في جوفه دولة ، وصولجان كرته الأرض ، أضحى مخراق لاعب ، وسرير كان عليه البسط والقبض ، أمسى ملتقى ناعٍ وناعب .

الكهرباء

وتشخيص الامراض

طرق ثابتة لا تكذبك ولا تضلك

اذا أخذت بضع نقط من دم حي ما، ومزجتها بمحلول من كلوريد النحاس، ونشرت المزيج على شريحة من زجاج وتركتها تتبخر، حصلت على التبلور. فاذا كان الدم مأخوذاً من حيوان صحيح، فان البلورات تأخذ شكلا خاصاً. وإذا كان مريضاً فبناء البلورات السوي يتكيف

كان طبيب الريف في الزمن الماضي يعتمد في استجلاء المرض على حواسه الخمس غالباً، على سمعه وبصره وشمه ولمسه وذوقه. ولقد جرى في ذلك على سنّة اتبعت ونهج رسم. أما طبيب العصر الحديث فسلاحه التشخيصي علمان: الطبيعة والكيمياء.

أمضى دكتور «هرولد سكستون بار» من مدرسة الطب في جامعة «ييل»، سنين منصرفاً إلى دراسة الظاهرات الكهربية في الجسم البشري، وانتهى به الأمر إلى تركيب آلة تقيس التغييرات الكهربية في الجسم، حتى إذا ضؤلت فلم تتجاوز خمساً على مليون من الفولت الكهربي.

وبهذه الآلة استطاع أن يستشف ويسجل ظاهرة تكوّن البييضات في الأرانب والسنانير والنساء، وتكوين أفراخ الدجاج والسمندل وهي في البيض، والفروق بين الفئران التي قدّر لها أن تصاب بنمو سرطاني والفئران التي سوف لا تصاب به البتة. فلكل مرض من الأمراض دلالته الكهربية الخاصة، حتى قبل وجود علامات ظاهرة تنم عنه.

وقد مضى الآن عشرون سنة منذ بدأ دكتور «إهرنفريد فيفر» العالم السويسري، يدرس بلورات الدم وعلاقتها بالمرض. فالتبلور كما هو معروف، عبارة عن ظاهرة تحصل عند ما تتجمع جزيئات مادة ما، على نسق خاص. فاذا اتسقت أخذت اشكالاً هندسية يكون بعضها ظاهراً للعين المجردة.

فاذا أخذت بضع نقط من الدم من حي مّا ، ومزجتها بمحلول من كلوريد النحاس ، ونشرت المزيج على شريحة من زجاج وتركتها تتبخر ، حصلت على التبلور . فاذا كان الدم مأخوذاً من حيوان صحيح ، فان البلورات تأخذ شكلاً خاصًّا . وإذا كان مريضاً فبناء البلورات السوي يتكيف. فمثال من التنسيق البلوري يدل على فقر الدم، وآخر على السرطان، وثالث على السل ، وهكذا .

وكل مادة تتبلور في صورة محدودة بينة تنم عن حقيقتها . وقد كشف دكتور «فيفر» عن أن هذه البلورات عالية الحساسية ، حتى ان إضافة نقطة من سائل غريب تحدث تحويراً عظيماً في شكلها . وبعد آلاف من التجارب سهل عليه أن يستنتج نتائج في خصائص المواد التي تحدث تلك التحويرات .

واشترك دكتور « بجوين » من جامعة الطب في « بوردو » مع دكتور « فيفر » في درس خصائص بلورات الامراض ، وكتب تقريراً عن النتائج إلى أكاديمي العلوم الطبية في فرنسا . ولقد وصل دكتور « بجوين » بهذه الطريقة إلى نتائج ذات بال . فمن مجرد فحص بلورات الدم صحّ تشخيصه في ٣٠ حالة من ٣١ حالة سرطانية ، وكانت الحالة الواحدة والثلاثون حالة سرطان مصحوب بزهري، واصطحاب المرضين أعطى مثالاً آخر من البلورات. ومن تسع حالات سل شخص دكتور بجوين ثماني حالات تشخيصاً تامًّا . والحالة التاسعة كانت مصحوبة بالتهاب الخُشاء — Mastoid — والتهاب سحائي ، فحورت البلورات وضللت الطبيب .

وطريقة دكتور « بجوين وفيفر » في بحث البلورات ودلالتها على الامراض غير معروفة بدقة خارج فرنسا . بيد أنها طريقة ما فتئت في طور التجربة . فان امراضاً كثيرة ما تزال تحت الدرس والتبويب بهذه الطريقة . على أن المستقبل يدل على إمكان الاهتداء إلى نتائج فذّة باهرة .

وتصوير انسان العين معناهُ درس حركاته وتفسير دلالاتها في مختلف الأمراض . فإن عدداً عظيماً من الأطباء قد أيقنوا بأن انسان العين يسلك سلوكاً خاصًّا يختلف باختلاف الأمراض التي تصيب الجسم ، وبخاصة الأمراض التي تصيب الدماغ (المخ) والأعصاب . ولكن حركات انسان العين هي حركات سريعة يتعذر تتبعها. فاذا أريد تتبعها بالعين المجردة ، فمثل هذا الفحص يقود الى نتائج تتوقف صحتها في أكثر الأمر على خصائص الفاحص الذاتية.

ومنذ خمسة عشر عاماً عمل دكتور « أوتولونتال » من جامعة « بون » بألمانيا على

تذليل هذه الصعوبة . فصمم على نقل ارتكاسات انسان العين على رق مصوَّر ، وبذلك يمكن الوصول الى نتائج لاتحتمل الشك . وقامت أمامه عقبة . فان تصوير انسان العين بتلك الطريقة يحتاج الى ضوء شديد وقت التصوير من غير أن ينقبض انسان العين والضوء واقع عليه . وبعد مشاق استطاع أن يملك جهازاً يستعمل فيه أشعة الضوء دون الأحمر التي تسجَّل على رقوق للتصوير الضوئي ، وهي أشعة لا تكشفها العين ، فلا يكون لها تأثير على انسانها .

ومن المعروف ان انسان العين يتكيَّف متغيراً بحسب الحالات الانفعالية . والانعكاسات التي تصيبه تتوقف على حال الأعصاب التي تحكم العضلات فتفتح انسان العين أو تقبضه . فاذا لم تقم هذه الأعصاب بوظيفتها خير قيام نتيجة لكبر السن أو الامعان في شرب الخمور أو استعمال العقاقير أو وجود مرض عضوي كالزهري ، فان سلوك انسان العين في تلك الحالات وأمثالها يختلف عن سلوكه في الأفراد الأسوياء . ولما كانت أنامي العيون غاية في الحساسية وتعكس تأثيرات الأمراض العصبية منذ بداياتها الاولى ، فان ذلك يساعد ولا شبهة على التشخيص وسرعة العلاج الناجع الذي يكون فيه لعنصر الزمن أثر هام جداً .

يوضع المريض تحت تأثير منبهات متفرقة — كاطلاق قذيفة بندقية أو مفاجأته بشعاع قوي لا يتوقعه — وتؤخذ صورة لارتكاسات انسان عينه . وتؤخذ الرقوق المسجلة من المصوّرة وتستظهر . وإنك لتعجب إذ ترى أن هذه المسجلات تفصح لك عن حالة أعصاب المريض بمثل الجلاء الذي تظهرك به الأشعة السينية على أعضائه الداخلة .

وتصوير إنسان العين يمكن الأطباء من تشخيص الاضطرابات العصبية وتقييم خطورتها فيرسمون بذلك خطة العلاج والشفاء . ولكن لوحظ أن المريض لا يكون قد شفي تماماً إذا عادت حركات انسان عينه إلى حالتها السوية . ولهذا تابع دكتور « لوتسال » بحوثه في سويسرا ، مقتنعاً بأن تصوير انسان العين سيكون له أثر بارز في القضاء على الأمراض العقلية

إذا وضع لوح من الزجاج يحتوي على أوكسيد النيكل أمام شعاع فوق بنفسجي ، حدث ضوء إلى السواد . فاذا بحثت أشياء ما تحت ذلك الضوء الأسود السحري ، فانها تعرب عن خصائص لا يفصح عنها الضوء العادي .

ولقد طرأ لدكتور «أوتو رتش» من جامعة ليبزج فكرة أخذ عينات من الدم البشري يحفظها في أنابيب حتى تترسب كريات الدم الحمر في قاعها ، ثم يفحص عن المصل الرائق الأصفر الذي يكون في عنق تلك الأنابيب تحت ذلك الضوء الأسود . فلما عرّض المصل إلى ذلك الضوء الأسود المنبعث من الشعاع فوق البنفسجي ، ظهرت فيه ألوان مختلفة ، متدرجة في ظلال من

الأصفر المخضر الى الأخضر الزيتوني إلى الأزرق الزبرجدي أو الأزرق المبيض أو اللون الأرجواني ، وبعضها شفاف ، والبعض الآخر بمثل كثافة اللبن .

***

كانت المشكلة الثانية هي : كيف تقرأ بدقة تلك الرسائل التي يسجلها دستور تلك الألوان المختلفة العجيبة ؟ حُلَّ كل مصل على حدة ونقي من كل مايحتمل أن يكون فيه من القصيّات (bacteria) الشفافة بتعقيمه تعقيماً تامًّا . وهنا حلت المعضلة، عند ما ظهر للباحثين الفرق الجلي بين المصل المستخلص من دم أشخاص أصحاء والمصل المستخلص من أشخاص مرضى .

أما الانبثاقات اللونية التي ظهرت عن مصل أبدان صحيحة ، فكان في كل حالة من الحالات عبارة عن لون خفيف باهت أو أخضر زيتوني إلى الكمدة . في حين أن مصل الأبدان المرضى أعطى ضوءًا ظاهر اللون ، فكان ذلك برهان قوي على أن للمرض تغييراً في الدم يظهر تحت فعل الأشعة فوق البنفسجية . فلما أظهرت البحوث التالية أن مصل ذوي السل له لون خاص ، ومصل ذوي السرطان لون آخر ، وذوو تصلب الشرايين لون ثالث ، استنتج أن الأمراض المختلفة يمكن تعيينها من طريق الألوان التي تعطيها الامصال المتفرقة ، إذا عولجت بالضوء الأسود .

وعلى الرغم من أن هناك خفايا أخرى ينبغي الوصول اليها، وأن الأمراض لم تبوّب كلها بحسب الألوان المنبعثة عن أمصال الدم ، فان تحسيناً بيناً في دقة الجهاز المستعمل في ذلك البحث ، قد أعان الأطباء على أن يعرفوا أن الانبثاق اللوني في بعض الأمراض يتضمن خطوطاً تكون مفقودة في غيرها .

وتقدم دكتور « هاجان » من جامعة كولوني خطوة أخرى في تحسين هذه الوسيلة . فهنالك قُصَيّات (bacteria) خاصة وجراثيم أخرى صغيرة جداً الصغر، حتى لا تكشفها المجاهر العادية . وهذه تدعى المترشحات (Viruses) وتحدث أمراضاً مثل مرض الببغاء والحصبة والحمى الصفراء . فاذا نظر في هذه المترشحات من خلال الضوء الأسود ، فانها تعطي ألواناً شفافة . وهذا البحث ما يزال في بداياته ، وقد يحدث في المستقبل أن يمكن الكشف عن هذه العضويات من طريق تلك الألوان النوعية ، التي تنعكس منها تحت تأثير الضوء الأسود .

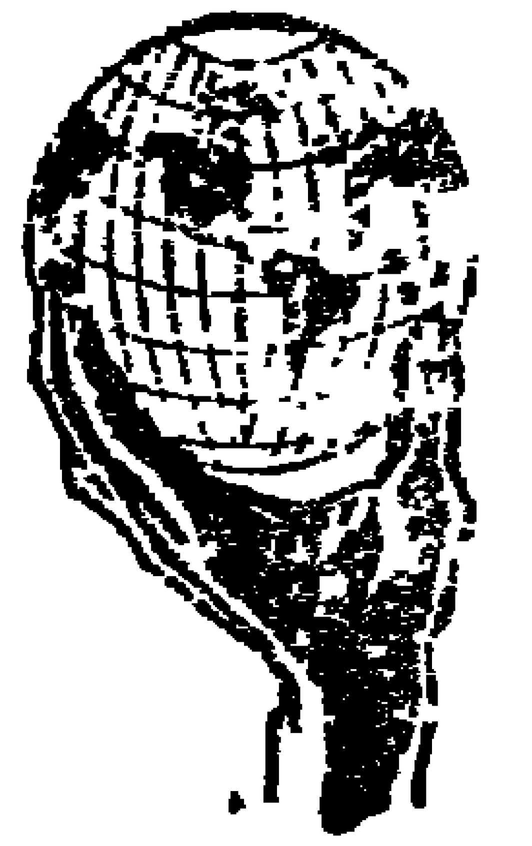

قمة الدنيا

إلهامك الروحي قد يرفعك لحظات إليها

« سوف تقاسي آلاماً وتلقى كروبا عقلية . ستشعر بأنك منكور من كل انسان . ستخان . سيخيل اليك انه لم يبق لك من شيء في هذه الحياة. ولـكن كل هذا الحزن سوف يمضي . ستعطى أكثر مما أملت أو تصورت. ستكون رجلا عظيما، في يديك قوة ، ويحف بك الغنى والشرف. لا تخف . هذا ما سطر »

ألم تشعر يوماً بأنك تتوقع حدوث شيء لا تعلم ما هو ولا ما هي علاقتك به ؟ ألم تفعل شيئاً مجبراً ولا تعلم لماذا فعلته ، فردَّ عنك عادية أو وجهك توجيهاً ترضاه ؟ نعم قد اتفق مثل ذلك للكثيرين منا ، واتفق أكثر منه للقلائل من الذين أحاطت بهم ظروف بلغت من اليأس حد التسليم بالقدر المقدور . ولا شك عندي في أن لتلك المنزلة التي قال بها بعض المتصوفين وسموها حالة الكَشْف ، حقيقة ترجع اليها في الطبيعة الانسانية. وليست هي من الأشياء التي يبحثها العلم بطرقه المعروفة ، وهي طرق تعتمد أول شيء على الحواس ، وإنما هي أشياء ترجع إلى ما سماه الفلاسفة « عالم المجهول » . فالعلم لم يصل إلى كل شيء ، ولا يدعي القدرة على الوصول إلى كل شيء . ولـكن « عالم المجهول » درجات تبدأ من حقيقة علمية بسيطة أو قانون كيمياوي أو طبيعي يكون تحت يدنا ويغيب عنا كشفه ، إلى الظاهرات الفذة التي لا يعللها العلم ولا يحللها العقل ، الاَّ بطريق واحد ، طريق الاعتراف بالعجز إزاءها

هذه حادثة واقعية نرويها وسنذكر مصدرها وشخصيها ، ولا يزالان معنا وفي عصرنا. نطلب لها تعليلاً ممن يستطيع أن يعللها ، على أن لا ترد إلى « المجهول » ، الذي هو في الواقع اعتراف بالعجز عن التعليل .

***

كانا في الصحراء . في جوف الصحراء الواسعة المترامية الأطراف . سيد وسيدة ، كلاهما تلقى العلم في أرقى الجامعات ، وكلاهما يعرف أن الصحراء غول لا صديق له . نفد الماء

وعلف الدواب ، ومعهما رجال من الأدلاء والحراس، والعمران قصي بعيد ، والاتجاه في أيّ متجه من غير علم به ، معناه الموت المحقق في جوف الرمال . وكانا يبحثان عن واحة مجهولة قطعا اليها طريقاً غير مسلوك . نزل بهما الهم وأخذ منهما ومن رجالها القنوط ، ، فأنيخت الابل وحلّت القافلة في ذلك القفر لا مؤنس لها إلاّ الاعتقاد بأن الارادة السرمدية نافذة فيهم لا محالة : فإما طريق إلى الدنيا ، وإما طريق إلى الآخرة .

حلم السيد حلماً، وهو بعد ممن لم يعكفوا على التصوف يوماً واحداً من أيام حياتهم. حلم بامرأة بيضاء أو إنها تلبس البياض ، لم يستطع أن يصفها ، ولكنها تنبأت بما سوف يقع ، وتكلمت ولكن بلغة الرموز . ولكن هذا الحلم قد اتخذ أول الأمر موضع تسلية ومحل سخرية . ولكن السيد أكد أن ما رأى ليس حلماً . لقد كان أكثر من حلم . إنها رؤيا تكاد تكون في يقظة غير تامة ، في صحوة عقل مضطرب من هول الموقف .

وقفت تلك المرأة التي تراءت له إلى جانبه في الصحراء بقربة من محط الرحال . وكان يرى خيالها على الأرض في ضوء النجوم ، ورأى آثار قدميها في الرمال ،قالت له — « لا تنزعج ، سوف تصل ...... ولكن عليك أن تقتحم ثلاثة حوائط قبل أن تصل . وقبيل النهاية ستضطر إلى تغيير طريق سيرك لتتقي بذلك أجساماً ميتة »

في الصباح جلس السيد والسيدة يناقشان في هذه الرؤيا . ولكنهما لم يشكّا هذه المرة في حقيقة الامر ، وعللا الحوائط بعقبات سوف تصادفهما ، عقبات انسانية أو طبيعية ، سوف يجتازانها، وعلّلا الاجسام الميتة بموقعة تحصل .

في خلال الأسابيع التي تلت تلك الرؤيا، أحيط بهم ثلاث مرات . أحاط بهم بدو معادون . وسجنوا في الخيام هما ورجالها ، والبدو من حولهم ينافشون في قتلهم ، وطريقة القتل . وظلاّ على ذلك حتى أدركهم من أنقذهم .

فلما كان آخر يوم في رحلتهم بين الكثبان المتموجة، اضطروا إلى الدوران حول وادٍ عميق فيه جثث أموات لصقت عضلاتهم الصفر بعظامهم. جثث آدميين ودواب. هذه قافلة قتلها العطش.

رأى السيد بعد ذلك رؤيا ثانية . في جوف تلك الصحراء المجرودة الصماء التي لم تخترقها قافلة من قبل ، رأى تلك المرأة في ثوب أبيض مقبلة نحوه من خلال الرمال الواسعة : وقالت له : « خذ السلسلة التي تعلقها في عنقك وتعال معي إلى قمة هذا الكثيب . ثم أدفنها هنالك. وفي الصباح ، إذا حضرت لتأخذها ، سوف ترى آثار قدميك وقدمي معاً . وبذلك تعرف أنك لم تكن في حلم » .

فعل السيد كما أمر، فلما انحدرا من فوق الكثيب قالت له المرأة: « سوف تقاسي آلاماً وتلقى كروباً عقلية. ستشعر بأنك منكور من كل انسان. ستخان. سيخيل اليك إنه لم يبق لك من شيء في هذه الحياة. ولكن كل هذا الحزن، سوف يمضي. ستعطى أكثر مما أملت أو تصورت. ستكون رجلاً عظيماً، في يديك قوة، ويحف بك الغنى والشرف. لا تخف. هذا ما سُطِّر ».

فسألها السيد: وما بال السيدة التي معي؟ ماذا سيحل بها »

وفي اليوم التالي قصَّ السيد على رفيقته كيف أن الصوت الذي كان يخاطبه قد تلعثم وارتبك، فأصبح أقرب إلى البشرية، وتفوَّه بكلمات تخللها توقف وتفكير: هذه معانيها — « لا أعرف شيئاً عنها. إنها ليست من ملتنا. ولا أعرف لماذا ..... ولكنها سوف تنجو في كل الظروف. هذا محقق. سيحيط بها خطر عظيم، ولكن لا يصيبها شيء. سيحل بها حزن ويأس، ولكنها ستنجو دائماً. ليس في يدها دفع شيء. ليس ذلك في طوق ارادتها. ستسلك طرقاً عجيبة، قد تؤدي إلى الموت — ولكن ليس من نصيبها أن تموت في ذلك. هذا ما كتب. سوف تنجو ».

عند ما ظهر الفجر الكاذب خيطاً أبيض الاهاب باهت اللون فويق الأفق، مبشراً باقتراب الشمس من البزوغ على رمال الصحراء المترامية، اصطحب السيد رفيقته، وأراها آثار أقدامه ذاهبة إلى أعلا الكثيب، ثم هابطة منه، وإلى جانبها آثار ظاهرة جلية متجانسة الخطو. كانت آثار قدمين عاريتين، ضغطتا على الرمل ضغطاً خفيفاً ليناً، والنسمات من ورائها تسفي عليها الرمال الناعمة.

نظرا إلى هذه الآثار في صمت عميق. وفي صمت أبلغ اخنفرا السلسلة من حيث قال السيد. أما آثار القدمين العاريتين فانحدرت نحو الصحراء العريضة الغيبة الاسرار. هنالك كانا على بُعد بضعة مئات من الأميال عن كل مكان مأهول.

***

أما السيد فهو أحمد محمد حسنين باشا. وأما السيدة فالمؤلفة الجوالة روزيتا فوربس. وأما الرواية ففي كتابها Gypsy of the Sun — في الصفحات ٤٥ و٤٦ و ٤٧ طبعة Cassel.

***

ألا يحق لنا أن نعتقد ان الالهام الروحي قد يرفع الانسان لحظات يكون فيها فوق قمة الدنيا فيغزو العالم المجهول، من غير أن يدرك كيف غزاه؟

عرف العرب اميركة

قبل أن يعرفها أبناء الغرب[1]

كان العرب منذ أقدم الأزمنة ، وقبل المسيح بكثير ، يختلفون الى جزر واقعة في جنوب غربي بريطانية العظمى ، تلكم الجزر التي كان يسميها اليونانيون يومئذٍ (جزر القصدير) ، وبلسانهم Kasseterides ومنه اسم القلعي عندنا أي القصدير المعروف باسم منجمه .

وذهاب أبناء قحطان الى تلكم الربوع النائية يدل على أمور جمة :

منها : أنهم كانوا يتقنون الملاحة إتقاناً عجيباً ، بدليل ما ذهبوا إليه من البلدان الشاسعة

ومنها : أنهم كانوا يبرعون في بناية السفن ، باحكام عظيم ، لتتمكن من مصارعة أهوال الغمار والمحيطات ، ولكي لا تتصدع ولا تتفسخ ، ومن ثمَّ لا تغرق .

ومنها : انهم كانوا بارعين في الهندسة ، حتى إنهم تمكنوا من نشر الجواري المنشآت نشراً متساوي الجوانب والأحناء والأجزاء ، حتى لا تمزقها اللجج المتلاطمة ولا يزيد فيها جزء على جزء ، فيثقل جانب ويخف آخر ، فيمتنع التوازن والتساوي فتعطب تلكم المواخر في اليمّ .

فكان هؤلاء السلف الأبطال ، الأنجاب ، الأنجاد ، يذهبون الى تلكم الربوع الأقاصي ، كأن قلوبهم قدّت من جلمود ، وانتزعت أفئدتهم من الأعبل والصوان . فكانوا اذا بلغوا تلكم الأصقاع ، يستخرجون منها القصدير أي القلعي الذي نسميه نحن « القلاي » في هذا العهد ، ثم ينقلونه إلى ديارهم العامرة على تلكم المواخر ، فيبيعونه بأثمان باهظة ، لأنهم كانوا يتخذون منه ما يقوي التبرنسة .

هذا وتجارة العرب ، معروفة ومشهورة منذ القدم والأزمنة الواغلة في الماضي ، وبيع إخوة يوسف شقيقهم لبني إسماعيل أشهر من أن يذكر ، وذلك قبل الميلاد بأكثر من ألفي سنة

---

(١) خطبة القاها الاب انستاس ماري الكرملي في قاعة فيصل الثاني في بغداد في ٦ كانون الاول (د■) ١٩٤٤

وقد تعلمَّ بعض النــاس من العرب ، استخراج القصدير من تلك الجزر فتأثروهم في صناعتهم وتجارتهم . فكان فيهم الفنيقيون والقرطاجنيون . والرومان ، واليونان ، وغيرهم . ذكر كل ذلك هيرودوتس أبو التاريخ في ٣ : ١١٥ ، واسترابون في الباب ٢ في الفصل ١١

أمَّا ما اسم تلكم الجزر في عهدنا هذا فيظن الحذاق جميعهم انها المسماة Iles Sorlingues وبالانكليزية Scilly islands وهي واقعة في خليج المانش على ساحل كونتية كورنوايل Cornwall وهذا دليل على ان صداقتنا للانكليز من أعرق جميع الصداقات .

بسطت لديكم الدليل الأول ، نقلاً عن هيرودوتس أبي التاريخ ، المتوفى في المائة الخامسة قبل الميلاد ، وعن استرابون ، المتوفى في الأيام الاخيرة ، من عهد طيباريوس قيصر ، أي في تأناة النصرانية . والآن أذكر لكم الدليل الثاني ، وهو : يرى المفكرون البصراء من أهل البحث في هذا العصر ، أن أبناء العروبة ، عرفوا التيار المشهور في هـذا العهد بالاسم الانكليزي Gul Stream أي تيار الخليج ، وهو تيار عظيم ينساب في المحيط الاتلانتي ، الذي يسميه ابن خلدون : (المحيط اللبلابي) وينشأ من خليج المكسيك ، مارًّا بقناة بهاما ، ثم يلاعب سواحل أميركة الجنوبيـة ، ويسايرها إلى الدرجة ٤٠° من العرض الشمالي ، ثم ينحدر إلى جنوب الجنوب الشرقي .

ويذهب أمير موناكو البحَّار الشهير ، والبحاثة الخطير ، إلى أن سواحل أوربة تتدفق على وجهها بسط من المياه هي غير مياه تيَّـار الخليج ، اللهمَّ إلاَّ القليل النزر منها الذي لا يلتفت اليه . هذا وتبقى مجاري هــذا التيار دافئة . فتكسر شيئاً من برد إرلندة ، لأن تلكم المياه تبلغها ، كما تصل إلى انكلترة ونروج .

وهذا التيار نفسه يفيض على بحار أوربة ، كما يفيض عليها أيضاً تيار انك رَنَّـل Rennell وخليج غسكونية ، ويستدل على هذا التيار بحرارة مياهه ، إذ قد تبلغ ٣٠° درجة مئوية فوق الصفر ، في أول اندفاعها . ومن علائمه أيضاً لون مياهه الزرق ، وملوحتها البليغة — وأول من عرف أمور هذا التيار بُنْـس دي لاون Ponce de Lèon في المائة الـ١٦ ، ثم درسها حاق الدرسً موري Maury في زماننا هــذا ، ثم أمير موناكو البحَّـار البحاثة الذائع الصيت .

وسبق العرب سائر الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصه ، وإلى حركته من المكسيك الى أرلندة ، ومن هذه الى تلك ، فكانوا يركبونه من موضع إلى موطن ، بحيث كانوا يدهشون سكان جزر المانش ، أي جزر القصدير ، وأهـالي جزيرة ارلندة . فكانوا إذا

ظعنوا الى أنحاء المكسيك ، مكث بعضهم فيها ، وعاد القليلون منهم إلى بلادهم . راكبين متن ذلك التيار المبارك ، مسبحين ربهم ، مباركين مسلّمهم .

ونعرف أنهم كانوا يقيمون في الديار التي عرفت بعد ذلك بالمكسيك ، من أسماء الحيوانات التي سموها بها ، وهي أسام تعرف بها الى اليوم ، لكن لا يفقه أهلها معانيها ، ولا علماء الغرب الذين اتخذوها هم أيضاً محافظين عليها محافظتهم على حياتهم ، فقد أعيت لغوييهم على اختلاف قومياتهم ، حتى المعاصرين من أجلة لغوييهم ، فاذا جاءوا إلى ذكر أصول تلك الحروف ، قالوا : « هكذا في لغة أهل تلك الارجاء » ولا يذهبون الى أبعد من هذا النقل الضعيف ، الذي لا يقنع صغيرهم فضلاً عن كبيرهم .

ولو كانوا واقفين على تاريخ نشأة بني يعرب ونزولهم في تلك الربوع ، بل وصولهم إلى أقصى الخافقين ، واطلاعهم على أسرار لغتهم البديعة المبينة ، لاهتدوا إلى حل العقد ، وحل المعضل ، ولشكروا السلف الصالح ، على ما اوتوا من الحكمة ، وكشف الأسرار ، ووصف الغوامض وصفاً دقيقاً ، بتلك الحروف الخفيفة النقل .

هذا ، والألفاظ العلمية ، الموضوعة في علم الحيوان ، والطير ، والسمك ، والحشرات جمة لا تحصى . على أن ما لا يدرك كله ، لا يترك جله . وأنا أتلو على أسماعكم شيئاً نذراً من هذا القبيل ، لكي لا يرميني بعض الحاضرين ، بالتعصب الأعمى ، إذ كثيراً ما سمعت من بعض الذين يدرسون لغة الأجانب ، ولا يعرفون فتيلا من لغة الأعراب : « أنك يا هذا أعمى العينين ، بل أنت أكمه ، لم تر في حياتك النور البتة ، ولا يمكنك أن تراه ، فكيف تحبب لنا شيئاً لم تره ، ولم تعرفه » .

فكان هذا الكلام يضحكني ولا يزعزعني ، بل يثبتني في رأيي ومعتقدي .

وأما بعض هذه الألفاظ فنها : التمساح المسمى عندهم Alligator فانهم لم يعرفوا من أي لغة هي ، إنما يقولون إنها بلسان البلاد التي يعيش فيها . ولم يزيدوا على هذا القدر . أما أنها من لغتنا المضرية ، فما لا شك فيه ، لوجود العمامة والكوفية في رأسها ، أي الألف واللام ، وهي العمرة التي يمتاز بها القحطاني دون غيره . فهي (القاطور) المشتقة من قطره أي صرعه . وذلك أن هذا التمساح يصرع عدوه صرعاً شديداً ، يورده حياض الموت ! فهل من منكر معاند بعد هذا ؟

ومن أسمائه قيمان Caiman وتكتب أيضاً Cayman وأصلها قرمان ، من قرم الشيء بأسنانه اي قطعه ، وهذا التمساح حاد الأسنان ، يقطع عدوه نصفين ، إذا ما تناوله بها .

لـكن كيف قلبت الراء ياء؟ فهذا ما يفهمنا اياه الجاحظ هذا اللغوي العظيم . فقد قال في كتابه البيان والتبيين (١٧:١ من الطبعة الأولى المصرية : «منهم (أي من العرب) من إذا أراد أن يقول عمرو . قال : عمي ، فيجعل الراء ياء » ومن الأسف أن الجاحظ لم يذكر لنا اسم القبيلة التي كانت تلفظ هذا اللفظ أو تقلب الراء ياء ، لعلمنا اسم القبيلة التي نزلت في تلك الأرجاء النائية .

ولو اتسع لي الوقت — والوقت أضيق من سم الخياط ، — لذكرت لـكم مئات من الألفاظ ، إلا أني أحاول مسابقة الزمن ، لئلا تفوتني الفرصة التي أريد أن أبين فيها : أن الارلنديين لما رأوا العرب يأتون إلى ديارهم ، ثم يركبون متن تيار الخليج ، عرفوا أن في أقاصي البحر الاتلانتي ، بلاداً مأهولة ، وسكاناً متوحشين ، لا يعرفون من دين النصرانية شيئاً يذكر .

وأول من انتبه لهذا الأمر ، راهب اسمه Brendan برندان ، السائح البحّار ، المولود في فنت Fent من كونتية كَرّي Kerry سنة ٤٨٣ م . وهو من أصل شريف ، يرتقي إلى ملك ارلندة ، الذي رقي الـكرسي في المائة الأولى للمسيح . وقد أولع منذ حداثته بركوب الأخطار ، وما هناك من غرائب الأقطار ، فعزم على ارتياد المحيط الاتلانتي ، ومشاهدة ما وراءه من البر العظيم المجهول

ففي عام ٥٤٥ م ، تهيأ لتحقيق ما يختلج في صدره من الأماني ، مع أربعة عشر راهباً ، من مقتحمي الأهوال ، فابتنوا مركباً كبيراً ليستكشفوا ما هنالك ، ثم أخذوا معهم ، زاداً ، وماء ، وأدوات شتى ، لهذه الغاية — وفي مدة ١٢ يوماً سايرتهم الريح ، ثم هدأت ، وبقوا شهراً واحداً يقذفون بالمقاذيف ، وكانت الأراييح تسالمهم مرة ، وتخالفهم مرة أخرى ، وفي الآخر ، تراءت لهم أرض كانت جزيرة ، والمظنون أنها كانت إسـلندة التي معناها جزيرة الجلد ، لأنها كانت في شمالي ما رأوه . فرسوا عندها ، ومكثوا فيها ثلاثة أيام .

كان كلنبس يعرف هذه الرحلة

وفي السبعة الأعوام الأخيرة ، بحثوا عن الأرض المطلوبة المنشودة ، فسافروا إلى أسفل الهند الجنوبية من المحيط الاتلانتي ، وزاروا في جملة ما زاروا من الجزائر ، تلك المسماة بالخالدات عند العرب . أي الـكناري عند الغربيين ، ثم كلاًّ من تناريف Teneriffe وهيارو Hiero ولا يزال يروي أهالي تلك الارجاء مرور البحارة الارلندية ، بتلك المواطن . وفي تناريف ترى اليوم هيكل على اسم ذلك القديس أي برندان . وأما جزيرة هيارو ، فاسمه بقي فيها محفوظاً في شجرة غار ضخمة قديمة من ذلك العهد البعيد إلى يومنا .

وفي سنة ٥٥٢ ، نزل برندان ورفقاؤه على ساحل أميركة . ويرى في مخطوط عتيق ، وصف وجيز لما رأوه في تلك الديار . والنهر العظيم الذي يجري فيها ، ويظن إنه السيسيبي .

ولما عاد برندان من رحلته إلى وطنه ، حفظت روايتها في كتاب لاتيني العبارة ، وكان دوّنها أحد معاصريه ، ونسخ منها عدة نسخ . وأنفذت إلى أرجاء أوربة المختلفة ، وكان بثها المرسلون الارلنديون . — ويرى منها نسخة في خزانة الفاتيكان إلى يومنا هـذا . وقد قال أحد الثقات من جهابذة النقدة : إنها كتبت في المائة التاسعة . — وفي الخزانة الوطنيـة في باريس ، إحدى عشرة نسخة خطية ، تروي رحلة برندان المذكور .

وبعد سفرة برندان ، ترى عدة أدلة على أن رهباناً ارلنـديين آخرين ، ركبوا المحيط الاتلانتي بعد ذلك ، وكانوا على سفن ضعيفة ، ليقوموا بواجبات المرسلين في العالم الحديث وذلك في المائة الثامنة . وكانت تمتد أعمالهم من ساحل جون شيساپيك في أسفله ، إلى أدنى كارولينة وفلوريدة . وقد عرف تلك الأرجاء كلها عدد وافر من الارلنديين .

ولا جرم ، أن كلنبس كان واقفاً أتم الوقوف على خبر رحلة برندان ، فتمكن من أن يقنع الملك فردينند ، والملكة ايزابلـة ، بأن يوافقا على هذه الرحلة . للبحث عن العالم الجديد فقنعا في الآخر ، وكل ذلك بفضل ما اطلع عليه من الرحلة المذكورة في تلك المخطوطات النفيسة

الخاتمـة

فهذا ، يا سادتي الفضلاء ، مجمل ما يقال في هذا الموضوع ، وأما التفاصيل فطويلة مملة . لا تزيدكم فائدة أعظم . ويلخص كلامي هذا كما يأتي :

إن أبناء يعرب القدامى ، ولا سيما أولئك الذين كانوا يجاورون ثغور البحار ، يركبون السفن التي كانوا ينشرونها بأيديهم ، فيجوبون بها المحيطات ، فوصلوا في أول أسفارهم إلى جزر القصدير ، وهي في بحر المانش ، وعددها (١٤٥) خريصاً ، وبعـد ذلك عرفوا تيـار الخليج ، وهو المسمى عند الانـكليز Gulf Stream ، فاتخذوه ناقلا لهم ، إلى الربوع التي دعيت بعد ذلك بالمكسيك ، ومنها انبثوا إلى سـائر مدن أميركة ، من شمالية وجنوبية . فالعرب وسائر الأقوام التي حلت العالم الجديد عرفوا المـكسيك ، قبل أن يعرفوا سائر الديار الغربية من تلك الأرجاء . ولذا نرى فيها من الأسماء العربية العائدة إلى الحيوان والطير ، أكثر مما في سائر الانحاء الحديثة المعروفة ، بحيث لا يمكن لأحد أن ينكرها .

وقد اعتمدت في كل ما قررت هنا على مصنفات الأغراب أنفسهم ، إلاّ ما وجدته نبهاً بنفسي . وقع ذلك كله قبل المسيح وبعده ، لاسيما بعد اكتشاف تلك المنتأيات . هذا

وانا أتحدّى كل أديب ينكر عليّ هذه الحقائق ، أن يفندها تفنيداً علمياً ، إما على طريق التاريخ ، وإما على سبيل اللغة ، وإما على سبيل النقل عن السلف ، بشرط أن يكون هذا التفنيد طلباً للحقيقة ، لا للمماحكة والمعارضة ، والمعاندة ، والمباهاة والادعاء الفارغ . وأن يكون بأدلة صادقة مقنعة ، خالية من كل تمويهٍ وتشويه .

نعم ، إن الذين ينكرون هذه الحقائق هم الأجانب الذين لا يعجبهم أن يسمعوا كل مديح بحق العرب ، أو أولئك المتعربون ، أو المتفرنجون ، الشعوبية الذين يغمطون حق كل ناطق بالضاد ، وإن بان فضله وعلمه . فهؤلاء جميعهم من القوم الخاسرين الخاسئين ، ولا يلتفت إلى مزاعمهم ، فالاعتماد على الشباب المنوَّر ، الذين عليهم المستقبل وعساهم أن يزدادوا عدداً كلما زدنا تقدماً في الأيام . وعليه تعالى تحقيق الأحلام .

مراجعنا

1 — Martyrologium Romanum

2 — M. — N. Bouillet. — Dic. universel d'His. et de Geog. art. Cassiterides.

3 — Nouveau Larousse illustré. T. II Art. Brendan.

4 — Nelson's Encyclopaedia. Vol. IV art. Brendan (St.)

5 — Encyclopaedia Britannica-art. Brendan

6 — C. Wahlund : Die alfrezosishe Prosa Ubersetzung von Brendans Meerfahrt (Upsala, 1900)

7 — F. Novati : La navigatio Sancti Brendani in antico Veneziano, (Bergamo, 1892)

8 — G. Schirmer. — Zur Brendanus—Legende, etc. (Leipzig, 1888)

9 — F. Michel : Les Voyages Merveilleux de St. Brendan, etc. (Paris 1872).

(10) — R. F. Moran : Acta Sancti Brendani, Original Latin Documents connected witth the Life of Saint Brendan. (Dublin 1872)

11 — Tit - Bits No. 3192 Friday, 7th. April 1944 .

12 — Pierre Larousse — Grand Dictionnaire Universel du XIX Siecle. — Paris

١٣ — المقتطف ١٠٥ : ٣١٧ وما يليها .

١٤ — مجلة المجمع العلمي العربي — ١٩ : ٣١٥ وما يليها الى غيرها من الكتب والمجلات والصحف.

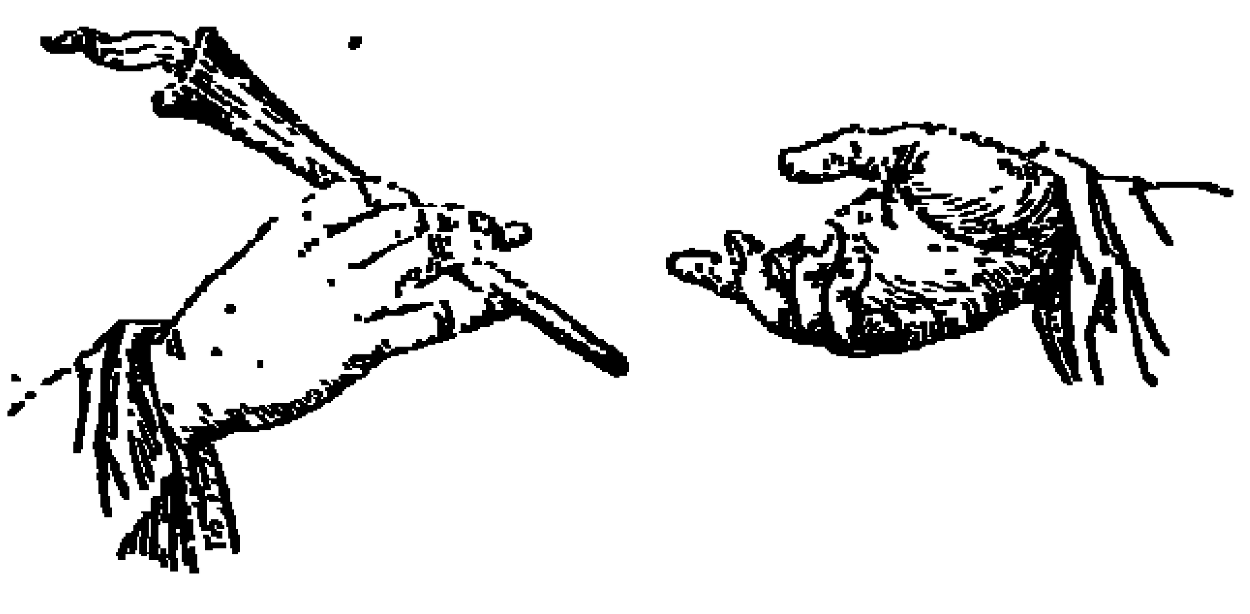

وحدة الوجود

أمذهب أم فكرة ؟

« ان وحدة الوجود ليست إلا نزعة او اتجاهاً عقلياً بسيطاً أريد به التخلص من مشكلة كبرى ، فأدى القول به الى مشكلة اكبر »

كثر التحدث في العهد الأخير في وحدة الوجود ، وتقدم الكلام في هذا الموضوع طائفة من جلة أدبائنا ، فتفرقوا فيه شيعاً ، ومضوا في بحثه أحزاباً وفرقاً ، على أن كل ذلك انما يدل دلالة واضحة على أننا في صحوة من الفكر ، ويقظة في متابعة الدرس ، تحمد للذين أقاموا الدليل عليها ببحوثهم ، أنهم كانوا تراجمة أمناء على البحث والتقصي .

ولا شك عندي في أن هذه الظاهرة لها دلالة أخرى لاتقل من يقظة الفكر شأناً ومكانة . تلك ناحية أن الفكر المصري قد أخذ يستعمق في الدراسات الفلسفية ، وانه ألف أن يظل بعيداً عن التسامي إلى آفاق الفكر البعيدة .

غير أن تلك البحوث التي مضى فيها هؤلاء الأساتذة الأجلاء قد نقصتها ناحية ذات بال من نواحي التأمل . فقد مضى بعضهم في البحث على أن وحدة الوجود مذهب ، فقال في بحوثه ان مذهب وحدة الوجود كذا ، وان مذهب وحدة الوجود كيت ، من غير أن يقيم الدليل على أنه مذهب صحيح له شعابه المترامية ومفازاته القصية وله حقائقه وغيبياته ، شأن جميع المذاهب الكبرى في الفلسفة . فليس لوحدة الوجود من الأصول والفروع مثلاً ، ما لمذهب المادية أو الروحانية أو مذهب الكلام عند النصارى وعند المسلمين ، أو مذهب الألوهية عند المتألهين ، أو مذهب الشكية عند اصحاب الشك ، أو مذهب اللاأدرية عند اللاأدريين أو مذهب اللادينية عند من يثبتون الله وينفون الأديان ، أو مذهب الجبرية أو القدرية أو المشبهة أو المعطلة . فجماع هذه مذاهب تقوم على فكرة هي الأساس ، تتشعب من حولها فروع وشعب من الفكر لا نهاية لها . فهل في القول بوحدة الوجود شيء من ذلك ؟ لم يتكلم أحد من الباحثين في هذا . وكان من الواجب أن يقوم البحث بداءة ذي بدء على أساس ثابت يكون بمثابة البورة تنبعث منها أشعة تترامى في شعاب الفكر .

إن كلمة Pantheism — من حيث التخريج اللغوي معناها القول بأن الكل هو الله

أو أنَّ الله هو الكل . ولما كان الفكر قد يتراوح بين القول بأن الكل لله أو أن الله الكل، فقد حتم أن يكون لهذا القول وجهان :

فاذا بدأت من حيث انتهى المعتقد الديني أو الايمان الفلسفي بالله وانه حقيقة لانهائية سرمدية ، إذن فالعالم النهائي الموقوت يندمج في الله ، وهنا تلبس وحدة الوجود ثوب اللاكونية — Acosmism — أي ان المادة ليست غير خيال إلى جانب الله الذي هو الحقيقة الثابتة . أما إذا بدأت من حيث انتهى المعتقد العلمي أو الصورة الشعرية للمادة باعتبارها وحدة ، فان الله يندمج في المادة وتلبس وحدة الوجود ثوب « الوحدة الكونية » — Pancosmism . والأولى نظرة إلـهية ، والثانية نظرة معطلة (تنكر وجود الله) .

والتفسير المنطقي البسيط لتينك النزعتين هو أنك إذا قلت بأن « الكل لله » أثبت وجود الله وان لا شيء خارج عنه ، وعطلت وجود المادة . وإذا قلت بأن « الله الكل » أثبت وجود المادة وان لا شيء خارج عنها ، وعطلت وجود الله . هذا على أن لا نغفل أبداً عن أن لكل من الوجهتين معضلات عقلية ممضة لا تنتهي من إحداها إلا لتقع في أعضل منها . وعلى هذه الوتيرة ظل الفكر الانساني ازاء هذه القولة منذ أقدم العصور حتى الآن ولم يخط خطوة واحدة الى الأمام .

وعندي أن القول بوحدة الوجود ليس مذهباً فلسفيًّا ولاهو فكرة ترتد إلى أساس أولي في العقل . ومعنى انها ليست مذهباً أنها تدور وتتركز حول شيء واحد هو القول بأن الله والمادة واحد لا يتجزأ، من غير أن يرسل هذا القول ضوءًا على أية ناحية أخرى من نواحي المعرفة . فلا شعاب له ولا فكرات ولا تعمق في استبطان حقائق الوجود . ومعنى إنه ليس فكرة أنه لا منطق له يقوم عليه. فما هو مثلاً منطق القول بوحدة الوجود إذا نحن أردنا أن نحدد منطقها ؟ أما الحقيقة التي أومن بها ، فهي إن وحدة الوجود ليست إلاّ نزعة أو اتجاهاً عقليًّا بسيطاً أريد به التخلص من مشكلة كبرى ، فأدى القول به إلى مشكلة أكبر . بل لقد كان لذلك المتجه العقلي آثار أخلاقية نمسك القلم عنها لأنها إلى الرذيلة ونكران الفضائل كافة . كذلك كان لها سقطات فكرية يترفع عنها عقل سلم من محتملات القول بوحدة الوجود . وما قولك فيمن يقول « ما في الجُبَّة إلاّ الله ». سبحانه وتعالى.

قد يطلب الينا تبيان ذلك الشكل الذي حدا بالعقل إلى أن ينزع هذه النزعة ويتجه ذلك المتجه . وليس ذلك بمتعذر على من أدرك طرفاً من فلسفة القدماء . فالواقع الثابت أن وحدة الوجود لم تقم في العقل البشري إلاّ نتيجة للبحث في الله والقدم . فزاد القول بها مشكلة الله والقدم استعصاء على منطق العقل الصرف .

ما هي علاقة الله بذلك الاتجاه العقلي ؟

في الفلسفة مبحث يقال له السببية — Causality — مؤداه أن كل مسبب لا بد له من سبب ، وإن كل معلول لا بد له من علة ، والمسبب لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالسبب ، وكذلك المعلول فانه لا يوجد بذاته وإنما يوجد بوجود العلة . فاذا زال السبب أو العلة زال السبب وزال المعلول . هذا منطق بسيط جداً يخاطب عقل البسطاء ، كما يخاطب عقل النبغاء من أهل التأمل . وكفى أنه منطق العربي البسيط الذي يقول : الأثر يدل على المسير .

والعلة في منطق الفلسفة الاستنتاجية أنواع ، لا مجال للخوض فيها هنا . وإنما نقول إن محصل القول فيها أن العلة إذا كانت ناقصة تخلف عنها معلولها ، فاذا تمت فلا بد إذن من وجود المعلول . مثلاً : إذا وجد الخشب والأدوات والنجار ، فهل يكفي ذلك لوجود الكرسي . كلا . ذلك بان هذه الأشياء تكون علة ناقصة . فاذا أضيف إلى ذلك الارادة ، كملت العلة ، وإذن يقوم المعلول ، وهو الكرسي .

والله لا شك علة العلل ، فلا مناص من القول بانه علة كاملة ، لا يتخلف عنها معلولها بصورة من الصور . ولا شك أيضاً في أنه قديم . لأن الحدوث مستحيل عليه باعتباره من صفات المعلولات ، لا من صفات العلل الغائية .

إذا انتهينا من ذلك وجب أن نعتقد ان لله معلولاً أعظم لا يتخلف عنه ولا يشاركه في صفاته التي من اخصها القدم . فهل المادة التي هي المعلول الأعظم للعلة الغائية ، قديمة أم حادثة ؟ فاذا قيل بأنها حادثة تساءلنا كيف حدثت ؟ وهل يمكن خلق شيء من لا شيء ؟ أو محو شيء الى لا شيء ؟

فاذا قيل بقدم المادة ، شاركت المادة الله في قدمه . وإذا قيل بحدوثها ، كانت الطامة على العقل أعظم وأكبر . فانها اذا كانت حادثة دلّ ذلك منطقاً على ان الله كان علة ناقصة فلما كملت حدث المعلول . وذلك ما لا يقول به أحد من أصحاب الألوهية على اطلاق القول .

هنا نزع العقل الى وحدة الوجود ، لا لشيء ، إلاّ ليتخلص من مشكلة العلة والمعلول والقدم والحدوث ، فقال إن الله والعالم ، وبالأحرى أن الله والمادة ، وحدة لا تنفصم . هذا ليخلص من نضارب المنطق عند البحث في الله والقدم .

غير ان ذلك أدّى إلى مشاكل أعظم . فأنت وأنا والجوامد والسوائل وما يعقل وما لا يعقل أجزاء في تلك الوحدة ! هنا تنتفي كل القيم التي قدّسها العقل وساق اليها التأمل في الالوهية . تلك هي نزعة العقل إلى وحدة الوجود . نزعة أراد العقل بها التخلص من مشكلة كبرى ، فوقع في مشكلة أكبر .

كل مرحاً

تعش طويلاً

النحفاء والسمان على السواء في اشد الحاجة الى مزج طعامهم بالفواكه وعصير الخضر . ولا تساعد هذه المواد على الهضم وحسب، بل ترهف الجهاز الهضمي برمته ، وتزود الدم بحاجته من الفيتامين.

لا تزدحم بالطعام. فإن هضم الاغذية عمل طويل تقوم به أعضاء مختلفة : المعدة والكبد والبنقراس . فاذا أرهقتها بالعمل احتجت . وسوء الهضم هي طريقة الاحتجاج .

كل بتؤدة . وهذا من أهم الأشياء . فان ازدراد الطعام بغير مضغ جيد من أخطر الأشياء . فالأغذية النشوية كما نعلم جميعاً ينبغي أن تهضم في الفم . فخميرة البلياتين التي تكون في اللعاب هي التي تغير النشويات الى سكريات ينتفع بها الجسم . فاذا لم يختلط طعامك اختلاطاً كافياً بهذه الخميرة المهضمة يتبقى كثير منه بغير هضم فيفسد ويغير مظهرك الخارجي فكأنك مريض وفي الواقع انك متقل بغذاء غير مهضوم .

اترك متاعبك وانسها اذا جلست الى مائدتك . فلا شك في أن الهضم يتعطل تماماً اذا كانت الناحية الانفعالية في الانسان مضطربة ثائرة . ذلك بأن النواحي الطبيعية والانفعالية والعقلية في الانسان متصلة اتصالا وثيقاً في التكوين البشري وحالة كل منها تؤثر في صاحبتها تأثيراً قوياً . فاذا كنت في ثورة من الغضب أو موجة من الحزن فمن المستحسن أن تتخطى وجبة من أكلك . فانّ الطعام الذي تأكله وأنت في تلك الحال لا يفيدك أية فائدة وقد يحدث بك ضرراً بالغاً .

استرح بعد الوجبة . وان هذا لمن أفيد الشروط الصحية لمن هم في عمل مستمر . فانك اذا بدأت تعمل بعد الأكل مباشرة انجذب الدم من ناحية المعدة الى الدماغ واليدين . وهذا يعيق الهضم . فراحة نصف ساعة على الأقل بعد الأكل من أوجب الواجبات . ولا شك في أنك تعوض هـذا الوقت نشاطاً ومقدرة وانتاجاً عند ما تبدأ عملك .

ان الذين هم عرضة لسوء الهضم يكونون في العادة أقل مما ينبغي وزناً . فمن الحقـائق الثابتة أن النحفاء أكثر وقوعاً في سوء الهضم من اخوانهم المتوردي الخدود الممتلئي الأجسام . وذلك بسبب طبيعي. فان قناة الهضم في النحفاء أقصر منها في السمان . وهذا يسبب سرعة مرور الطعام فيبقى جزء منه غير مهضوم وغير ممثل . والطعام غير المهضوم مباءة للتخمر .

ومما يفيد أولئك الذين يقل وزنهم عن القدر الضروري أن يكتفوا على أكل الخضر مطبوخة ومعالجة بدهن نباتي . وذلك يبطيء مرور الطعام في القناة الهضمية فتتمكن العصارات الهضمية من ان تؤثر اثرها المطلوب في اتمام عملية الهضم.

وهنالك أمر آخر يهم النحفاء المصابين بسوء الهضم . فان خمس أو ست وجبات صغيرة أخلق بهم وأفيد لهم من ثلاث وجبات ضخام . فان كثرة الوجبات وقلة كميتها تخفف وطأة العمل على المعدة والجهاز الهضمي عامة ولا ترهقه دفعة واحـدة . ومن المرغوب فيه أن يقسموا أعمالهم فيجعلوها أقساطاً وأجزاء . ولـكن ليذكر هؤلاء أن المقصود بكثرة الوجبات وقلة كميتها أن تكون وجبات لا أكلات صغيرة بين أكلات كبيرة.

والنحفاء والسمان على السواء في أشد الاحتياج الى مزج طعامهم بالفواكه وعصير الخضر . ولا تساعد هذه المواد على الهضم وحسب بل ترهف الجهاز الهضمي بأجمعه وتزود الدم بحاجته من الفيتامين.

واليك سراً آخر. فانك اذا أخذت في اعادة بناء جهازك الهضمي فتجنب الاقراص المهضمة وبيكربونات الصودا . فان لديك من الوسائل الطبيعية ما هو أنجع منها في تفادي الحمو المعدي وحدوث الاحماض . فجزء من عصير الـكرفس وجزء يماثله من عصير البرتقال ممزوجين خير مزيج لازاحة متاعبك . خذ جزءا من هذا المزيج أول شيء في الصباح أو في أي وقت تشعر بالحاجة اليه .

تاريخ يومك

ما هو؟

التقويم العالمي يكفيك إلى نهاية الدهر

في التقويم العالمي كما وضعته جمعية التقويم العالمية في نيويورك ، قسمت السنة المكونة من ١٢ شهراً ارباعاً متساوية كل ربع منها ثلاثة أشهر او ١٣ اسبوعاً ايامها ٩١ يوماً ، على قاعدة ان ايام الاشهر هي ٣١ ـ ٣٠ ـ ٣٠ يوماً في كل منها ٢٦ يوماً اسبوعياً خلا ايام الآحاد . وكل الوحدات الزمنية تتفق في نهاية كل ربع سنة . والشهور الاوائل من الارباع تبدأ كلها بيوم الاحد وتنتهي يوم الثلاثاء . والشهور الثواني من الارباع تبدأ بيوم الاربعاء وتنتهي بيوم الخميس ، والشهور الثوالث تبدأ كلها بيوم الجمعة وتنتهي بيوم السبت.

في سنة ٤٧ ق . م . عمل يوليوس قيصر بمشورة « سوسيغانس» — Sosigenes — الفلكي السكندري ، وأصلح التقويم الروماني بأن أخرج من حساب التقويم دورة القمر ووضعها على أساس دورة الشمس . وبدأ التقويم اليولياني من أول يناير سنة ٤٥ ق.م ، وظلّ متبعاً حتى سنة ١٥٨٢ بعد الميلاد عندما أمر البابا غريغوريوس الثالث عشر باعادة النظر فيه . والتقويم الجديد ، الذي عرف فيما بعد بالتقويم الغريغوري ، قد اعترف به سنة ١٥٨٢ في كل من ايطاليا واسبانيا وبولاندا والبرتغال وفرنسا . أما دخوله في سويسرا فكان تدريجاً . وبدىء به في سنة ١٥٨٢ وأكمل سنة ١٨١٢ ، فاعترفت به أكثر الدول الجرمانية التابعة للمذهب الروماني الكاثوليكي ، والفلاندر والأراضي المنخفضة سنة ١٥٨٣ ، وقبلته هنغاريا سنة ١٥٨٧ ، والمانيا البروتستانتية سنة ١٧٠٠ ، وصدّق البرلمان البريطاني على التقويم الغريغوري سنة ١٧٥١ ، وطبق على الأمبراطورية البريطانية بأمر ملكي سنة ١٧٥٢ ، وأخذت به السويد سنة ١٧٥٣ ، وأرجعه نابليون في فرنسا سنة ١٨٠٦ مستبدلاً به تقويم الثورة الفرنسية ، واستعملته اليابان سنة ١٨٧٣ والصين الجمهورية سنة ١٩١٢ ، وبلغاريا سنة ١٩١٦ وروسيا السوفيتية سنة ١٩١٨ ، ورومانيا واليونان سنة ١٩٢٤ ، وتركيا سنة ١٩٢٧ .

ومع هذا فان التقويم الغريغوري لم يعم استعماله . ففي العالم تقاويم كثيرة بخلاف التقويمين اليولياني والغريغوري ، منها التقويم الصيني وهو تقويم قمري شمسي ويجري عليه بطريق مباشر أو غير مباشر ٤٥٠ مليوناً من الانفس في أسيا . ومنها التقويم الاسلامي ويجري عليه ٢٧٥ مليوناً في أسيا وإفريقية ، هذا بخلاف ١٧ تقويماً متفرقة يجري عليها ٣٢٠ مليوناً في الهند . والتقويم الهجري لا يزال معترفاً به في تركيا وفارس وبلاد العرب ومصر وأجزاء من الهند . ويبدأ من أول يوم في الشهر الذي وقعت فيه الهجرة المحمدية من مكة الى المدينة . وكان هذا اليوم على التحقيق يوم ١٦ من يولية سنة ٦٢٢ ميلادية وأشهرها قمرية تبدأ بشروق القمر أول كل شهر ، والتقويم الهجري ليس فيه اضافات تجعله جارياً على حسب تغيير الفصول بدورة الشمس ، فسنواته تتراوح بين الفصول في خلال ٣٢½ سنة .

***

وتجري الهند الآن على ١٤ تقويماً رئيسيًّا بالاضافة الى التقاويم الغريغوري والهجري والعبري . وفيها تقاويم متفرقة تتبع في مقاطعات مختلفة من المملكة . فالأسامي والبنغالي والبرمي والكوجراتي (بمقاطعة بومباي) والهندو والكنارسي (في ميسور بغربي الهند وأجزاء من مدراس) ومهراشترا (جنوبي بومباي وبونا وغيرها) والملايي (في ملابار) والمرْواري (في أقاليم مَرواد ويستعمله التجار في جميع أنحاء الهند) والاوراني (في أوريسا وجزء من مدراس والجزء الأعظم من بهار) والبارسي والبنجابي والطميل (في جنوبي الهند وسيلان) والتلوجو (في شمالي مدراس) .

ولتضارب هذه التقاويم أثر ظاهر في أنحاء المملكة الهندية . ويقول موظفو حكومة الهند إن استعمالها جملة يحدث مشاكل كبيرة فضلاً عن انها تكلف الخزينة أموالاً تنفق في غير حاجة الى انفاقها . ومنذ زمن بعيد اعتادت الحكومة أن تطبع أربعة تقاويم منها هي : البنغالي والهندوكي والملايي والطميل ، في هيئة مجموعة للمراجعة وتتضمن أيضاً التقويمين الغريغوري والهجري . ولا تقل صفحات هذه المجموعة عن ٣٥٠٠ صفحة ولا بد من أن تتضمن عبور الشمس والقمر وبعض الأجرام السماوية الأخرى بخط الزوال كل يوم على مدى سنين متعاقبة . وجمع هذه التفرقات يحتاج ثلاثة أشهر ، وغالباً ما تحتاج إلى زمن أطول كثيراً . فاذا علمت أن هذه المجموعة تتضمن تغير الفصول بحسب التقاويم المختلفة والأعياد والاجازات الرسمية وكل التواريخ الهامة ، علمت ما يصرف في سبيلها من الجهد العظيم

وكثيراً ما أشارت الصحف البريطانية إلى ما في التقاويم الهندية من التعقيدات التي لا تبارى . قالت جريدة التيمس ذات مرة :

« يحدث في خلال ثلاثين سنة أن يأتي عامان أو ثلاثة أعوام متوالية يكون فيها عند المسلمين أيام حداد تعينها دورة التقويم القمري المتغايرة، فتتفق وأياماً تكون عند الهندوكيين أيام أعياد محددة بمقتضى التقويم الشمسي » .

***

ولقد قال « غاندي » ما يأتي :

« لا شك في أنه من المرغوب فيه أن يكون لأمتنا التي تبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٥٠ نسمة تقويم وطني واحد . ولما كانت كل التقاويم الهندية موضوعة على أساس الاثنى عشر شهراً، فمن السهل أن تلتقى كل التقاويم على هذه القاعدة . وإني أحبذ الأخذ بمثل هذا التقويم . وإني فوق ذلك أكثر ميلاً إلى تقويم عالمي عام ، كما اني أدعو إلى عملة واحدة تتخذ قاعدة للتعامل في كل ممالك الأرض ، وكذلك لغة واحدة لكل الشعوب » .

ان سكان الصين ، وقد بلغوا منذ زمن نيفاً وخمسمائة مليون نسمة — أي ربع تعداد الأنفس التي تسكن كرة الأرض — قد استعملوا منذ أزمان تفوت الذكريات تقويمين : التقويم القمري القديم ، وإلى جانبه تقويم شمسي يتبع الاشهر الفلكية بدقة تامة . ولقد ألغي التقويم القمري مع قيام الجمهورية، وحل مكانه التقويم الغريغوري . ولقد عملت الحكومة الوطنية تحت قيادة الزعيم « شنج كاي شك » على العمل بالتقويم الغريغوري . فصدرت المراسيم التي تحظر طبع التقويم الصيني القديم ونشره أو بيعه ، كما أن الحكومات المتعاقبة من سنة ١٩١١ قد عمدت إلى عدم الاعتراف بالعقود والمستندات التي تؤرخ بحسب الطريقة القديمة .

***

يقدر عدد سكان الدنيا بحوالي ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٢ نسمة ويقدر عدد اليهود من كل المذاهب بحوالي ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥ إلى ٠٠٠ر٠٠٠ر١٦ . والتقويم العبري الذي يستعمل الآن تقويم شمسي قمري ، فسنواته شمسية ، وشهوره قمرية . والتوفيق بين الدورتين الشمسية والقمرية يكبس شهر برمته في السنة الثالثة والسادسة والثامنة والحادية عشرة والرابعة عشرة والسابعة عشرة والتاسعة عشرة في دورة عدتها تسعة عشر عاماً . ولأسباب عملية مثل

ابتداء السبت عندهم ويبدأ بغروب الشمس ، يحصل خلاف ، اذا لاحظنا أن اليوم التقويمي في أربعة وعشرين سنة يبدأ دائماً في الساعة السادسة مساء . ويختلف الشهر العبري من ٢٩ الى ٣٠ يوماً ، وبذا يختلف عدد الأيام في السنة الواحدة فيكون المجموع عبارة عن ٢٩ يوماً و ١٢ ساعة ، و ٤٤ دقيقة و ٣ ½ ثانية مضروباً في ١٢ إذا كانت السنة بسيطة ، وفي ١٣ إذا كانت السنة كبيسة .

***

والتقويم الرسمي في يوغوسلافيا هو التقويم الغريغوري ، فهو المستعمل في كل العلاقات الرسمية ولا يستعمل موظفو الحكومة تقويماً غيره . ولكنهم في حياتهم الخاصة يتبعون التقويم اليولياني في تعيين الأيام والمعاملات . وعلى هذا جرى أكثر اليوغوسلاف إلى ما قبيل الحرب . وأكثر المسلمين في تلك البلاد ، ولو انهم « سُلافٌ » بالأصل ، يجرون على التقويم القمري الهجري . في حين ان اليهود ، يجرون على تقويمهم العبري .

ومن الظاهر ، بناءً على كل الخلافات القائمة بين التقاويم الحالية ، يحتاج العالم إلى تقويم عالمي عام . وقد ينزع الأكثرون إلى تحبيذ الأخذ بالتقويم الغريغوري ، ولكن الأفضل أن يدخل على هذا التقويم إصلاح طالما شعر الناس بالحاجة اليه .

ذلك بأن التقويم الغريغوري بعيد عن الكمال كما أبان عن ذلك ك . اندرسون في « صحيفة اصلاح التقويم » : قال —

« يتسامح كل منا في الجري على تقويم يختلف كل شهر وكل سنة . تقويم غير نظيم فيه شهران عدة كل منهما ٣١ يوماً ، هما يولية وأغسطس . وفيه شهران اثنان ، هما فبراير ومارس يبدآن دائماً بيوم معين في الأسبوع ، غير انهما ينتهيان في يومين مختلفين . وبذا نجد أنفسنا في حاجة دائماً إلى الرجوع إلى تقاويم سنين ماضية لنعرف كم يختلف تاريخ اليوم (الجمعة مثلاً) من الخميس في السنة الماضية . وهذا ما لا ينبغي أن يحدث فعلاً ، فيجب أن تكون تواريخ الأيام واحدة في كل السنين ، إذا استعملنا شيئاً من الحذق في وضع تقويم جديد» .

ان كل رجال الأعمال والاخصائيين ، ورجال العلم والتربية والمهندسين والمشترعين ، يعترفون بأنّ هنالك فوضى تحدث باستعمال التقويم الحالي ، وذلك لاختلاف تواريخ الأيام باختلاف السنين . فكيف نخلص من هذه المعضلة ؟ انظر أولاً في الجدول الآتي ثم اطلع على التفصيل .

يناير

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١	—	—	—	—

فبراير

أ	اث	ثل	أر	خ	ج	س
—	—	—	١	٢	٣	٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	—	—

مارس

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	—	—	١	٢
٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠

ابريل

ا	اث	ث	ار	خ	ج	س
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١	—	—	—	—

مايو

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	١	٢	٣	٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	—	—

يونيو

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	—	—	١	٢
٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
١٧	١٨	١٩	٢٠	٣١	٢٢	٢٣
٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠

٣١ سبت زائد (عيد عالمي كل ٤ سنوات) .

يوليو

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١	—	—	—	—

اغسطس

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	١	٢	٣	٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	—	—

سبتمبر

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	—	—	١	٢
٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠

اكتوبر

ا	اث	ثل	ار	خ	ج	س
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١	—	—	—	—

نوفمبر

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	١	٢	٣	٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	—	—

دسمبر

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	—	—	١	٢
٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠

٣١ سبت زائد (عيد عالمي كل سنة)

في التقويم العالمي ، كما وضعته جمعية التقويم العالمية في نيويورك ، قسمت السنة المكونة من ١٢ شهراً ارباعاً متساوية كل ربع منها ثلاثة أشهر أو ١٣ أسبوعاً أيامها ٩١ يوماً . وقسمت أيام الاشهر على قاعدة ٣١ — ٣٠ — ٣٠ يوماً ، وفي كل شهر منها ٢٦ يوماً أسبوعياً زائداً أيام الآحاد . وكل الوحدات الزمنية تتفق في نهاية كل ربع سنة

ويوم ٣١ ديسمبر في التقويم القديم هو سبت زائد ، وتبدأ السنة الميلادية يوم الاحد أول يناير .

ويوم ٢٩ فبراير في السنين الكبيسة في التقويم القديم يصبح يوم سبت زائداً ايضا يقع في آخر شهر يونيه ، وكل من السبتين الزائدين يعتبر عيداً عالمياً .

هذا تقويم جديد يضارع من حيث الضبط والدقة ساعتك التي تعين ثوانيك ، وهو التقويم الحديث الذي قسمت فيه السنة اثني عشر شهراً ، وزعت على أرباع متساوية . وهو المعروف بالتقويم العالمي . فكل سنة تبدأ بيوم أحد . وكذلك كل ربع سنة . والشهر الأول من كل من هذه الارباع عدته ٣١ يوماً وشهران عدتهما ٣٠ يوماً . وفي كل شهر ٢٦ يوماً اسبوعياً زائداً عليها أيام الآحاد . فتجد أن السنة قد قسمت إلى أربعة أرباع متساوية الزمن أي ٩١ يوماً أو ١٣ اسبوعاً أو ثلاثة أشهر . ووأضح من ذلك ان أيام السنة تبلغ ٣٦٤ يوماً فاذا أضفنا اليها يوم سبت زائداً في نهاية ديسمبر من كل سنة ليكون عيداً عالمياً ، كملت السنة ٣٦٥ يوماً وأصبحت ثابتة . ويتبع نفس هذا النظام في السنين الكبيسة حيث يقع اليوم الزائد في وسط السنة أي في يوم زائد بعد يوم ٣٠ يونية ، عدا اليوم الزائد سنوياً بعد ٣٠ ديسمبر .

فاذا عمل بهذا التقويم أصبح التأريخ مضبوطاً ضبط ساعتك التي تعيش بها يومك . فاذا وقع ميلادك يوم أربعاء من أية سنة ، فانه يتكرر في ذلك اليوم دائماً ، وبه يسجل اليوم والسنة على الاستمرار .

مأثورات

« ان من عرف فضل قوته على الضعفاء ، فاغتر بذلك في شأن الأقوياء ، قياساً لهم على الضعفاء ، كانت قوته وبالاً عليه »

***

« إن طالب الحق هو الذي يفلح ، وان قضي عليه ، وطالب الباطل مخصوم ، وإن قضي له . وليس لصاحب الدنيا في دنياه شيء ، لا مال ولا صديق سوى العمل الصالح يقدمه ، فذو العقل حقيق أن يكون سعيه في طلب ما يبقى ويعود نفعه عليه غداً ، وأن يمقت بسعيه فيما سوى ذلك من أمور الدنيا . فان منزلة المال عند العاقل بمنزلة المدر ، ومنزلة الناس عنده فيما يحب لهم من الخير ويكره من الشر ، بمنزلة نفسه ».

***

« وبعد فاعلم أن الفأس يقطع به الشجر ، فيعود ينبت ، والسيف يقطع به اللحم ، ثم يعود فيندمل . واللسان لا يندمل جرحه ولا تؤسى مقاطعه . والنصل من السهم يغيب في اللحم ، ثم ينزع فيخرج ، واشباه النصل من الكلام ، إذا وصلت إلى القلب ، لم تنزع ولم تستخرج . ولكل حريق مطفىء ، فللنار الماء ، وللسم الدواء ، وللحزن الصبر ، ونار الحقد لا تخبو ابداً » .

***

والعاقل وإن كان واثقاً بقوته وفضله ، لا ينبغي أن يحمله ذلك على أن يجلب العداوة على نفسه اتكالا على ما عنده من الرأي والقوة ، كما أنه وإن كان عنده الترياق لا ينبغي له ان يشرب السم اتكالا على ما عنده . وصاحب حسن العمل ، وان قصر به القول في مستقبل الامر ، كان فضله بيناً واضحاً في العاقبة والاختبار . وصاحب حسن القول ، وان أعجب الناس منه حسن صفته للامور ، لم تحمد عاقبة امره .

ابن المقفع : عن بيدبا الفيلسوف

صحيات

حذار

من أمراض البرد

« امراض البرد هي الطاعون الجديد ، تعطل الناس عن العمل ملايين الساعات ومضاعفاتها أكثر وأعظم أثراً من اي مرض آخر » .

قال بعضهم : « إذا أردت أن تتقي البرد فامضغ قليلاً من الثوم ، وبذلك يتقيك المصابون به فلا تنقل اليك العدوى » . والبرد من الأمراض المستعصية على العلاج ، فمنذ خمسة آلاف سنة لم يعثر على علاج شاف له . فهو مرض يأتي ويذهب على غير ارادتك . وفي الوقت الذي بني فيه الهرم الأكبر كانت أمراض البرد تعالج بنفس ماتعالج به الآن . ونحن لانعرف الجراثيم التي تسبب هذه الأمراض ، ولكننا لا نشك في انها معدية .

وتختلف اصابات البرد سنة عن سنة ، بل فصلاً عن فصل . لهذا شكّ الأطباء أن يكون نوعاً بعينه من المترشحات (Viruses) هي السبب في احداثها . ويعتقد دكتور «لوسيوس بوش » انها انما تحدث باجتماع عدة أنواعا أو ضروب من الجراثيم ، واستنتج من ذلك أن هذا الوباء قد يسبب لبعض المصابين به سعالاً دائماً في بعض الأحيان ، وقد يسبب رشحاً أنفيًّا أحياناً أخرى ، او التهاباً في الزور، وكل مجموعة من هذه الجراثيم لا بدّ من أن تنتقل من شخص لآخر ، فتغزو هذه المجموعة نفس المكان الذي أصيب به حامل المرض ، وتنتج أعراضاً مشابهة للاعراض التي تكون فيه .

كيف تبدأ اصابات البرد ؟

كيف نستطيع ان نعلل انتشار هذا الوباء ؟ وأين تحدث أول اصابة فينتشر منها المرض؟ والجواب على هذا السؤال ليس صعباً كما يتبادر اليك لأول وهلة . فكل الجراثيم التي تسبب اصابات البرد موجودة فعلاً في منطقة الزور في كل انسان صحيح الجسم . والغالب ان كل انسان يحمل قليلاً من ضروبها المختلفة وبين الناس من الاختلاف والتباين ما يحملنا على الاعتقاد بأن الصورة التي تلابس المرض انما ترجع الى استعداد أول من يصاب به . وقد تسأل كيف يستحدث البرد في أول من يقع فريسة له .

لجراثيم أمراض البرد ، ككل صنوف الجراثيم الأخرى كالسُّبَحيات Streptococci والمنقوديات Staphylococci التي تحدث الصديد ، تنتعش وتتكاثر إذا حبس عنها الهواء ولم يتصل بها . والحقيقة أن تلك الظاهرة هي من خصائص عدد كبير من الجراثيم المعدية . فالكزاز (التتانوس) وقصيات القولون Colon bacilli وكثير غيرها ، هي من هذا الطابع . فاذا اتصلت بالهواء ، فان ضررها يصبح قليلاً نسبيًّا ، فاذا حبست عن الهواء ولم تتصل به . تحدث الالتهابات بسرعة ، وتبدأ هذه الجراثيم في التكاثر بنسبة لا تصدق .

وقد يتفق لأول من يصاب بالبرد أن يجلس في تيار هوائي وجسمه دافىء ، فيسبب هذا تبريداً سريعاً في أنسجة العضلات فتنقبض وتسبب ضغطاً على بعض الأعصاب الرئيسية ، وبخاصة أجزاء الأعصاب عند تفرعها من النخاع . فتيار هوائي يصيب الرقبة قد يحدث تأثيراً في الأعصاب المنظمة للدورة في الرأس والزور ، فينتج عن ذلك ورم في الغشاء المخاطي الحاف بتلك الأجزاء . وهذا الورم او التضخم قد يظهر في صورة التهاب في الزور أو جفاف في الأنف . ولكن أهم ظاهرة في كل ذلك هو أن الأنف تسد فلا يتخلل الهواء كل أجزائها في تلك الأجزاء التي لا يصل اليها الهواء تأخذ الجراثيم في التكاثر بسرعة عجيبة . ويزداد الاحتقان في تلك الأجزاء وتأخذ الخلايا المخاطية في افراز كمية كبيرة من المخاط محاولة بذلك الافراز كنس الجراثيم التي تغزوها إلى خارج الأنف . وبذلك تبدأ الاصابة بالبرد وتأخذ العدوى طريقها المألوف . وقد تحدث الاصابة من أسباب أخرى غير التعرض للتيار الهوائي، فالامعان في الأكل والشرب أو التعب قد يهيء ظروفاً للاصابة . والنتيجة مع جميع هذه الأسباب واحدة: كتم مجاري الأنف وامتناع الهواء عن الوصول اليها. هنالك تحدث الاصابة.

اصابات البرد لا تعدي دائماً

هنالك حقيقة فذّة نعرفها عن تلك الجراثيم التي تسبب اصابات البرد ، هي إنه بالرغم من أننا جميعاً نجهلها فان اختلاطنا بأناس آخرين لا ينقل الينا العدوى ، ما لم يكن الاختلاط بشخص أو أشخاص نشطت فيهم تلك الجراثيم فأحدثت فيهم أعراض البرد . فقد ذكر دكتور «لوسيوس بوش» إنه رأى رجلاً مصاباً بزكام مزمن وزوجه غير مصابة به، ورأى امرأة مصابة بالتهاب الجيوب المزمن وزوجها غير مصاب به . وهذا يدل على ان الجراثيم لا تصبح خطرة إلاّ إذا نشطت بصورة حادة . فالاصابات الزمنة غير معدية إلى حدّ ملحوظ . وحتى الجراثيم المنقولة عن شخص مصاب بحدّة ، قد تقاوم عند ما تنتقل منه إلى شخص آخر ، إذا ما ظلت تجوات الأنف مفتوحة بحيث تسمح للهواء بتخللها فيظل الغشاء المخاطي صحيحاً محتفظاً بقوة المقاومة .

الهواء النقي أسلم من العقاقير

الهواء النقي هو عقار « السلفا » الطبيعي ، بيد ان استعماله أسلم عاقبة . وقد يصف الأطباء عقار « السلفا » لكثير من المصابين بهذه الأمراض . وقد وجد ان هذا العقار لا يقتل تلك الجراثيم بالفعل ، ولكنه يعمل فقط على وقف نمائها وتكاثرها . ويحدث هذا الأثر نفسه من تعرض هذه الجراثيم للهواء . وهنا نجد أن الطبيعة قد سبقت الكشف العلمي آلافاً مؤلفة من السنين . وكما ان كريات الدم البيض تستطيع قتل الجراثيم بطريقة أسلم من كل عقار مطهِّر ، كذلك الهواء يستطيع أن يقف تكاثرها ونماءها ، من غير أن يخلف نتائج سيئة ، كتلك التي يتفق أن يخلّفها تعاطي عقار « السلفا » .

ومنذ أن قال العلماء بنظرية الجراثيم ونقلها للأمراض ، حاول الباحثون أن يصلوا إلى طريقة للوقاية من الاصابة بالأمراض ، فعمدوا إلى الحقن ليزيدوا به مقاومة الجسم . ولاشك أن الأطباء قد يقبلون هذه الطريقة مستدلين على كفايتها بأمراض لا تصيب الانسان ثانية إذا أصابته مرة سابقة كالحصبة والحمى القرمزية . ولكن أمراض البرد من طابع غير هذا الطابع . فإصابة بالبرد لا تمنع إصابة أخرى . وقد يتفق أن يصاب أحدهم بالبرد بعد أسبوع واحد من إصابة سابقة . والنظرية التي تقوم عليها نظرية الحقن بالطعم الواقي هي أن يصاب الجسم إصابة خفيفة ، فتحدث فيه مناعة تقيه إذا تعرض للعدوى بذلك المرض . فإذا لم تحدث المناعة من إصابة شديدة بالمرض نفسه ، فالحقن يكون تضييعاً للوقت لا فائدة منه . هذا موقف الطعم الواقي من البرد في الوقت الحاضر ، وكل الذين حبذوه من قبل أخذوا يفقدون الثقة به الآن .

واقٍ محمود العاقبة

هنالك طريقان : طريق للوقاية من البرد ، وطريق لتقصير مدته إذا حدث .

إن اصابات البرد تحدث بمضاعفاتها نسبة كبيرة من أمراض الانسان . فلولا البرد لما كان الصمم إلاّ نادراً جدّاً . والتهاب الجيوب مرض مقضيٌّ عليه إذا لم تكن إصابات البرد . وزكام الأنف ، وما يترتب عليه من إصابات بأمراض تنشأ عنهُ في الأمعاء والمعدة والقولون تصبح جميعاً في حكم العدم . وقد يقل الصداع بأنواعه . وكذلك ذات الرئة والسل قد تقل نسبتهما ، وأما حمى القش والربو فقد يصبحان من النّوادر .

ولا يستطيع أحد أن يمنع كل إصابات البرد . ولكن دكتور « بوش » قد استطاع أن ينزل عدد الاصابات التي أصيب بها بعض مرضاه بنسبة الثلث . وقد سجل ذلك مدى

ثلاثين عاماً اتخذ فيها نوعاً خاصاً من العلاج . ومرمى هذا العلاج هو أن يجعل الهواء يتخلل الأنف والزور وييسره بحالة سوية . ولكي يصل الانسان إلى هذه النتيجة ينبغي له أن يزيل كل العوائق الأنفية بأن يوسع مجاريها بواسطة أصبعه البنصر . ولا تعيق هذه الطريقة دورة الدم ، فإن شعيرات الدم بعيدة عن التأثر بذلك فلا تتمزق . فإذا كانت العظام قد انتقلت من مكانها السوي بحادث سابق أو تكون قد عيقت عن النماء بفعل طبيعي ، فمن الممكن ردها إلى مكانها ، فلا تعوق المريض عن التنفس بفتحتي أنفه تنفساً حراً . وما لم يكن الأنف مصاباً بعرض آخر يعوق ذلك، فإن هذا العلاج يمنع كثيراً من إصابات البرد بالرغم من التعرض لعدواها .

فاذا انفتحت مجاري الأنف زالت العوائق التي تسد الجيوب أيضاً فتنقى وتظل نقية بالتمخط ، وهو الطريق الذي ابتدعته الطبيعة لتخليص الجيوب من نفاياتها . ويمكن أيضاً إزالة الالتصاقات « الانفبلعومية » — nasopharynx (الأنفية البلعومية) وتزول معها الجيوب التي تحدثها تلك الالتصاقات . وبزوالها يزول سبب آخر من الأسباب المحدثة لاصابات البرد والزكام الأنفي . وكذلك يمكن إزالة النماءات الغددية فلا تعوق التنفس الانفي ولا تمنع القناة الاوستاشية — eustachian tube — من تأدية وظيفتها فلا يكون هنالك أي تأثير على السمع بصورة سوية . إننا لا نستطيع أن نتخلص من الجراثيم، ولكن في مكنتنا أن نقضي على قدرتها .

في طوقنا بعد أن نصاب بالزكام أن نقصر مداه ونخفف من أعراضه بطريقة مشابهة لهذه الطريقة . فان في قدرتنا أن نفك أسر الأعصاب إذا ضغطت عليها العضلات المتقبضة فأعاقتها عن اداء وظيفتها السوية . يمكن ذلك بتقويم العظام بواسطة اليد . فان مجاري الأنف يمكن فتحها واخراج ما بها من مصادر الداء . وتصريف النفايات يمكن تحسينه حتى تنبذ مصادر الاصابة وتعود حالة الصحة . ولا تقتصر فائدة هذه الطريقة على تقصير مدى الاصابة وتخفيف آلامها ، بل إنها تمنع مضاعفاتها ، فتقل الاصابة بذات الرئة والسل ، وكذلك خراجات الأذن والصمم .

وإن اصابات البرد من حيث علاقتها بالانتاج وضياع كثير من ساعات العمل ، أمر ينبغي النظر فيه . فان ما يفقده الافراد والمجموع من جراء ذلك ، كفيل بأن يجعلنا نصرف من العناية بها والعمل على التخلص منها أضعاف ما نعمل الآن . ولا شك أن لهذه الأمراض علاقة بالناحية الاجتماعية لا ينبغي اهمالها .

في مصر القديمة

الحروب بين ملوك الشمال وملوك الجنوب

قبل عصر التوحيد الثاني (الدولة الوسطى)

للدكتور باهور لبيب

ترامت الينا أخبار الحروب الداخلية ، التي قامت بين ملوك اهناسيا في الشمال [1] وملوك طيبة في الجنوب [2] من الطرفين المتحاربين بصورة تجردت نصوصها من معرفة السبب الحقيقي الذي من أجله نشبت تلك الحروب

فيمكن أن يكون سببها (ا) خلافاً بين الفريقين المتحاربين على منطقة واقعة في حدود طينة (بلدة ازوريس) ادعاها ملوك الشمال لأنفسهم وكانت في يد ملوك الجنوب (ب) وقد يكون نزاعاً على الاختصاص الاداري بين موظفي الحدود كالحراس او موظفي الضرائب في كل من المملكتين الشمالية والجنوبية (ج) وقد يكون شعور أمراء الجنوب بالحاجة الى توسيع حدودهم وشعورهم بقوتهم وبضعف الفريق الآخر (د) وقد يكون تطلع أمراء الجنوب الى الرغبة في توحيد مصر مدفوعين إلى ذلك بعامل القوميـــة كما فعل الملك مينا من قبل والملك احمس الأول فيما بعد

***

وأني شخصيـاً أرجح السبب الأول مع السبب الرابع (ا) مع (د) وذلك لأن الملك خيتي الثالث (واح كارع) وهو من ملوك الشمال اعترف في وصيتـه لابنه خيتي الرابع (مري كارع) بأنه ندم على تعديه على طينه وقداستها مما اضطر ملك الجنوب إلى الدفاع عن حدود منطقته الشمالية رداً للاهانة وسعياً وراء توحيد القطر المصري كله

(١) وكان سلطان فراعنة اهناسيا يمتد من الدلتا وينتهي عند طينة او بلدة العرابة المدفونة ومقر عاصمتهم بلدة اهناسيا المدينة.

(٢) أما نفوذ فراعنة طيبة فكان يمتد من اسوان جنوباً وينتهي عند طينة شمالاً

والذي نفهمه عن هذه الحروب هو ان أول ملك من ملوك طيبة ذكر التاريخ أنه حارب البيت الاهناسي هو الملك أنتف الثاني (واح عنخ) وذلك لأنه من الثابت ان المنطقة التي كان يحكمها هذا الملك تبدأ من الفنين جنوباً وتنتهي في طينة شمالاً أي في القسم الاداري المصري القديم رقم ٨

* * *

وقد عرفنا من لوحة حجرية وجدت في الجورنه مؤرخة من عصر الملك (واح عنخ) وموجودة الآن في المتحف المصري وهي للسمير الاوحد چاري وفيها يذكر : « . . . بعد الحروب التي نشبت مع ملوك البيت الخيتي في المنطقة الغربية من طينة » ففي استطاعتنا ان نجزم من هذا النص بان ميدان الحرب بدأ في أقصى المنطقة الشمالية التي كانت تحت حكم الملك انتف (واح عنخ) أي في بلدة طينة الواقعة في قسم ابيدوس

والظاهر أن نتيجة هذه الحرب كانت في مصلحة ملك طيبة لأننا نعلم فيما بعد ان حدود هذا الملك الشمالية وصلت إلى منطقة أعلى من طينة وهي منطقة قسم الثعبان أي وصلت إلى القسم العاشر الاداري من أقسام مصر الادارية .

* * *

وقد حافظ هذا الملك على هـذه الحدود إلى السنة الخمسين من حكمه لأنه لدينا لوحة موجودة بالمتحف المصري مؤرخة في السنة الخمسين من حكمه وفيها يسجل : « ... ان حده الشمالي وصل إلى قسم الثعبان » أي ان هذه المنطقة قد اعتبرت حدًّا شماليًّا . وعليه فالنتيجة النهائية هي انه في السنة الخمسين من حكم (واح عنخ) لم يتم الاستيلاء على اقليم ابيدوس فقط بل وصل الى القسم العاشر

ولكن حكم ملوك طيبه على هذا القسم العاشر الذي انتصر عليه (واح عنخ) لم يستقر ولم يكن نصيبه الهدوء والسكينة بل ثارت بعض الاجزاء على من حكموا بعده كما ذكرت لنا لوحة حجرية لموظف يدعى « ايكا أورانتف » فنجد حاكم اسيوط المدعو « تف ايبي » والذي كان يعاصر ويشايع الملك الاهناسي خيتي الثالث (واح كارع) يجلي جيش طيبة في موقعة بحرية عن القسم العاشر باسم ملك الشمال ويضطره للرجوع جنوباً إلى حدود الطرفين القديمة أي إلى طينة .

ثم أرجع الملك منتوحتب الأول قبيل وفاته حدود مملكته كسابق عهدها إلى قسم الثعبان أي القسم العاشر .

نعلم أن ابن « تف ايبي » المدعو خيتي والذي كان معاصراً لملك الشمال خيتي الرابع (مري كارع) قد حارب مع ملوك الشمال في القسم الحادي عشر ضد ملك الجنوب .

بعد ذلك نعلم أن ملوك طيبة نجحوا في امتداد سلطانهم إلى شمال المنطقة الشمالية السابقة فاستولوا على أسيوط نفسها وهي في القسم الثالث عشر ، وبذلك ينتهي تاريخ أمراء أسيوط فعلاً أيام (خيتي بن تف ايبي). وتكون منطقة القسم الثالث عشر هي أعلى ما بلغ اليها ملوك طيبة .

ونعلم بعد ذلك من نصوص حاتنوب الواقعة شمالي أسيوط أي في القسم الخامس عشر أن حروبا قامت في هذه الجهة أدَّت إلى استيلاء ملوك طيبة على هذه المنطقة .

***

وأخيراً استطاع ملك طيبة المدعو « نب حبت رع » (منتوحتب الثاني) بعد ذلك من توحيد المملكة المصرية فابتدأ بذلك حوالي سنة ٢٠٧٠ قبل الميلاد عصراً جديداً ممتازاً في تاريخ مصر القديمة وهو المعروف بعصر التوحيد الثاني (عصر الدولة الوسطى) .

وقد استمرَّ توحيد المملكة المصرية في عهد خلفه « سعنخ كارع » (منتو حتب الثالث) ونب تاوي رع (منتو حتب الرابع) وباقي ملوك عصر التوحيد الثاني .

وبهذه المناسبة نقول ان عدد ملوك بيت طيبة (المعروفين بملوك الأسرة ١١) وترتيبهم كالآتي على حسب أحدث الآراء :

(١) انتف الأول (سهرتاوى) (٢) انتف الثاني (واح عنخ) (٣) انتف الثالث (نخت نب تب نفر) (٤) منتو حتب الأول (سعنخ ايب تاوى) (٥) منتو حتب الثاني (نب حبت رع ويقرأ خطأ نب خرورع) (٦) منتو حتب الثالث (سعنخ كارع) (٧) منتو حتب الرابع (نب تاوى رع)

ويلاحظ ان بعض هؤلاء الملوك كان معاصراً لملوك البيت الاهناسي كما شرحنا

مفردات نباتية

لمحمود مصطفى الدمياطي بك

ورد بعضها ضمن مفردات ابن البيطار وهي التي استعارها العرب من لغة المسيحيين الاسبانيين وسماها ابن البيطار اللغة اللاتينية . أوردتها مرتبة بحروف المعجم . وقد اعتمدت في تحقيقها على ما جاء في بحث العلامة لكايرك أخذ عناصره بالأخص من الترجمة العربية لديسقوريدس بالمخطوط ١٠٦٧ من التتمة العربية لدار الكتب الامبراطورية بفرنسا ونشره بالجريدة الآسيوية في يناير سنة ١٨٦٧ بعنوان « تعليق على الترجمة العربية لديسقوريدس والتراجم العربية عموماً تتمة للدراسات اللغوية عن ابن البيطار »

﴿ انطوبيا ﴾ هي الهندَب والهندَبا والهندبا والهندباء والعامة تقول هندبَة وفي الاسبانية endibia والبرتغالية endivia والانجليزية endive: succory والفرنسية chicorée وفي اصطلاح النباتيين Cichorium — جنس بقل من الفصيلة المركبة .

﴿ بشتناقة ﴾ في الانجليزية parsnip والفرنسية panais; pastenague وفي اصطلاح النباتيين Peucedanum sativum — نبات من الفصيلة الخيمية .

﴿ بلنتاين ﴾ هو لسان الحَمَل وفي الاسبانية ihantem والانجليزية plantain والفرنسية plantain وفي اصطلاح النباتيين Plantago — جنس نبات من الفصيلة البلانتجنية عريض الورق أصفر الزهر خبثُه كالحمّاض .

﴿ بوبودية ﴾ وتسمى بالبَسْفايج وبالكثير الأرجل وبأضراس الكلب وبالبولوبوديون وفي الانجليزية polypody والفرنسية polypode وفي اصطلاح النباتيين Polypodium جنس نبات من السراخس له عروقٌ دقاق إلى السواد والحمرة اليسيرة أو الى الخضرة ذات شعب كالدودة الكثيرة الأرجل .

﴿ جَقوطة ﴾ هي الشوكران وفي الانجليزية hemlock والفرنسية ciguë وفي اصطلاح النباتيين Conium — جنس نبات من الفصيلة الخيمية وهو المشهور في مفردات الأطباء .

﴿ جنتنو ﴾ هو السُلت وفي الاسبانية centeno وسمّاه ديسقوريدس tragus وفي الانجليزية rye والفرنسية seigle وفي اصطلاح النباتيين Secale — جنس نبات من الفصيلة النجيلية .

﴿ جنطورية ﴾ هي القنطاريُون والقَنطُوريون وفي الانجليزية centaury; knapweed والفرنسية centaurée وفي اصطلاح النباتيين Centaurea — جنس حشيشة من الفصيلة المركبة مرّة الطعم جدًّا وتعرف في مصر بالمرور والمرّير ومرّة النعجة .

﴿ رابنة ﴾ هي الفُجْل والفُجُل وفي الانجليزية radish والفرنسية radis وفي اصطلاح النباتيين Raphanus — جنس عشب من الفصيلة الصليبية له أرومة تؤكل ذات لحم أبيض وقشر أحمر أو أبيض أو أسود وورق عريض .

﴿ شالبية ﴾ هي الالسفاقس باليونانية وفي الانجليزية sage والفرنسية sauge وفي اصطلاح النباتيين Salvia — جنس نبات من الفصيلة الشفوية . وتعرف في مصر بالمرْميّة والرّعل وشجرة الغزال والغبيش والعَرنْسم .

﴿ شبوق ﴾ هو الخُمّان ويسمّى في مصر بالبَيْلَسان وفي الاسبانية sabugo والانجليزية elder والفرنسية sureau وفي اصطلاح النباتيين Sambucus — جنس شجر من الفصيلة البيلسانية .

﴿ شبينة ﴾ هي الأَبْهَل والعامة تقول الأُبْهُل بالضم وفي الانجليزية savin والفرنسية sabine وفي اصطلاح النباتيين Juniperus Sabina — شجر كبير من الفصيلة الصنوبرية ورقه كالطرفاء وثمره كالنبق .

﴿ شطرية ﴾ هي النَّبْدغ والنَّدغ والسعتر البري وفي الانجليزية savory والفرنسية

sarriette وفي اصطلاح النباتيين Satureia — جنس نبات من الفصيلة الشفوية .

﴿ طمرجة ﴾ هي الطَرْفاء والأثل وتسمى في مصر حطب أحمر وفي الانجليزية tamarisk والفرنسية tamaris وفي اصطلاح النباتيين Tamarix — جنس شجر من الفصيلة الطرفائية .

﴿ فلجة ﴾ هي السرخس الذكر وفي الانجليزية male fern وسماها ديسقوريدس filix وبالفرنسية fougère mâle وفي اصطلاح النباتيين Dryopteris Filix mas — نبات من السراخس .

﴿ قانترة ﴾ هي الكُزْبُرَة والكُزبَرَة والكَزبرة والكُسْبُرَة وتفتح الباء . معرَّب كُسْبَر بالكلدانية وتسمى بلغة اليمن تِقْدَة وفي الاسبانية coentro والانجليزية coriander والفرنسية coriandre وفي اصطلاح النباتيين coriandrum — جنس نبات من الأبازير فصيلته الخيمية ويعرف بزرها بالجلجلان .

﴿ قرنولية ﴾ هي القرانيا وتسمى في بلاد الجزائر قراصية وفي الانجليزية dogwood والفرنسية cornouiller وفي اصطلاح النباتيين Cornus — جنس شجر جبلي ثمره كالزيتون من الفصيلة القرانية .

﴿ قبرونش ﴾ هو النَبق (عن بوست) وهو غير السِّدْر المعروف وفي الاسبانية scambrones وبالانجليزية buckthorn والفرنسية nerprun وفي اصطلاح النباتيين Rhamnus — جنس شجر من الفصيلة النبقية .

﴿ لوره ﴾ هي الغار والرَنْد وفي الانجليزية laurel والفرنسية laurier وفي اصطلاح النباتيين Laurus — جنس شجر من الفصيلة الغارية له دهن كثير المنافع .

﴿ مطرنيس ﴾ هو القطلب وفي الاسبانية madronho والانجليزية arbute؛ strawberry-tree والفرنسية arbousier وفي اصطلاح النباتيين Arbutus — جنس شجر من الفصيلة الأريكية يكثر في جبال الشام دقيق الورق ناعم شديد الحمرة يحمل حبًّا

نحو العنب أخضر فاذا نضج كان أحمر كالياقوت طيب الرائحة حلو الى قبض إذا مضغ صار ثفله كالتبن

﴿ ملمندر ﴾ هو البنج وفي البرتغالية memendro والانجليزية henbane والفرنسية jusquiame وفي اصطلاح النباتيين Hyoscyamus — جنس نبات من الفصيلة الباذنجانية . مسبت مذهب للحس . معرب بنك بالفارسية . ومن أسمائه في مصر الناتورة وسم الفار وشجرة السكران والسيكران .

﴿ نابه ﴾ هي اللفت والسلجم وفي الانجليزية rape والفرنسية navet وفي اصطلاح النباتيين Brassica Napus — نبات من الفصيلة الصليبية .

﴿ يذرة ﴾ هي اللبلاب الكبير والعصبة وعاشق الشجر وحبل المساكين والقسوس وفي الاسبانية Yedra والانجليزية ivy والفرنسية lierre وفي اصطلاح النباتيين Hedera جنس نبات من الفصيلة الارالية ورقه كورق اللوبيا يتعلق على الشجر ويسمى في مصر بالعليق

﴿ يربه قرجياله ﴾ هي الهيوفاريقون وفي الاسبانية coraion zilho والانجليزية Saint John's wort والفرنسية millepertuis وفي اصطلاح النباتيين Hypericum جنس نبات من الفصيلة الهيوفاريقية

﴿ ينجه ﴾ في الاسبانية junco والانجليزية cat's-tail والفرنسية massette وفي اصطلاح النباتيين Typha — جنس نبات من الفصيلة التيفية يسمى في مصر بالبردي والديس .

﴿ ينجه ﴾ هي الإذخر والإذخر وطيب العرب والخلال المأموني لأن المأمون كان يتخلل بها وفي الاسبانية junco والانجليزية lemon grass والفرنسية citronnelle; jonc odorant وفي اصطلاح النباتيين Andropogon Schoenanthus حشيشة طيب الرائحة من الفصيلة النجيلية .

مكتبة المقتطف

الفتح مستمر : للاستاذ فؤاد صرّوف

هدية المقتطف سنة ١٩٤٤ : ٢٤٨ صفحة من القطع الكبير

عني الأستاذ فؤاد صروف بأن يغذّي الموهبة التي وهبها بطبعه ، وأن يقوّي الاتجاه الذي اتجه في التعليم ، بأن يتابع البحث والكتابة في الموضوعات الطبيعية ، والتوسع فيها ، والسعي في شعابها المختلفة ، فتابع نشر بحوثه في المقتطف وفيا ألقي من محاضرات حتى كادت تكون حياته العلمية مقصورة على هذه الناحية . وللأستاذ صرّوف قدرة خاصة على تبسيط العلوم التي تناول مختلف فروعها بالكلام فيما كتب من المقالات والكتب ، فإذا قرأته غائصاً في أدق الموضوعات الطبيعية أو الحيوية، فكأنك تقرأه قاصًّا طلي العبارة منسجم القول مبيناً مفصحاً ، بعيداً عن التعقيد ، قريباً من عقلك وقلبك . فأسلوبه من الدعائم التي قرّبت موضوعات العلم من ذهن الأديب والفنّان ، وذلك أقصى جهد يبذله مثقف من المثقفين ، وأسمى مرتبة يطمع فيها من يحاول أن يجعل المعرفة بوجهاتها المختلفة ملكاً مشاعاً للجميع .

***

وكتابه الأخير « الفتح مستمر » دليل حيّ على ذلك فقد تناول فيه ثلاث جهات من العلم : الكون والمادة ، وأسرار الجسم الحي ، والصحة والمرض ، وهي جهات على اتساع ما بينها من الفروق ، لمّها العلم في بورة واحدة وجمع بينها في بوتقة بعينها من الفكر ، فبسّطها الأستاذ صرّوف أروع تبسيط وأدّاها أحسن أداء .

الطب التجريبي

مدخل الى دراسته

تأليف كلود برنار ، ونقله عن الفرنسية الدكتور يوسف مراد والاستاذ حمد الله سلطان ، وأخرجته ادارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية بمصر ، ويقع في ٤٢٦ صفحة من القطع الكبير ، طبع المطبعة الاميرية سنة ١٩٤٤.

جاء في مقدمة ذلك الكتاب ما يلي :

« وكلود برنار (١٨١٣ — ١٨٧٨) أحد العلماء الذين شعروا في أثناء بحوثهم العلمية بضرورة الوقوف هنيهة وإعادة النظر في أسس العلم العقلية والتجريبية ، وفي صلة العلوم بعضها ببعض ، وفي قيمة القوانين العلمية من حيث يقينيتها ومن حيث هي عنصر من عناصر تفسير الكون بأسره . وقد ضمّن كلود برنار آراءه الفلسفية في هذه المشاكل في عدة مقالات نشرتها مجلة العالمين ، وفي هذا الكتاب الذي نقدمه لقراء اللغة العربية وهو « المدخل إلى دراسة الطب التجريبي » .

وقد حصر كلود برنار همه في التقريب والملاحظة والتجربة وزاد إلى ذلك أن قرّب بين الاستنتاج والاستقراء ، مبيناً أن منهج العلوم التجريبية ليس منهجاً استقرائيـًّا فحسب ، بل إنه منهج استقرائي استنتاجي أو كما يقال منهج فرضي استنتاجي . وقد أشار بذلك إلى الأثر الهام الذي يخلفه الحدس في تكوين الفكرة التجريبية ، وإلى ضرورة الشك أولاً في نتائج التجربة حتى التأكد من صحتها نهائيـًّا ، باقامة التجارب العكسية .

ولا شك عندنا في أن وزارة المعارف قد أدّت خدمة جليلة بنقل هذا الكتاب وطبعه. ولا يسعنا إلاّ أن نأمل من الوزارة أن تنشر هذا الكتاب بين طبقات المتعلمين نشراً واسع النطاق . فإنه دستور ثابت للبحث العلمي والعقلي ، وأساس تعليمي من أروع الأسس التي ينبغي أن يعم العلم بها طبقات المثقفين . والمبادىء التي تضمنها لا يستغنى عن العلم بها عالم أو أديب أو فيلسوف . ولقد سمعت من قبل بعض النقاد يقولون أن الكتاب قديم وإنه قليل الفائدة في عصرنا الحاضر . ولم أكن قد اطلعت عليه . فاذا بالترجمة العربية توحي لمن يطلع على هذا الكتاب أنه جديرٌ بما أحدث في الفكر الفرنسي في عهده ، وأنه أجدر بأن يحدث في هذا الجيل من أبناء العربية ، أثراً أبين وأعمق .

وأسلوب الترجمة على وجهٍ عام أكمل ما ينتظر لمثل هذا الكتاب العقد ، فقد بذل فيه المترجمان الفاضلان جهد المستقصي ، وغالب الظن انه لم يفتهما من المعنى الأصلي شيء ، اللهمّ إلاّ المهنات التي لا يسلم منها مترجم ينقل من لغة الى لغة ، والترجمة كما قيل كنقل روح

من جسم إلى جسم ، لا يؤمن استيحاشها منه . وبالرغم من هذا فان العبارات بيّنة والأسلوب سهل على قدر ما تمكن السهولة في كتاب يخرج من عقل فيلسوف عالم، يجمع فيه بين طرفين متباعدين .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ان في بعض الاستعمالات التي وردت في المقدمة وفي صلب الكتاب ما كان ينبغي أن لا يفلت منه مترجميه وهما من نعلم منزلتهما من العلم والفضل . ولكنه على كل حال نقص القادرين على التمام . فقد ورد في المقدمة استعمال كلمة فيزياء مرات ومرات فيزيقا ، فذكر كاتب المقدمة الفيزيقية الكيميائية ثم فيزيائية وكيمائية ، ثم قال الكيمائيين والفيزيقيين وكلها تعريب لكلمة — Physics — وكان من الواجب أن يوحد رسم الكلمات طلباً للضبط ورفع اللبس عند المبتدئين. كذلك ورد في ص ١٦٨ العبارة الآتية: « في الأوردة وفي الشرايين ، وفي القلب الأيمن وفي القلب الأيسر » الخ . والواقع انه ليس هنالك قلب أيمن وقلب أيسر ، وإلاّ لأصبح للانسان قلبان ، وانما له قلب واحد فيه بطينان ، البطين الأيمن والبطين الأيسر .

على أن هذا لا ينقص من قيمة الكتاب . فانما هذه الهنات وغيرها ، وهي قليلة ، هنات شكلية لا تصيب من الوضوع والجوهر شيئاً . وانا لنستحث وزارة المعارف على تزويد الحركة الفكرية بالكثير من أمثال هذه الكتب الفذة التي هي لدى الواقع لب النهضة الفكرية ، والنور المشعّ الذي يلمع في سماء الفوضى التي تغمر حركة التنوير الحديثة في مصر ، وقد أخذ بعض الناشرين يلقون في تيارها بكتب سمجة الموضوع غثة الفكر ، يؤديها أسلوب كأنه الرصاص ، صلب بارد ثقيل .
ا . م

من حرب عالمية الى سلم عالمي

تأليف الاستاذ ليون بليلوس باللغة الانجليزية — ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط ، طبع بمدينة الاسكندرية سنة ١٩٤٤

From Global War ToGlobal Peace. By Leon Belilos. A Twentieth Century Charter and a Rallying Ground. The Means of Achieving the Principles of the ATLANTIC CHARTER.

The Ways and Means of Achieving the Six Essential Freedoms Regarding : WANT — FEAR — WORSHIP — EXPRESSION — IGNORANCE — WAR

عالج المؤلف في كتابه هذا مشكلات هذا العصر بروح قلما تعجب رجال السياسة . فكل الكتاب من أوله إلى آخره مصروف الى الاصلاح على أساس تغيير العقلية الانسانية بالقضاء

على النزعتين السياسية والحربية وتحكيم العلم في ترويض النزعات الانقلابية وعلاج المساوىء التي ورثناها عن الماضي بتنظيم الحياة على أساس علمي ينصرف إلى دراسة الادواء الاجتماعية دراسة علمية ويقوّم النظم على قاعدة ما تدعو اليه الحاجة من تغيير في النظم القائمة تغييراً يضمن سير التطور الطبيعي للجماعات ، ويمنع عنها سوآت الانقلاب والثورات .

فالمؤلف من التطوريين الذين يقولون بأن التطور أساس الاصلاح ، وإن ذلك الأساس ينبغي أن يأخذ الخطا الطبيعية التي تنقله درجة بعد درجة إلى آفاق جديدة بحيث لا يشعر الناس بأنهم تسللوا من حالة الى أخرى ، إلاّ بأن ينظروا إلى الماضي فيقيسون ما هم فيه على ما كانوا فيه ، فلا تصدمهم في الحياة نظامات عتيقة تشعرهم بأن الحالات القائمة من حولهم قد تخلفت عن حاجاتهم المعيشية وآمالهم ومطامعهم ، شأن الناس في هـذه الفترة العصيبة . ولا شك في أن القلق الذي يسود عالم الانسان الآن إنما يرجع إلى أن الجماعات خلفت من ورائها نظامات يريد رجال السياسة والحرب أن يلزموها الخضوع لها قسراً ، غير ناظرين إلى أن حكم التطور الطبيعي لا رادّ له ، وإن ما تطلب الطبيعة أن يكون، لا بد من أن يكون .

وبالرغم من أن السيـاسيين ورجال الحرب يشعرون بنفس القلق الذي يشعر به العلماء ورجال الاجتماع ، فانهم لا يزالون في أسر تلك العقليـة القديمة التي تزين لهم أن مماحكات السياسة وقنابل المدافع في استطاعتها أن تكبح سير الطبيعة وأن تقف تيار النشوء الاجتماعي

وسنعود إلى الكلام بالتفصيل عن وجهات من النظر تصدّى لهـا المؤلف وسنتناولهـا بالعرض والنقد في صفحات المقتطف، وسننشر أول شيء مقالاً بعنوان «الخطايا العشر» في عدد مارس المقبل، نفصل فيه القول فيما مهد به المؤلف لكتابه من الاخطاء التي توسع هوّة الخلف بين الشعوب والطبقات والأفراد . والكتاب جدير كل الجدارة بأن ينعم النظر فيه، كل من يشعر بأن العـالم في حاجة إلى الخروج من دائرة الفكرة القومية إلى دائرة الفكرة العالمية ، التي يرمي اليها ميثاق الأطلنطي .

أعلام الاسلام : محمد عبده

تأليف الدكتور عثمان أمين — نشرته لجنة دائرة المعارف الاسلامية : ١٤٢ صفحة من القطع الصغير

هو الكتاب الخامس في سلسلة أعلام الاسلام التي تصدرها لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية وقد تقدمه أربعة كتب أخرى من حجمه في عمرو بن العاص ومنصور الأندلس وبشار بن برد والمعز لدين الله . والعمل في قوامه من أمجد الأعمـال الأدبية التي فكر في اخراجها شبابنا المتعلم ، بورك فيه . فان حياة الأمم انما تظل قائمة بصور الحياة ما اتصل

حاضرها بماضيها ، فاذا انفصمت تلك العقدة الحيوية ، انفصم معها رباط القوة التي تصل بين المقومات الحيوية ، فتنحل الحياة الفكرية وتفسد معها المعاني التي تعيش الأمم وتستهدي بها ، معاني الوطنية والمجد القومي والشعور بالعزة ، تلك المعاني التي هي الروح الحي المنبث في تضاعيف العقل الاجتماعي وتختفي داعاً في وعي العقل الفردي ، فتمد الحياة بجهتيها جهة الفرد وجهة الجماعات، بالمثاليات التي تنير لها سبيل التقدم وتمدها بالقيم التي تقودها في الحياة.

ولقد أحسن القائمون بنشر هذه السلسلة باختيار موضوع هذه الحلقة إذ خصت بها رجلاً لا نزال جميعاً متأثرين بحياته، كما أحسنوا في أن عهدوا بها إلى أستاذ استطاع أن يبسطها أبين البسط ويؤديها أقوم الاداء . فالترجمة عن حياة الرجل تمضي في تدرج طبيعي من الطفولة الى الرجولة إلى نبوغ الكهولة ، ويظهرك على السبيل التي تكونت بها عقلية الامام محمد عبده والحوادث التي أثرت في تكوينها حتى أصبحت ما هي . وقد أشار مؤلفها الفاضل إلى ما كان للمترجم عنه من أثر في الصحافة وحرية الفكر والسياسة والحكمة ، وبين ما كان من أمر علاقته بالفيلسوف الكبير جمال الدين الافغاني، وما تركت في عقله المتوثب من أثر ثابت باقٍ .

على أن الترجمة قد أظهرت لنا ناحية أخرى من نواحي حياة الامام ، ولو ان إظهارها لم يكن بطريق ايجابي ، بل كان بطريق سلبي صرف . وقد التزم المؤلف في ذلك ناحية الأمانة الصرفة . فانه لم يتكلم في حياة الأستاذ من حيث اتصالها بالحركة العلمية التي قامت في خلال حياته في أوربا فقضت على المذاهب القديمة في العلم والفلسفة بقيام مذهب النشوء والتطور في انجلترا وما شارك قيامه من معارك فكرية في ذلك العصر . ولم يتعرض لما تكلم فيه الاستاذ والسيد جمال الدين من الرد على الدهريين وقد عنيا بهم التطوريين أنصار مذهب النشوء والارتقاء ، وحسناً فعل . فان الخطوة التي خطاها السيد والشيخ، كانت خطوة علمية ولكن الى الوراء ، فأهمل الكلام فيها . والحق ان الكلام في ذلك كان خارجاً عن مجالها فلم يصيبا فيه ، ولم يوفقا في نقودها التي وجهاها إلى المذهب الذي قلب نواحي الفكر في القرن التاسع عشر .

وأسلوب الكتاب رائع فيه بساطة وجمال . ولا استدراك لنا على ما استعمل فيه المؤلف الفاضل من الألفاظ إلاّ قوله « اللاهوتي » (ص ٢٥) وقد عني بذلك الامام محمد عبده ، ويحسن أن نترك هذا الاستعمال للكلام في اللاهوت المسيحي . وغالب ما أذهب اليه انه لا يوجد لاهوتية في الاسلام ولا يوجد لاهوتيون عند المسلمين .

أبو العلاء المعري

فيلسوف الشعراء

رسالة من منشورات مجلة المسرة للاستاذ الاب يوحنا فاخوري البولسي ، استاذ الآداب العربية في معهد الرسالة البولسية — حريصا ، لبنان — ١٩٤٤ — ٦٠ صفحة من القطع الكبير ، أصدرتها مطبعة القديس بولس

ان الفارق الذي نلحظه بين القول بأن المعري فيلسوف الشعراء أو أنه شاعر الفلاسفة ، ينبغي أن يكون له وزن كبير في أي نقد نتناول به مذهب هذا العبقري الفذ . فهو إما أنه فيلسوف إلى الشعر ، أو انه شاعر إلى الفلسفة . ولكل من الاعتبارين اثر في توجيه القول. فاذا نظرنا في مذهبه من حيث هو فيلسوف فرضنا عليه أن يكون علمه بالفلسفة أساساً للنقد ، وإذا نظرنا فيه من حيث هو شاعر فرضنا عليه أن يكون فنه الشعري أساساً للنقد . والأستاذ الفاضل مؤلف هذه الرسالة ممن يقولون بأنه فيلسوف غلب عليه الشعر ، في حين أننا نرى أنه شاعر غلبت عليه الفلسفة . بل نذهب إلى أكثر من هذا فنقول إنه شاعر ينزع إلى التأمل الفلسفي ، لأن قولنا بأن المذهبية الفلسفية لا التأمل هي الغالبة عليه، ظلم قد يسوقنا إلى وجهة في النقد مضلة مفسدة . بل ان لدينا دليلاً قاطعاً على أنه شاعر قبل أن يكون متأملاً في الفلسفة. فان جماع ما قال من الشعر عبارة عن فن من القول الشعري عبّر به عن آراء ذاعت في عصره نقلت عن فلاسفة العالم الحاف به ، تلك الآراء التي غزت العقل العربي شمالاً من اليونان وغرباً من الاسكندرية وشرقاً من فارس والهند ، فهو القيثارة الشعرية التي ارسلت نغمات من التأمل الفلسفي عبرت أقوى تعبير عن نزعات عصره الفكرية ، فليس لنا أن نؤاخذه على ذلك التناقض الذي بدا في بعض أشعاره إزاء مذاهب تباينت فيها آراء الفلاسفة تبايناً ، وليس التناقض الذي تقع عليه في شعر ابي العلاء إزاءها إلاّ تعبيراً صريحاً عن اختلاف وجهات النظر الفلسفي فيها .

وقد أثبت المؤلف الفاضل وجهة نظرنا في جميع صفحات الرسالة . فانه عندما تناول الكلام في مختلف نواحي نظراته الفلسفية ردها إلى أصول انحدرت منها ، كما أنه مهد للكلام في تأملات أبي العلاء بكلام العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي وهو في لبه اجمال لما ذاع في عصر أبي العلاء من الآراء الفلسفية وهي النبع الذي استقى منه شاعر الفلاسفة جميع تأملاته. والرسالة في جملتها من الدراسات القوية التي تمتاز بسلامة الأسلوب ووحدة الفكرة والبيان.

كتب حديثة ظهرت

لوديع فلسطين

١ — تاريخ ماقبل التاريخ

لعبد الله حسين — مطبعة الشباب الحديثة

مؤلف علمي جليل كتبه الأستاذ عبد الله حسين المحامي لجمع بين علوم الجيولوجيا والانتروبولوجيا والحيوان والفلك والتاريخ والاجتماع والفلسفة والأديان. وقد حلا للاستاذ عبد الله أن يلخص محتويات الكتاب فقال في مقدمته: «أما موضوعه فانه يتناول تلك العصور البعيدة التي سبقت الحضارات التاريخية القديمة المعروفة مبتدئاً بالكون وظهور الحياة على الكرة الأرضية عارضاً التقلبات الطبيعية ونشوء الانسان وغرائزه وانتاجه المادي والعقلي. ولما كان هذا الموضوع يتطلب من الاستقصاء والاستيعاب ما تقصر عنه هذه الصفحات، كان حماداي أنني جمعت أصوله ونسقت فصوله وأوجزت تفاصيله ليسراً للمستزيدين أن ينهلوا من مراجعه المدونة في آخره... داعياً أبناء مصر والعروبة الى استكمال بحث هذا الموضوع». وصدّر المؤلف كتابه بشعار اتخذه لنفسه: «كل كتاب جديد لا يضيف جديداً إلى المعرفة، إما أن يكون رجعاً لصدى غيره، أو لغواً غير جدير بعناء القراء».

فكتاب «تاريخ ما قبل التاريخ» من أفضل المراجع التي تسرد تاريخ الحياة على الأرض وكيف تكوّنت الكرة الأرضية والاجرام السماوية، وكيف ظهرت الحياة على وجه البسيطة. وهو يعرض نظريات أفلاطون وأرسطو وداروين وغيرهم. ثم يعكف المؤلف على دراسة المعادن المختلفة ونصيب مصر منها، ويروي قصص الكتب المقدسة عن الخليقة والطوفان وغيرها من الحوادث الهامة التي سبقت التاريخ، ويسرد فصولاً في الأديان وفلسفاتها، والسحر والدجل والطب والصيدلة. ثم يعود فيضمن كتابه فصلاً عن اللغة والكتابة والطباعة، ثم يتبعه بفصل آخر عن الصناعة والعادات المختلفة والتقاليد القومية ويعرض لموضوع المكيفات والخمور، ثم يكتب عن الفن والأدب والتمثيل والشعر، ويختم كتابه بفصل عن مؤتمرات الرياضة الدولية وقراءة الكف وشرح مبدأ التصوف.

ب — لافوازييه

لعبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين — مطبعة المعارف بمصر — سلسلة إقرأ

ليس من يجهل لافوازييه وفضله العظيم على العلم التجريبي وتفانيه في خدمة الانسانية طريق هذا المضمار . وقد أصدرت مكتبة المعارف أخيراً كتاباً عن لافوازييه ترجم فيه عن حياته الأستاذان عبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين . وذكر ثانيهما في مقدمة الكتاب أنه وقف في صيف عام ١٩٣٧ في شارع « لامادلين » بمدينة باريس غير بعيد عن دار الأوبرا أمام تمثال « لافوازييه » العالم الشهيد ، فذكر انه ولد عام ١٧٤٣ ، وأن فرنسا خاصة والعالم المتحضر عامة سوف يحتفل بعد ستة أعوام بمرور مائتي عام على مولده .

« وانقضت السنوات الست ، فاذا فرنسا ، بل واذا الانسانية المتحضرة كلها ، قد صرفتها الغاشية العامة عن لافوازييه وغير لافوازييه . وقد رأيت براً بهذا العالم الشهيد الذي أتى في علم الكيمياء بما يشبه الخوارق ، وهو العلم الذي أعيش له وأعيش عليه ، أن أقدم إلى قراء العربية هذه الترجمة المتواضعة إحياءً لذكراه » .

يشتمل الكتاب على ترجمة لحياة لافوازييه وسرد لفتوحاته في عالم العلم ونشاطه في الحدب على دور العلماء ومؤسساتهم وتضحياته في سبيلها بكل شيء . كذلك يحتوي الكتاب صوراً من نشاط لافوازييه السياسي ، وكيف استشهد ضحية لغدر السياسة الحمقاء . وفي ذلك يقول المؤلفان : « صعد الى المقصلة رابط الجأش . وما هي إلاّ لحظة حتى كانت الثورة الفرنسية قد ارتكبت أشنع جريمة في تاريخها إذ حزّت المقصلة رأس لافوازييه ، وفصلت بذلك عن فرنسا أعظم عظمائها » .

وليس ثمة ريب في عبقرية لافوازييه . فقد استطاع وهو حدث أن يعدّ مشروعاً ضخماً لإضاءة باريس بطريقة اقتصادية سهلة . واستطاع وهو شاب في مقتبل العمر أن يجالس كبار العلماء ويناقشهم مناقشة الندّ للندّ ، بل إنه حطّم كل تقليد وأصبح عضواً في أكاديمية العلوم الفرنسية ولما يتجاوز الخامسة والعشرين .

هذه بعض النواحي الظاهرة في حياة لافوازييه ، وقد بسّطها العالمان الشابان عبد الحميد يونس (لا عبد المجيد كما ذكر خطأً في عددٍ سابقٍ من المقتطف) ، وعبد العزيز أمين ، في الكتيب العلميّ « لافوازييه » .

ج — قصة البنسلين

للدكتور مصطفى عبد العزيز — مطبعة المعارف بمصر — سلسلة اقرأ

وثمة كتاب علمي ثالث يبحث في قضية من أحدث القضايا التي تشغل الرأي العام في العالم وتذهله . فما أكثر الألسنة التي لاكت كلمة البنسلين في السنوات الأخيرة ، وما أطول ما كتبته الصحف عن تلك المادة السحرية العجيبة التي تُعد أعظم الكشوف العلمية الحديثة

وقد عنّ للدكتور مصطفى عبد العزيز أن يفرد كتاباً خاصاً عن البنسلين يذكر فيه قصته بإطناب ، مراعياً الروية العلمية في الكتابة والدقة في السرد . فكان مجهوده موفقاً إذ استطاع أن يجمع بين شتات المعلومات التي لم تعرف بعد طريقها إلى الكتب العربية ، ورتّبها ، وسلسلها ، وعزّزها بالصور والرسوم ، فخرج كتاباً شاملاً يستطيع الرجل العادي أن يقرأه ويستوعب محتوياته دون عناء كبير .

ولما كان البنسلين نوعاً من الفطر ، فقد رأى الدكتور مصطفى أن يبدأ كتابه بتوضيح أنواع الفطريات ومزاياها وأضرارها ، وانتقل من ذلك إلى التحدث عن الأمراض الخبيثة التي تولدها البكتيريا والميكروبات وهما الأمراض التي لولا كشف البنسلين لظلت كالسيف المسلط على رقاب البشر ، ترعى وتفتك بلا ضابط أو رادع ولكن شكراً للاستاذين فلمنج وفلوري اللذين كان لهما الفضل في كشف البنسلين والتبحر في دراسته حتى أمست عقّارات السلفا لا تعد شيئاً مذكوراً الى جانبه ، وهما العقّارات التي كانت إلى وقت قريب تُعدّ إحدى معجزات الطبّ الخارقة .

وقد جاء في خاتمة الكتاب : « وإذا كان لكل قصة من قصص الحياة مرماها ومغزاها ، فمغزى قصة البنسلين هو ذلك الصراع المستمر بين الكائنات من فطريات وميكروبات »

تلك قصة البنسلين ، فاتنة الدنيا في القرن العشرين !

قاعدة جليلة

في التوسل والوسيلة

أصدرت دار المنار الطبعة الرابعة من هذا الكتاب لشيخ الاسلام ابن تيمية حرر فيه أهم المسائل الدينية التي اضطرب فيها المتأخرون ، وبين مذهب السلف الصالح فيها وهي : التوسل والاستغاثة والدعاء والسؤال والشفاعة والقسم على الله ببعض مخلوقاته والاستسقاء والزيادة والخوارق وحدود التوحيد والشرك وحق الله على عباده وحقهم عليه والفرق بين المخلوق والخالق والقول في التشريع ومراتب الحديث والمحدثين .

باب الأخبار العلمية

البحث الحديث وسموم الافاعي والعقارب

ليس هذا مجال الحديث المفصل في ما يصنع من أنواع اللقاح والمصل للأمراض المختلفة ولكن لا يفوتنا أن نذكر طرفاً من عجيب المباحث الحديثة التي تمَّت في العصر الحديث لصنع مصل يقي من سموم الأفاعي والعقارب وبهذا المصل استطاع الانسان أن يفوز في النزاع بينهُ وبينها .

وقد أخذت المصانع الطبية تصنع مصلاً يدعى انتيفنين يرجع الفخر في اكتشافهِ إلى الدكتور كالمت الفرنسي ، يقي من لدغ الأفاعي في أميركا الشمالية . وغيرها كالأفعى المسماة ذات الأجراس ، والأفعى ذات الرأس النحاسي وهو يباع في أنابيب يستطيع الصياد أو الرحالة أو أي شخص آخر معرض للدغ الأفاعي ان يحملهُ في جيبهِ ويجب أن يستعمل حالاً بعد حصول اللدغ أو على الأكثر في أثناء ١٢ ساعة الى ٢٤ ساعة بعد اللدغ ويبقى فعالاً مدة خمس سنوات بعد تحضيره .

ومما يؤخذ على هذه الطريقة أن نوعاً واحداً من المصل لا يستطيع أن يقي من كل أنواع سموم الأفاعي ، فالرجل الذي يتعرَّض للدغها يجب أن يكون حاملاً في جرابهِ أنواعاً مختلفة من الأمصلة الواقية من سمومها وعليه أن يكون جامعاً لجميع حواسهِ حين يلدغ ليعرف نوع الأفعى التي لدغتهُ ليستعمل المصل الخاص بها والذي يقي من فعل سمها .

والعلماء ماضون في البحث للتغلب على هذه الصعوبة . ولا ريب في أنهم بالغون الغرض وفقهم الله .

يؤخذ السم من الأفعى بجعلها تعض بأنيابها على إناء زجاجي مستطيل تحيط بهِ مادة غروية . فيستقطر من كل أفعى ٣٠ قطرة من السمّ إلى ٤٠ قطرة . أو يقبض على الأفعى وتدلك فوق الغدد التي تحتوي على سمّها ، فينقطر السم من نابيْها . ثم يحقن هذا السم في حصانٍ حقناً متزايدة المقدار ، مدة ١٦ شهراً في الغالب وبعد ما تنقضي بضعة أيام على الحقنة الأخيرة يفصد الحصان ، ثم يعاد فصدهُ ثلاثة أشهر بعد ذلك ، ويحضَّر المصل الواقي من السم كما يحضَّر مصل الدفتيريا .

ويسرنا أن نقول أن للدكتور شوشه بك وكيل وزارة الصحة مباحث على جانب عظيم من خطر الشأن في تحضير المصل الواقي للتطعيم ضد سم العقارب . ولا جدال في أن لدغ العقارب منتشر في بعض انحاء القطر

المصري وخصوصاً في بعض انحاء القاهرة والواحات والصعيد ، وينجم عنه جملة وفيات كلَّ سنة بين الأطفال عادة .

ففي سنة ١٩٢٢ مثلا حدثت ٨٣٦ وفاة بلدغ العقارب

وقد أثبت الدكتور طلعت سنة ١٩٠٤ إنه يمكن تلقيح الماعز ضد سم العقرب وان مصل الماعز الملقح يبطل فعل هذا السم وتوسع الدكتور طه سنة ١٩٠٨ في هذا الموضوع ونجح في تطعيم الخيل ضد هذه السموم فوجد أن مصل الخيل المطعمة ذو فائدة في علاج المصابين . وهذه الطريقة وإن تكن صعبة الاستعمال وخطرة على الحيوانات المحقونة إلا ّ إنها المستعملة في تحضير المصل الواقي من لدغ العقرب .

وقد استخرج الدكتور شوشه بك بعد ذلك القواعد العلمية التي يمكن بمقتضاها تحضير المصل الواقي من لدغ العقرب فيحدث مناعة فعالة وأثبت أن الارانب والخنازير الهندية يمكن اكسابها مناعة فعالة بحقن المصل المحضر في طريقته ، وإذاً يمكن تحضير المصل الواقي من لدغ العقرب من الخيل بدون تعريضها للخطر الذي كانت تتعرَّض له في طريقة طه القديمة .

من معجزات العلوم والفنون

أعظم اكتشاف زراعي

اكتشف الدكتور جوستاف اجلوف رئيس المعهد الكيميائي الاميركي ان مسحوق الكولكيثين وهو مسحوق أصفر سحري يضاعف حجم الخضراوات . وتكهن عن مستقبل منافعه بقوله انهُ ييسر زراعة أنواع جديدة من الفواكه والخضراوات فاثرت تفصيل هذا الاكتشاف العجيب نقلاً عن إحدى المجلات العلمية الاميركية :

في وسع المرء أن يصبح عالماً عبقريًّا من علماء النبات الذين تمكنوا من الاحتيال على الطبيعة . وقد يتاح له أن يفوق في هذا الفن الحديث ما بلغه بربنك في زمانه وذلك بمقدار طفيف لا يزيد على ملء نصف ملعقة من ملاعق الشاي من المواد الكيميائية التي سنصفها لك فيما يلي . فتتمكن من إنتاج فواكه وأزهار ضخمة وتوقف نمو غيرها بحيث لا تعدو جزءًا من حجمها الأصلي وتنمي نباتات عجيبة جدًّا في أشكالها .

وبهذا العلاج الكيميائي الطريف يتسنى علاج النبات الضعيف وجعله قويًّا وتوليد طماطم خالية من البذور ثم قلب النبات وجعل جذوره تنمو فوق ساقه . وفي وسعك إذا شئت أن تقلع هذا النبات من منبته ثم تعيد غرسه بالعكس بحيث تدفن أوراقه في التربة

وتبقى جذوره في الهواء فلا يلبث أن يتأصل في الأرض من جديد وتنمو فيه أغصان جديدة .

وهذه الأمور جميعها بل ما هو أكثر منها يتسنى آداؤها بمساعدة هرمونات وفيتامينات نباتية صناعية حديثة الاكتشاف وما زالت بعض النتائج التي تنتجها لا تخلو من الغموض إلى حدّ ما . أو هي كما قال أحد الزراع (أمور لا نستطيع إدراك كنهها) فيكفي القول « إنها وسائل تتخذ لتنظيم نمو النباتات » أو بتعبير آخر . إنها وسائط تساعد الزراع على اكثار الحاصلات وتحسين أحوالها . ومن شأن هاتيك المواد الكيميائية تقوية النبتة حتى تستطيع شق طريقها في التربة شقّاً أسرع من المألوف . ثم توليد جذور أضخم من المعتادة تنتج نبتة قوية تحمل فاكهة يانعة من طراز واحد .

الهرمونات الجديدة تقمع الآفات الزراعية

ويمكن بعض هذه الهرمونات الجديدة المعاونة على قمع الآفات الزراعية . كما إن بعضها يسوغ استعماله لتأخير النمو الطبيعي للنبات . وهذا من شأنه وقاية المحصول من أضرار تقلب الأجواء في حالة نموه عاجلاً بحرارة مباغتة قبل زوال خطر الصقيع . ومنها هرمون يرش على شجر التفاح فيثبت ثمره في أغصانه حتى يتم علاجه فيتقى البستاني الخسائر التي تنشأ عن سقوط التفاح بنفسه أو بالرياح . وكذلك يتيسر منع بعض الخضراوات من التزريع حين تخزينها كالبصل والبطاطس بأن ترش أكياسها باحدى تلك المواد الجديدة

أسماء الهرمونات ومنافعها

— وتعرف هذه المركبات الكيميائية التي تحدث هذه المعجزات الزراعية بأسماء فنية هي كما يأتي : —

حامضا الاندول أسيتيك Indole acetic والليفيولينيك levulinic acid ونفثالين أسيتاميد وفيتامين ب رقم ١ — وغيرها من الفيتامينات . والعالم الامريكي الذي يستعمل هذه المواد وغيرها هو جورج ل. وارنر صاحب المباحث الأصلية في استعمال فيتامين ب — ١ — في النبات وذلك لصنع أشياء جمة مما يستطاع صنعها في معهد مباحثه في مدينة بسادينا في كليفورنيا حيث يشاهده الزائر يرش قطرة من أحد السوائل في وعاء يحوي أزهاراً مقطوفة فتظل غضة أسبوعاً كاملاً . ولا غرو فقد تناول الأستاذ ورنر عقل أزهار الكاميليا ، وهي مشهورة بكونها عسيرة التأصيل كل العسر ، فنقعها في سائل كالماء وذلك قبل غرسها في التربة . فلما غرست

بعد ذلك ، ولدت مجموعات قوية من الجذور في أسبوعين . وبفيتامين ب رقم ١ — وغيره من المواد الكيميائية أتيح لذلك العالم توليد جذور لأي نوع كان من عقل النباتات التي يعلوها الخلاء حيٌّ لجعلها تنمو نمواً منظماً . والخضراوات ونباتات الأزهار والشجيرات والأشجار التي يعالجها على هذا النمط ، تنضج قبل غيرها ، وتكتسب رونقاً أجمل منه في أخواتها وتكون أقوى من مثيلاتها التي حرمت العلاج . وأضحى في وسع الزارع الأمريكي أن يحذو حذو ورنر وزملائه من الباحثين في كثير مما فعلوا من المعجزات الزراعية لأن كثيراً من المواد الكيميائية التي يستعملونها توجد في أسواق أمريكا على شكل مزيجات تحتوي على مواد منبهة للنمو مختلفة الأنواع تستعمل لأغراض شتى . وما على الشاري إلاّ أن ينتقي منها الصنف الذي أثبت الاختبار صلاحيته لما يصبو اليه زراعه من النتائج ولكن ربما تحقق الآمال في بعض الأحوال لأن النباتات جميعها ليست صالحة بدرجة واحدة لقبول التقوية العظيمة التي تنجم عن الهرمونات في أغلبها . كما إن هاتيك المواد الكيميائية لا تنتج نتائج عجيبة في التربات التي تزخر بالمواد القلوية . فعلى الزارع الحذر في اتباع الارشادات الخاصة بأية مادة من هذه المواد الكيميائية الجديدة القوية لنمو النباتات إذ تقضي تلك التعليمات باضافة قطرة واحدة من أحد محاليلها الى كل خمسة جالونات من الماء الذي يستعمل لري النبات أو رشه . وهذه هي الجرعة المعتادة .

أما إذا اشتد تركيز حامض الاينادول أسيتيك فانهُ يقتل النبات . وكذلك المحلول الضعيف من المادة عينها يقف نمو النبات فيجعلهُ ناضجاً وهو ما زال نغاشياً [1] . على حين أن للمحلول الضعيف جدًّا من المادة نفسها تأثيراً عكسيًّا إذ يجعل النبات نضيراً

كيف تولد الصفات الممتازة في النباتات

أما إذا أُريد توليد صفات ممتازة في النباتات فيستعمل نوع آخر من المواد الكيميائية السابقة الذكر ونخص منها الصلاح colchicine وهو سم زعاف يستخرج من جذور الكركم الخريفي autumn crocus وكان هذا العقار يعدُّ في أحد العصور الغابرة من الادوية المألوفة لعلاج داء النقرس .

ويمكن الحصول عليه من الصيادلة كسائر المواد الكيميائية المشار اليها . وتكفي قطعة صغيرة منهُ للقيام بالعمل المقصود . فيذاب جرام من الصلاح في ثمن جالون من الماء المقطر . ويمكن تخفيفها أيضاً عند استعمالها . أو يستعمل عشرة ملليجرامات من الصلاح ممزوجة بجرام من دهن الصوف lanolin fat

(١) النغاشي — التزعة باقة العامة — وهو الذي لم يستكمل نموه الطبيعي في حينه

فيكفي لكثير من التجارب ، إنما يجب إبعاد كل من ذينك المزيجين عن الايدي ، والوجه لأن كلاً منهما سم باطني خطر .

ويبدو لنا ان اللحلاح يشل وظيفة انقسام الخلية في النبات . وهذا مما يسبب مضاعفة الصّبْغِيات (الكروموسومات) في الاجزاء النباتية التي تستهدف له . والصبغيّات هي عوامل الوراثة في النبات . وأي تغيير يحدث في عددها يغير أيضاً مميزات النباتات . وتتجلى هذه التغيرات في الجيل الثاني من حياتها . ويمكنك نقع البذور بضع ساعات أو أيام في محلول مخفف من اللحلاح وتجفيفها ثم بذرها كالمعتاد . ومن الصعب التكهن بدقة عن النتائج التي تعقب ذلك . ولكن مما لاشك فيه ان النبات ينمو نمواً مشوهاً فاسداً وينتج أزهاراً غريبة الشكل . والبذور التي تنتج من هذه الازهار هي التي قد تولد أوراقاً فائقة الحجم وأزهاراً وأثماراً ضخمة فيجب الاحتفاظ بهذه البذور لاعادة زرعها ويحتمل أن تكون عقيمة وربما تنتج نباتات تحمل ثماراً مبكرة قبل غيرها من جنسها أو تكون مقاومة للعطش أو تصير ذات مميزات جديدة . والوسيلة الوحيدة لمعرفة النتائج هي استمرارها .

وبدلاً من نقع البذور في المحلول المشار اليه يمكنك استعمال قطرات قليلة منه في الماء كرش يرش به النبات عدة مرات كل أسبوع فتحصل على النتائج عينها

ومن الوسائل العلمية الدائمة الاستعمال تربية طائفة من البذور أو النباتات التي لم تعالج بهذا العلاج الكيميائي (اللحلاح) وذلك في حوض من حياض الرقابة ليتسنى لمربيها المقابلة بين نتائج النباتات المعالجة وغير المعالجة .

كيف يستعمل اللحلاح وما نتائجه ؟

وللزارع الخيار في استعمال عجينة اللحلاح الممزوجة بدهن الصوف (لانولين) استعمالاً موضعيًّا ، وذلك للنباتات التي تكون قد أخذت في النمو فيدهن ساق النبات بمسواك مغموس بقليل من العجينة الكيميائية المذكورة آنفاً . أو وضعها على رؤوس النباتات أو على غصن من أغصانها فلا يلبث الجزء المدهون منها أن ينتفخ . وكذلك سرعان ما ينمو الغصن المعالج فيصير أضخم من سائر الأغصان وأسرع . ثم تحفظ البذور التي تنتج من هذا النبات لتصير وسيلة للوقوف على التغيرات التي تطرأ على الجيل التالي لها .

وتنبت الجذور من الساق في المكان الذي توضع فيه العجينة . وهذه هي التجربة التي يتمكن بها من نقل النبات من تربته ثم اعادة غرسه منكساً . والجذور التي تتولد من اللحلاح تنمو في الأرض.

عوض جندي

فهرس الجزء الثاني من المجلد السادس بعد المائة

٩٧ ألغاز العلم : لغز عصر الجمد ، لغز الأشعة الكونية ، لغز الزكام : بقلم فؤاد صرّوف

١٠٤ على هامش الطب : للدكتور سليمان عزمي باشا

١٠٨ المرأة ثمَّ المرأة : لاسماعيل مظهر

١١٣ مبدأ سيادة الدولة وقضية السلم العالمي : للاستاذ صلاح الدين الشريف

١١٨ الفيل ذلك المجهول

١٢٢ في الكوخ (قصة) : عن فاندا فاسيلفسكا

١٣٣ وصايا صحية : الفاكهة في الغذاء اليومي — الاحتياط في تناول الطعام

١٣٤ التراب يغزو الموت

١٣٨ أقوال ، قطعة شعرية : للرمَّاح بن مَيادة

١٣٩ تأثير الآلات الحديثة في حياة الفلاح المصري من حيث الثروة والعمل

١٤٤ مرسلات مع الريح — فوق الصخرة السوداء

١٤٨ الكهربا وتشخيص الأمراض — طرق ثابتة لا تكذبك ولا تضلك

١٥٢ قمة الدنيا — إلهامك الروحي قد يرفعك لحظات إليها

١٥٥ عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب : للأب أنستاس ماري الكرملي

١٦١ وحدة الوجود أمذهب أم فكرة ؟

١٦٤ كل مرحاً تعش طويلاً

١٦٥ تاريخ يومك ما هو ؟ التقويم العالمي يكفيك إلى نهاية الدهر

١٧٠ مأثورات لابن المقفع : عن بيدبا الفيلسوف

١٧١ حذار من أمراض البرد

١٧٥ في مصر القديمة : للدكتور باهور لبيب

١٧٨ مفردات نباتية : لمحمود مصطفى الدمياطي بك

١٨٢ مكتبة المقتطف * الفتح مستمر . الطب التجريبي . مدخل الى دراسته . من حرب عالمية الى سلم عالمي . أعلام الاسلام : محمد عبده . أبو العلاء المعري فيلسوف الشعراء . كتب ظهرت : لوديم فلسطين . ا ـ تاريخ ما قبل التاريخ . ب ـ لافوازيه . ج ـ قصة البنسلين . قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة .

١٩١ باب الاخبار العلمية * البحث الحديث وسموم الافاعي والعقارب . من معجزات العلوم والفنون . الهرمونات الجديدة تقمع الافات الزراعية . أسماء الهرمونات ومنافعها . كيف تولد الصفات الممتازة في النباتات . كيف يستعمل الحلاج وما نتائجه ؟ لعوض جندي

عدد مارس من المقتطف

بعض موضوعات العدد

على هامش الطب : سليمان عزمي باشا

العالم العربي : اسماعيل مظهر

لحظة الصفر : قصة

الضمان الاجتماعي : مشروع بفردج من ناحيته : التاريخية والاجتماعية

الدبلوماسية البابوية : صلاح الدين الشريف

الريف والزراعة في الولايات المتحدة : وديع فلسطين

اصلاح الخط العربي : الدكتور متى عقراوي

الخطايا العشر : عشر خطايا اجتماعية تسبب ما الانقسامات والحروب

عدو الكذب : قصة : حسين المهدي سنام

ارتياد جزيرة العرب : للاستاذ محمد عبد الغني حسن

المخترعات الحديثة في خدمة المجتمع : محاضرة لأحمد زكي بك

مفردات النباتات الطبية : للاستاذ محمود مصطفى الدمياطي بك

مكتبة المقتطف

باب الأخبار العلمية

وغير ذلك من المقالات والبحوث ، مدبجة بأقلام كبار الكتاب في العالم العربي

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السادس بعد المائة

١ مارس سنة ١٩٤٥ — ١٦ ربيع اول سنة ١٣٦٤

ألغاز العلم

— ٢ —

لغز الورقة الخضراء

في طليعة ألغاز الطبيعة التي يوليها العلماء أعظم اهتمام ، لغز الورقة الخضراء . فالأوراق الخضر ، أو جميع الأجزاء الخضر في كل نبات ، هي أكبر وأعجب معامل كيميائية على سطح الأرض ، فهي في ما تركبه ، تعدُّ أعظم منتج لمواد الطعام ، وأغزر مورد للوقود ، وبفعلها يرتبط مصير الانسان نفسه . وأظهر مظاهر هذا النشاط الحيوي الكيميائي الصناعي ، في الأوراق الخضر ، هو اصطلاح ضوء الشمس وثاني أكسيد الكربون والماء على تركيب السكر . وهذا التركيب يتم في خلايا الورق والجزوع . ولما كانت الأوراق والجزوع ، خضراً على الغالب ، فان معنى ذلك انها لا تستطيع أن تنتفع إلاّ بطائفة من أشعة الشمس ذات طول معين . وبعد أن يتركب السكر (أو أصناف السكر) يتحوّل إلى نشاء وخشب . وقد قدَّر العلماء ان مساحة تبلغ ذراعاً مربعة من سطح الورق الأخضر تركب ثلث أوقية من السكر في النهار ، ولا تحتاج الاّ إلى أكسيد الكربون والماء من المواد الأولية .

وقد كشف العلماء أن هذا العمل الكيميائي ، يحتاج الى أنزيمات لكي يتم . فهي مواد تؤثر في التفاعل الكيميائي الحيوي ، على نمط تأثير الوسيط الفلزي في التفاعل الكيميائي العادي ، أو هي تفعل فعل الأنزيمات الهاضمة في اللعاب في تهيئة عناصر التفاعل للتفاعل . وهـذه الأنزيمات توجد في الورقة . أما الخضرة فلا غنى عنها كذلك . وقد أجرى فريق

من العلماء تجربة بلغت الغاية دقة وعجباً، فقد أحدثوا تغييراً في بناء الصبغي (الكروموسوم) في نباتات اتخذوها موضوعاً للتجربة في المعمل ، فدمرت في الصبغيات ، عوامل الوراثة التي تحدث الخضرة في النبات . وصار ورق النبات أصفر لا أخضر ، فثبت لهم ان هذا النبات عاجز عن أن يصنع بطريقته المألوفة كل ما يحتاج اليه من غذاء . فعمدوا حينئذٍ ، الى ترقيع جذع النبات ، الذي حدث فيه هذا التحول العظيم ، بجذع أخضر ، يستطيع أن ينتفع بضوء الشمس ، فاذا هو في منزلة مصنع يصنع الغذاء الذي مست اليه حاجة النبات ، حين أزيلت خضرته .

إن طريقة انتفاع النبات بضوء الشمس لتركيب السكر من الماء وثاني أكسيد الكربون لهي من أعظم الحقائق شأناً في تاريخ الحياة على سطح هذا السيار . ومع ذلك فلم يتيسر للعلماء النفوذ إلى سرها . والناس لا ينتفعون بنتاج هذا التركيب ، إلا في المرتبة الثانية أو الثالثة على الغالب . نعم قد نكون ممن يحبون أكل السلطة الخضراء ، أو الخس أخضر غضاً ، فننتفع بما يصنعه لنا النبات، ولكننا على الأكثر ندع المواشي تأكل النبات الأخضر (أي المصانع الكيميائية وما تصنع) ثم نأكل نحن لحم المواشي.

ولو استطعنا أن نفعل منذ الولادة ، ما تفعله الورقة الخضراء ، أي أن ننتفع بضوء الشمس في تركيب السكر من الماء والهواء ، لقضي على مشكلة من أخطر المشكلات التي يواجهها البشر . وإذاً لظفرنا بكل ما نحتاج اليه من غذاء بأقل جهد ، ولأشرق فجر عصر جديد في حياة الناس . ولذلك نرى العلماء مكبين على استطلاع السر، ومن يدري فقد نصبح ذات صباح فنقرأ خبراً مطوياً في زاوية محجوبة من صحيفة ، أن السر قد كشف، على حين نقرأ في الصحيفة نفسها عنواناً مكتوباً بحروف عراض ، وصف معركة أو جريمة أو مولد خمسة توائم .

وإذا كشف السر ، فعسى أن يكون للجهاز الرحوي (سيكلوترون) يد كبيرة في ذلك . وأحد منافع الجهاز الرحوي ، انه يصلح لتحويل طائفة من العناصر غير المشعة ، عناصر مشعة . وليس يهمنا في هذا البحث أن مدة إشعاع هذه العناصر تختلف طولاً وقصراً . وإنما يهمنا ان العلماء صنعوا أجهزة دقيقة ، تتبين مسير ذرات هذه العناصر في أجهزة الهضم وأوعية الدم ، في أجسام الحيوان والنبات ، وقد عمد العلماء إلى التوسل بذرات العناصر التي استحدث فيها الإشعاع بالجهاز الرحوي ، لاستكشاف المواد والتفاعلات الكيميائية في النبات . فقد تمكن الدكتور روبين أحد أساتذة جامعة كاليفورنيا من أن يضع قدراً مهماً

من ثاني أكسيد الكربون وتتبع امتصاص النبات لجزيئات هذا المركب المشعّ. والطريقة التي اتبعها في تحويل ثاني اكسيد الكربون مشعًّا تقوم على إطلاق قذائف الجهاز الرحوي على ذرات البور فتقذف منها ذرات كربون مشعّ فتستعمل في توليد جزيئات ثاني اكسيد الكربون فتكون مشعة، فتوضع هذه الجزيئات في فضاء وماء تنمو فيه نباتات مثل الشعير والقمح وعبّاد الشمس فتمتصها، ثم يشرَّح النبات أو يفحص بالمطياف أو يحلل تحليلاً كيميائيًّا لمعرفة ذرّات الكربون فيه. وقد عانى هذا العالم مشقة عظيمة في بدء البحث لأن ذرات الكربون المشعة تفقد قدرة الإشعاع في ست ساعات، ولذلك عمد إلى ذرّات نظير isotope من نظائر الكربون لا تفقد قدرة الإشعاع المستحدث فيها إلاّ بعد انقضاء نصف مليون سنة. وعليها مدار التجارب الآن.

ومع ذلك فلا يزال سرّ الورقة الخضراء باب موصداً، يحجب وراءه كنوزاً من المعرفة لا تقوَّم بمال.

لغز بدء الحياة

ان الغالب في دوائر علوم الأحياء، هو القول بأن نشوء الأجسام الحية على سطح الأرض تمَّ من مواد غير حية. فكيف نشأت الخلية الأولى؟

والخلايا ككل شيء في الكون مركبة من جزيئات والجزيئات مركبة من ذرّات. وكل ذرّة تشبه — إلى حدٍّ ما — نظاماً شمسيًّا قوامه دقائق موجبة الكهربائية وأخرى سالبتها. فالمادة الأصلية التي تتقوّم بها الخلية الحية، هي مادة لا حياة فيها. ولكن الخلية تنشطر وتتكاثر. والانشطار ليس مقتصراً على الخلية، بل يشمل مئات وألوف من الأجسام الداخلة في تركيبها كالصبغيات وما أشبه. ومن هذه الخلية، تتركب جميع أجسام الأحياء، من سمك وطير وبشر، ومن مجنون في مستشفى إلى رجالٍ بلغوا قمم العبقرية، من أمثال سقراط وميكل انجلو ونيوتن وبيتوفن. فكيف بدأت هذه الخلية؟ وكيف اصطلحت عوامل الطبيعة على جمع الذرّات والجزيئات جمعاً ينشىء منها خلية حية؟

ليس يملك العلم جواباً شافياً عن هذا السؤال. ولكنهُ يملك رأياً نوجزهُ فيما يلي:

بعد ما بردت كرة الأرض حتى غدت حرارة قشرتها معتدلة، كان جانب كبير من سطح الارض يغطيه الماء. وكان الغلاف الغازي المحيط بالأرض يحتوي على بخار الماء وثاني إكسيد الكربون والنتروجين وبعض غاز النشادر، ومن المرجح ان مقدار الأكسجين فيه كان يسيراً جدًّا. أما الأكسجين الذي نجده في الهواء الآن فردُّه إلى الأكسجين الذي كان متحداً

بالكربون في ثاني إكسيد الكربون. وقد انطلق الأكسجين من عقاله بعد أن ترسب الكربون صخوراً محتوية على كربونات الجير مثلاً، أو فحماً في عروق الفحم، أو نفطاً في طبقات الأرض. وكان لنموّ النبات شأن أي شأن في انجاز هذا العمل الواسع النطاق. ففعل التركيب الضوئيّ، يتمّ في الأوراق الخضر، بفعل اليخضور (كلوروفيل) وإشعاع الشمس، فينفصل الكربون عن الأكسجين — وهما متحدان في ثاني إكسيد الكربون كما تقدم — فينطلق الأكسجين حرّاً في الهواء ويترسب الكربون. ومن أدق البحوث العلمية الحديثة، بحث غرضه الموازنة بين مقدار الأكسجين الحر في الهواء، ومقدار الكربون المستقر في أشكال شتى في قشرة الأرض، وقد أسفرت هذه الموازنة عن حمل العلماء على القول بأن كل أكسجين الهواء تقريباً مرده الى الأكسجين الذي كان متحداً بالكربون في ثاني إكسيد الكربون عند ما كان مقدار هذا الغاز المركب أعظم جدّاً من مقداره الآن.

ولا يخفى أن الاوزون يحجب الأشعة التي فوق البنفسجي بعض الحجب. وجزيء الاوزون قوامه ثلاث ذرات من الاكسجين. ومعظم اوزون الهواء الآن في طبقات الجو العليا فهي أشبه ما يكون بدثار يدثر الأرض على بعد عظيم من سطحها. ففي العصور الخالية عند ما كان مقدار الاوكسجين الحر في الهواء أقل كثيراً مما هو الآن، كان ما يصل سطح الأرض من الاشعاع الذي فوق البنفسجي، أعظم مما يصلها الآن.

ومن الحقائق المعروفة أن جزيئات ثاني إكسيد الكربون، تتفاعل متأثرة بالأشعة التي فوق البنفسجي، مع جزيئات الماء، فتولد جزيء مادة «كربو ايدراتية» بسيطة كالنشا أو السكر. فاذا كان هناك نشادر في المكان الذي يحدث فيه هذا التفاعل، تولد جزيء أشد تعقيداً وأكبر حجماً من جزيء السكر او النشا. وقد يقترب في حجمه وتعقيد بنائه من جزيء البروتين. وعلى هذا الوجه تتولد المادة العضوية من المادة غير العضوية. ولكن هذه المادة العضوية ليست مادة حية، فكيف نفخت فيها شعلة الحياة.

على كرّ الزمن تتولد مقادير كبيرة من المواد العضوية كافية لتغذية الأحياء البسيطة التي قد توجد أو تظهر، والرأي أن تأثير أشعة الشمس، ولاسيما الأشعة قصيرة الأمواج في طيفها أفضى على الزمن إلى نشوء جزيئات عضوية على جانب من تعقيد البناء كافٍ لظهور بعض خواص الأحياء فيها، واذا كان هذا الفعل قد تمّ حقيقة فالعوامل المؤاتية لنمو هذه الأجسام الحية كانت متوافرة. فالطعام وفير والمنافسة منتفية. أما اذا ظهرت جزيئات من هذا القبيل على النحو المتقدم فمسألة فيها نظر. ولعل جزيئاً واحداً ظهر وتكاثر، فجميع الاحياء تتأثر تأثراً واحداً بالضوء المستقطب، وتتحرك حركة واحدة في مستوى الاستقطاب بينما

هناك حركتان مشاهدتان في الأجسام غير الحية . وفي الأجسام العضوية البسيطة كأصناف السكر والنشا . فكأن هذه الصفة دليلٌ على أن جميع الأحياء ترتد الى هذا الأصل — الجزيء — البعيد البسيط

واذا ظهر جزيءٌ من هذا القبيل واتصف بخواص الأحياء فنشوء الأحياء منهُ وتنوعها مسألة زمن طويل وتفاعل مستمر. ويكفي أن نسلم بنظرية التطوُّر العضوي لتفسير أشكال الأحياء المتعددة التي تعمر سطح الأرض سواءٌ أنباتية كانت أم حيوانية

وغاية ما يستطيعه البحث العلمي الآن في سعيه الى ادراك أصل الحياة انما هو التوفر على بحث اشكال الحياة البدائية وهي مرتبة بحسب تعقد بنائها وتنظيم جزيئاتها كما يلي من الأدنى الى الأعلى : الانزيمات ، الفيروسات الراشحة ، البكتيريوفاج (آكل البكتيريا) ، البكتيريا ، البروتوزى . الأحياء المتعددة الخلايا من نبات وحيوان والانسان في أوجها .

ولعلّ البكتيريا هي أدنى الأجسام تعقيداً وتنظيماً في البناء التي ثبت انها حية حقيقة ولكن بعض الأفعال التي تتصف بها أجسام دون البكتيريا مرتبة ، تشبه أفعال الأجسام الحية فعلاً من بعض نواحيها .

ولا يعلم ان الانزيمات الموجودة في الخمائر ، والفيروسات الراشحة والبكتيريوفاج ، تستطيع أن تتكاثر وحدها ، فالانزيمات تتكاثر في أثناء فعل التخمر ، والفيروسات تولد خواصها في أجسام أرقى منها مرتبة في سلم الحياة كما يحدث عند ما يصاب ورق التبغ بمرض مرده الى فيروس والبكتيريوفاج يتكاثر في أثناء قضائه على البكتيريا أما البكتيريا والبروتوزوى فتتكاثر بانشطار الخلايا على ان تكون درجة الحرارة وأحوال البيئة من طبيعية وكيميائية مؤاتية لهذا الانشطار. ولذلك من أشق الأمور أن يحكم العلماء : أتعدُّ الأجسام التي دون البكتيريا أجساماً حية حقيقةً أم لا . فالأشعة التي فوق البنفسجي أفعل جدًّا في تدمير البكتيريا والأحياء التي فوقها في سلم الحياة ، منها في تدمير الأجسام التي دونها في هـذا السلم . وهذه الحقيقة قد تكون كافية لتعليل وجود خلايا نصف حية على سطح الارض عندما كان الاشعاع الذي فوق البنفسجي الواصل الى سطح الارض أعظم جدًّا — لقلة الاكسجين الحر — منه الآن . ومن الجائز ان الأجسام التي في أسفل السلّم — أي الانزيمات والفيروسات والبكتيريوفاج — التي تعجز الآن عن التكاثر وحدها بغير معونة تسدى اليها من أجسام أخرى ، كانت قادرة على التكاثر في أحوال أشد مواتاة لتكاثرها عند ما كانت الارض في بدء مرحلتها ككرة صلبة .
ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن الجنين الانساني يعيش الساعات الاولى بعد تكونه في

معزل تام عن الاكسجين ، والنمو في هذه المرحلة الاولى من حياة الجنين يسير على وجهٍ أشبه ما يكون بفعل التخمر وهو فعل يتم بمعزل عن الهواء أي بمعزل عن الاكسجين . ولعلّ هذه المرحلة من حياة الجنين ليست إلاّ ظلاً للمرحلة الاولى من مراحل الحياة على سطح الأرض .

لغز الملاءمة في الاحياء

كيف تنشأ أشكال الحياة العليا — في النبات والحيوان — من الأشكال الدنيا ؟

ليس ثمة ريبٌ في حقيقة التطوُّر . والعلماء يعرفون جانباً كبيراً من السبيل الذي سار فيهِ التطوُّر منذ أقدم العصور . ولكنّ المسألة الأساسية المحيِّرة هي فهم سبب التطوُّر وطريقته . والعلماء اليوم أضعف ثقة بما قيل في سبب « أصل الأنواع » وطريقة تطورها حتى تلائم البيئة التي تعيش فيها ، مما كانوا منذ ستين سنة أو سبعين .

ففي الخمس والثمانين سنة التي انقضت منذ نشر كتاب أصل الأنواع ، جمع العلماء من الأدلة على ثبوت حقيقة التطور ما يجعلها في حرز حريز من سهام النقد . ولكنهم جمعوا كذلك من الحقائق عن الوراثة والتباين ، ما يثبت ان الآراء القديمة التي اقترحت لتعليل التطور لم تعلله قط . فنظرية لامارك في توريث الصفات التي يكتسبها الآباء في حياتهم لا تقوم على أساس « ثابت » أو يجب تعديلها في ضوء ما عُرِف عن تأثير الأشعة السينية في عوامل الوراثة . وإذا كانت الصفات المكتسبة كما وصفها لامارك لا تورّث فالأنواع الجديدة المتصفة بصفات تمكنها من ملاءمة نفسها للبيئة لا يمكن أن تنشأ . أما مذهب داروِنْ القائم على أن لكل صفةٍ من صفات الجسم الحيّ مقاماً من حيث أثرها في الصراع الضعيف الناشب بين الأحياء ، وأن الصفات التي تمكن الكائن من الظفر في هذا الصراع تورّث للاجيال التالية فأقرب إلى الاستنتاج المنطقي منهُ إلى الحقيقة . ومعظم التباينات الداروينية لا قيمة لها في هذا النزاع ولا هي تورّث ، إنما هي في الواقع اختلاف يسير عن المتوسط السوي يقتضيه ناموس الاحتمال الرياضي أو يفسّرهُ ، وهي أضعف من أن يكون لها هذا الأثر الخطير في تغير مصير صاحبها وسلالته ، وهي تورّث إذا كانت قريبة من المتوسط ، وتضعف قوة توريثها على قدر ما تبعد عنهُ .

على اننا في العهد الذي هدمت فيه نظريتا لامارك وداروِن في تعليل التطوُّر لم يخرج أحد من العلماء تعليلاً جديداً كاملاً يحلّ محلّ التعليلين القديمين . ولعلّ رأي ده فريز في « التحوُّل الفجائي » mutation أهمها .

« البقية في آخر الاخبار العلمية » . فؤاد صروف

على هامش الطب

بعض ما يجب أن يعرف الانسان

عن جسمه ونفسه في صحته ومرضه

للدكتور سليمان عزمي باشا

قد سبق ذكر تركيب العرق فليراجعه من يشاء — ونضيف على ذلك أن أهم غدد الجلد ثلاثة أنواع — غدد العرق وغدد تفرز مادة دسمة وغدد تفرز مادة صماخية وإفراز هذه يختلط مع بعضه فيزيد في لزوجة العرق على الجلد.

ولنفس السبب إذا وجد يوم شديد الحرارة بدرجة واحدة في القاهرة والاسكندرية فان الانسان يتأثر من الحر بالاسكندرية لرطوبة جوها أكثر مما يتأثر منه في القاهرة أو في أي جهة أخرى أقل رطوبة من الاسكندرية — لأن تبخر العرق من الجلد يحصل بسهولة في الجو الجاف — ومن حسن حظ المصطافين بالاسكندرية وشواطىء البحر ان حرارتها تكون عادةً أقل من حرارة داخل البلاد وان بها نسيم خفيف يلطف حرارة الجو وينعش الجسم — ومن المشاهد وقد لاحظته على نفسي ما يحصل في أوروبا وبالأخص في السهول والأماكن المشبعة بالرطوبة — ان خطر ازدياد الحرارة فيها يكون أكثر منه في البلاد الحارة فتزداد حرارة الجسم تدريجيًا لصعوبة تصريفها ويحصل هبوط في البنية واعياء شديد من الحر قد يؤدي الى ارتخاء العضلات وضيق التنفس وسرعة ضربات القلب وضعفها ثم الى هبوط وقد يعقبه الموت ولذا نقرأ في جرائد أوروبا حوادث وفيات في الصيف من اعياء الحر Heat Exhaustion أكثر مما يحصل في البلاد الحارة الجافة ومرض اعياء الحر شيء آخر خلاف ضربة الشمس Sun stroke.

• أذكر دليلاً آخر على تأثر الانسان من الحرارة في الجو المشبع بالرطوبة ما شاهدته عندما يشتغلون في البساتين بين الأشجار وتحت ظلالها إذ يظهر عليهم التعب بسرعة رغماً عن انهم يشتغلون تحت ظلال الأشجار ولا يشعرون بالتعب بهذه السرعة إذا ما اشتغلوا في الخلاء في وسط الغيط والسبب واضح. وهو أن النسيم يكون معدوماً بين الأشجار

الكثيفة كما يكون الهواء بينها وتحت ظلالها مشبعاً بالرطوبة — فلا تحدث سرعة تبخر العرق الذي يلطف تبخره حرارة الجسم .

• والمعروف أن العرق إذا كان خفيفاً معتدلاً يؤدي فائدة في تعديل الحرارة وينبئنا أن وسائل مقاومة الجسم للحرارة قد ابتدأت أن تعمل لنحترس ولنقلل مجهوداتنا ونستظل. ويستبشر أقارب المرضى إذا ما هلّ عرق على مريضهم لأنه يلطف من شدة الحمى ويبشر بقرب الشفاء . وينفرون من العرق الذي يحدث والجسم منخفض الحرارة ويعدونه دليلاً على الهبوط .

• لنفرض الآن أن البنية لا تتكيف بوسائلها الطبيعية لتخفيف ازدياد الحرارة فماذا تكون النتيجة . النتيجة تكون ظهور أعراض الاعياء من الحر التي تودي إلى الوفاة إن لم تتدارك بالعلاج السريع وليس التأثر من ازدياد الحرارة قاصراً على الانسان . بل نراه يؤثر تأثيراً سيئاً على الحيوانات ذات الوبر للأسباب الآتية :

أولاً أن حرارتها الطبيعية أعلا من حرارة الانسان الطبيعية، فحرارة الانسان الطبيعية ٣٧ درجة كما ذكرنا وأما حرارة الكلاب والقطط فهي ٣٩ درجة مئوية وحرارة الخراف والدجاج ٣٩ ½ والفراخ لا تعرق كثيراً لوجود الريش وكل من شاهد الفراخ في الحر يجدها ترفع أجنحتها عن جسمها وتفتح فمها وتتنفس بسرعة لتلطيف حرارة جسمها . وأما الكلب فان حركة تنفسه تزيد ويخرج لسانه لتصريف الحرارة — ويلاحظ أن الكلاب والدجاج والعصافير تغمس جسمها في الماء أو ترش عليه الماء لتخفيف الحرارة — وأغلب الحيوانات الشبه مائية كالبط حرارتها العادية تقرب من الأربعين ولذا فانها لا تقدر أن تعيش إلاّ بجوار المياه . وحب الجاموس للماء مشهور لنفس السبب وخصوصاً أن نسبة مسطح جلدها إلى وزنها وجسمها قليل فتكون نسبة تصريف الحرارة عندها ضعيفة فتستعين بالعوم في الماء لهذا الغرض . وليس الاعياء من الحر قاصراً على الانسان لأنه يصيب الحيوانات فكثيراً ما تحصل وفاة للغنم إذا مشيت في الحر وقد حصل فعلاً في مزرعة ألبان بجوار القاهرة حادثة اعياء شديد من الحر لعدد كبير من الجاموس لأنها تركت مدة طويلة في الشمس فظهرت عليها أعراض مقلقة زالت عندما نقلت إلى الظل ورش عليها الماء .

وكثرة الملابس وضيقها لا يسهل عمليــة تشعع الحرارة ولا تبخر العرق وتكون بمثابة الوبر الغزير من جسم الحيوانات الوبرية والريش من جلد الطيور . وعند المبدنين (السمان) تعيق طبقة الدهن السميكة تحت الجلد فقد الحرارة منه بواسطة التشعع كما تعيق انتظام

الدورة الدموية في أوعية الجلد الشعرية ولذا يتعب البدينون من الحر أكثر من غيرهم .

شاعت في وقت ما عادة طلاء الجلد بمادة لزجة للتسلية في أعياد الكرنفال وغيرها وقد توفى بعض الأشخاص من هذا السبب عند وجودهم في أماكن شديدة الحر لفقد الجلد وظيفة تصريف الحرارة بواسطة العرق والإشعاع وكان الطلاء اللزج سبب هذه الاعاقة عن تأدية الجلد لهذه الوظيفة

شاعت أخيراً طريقة تكييف الهواء وهي طريقة لها فوائدها ومضارها ولكن منافعها أكثر من ضررها ولا تضر إلاّ إذا أسيء استعمالها . ولا يجب أن تخفض الحرارة بواسطتها في الصيف إلى درجة كبيرة وإن لا ترفع في الشتاء إلى درجة كبيرة أيضاً حتى لا يحصل فرق شاسع بين حرارة الغرفة وحرارة الشارع ، لأن ذلك يساعد على الاصابة بالبرد إذا ما دخل الانسان الغرفة صيفاً أو خرج منها شتاءً ثم إلى الشارع لأنه يتعرض لفرق الحرارتين . فإذا كان الشارع في الصيف حرارته ٣٩° درجة وتكييف حرارة الغرفة على ١٥ كان الفرق ٢٤ درجة وهو فرق محسوس . وقس على عكس ذلك في الشتاء فتسهل الإصابة بالنوازل . ومن الضرر استعمالها في غرف الاطفال الأصحاء فإنها تكييف الحرارة لهم بدل أن تكيف بنيتهم الحرارة ، حسب الظروف بالوسائل الفزيولوجية — فتكون النتيجة أن تضعف هذه الوظيفة عندهم . ومسألة كثرة الملابس لها نفس المضار ولكن بدرجة أقل . وعلى الآباء أن يعوّدوا أطفالهم من الصغر على قلة الملابس وعلى مواجهة التغيرات الجوية باحتراس ليعيشوا عيشة قريبة من الطبيعة فتنمو معهم وظائف المقاومة وتكييف البنية على مختلف الظروف . ومن فوائد تكييف الهواء استعمالها صيفاً في غرف الاطفال المرضى باسهال الصيف الخطر على حياتهم ، وقد لوحظ أن تكييف الهواء باعتدال واحتراس في غرفهم بالمستشفيات يسهل عليهم الشفاء .

وقد استعمل الجرّاحون تكييف الهواء في غرف العمليات الجراحية فكانت لها مزايا لا يستهان بها ، وتظهر فائدة ذلك واضحة جلية إذا ما علمنا أن الإنسان وهو تحت تأثير البنج يفقد إلى درجة كبيرة وظيفة تكييف الحرارة ، البدنية ولا بد من وسائل اصطناعية لتكييف الحرارة حتى لا يتعرض المريض أثناء العملية للاصابة بالبرد . ولهذا السبب يلاحظ دائماً عند إنشاء المستشفيات أن تكون قاعة العمليات متوسطة بين حجر المرضى وأن يعمل على أن لا يتعرض المريض لتيارات الهواء في الطرقات أثناء نقله من غرفة العمليات إلى غرفته .

• ونظرية صنع الترموس الذي شاع استعماله وعمت فوائده أساسها وضع الشيء المراد حفظ برودته أو حرارته في اناء صنع بحيث لا تصرف جدره الحرارة لا بطريقة

الاشعاع ولا بطريقة توصيل الحرارة إلى ما جاورهـا . وقبل صنع الترموس كانت تستعمل أوانٍ صمّ المسام لحفظ الماء شتاء مثل الدورق الزجاجي أو الصيني — وفي الصيف تستعمل الأواني ذوات المسام مثل القلل الفخار فيرشح الماء من مسامها ويتبخر على سطحها فيمتص الحرارة بعملية التبخر فيبرد الماء . ويساعد الانسان عملية التبخر هذه بوضع قطعة من القماش، حول الاناء ووضعه في مكان مظل به نسيم خفيف ؛ فقطعة القماش بتبللها والنسيم بجريه يزيدان حركة التبخر . والزمزمية مغطاة بطبقـة من القماش السميك يبلل لنفس هذا الغرض في الصحراء .

• يمكننا بعد كل هذا الشرح أن نذكر شيئاً عن الحميات. وقبل أن نتكلم عنها يجب أن نميز بين ارتفاع الحرارة أو زيادتها بدون سبب مرضي، وبين ارتفاعها وازديادها بسبب مرضي ، مكروبي أو غير مكروبي . يوجد لفظان متشابهان ولـكنهما اصطلاحيًّا غير مترادفين فلفظ حرارة زائدة Hypethermia معناه مجرد ارتفاع الحرارة لأي سبب كان. وتستعمل في الغالب في أحوال ارتفاع الحرارة من سبب غير مكروبي أو ما شابه المكروبات أو الفيروس. كأن يكون الارتفـاع إثر امتصاص الدم المنسكب في الأنسجة عقب الصـدمات وعقب الـكسور ، أو من حقن اللبن أو حقن زيت الـكبريت التي تسبب ارتفاعاً في الحرارة وتعطى عادة لعلاج بعض الأمراض مما لا داعي لاطالة الشرح فيه . وأما لفظ حمى Fever فقد أصبح لفظاً اصطلاحيًّـا دالاًّ على ارتفاع الحرارة المسبب عن عدوى مكروبية أو ما شابهها ، موضعية كانت أو عمومية أو عن عدوى فيروس Virus وليست الحمى هي المرض بل هي ظاهرة أو علامة من أهم علامات المرض . فإذا قلنا التيفوس فهذا اسم المرض والحمى احد أعراضه وبحكم العادة نقول حمى التيفوس مع ان كلمة تيفوس كافية وذلك من بقايا الماضي، حيث كان كل ارتفاع حرارة يسمى حمى وعندما ابتدأ الأطباء يميزون أنواع الحميات صاروا يذكرون لفظ حمى وبعدها لفظ نوعها كقولهم حمى التيفوس وحمى التيفود والحمى الراجعة والحمى القرمزية وهكذا. وهنالك أمراض حمية مهمة جداً اجرى العرف على ذكرها بدون أن ترافقها لفظة حمى مثل الجدري والحصبة والطاعون .

• تعد الحمى كما قلنا علامة من علامات المرض وتتبع سيراً خاصًّا ومدة معلومة لـكل مرض ، وتصحبها أعراض أخرى نتيجة تفاعل عام في البنية لمقاومة المرض . واتخذت درجة الحرارة مقياساً لشدة المرض وخفته ، ولو ان بعض الأعراض الأخرى قد تدلنـا على خطورة المرض وعدم خطورته أكثر مما يدلنا عليه مجرد ارتفاع الحرارة — وهذه الأعراض

مثل قلة البول وسرعة ضربات القلب والحالة العصبية العامة للمريض ، بأن يكون متنبهاً أو مهتاجاً أو قلقاً أو متناوماً أو هاذياً إلى آخره .

• وكما قلنا عن حرارة الجسم الطبيعية نقول عن سير الحرارة وارتفاعها عند المريض. فان بعض الأشخاص ترتفع حرارته بسهولة وغيره لا ترتفع بسهولة ، ويظهر ذلك عند استعمال الطعم الوقائي أو العلاجي فانا نشاهد بعض الأفراد ترتفع حرارته ارتفاعاً كبيراً وبعضهم ترتفع قليلاً . وقد لاحظت في الأسرة الواحدة هذه الظاهرة إذ حدث أن عالجت اخوين من مرض حمي واحد ، ومن مصدر عدوى واحد . وكذلك إذا أعطيتهم حقناً من الطعم للوقاية بمقدار واحد ، فتكون الحرارة شديدة عند أحدهم عن الآخر مع تساوي الظروف والاحتمالات . وقد يعلل ذلك بعامل شخصي أو بأن وسائل تكييف الحرارة عند أحدهم أفضل منها عند الآخر . كل هذه وغيرها رءوس مسائل تستدعي البحث ومصر بلد به كثير من الأمراض خصوصاً المعدية والوبائية تستدعي انشاء معهد أبحاث خاص لها لفحصها وتعليمها ، إذ لا يكفي المجهود الشخصي الفردي في ذلك ، لأنه لا بد من تتابع البحث وأن لا يقف البحث بعد موت أحد الباحثين . وفي أمثال هذه المعاهد يكون البحث مستمراً وتسهل طرقه ووسائله لمن يريد أن يشترك في بحث ما ، أو يعطي معلومات قيمة مما شاهده ليقوم المعهد ببحثه . لأن البحث العلمي في هذا العصر أصبح عملاً تعاونياً يشترك فيه جملة أشخاص كل فيما خصص له . وقد نوهت عن فائدة هذه المعاهد في تقاريري ومحاضراتي وأشرت بضرورتها وضرورة انشائها ، وأتمنى أن لا يبعد اليوم الذي يوفق فيه أولو الأمر الى إنشاء هذه المعاهد في مختلف الفروع حتى يؤدي مصر نصيباً وافراً من الانتاج العلمي الصحيح ، وتساهم في تقدم العلوم والمعارف في العالم فلا نبقى إلى الأبد ، نتزود بمعلوماتنا من غيرنا ولا نعطي شيئاً من عندنا . وفائدة هذه المعاهد التعليمية غنية عن البيان .

وقبل أن أنتقل الى نقطة أخرى أرجو أن يعرف الجميع أن كثيراً من أطبائنا قاموا ببحوث قيمة جليلة لا يمكن أن يقلل أحد من شأنها . ولا يزالون يقومون بالكثير منها . فلهم الشكر . ولكن الأفيد والأهم ، هو استمرار البحث . والكفيل بذلك وجود المعاهد الخاصة .

• نعود الى الحمى : عند ما تكون الحمى آخذة في الازدياد أي صاعدة من ٣٧ ½ الى ٣٨ الى ٣٩ ، وهكذا أياً كان سببها تفسر ذلك بأن وسائل تصريفها من الجلد أو بالتنفس غير وافية — وعند ما تكون الحمى آخذة في الهبوط من ٣٩ الى ٣٨ الى ٣٧ ، يدل ذلك على أن

وسائل تصريفها من الجلد وافية في خفض الحرارة . وعند ما تكون الحرارة سائرة على وتيرة واحدة أي ٣٩ إلى ٤٠ مثلاً ، فهذا دليل على ان وسائل انتاج الحمى ووسائل تصريفها متساوية ، أو بعبارة أخرى ان البنية تكيفت على هذه الحالة .

• وفي الحميات يضطرب مركز تنظيم الحرارة الذي ذكرناه، فتضطرب تبعاً لذلك وسائل تكييفها. والرأي السائد أن أغلب الاضطراب يحصل في وسائل تصريف الحرارة من البنية . إذ الشاهد أثناء الحمى قلة العرق وقلة البول وجفاف الجلد وسخونته ، ولذا يعد ظهور العرق علامة حسنة ، وكذا ازدياد البول ، إذ يُعدَّا دليلين على أن البنية ابتدأت تتكيف على تصريف الحرارة الزائدة وعلى تصريف الفضلات المتزايدة في الجسم بسبب الحمى . وفي الحميات يفقد المريض شهية الطعام فلا يتناول غذاءً كافياً لعدم مقدرة جهازه الهضمي على تحمل مجهودات هضمه، فتعيش البنية على ما تحصل عليه من المواد البروتينية والدهنية والنشوية الحيوية glycogen الموجودة في الجسم، كما يحصل في الصيام. ولذا يفقد المريض في الوزن أثناء الحميات المستمرة وأثناء الصيام — وتعد المواد الدهنيـة مواد مختزنة في الأنسجة الخلوية ، وكذا تعد مادة النشاء الحيوي glycogen مادة مختزنة في الكبد والعضلات، ولكن كميتها ضئيلة جداً بالنسبة للمواد الدهنية . وأما المواد الزلالية Proteines فهي المواد الداخلة في تركيب الخلية، وتعد المادة الحية والحيوية الأساسية في تركيب جسمنا . ويفقد المريض في الوزن بسبب نقص المواد الدهنية والمواد البروتينية ، كما يفقد من قوة بنيته وحيويته على وجه العموم . لهذا السبب تفتك الحميات فتكاً ذريعاً إذا ما أصابت شخصاً منهوك القوى من ضعف التغذية لفقره ، إذ ليست في جسمه مادة مدخرة ، كما تفتك بمن عندهم ضعف شيخوخي أو أمراض أخرى منهكة للقوى. قلنا ان البنية أثناء الحمى تستهلك المواد الزلالية الحيوية، ويظهر ذلك من تحليل البول، إذ نشاهد فيه ازدياد الفضلات التي تتصرف مادةً معه والتي مصدرها المواد الزلالية وهذه الفضلات مثل البولية الكرياتينية creatinin urea والبوليات والحامض البولي إذ تزيد زيادة واضحة عما تكون عليه في حالة الصحة — لأن في الحميات يزيد التبادل الغذائي الأساسي Basal Metabolism زيادة تقرب من ٥٠ في المئة عن الحد الطبيعي. ولا يمكن في الحميات أن يفسر ارتفاع الحرارة بكثرة الغذاء ولا باجهاد العضلات ، فان شهية المحموم تكون مفقودة، ولا يقدر على تناول الطعام ، إلاّ ما يصرح به الطبيب من الغذاء الخفيف المناسب لكل حالة ، ولأن المريض يكون ملازماً للفراش بارشاد الطبيب، وليست عضلاته في حالة إجهاد بسبب ارتفاع الحرارة، كما يحصل عند الأصحاء .

والسبب الذي نفسر به الحمى هو اضطراب وظيفة مركز تنظيم الحرارة بسبب المرض

وان هذا الاضطراب يؤثر على وسائل تصريف الحرارة أكثر مما يؤثر على وسائل توليدها.

• يتحدثون عن حمى عصبية، والرأي السائد ان سبب الحمى نزلة حلقية خفيفة أو مرض آخر خفيف، لا تظهر له علامات وصادف ظهوره أثناء أحوال تؤدي الى الاشتباه بوجود حالة عصبية كما لاحظت ذلك ليلة الزفاف عند بعض السيدات. والأمراض العصبية التي تحدث تغيرات عضوية في المجموع العصبي تحدث حمى إذا حصل تغير مرضي في مراكز تنظيم الحمى كما يحصل في أورام المخ واصاباته.

• وقد استفاد الطب العلاجي كثيراً من وسائل توليد الحرارة ووسائل تصريفها عند الأصحاء، ومن المعلومات التي نعلمها من تأثير الحمى على البنية ومقاومة البنية للحمى، فقلدها في علاجها وعدّلها ونظمها وحتّم الراحة التامة ليقلل مجهود العضلات فلا تتولد حرارة زائدة ولكي لا تضعف البنية. وحتّم قلة التغذية لكي لا تجهد أعضاء الهضم وهي ضعيفة بسبب الحمى واكتفى بمواد غذائية سهلة الهضم. وقلد الطبيعة في تصريف الحمى فاستعان في علاجها بالمكمدات والتدليك بالكولونيا وغير ذلك.

مأثورات

سمع اعرابي يدعو الله وهو يقول:

هربت اليك نفسي يا ملجأ الهاربين بأثقال الذنوب أحملها على ظهري، لا أجد شافعاً اليك إلا معرفتي بأنك أكرم من قصد اليه المضطرون، وأمل فيما لديه الراغبون، يا من فتق العقول بمعرفته، وأطلق الألسن بحمده، وجعل ما امتن به من ذلك على خلقه، كفاء لتأدية حقه. لا تجعل للهوى على عقلي سبيلا، ولا للباطل على عملي دليلا.

وعن قيس بن رفاعة:

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة ... يصل بنار كريم غير غدار
أنا النذير لكم مني مجاهرة ... كي لا ألام على نهي وانذار
فان عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا ... ان سوف تلقون خزياً ظاهر العار
لترجعن أحاديثاً ملعنة ... لهو المقيم ولهو المدلج الساري
من كان في نفسه حوجاء (١) يطلبها ... عندي فاني له رهن باصحار (٢)
أقيم عوجته ان كان ذا عوج ... كما يقوم قدح النبعة الباري
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه ... عندي واني لدراك بأوتار

(١) الحوجاء الحاجة (٢) الاصحار البروز الى الصحراء يقصد انه لا يستتر عنه

العالم العربي

الحرية عقّار أدوائه

الحرية معنى يقوم في النفس وتثبت فيه أصوله ، فيتحقق في نفس الرجل الحر ، قبل أن ينعكس عن ذلك المعنى أي أثر في الخارج . فاذا لم تقم الحرية في النفس ، انعدمت القدرة على تحقيق شيء من آثارها تحقيقاً عملياً .

لما قامت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، تلقتها الأيدي المستنيرة من الشعب الفرنسوي، فوضى غامرة، قضت على كل المثاليات القديمة التي قامت عليها النظامات الفرنسية منذ عهد لويس الرابع عشر . فالنظريات السياسية والاصول الاجتماعية والفوارق التي قام عليها مجلس الطبقات في فرنسا ، وهم النبلاء والشعب ورجال الكنيسة ، تناولتها معاول الهدم التي عمل بها الشعب الفرنسي في أصول هذه الأشياء ، وفي كثير غيرها .

فلما أراد المستنيرون أن يقيموا البناء الجديد على قواعد مثالية ، وضعوه على أساس الحرية والاخاء والمساواة ، وعملوا على أن يقيموا صرح فرنسا الجديدة بل والعالم المتمدين على هذه المبادىء الثلاثة ، ومضوا يعملون على نشرها ، لا في القارة الاوربية وحدها ، بل أرادوا أن يجعلوها أساس الحياة السياسية والاجتماعية في غيرها من القارات . غير أن هذا الحلم لم يعش طويلاً ، فقضت عليه عوامل كثيرة ، كان أعظمها شأناً انتصار فرنسا في الحروب التي تلت الثورة ، فذاق رجالها طعم القوة ، وأخذوا بنشوة النصر ، فنسوا تلك المبادىء وراحوا فريسة لفكرة التسلط : imperialism وكانت تلك النزعة أكبر ما مهد لحكم نابوليون الأول.

هذا سبب من الأسباب العارضة ، أي التي جاءت بالاضافة الى الثورة إسفافاً وراء ما تملي القوة من صنوف الايحاء . غير أن هنالك سبباً آخر أعمق بكثير من هذا السبب ، سبب حملته تلك المبادىء التي اتخذت أساساً لبناء العالم الجديد، وظل كامناً في تضاعيفها حتى عفّى عليها

لقد أراد هؤلاء المستنيرون، وهم بعد واقعون تحت تأثير حكم استبدادي طويل، وانتصار ساد كل مجده على الشعب الفرنسي وحده دون الملك المستبد، أن يوفقوا بين ثلاثة مبادىء، واحد منها طبيعي، واثنان خياليان. فالحرية هي المبدأ الطبيعي والاخاء والمساواة خياليان. لهذا عاشت الحرية في أرض فرنسا، ومات الاخاء ودفنت المساواة. عاشت الحرية فأسست في أرض فرنسا أربع جمهوريات على التتالي، وخلفت من ورائها تراثاً مجيداً لم ير الشعب فيه أثراً خلفه الاخاء، أو عرضاً ورثته إياه المساواة.

ذلك بأن التوفيق بين الجوهر والعرض، ليكون لكل منهما أثر صاحبه، أمرٌ مخالفٌ لطبيعة الأشياء منافٍ لأوليات التطور الذي تسوق فيه الطبيعة كل شيء في هذا الوجود. أراد هؤلاء المستنيرون أن يوفقوا بين جوهر ثابت في الطبع الانساني، وعرضين كلاهما خارج عن طبعه الرسيس، بل هو من خلق العقل وحده إذ ينزع الى مثاليات، ان لم يستطع أن يحققها في الواقع، فلا أقل من أن يسعد بها في أمانيه.

أقدم بهذه المقدمة لأثبت أن الحرية وحدها هي التي استطاعت أن تنقذ فرنسا في كل الأدوار العصيبة التي مرت على امبراطوريتها النابوليونية وعلى جمهورياتها الأربع، وهي التي ستنقذها في محنتها الأخيرة. ولقد استطاعت الحرية أن تخدم فرنسا وهي معنى محقق الدلالة في الخارج، بقيامه في نفس الشعب. هذا المعنى خدمه الأدب والفن والعلم والسياسة والصناعة، وعلى الجملة كل المرافق التي قامت عليها الحضارة الفرنسية خلال قرن ونصف قرن من الزمان. أنقذت الحرية فرنسا لأنها حق طبيعي يولد مع الانسان ولا يلحد معه، بل يتركه الانسان لمن هم بعده. حقٌ لا تختلف فيه نظرة العلم ولا الفلسفة ولا الفن ولا الدين. ومن أجل أنه طبيعي، فهو ككل الأشياء التي تمنحها الحياة للحي العاقل، لا ينبغي أن يسلب أو يعتدى عليه أو يتنازل عنه بأي حال من الأحوال وبأية صورة من الصور. ولذا كان الاعتداء على الحرية بمثابة الاعتداء على الحياة ذاتها. لأن حياة الانسان لا تتحقق معناها الا إذا تحققت الحرية.

***

الحرية معنى يقوم في النفس وتثبت فيها أصوله فيتحقق في نفس الرجل الحر، قبل أن ينعكس عن ذلك المعنى اي أثر في الخارج. فاذا لم تقم الحرية في النفس، انعدمت القدرة على تحقيق شيء من آثارها تحقيقاً عملياً، ورجع الانسان الى الدرجة التي لا يتحقق له فيها الا الحرية الحيوانية الصرفة كحرية التنقل أو الاغتذاء. وهو ضرب من الحرية يشاركه فيه كل صنوف الحيوان، فلا يكون للانسان الذي يرضى بذلك الضرب من الحرية أي

معنى انساني ، ولهذا ينبغي قطعاً أن نعتبر الشعوب التي ترضى بذلك الضرب من الحرية ، سوائم يرضيها أن تشبع شهواتها الحيوانية دون شهواتها العقلية والنفسية . وإذاً فلا يشملها معنى الحرية التي نقصد الى الكلام فيها .

يشارك الانسان كل الأحياء في صفة الحياة . ولكنهُ يمتاز عليها بأنه « عاقل » . ومن طريق مشاركته للاحياء في صفة الحياة يتحقق له ذلك الضرب من الحرية التي هي للحيوان . اما صفة أنه عاقل فتحقق له ضرباً آخر من الحرية له صوره المختلفة . وهذه الصور هي التي ينبغي على كل فرد من أفراد العالم العربي باعتباره عالماً تجمع بين أهله أطماع وميول ومشارب ووراثات واحدة تقريباً ، أن يحققوها في أنفسهم، حتى يسعدوا بآثارها الجليلة . ولا شك عندي في أن تحقيق معاني هذه الصور، كافٍ في ذاته ومن غير مجهود كبير ، أن يرفع عالم العرب إلى قمة الدنيا ، وإن كان تحقيقها في ذاته مجهود ، مهما عظم ، فانه لا يستكثر على شعوب لها ذلك الماضي العظيم .

لا نطلب تحقيق الحرية في النفس لأن الحرية حق طبيعي للانسان العاقل ولأنها تقرن دائماً إلى الحياة ذاتها . وإنما نطلب ذلك أيضاً، لأن الحرية إذا تحققت في نفس الفرد ، استطاع بذلك أن يعمل على تحقيقها عند غيره من أفراد الجمعية . وهي فوق هذا وذلك واسطة مجدية فعالة في صب العقلية الفردية في قالب ينزع بها دائماً وفي كل الحالات إلى التسمح ، ووزن الأشياء بميزان ذي كفتين ، فلا يميل إلى إحداها كل الميل ، ولا يطفف في تقدير ماله وما عليه، فيلزم دائماً حد الاعتدال، فلا يجنح آونة إلى الافراط وأخرى إلى التفريط، فتفوته أواسط الأشياء ، وهي في الأخلاق الفاضلة حدّ السعادة وحدّ الخير، كما يقول ارسطوطاليس، سيد الاخلاقيين .

والحرية وتحقيقها في النفس شيء ، وقبول ما يترتب عليها من الآثار شيء آخر . فاذا عجزت الحرية عن رياضة العقل والنفس على قبول الحقائق وأن آلمتها لأول صدمة، كما قال أحد الفلاسفة ، قصرت الحرية الفردية عن أن يكون لها ذلك الأثر المطلوب الذي ننشده في حياة الجماعة ، وأصبحت الحرية كفاية فردية لا يتعدّى أثرها حياة الفرد . وإنما تحقق الحرية رسالتها الخالدة، إذا انعكست آثارها من الفرد إلى المجموع، وكوّنت جوّاً تنطلق فيه العقول من كل التقاليد التي أسرتها وكبلت نزعاتها عن الانطلاق في آفاق الفكر البعيدة اللانهائية .

والحرية إذا تحققت في النفس وريض العقل على قبول محتملاتها ، قبلت بسماحة إبداء كل رأي وتمحيص كل فكرة والمناقشة في كل نزعة من النزعات المتباينة التي تنعكس عن صور

الفكر ، وصور الفكر غير محدودة ولا نهائية . وأنت إذا بحثت في أسباب الشقاق الذي يعم العالم آثاره ، وصنوف البغض والكراهيـة والحسد ، تلك التي تقمع الانسانيـة وقمعتها خـلال كل العصور عن الانطلاق في آفاق العمل الجدي ، فنعت بأن قصور النفس عن قبول ما يترتب على تحقيق الحرية فيها من الآثار العقلية واخراجها إلى حيّز العمل ، هي كل السبب فيما نرى ورأينا ، وفيما سوف نرى من انقلابات داوية ، ستظل الانسانية تدور من حولها في دائرة نجسة .

كتب الفلاسفة والمصلحون ما كتبوا متتبعين خطى التقدم التي خطتها الانسانيـة منذ أقدم العصور، وقال بعضهم إن الانسانيـة تنتظر عصراً ذهبيًّا تزهو فيه الحضـارة . وقال البعض الآخر ان ذلك العصر قد مرّ منذ آلاف السنين ، وإن الانسانيـة الآن تنحدر ، أو هي على الأقل واقفة تدور من حول تلك الدائرة النجسة . واعتمد الأولون على ما رأوا من تقدم مادي، واستند الآخرون على ما رأوا في التاريخ من انتكاس كل مبدإ مثالي إلى نقيضه، في كل محاولة طمعت من طريقها الجماعات في الخطو إلى الأمام . السبب في هذا كله أن الانسان لم يحقق الحرية في نفسه ، ولم يهيئ لها جوًّا عقليًّا تبرز فيه آثارها المحققة في النفس .

من هنا يظهر لنا جليًّا أن رياضة النفس على تحقيق الحرية وقبول آثار ذلك ، إنما هو أساس الاصلاح الاجتماعي برمته . لو أن هذا المبدأ كان محققاً لما سقطت الحضارة الانسانية تلك السقطات التي جرّتها إلى الحروب الدينيـة والخلافات المذهبية التي لا طائل تحتها ، والتي كبلت أيديها وأرجلهـا بتلك القيود التي صدت الجماعات عن التفاهم على أبسط الأشـياء . أشياء قبلتها عقول الأفراد ونبذتها عقلية الجماعات ، تلك العقلية التي ظلت وستظل عهـداً طويلاً ممرحاً لتـلاعب أنصار الدكتاتورية والطامعين في السلطان والعاملين على استعباد الأحرار، كل هذا ليجعلوا الانسانية تدور من حول تلك الدائرة النجسة، فلا تفلت الجماعات من أيديهم ، فتنطلق في آفاق الحرية الواسعة .

إذا اعتقدنا بأن الحرية حق طبيعي ، استطعنا أن نحقق معناها في أنفسنا ، وإذا حققنا معناها في النفس ، تسنى لنا أن نقبل ما يترتب عليها من الآثار . وأثرها الأول تحقيق حرية الأديان . فلكل انسان أن يتدين كما يشاء وأن يعبد إلهـه بالطريقة التي يختارها . فلا اكراه في الدين . والدين طريقـة اتصال بين الانسان وخالقه . فلكل فرد من الأفراد أن يختار تلك الطريق بمطلق حريته. وأثرها الثاني حرية الفكر. فالحرية الحقيقية تمنع الناس والحكومات وأصحاب السلطان من أن يعاقبوا فرداً على رأيه، مهما كان مخالفاً لآرائهم، ومهما كان فيه من منابذة التقاليد . ولن تتحقق هذه الحرية إلاّ بأن يأمن كل انسان على حياته وماله وعيشه .

وذلك من واجب الجمعية التمدينة أن تتكفل به . وأثرها الثالث حرية القول . فان قمع الفكر عن الاتصال بالجو القائم من حوله ، قمع للحرية ذاتها ، وتعطيل لمعنى الحرية في أبرز صورها .

أما إذا حقق العالم العربي هذه الحريات ، فانه ولا ريبة يتربع على قمة الدنيا ، ولا جدال في أن وحدة العالم العربي ينبغي أن تقوم على الحرية . لأن اشتراك المرافق بين أجزاء هذا العالم لا تكون مناطاً للوحدة، إذا نظرنا فيها نظرة ضيقة الحدود مقصورة على التبادل المادي . ان هذه المرافق ولا شبهة تكون موضعاً للنزاع والتفرقة أكثر منها سبباً للألفة ، إذا لم تقم من ورائها عقلية حرة تزن مصالح الشعوب العربية على أساس من التسمح ومغالبة الأهواء .

* * *

لقد نزعت الشعوب العربية الى الأخذ بمبدإ الديمقراطية في الحكم . وهو مبدإ له هفواته . ولكنه على كل حال أقل صور الحكم هفوات ومفاسد . هو الحد الممكن من الحكم الصالح بلغ اليه الانسان . ولكن كثيراً من هفوات هذه الصورة من الحكم، ولا شك تنعدم إذا رضنا أنفسنا على الحرية بمعانيها التي أسلفنا القول فيها . فرجال الحكم قبل غيرهم، ينبغي أن يكونوا رجالاً حققوا في أنفسهم معنى الحرية ، وراضوا عقولهم على قبول ما يترتب على ذلك من الآثار ، ونصبوا أنفسهم أمثلة حية ، فيقتدي بهم الناس . ينبغي أن يكونوا القدوة العليا ، فلا ينصرفوا إلى المعنى الأدنى ، معنى التمحك السياسي ، مقلعين عن الانصراف إلى المعنى الأسمى ، معنى الحرية .

ولقد قضى علينا مذهب الحكم الديمقراطي أن نوسع من مجال تلك الدائرة التي يخرج منها السياسيون ورجال الحكم ، وكلما اتسعت تلك الدائرة قلت المواهب العليا التي تتجه مطامحها الى الاصلاح الحقيقي من طريق الحكم . على انهُ من المستطاع القضاء على هذه الظاهرة إذا نحن نزعنا إلى الحرية وحققناها في أنفسنا ، وقبلنا آثارها المترتبة عليها . فان في ذلك الضمان الكلي لقيام حكم ديمقراطي يهيء الطريق إلى مستقبل تستقر فيه الجمعية العربية على قاعدة روحانية سامية ، والشرق مبعث الروحانيات .

في القرن التاسع عشر طغت على أوربا موجة من السياسة رجّت أساس الحضارة ، وبلغت من التأثير في النظام الاجتماعي مبلغاً أزعج المفكرين . قال اناتول بوليو[1] (١٨٨٥) :—

« كلما اتسع المحيط الاجتماعي الذي ينشأ في نطاقه السياسيون وكبار رجال الدولة ، نزل

(١) Anatole Beaulieu

مستواهم العقلي . وهذا الانتكاس أبين في أخلاقهم ، منهُ في أية ناحية أخرى من صفاتهم . فنزعت السياسة الى الفساد والتدهور ، حتى لوّثت كل الأيدي التي انغمست فيها ، وكل الرجال الذين اعتمدوا عليها في الحصول على معاشهم . ولقد أصبحت المعارك السياسية من المرارة والوقاحة ، بحيث صدّت الطبائع النبيلة المستقيمة عن التصدي للسياسة بعنفها ودسائسها . وقد أظهرت الطبقات المنتقاة في أكثر من أمة ، ميلاً إلى الترفع عنها . والسياسة ولا شك تجارة ان أردت أن تنعم بها وتسعد في ظلّها ، فينبغي أن يكون لك من الذكاء والعرفة ، أقل مما لك من الجرأة والقدرة على الدسّ . ولقد أصبحت السياسة في بعض الدول من أكثر مهن الحياة شيناً وقذارة . وما الأحزاب إلا نقابات للاستغلال ، فأضحت وسائلها ، أقل شعوراً بالخجل . كنت جالساً إلى المائدة ولورد غراي أوف فالدون من الضيوف ، وأثير سؤال في السياسة وهل هي مهنة شريفة ؟ فقال لورد غراي على الفور — « انها تجارة خسيسة » ونقل الأسقف كرايتون عن لورد برايت انه قال — « لو علم الشعب أي صنف من الناس هم السياسيون ، إذن لهبّ من سباته وأقصاهم أجمعين » . ونقل أنّ كونت كافور قال — « أي ضرب من المجرمين نكون ، إذا نحن فعلنا بأنفسنا ، ما نفعل اليوم بايطاليا » ؟

قيل هذا في عصر كان فيه للقوانين الدولية بعض الوزن ، وكان للأخلاق فيه بعض القيمة ، وكان الشعور بالمسئولية وبالخجل ، من العوامل التي لها بعض الأثر في سياسة الدول . أما وقد انحدر أهل المدنية إلى ما رأينا في الحرب العظمى الأولى وفي هذه الحرب ، من الاستهانة بالحقوق العامة وبالحقوق الخاصّة ، فلاشك في أن الاطمئنان الى السياسة في تحقيق ما تصبو اليه أمم سلبت حقوقها الطبيعية ، يكون شذوذاً لا تسوغه طبيعة الأشياء .

كل هذه الخبائث إنما تنشأ في جوٍّ لا تتحقق فيه الحرية في أنفس الأفراد . ولقد عانى العالم كلهُ من آثارها الأمرّين ، وفقد من قواه ومن ثروته ومن جهوده ما لو بقي لنا بعضه لحقق لنا عيشاً أسعد وحياة أمتع وأرغد ، ولتسنمت به الانسانية ذروة الحضارة العليا . حضارة يتحقق فيها السلام والانصراف الى العمل المجدي . حضارة حرّة ، قوامها أمم حرّة .

هذا ما ينبغي أن نحققه لأنفسنا . ونعني « بأنفسنا » عالمنا العربي ، « حزام الدنيا » من حدود بحر الظلمات إلى تخوم الصين ، ومن شواطىء البحر المتوسط إلى شعاب افريقية الوسطى .

إذا حققنا ذلك ، حققنا معه حلم العظمة والسيادة داخل تخومنا ، حلم أن بلاد العرب للعرب .

اسماعيل مظهر

لحظة الصفر

قصة عن بوريس جورباتوف

Boris Gorbatov

« لا خوف ولا اضطراب في قلبي ، ولا رحمة عندي للعدو . هنا الحقد في صدري . الحقد العميق الناري الانفاس . ان قلبي ليشتعل . هذه معركتنا الى الموت . هنالك أذهب »

أيها الرفيق ! لقد قرىء علينا الأمر الآن . في الفجر سنكون في الموقعة . سبع ساعات حتى الفجر .

كان الوقت ليلاً . وبعيداً فوق الرؤوس تلألأت الكواكب . خيم السكون . كان قصف المدافع قد سكن . وأغفى جاري اغفاءة هنية . وفي ركن من الأركان، انبعث همس ما . هنالك المراقب يسر الى أحدهم كلمات .

في الحياة فترات من الصمت لها طابع عجيب ، ومن المتعذر أن تُنسى .

ويوماً ما سأذكر هذه الليلة — ليلة ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٤١ . سأذكر القمر وهو ينساق على منحدرات « الدون » وقد بدت النجوم مرتعشة، كأنما أصابتها البُرَداء . سأذكر كيف أغفى زميلي وراح في نوم عميق،

وعلى الربى وفوق الخنادق ومواقع قذف النار ، خيم سكوت رهيب . سكوت في تضاعيفه العاصفة . السكوت الذي يسبق الموقعة .

كنت مستلقياً في الخندق ، وقد أخفيت مشعلي الصغير بطرف ردائي المبلل لأكتب اليك هذا ..... كذلك كان الملايين من المحاربين مثلي منتشرين من محيط الجمد الشمالي إلى البحر الأسود ، يستلقون كما أنا مستلقٍ ، وفي نفس هذه الليلة ، وعلى الأرض المرطوبة، ينتظرون تنفس الصبح والهجوم ، يفكرون في الحياة وفي الموت ، وفي ما ينتظرهم من حظ .

أيها الرفيق ! ان كلاً منا يريد ان يعيش طويلاً . وأنا أريد أن أعيش ، وأتنفس وأكون قادراً على المشي ، وأرى السماء من

فوق رأسي . غير أني لا أريد أن أعيش أي لون من ألوان العيش ، فلست ممن يهمهم أن يعيشوا وكفى — وأن يوجدوا وحسب .

في الليل الماضي زحف رجل الى خندقنا آتياً من « الضفة الأخرى » . لقد هرب من الفاشيين . قدم زاحفاً بساقين واهيتين وذراعين انتزع عنهما الجلد وسالت الدماء . فلما رآنا ، نحن أهله وعشيرته ، طفق يبكي ، ومضى يشد على أيدينا ويهزها ، وكأنه أراد أن يعانق كل من لاقاه . كان وجهه يختلج ، وشفتاه تهتزان ، فأعطيناه بعض الخبز والزبد والطباق . فلما فرغ من وجبته هدأ روعه وأخذ يقص علينا ابشع القصص عن الألمان . حدثنا عن السلب والتعذيب والمرقة . فلما سمعناه أخذ دمنا يغلي ، وقلوبنا تزداد خفقاً .

ورأيت ظهر الرجل . ثبتت عيناي فيه فلم تريا شيئاً آخر كأنما هما قد علقتا به . لقد كان منظره أبلغ من كل كلام .

كان قد مضى شهر ونصف شهر على هذا الرجل تحت سلطان الفاشيين ، فتقوس ظهره كما لو كان فقاره قد كسر ، أو كأنه أجبر على أن يمشي منحنياً نحو الأرض ، أما عضلات ظهره فكانت تمتد وتنكمش ، كأنما هي تترقب توالي الضربات القاسية . كان منظره ينم عن أنه رجل سلبت ارادته ، أو أنه رقيق مستعبد .

صاح به أحدهم اعتدل . قوم كتفيك وردهما الى الوراء ، أيها الرفيق . انك في عشيرتك .

رأيت ، كما لو كنت أرى في صفحة جلية واضحة ، ما هو مقسوم لي . حياة بظهر مكسور ، ثم الاسترقاق والعبودية .

أيها الرفيق ! خمس ساعات قد بقين ثم يتنفس الصبح . بعد خمس ساعات أكون في غمار الوقعة . كلا ليس من أجل تلك الربوة التي أمامي سوف أحارب الفاشيين . كلا . ستكون الحرب لأغراض أعظم وأضخم . ستكون الحرب من أجل من سوف يكون المتصرف في مصيري : هتلر أم أنا ؟

حتى هذه البرهة يتصرف كلانا — أنت وأنا — في مصيرنفسه ويتسود عليه . ونحن إننا نختار نوع العمل الذي نعمل ، والصنعة التي نتعلمها ، والوظيفة التي نشغلها ، ونتزوج من المرأة التي نحبها . أمة حرة في أرض حرة . إنما ننظر للمستقبل بشجاعة وبطولة . المملكة كلها أم لنا جميعاً . في كل بيت أصدقاء ورفقاء . وكل وظيفة من وظائف العمل محترمة مبجلة ، والعمل في ذاته بطولة ومجد . لقد علمت ان كل طن من الفحم نخرجه من باطن الارض ، فيه الشرف والصيت والكفاء . وكل أردب من القمح يحصد ، يضاعف من ثروتك ، التي هي ثروة أسرتك .

ولكن ! لقد أتى الفاشيون . سيصبحون

المقدّرين لحظك ونصيبك في الحياة. سيحطمون يومك، ويسلبون غدك. سيتحكون في حياتك وسكنك وأسرتك. سيطردونك من بيتك. نعم وسوف تطرد مقصوم الظهر، طاوياً تحت المطر، ملقى بك في الأوحال. نعم. قد يسمحون لك بأن تعيش. ذلك بأنهم في حاجة إلى دواب الحمل. سوف يستعبدونك. ولكنك ستكون عبداً سيض المتن مقوّس الظهر. ستحصد أردب القمح. ولكنه سيذهب اليهم وتمسي متضوراً من الجوع. وستخرج الطن من الفحم. غير انهم سيستولون عليه صارخين: «أيها الخنازير الروس: انكم لا تحسنون العمل». ستظل في أعينهم دائماً ذلك الروسيّ الحقير: حيوان من نوع أخسّ. سيحملونك على أن تنسى لغتك ولغة آبائك. اللغة التي حلمت بها ورأيت فيها رؤاك. اللغة التي عبرت بها عن حبك لمن أحببت. سيجبرونك على أن تتكلم لغتهم، وسوف يهزأون بك وأنت ترطن بلغة أجنبية بعيدة عنك.

الفاشيّ!!

سيطأ بقدمه أحلامك ويُشقِيل على آمالك. انك قد أمّلت وحلمت بأن ابنك إذا كبر واسترجل فسيكون عالماً، أو مهندساً ذا خطر وقيمة. ولكن الفاشيين لا حاجة لهم بعلماء من الروس! ألم يجمعوا علماءهم أنفسهم في قطعان أودعوها محلات الاعتقال؟ انهم لا يريدون إلاّ دواب خاملة من دواب الحمل. وسوف يساق ابنك تحت سلطان الفاشيين، ناسياً طفولته وفتوته ومستقبله.

كثر ما دلّلت ابنتك الحبيبة وأحطتها بعنايتك. كم مرة حنوت عليها وأشفقت بها وانحنيت فوقها أنت وزوجك وهي في غفوتها اللائكية، وحلمتما بسعادتها. ولكن الفاشيين لا يرغبون في بنات روسيات نظيفات جميلات. يردنهنّ في بيوت الدعارة ليكنّ متعة لذوي القمصان السمر من أبنائهم. أترضى بأن تكون موضع فخرك ومحل آمالك... ابنتك «مارنكا»، حمامتك المحبوبة..... بغيًّا.

أنت تفخر بزوجك. كل من في القرية يحبها ويحترمها... أوكسانا الجميلة. كلنا في حسدك عليها سواء. ولكن في العبودية لا يكون للنساء اختيار. انهن يكبرنَ قبل الأوان. ان زوجتك «أوكسانا» ستصبح عجوزاً شمطاء مقوّسة الظهر.

أنت تبجل والديك. ألم يكونا السبب في انك وجدت وربيت ونشأت؟ وأرضك هذه! ألم تعاونك على أن تهيئ لهما حياة سعيدة هنية هادئة، وشيخوخة شريفة محترمة. ولكن الفاشيين لا حاجة لهم بعجائز الروس. فالمعمَّرون لا يعملون، إذاً ينبغي أن يموتوا جوعاً، ولهذا فسوف لا يعطون والدك شيئاً من القوت الذي تحصله بكد ساعدك.

قد يتفق أن تحتمل كل هذا ، فلا تموت. غير أنك ستصبح خاملاً متواكلاً تعيش عيشاً كله عماء وجوع وحزن .

اني لأرفض أن أعيش هـذا العيش . كلاً . لن أحيا هذه الحياة . لأجدر بي أن أموت من أن أوجد هذا الوجود . أفضل عندي حربة فيصدري ، من قيد في عنقي . كلاً أخلق بي أن أموت شجاعاً ولا أعيش عبداً ذليلاً أو جباناً حقيراً .

أيها الرفيق ! ثلاث ساعات بقينَ قبل أن يتنفس الصبح . ان مصيري في يدي . مصيري كائن في سنان حربتي المرهف . مصيري ومصير أسرتي ووطني وقومي .

أيها الرفيق ! ساعتان قبل أن يتنفس الصبح .

تطلعت خلال الظلام بعيني رجل شعر باقتراب الموقعة وترقب الموت ، فنظر بعيداً واخترق الحجب . ومن خلال ليالٍ طوال وأيام أطول ، بل ومن خلال شهور أنظر أمامي، ومن فوق جبال من الأحزان والآلام، فأرى النصر ماثلاً . سوف نناله . سنخوض اليه أنهاراً من الدماء ممزوجة بالحزن والأسى والعذاب . سنخوض اليه مآسي الحرب ودواهيها . ولكننا سنصل إلى النصر ، الى النصر الحاسم الفاصل على العدو . لقد قاسينا من أجله واحتملنا كثيراً . سوف نفوز .

تذكر أيامنا قبل الحرب . لقد ظلَّ جيلنا هذا وسيف الحرب مصلت من فوق رأسهِ . عشنا وعملنا ودللنا زوجاتنا وربينا أولادنا . ولكن لا يجب أن ننسى أن كل هـذا انما كان من أجل دقيقة واحدة . هنالك في الناحيـة الأخرى من تخومنا يجثم وحش مفترس يستعد لمضغنا ، فيشحذ أظافره ويحدُّ أنيابه السامة . لقد كانت الحرب جارنا القريب . كانت أنفاس الأفعى الجلجلة تسمم حياتنا وجهادنا ، بل وحبّنا نفسه . عشنا فزعين . وانتظرنا :

هاجمنا الوحش . بات في أرضنا . تدور الآن أقسى المعارك وأنكى الوقائع . حرب إلى الموت. والتفاهم مستحيل فلا اختيار إذن. فلنطعن ونقوّض كل قائم لنقضي مرة واحدة وإلى الأبد ، على الوحش الهتلري . وحتى يثوى آخر فاشيٍّ في قبره العميق ، لن ينكشف عن صدرنا ذلك الكابوس الذي يغشانا . ثمَّ هدوء شامل . هدوء لا يتخلله جلبة . هدوء النصر ، سيظلل رؤوسنا . وهنالك سوف نسمع ، أيها الرفيق ، لا حفيف أشجار الغابة الرحة الجميلة وحده ، بل سوف نسمع العالم يرسل أنفاس الراحة ، ويشم هواء الأمل . سوف نسمع أنفاس الانسانيـة تتردد هادئة وسنانة .

سوف ندخل المدن والقرى المحرَّرة يرحب بنا السكون الشامل — سكون قلوب

شملها الفرح والسرور . هنالك سيرتفع الدخان مرة أخرى من مداخن المعامل الشيدة — هنالك الحياة ، سوف تدب مرة أخرى . حياة سعيدة كاملة أيها الرفيق . حياة عظيمة ثمينة في دنيا حرة . حياة تسودها أخوة الشعوب .

من أجل تلك الحياة يهون الموت . إنه لن يكون موتاً . إنما هو الخلود .

***

أخذ الصبح يتنفس أيها الرفيق . صبح خجول أسمر الإهاب . بدأت الأشباح تتبين لم تلح لنا الحياة من قبل في ثوب أبهج . انظر كيف تبتسم هضاب الدون أمامنا . انظر كيف تلمع التلال الطباشيرية تحت أول شعاع يشق الأفق ، كأنها جبال من فضة .

نعم . أن للحياة قيمة ما . ولكن قيمتها في أن نرى النصر كيف ينال ، إذ ذاك أضم رأس ابنتي الصغيرة إلى صدري بين ثنايا معطفي الكبير ، راضياً رخي البال . إني إنما أعيش من أجل أغراض كثيرة . ولذا فأنا ذاهب الآن إلى المعركة . سأحارب لأجل الحياة . ذاهب من أجل حياة طيبة أيها الرفيق ، ولن أعيش لأكون عبداً . ذاهب من أجل سعادة أولادي . من أجل سعادة وطني ، أمي الكبرى . من أجل سعادتي . إني أحب الحياة . وسوف لا أبددها . اني أحب الحياة . ولكني لا أرهب الموت . اني أفهم من الحياة أن أعيش شجاعاً ، وأموت شجاعاً

الفجر ! !

بدأت المدافع السريعة تجلجل . وستار النار سوف ينتشر . وبعد برهة نذهب في الغمرات .

أيها الرفيق ! من فوق هضاب « الدون » التي هي هضابي ، أرسلت الشمس أشعتها الذهبية . شمس المعركة .

واني لأقسم أيها الرفيق بحق جلالها أني سوف لا أتراجع . فاذا أصابني مكروه فسوف أموت في الصفوف . واذا أحيط بي فسوف لا أسلم نفسي . لا خوف ولا اضطراب في قلبي ، ولا رحمة عندي للعدو . هنا الحقد في صدري ، الحقد العميق ، الناري الأنفاس . ان قلبي ليشتعل . هذه معركتنا الى الموت .

هنالك . أذهب

الضمان الاجتماعى

مشروع بيفردج من ناحيتيه التاريخية والاجتماعية

أ) ما هو الضمان الاجتماعي ؟

الضمان الاجتماعي عند السير وليم بيفردج هو النظام الذي يتحقق للجمعية البشرية بالقضاء على خمسة عمالقة هي : الخصاصة أي الحاجة ، والمرض ، والجهل ، والقذارة ، والتعطل أي الكسل . وعلى هذا فلا يتحقق الضمان الاجتماعي ما دامت هذه العمالقة تسيطر على الحياة الانسانية .

لما نشبت الحرب الأخيرة واشتبكت فيها أكثر شعوب أوربا ، وقضت النازية والفاشية ، إلى حين ، على حضارة كثير من الأمم الصغيرة التي كانت تعيش في بحبوحة من العيش في ظل نظام ديمقراطي ، وساد الفقر جماعات كانت تعد من أغنى جماعات الانسان وأقدرها على رفع مستوى الحياة ، وانتشرت الأمراض الجتاحة ، وتعطلت دور العلم عن أداء رسالتها ، شعر سوّاس الانجليز ، وكان لهم أكبر الحق في أن يشعروا بحرارة ، ان العالم مقبل على انقلاب خطير سوف يتناول أساس نظامه الاقتصادي الذي تقوم عليه كل مرافق المجتمع ، وأن الضمانات التي كفلها هذا النظام في الماضي ، لن تصلح لكفالة نظام اجتماعي ذي استقرار في المستقبل ، أي في العصر الذي يلي انتهاء الحرب وعودة السلام . لهذا عهدت الحكومة البريطانية في شهر يونية سنة ١٩٤١ إلى سير وليم بيفردج أن يدلي برأيه في علاج الحالة الاجتماعية التي سوف تترتب على الحرب الحالية ، فوضع تقريره المعروف ، الذي أصبح اسم بيفردج علماً عليه .

لم تكن هذه الحرب السبب المباشر لقيام هذا الشعور عند سوّاس الانجليز ، وانما كانت حافزاً لهم على التفكير بجد في حالات اجتماعية ، كانوا يشعرون بأنها كائنة ، ولكن معالجتها لم تكن عاجلة . وهم بذلك انما يكررون نفس الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون من قبلهم .

يكرّرون الخطأ الذي وقع فيه لويس السادس عشر وحكومته في فرنسا ، والخطأ الذي وقعت فيه القيصرية الروسية في أثناء الحرب الماضية ، فأدّى إلى هزّات عنيفة وثورات ، كان من الممكن أن توفر على الانسانية ما حمّلتها من فوضى ومن دماء ، لو أن ساسة الأمم قد بصروا بشيء من حقائق التطور القائمة من حولهم ، ونظروا لأبعد من أنوفهم قليلاً ، ليدركوا أن ما تقضي به طبيعة الحياة لا بدَّ من أن يكون . ولعلَّ ساسة الانجليز في هذا العصر قد انتفعوا بتجاريب الذين سبقهم من السياسيين في مختلف الأمم ، فبادروا إلى وضع الشيء في موضعه ، فعهدوا ببحث أدواء المجتمع إلى رجل لم تسيطر عليه السياسة ، ولم تؤثر في عقله مماحكاتها ، فشقَّ الطريق القويم إلى الغرض الأسمى ، وبحث المشكلات القائمة بعقل غير مدخول بأي اعتبار اللهمَّ إلاَّ اعتبار ان الجمعية الانسانية تتطوَّر ، وان نظرتها في الحياة تتسامى ، وان من حق كل فرد من أفراد الرعية أن يتخلص من حماقات الماضي التي سببتها سياسة أطلقت على الجماعات تلك العمالقة الخمسة، وأفردتها بالتصرف في مصاير الأمم .

لا أبالغ إذا قلت إنَّ هذه هي المرة الأولى ، لا في انجلترا وحدها ، بل وفي جميع بقاع الأرض ، تنازل فيها السياسيون من عليائهم ، وأخضعوا كبرياءهم للحقائق . ذلك بمعنى ان الحكومة الانجليزية لم تعهد بهذا البحث إلى السياسيين المحترفين ، بل عهدت به إلى رجل اجتماعي درس الاجتماع من نواحيه القصية . درسه من حيث تطوره واقتصاده وانتاجه وقدرته على العمل ، فخرج من ذلك بآراء أصبحت دستور الاصلاح الاجتماعي في جميع بلاد العالم . دستور ضرب بمعول باتر في أصول الكثير من النظامات التي خيل للسياسيين منذ عهد قريب انها أبدية ، وإن الجمعية الانسانية قد وصلت في ظلالها إلى طابع من المدنية لن يتبدل .

كان من خطإ السياسيين في الماضي عقوقهم للعلم، فاستأثروا بالرأي في كل ما يتعلق بالأمم من الأشياء التي يحسنونها والتي لا يحسنونها ، وتاريخ القرن التاسع عشر ، ناهيك بما قبله ، وتلك العقود التي سلخناها من القرن العشرين، أكبر شاهد على هذا العقوق . كبر عليهم أن يستعينوا بالعلم والخبرة العلمية والنظر النافذ في حالات التطوّر التي تصيب الجمعيات في معالجة المشكلات المدنية ، فطاحوا بالكثير من مصالح الأمم ، وأوقعوا الشعوب في مأزق عصرتهم عصراً، وتركتهم ثُفلاً بغير لُبّ. وقد تناوبت هذه الحالات على شعوب الأرض المتمدينة المرة بعد المرة ، حتى ساد الناس شعور بالقلق والامتعاض والحاجة إلى الأصلاح الواجب، وأفعمَ جو المدنية بشعور عميق بأن عصراً من عصور المدنية قد آن اختتامه ، وأن الانسان يستقبل عصراً جديداً .

إن الحكمة التي أبداها ســوّاس الانجليز في أن يعهدوا ببحث أسـباب ذلك القلق الاجتماعي إلى رجل اجتماعي خبير ، هي نفس الحكمة التي ينبغي أن تملي على كل الحكومات أن تعهد ببحث مختلف قضايا الاجتماع الى الذين يحسنون بحثها بروح الحرية والاستقلال . ولو أن السياسيين قد شعروا بأن سيطرتهم على كل مرافق الأمم لمجرد انهم سياسيين ذوي سلطان ، لا تستوي ونشدان الحقيقة التي لا يمكن بدونها أن يكون اصلاح ثابت ، إذن لمضت الانسانية تضرب في سبيل التقدم بقدم أثبت وخطى أوسع

نشكو في بلادنا هذه من الفقر ومن الجهل . فهل عهدنا بعلاج ذلك إلى الأيدي التي تحسن علاج الفقر والجهل ؟ ونشكو من المرض ومن التعطل ! ثم ماذا . ينبغي على رجال الحكم عندنا أن يقتدوا بما فعل الانجليز ، فلقد كانوا في ما فعلوا قدوة حسنة . وكل البلاد تشكو مما نشكو منه ، وربما كانت شكوى غيرنا أبلغ من شكوانا وبلواهم أعظم من بلوانا . ولكن المخرج من ذلك في أيدينا وأيديهم . ذلك بأن يعهد في بحث هذه المعضلات الى من ينظرون فيها نظراً حراً مستقلا بعيداً عما تملي السياسات على اختلاف نواحيها وعلى متباين نزعاتها . ينبغي أن يعهد بها الى رجال تحرّروا من الأغراض ومن الشهوات !! ونشدوا الخير العام وحده لا شريك له ..

ان الأغراض التي يرمي اليهــا الضمان الاجتماعي هي بذاتها الأغراض التي نشدها الانسان من أقدم العصور . هي المبـادىء التي حاول أن يطبقها منذ إن كانت له مدنيـة . وما تلك الجهود التي بذلها وتلك المتاعب التي أنفقها في سبيل الحضارة سوى صور تشكلت فيها نزعته نحو الكمال المدني . نزعته تلك ، هي التي شيدت معابد الكلدان ومصر وهي التي أقامت مدارس أثينا والاسكندرية وجامعات أوربة ، وهي التي حفزته الى النهضة في القرون الوسطى ، وهي التي تدفعهُ الآن دفعاً نحو خطوة أخرى تدنيه من الكمال المنشود . غير أن مختلف تلك الجهود ، إن كانت قد أسلمت به إلى الطريق السوي ، فان خطواتهـا كانت وئيدة بطيئة ، لكثرة ما انتابها من تضارب النزعات والميول وتحكم الشهوات . ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا إن كل خطوة خطاها الانسان نحو ذلك الهدف ، تبعها انتكاس أودى بها في اكثر الظروف . ذلك بأن علم الانسان لم يكن قد شمل بعد مرافقه الاجتماعية ولم يكن قد تغلغل في البحث عن الأسباب التي تؤثر في ضمير الجماعة ، فشى الانسـان في طريق مظلم معتم ، ومضى يتخبط متبعاً وحي كل هاتف يهتف به ، متلهفاً إلى ما يخيل إليه أنه يدنيه من مثالياته التي نشدها .

إن روح الانسانية ظلت في خلال العصور تنشد الكمال ، وكل العصور الاجتماعية التي توالت على البشر ، ما هي الا ثمرة تلك الروح المشبوبة القوية المتوثبة . روح سبيلها النفس

والعقل ، وغريزة التطلع الى ما هو أسمى . ولكن الانتكاس كان دائماً نصيب كل جهد انصرفت فيه تلك الروح . لقد بذلت الانسانية ما بذلت ، وأنفقت من ثمار المال والروح ما أنفقت ، ولكنها ارتدت دائماً الى حيث بدأت . كان السبب في هذا أن العمالقة الخمسة قد سيطرت على المجتمع ، فلم تترك له مفلتاً من مخالبها القاتلة .

***

على الرغم مما تتطلب هذه الحرب الضروس من مهام العمل واليقظة والاستمرار ، فان سوّاس الانجليز قد بذلوا أقصى الجهد في سبيل تنفيذ ما أوصى به عالمهم ، فأدّوا بذلك للعالم خدمة أخرى ، إذ كانوا أعظم قدوة وأسمى مثل ضرب للناس في هذا العصر . نعم استطاعوا أن يقضوا على الجهل ، فنفذوا بموافقة مجلسهم النيابي موافقة بالاجماع ، برنامجاً للتعليم يقضي على الجهل ، إذ جعلوا التعليم من نصيب الأولاد والفتيات عامة ومن نصيب كل الطبقات . وأدخلوا ذلك النظام في طور التنفيذ الفعلي . بل لقد قرأت لأحدهم قوله : ان تنفيذ هذا البرنامج التعليمي من أبهر الانتصارات التي نالها الانجليز في هذه الحرب .

قضى الانجليز بذلك على العملاق الأول : الجهل ، وانصرفوا بعد ذلك إلى مغالبة العملاق الثاني : التعطل أو الكسل ، فعمدوا إلى نظام يضمن لكل انسان عملاً منتجاً ، وجعلوا انتاج الحاجات التي تسد غرض الحياة في البلاد أول همهم . ذلك بأن الأمة ما دامت تعمل في مجموعها ، استطاعت بذلك أن تقضي على الخصاصة وعلى الحاجة ، وتنصرف من هذه السبيل إلى العمل الذي يكون في ذاته خدمة اجتماعية ذات أثر ثابت في حياة الجماعة . ولم يغفل الانجليز عن العملاق الثالث : المرض ، فقد أخذت الحكومة تنفذ برنامجاً صحيًّا يشمل جميع أفراد الأمة على اختلاف طبقاتها . وما فعلوا ذلك إلاّ ليكون الاصلاح الصحي مقدمة للقضاء على العملاق الرابع وهو الحاجة أو الخصاصة ، فان الاصلاح الصحي ، يقضي بوضع نظام للتأمين عند التقاعد عن العمل . فمن الواجب أن يقوم هذا النظام على ، مقتضى المبادئ التي وضعت للضمان الصحي .

العملاق الرابع : الحاجة أو الخصاصة ، هو الآن في طريقه إلى الموت ، في صورة مرسوم بقانون تضمنه كتاب أبيض سيعرض على مجلس العموم . ولقد قدم ذلك المشروع كما وضعه بيفردج ، ما عدا بعض تنقيحات زادها المتحمسون إلى ما أوصى به ذلك العالم المصلح ، وأساسه إدخال نظام التأمين القومي الجبري لكل طبقات الأمة ، بحيث يكون ذلك من حق كل فرد من المهد إلى اللحد ، وأن يكون التأمين شاملاً ، بحيث يتناول كل مرافق الحياة الفردية .

سيقوم هذا المشروع على أساس التأمين على التعطل لكل رجل وامرأة ، ولكل رجل مع زوجة لها كسب ، ولكل رجل مع زوجة لا كسب لها ، ولكل امرأة متزوجة ذات كسب ، ثم مخصصات لمن يعولون . وكذلك سيكون هناك تأمين ضد المرض والتقاعد ، ثم مخصصات للأمومة والموت ، وللأرامل والايتام وللتعليم الصناعي والمهني، عند ما يكون الفرد متعطلاً عن العمل . وينص هذا المشروع على ان الحكومة تقوم بدفع مخصصات للأسر وتنفق على الأولاد تعليماً وتغذية، وتوزع اللبن على الأطفال المحتاجين اليه، وتعوض العامل عما يحدث له من الاصابات أثناء العمل ، وتكفل له حياة مستقلة شريفة إذا تقاعد بسبب الاصابة .

وقد تبلغ نفقات التأمين الاجتماعي والمساعدة القومية ومخصصات الأسر والخدمة الصحية ٠٠٠ر٠٠٠ر٦٥٠ مليوناً من الجنيهات الانجليزية في السنة الأولى ، وسترتفع إلى ٠٠٠ر٠٠٠ر٨٣١ بعد ثلاثين سنة . وستدفع الخزانة من هذه المبالغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٥٠ في السنة الأولى ثم تتدرّج حتى تصير ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٥٧ بعد ثلاثين سنة .

هذا طرف ضئيل مما يتضمن مشروع بفردج للضمان الاجتماعي . ولكنه كاف على كل حال ، ليظهرنا على الروح التي بعثته ، وإلى الحالات التي أدّت اليه .

***

لماذا تقع الانقلابات الاجتماعية ؟ تقع الانقلابات الاجتماعية إذا تطوّرت الجماعات ووقفت النظامات العتيقة تحول دون خطى التطور أن تنبعث في طريقها المحتوم . وإذاً يكون كبح الانقلابات الاجتماعية هو بالعمل على مسايرة تلك الخطى التي تتطور فيها الجماعات وتتكوّن عنها فكرة في ضمائر الأمم ، بحيث تعالج بذلك العمل حالات ، هي التي تدفع إلى الانقلاب .

نظر فلاسفة الاجتماع الى حالات الانقلاب نظرتين مختلفتين : قال الأولون ان كل انقلاب خطأ ؛ وقال الآخرون ان كل انقلاب صواب . نظرتان مختلفتان ، بل هما نقيضان لا يلتقيان . ولكن الواقع يثبت أن كلاً من النظرتين لها في العقل ما يبرّرها . فالذين يقولون بأن كل انقلاب خطأ ، انما يحكمون بذلك على اعتقاد ان الانقلاب ليس مضمون العاقبة دائماً ، وقد يتولاه الانتكاس فيرتد الى عكس ما أريد به . هذا فضلاً عما يتطلب من التضحيات ، وما يسبب من الآلام . والذين يقولون بأن كل انقلاب صواب انما يحكمون بذلك على اعتقاد انه

ما من سبيل الى الافراج عن الرغبات المكبوتة بالقوة والوصول الى الاصلاح المنشود الاّ بتحطيم كل ما يقف في سبيل ذلك من العقبات . وكما أن للنظرتين ما يبرّرهما عقلاً ، فان لهما الى جانب ذلك فائدة أخرى ، هي ان نثبت من طريقهما أن التطور التدريجي قد يقضي على كل نزعة الى الانقلاب اذا أحسن القيام عليه ، وعهد بسياسة الأمم الاجتماعية الى الذين في مستطاعهم ان يدركوا ما تحفز اليه حاجات الناس من وجوه الاصلاح .

أما علاج حالات مجتمع كادت تصيبه فورة الانقلاب ، فسبيلها النظر في عمالقة بيفردج الخمسة : هل هي آخذة بخناقه ؟ هل هي تهد من كيانه وتكبح من رغباته وتشوّقه الى حالات أسمى وأنجح في الحياة ؟ لقد أوضح العلاّمة بيفردج الطريق ورسم النهج وأنار السبيل .

إن العالم في مخاض ، أما ما ستلد الأيام . فذلك ما نكاد نحكم بأنه سيكون خطوة كبيرة إلى الأمام . خطوة تخلف العالم الاجتماعي أكثر استقراراً وأمناً ، إذا تولته الأيدي التي تحسن القيام عليه .

حديث ذو شجون

حدث أبو بكر بن دريد الازدي ، قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال : رأيت بالبادية امرأة على راحلة لها تطوف حول قبر وهي تقول :

يا من بمقلته زهى الدهر — قد كان فيك تضاءل الامر
زعموا قتلك وما لهم خبر — كذبوا وقبرك ما لهم عذر
يا قبر سيدنا المجن سماحة — صلى الاله عليك يا قبر
ما ضر قبراً فيه شلوك ساكن — أن لا يمر بأرضه القطر
فلينبعن سماح جودك في الثرى — وليورقن بقربك الصخر
واذا غضبت تصدعت فرقاً — منك الجبال وخافك الذعر
واذا رقدت فأنت منتبه — واذا انتبهت فوجهك البدر
والله لو بك لم أدع أحداً — إلا قتلت ، لفاتني الوتر

قال فدنوت منها لاسألها عن أمرها ، فاذا هي ميتة .

الامالي ص ٤١ : ١ ط أميرية

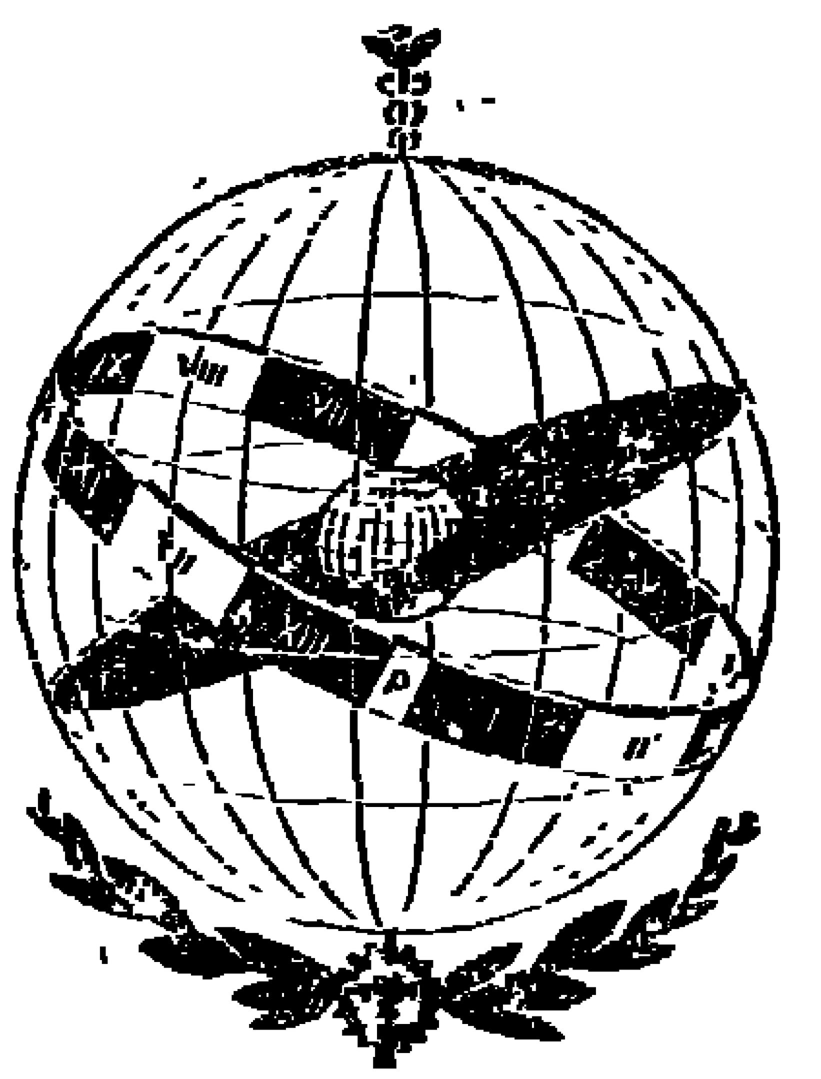

الدبلوماسية البابوية

في محيط السياسة الاوربية

لصلاح الدين الشريف

تطلع علينا أنباء البرقيات الخارجية الحين بعد الحين ، بألوان من السعي الدبلوماسي السلمي يصبغ نشاط « الفاتيكان » في هذه المرحلة التي يجوزها العالم ويرسم لنا في غمرة الأحداث الدولية التي تتعاور الآن مصاير الأمم ، صوراً حية تعكس للقادة العالميين حقيقة المتجه الدبلوماسي الذي تنحوه اليوم سياسة «الفاتيكان» في معترك العلاقات الدولية المتشابكة، كما تكاد تفصح عن مدى ما تستطيع أن تؤديه الدبلوماسية البابوية للعالم كله من سلام وتعاون وإخاء ، بعد سنوات شداد من العراك والدمار والفوضى .

والحق ان البابوية لعبت دوراً تاريخيًّا خطيراً في سياسة العالم من قبلُ ، اذ كان لبابوات روما اليد الطولى في خوض معركة لاهبة من معارك الكفاح الرهيب بغية التفرد بالسلطان الزمني ، بله سلطانهم الديني . وكان من المحتوم أن يشغل هذا الكفاح من العصور الوسطى حقبة من الزمن ، حفلت بأحداثها وظروفها ، إذ نازعت فيها البابوية ملوك أوربا وأقيالها ، واشتدت في مدافعتهم عن رغبة الاستئثار وحدهم بالسيطرة على مصاير أوطانهم السياسية وممارسة سلطانهم الزمني كاملاً . وقد تجلى دهاء السياسة البابوية في مناسبات عدة ، كما تبدت روعة أساليبها في حرصها الشديد على الاستمساك بعروة السلطان الزمني طيلة فترة الكفاح بينها وبين الأمبراطورية ، وعرضت لنا صفحات التاريخ الأوروبي صوراً باهرة لأعلام السياسة الزمنية من دهاة البابوية ودهاقينها المجربين العباقرة .

ولم تهدأ ثائرة هذا النزاع العاصف بين الكنيسة والدولة ، إلاَّ بعد أن أخذ ملوك أوربا وأقيالها يدأبون على توطيد سلطانهم الزمني متوسلين بالنظريات المبتدعة تارةً (١)

---

(١) كنظرية الحق الالهي التي تقضي بأن الملك أو الامبراطور يستمد حقه في حكم شعبه من الله ، فهو غير مسئول الا أمامه سبحانه .

وبسياسة البطش تارةً أخرى . وظلَّ العامل الديني الذي اصطبغت به الدعوة البابوية في دفاعها عن مبدئها في السياسة الزمنية ، محافظًا على بقية من نفوذه وقوته في أذهان الغربيين حتى مطلع القرن الثامن عشر ، عصر الاستنارة في أوربة ، فشاعت فلسفة الشك التي تناولت قيم الحياة وأقيسة الحضارة بألوان من التجريح والنقد ، استندت فيها الى فقه دعاة الاصلاح الديني من ناحية ، وإلى كتابات فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وعلى رأسهم ڤولتير من ناحية أخرى .

وما استتمَّ القرن الثامن عشر دورته ، وطالعت العالم المتمدين طلائع الثورة الفرنسية الكبرى ، حتى تقرر في الواقع ، بعد أن تقرر في الأذهان ، مبدأ الفصل بين نفوذ الكنيسة الديني والنفوذ السياسي للدولة . وذاعت من ثمَّ نظرية سياسة جديدة لبابها تقرير المبدأ المسيحي القديم «ما لله لله وما لقيصر لقيصر» أي أن الحكم للدولة والدين للكنيسة ولا بدَّ ، تبعاً لهذا المبدأ ، من تحديد النفوذ بينهما Cujus regio ejus relegio (١) .

كانت فلسفة الثورة الفرنسية ستار أسدل على ما كان باقياً للكنيسة وقتئذٍ من آثار السلطان الزمني ، ولم يطل الأمر بالكنيسة حتى فقدت إبان الثورة مقاطعاتها وممتلكاتها جميعاً ، بعد مصادرتها وإلحاقها بالدولة التي اعتنقت « دين العقل » وقدَّست مبتدعه « روبسبيير » داعية الثورة الأكبر !

وتولت فرنسا الثائرة من يومئذٍ مهمة الانفاق على الشعائر الدينية من خزينة الدولة ، وفي حدود ما ترصده لها من مواردها العامة ، فكانت أنصبة محدودة وحصصاً متواضعة ، لا تكاد تفي بما يسد حاجة هذه الشعائر من وجوه الانفاق .

ولم يكن عجباً أن يصبح مرفق الدين في المجتمع الثوري ضئيل الحظ من العناية الحكومية بعد ما كان له من سلطان زمني باذخ وعنفوان روحي قديم . وهكذا طغت فلسفة القرن الثامن عشر الاجتماعية على ما بقي من حرمات للمراسم والتقاليد ، وعصفت نزعة الالحاد برجال الثورة والقائمين على إلهاب مبادئها اللادينية المتطرِّفة في صدور الجماهير .

وكان « الفاتيكان » في ذلك الوقت يلوذ بصمته التقليدي الذي يرتد اليه في كل مرة يفلت من يده زمام الأمور الكنسية التابعة لمذهبه الرسمي ، وظلَّ يرقب عن كثب أحداث تلك الثورة التي أطاحت بعهد الارهاب لتخلفه حكومة « الديركتوار » التي مهدت بدورها

(١) Paleologue, Un Grand Tournant de la Politique Mondiale, P. 40.

لظهور نابليون الأول، ليسيطر بحروبه الظافرة عبر القارة ، على أقدار الممالك ومصاير شعوبها فترة غير قصيرة من الزمان .

وأوحى إلى نابليون دهاؤه بأن الوضع الذي رسمته الثورة للمجتمع الفرنسي ، بالنسبة لعلاقاته الدينية مع البابا ، لا يتفق وما يجول في خاطره من آمالٍ جسامٍ يتطلع إلى تحقيقها وإلباسها ثوب الحقائق السافرة ، وأن لا غنية له عن كسب العطف البابوي ، فاعتزم من فوره — و هو الطامح إلى تاج الامبراطورية — أن يعيد إلى فرنسا ، الابنة البارة للكنيسة الكاثوليكية ، وضعها الطبيعي الأول ، وأن يمد يد الصالحة إلى البابا ليعيد العلاقات بينه وبين الدولة سيرتها الأولى . وهكذا كان اتفاق « الكونكوردا — Concordat » المبرم في عام ١٨٠١ دستور علاقات قامت على الوفاق والمودة بين الفاتيكان وفرنسا حتى عام ١٩٠٤ ، حين استبدل بها غيرها .

وكان اتفاق « الكونكوردا » في الواقع عملاً باهراً من أعمال الدبلوماسية النابليونية ، حمل « باڤاريا » عام ١٨١٧ وبروسيا عام ١٨٢١ على أن تنسجا على منوال فرنسا ، إذ عقدت كل من المملكتين مع « الفاتيكان » اتفاقية تنظم سير العلاقات بينهما .

والحق أن العنصر السياسي لم يكن بارز الأثر في هذه الاتفاقات ، غير أن مقام « الفاتيكان » في العالم الكاثوليكي ، بله المسيحي عامة ، كان ذا أثر ملحوظ في السيطرة على عقائد الملايين من سكان أوروبا على اختلافهم ، فكان البابا بهذا الوضع قوة روحية كبرى يخشى جانبها ويستحب اكتساب عطفها ورضاها ، ولاسيما بعد أن عادت الأوضاع الطبيعية إلى أوروبا في أعقاب عصر الارهاب الثوري ، واستتبت شئون القارة إلى حين ، إثر معركة الأمم وهزيمة نابليون في « واترلو » وهيمنة سياسة المؤتمرات على ممالكها وشعوبها .

والواقع أن الدبلوماسية البابوية لم تشأ أن تشتبك باديء ذي بدء في غمار الأحداث الدولية أو أن تساهم في معترك الشؤون الخارجية بين ممالك القارة ، بقدر ما عكفت على تنظيم صلاتها الدينية بكنائس الدول الأوروبية ، فلم تن عن العمل على توثيق سلطانها الروحي عن طريق مبعوثيها من الرسل البابويين عند الدول التي ارتبطت باتفاقيات تنظم علاقاتها بالفاتيكان ، فظلت مطبوعةً بطابعٍ ديني محض ، لا شأن له بأمور السلطان الزمني ، على خلاف ما كانت عليه أوضاع البابوية طوال العصور الوسطى (١) .

---

(١) Mowat, Diplomacy & Peace, P. 188—189.

غير أن هذا الاعتكاف في داخل نطاق السلطان الروحي وتفسير دفة العلائق الدبلوماسية المبنية على تلك الاتفاقات في حدوده ، ليس يعني أن البابوية حتى قرابة الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، لم تكن تباشر أي لون من ألوان السلطان الزمني . فلا يجب أن ننسى أن الفاتيكان ظلّ مسيطراً على مدينة رومية وما كان داخلاً من الأرضين في نطاقها، يباشر عليها جميعاً سلطانه الزمني بكامل المعنى الاصطلاحيّ ، حتى بدأ حلم الوحدة الايطالية يتحقق بدخول جيوش « بيمونت » المدينة المقدّسة ، واحتلالها عام ١٨٧٠ وجعلها عاصمة لمملكة إيطاليا .

وعند ما تيسرت الأسباب لمملكة إيطاليا ، ولا سيما بعد استكمال وحدتها القومية والسياسية وزوال سياسة الفاتيكان ، أن تكون قوة عاملةً في المحيط الدولي ، ثارت بين الدول من جديد نظرية « الوضع الدولي للبابا » وعكف فقهاء السياسة الدولية على بحث تلك القاعدة التقليدية القديمة التي كانت تشترط لصحة انتخاب عميد المسيحية الأكبر وتربعه على عرش الفاتيكان ، أن يكون إيطاليّ الجنسية ، وانتهت إلى أن هذا الشرط « العنصري » — إذا ظلّ معمولاً به — فانه لا يحقق على الدوام الصفة الدولية للبابا ، ولا أن يضفي على « الفاتيكان » صبغة عالمية بارزة . ومن ثمّ ذهب فريق من فقهاء القانون الدولي إلى القول بأن الوضع الدولي البابوي لا يتحقق بكامل معناه إلاّ باعتناق نظرية الانتخاب الشعوبي العام، وتمهيد السبيل أمام الأمم الأخرى ، ليحظى أبناؤها من الكرادلة والأساقفة الذين استكملوا شرائط الانتخاب ، بالكرسي البابوي الرفيع ، أسوة برجال السلك الكهنوتي من أبناء الشعب الايطالي .

ولقد كان للنظريات الفقهية الجديدة التي حتمتها تطورات السياسة الدولية في العقود الثلاثة الأخيرة، أثر ملحوظ في توثيق ذلك الرأي الفقهي، وإن لم يدخل بعد في حيز التنفيذ العملي ، رغم أن أوضاع عصبة الأمم التي دعا « ولسون » حلفاءه إلى بحث فكرتها بعد الحرب العالمية الماضية ، كانت تقضي بدولية الانتخاب الخاص بتولي منصب سكرتيريتها العامة [1] حتى يعم التناوب عليها جميع أبناء الدول الداخلة في عضويتها وهيئاتها

بيد أن فريقاً آخر من الفقهاء والمشترعين الذين أشبعت روحهم بثقافة دينية مسالمة ، لم يروا في محاولة قلب الأوضاع الحالية وابتداع النظريات الفقهية بغية التعديل في القواعد المرسومة التي رسّخها الزمن ، إلا فرصةً سانحةً لبعث التنافس والمزاحمة بين الشعوب ،

(١) المرجع السابق صفحة ١٨٦ ، ١٨٧

وإثارة كوامن التطاحن السياسي بين حكومات الدول المتناجزة ، في سبيل كسب هذا المنصب لأبنائها . ولقد رأوا أن مثل هذه الخصومة قد تجر إلى إثارة منازعات أسدل عليها عصر الضياء في أوربة ، ستاراً كثيفاً . فالاستمساك بعرى التقليد القديم الذي جرت عليه مراسم الانتخاب للكرسي البابوي ، يجعل مركز البابا على الدوام بنجوة من تلك المنافسات السياسية فضلاً عن أن الفاتيكان ، في ظل هذا التقليد التاريخي العتيد ، لا تسلب حيدته ولا يثلم استقلاله، الذي يستمد منه سلامته وحرمته في العالم المسيحي كله .

ولم يكن المتجه الدبلوماسي للبابوية منذ حركة الاصلاح الديني « Reformation » حتى منبثق عام ١٨٧٠ سوى سلسلة من السعي الحثيث لكسب مزايا دينية ومنح مادية للكنيسة الكاثوليكية . ولقد تجلت خصائص هذه الدبلوماسية الايجابية لتحقيق هذه المغانم الأدبية والمادية للكنيسة في عهد فيليب الثاني ملك اسبانيا ولويس الرابع عشر وخلفه لويس الخامس عشر ملكا فرنسا .

وفي القرن التاسع عشر ظلت الدبلوماسية البابوية منذ انعقاد مؤتمر فينا حتى نشوب الحرب السبعينية بين المانيا وفرنسا، لا تألو جهداً في الاستمساك بسلطانها الزمني الذي هيأ لها السيطرة المطلقة على مرافق روما وأقدارها ردحاً من الزمن ، حققت البابوية في خلاله صورةً من المجتمع الديني سادت فيه فضائل المسيحية . ولم يكن مستنكراً في غمار هذه الظروف أن تناهض سياسة الفاتيكان نشوة الروح القومي في ايطاليا ، تلك الروح التي كانت ترمي إلى تحقيق الوحدة السياسية الموموقة بين إماراتها ودوقياتها بزعامة « بيمونت » ومن ثمة اتجهت الدبلوماسية البابوية أيامئذٍ إلى مناصرة سياسة المؤتمر التي رسم « ميترنيخ » قواعدها بتأييد انجلترا وروسيا (١) والنمسا .

والحق أن فقدان الفاتيكان لسلطانه الزمني إثر تحقيق الوحدة الايطالية ، لم يحمل في طياته أيما شر سياسي للفاتيكان ، كما كان يتنبأ بذلك أنطونلّي Antonell الدبلوماسي الداهية الذي كان كاتماً لسر البابا « بيوس التاسع » منذ عام ١٨٤٨ حتى عام ١٨٧٦ .فزوال السلطان الزمني ضمن لدولة الفاتيكان الخلاص من ربقة القيود الاقليمية والاعتزال وراء التخوم الجغرافية،ومهد للفاتيكان اتباع سياسة دولية شاملة خرجت بنشاطه الديني والسلمي إلى الأفق الدولي الفسيح .

ولقد تحقق هذا الوضع على أكمل وجه له بعد « المعاهدة اللاتيرانية » Lateran التي

(١) المرجع السابق صفحة ١٨٨

أبرمتها الدولة الايطالية مع الفاتيكان عام ١٩٢٩ ونظمت بها العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين وأمكن بها للبابا ، لأول مرة ، أن يخرج عن احتجابه التقليدي الذي ظلَّ حتى وقتئذٍ سنة متبعة منذ احتلال قوات « بيمونت » لرومية ، احتجاجاً على العدوان العسكري والسياسي الذي نزل بالفاتيكان باحتلال « المدينة المقدسة »

وظلَّ خلفاء « بيوس التاسع » ملازمين الفاتيكان الذي انكمش سلطانه السياسي على أثر تحقيق الوحدة القومية، واتبعت الحكومة الملكية الجديدة إزاء مدينة البابا وضعاً دوليًّا مسالمًا ، إذ اعتبرت الفاتيكان إقليماً أجنبيًّا عن أرض الدولة « extra-territorial » فلم تخضعه لهيمنة الحكومة المركزية، ولم تحتله بجيوشها أو موظفيها الملكيين (١).

وعلى ذلك لم يعد للاحتجاج التقليدي الذي اتبعته السياسة البابوية منذ عام ١٨٧٠ أي مبرر ، لأن استنكار هـذه السياسة لفكرة الضم Annexation لم يعد يحمل معنى انتهاك السيادة واهدار الاستقلال ، ولم يكن في الواقع غير عمل سياسي طبيعي ضمت به مدينة رومية للمملكة الجديدة لتصبح العاصمة ، واقتطعت الحكومة الملكية بعض الأرضين التي تتاخم المدينة وتكون ضواحيها .

ومن ثمة انفسح المجال أمام الفاتيكان ليشارك في تعزيز الروابط الدينية وتقوية العوامل الأدبية بين أمم المسيحية ، وتأكد هذا النشاط الجديد عقيب أن بارح البابا « بيوس الحادي عشر » مدينة الفاتيكان في موكب ديني مشهود اعلاناً لرضائه الصريح الذي ظلت الحكومات الايطالية المتعاقبة حريصة على الفوز به.

***

ولما كانت الدبلوماسية البابوية تستمد خصائصها من طابعها الديني الذي يعزز في روحه وتعاليمه مكارم الأخلاق الدولية بين أمم العالم ، فقد هالها الصراع الدموي الرهيب الناشب بين أمم الحضارة، وينذر بالقضاء على مقوماتها ومثلها ، فهبت نشيطة يقظة تدعو العالم الى كلمة سواء ، وتهيب به أن يفيء الى الاخاء والعدل والسلم .

---

(١) راجع مقال N. V. Tcharykow بعنوان « The Roman Question » في مجلة Contemporary Review عدد مارس سنة ١٩٣٠ . وقد كان «تشاريكوف» هذا ممثلا للامبراطورية الروسية لدى دولة الفاتيكان عام ١٨٩٧

وفي اليوم الأول من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٣ أذاع قداسة البابا من محطة الفاتيكان اللاسلكية رسالة كريمة طالب فيها الأمم المتحالفة أن تحقق السلام في أقرب وقت، وناشدها ألا تدع هذه الحرب المروعة تنتهي بالتحطيم والتدمير بل يجب أن تستهل صفحة جديدة من الصلح الأخوي بين الشعوب .

ولقد رسم قداسته في تلك الرسالة ، التي سبقتها دعوات قوية مماثلة ، قواعد الدبلوماسية الجديدة التي تناصرها البابوية وتراها أمثل الأساليب لاقالة هذا العالم من عثرته ، ومنها نستشف سماحة العوامل التي حدت بهذا النشاط الدبلوماسي الى تكرار دعوته ومواصلة النهج في سبيلها ، حتى يعلو صوت العقل على صوت الدمار والفوضى .

قال قداسته « يزداد في كل أمة النفور من أساليب الحرب العامة، كما أخذ الشك يتسرب الى جميع القلوب في هل يتفق استمرار مثل هذه الحرب مع المصالح القومية أو مع العقل . وقد تحطم صرح الثقة والايمان بين الأمم بعد المعاهدات الكثيرة التي نقضت، والعهود التي نكثت ! وان الشعوب لا تستحق ، بعد الآلام والمتاعب التي عانتها ، سوى السلام والخبز والعمل ، هذه كل ما تطلبه الشعوب ، والله هو الحكم الأكبر لكل عدل وقانون . فالويل لمن يثيرون الأحقاد ويبنون سلطانهم على الاضطهاد والمظالم وتعذيب الأبرياء ويمنعون بناء سلام عادل دائم » .

« إن الذين حسبوا أنهم قادرون على تحقيق انتصارات عسكرية خاطفة واحراز صلح سريع ظافر ، لم يشاهدوا ، حتى في بداية هذا العام الخامس من الحرب، سوى الرعب والفزع » (١)

***

ولا شك في أن هذا الاتجاه السلمي الجديد ، مع ما يعززه من النفوذ الأدبي لهيبة المقام البابوي بين أمم العالم المتطاحن، سيحملها على أن تطوي صفحة الأمس المحزنة، وتستهل صفحة جديدة قوامها الاخاء والرخاء والعدل بين أمم العالم المتمدين .

---

(١) راجع جريدة الاهرام العدد رقم ٢١١١٩ الصادر في ٢ سبتمبر سنة ١٩٤٣

الريف والزراعة

في الولايات المتحدة الاميركية

لوديع فلسطين

يهمّ البلاد الزراعية ، ومصر في طليعتها ، أن تتبع أنباء التقدم الزراعي في العالم لتستطيع الافادة من خبرة الأمم الأخرى في هذا الشأن .

١ — إضاءة الريف الأمريكي

وأول ما يلفت النظر في الريف الأمريكي نظام الاضاءة الكهربائية الذي ينتشر في عددٍ كبيرٍ من قرى الولايات المتحدة الأمريكية .

فقد استطاع الأمريكيون في مدى سبع سنوات إضاءة ما يزيد على مليون منزل ريفي تضمّ زهاء خمسة ملايين نسمة . فأضحى هذا العدد الضخم من الفلاحين ينتفع بمزايا الاضاءة الكهربائية الجمّة .

أنشئت إدارة إضاءة الريف بالولايات المتحدة في مايو سنة ١٩٣٥ بناءً على أمر الرئيس فرنكلن روزفلت، واتضح بعد مضي سبع سنوات من قيام هذه المؤسسة أن أصبح ٢٥ في المائة من القرى الأمريكية البالغ عددها ٦٫٨٠٠٫٠٠٠ قرية تضاء بالكهرباء .

وكان تحوّل الإضاءة من الزيت إلى الكهرباء مصحوباً بتطورٍ اجتماعي واقتصادي كبير . فقد أصبح الحصول على المياه النقية في الريف ممكناً ، وأدّى ذلك إلى تحسن صحة الريفيين . كما أن انتشار الكهرباء جعل من المتيسّر على الفلاحين اقتناء ثلاجاتٍ لحفظ المواد الغذائية ، ووفر عليهم الخدمات التي كان يؤديها الكوّائين والغسالين ومن إليهم .

ومن أهمّ ما نتج عن تطبيق هذا النظام الجديد أن اصبح مستطاعاً استعمال الآلات الزراعية، عوضاً عن سخرة الفلاحين في أعمال الفلاحة المختلفة .

ومما يجدر ذكره أن مشروع الإضاءة الريفي الكبير ، قام على اموالٍ أقرضتها

الحكومة الأمريكية المركزية (الفدرائية) إلى جمعيات تعاونية أقيمت خاصة لهذا الغرض أو إلى مؤسساتٍ عامة لا تسعى إلى ربح ذاتي .

ووضع إلى جانب القروض ، نظام خاص يمكن بمقتضاه ردّ قيمة هذه القروض ثانيةً إلى الحكومة في مدى ٢٥ عاماً .

ولعلّ المثل التالي يبين لنا الطريقة التي أدّت إلى إضاءة الريف الأميركي .

يدعو ممثل الحكومة الأميركية المركزية فلاحي قرية من القرى إلى اجتماع عام يُظهر فيه الفلاحون رغبتهم في مدّ الأسلاك الكهربائية في قريتهم . فتتكوّن هيئة تعاونية تشرف على تنفيذ هذه الرغبة ، تُقرضها الحكومة المركزية نفقات مشروع الإضاءة ، فتمدّ الأسلاك في أرجاء القرية وتطالب الفلاحين بسداد نفقات استهلاكهم من الكهرباء وتقوم بدورها بتسديد الأقساط الحكوميّة ، مما حصلت عليه من المستهلكين . ومهمة الجمعيات التعاونية القيام بشراء الكهرباء من مراكز توليدها على أساس سعر الجملة ، ثم بيعها الى المستهلكين بسعر القطاعي،فيكون ربحها هو الفرق بين السعرين . ويُستغلّ هذا الربح في تصفية ديون الجمعية التعاونية للحكومة المركزية .

هذا وقد أنشىء في مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأميركية ٤٥ مركزاً لتوليد الكهرباء تقوم بمهمة مدّ الهيئات التعاونية بالقوى الكهربائية اللازمة . وكان من نجاح المشروع أن ما يزيد على ٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أقرضتها الحكومة الى نيفٍ وثمانمائة مؤسسة عامة تقوم بنشر الكهرباء في مختلف أنحاء الريف الأميركي .

هذه لمحة عن مشروع ريفي ناجح في بلادٍ زراعيّة ناجحة .

٢ — المزارع النموذجية

استطاعت خمسون مزرعة أميركية تدار بإشراف كلّ من « إدارة البحوث الزراعية الأميركية، والمختبرات ومراكز البحث الاقليمية» أن تغير الخريطة الزراعية للولايات المتحدة الأميركية . فأمكن في إحدى هذه المزارع التجريبية ، اختراع طريقة للزراعة الجافة أدت إلى تحويل المناطق الصحراوية في الولايات المتحدة الأميركية إلى مساحات تزرع فيها الحبوب. وتوصّل الباحثون إلى نوع من الحبوب يتطلب قليلاً من الرطوبة ، فزرعوه في هذه المزارع التجريبية ، وكانت النتيجة أن أصبح ثلاثون مليوناً من الأنفس يعيشون على هذا النوع من الحبوب ، وأن يستنبتوها لعمل الخبز اللازم لأهالي الولايات المتحدة وجنودها وحلفائها .

وقد أجريت تجارب مضنية لزراعة فول الصويا في نوع من التربة يشبه تربة نهر الفولجا في روسيا ، وكان نجاحها مدعاة لأن تشحن الولايات المتحدة إلى اتحاد الجمهوريات السوفيتية مقادير من فول الصويا ، الذي لم يسبق لروسيا أن استنبتته .

وأمكن لاحدى المزارع الاميركية ، أن تحرز نجاحاً ملحوظاً في استنبات نوع جديد من القمح يزيد عدد الحبات في السنبلة الواحدة منه بمقدار ٥٠ في المائة من عدد الحبات في سنابل القمح العادي . فكان من نتيجة ذلك أن أصبحت الولايات المتحدة الأميركية الآن تمتلك عدداً كبيراً من مخازن الغلال الزائدة عن الحاجة ، يمكن عند الضرورة شحنها إلى أوربا وآسيا وشمال أفريقية لتموين البلدان التي تأثرت سياستها الغذائية بفعل الحرب . وتدار محطات التجارب الزراعية التابعة لوزارة الزراعة الأميركية لمصلحة الفلاحين الأميركيين وبمعاونتهم ، وكذلك بمعاونة طلاب الزراعة في جميع الولايات ، فهي والحال هذه تمثل جميع درجات المناخ وأنواع التربة .

ويتعاون العلماء مع الفلاحين في انتاج أنواع جديدة من النباتات ، وتحسين سلالات الماشية ، وزيادة الانتاج المحلي من بيض الدجاج ، واختراع المواد الكيميائية اللازمة لعلاج أمراض النباتات .

ويخسر زراع الحبوب في المناطق الغربية من الولايات المتحدة الأميركية كميات هائلة من القمح سنويًّا لاصابتها بمرض « الصدأ » ، غير أن البحوث التي تجريها المزارع الحكومية تمخضت عن كشف نوع جديد من القمح لا يصاب بالصدأ لمناعته . وغلة الفدان منه تزيد على غلة الأنواع الأخرى . فأمكن بأساليب التسميد المستحدثة والأنواع الجديدة من الحبوب أن تتزايد غلة الشعير والقرطم والحنطة والحمص . وأصبحت الولايات المتحدة تنتج من هذه المحصولات ١٢٥ في المائة أزيد مما كانت تنتجه قبل عشر سنوات .

وتواصل الهيئات المختصة بنجاح مكافحة الحشرات التي تفسد الفاكهة وسوس القمح ودودة القطن وأمراض الماشية وتحارب جميع الأدواء التي تؤثر في زيادة الموارد الغذائية للولايات المتحدة الأميركية .

ويطوف ألوف من مندوبي مصلحة الزراعة الأميركيـة على القرى لإبلاغ الفلاحين نتائج بحوث هذه المزارع بطريقـة واضحة ، وإحاطتهم بجميـع التحسينات التي تطرأ على الزراعة . كما أنهم يقومون بعرض مشكلات الفلاحين على الباحثين ليتعاونوا على حلّها .

وحدث مرة أن اشتكى فلاحو الأراضي الجنوبية في الولايات المتحدة من أن ماشيتهم

هزيلة سقيمة ، فأرسلت الحكومة خبراءها إلى تلك المنطقة ليتقصوا أسباب هذه الشكوى ، فاتضح لهم أن الماشية من نوعٍ لا ينضح عرقاً يلطّف من حرارة أجسامها . وعندما لقّحوا الماشية بنوعٍ جيّد من المواشي يلائمها الجوّ الجنوبي الحار ، تحسنت أنواعها ، وتضاعف إنتاجها .

وأمكن بالعناية الفائقة بالدجاج أن تبيض الدجاجة الواحدة في المزارع الأميركية حوالي ٢٥٠ بيضة في العام ، واستطاع هؤلاء العلماء أنفسهم زيادة إنتاج الولايات المتحدة من لبن البقر بمقدار ٢٠ في المائة ، وضاعفوا النسبة الغذائية في الزبد . كذلك رأى أصحاب مزارع الليمون والبرتقال أن الأشجار تنمو هزيلة ، فاستدعوا اخصائيي الحكومة ، واتضح لهم أن الأشجار الناجحة تنبت في تربة تحتوي على نسبة قليلة من الخارصين (الزنك) وان البساتين المصابة تعوزها هذه المادة ، فعولجت على هذا الأساس وعادت إلى الأشجار عافيتها .

وفي السنوات العشر الأخيرة وحدها ، استطاع علماء الحكومة ومندوبوها متعاونين ، زيادة إنتاج الحقول الأميركية بما لا يقل عن ٢٥ في المائة وهم يواصلون أعمالهم الآن . فاستنبتوا أنواعاً جديدة من القطن المتين التيلة وأنتجوا أنواعاً جديدة من الفاكهة والمحصولات المختلفة ووفقوا إلى كشف فوائد جديدة لجميع المحصولات ، واستغلوها جميعاً أفضل استغلال ، فأصبح القمح الهندي مثلاً ، يستعمل في ما لا يقل عن ألف غرضٍ صناعي عدا استعماله غذاء . وفول الصويا استعمله العلماء في صناعة المطاط الصناعي وفي بناء الطائرات وفي إنتاج مئات من الأدوات النافعة . واستطاعوا بكافة الوسائل استغلال ذكائهم ومعارفهم وصبرهم في الاكثار من محصولات الحقول الأميركية .

***

تلك أمثلة للمشكلات التي نجحت في حلّها المزارع الخمسين التابعة لحكومة الولايات المتحدة الأميركية . ولم تنجح تلك البحوث في تحسين حال الفلاحين وحسب ، بل ساعدت الحكومة الأميركية في تغذية جيشها الكبير .

وإزاء الحرب القائمة ، أنشأت مصلحة الزراعة الأميركية قسماً خاصّاً لبحث الحالة الغذائية في العالم ودراسة المزايا النسبية التي تترتب على استنبات محصولات زراعية معينة في بلادٍ لها من جوّها وتربتها ما يجعلها أنسب مكانٍ لإنبات هذا النوع من النبات . كما انها وضعت برنامجاً وثّاباً لنشاطها بعد الحرب .

الزرمانقة وأصلها

للأب أنستاس ماري الكرملي

من أحفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

جاء في قاموس الفيروزابادي : والزُّرمانقة بالضم جبة من صوف . معرب أشتُربانَه أي «متاع الجمال» وقد تبع هذا الرأي كل من بحث عن هذه الكلمة من أبناء الناطقين بالضاد . ونحن لا نرى البتة هذا الرأي ، إذ بين الحرفين من الفرق ، كما بين الثرى والثريا ، أو كما بين البقة والبقرة . ولا يهمنا قال فلان كذا ، أو قال آخر كذا ، انما نرمي إلى التحقيق ليس إلاّ .

والمستشرقون لم يقبلوا هذا الأصل الفارسي الذي يحيل بعضهم عليه ، فقد نظر فرنكل (ص ٢٨٩ من كتابه إلى رأي نولدكي أي الى أنها من (كره يبان) أي حافظ الرقبة من (كِره أي عنق)و (بان أي حافظ) ولكن كليهما شك في صحة هذا الأصل ولم يقنع بهذا الفكر . ولهذا جعل وراء (كِره يبان ؟) علامة الاستفهام ، دلالة على عدم اقتناعه به .

ونحن أيضاً لا نوافق على رأي من يقول بهذا الأصل أي (اشتربانه) ولا على رأي من يقول إنها من كره يبان ، والذي عندنا ان (الزرمانقة) مأخوذة من (جرمانقة) وهي اسم بلدة تسمى اليوم (مَرْعَش) ، وكانت تعمل فيها أكسية منسوبة اليها ، وهي جبب من صوف أو من وَبَر الجمال .

قال السيد مرتضى في تاجه : « الزرمانقة بالضم جبة من صوف . نقلهُ الجوهري . ومنه الحديث : ان موسى عليه السلام ، لما أتى فرعون ، أتاه وعليهِ زرمانقة ، يعني جبة صوف . قال أبو عبيد : أراها عبرانية . قال : والتفسير هو في الحديث . ويقال : هو فارسي معرب اشتربانه أي متاع الجمل» اه . — قلنا : وفي القاموس — كما رأينا : متاع الجمّال ، بتشديد الجيم يليها ميم » .

قلنا : ليست في العبرية كلة تشبه هذا اللفظ ولا هذا المعنى . وأما في الفارسية ،

فالكلمة (اشتربانه) بعيدة عن الزرمانقة . هذا فضلاً عن ان (اشتر) معناها الجمل ، الحيوان المعهود ، لا الجمّال أي صاحب الجمل . ولم ترد (بانه) عندهم إلاّ بمعنى الحانة، ولا محل لهذا المعنى هنا .

والمعروف في الفارسية (أُشْتُرْوَا) وهو ثوب يتخذ من الوَبَر و (أُشتروَارْ) أو (أُشترباد) حمل أو وَقر جمل.و(اشتُرابه) أو (أُشتُراوه) ثوب يتخذ من الوبر، وقد صحفهُ بعضهم فقال (أُشترباية) وكلاهما خطأ ، إذ لا وجود لهما في الفارسية الفصحى . والصواب أن الكلمة من اللاتينية Germaniciana ومعناها مَرْعَشِيَّة بتقدير جُبَّة ، فيكون معنى زُرْمَانقة : جبة مرعشية ، أو تعمل في مرعش ، وهي من مدن الثغور ، لأن هذه البلدة تسمى بالرومانية Germanicia (جرمانيقية) واليونانيون لا يستطيعون التلفظ بالجيم ، فيجعلونها زاياً ولهذا يقولون (زرمانيقية) ، ثم خففت تخفيفاً طفيفاً بحذف الياء فقيل رزمانقة .

والكلمة معروفة اليوم عند الإرميين (وهم الذين يسمون وهماً وخطأً كلداناً وسرياناً) بصورة (جُرْميناقَا) بمعنى زرمانقة، وقد أفرغوها بقالب لغتهم، صاغها بنو مُضَر صياغة مُضَرية ، وفسرها بعضهم بانها ثوب محشو ومبطن وقد وردت هذه الكلمة بصورة ثانية في لساننا هي جرمقي وزان زبرجي .

***

الكساء الجرمقي هو الزرمانقة

الكساء الجرمقي هو عندنا الزرمانقة بنفسها ، وان لم يصرح بهذا المعنى أرباب نصوص اللغة قال في القاموس في تركيب (ج ر م ق) ، الكساء الجرمقي بالكسر ، وفي التاج : « قال الفراء : كساء جرمقي ، بالكسر ، كذا في التكملة « ولم يزد على هذا القدر ولم يشرحوه » . اهـ

والذي عندنا أنهُ الزرمانقة نفسها ، فهذه الصورة اللاتينية، والجرمقي بالصورة الخفيفة العربية، كما قالوا في عبد القيس وامرىء القيس وعبد مناف وعبد شمس : عبدي وامرئي ومنافي وعبشمي، الى نظائرها، وكل ذلك طلباً للخفة.

ولماذا لم يشرحوا الجرمقي كما شرحوا الزرمانقة ؟ — قلنا : لذلك أسباب ، منها :

وهو الأول : إنهم كانوا يعرفون معناه حين تدوينه في المعاجم .

الثاني : شهرة ذلك المعنى والشهرة تغني عن التعريف .

الثالث : استغناؤهم بقولهم : كساء وما كان مشهوراً يومئذٍ بكساء هو الزرمانقة ولم يفكروا أن الأجيال القادمة قد تختلط بمختلف الامم ذوي الألسنة المختلفة فيعسر معرفة المعنى إلَّـمْ يشرح بتفصيل واضح

الرابع : لعلَّ بعضهم شرحوه ولم يتصل بنا.

الخامس : ضبطه بعضهم وزان جعفري ، كما فعل صاحب (معيار اللغة) وهو الميرزا محمد علي بن محمد صادق الشيرازي من اللغويين المتأخرين،ومعجمه مطبوع في طهران طبعاً حجريًّا سنة ١٣١١ للهجرة ، فقد قال في مادة (ج ر م ق): « جرمق كعسكر : بلد ، أو موضع وكساء جرمقي منسوب اليه اه . وضبطه ضبط قلم كعسكري، وهو خطأ واضح لأنه مخالف لجميع من صرحوا بضبطيه أي كزبرجي بكسر الزاي والراء .

اختلاف بعض اللغويين المحدثين في شرحه

جاء في ذيل أقرب الموارد للشرتوني : « كساء جرمقي بالكسر كذا بالتكملة وهو منسوب الى الجرامقة » اه

قلنا : قوله : وهو منسوب الى الجرامقة ، ولم يرد في التكملة ، فهو من عنده ومن زياداته .

وفي البستان وهو للشيخ عبد الله البستاني : « الجرمقي كساء منسوب الى الجرامقة» — وهذا خطأ في خطأ . إذ لم يقل أحد : جرمقي بدون منعوت بل قال جميعهم كساء جرمقي . ولم ينسبوه الى الجرامقة، بل نسبوه الى جرمانيقية أي مَرْعَش وهي مدينة لا قوم، فاختلط عليه الحابل بالنابل والبقة بالبقرة .

وجاء في معجم فريتغ العربي اللاتيني ما هذا معناه : « زرمانَـقة . كذا . أي انه ضبط ضبط قلم بفتح النون وهو خطأ ، جبة من صوف (نقلا عن القاموس) : ويقال : إنها من الفارسية : اشتربانه . وعليه يدفعنا اشتقاقها هذا ، الى القول بأنها من ألبسة الجمالين » اه. وهذا كلام معقول وان لم يكن صحيحاً

والسبعون وبلّغتها

استطاع غلادستون ، السياسي الانجليزي المعروف، أن يشن معركة سياسية، أصبح بعدها رئيساً لوزارة انجلترا وهو في الرابعة بعد الثمانين . ورسم « تتيان » صورة من روائع الفن عنوانها « المسيح متوّج بالأشواك » وهو في الخامسة بعد التسعين . وكان « أوليفر ديتول هولمز » عضواً ممتازاً في محكمة الولايات المتحدة العليا ، ولم يعتكف ، إلاّ بعد أن بلغ الأولى بعد التسعين . فالعمر إذاً أمرٌ ذاتي ، ولا يُعَدّ دائماً بطول السنين والأعوام .

تكون الحياة ثمينة ما استطاع المرء أن يعيش سعيداً مفيداً لنفسه وللناس . ولا شك في أن الانسان لا ينتظر أن يعيش وهو في السبعين محتفظاً بنفس القوة والنشاط اللذين يكونان له وهو في الأربعين . ولـكنه مع ذلك يستطيع أن يؤدي في ذلك السن عملاً مفيداً وأن يعيش في كنفه هادئاً وادعاً ، ما دام تكوين بنيته مواتياً لمطلوباته، وعاداته متفقة مع ما تقتضيه شرائط الصحة . صحة الجسم والعقل والروح .

الراحة الواجبة

إذا تقدم بك السن فصرت في أصيل الحياة ، فاعمل بهدوء وتؤدة وتجنب العجلة وامشِ بهوادة، أي على قدر ما تجد عندك من طاقة، فلا ترهق عضلاتك وأعصابك. ذلك بأن مقدار الحركة في الحياة يجب أن يتكيّف دائماً بنسبة ما تجد في جثمانك من قوة ونشاط وكفاية كل يوم. فالراحة إلى الحد الواجب والتكاسل والنوم ، تصبح من الأشياء الضرورية اللازمة لمن هم في السبعين ، واغفالها أمرٌ لا يعين على السلامة .

فبعد أن تقضي عيشة هادئة ، بعيداً عن مهام حياتك ، مستقر النفس ، منصرفاً عما يثيرها ويمضها ، فالفراش أولى بك إذا بلغت ساعتك التاسعة أو بعدها بقليل . والذين يشعرون بالقلق إذا جنّ الليل ، والذين يصابُون بالأرق لغير سبب طبيعي ، يجمل بهم أن يلجؤا إلى حمام ساخن ، فانه خير ما يهدئ الأعصاب ، ويعيد للنفس استقرارها ، ويجلب

النعاس الهادي إلى الجفون المتعبة . فبعد عشرين أو ثلاثين دقيقة تقضيها في حمامك ، جفف جسمك بعناية ، واستلق طالباً الراحة موطناً نفسك عليها ، فيهوّم النعاس بعينيك ثم تنام راضي البال . فالتراخي والاستسلام إذا ما أويت إلى فراشك ، وانصرافك عن التململ والتقلب على جنبيك، من مجلبات النوم ، فاذا أعيتك الحيل وطار النوم من عينيك، فالجأ إلى الطبيب غير متوانٍ ، فان ذلك خير سبيل ، وآمن وسيلة .

إن بذل أي جهد عضلي أو نفسي محاولة جلب النوم ، من أخص الأشياء التي تجلب اليك الأرق . وأعدى أعداء الأرق جلسة هادئة وعقل وادع ونفس مطمئنة . هنالك يأتيك النوم ساعياً اليك . ومن الضروري لك أن تعلم أن الراحة والهدوء عاملين من أعظم مجلبات النوم . وعليك أن تقاوم ميلك إلى العقاقير النوّمة ، لأنها أول بواعث التخدّر ، فتحدث حالة من الخدر العقلي تهدّئك ، ولكنها ليست نوماً طبيعيّاً ، وكل العقاقير النوّمة من العوامل المحدثة للعادات التي تستبد بك على اختلاف في الدّرجة والقدر ، ولن يوصي بها انسان عالم بحقيقة ما تؤدّي اليه .

ويجب الانتباه إلى الرياضة البدنية ومرانة الجسم خارج المنزل ، كلما كان ذلك مستطاعاً . والمشي من الرياضات المثالية لجميع الناس وفي كل أطوار العمر ، فلا تهمله .

الازدحام بالطعام يختزل العمر

الـكلام في الحمية الواجبـة لمن بلغ السبعين ، وبخاصة في عادات الأكل والشرب ، وفي ملاحظة الميل إلى الرّبالة ، من أخصّ ما ينبغي أن ينصرف إليه المعنيون بأمر صحتهم . فان انصرافك إلى لذائذ المائدة ، أمرٌ قد يجر عليك أمراضاً كثيرة وآلاماً أنت في غناء عنها .

فالمعدة المزدحمة لا يقف بها الأمر عند خلق الاضطرابات المعوية الشديدة ، بل انها عقبة كؤود تعوق حركة القلب عند المتقدمين في السن . والازدحام بالطعام من شأنه أن يحدث مع الزمن ميلاً إلى الرّبالة ، وهي مما يؤثر في وصلات الجسم السفلى ، فتتراخى وتتعطل عن القيام بوظائفها الحيوية . والنّقرس من الأمراض التي يتفاقم أمرها، إذا عيق القلب عن حركته الطبيعية، ان لم تكن إعاقة القلب عن تأدية واجبه، سبباً في إحداث الاصابة به ، لأن القلب إذا عيق عن عمله ، اضطر إلى زيادة الجهد بنسـبة كل رطل يزيد في وزن الجسم . والرّبلون قلما يمتد بهم العمر . وقد دلت التجارب على ان كل رطلين في الوزن تلقاء بوصة في الطول ، هو المعدّل الطبيعي للبالغين ، فاذا زاد المعـدّل أو قلّ في نطاق عشر أرطال، لم يدلّ ذلك على تجاوز ذي بال ، ولـكن لا ينبغي أن يتعدّى ذلك .

يتطلب الاحتفاظ بالصحة غذاءً بسيطاً يطهى بطريقة خالية من التعقيد، والحديقة والحقل هما أمثل مكانين لتزويدك بالأغذية السهلة . والبقول تحتاج إلى الطهي ، أما الفواكه والجوز ، فقد طهتها الشمس ، فوق انها مأكولات شهية غنية بضروب الفيتامين والمعادن . وهذه الأطعمة، مضافاً اليها اللبن والزبد والجبن والبيض ، في مجموعها غذاء منشط كاف للاحتفاظ بحالة الصحة . واستكشاف ضروب الفيتامين ، قد أحدث انقلاباً في التغذية ، يعدّ الآن من أسس الصحة الجوهرية .

الكحول والطباق

ليس لتعاطي أنواع الكحول من مبرّر بحال من الأحوال، فانها جميعاً من أضر الأشياء بحالة الصحة . وبالرغم مما يعتقده أكثر الناس ، قد انتهى الباحثون الى أن أية كمية من الكحول صغيرة كانت أم كبيرة ، ليست من المنبهات في شيء، بل هي على العكس من ذلك مخدرة مذهبة للحيوية ، ولها مؤثرات تخل بكفايات العقل العليا . ويرجع الى إدمانها الكثير من مآسي الحياة الانسانية .

وتَشَرُّب النيكوتين، وهو سم الطباق الناقع، عادة أخرى من العادات المستقبحة التي تختزل الحياة ماديًّا وعقليًّا، كما أبان عن ذلك بأجلى بيان « ريموند بيرل » الأستاذ بجامعة « جون هوبكنز » . فان هذا المخدّر يترك أثره المباشر في الأعصاب والدماغ، ويثير الزّوْز والشُّعب الرئوية ، بالرغم مما يحاول البعض من المتاجرين بأعمار الناس أن يدخلوه في روع المدخنين. والنيكوتين من مسببات قرحة المعدة وبثور الامعاء، وهو مما يعوق دورة الدم ، مما يحدث في الشرايين من التصلب .

فإذا أردت أن تنمى كل ذلك فالجأ إلى الطبيعة . إلى حديقة حسنة التنسيق تناثرت فيها الزهور الجميلة والأشجار الغضة . وحياة الريف من أفعل الأشياء التي تنسيك همك وتقوّم حياتك .

تجنب الوحدة

ومما يحسن بك أن تجتنب الوحدة ، وأن تلزم مصاحبة أقاربك وأصدقائك والذين هم من جيل أصغر من جيلك . فان ضحكات الأطفال وعبثهم ، وألعاب الشباب ومرحهم، أشياء لها أثرٌ بعيد في بعث الحيوية وتجديد الشباب ، فضلاً عما يعود على الجيل الناشىء من الفائدة بمباشرة الكبار ، إذ يتزودون منهم بالنصائح الطريفة والمعلومات وتاريخ الأيام الماضية .

وعلى الرغم من أن التقدم في السن يضعف الذاكرة بعض الشيء ، فان العقل من شأنه أن يتابع الاتساع والنماء طوال العمر، والانسان مهما تقدم به السن في مكنته أن يتعلم شيئاً جديداً وأن يتزود من المعرفة بما لم يكن يعلم . وهنالك من استطاعوا أن يستوعبوا لغات صعبة كالاغريقية بعد أن بلغوا الثمانين من العمر ، فتشربوها وتفقهوا في آدابها . فاذا عكفت على تعلم شيء من هذا وانصرفت إليه ، فان ذلك مما ينسيك آلامك ويفيد صحتك ويوسع آمالك ويزيد رغبتك في المتعة بالحياة . لأن لكل طور من أطوار العمر متعة ، ومتعة الشيوخ الاتصال بالحياة من طريق جدي ، كتحصيل العلم أو استيعاب المعرفة .

ومن بلغ السبعين فانما قد بلغ عصره الذهبي ، فمن واجبه إذاً أن يتمتع بحصاد ما زرع في أيامه الأول ، بأن يقف حياته المفعمة بتجاريب الزمن على خدمة الجيل الناشيء من أولاده وأقاربه والذين يلوذون بهم . فاذا كان ممن هم في سعة من العيش ، حفَّ به سلام الحياة ، وإن له في الريف الجميل لحياة أكثر سلاماً ودعة ، وفيه يجد طبيعة غضة الاهاب تزوده بما يفعم نفسه جمالاً وقلبه انشراحاً ورئتيه هواءً منعشاً يجدد كيانه .

طبيبك يوفر عليك مالاً ومرضاً

إن كثيراً من المرض والألم والممضات مع ما يتبعها من نفقات وبذل ، يمكن تلافيها إذا بادر الناس بالذهاب الى الطبيب قبل أن يضطروا الى الذهاب اليه بزمن يسير . وكل انسان في حاجة الى فحص كامل يقوم به طبيب الأسرة كل سنة على الأقل ، وما يبذل في سبيل ذلك ، انما هو في الواقع اقتصاد مفيد . فاذا راعيت مع ذلك اتباع قواعد الصحة ، ضمنت حياة خالية قدر الامكان من كثير من الآلام التي تصاحب الشيخوخة

إذا تقدّم بنا السن فان العظام تصبح قَصِفَة هشة ، حتى أن سقطة على طنفسة ، قد تحدث فيها كسراً . وذلك يستدعي البقاء في الفراش مدة طويلة حتى تلتئم ، وقد لا تلتئم . وكذلك يصبح التوازن عسيراً واستقامة الجسم غير تامة ، مما يجعل احتمال السقوط متوقعاً في أي وقت . فعلينا أن نتجنب المشي على أرض الغرف المدهونة بالشمع والطنافس غير الثابتة ، وينبغي أن نستعين بعصاً في طرفها الأسفل قطعة من المطاط تجعلها ثابتة . ويجب مع هذا التحفظ أن نحتاط من البرد والصّقيع وتغير الطقس ، فان عامة ذا يحدث اضطراباً في التنفس ، وقد ينشّيء أمراضاً منها التهاب الرئة . ولا تتوان عن ترك الأماكن المزدحمة الحارة ، أو التي تساورها تيارات الهواء، إذا أردت أن تتجنب الاصابة بمرض من أمراض البرد ، فان صحتك ينبغي أن يكون لها الاعتبار الأول .

اصلاح الخط العربي

للدكتور متى عقراوي

عميد دار المعلمين العالية ببغداد

— ١ —

١ — تمهيد : ضرورة التيسير في اللغة

تيسير اللغة العربية أمر تحتمه نهضة العرب الحديثة . فان النهضات القومية لا تقوم في هذا العصر على أكتاف فئة قليلة من الناس تتزعمها فحسب ، بل على سواعد كافة أبناء الشعب . ولا تكون النهضة قوية الأركان الا إذا كان يدعمها منهاج واسع لتثقيف الجمهور ، وخلق وعي فكري وخلقي وسياسي واجتماعي فيه . ولما كانت اللغة تلعب دوراً هاماً في هذا المنهاج التثقيفي ، وجب لذلك تطويرها وتيسيرها لتصبح ملكاً مشاعاً لسواد الشعب العربي يستسيغها ويستسهل تعلمها .

ولقد سبق للغة العربية أن تطورت في جميع نواحيها أيام النهضة العربية الأولى بمجيء الاسلام وما عقبه من فتوحات العرب العظيمة واحتكاكهم بمختلف الأمم والشعوب . وكان ذلك التطور محتوماً بمقتضى الحياة الجديدة التي بدأ العرب يحيونها ، ولولاه لما اتسعت اللغة العربية لضروب العلوم والفنون والفلسفة ولمقتضيات التجارة وسائر أساليب العيش ، بل لوقفت حجر عثرة أمام كل تقدم . ونحن اليوم في وضع مماثل وضع أمتنا الأول . نحن على أبواب حياة جديدة ونظام في العيش جديد ، نقتبس الأفكار والعلوم الحديثة وتتطور عقليتنا تطوراً جديداً نتيجة لاحتكاكنا بالأمم الأخرى ونتيجة لنزعتنا الجديدة الى الحياة الحرة المستقلة . ولم يعد من الكافي في عصرنا الحاضر أن يقتصر شعور النهضة والتثقيف على طبقة خاصة كما كان الأمر في العصور السالفة . فما من أمة تستطيع حفظ كيانها في هذا الزمن وسواد شعبها جاهل . فاذا كان الأمر كذلك، وجب علينا أن ندخل على لغتنا

من التيسير ما يسهل اقتباسها وتعلمها على كافة أفراد الشعب العربي ؛ وذلك بتخليصها مما في خطها واملائها من الصعوبات ، ومما أدخله على صرفها ونحوها متحذلقو النحاة في القرون الوسطى، من التعقيدات . كما ان علينا ان نجعل أدبنا سهلاً قريب المنال من عامة الشعب بتخليصه من معقد التراكيب وغريب المفردات ، وأن نكوّن أدباً للاطفال يستهويهم ويحبب اليهم آدابهم ولغة آبائهم . وما القصد من ذلك سوى تسهيل طريق النهضة القومية وتيسير انتشار اللغة القومية وآدابها بين أبنائها ، فبدل أن تكون لغة يستصعبها حتى الخاصة، تصبح لغة سهلة المنال على العرب اجمعين . وهذا وحده أعظم سبيل لتعزيز اللغة العربية واعلاء شأنها وضمان اطراد تقدمها . فطريق النهضة اذاً هو طريق التيسير والتبسيط واطراح الحشو والتعقيد .

وليست هذه المشكلة مشكلة لغوية أدبية فحسب ، بل هي مشكلة تربوية عظيمة . فالمربون والمعلمون هم الموكلون بتعليم اللغة العربية وهجائها وآدابها لأبناء الأمة ، وما يلاقونه من صعوبة في تعليمها واضح لدى كل ذي عناية بهذا الموضوع . وقد ننعي على المعلمين والمربين بحق أساليبهم العقيمة في التعليم ونعزو إلى هذا العقم سوء تعليم اللغة ، ولكننا يجب أن نكون منصفين فنسمع من المعلمين والمربين شيئاً عن المصاعب التي يلاقونها في تدريسهم مما يرجع الى طبيعة اللغة وكتابتها وشيئاً عن آرائهم في كيفية تلافي ذلك .

٢ — اصلاح الخط العربي

على اننا في هذا المقال نود أن نحصر بحثنا في اصلاح الخط العربي ، تاركين البحث في تيسير الصرف والنحو وأساليب الكتابة والتعبير ، على كثرة ما يمكن أن يقال فيهما . ولا بدّ لنا من القول منذ البدء اننا لسنا من دعاة الانقلاب في تعديل الخط العربي . بل عقيدتنا هي ان ضرر الانقلاب في مثل هذه الأمور أكثر من نفعه . ولعلّ دعاة الانقلاب في تعديل الخط العربي مسئولون بعض المسئولية عن المقاومة التي تلقاها الدعوة إلى هذا التعديل ، وذلك لرد الفعل الذي يخلقونه بما يقدمون من الاقتراحات المتطرفة .

ونود أن نقرّر هنا ان تعديل الخط يجب أن يكون مستمدًّا من طبيعة خطنا ، يعدّله ويبسطه في التفاصيل . ولكنه يحتفظ بأساسه وجوهره . وكل اصلاح يتعدى هذه الحدود هو غير عملي التطبيق ، لا لما يلقاه من المقاومة فحسب ، بل للضرر الذي قد يدخله على اللغة ، فلا بدّ لنا من التسليم بأن للحروف العربية مزيتين عظيمتين تحسدنا عليهما سائر اللغات .

المزية الأولى هي انها مبنية على أساس صوتي صحيح يطابق فيه اللفظ الصوت إلى أبعد حد، وهذا ما لا يتوفر في معظم اللغات الأوربية الحديثة. والمزية الثانية هي ان الحروف العربية أشبه بالاختزال، لأن طريقة الكتابة فيها تعتمد على اهمال الحركات في معظم الأحيان، والاقتصار على الحروف الصحيحة التي تكوّن لباب الكلمات. نقول ذلك ونحن نعلم أن من الباحثين من ينعي على اللغة العربية نفس هذه المزية. وسنبين وجه الغلو في هذه النظرية فيما بعد، على اننا نعتقد أن كل اصلاح للخط العربي يجب أن يأخذ هاتين المزيتين بعين الاعتبار فلا يعمل على هدمهما.

***

ومن هنا يظهر خطل الفكرتين القائلتين بالأخذ بالحروف اللاتينية، وكتابة الحركات بطريقة الحروف. أما مشكلة الحركات فسنعود إليها فيما بعد. وإنما نود أن نحلل هنا الفكرة القائلة باقتباس الحروف اللاتينية لكتابة اللغة العربية، على غرار ما فعلته تركيا وليس غرضنا من ذلك إن ندحض هذا الرأي فحسب، فقد لا يحتاج ذلك إلى كثير عناء، ولكن لنوضح مزايا الخط العربي، ولنبين كيف أن بضعة تعديلات بسيطة في خطنا لا تمس جوهره، كافية لجعله أحسن خط ممكن لكتابة اللغة العربية في العصر الحاضر، ومن أسهل خطوط العالم

٣ — الموازنة بين الخط العربي والخط اللاتيني

إن أهم ما يستند إليه دعاة الأخذ بالخط اللاتيني نقطتان — هذا اذا استثنينا مشكلة الحركات التي سنعود إليها:

أما النقطة الأولى فهي أن الخط اللاتيني أبسط من العربي، لأن للحرف فيه شكلاً واحداً لا يتبدل، ولأن الحرف منفصل دائماً بحيث يمكن للقارىء أن يحلل الكلمات إلى حروفها ويؤلف من الحروف كلمات بكل سهولة، على عكس الخط العربي الذي تتصل حروفه بعضها ببعض في الكلمات، وتتبدل أشكالها بحسب مواقعها. وأما النقطة الثانية فهي إنهم يشيرون إلى نجاح تركيا في اقتباسها الخط اللاتيني ومساعدة ذلك لها على نشر التعليم فيها بسرعة.

أما النقطة الأولى وهي بساطة الخط اللاتيني وعدم تبدل أشكاله، فلا أساس لها بل هي في الغالب إدعاء ناتج عن قلة تدقيق في الخط اللاتيني. فالواقع أن الخط اللاتيني ليس خطاً واحداً، بل خطين، أحدهما يستعمل في الطباعة. وثانيهما خط يدوي يستعمل للكتابة الاعتيادية،

ومع أن بعض الحروف بين هذين الخطين واحدة أو تتشابه تشابهاً يختلف في قربه أو بعده، إلاّ ان جانباً غير قليل من حروف الطبع يختلف في شكله عن حروف الكتابة . أضف إلى

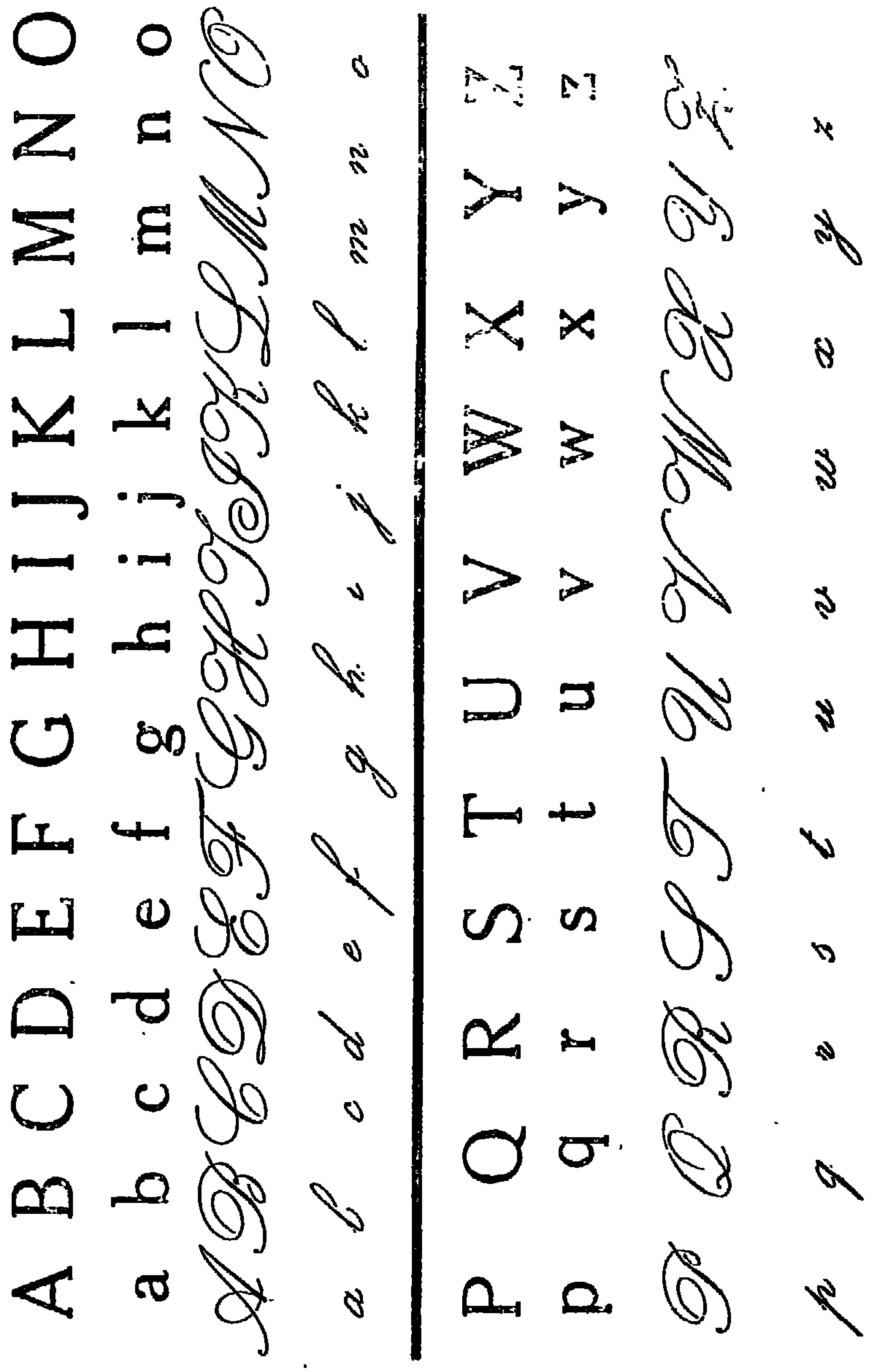

شكل (١)

ذلك أن حروف الخط البدوي تتصل بعضها ببعض كما تتصل حروف الخط العربي . ثم إن كل

واحد من هذين الحرفين له شكلان ، الشكل الكبير وهو مايعرف بالانكليزية بـ Capital letter وبالافرنسية بـ Majuscule والشكل الصغير أي Small letter أو Minuscule. وهكذا يصبح لكثير من الحروف اللاتينية أربعة أشكال بدلاً من شكل واحد كما يزعمون . ونظرة واحدة إلى جدول الحروف اللاتينية تكفي لايضاح هذه النقطة وبيان الفروق بين الحروف . (الرسم ١) أما الخط الألماني فهو على ثلاثة أنواع لاتيني وقوطي Gothic ويدوي . ولكل من هذه الأنواع شكلان كبير وصغير بحيث يصبح مجموع أشكال بعض هذه الحروف ستة ، لا شكلاً واحداً . أما الخط العربي وإن كان شكل الحرف فيه يتبدل بحسب موقعه في الكلمة، الاّ أنهُ هو هو في خطي الطباعة والكتابة لا تبديل فيه الاّ ما ندر .

وهنالك من يعيب على الخط العربي تقارب كثير من أشكال حروفه كالباء والتاء والثاء والنون، وكالجيم والحاء والخاء وغير ذلك . فانها لا تختلف احداها عن الأخرى إلاّ في وجود النقط أو فقدانها وفي عدد هذه النقط إذا وجدت . على أن شيئاً من هذا التشابه في اشكال الحروف موجود ايضاً في الحرف اللاتيني . فهنالك في الحرف المطبوع التشابه بين الـ q والـ d فانهما لا تختلفان الاّ بقلب أسفلهما ، وتشابه بين الـ b والـ h وبين الـ b والـ q . وفي الخط اليدوي نجد تشابهاً كبيراً بين الـ b والـ h والـ q والـ l وتشابهاً كثيراً ما يدعو إلى الابهام بين الـ a والـ o وبين الـ n والـ u .

***

ولقد أسهبنا في هذه النقطة ، لا لكي ننقد الخط اللاتيني، بل لنبين أن بعض الصفات المنتقدة في الخط العربي موجودة في الخط اللاتيني أيضاً ، وان كان وجودها ليس بمقدار ما هي عليه في الخط العربي ، وان التبديل الى الخط اللاتيني، لن ينجينا منها بتاتاً.

على أن قراءة أية لغة وكتابتها لاتتوقفان على مجرد معرفة أصواتها وحروفها، بل تعتمدان إلى حدٍّ بعيد على كيفية اجتماع هذه الأصوات والحروف في كلمات، وما يطرأ عليها من التبدل في اللفظ باجتماعها هذا . ومن هذه الناحية تفضل اللغة العربية معظم اللغات الأوربية بمراحل ، وعلى الأخص اللغة الانكليزية ، وبدرجة ثانية اللغة الافرنسية . فالحرف في اللغة العربية هو هو، له الصوت نفسه، دون تبديل أينما حل من الكلمة في أولها أو وسطها أو آخرها، ومهما كان نوع الحرف الآخر الذي يجتمع به . أي أن الخط العربي موضوع على أساس صوتي قويم، تطابق فيه الحروف الأصوات مطابقة تكاد تكون كلية . ولا يخرج عن هذه

المطابقة الا حالات معدودة ككتابة الهمزة ، وكالفرق بين التاء المربوطة والتاء الطويلة وكالتمييز بين الألف المقصورة والطويلة ، وبين الظاء والضاد عند أهل العراق والجزيرة لا عند أهل الشام ومصر .

وإذا استثنينا هذه الحالات الشاذة وغيرها قليل ، كانت الكتابة العربية صوتية لا غبار عليها في تركيبها ، وهذا عامل تسهيل عظيم في الكتابة العربية واملائها .

وليس الأمر كذلك في اللغات الأوربية التي تستعمل الخط اللاتيني — على كل حال في تلك اللغات التي لي شيء من الاطلاع فيها وهي الانكليزية والفرنسية والالمانية . فان تركيبها الصوتي تشوبه كثير من الشوائب . ولعل الألمانية أحسن اللغات الثلاثة من هذه الوجهة والانكليزية أبعدها عن المنطق والنظام والفرنسية واقعة في محل وسط بين الاثنتين . وها نذا آتي ببعض الأمثلة في اللغة الانكليزية لأوضح الفرق العظيم بين بعض اللغات الأوربية واللغة العربية في هذا الشأن .

***

خذ مثلاً حرف الـ u في الكلمات التالية : Cure, Cup, Superior, Burst فهو يقرأ (يو) في الأولى و (أ) مفخمة في الثانيــة و (أو) في الثالثة و (e) الفرنسية في الرابعة . أي ان هذا الحرف يلفظ بأشكال أربعة يختلف أحدها عن الآخر اختلافاً بيناً . أو خذ الحروف ough في الكلمات Through, Borough, Rough فهي تلفظ (أو) في الأولى و (o) في الثانية و (ف) في الثالثة . وعلى ذكر صوت الفاء فهنالك ثلاث طرق لتدوينه في اللغة الانكليزية تتجلى في الكلمات Form, Philosophy, Rough . وللحرف الثاء أيضاً أربعة أصوات تظهر في الكلمات Turn, Action, Nature, Bottle . أما الحروف التي تكتب ولا تلفظ فحدّث عنها ولا حرج . ومثل هـذا الشذوذ عن الأصول الصوتية كثير تجده في اللغة الانكليزية أينما تلتفت ، بل هو القـاعدة ، والانتظام الصوتي للكلمات والحروف هو الشاذ ، حتى اشتهرت اللغة الانكليزية بذلك ، وحتى أصبح تعلم الاملاء والهجاء الانكليزيين من الأمور الصعبة . وعلى الطالب المتكلم باللغة الانكليزية أن يتخبط في هذه المتاهة سنوات ليتمكن من تعلم املاء كلمات لغته ولفظها . وأصبح الاملاء الانكليزي من المواضيع المهمة التي تدرس في المدارس مع ان الاملاء العربي عندنا يعتبر في التدريس أمراً ثانويـاً . وهذا الخلل الصوتي في الانكليزية موجود بدرجة أقل في اللغة الافرنسية ، ولكن وجوده لا يستهان به ولولا خشية الاطالة لجئنا بأمثلة عليه .

٤ — الفرق في النشأة بين الخط العربي والخط اللاتيني

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن العلة في أن الحروف العربية صوتية في الغالب وعن تطرق الخلل من الوجهة الصوتية في كتابة اللغات الاوربية . ولكي نجيب عن هذا السؤال علينا أن نرجع إلى تاريخ نشوء الخط . ولعلّ الجواب الذي نتوصل اليه يعطينا فكرة أساسية عن طبيعة الخط العربي تفيدنا في معالجتنا المشكلة التي نحن بصددها .

كان الفينيقيون أول من وضع حروف الهجاء ونشرها في أنحاء العالم المتمدن المعروف إذ ذاك . ويظهر انهم اقتبسوها عن الكتابة المصرية ، إلاّ أنهم وضعوها على أساس صوتي، بأن جعلوا لكل صوت حرفاً خاصّاً به . والفينيقيون قوم من الساميين كانوا أكبر تجار عصرهم، ينقلون البضائع بين الشرق والغرب، وكانوا يحتاجون إلى طريقة سهلة مختصرة لتسجيل معاملاتهم التجارية فاخترعوا حروف الهجاء لهذا الغرض . وأخذ الآراميون الكتابة عن الفينيقيين ، وأخذ النبطيون وهم قوم من العرب كانوا نازلين في وادي موسى والبطراء، بين التاريخين الميلادي والهجري ، الكتابة عن الارميين . وتدل البحوث التي قام بها العلماء عن الخط العربي ومقارنة الخطوط العربية القديمة بالخط النبطي ، ان الخط العربي الشائع اليوم أخذ من الخط النبطي ونما وتطوّر ، حتى أصبح بالصورة التي نعرفها اليوم .

ان اللغات الفينيقية والارمية والنبطية والعربية لغات سامية قريبة احداها من الأخرى وترجع إلى أصل واحد . وان شئت فقل انها لهجات من لغة واحدة تختلف في بعدها عن الأصل ، منها القريبة ومنها البعيدة . يدلك على ذلك ان الافعال الأساسية فيها ثلاثية كما في اللغة العربية، تشتق منها بقية الصيغ، وان جانباً كبيراً من مفرداتها مشترك مع تحريف بسيط ، وان معظم أصواتها مشترك أيضاً . فلما وضع الفينيقيون الألفباء ، جاءت حروفهم صوتية منطبقة على لغتهم اشد الانطباق . ولما كانت اللغات السامية الاخرى التي اقتبست خطها منهم قريبة من الفينيقية ، لم تجد في هذا الاقتباس كبير عناء ، ولم تجد ضرورة الى إجراء كثير من التبديل والحذف او الاضافة أو تركيب حرفين أو أكثر للدلالة على صوت واحد، كما تراه في اللغات الاوربية . بل اننا نجد ان أحرف «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت» هي هي في الارمية وفي العربية، وقد زادت العربية عليها أحرف « ثخذ ، ضظغ » . ونجد أن كل اللغات السامية التي تكتب بالحروف الأبجدية تشترك في صفة واحدة ، هي اهمال الحركات وكتابة الاحرف الصحيحة فقط مع حروف المد كما نفعل نحن في اللغة العربية . وصفوة القول ، إن الخط الهجائي نشأ على أساس لغة سامية ، وانتشر منها إلى قريباتها ، وتطوّر

بمقتضى تطوّر هـذه اللغات حتى وجد الخط العربي وهو من أحدث الخطوط في اللغات السامية ، إن لم يكن أحدثها . فالخط عندنا اذاً مستمد من طبيعة اللغة ، متصل بها اتصالاً وثيقاً ، مطابق لها مطابقة صوتية كبيرة بحكم نشأته التاريخية . وهذه حقيقة لا ينتبه اليها دعاة الاخذ بالخط اللاتيني .

وليس هذا حظ الخطوط اللاتينية . فان الفينيقيين في أسفارهم في البحر المتوسط أعطوا خطهم الى اليونان ، وهؤلاء أعطوه الى الرومان اللاتينيين ، ومن الخط اللاتيني استمدت الأمم الاوربية الحديثة حروف هجائها . على أن اللغات الأوربية ليست سامية بل هي طائفة من اللغات قائمة بذاتها، تختلف اختلافاً عظيماً في مفرداتها وتراكيبها وأصولها اللغوية عن اللغات السامية، كما تختلف عنها أيضاً في عدد غير قليل من أصواتها . ففي اللغات السامية أصوات غير موجودة في اللغات الأوربية . وفي هذه أصوات تزيد على أصوات اللغات السامية ، ولم يكن الفينيقيون بالطبع قد وضعوا لها رموزاً وحروفاً، فاضطر الاوربيون إذاً، إمّا أن يضعوا لها حروفاً جديدة ، أو أن يعطوا للحرف الواحد أكثر من صوت واحد ، أو أن يؤلفوا حرفين وثلاثة للرمز عن صوت واحد ، كما تفعل الانكليزية للرمز عن (ج — ch) و (ش — sh) و (ث و ذ — th) وهذان الحرفان الأخيران ، يرمزان كما ترى إلى صوتين، هما الثاء والذال .

هذا على ما ترى هو السبب الأساسي الأصيل في تطرق الخلل من الناحية الصوتية الى بعض خطوط اللغات الأوربية . فاذا كانت الحروف العربية وحروف اللغات السامية ، منطبقة على لغاتها وأصواتها أشد الانطباق، لأنها نشأت ونمت مع هذه اللغات وهي مستمدة من طبيعتها ملازمة لها ، فان اختلال الخطوط الأوربية، وبالأخص الحديثة منها بعض الاختلال، يعود الى أن الخط الهجائي ليس أصيلاً فيها، بل هو دخيل عليها، نشأ في لغة أجنبية بعيدة عنها. والفرق بين الخط العربي والخطوط الهجائية السامية من جهة ، وبين الخطوط الأوربية من الجهة الأخرى، هو كالفرق بين الأصيل والتقليد . وإذا كانت الخطوط الأوربية بعد تطور ما يزيد على الألفي سنة، أصبحت تسد حاجات اللغات الأوربية، فليس ذلك دليلاً على إنها صالحة للغتنا. ومن صعب عليه تصديق ذلك، فلينظر الى محاولات المستشرقين كتابة الكلمات العربية بحروف أوربية، ويشاهد مقدار النقط والخطوط والعلامات التي يضطرون الى استعمالها للرمز إلى الكلمات العربية، وليرى كيف أن الكلمة التي تكتب عندنا بثلاثة حروف، تكتب عندهم بخمسة أو ستة ، وكيف انه تصعب عليه قراءتها، مهما كان بارعاً في قراءة الرموز اللاتينية .

قيود

قضى زماني عليَّ أني أمشي ورجلاي في القيودْ
حال بها في خطاي يمشي ذل الأسير الخطى المقودْ
ويلاه مما لقيت منها ويلاه للسيِّد المسودْ
إبليس لو ذاقها قديماً لما عصى الأمر بالسجودْ

* * *

ظلمٌ، ولكن أنَّى قضائي! أو أين لي فيه بالشهودْ؟
من مثله لم يزل لعيسى دم على مذبح اليهودْ
يا رب فيم الوجود إذ لم تمنحه حرية الوجودْ؟
وأينما صالح يولِّي وجهاً، فلا بُدَّ من ثمودْ

* * *

يا زمني فيك وجه عادٍ فهل ترى فيَّ وجه هودْ
أبشر وثق بي فلا نبيٌّ يبعثه الله للقرودْ

محمود أبو الوفا

تحقيق لغوي

في مادة (تلمذ)

بقلم عبد السلام محمد هارون

لعلَّ كلمة « تلميذ » من أكثر الكلمات دوراناً في دور العلم ومعاهد الدراسة، وهي من الكلمات التاريخية التي دخلت في أطوار مختلفة من الدلالة حتى استقرت الآن في معنى طالب العلم . بيد أن تأصيل هذه الكلمة وبيان مشتقاتها وجموعها يحتاج إلى توضيح وتوقيف . وقد كنت قديماً على أن أكتب فيها تحقيقاً شاملاً ، ولكني وجدت رسالة البغدادي في هذا التحقيق من أوفى ما كتب في هذه الناحية ، فآثرت أن أجعلها تحفة للأدباء من قراء « المقتطف » تغنيهم عن التطلع إلى ما وراءها .

والبغدادي هو عبد القادر بن عمر البغدادي ، صاحب خزانة الأدب ، المولود في بغداد سنة ١٠٣٠ والمتوفى بمصر سنة ١٠٩٣

ورسالته تلك التي ننشرها ، منها نسخة بالخزانة التيمورية ، وثلاث أخرى بخزانة دار الكتب المصرية ، إحداها برقم ٦ مجاميع ش والثانية برقم ١٨١ مجاميع ، والثالثة برقم ١٢٢ مجاميع . وقد قابلت النسخ الثلاث الأخيرة بعضها ببعض ، ورمزت إليها بالرموز ا ، ب ، حـ على ترتيبها . وأصح هذه النسخ وأكملها نسخة ب . وكل ما أثبته بين علامتي الزيادة فهو منها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين .

[أما بعد] فهذه كلمات ذكرتها لمعنى التلميذ ، فإني لم أجد هذه الكلمة مذكورة في كتب اللغة المتداولة، المدوَّنة [لبيان] الجليل والحقير ، وذكر النقير والقِطْمير ، كالجمهرة لابن دريد ، والصِّحاح للجوهري ، والمحكم لابن سيده ، والعباب للصاغاني ، والقاموس

لمجد الدين الفيروزابادي ، وغيرها ، إلاّ في لسان العرب لابن مكرم ، فإنه أورده في مادة (تلمذ) وقال : « التلاميذ الخدم والأتباع ، وأحدهم تلميذ » مع أنها كلمة متداولة بين العام والخاص . وكثيرة الاستعمال في تآليف العلماء الأعلام .

وكان الباعث لهذا أني لما قرأت كتاب مغني اللبيب ، ووصلت إلى قوله في الباب الخامس «حكى لي أن بعض مشايخ الإقراء أعرب لتلميذ له بيت المفصل » [١] رأيت شارحه الفاضل إبراهيم بن الملاّ الحلبي [٢] قال : « التلميذ القارئ على الشيخ . ولم أقف عليه في شيء من كتب اللغة المتداولة كالصحاح والقاموس وغيرهما » . ا هـ

فحينئذٍ تتبعت بطون الدفاتر ، من مصنفات الأوائل والأواخر ، حتى رأيته في كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، فإنه ساق [٣] فيه شعراً للبيد بن ربيعة العامري الصحابي ، وفيه هذا البيت :

فالماء يجلو متونهنّ كما يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشبا [٤]

وقال بعد إنشاد الأبيات : « التلاميذ غلمان الصنّاع . والقَشِب والقشيب الجديد . والجمع القُشُب »

ورأيته أيضاً في شعر أمية بن أبي الصلت ، وهو شاعر أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يوفق للإيمان به . وغالب شعره في الوعظ وتذكير الآخرة وقصص الأنبياء ، وهو مما لا يكاد ينقضي العجب منه . قال في قصيدة :

والأرض معقلنا وكانت أمَّنا فيها مقامتنا وفيها نولدُ
وبها تلاميذ على قذفاتها حبسوا قياماً فالفرائص تُرْعَدُ [٥]

قال شارح ديوانه : « التلاميذ الخدم ، يعني الملائكة » .

وقال أيضاً في قصيدة أخرى

صاغ السماء فلم يخفض مواضعها لم ينتقص علمَه جهل ولا هرمُ
لا كشّفت مرة عنا ولا بليت فيها تلاميذ في أقفائهم دعمُ

---

(١) المفصل للزمخشري في النحو . انظر شرح ابن يعيش (٢ : ٩٤) . والبيت هو :
لا يبعد الله التلبب والغا رات إذ قال الخميس : نعم

(٢) هو إبراهيم بن الملا محمد الحلبي المتوفى سنة ٩٧٩. ذكره في كشف الظنون . وفي ا ، حـ : «حلبي» موضع : « الحلبي » تحريف .

(٣) ا ، حـ : « سابق » والصواب في ب .

(٤) البيت في ديوانه ص ١٤١ بشرح الطوسي. وفيه : « التلاميذ غلمان الصاغة ... التلاميذ فارسي» .

(٥) القذفات : جمع قذفة ، بالضم ، وهي الناحية.

وقال شارحه هنا أيضاً كذلك .

ورأيت في المقامة الأولى من المقامات الحريرية قوله : « فوجدته محاذياً لتلميذ ، على خبز سميذ ، وجدي حنيذ ، وقبالتهما خابية نبيذ [1] » . قال شارحه الشريشي : « التلميذ متعلم الصنعة ، والتلميذ الخادم ، والجميع التلاميذ » . وأنشد بيت لبيد المتقدم ، ثم قال : « وطلبة العلم تلاميذ شيخهم » . اهـ

وإهمال داله لغة فيه ، قال أمية بن أبي الصلت في القصيدة الدالية التي تقدم إنشاد بيتين منها :

فمضى وأصعد واستبدَّ إقامةً بأولي قوًى فمبتَّل ومُتلمَدُ

قال شارحه : « يريد متلمَد ، أي خادم من التلاميذ . وتُلمِد جُعل للخدمة . ويروى متلمِد بكسر الميم . وأراد بأولي قوى الملائكة الذين يحملون العرش . وقوله : فمضى يعني الله عزّ وجل . واستبدّ ، يعني لا يستشير أحداً ، يقال استبدَّ فلان برأيه إذا لم يستعن أحداً على ما يريد . والمبتَّل المفرد » . انتهى .

ويؤخذ منه أن تاءه أصلية . ووزن تلميذ فِعْليل ، وأن له فعلاً متصرفاً هو تلمذه كدحرجه ، بمعنى خدمه ، يتلمذه كيدحرجه ، تلمذة وتلماذا ، كدَحْرَجةً ودَحْراجاً ، فهو متلمذ كمُدَحْرَج بمعنى خادم ، وذاك متلمَذ أي جعل خادماً [2] . وإطلاق التلميذ على المتعلم صنعة أو قراءة ، لأنه في الغالب يخدم أستاذه .

وقول الناس : « تلمَّذ له » و « تلمَّذ منه » بتشديد الميم ، خطأ ، لأنهم توهموا أن الياء زائدة ، وليس كذلك ، وصوابه « تلمَّظ له » و « تلمظ منه [3] » بالظاء المشالة المعجمة . ولمَّظه أي أطعمه وأذاقه . والتلمظ : تتبع اللسان بقية الطعام في الفم . وقد يكنى به عن الأكل ، استعير للتعليم شيئاً فشيئاً .

والتلميذ يجمع على تلاميذ ، فإنَّ فِعْليلا يجمع على فَعَاليل ، كبرطيل وبراطيل ، وعفريت وعفاريت ، وقنديل وقناديل ، وإصليت وإصاليت ، وإبريق وأباريق ، ومِنْديل ومناديل .

---

(١) هذا سهو من البغدادي ، فان الشريشي في هذا الموضع لم يقل إلا : « تلميذ : متعلم الصنعة » انظر الشريشي (١ : ٢٩ س ١) وأما الكلام الذي نقله البغدادي بعد فهو تعليق على قول ابن الحريري : « فالتفت إلى تلميذه وقلت عزمت عليك بمن تستدفع به الأذى ، لتخبرني من ذا » انظر الشريشي (١ : ٣٠).

(٢) الأولى من تلمذه بمعنى خدمه ، والأخيرة من تلمذه أي جعله خادماً

(٣) هذه فتوى لغوية للبغدادي . ولا يستعمل هذا التعبير ، ولا أظنه سائغاً

وأما قولهم في جمعه « تلامذة » فعلى توهم أنه اسم أعجمي [١] ، فإن الهاء في الجمع تكون في أحد ثلاثة مواضع : (أحدها) الاسم الأعجمي المعرب ، سواء كانت للتعويض عن مدة [٢] نحو أستاذ وأساتذة ، أم لا نحو موزج وموازجة وكيلجه ، وكيالجة . (ثانيها) للتعويض عن ياء النسب في الفرد ، نحو أشعثي وأشاعثة ، ومهلبي ومهالبة ، وأزرقي وأزارقة (ثالثها) للتعويض [إما] عن ألف خامسة جوازاً نحو حبنطي وحبانطة ، وعفرني وعفارنة وإما عن [عينٍ] [٣] مضاعفة نحو جبار وجبابرة . وفي غير هذه المواضع الثلاثة قليل نادر كفحولة وحجارة .

قيل [٤] : وقد يرخم التلاميذ في الشعر على تلام ، كقول الطرماح :

تتقى الشمس بمدريّةٍ كالحماليج بأيدي التلام

والحماليج : منافخ الصاغة الطوال ، واحدها حملوج ، شبه قرن البقرة الوحشية بها .

قال الجواليقي في المعرّبات [٥] : « التلام أعجمي [٦] معرب ، قيل هم الصاغة ، وقيل غلمان الصاغة ، وقيل هم التلاميذ » وأنشد هذا البيت .

وأنشد ابن بري في حاشية الصحاح قول غيلان بن سلمة الثقفي [٧] أيضاً :

وسربال مضاعفة دلاص قد أحرز شكها صُنعُ التلام

وروى : « التلام » في البيتين بفتح التاء وكسرها . أما الفتح فعلى أنه مرخم التلاميذ ضرورة . وقد اقتصر عليه صاحب الصحاح ، وقال : « التلام التلاميذ سقطت منه الذال » .

وصاحب الصحاح تابع في هذا لأبي علي ، قال في المسائل العسكرية [٨] : « ومن قبيح الضرورة قول الشاعر : مثل الحماليج بأيدي التلام

قالوا : يريد التلامذة ، بحذف . وقد أعلمتك أن ذلك لا يكون على الترخيم فيما تقدم . إلاّ أنه قد جاء من هذا النحو ما لا يكون في الترخيم كقوله [٩] :

دَرَس المَنَا بمتالع فأبانِ

---

(١) كأن البغدادي يذهب إلى أنه عربي (٢) ا ، حـ : « مدة » (٣) كتبت كلمة « عين » في ا ، حـ لكن جعل فوقها خط علامة على الخطأ . وإثباتها عين الصواب كما في ب .

(٤) ا ، حـ : « قليل » وذلك على أنها متصلة بكلمة « حجارة » والوجه ما أثبت من ب كما يفهم من السياق . (٥) المعرب للجواليقي طبع دار الكتب ص ٩١ (٦) ا ، حـ : « قيل معرب » وكلمة : « قيل » مقحمة (٧) شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والاسلام . ترجمته في الاصابة ٦٩١٨ والاغاني (١٢ : ٤٣ — ٤٧) . (٨) المسائل العسكرية لابي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ . نقل منها البغدادي نصوصاً قيمة في مواضع شتى من الخزانة . انظر (١ : ٩، ١٤/٢ : ٦٢، ٢٧٥ ; ٤٠١، ٥٢٢/٣ : ٤٦ ; ٤ : ٦٧، ٧٣، ٥٨٢) . ا ، حـ : « مسائل العسكرية » تحريف .

(٩) هو لبيد بن ربيعة . والبيت مطلع قصيدة له في ديوانه ص ٦١ طبع فينا سنة ١٨٨٠ .

قالوا : يريد : النازل . ومثل ذلك ما أنشدوه لأبي دُوادٍ[١] الإيادي :

فكأنما تُذكي سنابكها حُبَا[٢]

قيل يريد الحباحب ، أي نار الحباحب . وفي التنزيل : فالموريات قدحاً » انتهى كلامه

وأما الكسر فعلى أنه جمع « تلم » بكسر فسكون ، بمعنى الغلام . قال ابن مكرم[٣] : فمن[٤] رواه : التلامي ، بفتح التاء وإثبات الياء ، أراد التلاميذ ، يعني تلاميذ الصاغة . هكذا رواه أبو عمرو ، وقال : حذف الذال من آخرها[٥] ومن رواه : التلام ، بكسر التاء ، فان أبا سعيد قال : التلم الغلام . قال : وكل غلام تلم ، تلميذاً كان أو غير تلميذ . والجميع[٦] التلام . وقال ابن الأعرابي : التلام الصاغة ، والتلام الأكرة» . انتهى

وأقول : «الصاغة » تصحيف من الصناع[٧] لوقوعه في صحبه الحماليج . ويدفعه البيت الثاني[٨] .

وقال صاحب القاموس : « التلم ، بالكسر : الغلام ، والأكّار ، والصائغ أو منفخهُ ، الطويل[٩] . والجمع تلام . وكسحاب : التلاميذ ، حذفت ذاله . ولم يذكر الجوهري غيرها ، وليس من هذه المادة [و] انما هو من باب الذال » . انتهى

أقول : أما قوله : « الأكار والصائغ » فقد أخذه من قول ابن الأعرابي ، على أن الصاغة والأكرة بالتحريك جمع صائغ وأكار .

وأما قوله : « أو منفخه[١٠] » فقد أخذه من قول بعضهم ، وقد غلط فيه .

نقل الأزهري عن الليث أن بعضهم قال : التلام الحماليج التي ينفخ بها . قال : وهذا باطل[١١]

والعجب من صاحب القاموس ، أنه اعترض على صاحب الصحاح في ذكره التلام في باب الميم ، مع أنه أثبته مثله ، ولم يذكره في باب الذال .

عبد السلام محمد هارون

---

(١) ا ، حـ : « أبو دؤاد » بالهمز (٢) روي البيت في اللسان (١ : ٢٨٨) هكذا :

يفرين جندل حائر لجنوبها فكأنها تذكي سنابكها الحبا

(٣) في لسان العرب مادة (تلم) (٤) في الاصل : « ومن » وصواب النص من اللسان .

(٥) أسقط البغدادي هنا قول ابن منظور : « كقول الآخر :

لها أشارير من لحم تتمره من الثعالي ووخز من أرانيها

أراد من الثعالب ، ومن أرانبها » وهذا البيت لابي كاهل اليشكري كما في اللسان (٥ : ١٦١)

(٦) في الاصل : « والجمع » وأثبت ما في اللسان .

(٧) حـ فقط : « في الصناع » (٨) يشير الى بيت غيلان بن سلمة . ا ، حـ « في » مكان : «ويدفعه» محرف . (٩) ا ، حـ «والصانع» بالنون و« منفخة الطويل» صوابهما ما أثبت من ب. (١٠) ا ، حـ : « أو منفخة » محرف . (١١) في اللسان : « قال ابو منصور — وهو الازهري — قال الليث : إن بعضهم قال : التلاميذ الحماليج التي ينفخ فيها . قال : وهذا باطل ما قاله أحد » .

الخطايا العشر

هنالك عشر خطايا اجتماعية ينبغي علينا ان نقضي عليها بالقضاء على بواعثها . فاذا أفلحنا فنحن الى السلام ، واذا أخفقنا فنحن الى الدماء والعرق والدموع

العالم في مخاض . أما ما ستلد الأيام فذلك سرٌّ مُغَيَّب في جوف المستقبل . يشعر الناس شعوراً خفيّـاً بأن من وراء المظاهر المدنية القائمة داءٌ دفين ينخر في نظام الجماعات ، ويفكك من تماسكها ، ويحلل من روابطها التي أضفت عليها التقاليد ثوباً من القداسة ، تلك القداسة التي حملت في أسسها العتيقة معاول التطور الانساني .

لو أن الانسانية استطاعت أن تساير الخطى التطورية التي سار فيها العقل ومضى فيها العلم ، ولم تقف عند الحد الذي أراد السياسيون وقادة الامم من محترفي الحكم أن تقف عنده ، إذاً لكان شعورنا بما ينتظر الجماعات من مشكلات المستقبل القريب أميل الى التفاؤل . ولكن العقل الفردي والعلم ، وهما من الخصائص الفردية ، قد سارا بخطى واسعة لم تستطع الجماعات أن تتابعها ، والجماعات هي ما نعلم تكويناً وفطرة ، فعقليتها أقل تقبلا للتجديد وأعصى على فهم الحقائق وأعسر قياداً وأقل ليناً ، وأبعد عن مرونة الأخذ والعطاء

لهذا سارت الجماعات تتخبط في ليل مدلهم من الرغبات المكبوتة والآمال المقموعة والشعور بالحاجة الى التغير ، ومسايرة خطى العقل الفردي ، فاذا همت بالمسير عاقها الفقر وسدَّ طريقها الظلم ، وقامت ميول أهل السلطة ترد الجماعات عن التطور حذر أن يبدل التطور نظام الجماعات ، فتزيح من طريقها تلك السدود التي تستند اليها سلطة ذوي السلطة من السياسيين والانتهازيين والدكتاتوريين ومن لفّ لفهم من أصحاب المصالح المادية التي لا يتحقق لها وجود ، الاّ وعلى عين الجماعة قناع من الأوهام والخيالات ، وفي قدميها أغلال من الزيف والفوضى .

لا سلطان لأهل السلطة على العقل الفردي . فالعقل الفردي طليق . يفكر كيف يشاء

ويسبح في مفاوز الكون ، ويتبوأ من رحاب الوجود أي متبوإ أراد . انطلق العقل الفردي منذ أقدم الأزمان،محلقاً في ظلال الغابات وفي رؤوس الجبال وفي الصحاري والوهاد والبسابس الملس والمفاوز الخشنة ، وفي الدير والمسجد ، وفي المدرسة والجامعة . وتابعه العلم والفلسفة والفن . فطار الانسان بعقله وما فُتِقَ له عنه من فنون المعرفة وضروب الصناعة ، في آفاق بعيدة قصية ، وتطلع من ورائه بعين الفرد الحر الطليق ، فاذا به يرى الجماعات ما تزال واقفة في أول الطريق وقد تراكمت أمامها الصعاب والمشكلات، ووقفت أوهام العقلية الضمامية تذودها عن السير في طريق الارتقاء ، كما وقف في طريقه الظلم والشهوات والبغض والانانية ورذائل الخلق والمطامع الأشعبية ، يؤيدها في ذلك ما سببت من فقر وجوع وجهل وحروب وثورات .

وفي الحق ان الجماعات عاجزة عن التفكير لذاتها . فالجماعة تفكر بعقل الفرد . وعقل الفرد يحاول دائماً ان يجذب الجماعة الى أعلا ، وينهض بها الى السماوات التي ارتفع اليها . ولكن العقلية الضمامية تسد عليه الطريق وتفسد عليه جهده ، كلما عمل على رفع مستوى الانسانية . فالواجب الاول على العقل الفردي أن يعمل على قتل أوهام العقلية الضمامية أول شيء ، هذا إذا أراد أن يكون لجهده أثر مرموق في نظام الجماعات .

واذا كان للعقلية الضمامية أوهام عاقت الجماعات عن الانبعاث في سبيل التطور ، فان هذه الاوهام قد أدّت بدورها الى خطايا خلقية ، عمل السياسيون ومن اليهم على تغذيتها وتنميتها لتظل غُلاً في عنق الجماعات يعوقها عن التحليق في آفاق الحرية الواسعة فتتقارب وجهات النظر بين الأمم وتحترم المصالح والمبادىء القدسية التي لا ينبغي أن يكون للاجتماع الانساني غيرها أساساً ودعامة : مبادىء السلام والحرية والاخاء والمساواة في الحقوق وحق الاختيار في نظام الحكم الذي يوافق مزاج كل أمة من الأمم .

هذه الخطايا العشر التي عاشت الجماعات في أسرها طوال القرون السالفة وكانت غراس الأوهام التي تمكنت من العقلية الضمامية، منها ما يتعلق بالنظام المدني الذي نعيش في كنفه، ومنها ما يتعلق بالخلق الاجتماعي، الذي كان وما يزال طابع الأمم والجماعات.

الخطيئة الاولى : أسلوب التناول

فان وجهة النظر تختلف اختلافاً كبيراً عند الأمم وعند الأفراد . فهنالك نظرة جزئية تريك من الشيء جزؤه ، وهنالك نظرة كلية تريك من الشيء اجزاؤه مفردة ومجتمعة .

ولقد عمل السياسيون وزعماء الأمم جميعاً على أن يوجهوا الشعوب الى الأخذ بوجهة النظر الجزئي في كل ما يتعلق بالسياسة والعلاقات التي ينبغي أن تقوم بين الأمم . ذلك بأنّ النظرة الكلية في أمور السياسة والاجتماع إذا تمكنت من عقلية الشعوب سادت فكرة السلام حتماً، وتقاربت الأمم وعرفت المصالح واحترمت الحريات وساد الاخاء وتفرّدت الإرادات الاجتماعية بالقطع في أمور الدول ، ومال محور السياسة نحو العمل على التقريب بين الشعوب والاعتراف بحقوقها في الحياة الحرة المنتجة. وعلى العكس من ذلك سارت سياسة الانتهازيين والوصوليين من قادة الأمم، فجرّوا على المجتمع الانساني ما نرى من كوارث الحرب والثورات. هذا بالرغم مما تغنى به السياسيون طوال عصور، من حدبهم على خير الانسانية . ولكن السياسيين بحكم صناعتهم، كالشعراء ، يقولون ما لا يفعلون ، ويتفوهون بما لا يعتقدون .

الخطيئة الثانية : تأثر الفكر الفردي بنقائصه دون كمالاته

من نقائص الفكر الفردي تأثره الى حدٍّ ما بالظلامية الفكرية ، فيقف إزاء بعض الحقائق المتعلقة بتطور الجماعات جامداً لا يتحرك ، فترقد فيه قوة الابتكار والقدرة على مواجهة الحقائق، وإن أدرك أنها كائنة . ويرجع السبب في ذلك الى أن فكر الفرد قد يتأثر من طريق العجز عن مواجهة الحقائق والاعتراف بها ، فيخشى مواجهة الجماهير بما يتصل بأسباب كثيرة من مقومات حياتها ومسببات رقيها وركودها ، فيكون عاملاً من عوامل التوقف عن مسايرة خطى التطور الطبيعي . وقد يعود أكثر السبب في ذلك الى ما تحوط به الجماعات تقاليدها ومعتقداتها من صنوف القداسات، التي لا أصل لها إلاّ أن القِدَم قد أضفى عليها تلك الصفات .

ولقد أشار الى ذلك الأستاذ فرنسيس كارل في كتابه « الانسان : ذلك المجهول » ، حيث أبان أن العلوم قد تقدمت انسان الطبقة الوسطى وفاقت كل العلوم مداركه، ولم يبق فيها ثابتاً غير متقدم إلاّ علم الانسان نفسه . فان علم الانسان ظلّ وراء كل العلوم كالفلك والأحياء والطبيعة والكيمياء . هذا بالرغم من درجات التقدم التي سارت فيها الانسانية . فالانسان ظلّ وما يظل جائماً، عاجزاً عن ارضاء حاجاته الأولية . وظهر أن العلماء قد عجزوا عن تنظيم حياة الانسان بنفس الدقة التي استطاعوها في تنظيم مجال بحوثهم العلمية. فالانسان مهما تعلّم وارتقى، تجد فيه، بالرغم من ذلك، آثاراً من حياة أسلافه الأول، حياة الوهم والأساطير والخرافات ، والعجز عن إدراك الحق وإن تبلج ضوءه وسطعت شمسه .

الخطيئة الثالثة : تشابك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية

تلك وراثة اجتماعية . فان الجماعات قد خرجت من خطوبها الأولى بنظام اشتركت فيه المصالح والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، حتى أصبح من التعذر على أي مصلح أن يمس ناحية منها بأي تغير تقتضيه الظروف المحيطة بالجماعات ، من غير أن تضطره طبيعة هذا النظام أن يمس بقية النواحي . والى هذا يعزى السبب في اخفاق كل الجهود التي رمت إلى السلام ، بل إنه هدد السلام نفسه ، وكاد يحدث في العقلية البشرية نزعة إلى اليأس من أن يسود السلام أو يكون للسلام أثر في سياسة الأمم والشعوب ، أو فعل ناجع في اتجاه الدول من حيث علاقاتها بعضها ببعض .

الخطيئة الرابعة : المصلحة الذاتية

تنسينا المصلحة الذاتية ومركزنا الاقتصادي دائماً ، عاملاً من أهم العوامل المؤثرة في علاقة بعض الطبقات ببعض . فان صاحب العمل وحامل الأسهم والمتاجر في رأس المال ، وهم من الطبقات ذوات العلاقة المباشرة بالانتاج العائد في مجموعه الى أكبر عدد من أفراد الأمة ، يغفلون دائماً عن « العامل الانساني » في حياة الجماعة ، فينظرون دائماً في كل ما يتعلق بالنظام الاجتماعي من زواية واحدة ، زاوية المصلحة الذاتية . ينسون طوعاً أو كرهاً ، ما سيطرت عليهم قوة الأنانية ، ان المخلوقات التي تعمل في سبيل الانتاج ، انما هي مخلوقات بشرية لهم حاجات وفيهم أرواح تحس، ولهم مشاعر تتأثر، ولهم أسر وأولاد يحتاجون إلى التربية والتنشئة والتعليم، ليصبحوا عوامل ذات أثر مفيد للمجتمع.

ولقد بلغ الجهل ببعض ذوي السلطان في طور مّا من أطوار التاريخ ، حد ان « العامل الانساني » فيهم قد تجرد من كل معنى مثالي . كما بلغ في حالات أخرى حدًّا فاضحاً من الاستهتار المؤيد بالغباء . فان الشعب الفرنسوي في ثورته المشهورة ، قد ثار جائعاً يطلب الخبز لا أكثر . فلما علمت الملكة ماري انطوانيت بسبب الثورة ، قالت اعطوهم فطيراً .

أما إذا ضعف الشعور بالأنانية ، فلا شك في أن « العامل الانساني » يتسامى وتثبت أصوله ، فيُقضَى من طريقه، على كثير من مفاسد هذا المجتمع .

الخطيئة الخامسة : الشهوات الانسانية

كلنا يعرف قولة الحكيم أفلاطون المشهورة : «الشهوات تَطْمِس الحق» . فاذا أردنا أن نرعى الحق وأن نوزع العدالة على كل الأفراد بالقسط في مجتمع منّا ، انبغي للذين في

يدهم القوة أن يتحرروا من كل الشهوات التي تصم آذانهم عن تلك الصرخات الداوية التي تخرجها حناجر المظلومين المأكولة حقوقهم المداسة أقدامهم ، وأن يعملوا دائماً على النظر في قضايا المجتمع نظرة حرّة بعيدة عن التأثر بتلك القوالب الفكرية العتيقة التي تثير الشهوات وتغشى على العقل بغشاوة الموروثات والتقاليد .

الخطيئة السادسة : ميوعة العبارات

للكلمات حدّان . وقد لا نخطىء كثيراً إذا قلنا إن للكلمات حدوداً تحوّر معانيها بطريق الاستعمال . ومن هذا الطريق ورثنا سوء الفهم عن الجيل الماضي . أما وقد عرفنا أننا ورثنا ذلك الميراث الخسيس عن الذين نشّئوا تلك الجهالات ، فان أول واجب على المصلح الاجتماعي أن يطلب التحديد في معنى الكلمات ، بحيث يصبح للعبارات الاجتماعية دقة المصطلحات الرياضية . ولا ريبة في أن هذا وحده ، كفيل بأن يبعد عن أفق المجتمع البشري كثيراً من أسباب التناقض ، والازدحام بكثير من المعاني المتضاربة التي تخلط الذهنية العامة ، وتدفعها في طريق الثورات بغير أهدافٍ معينة .

الخطيئة السابعة : التخليط في تعيين المشكلات الاجتماعية

وهذا سبب من أخطر الأسباب التي تقود إلى الفوضى . ولاشك عندي أن التخليط في تعيين كل مشكل اجتماعي باعتباره وحدة لها قوام ذاتي ، بصرف النظر عن علاقته بغيره من نواحي النظام السياسيّ ، كان السبب في نشوء تلك النزعات المتطرفة وأخصها العَدَميَّة والفَوْضَويَّة وما اليها من نزعات الهدم والتخريب. فان العقل الانساني بطبعه إذا ضلّ وتاه وتخالطت قواه المفرقة بين المعقولات ، خبلت قوته ، وتسلم زمام النفس البشرية غيره من القوى الدّنيا ، فينزع الانسان بطبعه وبحكم ذلك الظرف ، إلى تحطيم كل وَلاَية من الوَلاَيات الاجتماعية ، وأولها وَلاَية التشريع ، إذ ينسب اليها القوة التي تتذرع بها وَلاَية التنفيذ وحفظ النظام . ولا شك في أن ترك الذهنية العامة نهباً لهذا التخليط ، خطيئة من أعظم الخطايا التي يرتكبها أهل هذا الزمان .

الخطيئة الثامنة : المساومة

أول ما يفد إلى ذهنك من الخواطر إذا ذكرت معنى المساومة في سياسة الاصلاح الاجتماعي ، ان هذا النمط من التفكير ينسيك أول ما ينسيك : « فضائل السلام » .

إذا جدَّت مشكلة من مشاكل السياسة ، أو تكوَّنت نزعة اجتماعية من النزعات التي كثيراً ما يقتضيها التطور الضمامي ، ونزعت السلطات إلى حلها بطريق المساومة ، فاعلم علم الموقن الثابت في يقينه ، ان حاجة السلام قد ضحى بها في سبيل الوصول الى حلول موقوتة تسكن لوعة الداء ، ولكنها لا تستأصله . واعلم فوق ذلك ان كل الدماء المهراقة في الحروب ، وكل الخبائث التي لازمت قيام الثورات والانقلابات الاجتماعية ، كان هذا سببها : مساومة تنسيك فضائل السلام . وما ذلك إلاّ العمل الفائل . عمل لما هو زائل ، ونقض لما هو باقٍ ثابت .

الخطيئة التاسعة : روح التفرقة

أصحاب المصالح في العالم فريقان : دول ذوات مصالح عامة ، وأفراد ذوو مصالح ذاتية . فاذا ظلَّ هؤلاء مستمسكين كلاًّ بمركزه ، فنشدت الدول الاحتفاظ بمركزها في التفوق حتى الدرجة التي يصبح فيها ذلك التفوق غير ضروري للاحتفاظ ببقائها ، وسعى الأفراد الى الاستقواء على الطبقات المستغَلَّة في المجتمع ، وقفنا حيث نحن ، شاعرين بأن بعض الدول لا بد من أن تتسمح في شيء من تفوقها اقتصاديًّا أو سياسيًّا أو غير ذلك ، وان بعض الأفراد لابد لهم من أن يذعنوا الى ضرورة التنازل عن شيء من امتيازاتهم . واذن فلا بد من تضحية ، ليتزن بناء المجتمع .

الخطيئة العاشرة : اختلال القوالب الاقتصادية والسياسية

والسبب في هذا الاختلال عجز الأفراد والجماعات عن النظر في الحياة الجديدة نظرة دولية ، تختلف كل الاختلاف عن النظرة القديمة التي تغشاهم اليوم . لقد انقلبت الحال فتطوَّرت الحياة وتغيرت قيَمُها . فكل القِيَم القومية القديمة قد حلت محلها قِيَمٌ دولية شعوبية جديدة . ولقد تم هذا التطور لاشعوريًّا ، حتى أن الناس اليوم يعيشون في نظام دولي ، ولكنهم يفكرون بذهن قومي . وإذن ينبغي لنا أن نعمل على أن نقضي على ناحية التفكير القومي ليساير الفكر ، الذي هو العامل الأول في تنشئة النظامات الاجتماعية ، مقتضى الحال في الحياة الدولية التي نحياها .

***

هذه خطيئات عشر ، يلزمنا أن نقضي عليها بالقضاء على بواعثها . فاذا قضينا عليها فنحن الى السلام ، وإذا عجزنا عن ذلك ، فنحن الى الفوضى ، بل الى الحضيض ، الى الدماء والعرق والدموع .

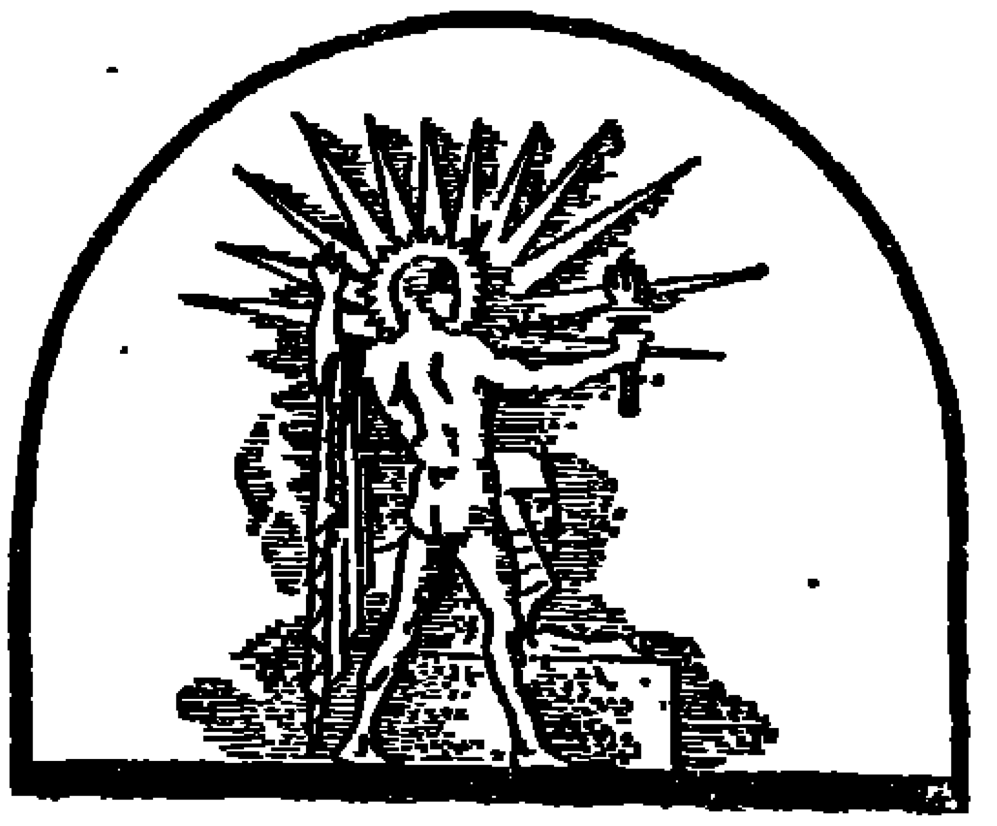

الاتحاد القومي

داؤه ودواؤه (1)

لادوار مرقص

عضو المجمع العلمي العربي

أصبحت بلاد سورية ولبنان في فجر عهدٍ جديد هو عهد الاستقلال والتمتع بالكرامة القومية في أوسع مداها . وما عهد الدول لنا بهذا الشأن كافياً وافياً ، وإن كان عظيم الفائدة. بل يجب علينا ان نضيف الى هذا المستند الرسمي مساعي فعالة طيبة من قبلنا، تظهر اننا نفكر في واجباتنا ومسؤولياتنا تجاه هذا الاستقلال ، قبل أن نفكر في مغانمنا وأمانينا الذهبية من ورائه ، بحيث نكون مستحقين له ولحسن عناية الدول ورعايتها حين تضع تفاصيل الميثاق الاطلنطي، وفي مقدمة أغراضه تأييد الشعوب الصغيرة ومنح كل منها حقوقها السياسية.

فما الشرط الأساسي الذي يطلب منا لنيل ذلك . هو ولا شك اتحادنا كتلة قوية صادقة في نياتها ومساعيها ومقاصدها.وما الذي يحول دون اعتمادنا على هذه الصفة الشريفة . هو ولا شك وجود النعرات الدينية في صميم مجتمعنا ، وترصد النصاري والمسلمين بعضهم لبعض ، بتأييد هذه النعرات الخبيثة .

ومن ثمَّ يكون زوال النعرات الدينية من بيننا أعظم ضامن لنجاحنا سياسيًا واداريًا واجتماعيًا، وأصدق كفيل لسلامة استقلالنا وراحة بالنا وكرامة نفوسنا وصون نفائسنا .

وإذا لم تزل من بيننا هذه النعرات الخبيثة فلا تكون الوحدة العربية اذا حزناها ، ونحن اليوم نعوّل عليها ونسعى اليها ونفتخر بها، إلاّ ضئيلة الجدوى إذ لم أقل معدومة الجدوى، وما أشبهها بصرح جميل فخم ولكنه ذو أساس ضعيف تغير عليه من هذه الزاوية ومن تلك، مسارب مياه قوية التيار ، تحتفر الاخاديد في طريقها وتهدد الصرح بالتصدع فالانهيار بين ساعة وساعة، والعياذ بالله.

---

(1) محاضرة ألقيت في ردهة المدرسة التجهيزية الرسمية باللاذقية في ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٤

ولا تنسوا أن أول واجب يطالب به الكاتب أو الخطيب أن يكون مدفوعاً بعامل الاخلاص والحمية قصد الافادة والارشاد، لا قصد الاغراب والمباهاة ، بحيث يرضي ضميره أول شيء . ورحم الله من قال : أخوك من صدَقك ، لا من صدَّقك .

النعرات الدينية تحقرنا أمام الناس وأمام أنفسنا كلما فكرنا في قبح مدلولها . النعرات الدينية تجعلنا مطمعاً لكل طامع وحجة دامغة علينا لكل محتج وتكذبنا جهاراً في كل صيحة من صيحاتنا الوطنية وكل دعوى من دعواتنا القومية. وهذه النعرات لم يقتصر أمرها على الشعب في خصوصياته وفي دخائل كل فرد من أفراده، بل تعدت ذلك الى ما يخزي ويخذل. فأصبح لها أثر رسمي قانوني في انتخاباتنا ووظائفنا ودعواتنا واقتراحاتنا ومشروعاتنا. ونخشى أن يستشري فسادها بعد قليل فتدخل في مطاعمنا ومشاربنا وفي أبسط وأحقر مظهر من مظاهر معيشتنا . ولم يكن أمرنا ليصل إلى هذا . نعم أنّ أبناء جيلنا الحاضر عرفوا من حقائق الكون العمرانية ما لم يعرفه آباؤهم وأجدادهم ، وأصبح فيهم استعداد فطري للاخاء الوطني والرابطة القومية وتقديمها على كل رابطة سواها . ولكن تيّار الأحوال الطارئة جرفهم على سهوٍ منهم أو على تجاهل وتغافل ، فوقعوا في سوء ما ورثوا بتطبيق نظاماتنا الرسمية على فوارق الدين بيننا . ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .

وقد تناولت هذا المطلب الوطني الجوهري مراراً قبل اليوم في جرائد ومجلات مختلفة منها ما قلته منذ سبع سنوات بعنوان : « لا يجمع سيفان في غمد . إمّا الطائفية وإمّا الوطنية » . ثم أقول : « أما نحن سكان هذه الديار فأمرنا عجب . ظاهره يضحك الثاكلات وباطنه يشكل الضاحكات . أمرنا عجب . وكل عدّتنا فيه صخب ولجب . نحب الوطنية . ونشتهي الوطنية . ونحسُّ بحاجتنا القصوى إلى الوطنية . ونتغنى بالوطنية . وتنادي ألسنتنا وأقلامنا بالوطنية في كل صباح وكل مساء . ومع ذلك لا نتحوّل قيد شعرة عن النعرة الطائفية . ولا نتنازل عن حبّة مما اصطلحنا أن نسميه حقوقاً طائفية أو تقاليد طائفية ، ولا نعرف أن نعيش إلاّ بالطائفية . متنشقين ريحها . سكارى براحها . ملهمين روحها . وكثيراً ما نسخّر الوطنية لأجل الطائفية بحيث لا نعطي الوطنية إلاّ القشر وندّخر اللب كله للطائفية . بحيث يقول اللسان وطنية . ويضمر القلب طائفية . ومن ثمَّ نزداد بعداً عن تحقيق الآمال بجمع الكلمة ورصّ الصفوف ينصر بعضها بعضاً . وهي حالة تعاسة وألم كأنها المعنية بقول القائل .

وكنت إذا أرسلت طرْفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادرٌ عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

***

كانت المملكة الاسلامية في عصورها الأولى خلافة دينية بحتة . وكان معظم النصارى المنضوين تحت لوائها أجانب عنها غرباء بلسانهم وأخلاقهم وميولهم وسياساتهم المنحدرة اليهم مما ألفوه وعهدوه وأشربته قلوبهم من دول نصرانية سابقة ما بين يونان ورومان وسريان وأقباط وغيرها، وهي الدول التي غلبها المسلمون على أمرها وملكوا ديارها . ومن ثمَّ كان المسلمون معذورين عذراً واضحاً في كيفية نظرهم إلى النصارى الساكنين معهم وفي اتخاذهم الحيطة بشأنهم ، وبما أن هؤلاء النصارى دخلوا في الدولة الاسلامية وهم أهل كتاب سماوي ، رعى المسلمون حرمتهم إلى حدٍّ محدود فسموهم ذميين أو معاهدين وأخذوا على أنفسهم حمايتهم والذود عن حقوقهم بشروط وقيود مفصلة في مواضعها ، خوفاً من فتنة أو ثورة أو مكيدة تقع عليهم من قبل هؤلاء النصارى .

أما اليوم فقد زالت هذه الأحوال وهذه الدعاوي، ولم يبق مسوغ لهذه التفرقة بجعل الرعايا قسمين مؤمنين أقارب ، وذميين أجانب . لم يبق مسوّغ لهذا لأن اللغة والمشارب والأخلاق أصبحت كلها موحدة ضمن إطار عربي . ان قرناً واحداً في المعاشرة والامتزاج يحسب كافياً لمثل هذا التوحيد ، فكيف وقد انقضى على تلك الحال ثلاثة عشر قرناً ونيفاً ونسي النصارى ما كان يربط أجداد أجداد فئات منهم باليونان والرومان وغيرهم رباط جنسية ونسب . لقد استعربوا جميعهم من قمة رأسهم إلى اخمص قدمهم ، ولم يضرهم شيئاً في استعرابهم ، أصلهم الأعجمي القديم . ثم إذا كانت العجمة قد دخلت في أنساب بعضهم متوغلة في قدمها ، فان بعضهم الآخر يمت إلى نسب عربي صميم من أيام الجاهلية ، وأزيد أنهم من سلالة القبائل العربية المتنصرة ، وأشهرها في القسم العدناني تغلب وبكر وكلب والأزد . وفي القسم القحطاني طي وكنده وغسان ولخم وقضاعة وإياد . أوَ ليس كذلك شأن اخواننا مسلمي العرب ؟ فهم في أنسابهم من قبائل عربية ومن شعوب أعجمية كالفرس والترك والأكراد والشركس وغيرهم . بل إن أجداد جماعات منهم ، هم أجداد النصارى أنفسهم . وإنما دخلوا في الاسلام تدريجاً بعوامل مختلفة أهمها حافزان جوهريان لا ثالث لهما : وهما الرغبة والرهبة . على أن اختلاط العناصر والانساب شيء لا بد منه بفعل كرور الأحقاب والاشتراك في التوطن والمعيشة حتى أصبح من المتعذر أن نجد امة ترجع أصولها الى جنس واحد . وقد يتسنى هذا التمحيصُ للقبائل الرحل كالبدو من العرب ومن التتار والخزر وهنود أميركا وزنوج أفريقية وقبائل الاسكيمو بجوار القطب الشمالي . وأما الامم المتحضرة وهي

تسعة أعشار البشر أو تزيد ؛ فلا يتسنى لها هذا التمحيص . فالأمة الفرنسوية مثلاً يدخل في نسبها القديم العرق الجرماني . ويدخل في الأمة الروسية العنصر المغولي . وفي الأمتين الاسبانية والبورتغالية الدم العربي . وفي الأمة الايطالية الأصل اليوناني إلى آخر ما هنالك.

واذا حاول جماعة من أهل التعنت والعناد أو من المولعين بالمكابرة والمماحكة أن يتعاموا عن صحة هذه النظرية العمرانية الجلية ، وأصروا على حرمان نصارى العرب حق انتسابهم إلى العروبة أجبناهم : رويدكم : إذا كنتم ترون النسب اليوناني أو السرياني أو الفينيقي أو غيرها من أنساب الأعاجم أولى بأبناء وطنكم النصارى من النسب العربي ، لأن أجدادهم من ألف سنة كانوا ينتمون إلى هذه العناصر ، فانكم بهذا القياس الجائر تخرجون بني قريش أنفسهم، وهم سادات العرب ، عن عروبتهم وتحكمون بأنهم كلدان لأنهم ينتمون إلى اسماعيل ابن ابراهيم الخليل بن ناحور بن تارح وهو كلداني قح من بلاد ما بين النهرين ، من مدينة الرُّها التي نسميها اليوم أورفا . فما قولكم في هذه المهزلة تجعل قريش كلداناً ، بل تجعل جميع القبائل العدنانية لا قريش وحدها ، خارجة عن العروبة ، مع أنها تؤلف في التاريخ نصف الأمة العربية .

وفي هذا القدر كفاية لاثبات عروبة الوطنيين من نصارى بلادنا في عصرنا الحاضر أسوة بأبناء وطنهم المسلمين . فلا يجوز أن ينظر اليهم كما كان ينظر إلى أسلافهم من نصارى الشرق الأوائل في فجر الاسلام . كان نصارى تلك العصور أعاجم بلسانهم وعاداتهم واخلاقهم وتقاليدهم ومقاصدهم . وأما نصارى اليوم فهم عرب في جميع ما ذكر . كان النصارى القدماء يؤدون الجزية لبيت المال ، والجزية هي أكبر دليل وبرهان على أن لهم حالة استثنائية في نظر الدولة ، لا تعادل حال المسلمين . وأما نصارى اليوم فقد أعفتهم الدولة من أداء الجزية ، وان شئت فقل أعفتهم من تلك الصبغة . . . كان أولئك النصارى لا يطالبون بالخدمة العسكرية إذ لا يؤمن جانبهم ولا يقبل اشتراكهم فيها إذا أرادوا التطوع لها . وأما نصارى اليوم فهم شركاء أبناء وطنهم المسلمين في هذه الخدمة على اختلاف أنواعها من جيش عامل وجيش احتياطي ودرك وشرطة وحرس . ويضاف إلى هذه المزايا أن نصارى نهضتنا الحاضرة قاموا بقسط كبير شريف في خدمة العرب والعربية داخل ديارهم ، وحملوا قبسها الوهاج ، ونشروا لواءها الظليل خارج ديارهم في عدة أقطار شرقية وغربية ، تشهد لهم بذلك شهادة لا ترد ولا تدحض ، جمعياتهم وأنديتهم وصحفهم ومؤلفاتهم وخطبهم .

(البقية في العدد المقبل)

ارتياد جزيرة العرب

خلاصة لكتاب تحتج به *

بقلم محمد عبد الغني حسن

في أوائل القرن السابع عشر الميلادي أو في سنة ١٦٠٩ بالتحديد، كتب موظف في شركة الهند الشرقية يقول في تقرير له: « يجب أن يتوقع المسافر إلى عدن أخطاراً تنتظره وأهوالاً ترتقبه، لأنها مدينة مشحونة بالأحراس والجنود، وليس فيها من التجار إلاّ قليل. والربح القليل الذي يؤمل من التجارة فيها، لا يوازي الأخطار التي يستهدف لها التاجر. أما مدينة مُخَا اليمنية فهي على صغر حجمها، مركز تجاري أمين لأنها مملوءة بالتجار لا بالجنود».

وكانت عدن قبل ذلك الحين ببضع عشرات من السنين من أملاك الدولة العثمانية. ولكن قيمتها التجارية مع بلاد الهند والجزيرة العربية وأوربا أُخذت تتضاءل، حتى انتهى الأمر الى مدينة مخا التي اخذت تحتل مكانها وتنزع عنها قديم شهرتها.

وكان يحكم عدن من قِبَل العثمانيين رجل يوناني غير مسلم، اتخذه حاكم صنعاء صنيعةً له وعهد إليه حكم هذه المدينة العسكرية.

وفي سنة ١٦٠٩ أيضاً أرسلت شركة الهند الشرقية بعثة الى عدن، على رأسها « اسكندر شاربي» ومعه رجل من الذين يحبون الضرب في الأرض للتجارة وعقد الصفقات والترويج للسلع حتى تنفق. هذا الرجل اسمه « جون جوردان » من مقاطعة دورست بانجلترة.

لقي هذان الرجلان الطامعان في ثروة البلاد العربية عنتاً وارهاقاً، وخاصةً في عدن تلك المدينة التي ليس فيها جرعة من الماء سائغة لظمآن. وليس فيهـا الاّ الصخور الرُّبد والحجارة الدُّكن.

ولـكنهما لم يعرفا وهنـاً، ولم يدعا لليأس سبيلاً الى قلبيهما. فقد تعرَّفا الى عدن

(*) L'Exploration de L'Arabie — Par : R. H. Kiernan, Paris 1938

وصنعاء ومخا . بل تعرّفا الى كثير من بلاد اليمن . ولم يجد « شاربي » سوقاً للسلع الكثيرة التي جلبها معه من الهند ، وإذا وجد السوق فانه لا يصادف الاّ الثمن البخس والدراهم المعدودة . فعاد الى الهند تاركاً زميله المغامر الجريء «جوردان» يسير في مناكب اليمن ...

وبعثت شركة الهند الشرقية « السير هنري ميدلتون » ليتم ما عجز عن اتمامه سلفه « شاربي » . فجاء الرجل ووجد في « جوردان » يده وعدته . وكان في « جوردان » صلابة وعناد لا يخضعان لقساوة الظروف وحرج المواقف .

وهنا كانت المنافسة بين الانجليز والهولنديين أخذت سبيلها . وخاصة بعد القضاء على نفوذ البرتغال ، وانقلبت المنافسة التجارية الى عداوة مبيتة . ولم يكن غير أطراف الأسنة مركب بين المتنافسين . ولم يكن للمضطرين الاّ ركوبها .

وجاء أسطول هولندي صغير يقوده « هدريك جازون » . وكان في استطاعة أسطول « جوردان » الضئيل ان يتقي اللقاء بالحرب . ولكنه آثر الموت الذي ليس منه بد ، ووجد عاراً لنفسه ولبلاده أن يموت جباناً ...

وانتهت المعركة بقتل « جوردان » ، وهو يحمل علم بلاده في يده — بعد ما أصدر أمراً بالتسليم حتى لا يكون مصير بعثته الفناء .

***

هذه المعركة البحرية الصغيرة ، هي وأخوات لها في خلال القرن السابع عشر ، والنصف الأول من القرن الثامن عشر ، لم تكن ارتياداً للجزيرة العربية بالمعنى العلمي الصحيح ، وإنما كانت منافسات تجارية . ولكنها على كل حال كانت الخطوات الأولى في الارتياد لتلك الجزيرة السحيقة الأطراف .

وأول كشف للجزيرة العربية بالمعنى العلمي الحديث ابتدأه الدانمركيون . وهم قوم على قلة عددهم حملوا لواء الارتياد . وما ضرّهم انهم قليل عددهم ، فالكرام في الدنيا قليل ...

وأول طارق لبلاد العرب على نية الكشف العلمي هو « كارستون نيبوهر » الدانمركي ، الذي أرسلته حكومة بلاده على رأس بعثة أُمدّت بأسباب البحث والاطلاع الممكنة في عصره . قامت البعثة سنة ١٧٦١ م . وقضت سنة في مصر وشبه جزيرة سيناء . ثم بلغت جدة سنة ١٧٦٢ م ومنها أبحرت الى ميناء في بلاد اليمن يدعى « اللحيّه » بالحاء والياء المشددة المفتوحة وهاء في آخره[1] . وكان هذا الثغر اليمني هو الهدف الذي ترمي اليه البعثة .

(١) حقق هذا الاسم العالم الجليل الاب انستاس ماري الكرملي في كتاب « بلوغ المرام في شرح مسك الختام » للقاضي العرشي الذي نشره الاب « ص ٢٧٠ س ١٦ » . وخطأ من يقول ان اسمه لحيا

ومن هناك أبحر رجالها الى « مخا » الحافلة بالتجار وأكبر ميناء لتجارة البن . ولما كان « نيبوهر » غير عالم بالحضارات القديمة ولا متخصص في دراستها فقد اصطحب معه علماً من أعلام هذا العلم اسمه (فون هافن) . وظلت البعثة بين إتهام وإنجاد حتى بلغت صنعاء التي جابها « نيبوهر » شبراً شبراً ، ووصف كل معلم من معالمها وحيٍّ من أحيائها . ولقد كان وصفه للحي اليهودي فيها شائقاً .

وبعد أن اقامت البعثة عشرة أيام في صنعاء ، عادت إلى مخا عن طريق الحديدة ومن مخا أقلعت البعثة إلى الهند . وفي العام التالي بقي « نيبوهر » وحيداً بعد وفاة ثلاثة من زملائه فزار عُمان ومواطن أخرى على الخليج الفارسي . ثم ذهب إلى البصرة فسورية ففلسطين ومنها إلى وطنه بعد غياب أربع سنوات . وطبع نتائج رحلته سنة ١٧٧٢ . ويعد عمله هذا أول وصف لبلاد العرب وخاصة اليمن . وكان وصفه للأماكن المختلفة وصفاً مملوءاً بالدقة ، حتى انه لم يترك لمن جاء بعده من الروّاد مجالاً للوصف الدقيق .

وكان « نيبوهر » منصفاً في حكمه على العرب عارفاً أقدارهم ، فلم تمل به دواعي الهوى في حكمه ، وقد عرفهم عن قرب ، وفرّهم عن تجربة . وقال فيهم في كتابه (١) . « إذا كان هناك شعب يقدمه التاريخ مثالاً فريداً للأمانة المصحوبة ببساطة التقاليد ، فانه الشعب العربي بكل تأكيد »

* * *

وبعد مضي أكثر من قرن على بعثة « نيبوهر » ذهب « هالفي » إلى بلاد اليمن سنة ١٨٦٩ فاكتشف مدينة مأرب والكتابة المنقوشة على صخورها . ودخل اقليم نجران الخصيب ، حيث لقي جالية من اليهود في قرية « مخلاف » فأقام بينهم بضعة أسابيع . وفي سنة ١٨٧٠ وصل إلى مدينة « النحاس » التي سميت بهذا الاسم لأن آثارها المنقوشة وجدت على ألواح من هذا المعدن . وعلى بعد ساعتين من شرقي مأرب على سد مأرب المشهور في التاريخ .

ولم ينفرد « هالفي » بكشف مأرب ، ولكنه فتح سبيلاً ممهداً للعالم الأثري النمسوي « جلازر » الذي قام — تحت حماية الأتراك — بزيارة مأرب سنة ١٨٨٩ . ولولا خصومة بين قبيلتي « حاشد » « وبقيل » لأمعن في سيره . ولكنه خشي على نفسه أن يقع ضحية في خلال هذا الخصام . وانتظر الرجل حتى يجد في مصالحة الحيين المحتربين فرصة لاستئناف عمله . وكان ذلك في رحلة ثانية وصل فيها إلى مأرب ، وأقام فيها ثلاثين يوماً جمع خلالها

---

(١) Voyages à Travers L'Arabie.

طائفة كبيرة من النقوش والآثار ، ولكنهُ لم يستطع أن يخترق شرقي مأرب، فقد كانت دوية مخيفة غير واضحة الأقراب .

وفي سنة ١٨٣٥ استطاع « ويلستد » الذهاب إلى قلب حضرموت ، وما كان ذلك سهلاً ولاميسوراً ، ولـكنه كان بزماع الأمر والهم الـكنع كما فعل سويد بن كاهل صاحب القصيدة العينيـة المشهورة .!! وكاد « ويلستد » ينجح في مغامرته لولا أن بعض الخصـومات المذهبية في اليمن، لم تمكن البعثة من انجاز عملها .

* * *

ولما كان الحجاز أشهر أقاليم الجزيرة العربية — لما للمدينتين القدستين من مقام عظيم — فقد قام « ڤارثيا » الايطالي من دمشق في أوائل القرن السادس عشر . ولعلهُ أول أوربي زار أرض الحجاز. كما كان « يوسف بتس» الديفوني الانجليزي من أوائل الزائرين للحجاز. وهناك آخرون زاروا مكة متخفين أو متظاهرين بالاسلام . وظلَّ الحال كذلك إلى أول القرن التاسع عشر . فزير الحجاز ـ لأول مرة ـ لغاية علمية محدودة بوساطة « باديا لبليك» الاسباني الذي تسمى باسم « علي بك » وادعى أنه من أعقاب العباسيين وأنه بقية من بقاياهم !! فوصل إلى جدة سنة ١٨٠٧ . وأدَّى فريضة الحج في مكة . وهو أول مرتاد أوربي اخرج للعالم أول صورة دقيقة للمدينة المـكرمة ولشعائر السلمين في البيت الحرام . كما كان أول من حـدد موقع مكة بعد مشاهدات فلـكية متتابعة ، ووصف كل ما يحيط بها من الواقع والبطاح .

ولقد مهد « علي بك » الاسباني طريق إرتياد الحجـاز للرحالة « بركهاردت » الذي ولد في « لوزان » وتعلّـم فيسويسرة وأتم تعليمه في جامعتي لندن وكامبريدج.وكان في الفتى صلابة في الخلق ودأب في الدرس ، حتى لقد احتمل الحرمان الأليم والضنى المض في سبيل دراسته . فحفظ القرآن ودرس التفسـير في أوسع كتبه وأعظم مراجعه ، وتعمق في بحث الشريعة الاسلامية تعمقاً مكـنه من أن ترسخ قدمه فيها . وهو الرائد الحقيقي لبلاد الحجاز

ولقد مكـنته قراءاته الواسعة ومعرفته بحياة العرب وعاداتهم من أن يدخل بلاد الحجاز كمسلم . فنزل جدّة سنة ١٨١٤ حينما تمَّ احتـلال الوهّـابيين للحجاز : وكانت جيوش محمد علي باشا على أهبة التقدم نحو نجـد . وزار الطائف وقضى ثلاثة شهور في مكة فحجَّ واعتمر وقضى مناسك الحج . وفي سـنة ١٨١٥ سافر إلى المدينة بطريق الساحل . وبالرغم من اعتلال صحته فقد سجل كل ما رأى وجرب بالدقة التي امتازت بهـا رحلته إلى مكة . وفي النهاية حينما ألحت عليه العلة — اضطرَّ إلى قطع رحلته وعاد إلى القاهرة ، ومات بعد ذلك بعامين .

ومن روّاد «الحجاز» « ريتشارد برتون » الذي كتب رحلته في كتاب لم يسبقه اليه سابق من حيث اتساعه وضبطه . وفي سنة ١٨٧٧ أوفده الخديو اسماعيل ليكشف مناجم الذهب في شمالي الحجاز ، فوجد هناك آثاراً ذات قيمة تاريخية وحمل معه خرائط ومصورات

وبعد عشرين عاماً زار المدينتين المقدستين رجل هولندي اسمه « هيرجرونيه » وكان عميد الرواد في عصره . وطبع كتابه بالألمانية ولكنه لم ينل من الشهرة ما نال سابقوه . ولعلّ ذلك راجع الى أنه كشف أشياء كانت معروفة لدى جمهور العلماء في زمانه .

وكانت انتصارات ابراهيم باشا في الحجاز سبباً من أسباب نفوذ الرحالين إلى أواسط الجزيرة العربية . فقد دخل عدد من الضباط الأجانب في الجيش المصري ، ولكنهم لم يتركوا لنا أثراً من مشاهداتهم .

ولكن حكومة الهند كانت راغبة في القضاء على القرصنة في الخليج الفارسي، ومتطلعة إلى الحصول على معلومات صحيحة عن مركز البلاد العربية . فأرسلت الضابط (سادلير) مندوباً عنها لدى ابراهيم باشا الذي كان والياً على البلاد العربية ، والذي تقبله بقبول حسن، وكان أول رحالة أوربي اخترق بلاد العرب من بحر إلى بحر . ولو أن النتائج السياسية لرحلته كانت هباءً ، إلاّ أنها كانت ذات قيمة جغرافية كبيرة . فقد أصبح اختراق بادية نجد شيئاً مستطاعاً حتى في أشد الشهور قيظاً .

وإلى هذه اللحظة ظلّ اقليم جبل شمّرٍ غير مطروق إلى أن جاء «والن » نيابةً عن محمد علي باشا ليستطلع عن شمالي نجد نبأً . فاخترق صحراء « النفود » الى « الحائل » وهي العاصمة المزدهرة لجبل شمّر. ولقد أدهشته أخلاق العرب ومروءتهم وعدالة رئيسهم .

وفي سنة ١٨٦٢ زار الجوف والحائل والرياض والأحساء ، الرحالة « بلجراف » في صحبة « بركات » وهو قسيس لبناني وصل فيما بعد الى مرتبة مطران . ولقد مكنت « بلجراف» معرفته الوثيقة باللغة العربية وتاريخ الجزيرة من رسم صورة حية ناطقة للحياة العربية . وهي صورة ملأى بالفتنة والروعة ، ولكنها من الناحية الجغرافية لا تعد شيئاً ؛ فان طغيان الخيال والاغراق في المبالغة ، جعلت رحلته أقرب الى المتعة منها الى التحقيق، حتى ان الرحالة « دوتي » بعد خمسة عشر عاماً لم يجد أثراً لمعالم بلجراف !

ولكن « بلجراف » وجد من يدافع عنه بعد موته وهو الدكتور «هوجارث» ، وكان آخر رحالي القرن التاسع عشر،البارون« نولده» الذي زار مدينة الحائل سنة ١٨٩٣ . وهو أول من مهد السبيل لروّاد القرن العشرين.

النباتات المتطفلة

لرضوان محمد رضوان

التطفل وجود فردين يستفيد أحدهما من الآخر مسبباً له بذلك ضرراً يتفاوت في خطورته ، وتكون نتيجته الموت في غالب الأحيان ، ولم يعرف بالتحقيق كيف نشأ التطفل. وأغلب الظن أنه نشأ بمحض المصادفة فقد يتفق أن يبتلع حيوان ما إحدى الكائنات الحية ، نباتية كانت أم حيوانية ، أو أن تدخل هذه في نسيج أي نبات ، فاذا وجدت أن هذه البيئة الجديدة تحوي كل الظروف اللائمة لنموها وتكاثرها من غذاء وحرارة وغيرهما ، وأنها لا تختلف كثيراً عن موارد غذائها الطبيعية ، فضلاً عن كونها لا تعاني مجهوداً يذكر في الحصول على ما يقوم بأودها ، استمرأت هذه الحياة وجعلتها ديدناً لها ، وبذا تصير خاصية التطفل عادةً لهذا الكائن الحي . ومما يؤيد هذا، أن عدداً كبيراً من الطفيليات يمكنها أن تصيب عوائل مختلفة من أجناس متباينة مثل فطر Corticium vagum فله القدرة على اصابة نباتات عدة مثل القطن والبطاطس والبنجر والفاصوليا . . الخ . وعلى ذلك فالطفيليات، ولو أنها منتشرة انتشاراً عظيماً في مملكتي الحيوان والنبات، إلا أنها لا تكوّن قسماً طبيعيًّا خاصًّا ، مما يدل على أن هذه الحالات انما نشأت مستقلة عن بعضها ، واذا كانت هناك بعض أنواع من الديدان الشريطية تقتصر على التطفل ، فانه قد ثبت أن لها أسلافاً عاشت حرة أي غير متطفلة . ويمكن تقسيم النباتات المتطفلة قسمين :

١ — النباتات اللازهرية أو (الخفيّة الزهر) Cryptogamics

٢ — النباتات الزهرية أو (البادية الزهر) Phanerogamics

ومن أهم الطفيليات في النباتات اللازهرية الفُطر والبكتريا (القُصَيّات) . فالفطر Fungi نبات لا يحتوي على اليخضور (الكلوروفيل) أي انه لا يستفيد من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوي ليكوّن مركباته الكربونية ، ولهذا يتطفل على الكائنات الحية ويمتص منها غذاءه ، فنجد أن هيفات الفطر تخترق طريقها الى العائل ميكانيكيًّا، بأن تضغط

على أديم النباتات — وهي ثابتة في مكانها — وتستمر في الضغط بشدة حتى ينفجر الأديم وبذلك ينفتح الطريق لدخول الفطر ، وعندئذ ينمو داخل النبات مخترقاً الأنسجة نفسها أو نامياً في المسافات البينية ويفرز أنزيمة (خميرة) البكتيناز Pectinase التي تفكك الخلايا وتؤثر على الجبلة أو المادة الحية (البروتوبلازم) وبذا تتحلل الأنوية وتنتفخ النشاشيات الخضر (الكلوروبلاستيدات)[1] ثم تتحلل وتختفي حبيبات النشا، فيستطيع الفطر أن يمتص غذاءه. وقد شوهد أن خميرة البكتيناز تنتشر متقدمة الهيفات فتقتل الخلايا وتحلل الجدر قبل وصول الهيفات اليها ، ويسبب هذا التأثير عفن الأنسجة ، وينتهي بموت النبات كله .

ويختلف تأثير الفطر على النبات باختلاف أنواعه ، فنه ما ينحصر تأثيره على الخلية التي يسكن فيها فقط كالفطر المسمّى Myxomycetes ، وهو يصيب نباتات الجنس المسمّى براسيكا التي منها الكرنب مثلاً ، فيسكن هذا الفطر في داخل خلايا العائل ويمتص محتوياتها ويتكاثر فيها فيميتها . وقد يؤثر الفطر على الأوراق فتكمد وتموت مثل مرض البياض الزغبي في العنب وهو المسمى Plasmapara viticola ، وبعض الفطريات تفرز سموماً (توكسينات) toxines تفسد جبلة السائل، مثل الفطر المسبب لمرض ذبول القطن المسمى Fusarium vasinfectum

ولا يقتصر تطفل الفطر على النبات ، بل يتعداه إلى الحيوان ، فأغلب الأمراض الجلدية التي تصيب الحيوانات يسببها الفطر . فرض القراع الذي يصيب جميع الحيوانات الصغيرة وينتقل الى الانسان ، تسببه ثلاث أنواع من الفطر : الأول ويسمى Trichophyton ويصيب الماشية ، والثاني يسمى Microsporn ويصيب الخيل ، والثالث Achorion وهو يصيب الانسان . وهناك نوع من الفطر يسمى Empusa musca يصيب الذباب في ابتداء الخريف ويكون على أشده في نوفمبر، فتصبح الحشرات ضعيفة لا تقوى على السير ويكثر عددها الذي يلتصق بالجدر والألواح فلا تقوى على تركها ! والتأثير الذي يحدثه هذا الفطر في الحشرة هو اتلاف العضلات،فلا تقوى على الطيران . ومرض Muscardine الذي يصيب يرقات دودة الحرير سببه فطر من جنس Batrytes يسبب تصلب الجسم بسبب الافرازات الكلسية التي يفرزها على جسم الحشرة .

أما الطفيليات المسماة بالقصيات (البكتريا) Bacteria فعبارة عن خلية واحدة تحتوي

---

(١) Chloroplastids : chloro Gr. = green & plastids = form units.
E. Haeckel (Eng. Ed.) I, 347.

على المادة اللازمة للحياة أي الجبلة (البروتوبلازم) وتحاط بجدار غشائي رقيق مكوّن من مواد أزوتية . ولما كانت البكتريا فاقدة اليخضور (الكلوروفيل) فانها تحتاج إلى التغذي من أجسام الحيوان والنبات ، وهي منتشرة بكثرة في الهواء والماء ، وعالقة بالأسطح المعرضة للهواء الجوي ، وعلى ذلك فالكائنات جميعاً معرضة لهجمات هذه الميكروبات وكثير منها يسبب اضراراً وخيمة للانسان ، فهي تصيبه إما عن طريق الجلد أو القناة الهضمية أو الجهاز التنفسي ، فاذا وصلت الى الجلد عن طريق جرح أو ثلم به ، فانها تتكاثر فيه بسرعة مسببة التهابات موضعية قد تتحوّل الى خرّاجات تتلف الأنسجة ، وقد تفرز مواد سامة تفضي إلى تسمم الجسم . والقصيات (البكتريا) التي تصيب الجهاز الهضمي كثيرة : أهمها وأخطرها بكتريا التيفود والكوليرا والدوسنطاريا ، وأخطر أنواع البكتريا هي التي تصيب الانسان عن طريق الجهاز التنفسي فتسبب له أمراضاً خطرة مثل مرض السل الرئوي والالتهاب الرئوي الذي يحدث التهاباً في أنسجة الرئة والمفاصل ، وتنتقل هذه القصيات بواسطة قطرات الماء التي تخرج من فم المصاب أو أنفه عند السعال أو الكلام .

***

النباتات الزهرية الطفيلية : Parasitic Phanerogams

الأصل في غذاء النبات أن يستمد الكربون اللازم له إمّا من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوي فيدخل أنسجة الورقة أو السوق الخضر ، وإمّا من الهواء المحيط بالنبات ، ثم يمتص النبات الماء من الأرض بواسطة الجذور . وبواسطة اليخضور (الكلوروفيل) يحدث تفاعل كيميائي من ثاني اكسيد الكربون والماء ، فتنشأ عنه كربوإيدرات . والنباتات الخالية من اليخضور تماماً ، والتي تعتمد على عائلها في الحصول على الماء والاملاح والمواد الغذائية العضوية اللازمة لها ، تسمى بالنباتات تامّة التطفل . وأما التي تستمد من عائلها الماء والأملاح فقط ، ويمكنها تجهيز المواد العضوية بواسطة أوراقها لاحتوائها على اليخضور ، فتسمى النباتات ناقصة التطفل .

ومن النباتات التامة التطفل الهالوك ، وهو يتطفل على جذور نباتات مختلفة في مصر ، كالفول والطماطم والكرنب ، ولا بدّ لنجاح التطفل في هذا النبات من أن تنبت بزوره بجوار جذور العائل ، فمهما توفرت كل الشروط الملائمة للانبات من حرارة وماء وغيرهما ولم توجد جذور العائل ، لا تنبت البزور ، وحين إنباتها تنمو منه مِمَصّات تتجه نحو العائل وتخترق

أنسجة الجذر وتتصل بأنابيب الخشب لتمتص الماء والأملاح ، وبعضها يتصل بالماء للحصول على المواد العضوية المجهزة ، ثم ينمو الطفيل ويكون تحت الارض جسما درنيًا تتصل حزمه الوعائيـة بحزم العائل ، ويأخذ هذا الجسم الدرني في النمو ، ثم ينبثق منه شمراخ زهري يظهر فوق سطح الأرض ويحمل أوراقاً حرشفية خالية من اليخضور . وبزور الهالوك يمكنها أن تعيش في الأرض عشر سنوات في حالة همود إذا لم تجد عائلها الخاص ، دون أن تتلف أو تفقد حيويتها .

***

والحامول نبات زهري تام التطفل يكثر في مصر على البرسيم والكتان ، ومن المعتاد أن توجد بزور الحامول مع بزور العائل ، فاذا زرعت نبتت بزور العائل أولاً ثم تعقبها بزور الحامول فيخرج منها ساق رقيقة خيطية تثبّت نفسها في الأرض بواسطة شعيرات تنمو من القاعدة ، وتنمو الساق إلى حد يكفيها للالتفاف حول العائل ، ثم تتحرك قمتها حركة دائرية ، حتى إذا ما لامست ساق العائل التفّت حوله وماتت الشعيرات التي كانت تثبته في الأرض ، وبذلك يفقد الحامول علاقته بالتربة ويصبح كل اعتماده على العائل . ثم تنمو من الساق الخيطية أقراص تلتصق بساق العائل ، وتخرج من هذه الأقراص ممصات تخترق أنسجة العائل إلى أن تصل إلى الحزم الوعائية ، وكذلك تتفرع من الممصات خلايا جانبية رقيقة الجُدر ، تتصل بخلايا القشرة والأنسجة النخاعية لامتصاص المادة المخزونة فيها .

***

وأما النباتات ناقصة التطفل فأهمها نبات الثيسيوم siurn وهو نبات عشبي صغير له أوراق خُضر ، ويتطفل على جذور النجيليات وهو يكثر في مريوط ونبات اللورنثس Loranthus وينمو بكثرة على أشجار السنط ويشاهد في الجنوب الشرقي من مصر ، وتمتد من ساقه ممصات تخترق أنسجة العائل فتمتص منه الماء والأملاح . وأما المادة العضوية فان النبات يجهزها بأوراقه الخضر . وبزوره تنتقل بواسطة الطيور إذ أنها طعام مفضل ومحبوب لديها ، ولما كانت البزرة محاطة بمادة لزجة ، فهي تلتصق بمنقار الطائر فيحاول أن يتخلص منها بأن يمسح منقاره عدة مرات على شجرة ما ، وبذا تنتقل البذرة إلى الشجرة وتلتصق بها مكونة نباتاً جديداً .

من الادب البولندي

عدو الكذب

قصة عن الكاتب البولندي

فانسلاف سولسكي

نقلها حسين المهدي غنام

سيداتي . سادتي

يجب عليكم جميعاً ان تخجلوا من أنفسكم

قلّب رئيس المحكمة نظره في الأضابير المطروحة أمامه ، ثم صاح بالمتهم — قف ! إن اسمك «ياتوسلاف ماتوشك » ، وعمرك أربعون سنة ، ولكنك ما زلت عزَباً . وقد اشتغلت في « براتسلافا » زمناً ما . ثم حولتك إدارة البريد إلى هذه البلدة ، فسببت لها كثيراً من الألم ، ونغصت على أهليها الحياة ، ولا أستطيع تعليل ذلك . ولكن لعلك تخبرنا عن السبب الذي حدا بك الى فعلتك !! فأجاب المتهم بالتأكيد. ولكني لا أستطيع أن أشرح ذلك في كلمات قليلة. فاسمح لي قبل كل شيء أن أؤكد لك أني كنت دائماً ، وما زلت ، بطلاً من أبطال الصدق، بل أقول انني كنت وما زلت متعصباً للصدق تعصباً دينيًّا ، إذا صح هذا التعبير!

ونقّل المتهم بصره من الرئيس الى الجمهور، ووجه الكلام اليهم جميعاً، ثم قال: والآن ، اليكم قصتي ... لقد مرّ الكثير من المراسلات بين يدي في مكتب البريد ، فأحببت أن أكوّن لنفسي فكرة عامة عن مستوى الذكاء عند سكان هذه البلدة ، وهذا لا يتأتى الا بالاطلاع على رسائلهم ومكاتباتهم ، ولذا فضضت كثيراً منها . . . ومن السهل ان يَفُضّ الانسان مظروفاً ويقرأ ما فيه ثم يقفله مرة أخرى.. وبهذه الطريقة قرأت الرسائل والخطابات ، فرأيت أشياء لم تسرني ... إن مستوى الذكاء فيها يستحق الاشفاق ، فانه أقل من المتوسط ، ولم تحتو كتب القوم ورسائلهم الا على سخافات مزرية وتلفيقات ونمائم وأكاذيب.

سيداتي ! سادتي ! يجب عليكم جميعاً أن تخجلوا من أنفسكم ...!

وما كاد المتهم يفوه بهذه الكلمات، وقد وجهها الى المستمعين من أهل البلدة ، حتى تعالت صيحات السخط والحنق وكادوا ينزلون به سوءاً، غير أنه ظل هادئاً ولم يحرك ساكناً ، رغم ما بدا على الجمهور من آثار الغضب . واستمر في كلامه فقال : ...ولكثرة ما قرأت من رسائل الناس تعلمت تقليد خطوطهم وتوقيعاتهم ، فهذه هي الطريقة

المثلى التي رأيتها أنجع الطرق جميعاً لتنفيذ خطتي . . . وبعد مرانة استغرقت ثلاثة شهور كاملة ، وجدت نفسي قادراً على تنفيذ أولى محاولاتي . . . وذلك أن شاباً من هذه البلدة كتب خطاباً الى فتاة في بلدة « مورافسكا أوستراقا » . . . وكان هذا الخطاب غاية في الكآبة والحزن وخيبة الأمل . . . وكان فيه ثلاث غلطات نحوية فاحشة ، بله اخطاء التهجية . . . ولكني كنت قد قرأت قبل ذلك ثلاثة كتب من تلك الفتاة موجهة إلى فتاها ، وقد فهمت من هذه الرسائل ان الفتاة رضية الأخلاق سمحة الشخصية . فعزَّ عليَّ أن يكون كتاب الفتى مخيّباً لآمالها ، فألقيت به في سلة المهملات ، وأنشأت بدلاً منه خطاب غرام مشرق الديباجة قلت فيه للفتاة « تعاليْ إليَّ يا حبيبتي ، أني أريد أن أتزوج منك بغير إبطاء » . وقد جاءت وتزوجت فعلاً . . . ولكن ليس من فتاها الأول بل من فتى آخر ، هو صديق له ، أحبَّتهُ لأول نظرة حبًّا فاق حبها للفتى الآخر ، وعاشا زوجين سعيدين ... وليست هذه غلطتي بطبيعة الحال ...

وهنا . قال رئيس المحكمة ولكن يظهر انك كتبت رسائل أخرى غير رسائل الحب ...

فأجاب المتهم — نعم ... كتبت أشياء أخرى ... ولكن فارقاً بعيداً بين سيدة شابة ، وبين السيد « فرانتا نوفاك » ... لقد كتب السيد « نوفاك » رسالة الى السيد « كورت » وقد ذهب الى « براجا » أسابيع قليلة ، وقال له في تلك الرسالة : « متى تعود الينا ثانية ايها العزيز كورت ؟ اني لأفتقدك كثيراً فلا أجدك ... » . ومضى في رسالته على هذا النمط ، فملأ صفحتين . على أني أعلم أن رأي السيد « نوفاك » في السيد « كورت » ، رأي مخالف لما جاء في تلك الرسالة ... وبما انه ليس من وظيفة مصلحة البريد أن تشجع الكذب ، أو تعمل على نشره في الناس ، فقد كتبت حاشية ذيلت بها رسالة السيد « نوفاك » ، مقلداً خطه بطبيعة الحال ، قلت فيها : « ... أني لم أقصد بما كتبت اليك إلاَّ السخرية منك ، فاذا أردت أن تعرف ما هو رأيي فيك حقًّا ، فما عليَّ من حرج إذا قلت لك بكل صراحة : إنك سكّير عربيد وغد نذل ، خنزير كبير ... » ... ثم بعثت بالرسالة ، وكانت النتيجة أن السيد « كورت » ، قابل السيد « نوفاك » بعد عودته من براجا ، وحياه بلكمة على فكه .

قال المتهم هذا مستغرقاً في الضحك .

فصاح به رئيس المحكمة — أحسن من سلوكك وقوِّم من تصرفك ! ولا تنسَ إنك متهم أيضاً بسرقة أشياء أخرى أرسلت بالبريد ...

قال المتهم اني أعلم حقيقة ما تشيرُ اليه ، ولكن هذه ليست سرقة ، أما ما حدث بالضبط فكان هذا : « ذات يوم تسلمنا رسالة من باريس ، عليها هذا العنوان (السيد

الكونت « مونت كريستو » الثاني ، يحفظ بشباك البريد) . فلما قرأت هذا العنوان أخِذتُ بغرابته فاشتبهت فيه ، ففضضت الرسالة ، ووجدت بداخلها ثلاث صور ... أتعلم ما هي ؟ إنها ثلاث صور بذيئة وضيعة سافلة ... ولم تكن بالصور التي ربما قد يذهب إليها خيالك . ولكنها قبضت نفسي ، على أية حال ، وجعلتني أشمئز من منظرها، ومن السيد الذي كانت مرسلة إليه. ولكي أعلن عن اشمئزازي لهذا السيد ، ألقيت بالصور القذرة الثلاث في الموقد ووضعت بدلاً منها ورقاً أخذته من المرحاض ، حتى أؤكد لهذا السيد تقززي من الصور المرسلة إليه ... ولكن . . هل تستطيع أن تتصور أو تتخيل من ذا الذي جاء في اليوم التالي لاستلام تلك الرسالة وما تحوي من صور ؟ لا أظنك تصدّق هذا ... ولكنها الحقيقة ... فالذي جاء لم يكن غير السيد « كارل دوستالك » ، عمدة هذه البلدة بنفسه . . . هذا الرجل الذي يحترمه كل انسان ، وهو والد ستة أبناء . . ! »

وعند ما انتهى المتهم من هذا الكلام انفجر الجمهور المتفرج ضاحكاً . . . وكان « دوستالك »، عمدة البلدة ، رجلا بديناً، قوي البنية ذا لحية كبيرة بيضاء ورأسٍ أصلع ، ... فلما سمع هذا الكلام ، وقف ساكناً ، ومسح أنفه بمنديل كثير الألوان ، وخرج من قاعة الجلسة يدلف صامتاً من غير أن ينبس بكلمة واحدة ...

وصاح رئيس المحكمة — إني أمنعك من افشاء أسرار البريد، وإلاّ رفعت الجلسة...

وعندئذٍ مال عضو اليمين على رئيس المحكمة يهمس في أذنه . وكاد الرئيس يجيبه لولا أن فاجأه المتهم قائلاً : « ... لا تلق بالاً الى ما يقول مستشارك ياسيدي الرئيس ، إنه غير أهل لصداقتك ... »

وصاح الرئيس بالمتهم — أمسك لسانك ! ... لا تتدخل في شئون لا تعنيك

المتهم — حسن . . . هذه أمور لا تعنيني حقًّا ... ولكنك تخطىء إذ تعامل مستشارك معاملة الأكفاء ، فهل تعلم ماذا قال عنك في إحدى رسائله ؟ ... »

وأخرج المتهم ورقة كبيرة ومضى يقرأ « ... إني لم أرَ في حياتي ، رجلاً أكثر غفلة من رئيس محكمتنا ... »

ولم يستطع رئيس المحكمة أن يسمع بقية رأي مستشاره فيه ، فرفع الجلسة ، وخرج مندفعاً من القاعة غاضباً ، يتبعه عضو اليمين صائحاً إنه سيوضّح له كل شيء ، ولكن الرئيس رفض أن يصغى اليه...وجلس المتهم ، ووقف خلفه أحد ضباط البوليس .

والتفت المتهم الى الضابط وقال : لست أفهم لماذا يكذب الناس هذه الأكاذيب الكثيرة ، ويظهرون غير ما يبطنون ...لو أنهم لم يقولوا غير الواقع ، لأصبحت الدنيا أجمل بكثير مما هي ، ولعشنا فيها سعداء !

من أنواع النبات

الطبي

لمحمود مصطفى الدمياطي بك

﴿ الأَبْهَل ﴾ والعامة تقول الأُبهُل بالضم شجر من الفصيلة الصنوبرية منبته في وسط أوربا وأجزاء من آسيا ويزرع في بريطانيا اسمه النباتي Juniperus Sabina, L. وبالانجليزية Savin وبالفرنسية Sabine تشتمل فروعه الصغار وأوراقه وثماره على دُهن متصعِّد فعّال يتداوى به مدرًّا للطمث وطارداً للدود .

﴿ أزرارُ الغاسول ﴾ ويقال « غاسولُ أزرار » هو عشب ينبت بطبيعته في مصر ويعرف « بالغاسول » من الفصيلة المسمبريانثيمية اسمه النباتي Mesembryanthemum nodiflorum, L. أي المسمبريانثم العقدي الزهر وبالانكليزية Egyptian Fig Marigold وبالفرنسية Ficoïde Nodiflore تداووا به في قديم الزمان منظِّفاً ومدرًّا للطمث .

﴿ الأَسارُون ﴾ يوناني معرّب « أسرون » Asaron ويسمى بالناردين البري » نبات من الفصيلة الأرسطولوخية تأقلم في قليل من حرجات شمال انكلترة وفي اسكتلندة اسمه النباتي Asarum europaeum, L. وبالانكليزية Asarabacca وبالفرنسية Cabaret تسحق أوراقه وجذره وتستعمل عقاراً مقيئاً ومسهلاً ومدرًّا للبول وإذا استعمل المسحوق سعوطاً (نشوقاً) أحدث افرازاً غزيراً من المنخرين .

﴿ الأسرَاس ﴾ ويقال «الرسراس» نبات يعرف « بالبرواق » في مفردات ابن البيطار من الفصيلة الزنبقية ويزرع في الحدائق الانكليزية اسمه النباتي Asphodelus ramosus, L. وبالانكليزية Tall or Branched Asphodel وبالفرنسية Bâton Royal تستعمل أرومته ضمن عقاقير أخر في مداواة الجرب فقد يصنع منها مروخ بالخل للجلد في حالة القُوْباء والجرَب

﴿ الإسفَنند ﴾ هو « الحَرْمَل » نبات شديد الرائحة من الفصيلة السذابية ينبت بطبيعته في مصر والعامة تسميه غلقة الذئب » و « الحرجويل » و « الحرملان » اسمه النباتي Peganum Harmala, L. وبالانكليزية Syrian Rue وبالفرنسية Harmale وهو ينبت بطبيعته أيضاً في أسبانيا وهنغاريا وشمال أفريقية وبلاد العرب وكشمير وجبال هيمالايا

وغيرها. تستعمل بزوره في تركيا طاردة للدود وتابلاً وكذلك للصبغ باللون الأحمر . والأطباء الوطنيون من الهنود يعطون البزور منوماً ونقيع الأوراق في النقرس (وجع المفاصل) وغيره . ويخلطون مسحوق الجذر بدهن الخردل لإبادة الهوام في الشعر . وفي محيط المحيط « قيل حبّه يخرج السوداء والبلغم اسهالاً ويصفي الدم وينوّم حتى عدّه الشيخ الرئيس من المسكرات وينفع من داء المفاصل وعرق النَسَا »

﴿ الأصْفَر ﴾ إختصار « الإهْلِيْلج الأصْفَر » ويقال هَلِيْلج » بلا همزة معرّب « هَلِيْلَه » بالفارسيّة . ثمر شجر من الفصيلة الكومبريتية ينبت في جزائر الهند الشرقية والملايو اسمه النباتي Terminalia citrina, roscb وبالانكليزية Hara Nut وبالفرنسية Myrobalan Citrin وهذا الشجر يستعمل في الدباغة والصباغة وإذا أخذ ثمره يابساً أحدث اسهالاً خفيفاً .

﴿ الأمْبَرْبَارِيْس ﴾ يوناني معرّب ويقال « الأنْبَرْبَارِيْس » و « البَرْبَارِيْس » وبالفارسيّة « الزرشك » شجيرة ذات شوك من الفصيلة البَرْبَرِيسيّة تنبت بريّاً في أوربا وتزرع أيضاً في الحدائق والسياج للتزيين وبالأخص عندما تكسوها وفرة من الأزهار الصفر أو الثمار الحمر اسمها النباتي Berberis vulgaris, L. وبالانكليزية Barberry وبالفرنسية Epine—vinette . والثمار رطبية حامضة لاشتمالها على الحامض الأوكساليك ولذلك يرغب فيها بايطاليا وغيرها لعمل المربّيات . وجذرها المغليّ في ماء القلي واللحاء الداخلي من ساقها ينتجان صِبغاً أصفر فاخراً ويستعملان دواءً قابضاً .

﴿ الإِيكَر ﴾ فارسي معرّب ويقال له باليونانية « أقارون » akaron وهو « الوَجّ » و « قَصَب الذريرة » في مفردات ابن البيطار نبات كالبَرْدِيّ من الفصيلة القلقاسية ينبت في المنطقة الشمالية المعتدلة اسمه النباتي Acorus Calamus, L. وبالانكليزية Sweet Flag وبالفرنسية Acore Odorant; Roseau Odorant أرومته عطرية تدخل في صنع مسحوق الشعر وفي الطيوب الأخر وبالعو الحلويّات يصنعون منها قَنْداً وتدخل في صناعة الشراب المعروف « بالجِنّ » وفي الجعة (البيرة) . واذا سحق النبات بأ كله فاحت منه رائحة طيّبة وهو ضرب من الأدوية .

وقد يطلق الايكر أحياناً على أصل نبات آخر من جنس السَوْسَن من الفصيلة السوسنية ينبت في أوربا وشمال آسيا اسمه النباتي Iris Pseudacorus, L. وبالانكليزية Yellow Iris وبالفرنسية Iris des Marais تستعمل بزوره المحمصة عوضاً عن القهوة وهي مدرّة للبول ومسهلة ومقيئة.

باب المراسلة والمناظرة

لبنان ومصر (١)

النص الرسمي للخطاب الذي ألقاه صاحب العزة الدكتور طه حسين بك في الحفلة التكريمية التي أقامها له معالي نائب رئيس مجلس الوزراء وزير التربية الوطنية الأستاذ حبيب أبو شهلا .

سيدي صاحب الدولة الرئيس ، سيدي صاحب المعالي الوزير ، سادتي :

يقول المثل العربي القديم : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . ولم أشعر قط بصدق هذا المثل كما أشعر به الآن . فقد كنت أعلل نفسي سعيداً بأن أهل هذه البلاد الكريمة يحسنون الظن بي ويضيفون إليّ شيئاً من فضل، لأنهم يسمعون بي أكثر مما يرونني . ثم أراد فضلكم العظيم أن تستقبلوني وتحتفوا بي هذه الليلة وتفضل معالي وزير التربية والتعليم فأهدى إليّ هذا الثناء الجميل الذي سمعتوه وها أنا ذا أنهض لأؤدي بعض ما يستوجب هذا الفضل من الشكر، فاذا أنا مقصر لا أقدر على شيء، ومفحم لا أجد ما أقول، ومصدر هذا العي أمران : أولهما اني أعجز الناس عن الشكر حين تهدى إليّ النعمة ، ويسدى إليّ الجميل، لأني أرى كل ما يقدم إليّ من فضل أعظم مما استحق وأجل من أن ينهض به الشكر . فأنا في رأي نفسي أقل جداً مما يظن الذين يتفضلون عليّ بالثناء . وثقوا بأني لا أقول هذا تواضعاً ولا تكلفاً للتواضع ، وإنما هو رأيي في نفسي وفي كل ما يصدر عني من قول وعمل . وأقسم ما أتيت شيئاً من الأمر وما قلت شيئاً وما كتبت شيئاً إلاّ وهو في نفسي أقل مما كنت أريد وأهون جداً مما يرى الناس فيّ ومما يتفضلون به عليّ من ثناء . الأمر الثاني: أني لا أرى نفسي إلاّ فرداً من الأفراد ، وعمل الأفراد مهما يكن أهون من أن يحفل به أو يؤبه له . لذلك أعتقد أن ما تتفضلون به عليّ الليلة من احتفاء إنما هو موجه إلى مصر . ومن حق لبنان أن يكون بمصر حفياً ، ومن حق مصر أن تحتفي بلبنان ، فان الأمر بينهما على ما فيه من رفع الكلفة خليق بالاكبار حقاً . فهذان الوطنان الكريمان قد تعاونا دائماً على الخير ، وتظاهرا دائماً

---

(١) للدكتور طه حسين بك قالها في حفلة تكريمه في لبنان

على تحقيق المنفعة الانسانية الكبرى ، وأؤكد لكم ان التعاون الخصب بين مصر ولبنان أقدم عهداً وأبعد مدى مما يظن المتعجلون في الحكم .

فنحن لا نكاد نرى وطنينا في فجر التاريخ القديم إلاّ متعاونين على الخير متظاهرين على نشر الحضارة والثقافة . ولقد كانت ممفيس والاسكندرية يعملان على نشر الحضارة والثقافة والمعرفة متعاونتين على ذلك مع صور وصيدا كما تتعاون القاهرة الآن مع بيروت على نفس هذا الغرض النبيل . فالود بين مصر ولبنان قديم، والتعاون بين مصر ولبنان بعيد المدى، عظيم الخطر، لا يقتصر نفعه عليهما وحده . بل يتجاوزهما إلى جميع الأوطان التي تحب الحضارة وتريد أن تنتفع بها . وما دام الأمر قد جرى على هذا النحو في الماضي فمن الطبيعي أن يجري عليه إلى أبعد آماد المستقبل ، فانه قانون طبيعي من قوانين الجوار بين هذين الوطنين الكريمين . فلا غرابة اذاً في أن يتبادلا الثناء، ويتهاديا العروف،ويقدرا كل منهما لصاحبه نصيبه في تحقيق المنفعة الانسانية العليا .

وقد تفضل حضرة صاحب المعالي وزير التربية والتعليم فأثنى على ما لي من مشاركة في الهدف ومن حظ في الانتاج الثقافي والأدبي . فاسمحوا لي أن أعيد عليكم حقيقة من الحقائق الأولية في تاريخ الأدب العربي الحديث ، ولكني أرى أن تكرارها واجب لأنه أداء للحق واعتراف بالفضل لاصحابه ، وهي أن الأدب الحديث في مصر وفي الشرق العربي كله مدين بنهضته لعلمائكم وأدبائكم الذين سبقوا في القرن الماضي إلى العناية بدرس الأدب العربي القديم واحيائه كما سبقوا الى توثيق الصلة بين العقل العربي الشرقي والعقل الاوربي الغربي. وأنا رجل أنفقت حياتي في التعليم وتعوّدت ألاّ أرسل الأحكام عفواً دون أن أقيم عليها الأدلة . وما أحب أن القي عليكم الآن محاضرة في تاريخ الأدب العربي الحديث فانما يكفي أن أذكر بعض الأسماء فذكرها يغني عن كل دليل . يكفي أن أذكر اليازجي والبستاني وصرّوف وزيدان وأن أذكر الضياء ودائرة المعارف وترجمة الالياذة والمقتطف والهلال . فهذه الأسماء كلها واضحة الدلالة على ما قلت من أن علماءكم وأدباءكم سبقوا الى احياء الأدب العربي وتحقيق الصلة بينه وبين الآداب الأوربية الكبرى . فمن زعم لكم من أدباء الشرق العربي المعاصرين انه ليس مديناً للبنان بشيء من أدبه ، فهو منكر للحق كافر للنعمة جاحد للجميل

سادتي : ان كثيراً من الناس يزورون بلادكم الجميلة في فصل الصيف ويلتمسون فيها الراحة والاستمتاع بجمال الطبيعة ،وأنا أشاركهم في هذا ، ولكن أخص نفسي بمتعة لا يكاد يشاركني فيها أحد . فأنا لا استمتع في بلادكم بطبيعتها الرائعة ونسيمها العذب وثمراتها المختلفة المتشابهة فحسب ، وانما استمتع فيها بأدب رائع غض فيه لذة للنفس وحياة للقلب

وتغذية للعقل . وإذا كان الجيل المعاصر قد أعرض عن سنة الجيل الماضي في احياء الأدب القديم والتعمق في دراسته ، فانّ له من الأدب الرفيع حظًّا عظيماً سواء في ذلك الشعر والنثر . ثم انا لا استمتع بأدبكم الذي يتخذ اللغة الفصحى أداة للتعبير فحسب، وانما استمتع بأدبكم الشعبي الرائع الدقيق النفاذ .

فاذا أثنيتم عليّ بأن لي حظًّا من أدب ، فانما تثنون على أنفسكم ، لأني مدين لكم بهذا الأدب . وكم كنت أريد أن أؤدي اليكم بعض ما لكم من حق، وأن أشكر لحضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية فضله العظيم ، ولحضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء عطفه الكريم، ولحضرة صاحب المعالي وزير التربية والتعليم كرمه الجم وثناءه العذب وجميله الذي طوقني به تطويقاً معنويًّا قبل أن يطوّق عنقي به تطويقاً ماديًّا كما ترون ، وللبنان كله هذه الأيام السعيدة التي أقضيها فيه ، ولكني كما ترون عاجز عن أن أبلغ ما أريد . وأنا مع ذلك معروف بطول اللسان ، ولكن ربّ نعمة قصرت أشد الألسنة طولاً ، والواقع أن نعمكم قد أفحمتني فليتولّ الله شكركم عني فانه على ذلك قدير .

حول كتاب محمد عبده

للدكتور عثمان أمين

حضرة رئيس تحرير المقتطف

قرأت في باب مكتبة « المقتطف » (ص ١٨٥ عدد فبراير سنة ١٩٤٥) ما تفضلتم فخصصتم به كتابي عن « محمد عبده » الذي ظهر في مجموعة أعلام الإسلام منذ شهور .

وإني مع وافر شكري لجميل عنايتكم بالكتاب وحسن ظنكم بمؤلفه ، أرجو أن تسمحوا لي بكلمة موجزة ردًّا على بعض الملاحظات التي أوردتموها في آخر المقال .

لاحظتم أنني لم أتعرض في كتابي للكلام عن صلة محمد عبده بالحركة العلمية التي ظهرت في الغرب وفي الشرق بقيام مذهب التطور والنشوء . وهذا حق ، فإنني أغفلت الكلام عن هذه المسائل وأشباهها في مذهب محمد عبده ، لأنني إنما أردت أن يكون كتابي في « أعلام الإسلام » تجليةً لسيرة الأستاذ الإمام . أما الخوض في فلسفة محمد عبده وآرائه الدينية والاجتماعية ، فقد جعلت له مؤلفاً آخر مستفيضاً ، كتبته بالفرنسية منذ سنوات في « آراء محمد عبده الفلسفية والدينية » وهو البحث الذي قدمته إلى جامعة السربون لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة ، وتقوم الآن بطبعه وزارة المعارف .

وقلتم حضرتكم ، في معرض الكلام عن موقف الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني من أنصار مذهب « التطور » إن « الخطوة التي خطاها السيد والشيخ كانت خطوة علمية ولكن إلى الوراء ... والحق إن الكلام في ذلك كان خارجاً عن مجالها ، فلم يصيبا فيه ولم يوفقا في تقودها التي وجهاها إلى المذهب الذي قلب نواحي الفكر في القرن التاسع عشر » .

وملاحظتي على هذا القول أنه إن صحَّ إلى حدٍّ ما بالقياس إلى السيد جمال الدين ، فليس يصح مطلقاً بالقياس إلى الشيخ محمد عبده : فإن الاستاذ الامام كان موقناً بحقيقة التطور ، مناصراً له على نحو لم يسبق اليه . وأكثر من هذا أنه أراد ان يطبق معاني ذلك المذهب ، ولكن في صورة روحية ، على العقائد الإسلامية ، وأن يجعل له في تفسير القرآن نفسه مكانة ظاهرة ، وهذا ما أخذه عليه بعض المحافظين من الأزهريين . بل إن للشيخ نظرية طريفة في فلسفة التاريخ الديني ، يتجلى فيها هذا الاتجاه بوضوح ، وقد نتناولها بالعرض والنقد في فرصة أخرى . وهذا وكثير غيره قد بسطته في بحثي الفرنسي الذي أشرت إليه ، وستظهر ترجمة له عن قريب .

بقي أنكم استدركتم على لفظ « اللاهوتي » الذي استعملتهُ وصفاً للاستاذ الإمام باعتباره صاحب مذهب في الدين . وقد آثرتم حضرتكم أن يترك هذا الاستعمال للكلام في اللاهوت المسيحي ، وذهبتم إلى أنه « لا يوجد لاهوتية في الإسلام ، ولا يوجد لاهوتيون عند المسلمين » .

ولكني أعرف أن الدين شيء واللاهوت شيء آخر ، وأن الدين يسبق اللاهوت : ذلك أن الانفعال الديني وإدراك الأمور الإلهية بالحدس الغامض ، عملان سابقان على عمل الفكر الذي يروّي ويتأمل مسائل الدين . فاذا صح أن في المسلمين ، كغيرهم من أهل الأديان ، مَنْ يشعر شعوراً دينيًّا ، ومنهم مَن يفكر في المسائل الدينية تفكيراً عقليًّا ، فلست أرى وجهاً لأن نقصر استعمالنا للاهوت على التفكير في الدين المسيحي . (١)

ولعلكم حسبتم أن اللفظ لم يستعمل في لغتنا العربية كما استعمل في اللغات الأفرنجية . ولكن الواقع أن لدينا نصوصاً كثيرة ورد فيها ، وبخاصة عند المشتغلين بتاريخ الملل والنحل من مؤلفي العرب . يضاف الى ذلك أن لأهل التصوف من المسلمين نظريات معروفة في

(١) من غرائب الصدف اني وجدت حضرة الاستاذ نفسه ، في كتاب له ، يصف الشيخ محمد عبده بقوله « كبير لاهوتيي مصر في القرن الماضي » (« ملتقى السبيل » ص ١١٢) .

التفريق بين ما يسمّونه « عالم اللاهوت » و « عالم الناسوت » .. الخ ، ولا يسمح المقام بالخوض فيها . فاذا كان اللفظ مستعملاً في اللغة العربية ، وكان المعنى الذي يؤديه معنىً عامّاً لا يقتصر على دين خاص ولا يختص بملة بعينها ، فلِمَ العدول عنه إلى غيره ؟

ولا يسعني أخيراً إلاّ أن أوجه أصدق التحية والتقدير لأدبكم العالي في النقد ولفناتكم البارعة في العرض والسلام

دكتور عثمان أمين

تتمة لبحث العرب عرفوا أميركة

جاءنا من حضرة الأب أنستاس ماري الكرملي الكلمة الآتية :

زارني الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي ، من كتبة دار الكتب المصرية في ٢٠/١/١٩٤٥ فذكرت له ان مجلة المقتطف تنشر مقالا في جزء فبراير عنوانه : « عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب » . فقال : وهل ذكرت في هذا الصدد ما جاء في الجزء الأول من مسالك الأبصار ص ٣١ المطبوع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٤ ؟ قلت لا . وما هذا النص ؟ قال : سأنقله لك نهار غد وأبعث به اليك . وفي اليوم جاءني ودونك نصه :

﴿ تخيل علماء الاسلام لوجود أميركة قبل اكتشافها بقرن ونصف ﴾

« وقال شيخنا فريد الدهر أبو الثناء محمود بن أبي القاسم الاصفهاني امتع الله به .

« لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا ، منكشفاً من الجهة الأخرى . وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة ، لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا ، أو من أنواع وأجناس أخرى[1] والذي ظهر لنا من ذلك عقلاً ونقلاً ذكرناه . وبالله التوفيق .

هذا ما ورد في الجزء الأول من مسالك الأبصار وتعليق المرحوم شيخ العروبة زكي باشا على هامش ما أورده . فأرجو إحقاقاً للحق وخدمة للتاريخ الاشارة إلى هذا . وتفضلوا بقبول وافر الاحترام

محمد عبد الجواد الأصمعي
بدار الكتب المصرية

---

(١) : للاصفهاني (وهو بمصر) فضل السبق على كرستوف كولومب (وهو بالاندلس) لانه قال بهذه النظرية بقرن ونصف قرن . وللاصفهاني فضل أكبر على مكتشف أميركا ، لانه تخيل وجودها بقوة الفطنة والاستدلال . وأما كولومب فتخيل فقط وجود طريق جديد يوصل للهند من جهة الغرب . توفي أبو الثناء في سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨) م وأما كولومب فقد اجتهد في اقناع فردينند وايزابلا صاحبي الاندلس بصدق نظريته في سنة ١٤٩٢ ميلادية (الموافقة لسنة ٨٩٨ هـ)

مكتبة المقتطف

خمسة كتب للاستاذ اسعاف النشاشيبي بك

١ — قلب عربي وعقل أوربي

خطبة ألقيت في دار الجمعية الأميركية في بيروت سنة ١٩٢٤ ، وكأني بالاستاذ الكبير قد تنبأ في هذه الخطبة بما سيحدث في العالم العربي من الأحداث الجسام بعد عشرين سنة . فقد رأينا كيف يعمل العرب على اقامة جامعتهم العظمى بقلوب عربية وعقول أوربية ، فاجتمع للعرب بذلك مجد العمل على نشر ما اندثر من قوام العرب والعروبة ، مسايرين في ذلك مقتضيات المدنية الأوربية الحديثة . ولعمري إن في هذا لحياة كم تمناها العرب وكم حلموا بها منذ أجيال ، فاذا حققت اليوم فان تحقيقها إنما يرجع الى القلوب التي حنت عليها والعقول التي فكرت فيها ، وأستاذنا النشاشيبي بقلبه العربي الكبير وعقله الأوربي الناضج أحد الذين مهدوا بأرواحهم الكبيرة سبيل هذه الجامعة .

وقد رمى في خطبته هذه الى الاستمساك بأهداب المدنية الأوربية والعكوف على درسها واستيعاب روحها العليا — فانها على حد قوله — الملجأ الذي يحمينا عفاريتها والقوة التي تبعد عنا شرهم وضرهم وتجلب علينا خيرهم قال :

«فالعربي الذي يكرّه الينا هذه المدنية ويثلب علمها ونظامها وفنها ويسخر من روادها، لا يروم أن نحيا في هذا الوجود أو أن نسود ، بل يريد أن نبيد ، أو أن نعود في الناس مثل العبيد . وهذا عدو ، وما تمنى عدو لعدوه خيراً . والعدو تحرز منه وإن نصح ففي نصحه ريق الحية . أو صديق ضال . جهل الحال فقال . واذا حمق صديقك ، أو ضيع عقله ، فتصدق به على ابليس »

٢ — مقام ابراهيم

خطبة القيت في حفلة التأبين الكبرى التي أقامها رجال الكتلة الوطنية في الشام لفقيد العرب البطل المجاهد ابراهيم هنانو، وهو قائد الثورة السورية في أعقاب الحرب العظمى، فلما هدمت قنابل الفرنسيين أنحاء من دمشق خرج ابراهيم الى البادية ومعه أبطال من العرب شنوا عليهم الحرب، ثم نزل فلسطين بوعد من الانجليز، انه آمن فيها، ثم سُلّم برغم ذلك الى السلطات الفرنسية، فقتل ومات بطلاً جديراً بما في دمه من نخوة اجداده الأولين.

وهذه الخطبة مرثية تفيض ايماناً وقوة ووطنية جديرة بأن تصدر من قلم رجل يعد في عصرنا هذا من طراخنة الأدب المقدمين.

***

٣ — العربية وشاعرها الأكبر احمد شوقي — اللغة العربية والاستاذ الريحاني — العربية في المدرسة

ثلاثة موضوعات تناولها هذا الكتاب الفذ وغرضها هدف واحد، هو أن اللغة العربية لغة مدنية لا لغة بدوية. والمعنى المرموق من هذا ان اللغة العربية فيها القدرة على خدمة المعارف والعلوم والفن والحكمة، وانها قادرة كل القدرة على مسايرة المدنية الحديثة كما سايرت المدنية التي سبقتها، وانها كما استطاعت أن تنقل كنوز اليونان والرومان ووسع صدرها أعظم نتاج أخرجه الفكر الانساني في المدنيات القديمة، كذلك هي تسع نتاج الفكر الحديث. وفي الواقع أن هذا القول صحيح من جميع الوجوه، وان الذين يذهبون غير هذا المذهب، إنما هم بعيدون عن العربية وعن أسرارها المغيبة في بطون الكتب. وقد ضرب الاستاذ على ذلك الأمثال وساق من الأقوال ما يقنعك بأن لغة العرب أوسع اللغات، جميعاً وأعمرها بالمفردات والأساليب.

***

٤ — البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي

هذا الكتاب صرخة داوية خرجت من أعماق قلب يؤمن بالاسلام والعرب. ففي بحثه الأول في صلاح الدين الأيوبي يريك كيف انتصر العرب المسلمون على أهل الحروب الصليبية في وقعة حطين، وهي الوقعة التي قضى فيها جيش الشرق على جيش الغرب. وفي بحثه الثاني قرن شاعرنا شوقي بالشاعر الخالد العظيم أبي الطيب احمد بن الحسين المتنبي، وأظهر بأدبه الجم وسعة علمه، ان الشاعر شوقي هو سيد شعراء العصر غير منازع، وساق الكلام في بحثيه

سوق العارف المطلع ، فأبرز فيها صوراً لو ترجمتها ريشة الفنان في لوحات لخرجت فناً رائعاً يهزّ نفسك ويبعث فيك روح العرب والعروبة ، روح الحرية التي دان بها العرب منذ أقدم عصورهم ، تلك الحرية التي كانت قبل الاسلام وبعده ، وقبل النصرانية وبعدها ، وقبل الموسوية وبعدها ، طابع العرب الخالد ، وستظل طابعهم إلى آخر الدهور .

***

٥ — البُستان : كتاب الاستظهار للمدارس الأولية والابتدائية

هذا الكتاب نسيج وحده بين الكتب التي عُني أصحابها بتهذيب الطلاّب الناشئين . وهو نسيج وحده لأنه من صميم أدب العرب المأثور ، ومن كلام فصحاء العرب شعراء وناثرين ، وهو بنسجه هذا خير ديوان يدخل أدب العرب في نفس الناشىء غير محسٍّ انه من مأثورات الأدب القديم ، ويطبع ألسنتهم بأسلوب قويم صحيح العبارة مختار اللفظ . وحسبنا أن نقول فيه أنه من اختيار أديب العرب ، من أدب العرب ، لأبناء العرب .

ولا جرم اننا إذا دعونا المربين إلى الانتفاع بهذا الكتاب الثمين ، الذي يصح أن يكون متعة للناشىء والمتأدب معاً ، فانما ندعو واثقين أن خير ما يربّي العربي أدبه ، وخير ما يسوّد العربي روحه . وفي هذا الكتاب من أدب العرب وروح العرب ، ما يكفل الناشىء تربية عربية صحيحة .

التعليم الريفي والزراعي في تركيا الحديثة

بقلم حسن احمد السلمان : مطبعة التفيض الاهلية — بغداد — ٦٠ صفحة من القطع الكبير

وقد تناول فيه الأستاذ مؤلفه ناحية من النواحي التي نجح اخواننا الأتراك في معالجتها نجاحاً مقطوع النظير ، والكتاب من أنفع الكتب التي تنير سبيل نشر التعليم الذي يحتاج اليه أهل الريف مقروناً بمعلومات قيمة في الزراعة المحلية . وهذا ضرب من الاصلاح يجب أن يصرف فيه من الجهد والمال ما يجدر بأمم الشرق جميعاً أن لا تضن به . وقد عرض فيه مؤلفه الفاضل الى التعليم الريفي الابتدائي وأتى على قانون التعليم الريفي ومنهج التعليم وبناء المدارس الريفية ولوازمها وأثاثها والامتحانات والتفتيش على المدارس ومميزات التعليم الريفي ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الكلام في معاهد اعداد معلمي الأرياف ثم إلى الكلام في التعليم الزراعي المتصل بالتعليم الريفي .

وقد حلّى الكتاب بكثير من اللوحات والجداول البيانية التي تتم الفائدة المرجوة منه . والواقع ان هذا الكتاب جديرٌ بأن يطلع عليه كل المشتغلين بنشر التعليم في الشرق العربي .

رابندرانات تاجور : والوحدة الروحية

بقلم محمود المنجوري — ١٠٢ صفحة من القطع الكبير —
طبع مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٤٣

الأدب الشرقي فلسفة روحية ، والأدب الغربي فلسفة مادية . وفي أدب طاغور المثل الأعلى لأدب الشرق الروحي . وفي فلسفة نيتشه وأضرابه المثل الأعلى لأدب الغرب المادي. وبين الأدبين ، وان شئت فقل بين الفلسفتين ، ذلك الصدع الذي تلمسه في هدوء النفس الشرقية وتساميها عن الماديات ، وفي ثوران النفس الغربية التي تغلي الآن مراجلها في أكثر قارات الأرض . ولقد أرسل طاغور من قبل نبوءته الكبرى ، نبوءة ان الغرب اذا لم يعد الى فلسفة الروح أكلته المادة ، وسوّت عليه القوة الغاشمة ، وطاحت به مطامع النفوس الغليظة . ولا شك في أن هذه الحرب التي رمى مشعلوها الى استعباد أهل الأرض وتسخيرهم لمطامع المادة ، قد ضربوا المثل وزوّدوا الغرب بالموعظة ، فكانت أول صرخة من الغرب نسمعها إبان الحرب ، إنما هي صرخة الحرية التي هي عنوان الروح ، بل استصرخ الغرب أمم الشرق، ورجع زعماؤه الى مبادىء الانسانية العليا ، يقولون بأنها نصيب الجميع وحق الجميع ، حق القوي وحق الضعيف ، حق الكبير وحق الصغير . لم يقولوا بذلك الا لما أدركتهم الغاشية ، غاشية الحرب والدمار والموت . بل قل غاشية المادية الخميسة . لم يسمع الغرب صوت الشرق ، بل انه لم يسمع صوت طاغور في تبتله إذ يتوجه الى الملأ الأعلى ينشد سلام الروح فيقول :

جُدْ عليَّ بشعاع مُنبثٍ من كَدَّات غفرانك وأيقظ روحي .

أو وهو يقول :

يا مهيمناً على جميع الأمم وإن اختلفت ألوانها ، وحّد بين قلوبنا وألهمنا تبادل المحبة .

لا أزيد على هذا شيئاً في التعريف بصفة هذا الكتاب الذي ينبغي أن يكون بين يدي كل انسان ينشد سلام النفس وصفاء الروح . انك إذا قرأت هذا الكتاب فانك لا تقرأ طاغور ، وإنما تقرأ الروح في أسمى معالمها وأزكى نزعاتها . انك لا تقرأ طاغور وانما تقرأ روحك إذ تستيقظ ، ونفسك إذ تتجلى وتشرق .

ولكني أزيد فوق ذلك كلمة في أسلوب الكتاب ، فان كاتبه الفاضل قد استمدّ الأسلوب الذي أداه به من إشراقة روحية ، فاض عليه بها الشاعر الالهي طاغور .

عطر ودخان

تأليف الكاتب القصصي المعروف محمود تيمور ، نشرته لجنة النشر للجامعيين

١٧٦ صفحة من القطع الصغير

مقالات قصيرة فيها الفن والقصة والخيال والوصف والتأمل . عالج فيها الاستاذ محمود تيمور كثيراً من نواحي الاجتماع وبرَّز التبريز كله في وصف بعض الشخصيات المعروفة من أهل هذا الجيل وإنك إذ تقرأ له ما تناول به هؤلاء ، لا تعرف ، إذا وضعت نفسك موضعه ، كيف تخلص من موقف بعد موقف وهو يتناول هذه الشخصيات ، فلا تحرج نفسك ولا تحرج صاحبك . ولكن الأستاذ تيمور يستطيع بلباقة القصاص الماهر أن يدور بك دورة فلا تلبث أن تجد نفسك أمام تيمور وصاحبه متصافيين متصافحين ، وكأنهما لم يقعا قط على مقدار ما يغضب من مقدار ما يرضي . وهذه مقدرة الفنان القاص الذي يعالج أعقد المواقف بلباقة العالم الرياضي ، الذي يضع أساس المعادلة الجبرية ، فلا تخرج منها الا بالنتيجة التي يبغيها . واني لأعلم علم اليقين أن غير تيمور ، لو تناول شخصية وأراد تحليلها ليصل الى مثل ما يصل اليه ، اذاً لتواثبا ثم فقأ الناقد عين المنقود ، وجدع المنقود أنف الناقد ، والجات الموقعة عن ضحيتين ، وقعتا على كل ما يغضب ، ولم يعرفا قط ما يرضي .

ولهذا الكتاب ميزة ما يكتب تيمور من سلاسة العبارة وحلاوة الأسلوب وهدوء الطبع ، وحبذا لو انتحى الاستاذ المؤلف هذا المنحى ، فانه ولا شك يضيف الى أدبه الجم أدباً عجيباً شهيّ المأخذ حلو الأداء .

الأخلاق والواجبات

للاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو مجمع فؤاد الاول للغة العربية ، ٢٣٠ صفحة من القطع الكبير

كتاب مدرسيّ في تهذيب أخلاق الناشئة الاسلامية يجمع بين حاجة المربيّ والمعلّم ، فيه كلمات جامعة وأقوال في الحِكَم والآداب ، وقد اقتصر فيه مؤلفه الفاضل على اقتباس ما ورد في الكتاب السماوي والحديث النبوي ، اللهم إلاّ ما جاء عرضاً من أقوال الحكماء ، مما يلتحم معناه مع معنى الآية والحديث . والكتاب مفرغ في قالب حسن وأسلوب سهل المأخذ قريب التناول ، وقد عُلّق عليه من الشرح والتفسير ما تستدعيه الحاجة ، ويتطلبه ذهن الطالع .

والكتاب من أثمن كتب التهذيب الخلقي ، وفيه من المثل ما يخاطب النفس والعقل ، وفيه من الحكمة ما يرضي الأديب وطالب الأدب .

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

الصمامات الكهربية

الصمامات الكهربية أنابيب مفرغة من الهواء كالتي يحويها المذياع — وهي تساعد على تسهيل النقل بوسائله المعروفة ، على اختلاف أنواعها . وسوف تصير منافعها من عوامل الانقلاب الذي ينتظر حدوثه عقب انتهاء الحرب الحالية ، ومنها أجهزة الرائد اللاسلكي (١) الصغيرة الحجم . وهذه تقوم بمنع اصطدام السيارات بعضها ببعض كما تحذر راكب السيارة من العربات التي تكون قادمة من طريق خفيّ مقاطع لمسيره .

مصابيح لاشارات المرور في السيارات

وستصبح لوحات أجهزة قيادة السيارات المركبة في صدورها ، محتوية على مصابيح كهربية صغيرة ذات ألوان حمر وخضر تقوم للسائق مقام « لافتات » المرور في الطرق العامة . وستكون هذه اللافتات مصحوبة بنغمتين موسيقيتين هما — قف — ومرّ « فلن تبقى حينئذٍ حاجة الى وجوب التفرس في مصابيح الاشارات التي قدامه ليستشرف (٢) أضواء المرور واشاراته التي ربما تختلط بلوحات الاعلانات الكهربية الملوّنة بغازات النيون والأرغون والزئبق . أما في الظلمة فتقوم البصاصات الكهربية التي تركب في السيارة باضاءة مصابيحها من تلقاء ذاتها حينما تجب إضاءتها . وبذلك يتمكن السائق من تلقي الارشادات الخاصة بسلامة مسيره عن طريق المذياع الذي تجهز به سيارته . وذلك عند دنوه من الموصلات الكهربية اللاسلكية المحلية (إريال) الساكنة في طوار (٣) الشارع الذي يسير فيه اذ تحل تلك الموصلات الخفية محل فوانيس اشارات المرور الشنيعة المنظر . أما السياح الذين يجوبون آفاق البلاد فعليهم تحويل زمام سياراتهم صوب الخط الأبيض الذي تضيئه لهم البصاصات الكهربية في طريقهم ، إقتداءً بقادة الطائرات الذين

---

(١) يرى كاتب هذه السطور أن خير ما يترجم به لفظ radar هو الرائد اللاسلكي (٢) استشرف الشيء رفع بصره لينظر اليه (٣) الطوار — ما كان بحذاء الشيء أو على حده — رتوار

يسترشدون في طيرانهم بالأجهزة الأوتوماتيكية التي توجههم الى أهدافهم . ولا غرو فالعيون الكهربية المنبثة على قوارع الطرق الرئيسية الأمريكية تضطلع الآن من تلقاء نفسها بتقدير سرعة كل سيارة تمرُّ بها وتعلنها توًّا للشرطة أو للسائقين أنفسهم ليرعووا عن مجاوزة السرعة المقررة . وذلك باشارات كهربية

الراديو المصور في السيارات

وسيحل يوم عقب الحرب الحالية يستطيع فيه صاحب السيارة طبع جريدة صغيرة الحجم إذ يكون مضطجعاً على مقعد سيارته وذلك بالموجات اللاسلكية

وكذلك يغدو في وسعه وهو بعيد عن العمران رؤية صور الوقائع والحوادث عن طريق الراديو المصور الذي تجهز به سيارته .

الراديو والاجهزة الكهربية في القطرات

وقد أذعنت حديثاً مجالس إدارات شركات سكك حديد الولايات المتحدة الأميركية لضغط أهالي بلادها الخاص باتخاذ الوسائل الفعّالة لمنع حوادث المصادمات المروّعة فأمرت بتركيب الراديو والأجهزة الكهربية في قطراتها ابتغاء سلامة ركابها . وكان ذلك نتيجة حادث فظيع ذهقت فيه أرواح كثيرة حينما أوفد رجال الاشارات (الأشرجية) لوقف قطرات سريعة كانت قادمة إلى إحدى المحطات (على خطوط مشغولة) فأخفقوا فوقعت الطامة . ولذلك ركبت في قطرات الشركة تليفونات لاسلكية لتخاطب بها القطرات بعضها بعضاً، كما تخاطب مركز الرياسة المشرفة على تسييرها . وبهذه الوسيلة يستطيع مهندسو القاطرات ومديرو القطرات الأتصال دائماً اتصالاً شخصيًّا وثيقاً بعمال القطرات القريبة منهم جميعاً . وهذا مما تترتب عليه سلامة الركاب ومنع تأخير القطرات ثم ابطال الطريقة العتيقة التي تقضي بإيفاد (الفرملجي) حاملاً فانوسه أو رايته محذراً من الخطر الداهم حيث يقطع ميلاً أو أكثر ويستغرق وقتاً ثميناً ريثما يعود . ومع أن كل سفينة وطائرة على اتصال دائم بالعالم وذلك بالتليفون والتلغراف اللاسلكيين فان عمال القطرات يصيرون في عزلة تامة عن المسكونة حينما تسير بهم قطراتهم ناهبة الارض نهباً . ومثال ذلك ان الراكب الذي يسافر من محطة نيويورك الى محطة شيكاغو بالقطار السريع الفاخر المسمى (الطيار) يتمتع بوسائل الراحة والرفاهية جميعها بيد انه يحرم في خلال تلك الرحلة ، الاتصال المباشر بآله وصحبه ، كمن يطوي البيد طيًّا على متون الابل . بينما الراكب الذي يحظى بالسفر في أحد القطارين الامريكيين « القرن العشرين » أو « برودواي ليمتد » يستطيع

في أثناء سفره مباشرة أي عمل من أعماله الضرورية مع عماله وعملائه في طول البلاد وعرضها وذلك بوساطة التليفون اللاسلكي المركب في قطاره. ولذلك وجه المخترعون الاميركيون همهم الى اختراع أجهزة كهربية للاشارات التي تحتاج اليها أشغال السكك الحديدية بغية تسهيل القطرات بلا أدنى تأخير، على عكس ما هو جارٍ الآن

التليفون اللاسلكي في قطرات البضائع

ومن التحسينات التي تمت هناك في قطرات البضائع، تركيب أجهزة للتليفون اللاسلكي توصل سائق القاطرة بعربة الفرملجي في القطار. وهي من ثمرات الحرب الحالية التي ستستعمل دائماً عقب انتهائها وذلك في القطرات المدنية.

المذياع في حجر استراحات المحطات

وحتى حجر الاستراحات في محطات سكك حديد المدن الصغيرة الخالية من وسائل الترويح عن النفس. ستجهز بأجهزة الراديو لاذاعة الموسيقى والاخبار التي تخفف عن روادها سأم طول الانتظار، وستكون تلك الاذاعات مصحوبة بمواعيد قيام السفن وعودتها، وبكل ما يهم الركاب الوقوف عليه في غضون أسفارهم في السكك الحديدية بحيث تتم هذه الأعمال جميعها بأقل النفقات إذ تستعمل فيها أجهزة التلغراف الحالية وأسلاكها دون إحداث اضطراب في عمل التلغراف العادي.

العيون الكهربية في أفنية بضائع المحطات

هذا وستركب أيضاً البصاصات الكهربية على خطوط عربات البضائع الواردة لتقوم من تلقاء نفسها حين دخول القطرات الحاملة البضائع الى المحطة بنقل أرقام كل عربة حين مرورها أمامها ثم تطبعها في سجل المشرف على فناء المحطة ولا سيما في الليالي الحالكة القارسة البرد فيستغنى بها عن العمال المختصين الذين يؤدون أعمالهم حاملين فوانيسهم لتضيء لهم الطريق وتبين أرقام تلك العربات ليقيدوها في السجلات الخاصة بها.

صمام الامن البشري

تعتمد الآلة البخارية العصرية اعتماداً كبيراً على الصمامات الاوتوماتيكية التي تؤدي وظائفها على خير وجه لكي تسير الآلة سيراً صالحاً وفق المرام. والواقع أن أتقن صمام في العالم هو الذي اخترعته الطبيعة فجاء صالحاً للأجسام البشرية كل الصلاحية وذلك منذ

بدء الخليقة حتى الآن وإلى الأبد أي من قبل أن يفكر أي مخترع في اختراع الآلات البخارية أو يحلم أي انسان بالمحركات الغازية وهذا الصمام البشري الذي يكفل سلامة الانسان هو « لسان المزمار أو اللهاة » . ولعلّ كثيرين من القراء يعرفون وظيفة ذلك العضو إذ هو كامن خلف الفم حيث يمرّ الهواء ويعترضه الغذاء . ووظيفة اللهاة هي القيام من تلقاء نفسها باغلاق القصبة الهوائية « قصبة الرئة » في كل مرة حينما نبلع الطعام ولو عجزت اللهاة عن الاضطلاع بتلك المهمة لاستطاعت خَنْقَنَا كلّ دقيقة من دقائق طعامنا . فهذا الصمام البشري يؤدي عمله الاوتوماتيكي إذن بغاية الاحكام خير من أي صمام اخترعه الانسان لأية آلة عرفت حتى الآن .

عوض جندي

ألغاز العلم

(تابع المنشور على الصفحة ٢٠٢)

وقد وجد علماء النبات والحيوان ، بعد ده فريز تباينات متعددة في أصناف شتى من النبات والحيوان . ولكن ما شاهده هؤلاء العلماء من التحولات الفجائية قليل لا يكفي لتعليل نشوء أنواع النبات والحيوان التي تعدّ بالملايين ، خلال القرون المتطاولة

ثم طلع فجأة على العالم منذ نحو ١٥ سنة ، بحث مُلَر وأقرانه في ما للاشعة السينية من تأثير في صبغيات الأحياء وما فيها من عوامل الوراثة . وأن هذا التأثير يسفر عن تحولات فجائية عجيبة في نوعها وعددها ، وانها تورّث . ومن ثمّ تقدم بعضهم برأي مؤداه أن الأشعة الكونية أشد نفاذاً عشرات المرات من الأشعة السينية ، فلعلها تؤثر في الأحياء فتحدث تغييراً في تركيب عوامل الوراثة فيها ، وأن تاريخ التطور يشير إلى ان ظهور الأنواع الجديدة سار سيراً بطيئاً بعد ظهور الحياة على سطح الارض . ثم أسرع تطور الاحياء فكثر ظهور الانواع الجديدة قبيل العصر الكبري (الجولوجي) وفي اثنائه . ثم تلا ذلك دور كان من أظهر مظاهره بطء التطور . ثم تلاه دور آخر أسرع فيه التطور . وهذا يمكن تعليله بأن الاشعة الكونية لا تأتينا من جميع انحاء الفضاء على السواء وان النظام الشمسي — ومنه الارض — كان في سيره السريع خلال الفضاء يخترق آناً منطقة تكثر فيها الاشعة الكونية فتؤثر في الاحياء كتأثير الاشعة السينية فتكثر الانواع الجديدة ويسرع التطور العضوي ثم يخترق منطقة أخرى تكون الاشعة فيها ضعيفة فيبطؤ التطور ويقل ظهور الانواع الجديدة

فالعلماء في فهم التطور أو أحد ركنيه — وهو ركن الصفات الملائمة للبيئة التي تورث — لا يزالون في اول التيه .

هدية المقتطف السنوية

لسنة ١٩٤٥

سبعة كتب في كتاب

قام المقتطف في حياته التي بلغت سبعين سنة ، وإلى جانب مجلداته التي بلغت ستة ومائة مجلد ، بخدمة أدبية لا تقل عن خدماته التي أداها للعالم العربي في حياته الطويلة بمجلداته تلك ، إذ جرى على أن يهدي مشتركيه كتاباً يعوّض به احتجاب المقتطف شهرين في نهاية كل سنة . وإذا استعرضت هدايا المقتطف منذ نشأته إلى اليوم وقعت على مكتبة كاملة في التاريخ الطبيعي والفلك والارتياد والكيمياء والموسيقى والأدب والقصص . وسيضم المقتطف إلى هذه الثروة الأدبية العلمية ثروة جديدة إذ يقدم لمشتركيه عن سنة ١٩٤٥ هدية ممتازة هي الجزء الثاني من كتاب

المنتخبات

بقلم العلامة الكبير احمد لطفي السيد باشا

الذي يضطلع اليوم برياسة مجمع فؤاد الأول للغة العربية بعد أن نشّأ جيلاً برمته عند ما كان رئيساً وموجّهاً لجامعة فؤاد الأول . هذا إلى مآثره الأدبية الأخرى التي يضفي بها على الأدب العربي لباساً جديداً بترجمة ارسطوطاليس ، يضاف اليها فصوله الباقية التي نشرها في « الجريدة » ومنها نستخلص هذه المنتخبات .

والجزء الثاني من هذه المنتخبات سبعة كتب في كتاب : وهذه موضوعاتها :

الكتاب الاول : في التربية والتعليم

التربية والتعليم — حالة التعليم عندنا — الى القائمين بالتربية والتعليم — مذاهب التربية — المذهب العلمي للتربية والتعليم

الكتاب الثاني : الى نواب الامة

الى نواب الأمة — حريتنا — الحرية ومذاهب الحكم — الاحزاب — حقوق الكافة وسلطة التشريع — حرية التعليم — حرية القضاء — حرية الصحافة — حرية الخطابة — حرية الاجتماع — مذهب الحرية مفيد للافراد وللامة جميعاً — خاتمة

الكتاب الثالث : مشاهدات عامة

اليأس — الحال الأخلاقية — حالنا الاقتصادية — حالنا السياسية — مشاهدة بسيكولوجية .

الكتاب الرابع : في اللغة العربية

التأليف باللغة العربية — الى الأمام : في اللغة أيضاً — اللغة العربية — رقوا لغتكم.

الكتاب الخامس : البنات والابناء

أبناؤنا وبناتنا — بناتنا وأبناؤنا — البنون والبنات — الى الفتيان : الوطنية.

الكتاب السادس : في التأمل

القدوة الحسنة — الآثار القديمة — آثار الجمال وجمال الآثار — ربيع الحياة — جني القطن — أول العام — الرجل السعيد — الرجل الصريح — زهر الربيع — الصداقة

الكتاب السابع : بحوث عامة

سلطة الأمة — في سبيل الارتقاء — الحرية — تضامننا — مصريتنا — المصرية — آمالنا — التقليد — سر تطور الأمم — الحرية الشخصية — خبز السجون — من أجل ذلك نطلب الدستور — حقوق الأمة — الكفاءة الاقتصادية — النظام الاقتصادي — وفاة فتحي زغلول باشا — وداع الوزارة — تأبين أحمد فتحي زغلول باشا — الحرب .

***

هذه سبعة كتب في كتاب تصلك هدية من المقتطف في آخر السنة . وسيتم طبع هذا الكتاب الفذ في حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير .

وترسل الهدية الى الذين سددوا قيمة الاشتراك عن سنة ١٩٤٥ وللمشتركين الجدد عن سنة كاملة . وثمن الكتاب لغير المشتركين أربعون قرشاً مصرياً بخلاف البريد .

من بحوث مقتطف ابريل

ألغاز العلم : فؤاد صرّوف

بلاد العرب للعرب
الاخلاق وتناسخ الشخصيات } اسماعيل مظهر
الضمان الأخلاقي

سر ارثر ادنجتن : قدري حافظ طوقان

اصلاح الخط العربي : دكتور متى عقراوي

كنوز الصحاري المصرية : عبد الحليم الياس نصير

المذهب الشيعي قبيل الدولة الفاطمية وفي أيامها : عطية مصطفى مشرفة

طابع السياسة الدولية بعد الحرب : صلاح الدين الشريف

الاتحاد القومي — داؤه وأدواؤه : ادوار مرقص

نشأة سيادة مصر على البحار : ابراهيم يوسف

الأحلام والروح : أحمد فهمي أبو الخير

بطاقات الوحدة
الواجب } قصتان

الريف والزراعة في الولايات المتحدة : وديع فلسطين

راقصة الفالس (قصيدة) : عدنان مردم بك

من أنواع النبات : محمود مصطفى الدمياطي بك

باب المراسلة والمناظرة

باب المكتبة

باب الأخبار العلمية

وبحوث أخرى

فهرس الجزء الثالث

من المجلد السادس بعد المائة

١٩٧ ألغاز العلم : لغز الورقة الخضراء ، لغز بدء الحياة ، لغز الملاءمة في الاحياء : فؤاد صروف

٢٠٣ على هامش الطب : الدكتور سليمان عزمي باشا

٢٠٩ مأثورات

٢١٠ العالم العربي . الحرية عقار أدوائه . إسماعيل مظهر

٢١٦ لحظة الصفر (قصة) : عن بوريس جورباتوف

٢٢١ الضمان الاجتماعي — مشروع بيفردج من ناحيتيه التاريخية والاجتماعية

٢٢٦ حديث ذو شجون

٢٢٧ الدبلوماسية البابوية في محيط السياسة الاوربية : صلاح الدين الشريف

٢٣٤ الريف والزراعة في الولايات المتحدة الأميركية : وديع فلسطين

٢٣٨ الزرمانقة وأصلها : للأب أنستاس ماري الكرملي

٢٤١ والسبعون وبلغتها

٢٤٥ اصلاح الخط العربي : دكتور متى عقراوي

٢٥٣ قيود (قصيدة) : محمود أبو الوفا

٢٥٤ تحقيق لغوي في مادة (تلمذ) : عبد السلام محمد هارون

٢٥٩ الخطايا العشر

٢٦٥ الاتحاد القومي داؤه ودواؤه : إدوار مرقص

٢٦٩ ارتياد جزيرة العرب : محمد عبد الغني حسن

٢٧٤ النباتات المتطفلة : رضوان محمد رضوان

٢٧٨ عدو الكذب (قصة) : عن فاتسلاف سولسكي ، نقلها حسين المهدي غنام

٢٨١ من أنواع النبات الطبي : محمود مصطفى الدمياطي بك

٢٨٣ باب المراسلة والمناظرة * لبنان ومصر . حول كتاب محمد عبده : للدكتور عثمان أمين . تتمة لبحث العرب عرفوا أميركا : محمد عبد الجواد الاصمعي .

٢٨٨ مكتبة المقتطف * خمسة كتب للاستاذ اسعاف النشاشيبي بك ١ — قلب عربي وعقل أوربي ٢ — مقام ابراهيم ٣ — العربية واحمد شوقي والريحاني ٤ — البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد احمد شوقي ٥ — البستان . التعليم الريفي والزراعي في تركيا الحديثة . رابندرانات تاجور والوحدة الروحية . عطر ودخان . الاخلاق والواجبات .

٢٩٣ باب الاخبار العلمية * من معجزات العلوم والفنون : لعوض جندي

٢٩٧ هدية المقتطف لسنة ١٩٤٥

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد السادس بعد المائة

١ ابريل سنة ١٩٤٥ — ١٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٤

ألغاز العلم

— ٣ —

صلة المادة بالاشعاع

ذهب نيوتن إلى أن الضوء دقائق أو ذرّات . وذهب هوجنس إلى انهُ تموجات. فراجت سوق الجدال بين العلماء ، واقترح أحدهم أن يؤتى بصندوق أسود من داخلهِ ، فيوزن أولاً ثم تسدّد اليه شعاعة من الضوء ثم يوزن بعد ذلك . فاذا زاد وزنهُ ثبت ان الضوء ذرّات وإذا بقي وزنهُ على ما كان عليهِ ثبت أن الضوء تموّج . فجرّبت التجربة وبقي وزن الصندوق على حاله لأن أدق المقاييس والموازين لا تستطيع أن تزن شعاعة من الضوء ، ولو كان الضوء ذرّات لها وزن أو ضغط . فرجح مذهب التموّج حينئذٍ وبقي سائداً الى أوائل هذا القرن حين أخذت البحوث تثبت شيئاً فشيئاً ان الضوء ذرّات (أقدار ، كوانتا) وأمواج أو هو لدى التحقيق ذرّات من الطاقة تسير سيراً موجيًّا .

وما حدث للضوء حدث للكهيرب . فانَّ العلماء أخذوا ينظرون اليهِ نظرهم إلى كتلة من الأمواج كما يؤخذ من تجارب دافيسون وطمسون ، وكما يستفاد من مباحث ده بروي ومن جرى مجراه ، وهي مباحث رياضية دقيقة أيدتها التجارب في المعامل .

فقد أخذ دافيسون الاميركي بلورة من النكل وسدَّد إلى صفحتها تياراً من الكهيربات فانحرفت بعض الكهيربات منها ، ولدي التحقيق وُجد أن هذا الانحراف يحصل في جهات معينة

دون غيرها . وبعد البحث الرياضي الدقيق وجد أنهُ لو كانت الكهيربات أمواجاً مسدَّدة إلى صفحة هذه البلورة ، لانحرفت عنها إلى الجهة التي انحرفت اليها الكهيربات ، دون غيرها .

وأخذ جورج طمسون (نجل ج . ج طمسون مكتشف الكهيرب) أغشية دقيقة شفافة من المعادن آناً ومن السلولويد آناً آخر ، وأنفذ خلالها تياراً من الكهيربات . ولما كانت أكثر المواد بلورية التركيب فقد كان عمل الأستاذ طمسون في الواقع ، إرسال تيار من الكهيربات في غشاء مكوَّنٍ من بلورات متعددة دقيقة ، بدلاً من أن يفعل ما فعله دافيسون من توجيه التيار إلى بلورة واحدة وحسب . وقد وضع طمسون لوحاً للتصوير الضوئي ، وراء الغشاء وعلى ١٢ بوصة منهُ ، فكانت الكهيربات تصيبهُ بعد أن تخترق الغشاء ، وكانت البلورات تفرق الكهيربات ، فحين تصيب الكهيربات لوح الضوء ، تترك أثراً فيهِ . فلما أخذ هذا اللوح وحمّض وثبت وجد أن أثر الكهيربات بيّن فيه ، وانهُ حلقةٌ أو نقط منتظمة في شكل حلقة . وهذا الانتظام يشبه أثر الأشعة السينية بعد أن تخترق طبقة رقيقة من بلورات الالومنيوم أي أن الكهيربات فعلت كفعل الأشعة السينية .

فالمسألة التي تحيِّر ألباب العلماء هي هذه : هل الضوء أمواج أو ذرَّات ؟ هل الكهيربات أمواجٌ أو ذرَّات ؟ فالضوء الذي نشأنا على حسبانهِ أمواجاً لهُ أحياناً صفات الأمواج . والكهيربات التي اتصفت بصفات الدقائق المادية ثبتت لها خواص وأسندت اليها أفعال تجعلها والأمواج سواءً . وتتلخص وجوه الشبه بين المادة والاشعاع في ثلاثة وجوهٍ رئيسية :

أولاً — اذا سقطت الأشعة المختلفة على سطحٍ نشأ من سقوطها عليهِ ضغط كما يحدث في حالة سقوط المادة على سطح . فالاشعاع الساقط على ورقةٍ يضغط سطح الورقة . كما لو كان الشعاع مصنوعاً من المادة . وهذه ظاهرة عرفت في القرن الثامن عشر . وسميت ظاهرة ضغط الضوء ، أو « ضغط الاشعاع » . وهو ضغط قليل جدًّا ، في نطاق العادة ، فضغط أشعة الشمس على ميلٍ مربع من سطح الأرض لا يزيد على ثلاثة أرطال . فأحرِ بهِ ، إذا حاولت تبيتهُ على سطح ورقةٍ ، أن لا يكون شيئاً مذكوراً . ولكن الضغط يزداد بازدياد شدَّة الأشعة وقِصَر موجتها . ولك — من الناحية النظرية وحسب — أن تسقط إلى الأرض لوحاً قائماً من الحديد ، بتوجيه أشعة قوية اليه ، ولكن حرارة هذه الأشعة تبلغ من الشدة مبلغاً يصهر الحديد قبل سقوطهِ .

ثانياً — ان للأشعة خواص الجسيمات الدقيقة ، فكأنما هي مؤلفة من ذرَّات ضوئية . وقد سميت هذه الذرَّات الضوئية « فوتونات » . وهذه ظاهرة تتجلّى في ما يقال عن الكهربية

الضوئية التي تستخدم في الأجهزة الكهربية الحديثة ، والتطبيقات الكهربية في الصناعة والحرب مثل العين الكهربية .

ثالثاً — ان المادة لها خواص موجية تشبه خواص الضوء الموجية . وما تتصف به المادة من خواص موجية لم يكن معروفاً قبل سنة ١٩٢٧ ويرجع الفضل في كشفه الى طمسون ورید في انكلترا ودافيسون وجرمر في أميركا . وهو يوحي بأن المادة والاشعاع ناحيتان لشيء واحد ، أو هما يرتدان الى أصل واحد ، او تصل بينهما صلة أساسية واحدة .

وهذا الشيء الواحد هو في نظر الدكتور علي مصطفى مشرفة — السرعة . فلندعه يتحدَّث في دعة العالم عن رأيه : « تقدمت أخيراً ببعض آراء يقصد منها التوفيق بين وجهتي النظر الى كل من المادة والاشعاع . . .

« من المعلوم ان القوانين الكهربائية المغنطيسية تصاغ عادةً في الصيغة التي تنسب الى مكسويل ، وفي هذه القوانين نستعمل عادةً لغتين مختلفتين احداهما للتعبير عن المادة ، والثانية للتعبير عن الاشعاع . فهل من الممكن استخدام قانون أكثر أساسية من قانون مكسويل ، أي أن نوحد بين اللغتين بحيث تنطبق العبارة الواحدة على كل من المادة والاشعاع . هذا هو السؤال الذي وضعته لنفسي وحاولت الاجابة عنه .

« وقد وجدت انه للاجابة عن هذا السؤال يكون من المفيد ان نحوّل المعادلات بحيث تعبر عن وجهة نظر شخصٍ متحرك بسرعة الضوء لكي يمكن مقابلة وجهة نظر هذا الشخص بوجهة نظرنا العادية . وانني أخشى ان يكون هذا التحويل الذي هو تحويل عادي جداً من الناحية الرياضية قد استرعى من الانتباه أكثر مما يجب . فمثلاً قارن اوليفر لدج في أحد مؤلفاته بيني وبين دين سويفت واضع كتاب رحلات جاليفر . ولكنني لا أعتقد أن هناك مسوغاً كبيراً لهذه المقارنة . فان كبلر عند ما حول حركات الكواكب السيارة الى ما تظهر عليه إذا نُظِر اليها من وجهة شخص على الشمس ، لم يكن يتطلب منا ان ننتقل الى الشمس نصطلي بسعيرها لكي ننظر الى العالم . وكذلك اذا أمكن تحويل معادلات مكسويل أو غيرها من القوانين ، بنسبتها الى محاور متحركة بسرعة الضوء ، فليس معنى هذا ان علينا ان نكون ملائكة مصنوعين من النور لكي يمكن لنا فهمها. وكذلك قرأت للاستاذ هولدين مؤلفاً أشار فيه الى آرائي هذه في علاقة المادة بالاشعاع فقال انها تنطوي على مبدأ فلسفي جديد ولكنني أفضل أن ينظر اليه نظرة جينز — على انها محاولة للتوحيد بين لغتين مختلفتين ، وقانونين مختلفين أحدهما يصلح للمادة والآخر للاشعاع ، وان نجعل منها لغة واحدة وقانوناً واحداً يصلح لكل من المادة والاشعاع » .

سر الخلية المتكاثرة

من ألغاز العلم التي تحيّر ألباب الباحثين في الطب وطبائع الأحياء ، لغز الخلية ، أو الخلايا ، التي تشذّ في نموّها ، على القيود والضوابط التي تقيد نموّ الخلايا الأخرى وتضبطهُ . وهذا النموُّ غيرُ المقيّد يحدث في أجسام البشر وسائر الحيوان والنبات ، فتصاب بعلة أطلق عليها اسم السرطان . وقد دانت طائفة كبيرة من الأمراض التي تصيب الأحياء ، للعقاقير وغيرها من أساليب العلاج ، ولكنَّ السرطان لم يزل مستعصياً ، بوجهٍ عام . إن علاجَهُ بالجراحة والأشعة السينية والراديوم ، قد يجدي إذا كان السرطان في بواكيرهِ ، وعلى سطح الجسم أو قريباً من السطح ، ولكن لو عُلِمَ أصل العلة ، وكيف تنحرف الخلية عن طريق النموّ المقيَّد إلى النمو الناشز والتكاثر الذي لاحدَّ لهُ ، لكان علاجها أحكم وأدنى إلى النجاح .

إن سرَّ النموّ في الأحياء ، قائم على انشطار الخلية . فالخلية الواحدة تنشطر خليتين سويتين ، والخليتان تنشطران أربع خلايا سويّة وهكذا . فمتى بلغ النسيج حدَّهُ السويَّ من النموّ ، توقفت الخلايا عن الانشطار ، إلاَّ في الحدود اللازمة ، لتعويض ما يهلك منها فضبط النمو في الخلايا ، على هذا الوجه ، تسيطر عليهِ ، فيما يُظَنُّ ، عوامل الوراثة في الخلية ، مشتركة مع الأتوار (الهرمونات) التي تفرزها الغدد الصمُّ . أما كيف تسيطر فهو ما يجهلهُ العلم الآن . وفي الحين بعد الحين تتمرَّد إحدى الخلايا على هذه السيطرة ، فتمضي في الانشطار ، إلى أن تتكوَّن كتلة منها غير سوية . وقد تبلغ في تكاثرها حدًّا تقف عندهُ ولا يعلم أحد لماذا تقف ولا كيف تقف . وقد يقفها عن استمرار النموّ ، العلاج بالأشعة السينية ، أو باشعاع الراديوم . أو قد تمضي لا يعوقها عائق ما إلى أن تقضي على الحياة .

ولما كانت العوامل الوراثية ، تسيطر على الحياة ، فقد سأل العلماء أنفسهم هذا السؤال : أيحدث في عوامل الوراثة انحرافٌ عن الطريق السوي يفضي إلى هذا التكاثر غير السويّ ؟ ولكن معظم خواص عوامل الوراثة ، خواص موروثة ، والعلماء يرون أن خواص الخلايا السرطانية ، أو معظمها على الأقل — ليست خواص موروثة . ولذلك يتجه الرأي بينهم إلى البحث عن سرّ هذه الظاهرة في الأتوار والخمائر (الهرمونات والانزيمات) . فاذا صدق نظرهم ، فعسى ان يجدوا للفيتامينات أثراً عظيماً في كلّ هذا . فللفيتامينات شأن كبير في ما يتمثلهُ الجسم من المواد الكيميائية ، وكيف يستعملهُ . وقد يكشفون أنَّ خطأً مُعيَّناً في التغذية ، يفضي إلى إبطال النظام الذي يسيطر على نمو الخلايا سيطرةً محكمةً .

فؤاد صروف

(البقية في آخر باب الاخبار العلمية)

جامعة الامم العربية

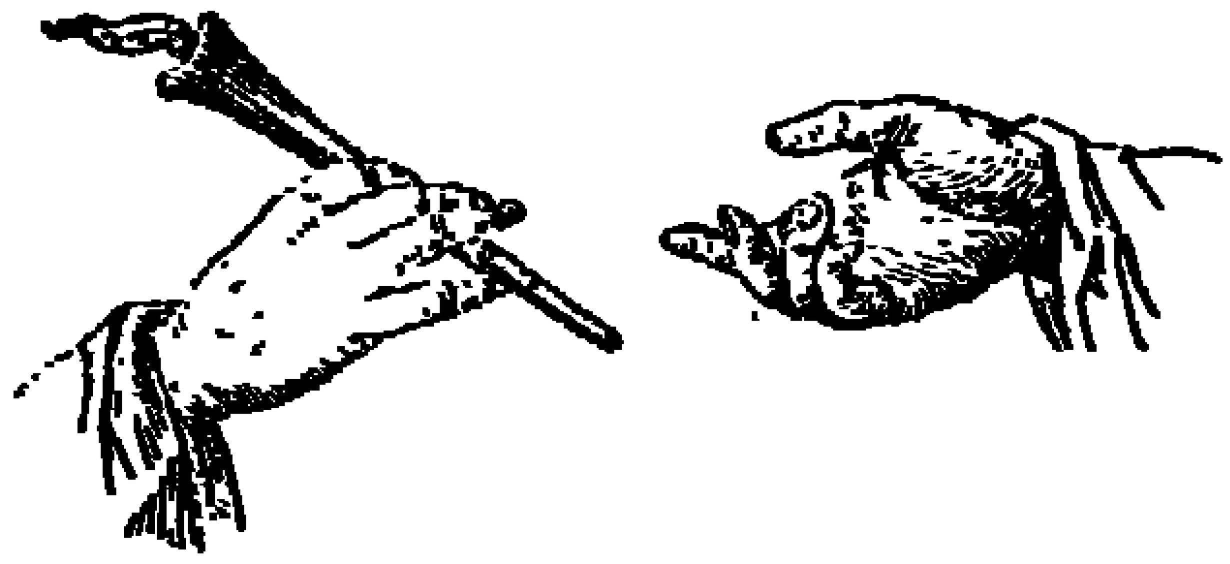

في الساعة الرابعة من مساء ٢٢ من مارس الماضي وقع مندوبو الدول العربية المستقلة ميثاق جامعة الدول العربية فأصبحت الجامعة حقيقة مادية واقعة . والمقتطف إذ يحيّي العرب من أعماق قلبه ونفسه ، ويعضي شديد الايمان بما سوف يتمخض عنه هذا الميثاق في المستقبل القريب من خير عميم وعزة قومية ترفع العرب الى ما كان عليه آباؤهم وأكثر ، يسره أن يثبت نص الميثاق تخليداً لهذه الذكرى التاريخية العظيمة

مادة ١ — تتألف جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة الموقعة على هذا الميثاق ولكل دولة عربية مستقلة الحق في أن تنضم إلى الجامعة . فاذا رغبت في الانضمام قدّمت طلباً بذلك يودع لدى الأمانة العامة الدائمة ويعرض على المجلس في أول اجتماع يعقد بعد تقديم الطلب

مادة ٢ — الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانةً لاستقلالها وسيادتها والنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها .

كذلك من أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها في الشؤون الآتية :

(ا) الشؤون الاقتصادية والمالية ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك والعملة وأمور الزراعة والصناعة .

(ب) شؤون المواصلات ويدخل في ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد .

(ج) شؤون الثقافة .

(د) شؤون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين .

(ﻫ) الشؤون الاجتماعية .

(و) الشؤون الصحية.

مادة ٣ — يكون للجامعة مجلس يتألف من ممثلي الدول المشتركة في الجامعة ، ويكون لكل منها صوت واحد مهما يكن عدد ممثليها .

وتكون مهمته القيام على تحقيق أغراض الجامعة ومراعاة تنفيذ ما تبرمه الدول المشتركة فيها من اتفاقات في الشؤون المشار اليها في المادة السابقة وفي غيرها .

ويدخل في مهمة المجلس كذلك تقرير وسائل التعاون مع الهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام ولتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

مادة ٤ — تؤلف لكل من الشؤون المبينة في المادة الثانية لجنة خاصة تمثل فيها الدول المشتركة في الجامعة وتتولى هذه اللجان وضع قواعد التعاون ومداه وصياغتها في شكل مشروعات اتفاقات تعرض على المجلس للنظر فيها تمهيداً لعرضها على الدول المذكورة .

ويجوز أن يشترك في اللجان المتقدم ذكرها أعضاء يمثلون البلاد العربية الأخرى . ويحدد المجلس الأحوال التي يجوز فيها اشتراك أولئك الممثلين وقواعد التمثيل .

مادة ٥ — لا يجوز الالتجاء الى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دول الجامعة . فاذا نشب بينها خلاف لا يتعلق باستقلال الدولة أو سيادتها أو سلامة أراضيها ولجأ المتنازعون الى المجلس لفض هذا الخلاف كان قراره عندئذٍ نافذاً وملزماً .

وفي هذه الحالة لا يكون للدول التي وقع بينها الخلاف الاشتراك في مداولات المجلس وقراراته .

ويتوسط المجلس في الخلاف الذي يخشى منه وقوع حرب بين دولة من دول الجامعة وبين أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها للتوفيق بينهما .

وتصدر قرارات التحكيم والقرارات الخاصة بالتوسط بأغلبية الآراء .

مادة ٦ — اذا وقع اعتداء من دولة على دولة من أعضاء الجامعة أو خشي وقوعه ، فللدولة المعتدى عليها أو المهددة بالاعتداء عليها أن تطلب دعوة المجلس للانعقاد فوراً .

ويقرر المجلس التدابير اللازمة لدفع هذا الاعتداء ويصدر القرار بالاجماع فاذا كان الاعتداء من احدى دول الجامعة لا يدخل في حساب الاجماع رأي الدولة المعتدية .

واذا وقع الاعتداء بحيث يجعل حكومة الدولة المعتدى عليها عاجزة عن الاتصال بالمجلس فلممثل تلك الدولة فيه أن يطلب انعقاده للغاية المبينة في الفقرة السابقة . واذا تعذر على الممثل الاتصال بمجلس الجامعة حقّ لأية دولة من أعضائها أن تطلب انعقاده .

مادة ٧ — ما يقرره المجلس بالاجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في الجامعة وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزماً لمن يقبله .

وفي الحالتين تنفذ قرارات المجلس في كل دولة وفقاً لنظمها الأساسية .

مادة ٨ — تحترم كل دولة من الدول المشتركة في الجامعة نظام الحكم القائم في دول الجامعة الأخرى وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدول وتتعهد بأن لا تقوم بعمل يرمي إلى تغيير ذلك النظام فيها .

مادة ٩ — لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعاون أوثق وروابط أقوى مما نصّ عليه هذا الميثاق أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض .

والمعاهدات والاتفاقات التي سبق أن عقدتها أو التي تعقدها فيما بعد دولة من دول الجامعة مع أية دولة أخرى لا تلزم ولا تقيد الأعضاء الآخرين .

مادة ١٠ — تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية ولمجلس الجامعة أن يجتمع في أي مكان آخر يعينه .

مادة ١١ — ينعقد مجلس الجامعة انعقاداً عادياً مرتين في العام في كل من شهري مارس واكتوبر وينعقد بصفة غير عادية كلما دعت الحاجة إلى ذلك بناءً على طلب دولتين من دول الجامعة .

مادة ١٢ — يكون للجامعة أمانة عامة دائمة تتألف من أمين عام وأمناء مساعدين وعدد كافٍ من الموظفين .

ويعين مجلس الجامعة بأكثرية ثلثي دول الجامعة الأمين العام . ويعين الأمين العام بموافقة المجلس الأمناء المساعدين والموظفين الرئيسيين في الجامعة .

ويضع مجلس الجامعة نظاماً داخلياً لأعمال الأمانة العامة وشؤون الموظفين .

ويكون الأمين العام في درجة سفير والأمناء المساعدون في درجة وزراء مفوضين .

ويعين في ملحق لهذا الميثاق أول أمين عام للجامعة

مادة ١٣ — يعد الأمين العام مشروع ميزانية الجامعة ويعرضه على المجلس للموافقة عليه قبل كل سنة مالية .

ويحدد المجلس نصيب كل دولة من دول الجامعة في النفقات ويجوز أن يعيد النظر فيه عند الاقتضاء .

مادة ١٤ — يتمتع أعضاء مجلس الجامعة وأعضاء لجانها وموظفوها الذين ينص عليهم في النظام الداخلي بالامتيازات وبالحصانة الدبلوماسية أثناء قيامهم بعملهم .

وتكون مصونة حرمة المباني التي تشغلها هيئات الجامعة

مادة ١٥ — ينعقد المجلس للمرة الأولى بدعوة من رئيس الحكومة المصرية وبعد ذلك بدعوة من الأمين العام .

ويتناوب ممثلو دول الجامعة رياسة المجلس في كل انعقاد عادي .

مادة ١٦ — فيما عدا الأحوال المنصوص عليها في هذا الميثاق يكتفى بأغلبية الآراء لاتخاذ المجلس قرارات نافذة في الشؤون الآتية :

(ا) شؤون الموظفين

(ب) اقرار ميزانية الجامعة .

(ج) وضع نظام داخلي لكل من المجلس واللجان والأمانة العامة .

(د) تقرير فض أدوار الاجتماع .

مادة ١٧ — تودع الدول المشتركة في الجامعة الأمانة العامة نسخاً من جميع المعاهدات والاتفاقات التي عقدتها أو تعقدها مع أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها .

مادة ١٨ — اذا رأت إحدى دول الجامعة ان تنسحب منها أبلغت المجلس عزمها على الانسحاب قبل تنفيذه بسنة .

ولمجلس الجامعة ان يعتبر أية دولة لا تقوم بواجبات هذا الميثاق منفصلة عن الجامعة وذلك بقرار يصدره باجماع الدول عدا الدولة المشار اليها .

مادة ١٩ — يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة تعديل هذا الميثاق وعلى الخصوص لجعل الروابط بينها أمتن وأوثق ولانشاء محكمة عدل عربية ولتنظيم صلات الجامعة بالهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام.

ولا يبت في التعديل الا في دور الانعقاد التالي للدور الذي يقدم فيه الطلب .

وللدولة التي لا تقبل التعديل ان تنسحب عند تنفيذه دون التقيد بأحكام المادة السابقة .

مادة ٢٠ — يصدق على هذا الميثاق وملاحقه وفقاً للنظم الأساسية المرعية في كل من الدول المتعاقدة .

وتودع وثائق التصديق لدى الأمانة العامة ويصبح الميثاق نافذاً قبل من صدق عليه بعد انقضاء خمسة عشر يوماً من تاريخ استلام الأمين العام وثائق التصديق من أربع دول

حرر هذا الميثاق باللغة العربية في القاهرة بتاريخ ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٤ (٢٢ مارس سنة ١٩٤٥) من نسخة واحدة تحفظ في الأمانة العامة .

وتسلم صورة منها مطابقة للاصل لكل دولة من دول الجامعة .

بلاد العرب للعرب

« اذا قال أحدنا « الجامعة الاسلامية » فانما يعني جامعة عربية روحها الاسلام ، واذا قال أحدنا « الجامعة العربية » فانما يعني جامعة اسلامية روحها العروبة . وكل قول يناقض هذا القول ، خطأ ، وكل نزعة تخالف هذه النزعة ، شعوبية خسيسة » .

هل آمنَّا ؟

لم نؤمن بعدُ . ولـكن أقول أسلمنا . ولمَّـا يدخل الايمان في قلوبنا .

إذا كان التسليم بضرورة العمل على انهاض بلاد العرب واقامة سالف مجدها الخالد على أساس من المدنية الحديثة ، هو أول خطوة في سبيل الايمان بحقنا الطبيعي في الحياة الحرة المستقـلة ، فنحن الآن ولا شك في أول مراقي الايمـان بأن بلاد العرب ينبغي أن تـكون للعرب وحدهم دون بقية خلق الله . ولن تكون بلاد العرب للعرب حتى نؤمن بأن لبلادنا العربية حقًّـا مقدساً معلقاً في عنق كل عربي وعربية ، حقًّـا ننشده أولاً في أنفسنا وفي أخلاقنا وفي عزتنا ، ننظر من خلاله إلى العالم القائم من حولنا نظرة المؤمنين بأننا أبناء أولئك الذين دانت لهم الأرض ، وأنها ينبغي أن تدين لنا ، أبناء أولئك الذين أقاموا أسس المدنية الحديثة ، وانها ينبغي أن تكون لنا ، أبناء أولئك الذين فتحوا الدنيا من حدود الصين إلى ضفاف بحر الظلمات ، وأن الدنيـا ينبغي أن تعترف بوجودنا وتشعر بأن عرب اليوم هم عرب الأمس ، هم ورثة محمـد وعمر وأبي بكر وخالد بن الوليـد وأمثالهم ممن حطموا أغلال العبودية في الجاهلية والاسلام ، وأقاموا أسس الحرية في عصر لم تعرف فيه الحرية ، واعترفوا بالمساواة بين الناس في عصر لم تعرف فيـه إلاَّ الفروق بين الأفراد والجمـاعات ، وشـيدوا صرح الاخاء في عصر لم يعرف فيه إلاَّ التباغض والتنافر والتدابر . أولئك الذين شرعوا للناس على قاعدة الفطرة لا على قاعدة الذات ، أولئك الذين

أنكروا ذواتهم فاستطاعوا أن يحققوا للانسانية ذاتيتها ، فأعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، علماً وعملاً . أولئك الذين اتسعت نفوسهم لأكبر قسط من التسمح الديني ذكره تاريخ البشر منذ كان للبشر تاريخ ، أولئك الذين قالوا لا فضل لعربي على عجمي إلاّ بالتقوى ، وان العبد الزنجي إذا علم ، فُضِّل على العربي إذا جهل ، أولئك الذين وضعوا أول قواعد السياسة العالمية ، وقضوا على سياسة القوميات ، في عصر لم تشرق فيه شمس الفكر الحر قبل أن يكونوا ، برهة واحدة من الزمان .

***

إذا أراد أبناء العرب أن يتسنّموا هذه القمّة ، ويعيدوا ذلك المجد القديم ، فأول واجب عليهم أن يعتقدوا اعتقاداً جازماً لا ريب فيه ان ذلك إنما يرجع إلى أنفسهم أولاً وقبل كل شيء .

إذا كان المجموع في البلاد العربية في هذا العصر ، ضعيف التماسك محطم الروابط مفكك الصلات ، فلا ينبغي أن تفت هذه الظواهر على خطورتها في عضد الفرد ، وتبعث في نفسه اليأس من إمكان تأليف مجموع قوي مترابط متحد في عصر قريب .

ذلك بأن بناء المجموع ومكانته من القوة والعزّة ، يرجع برمته إلى قوة الأفراد . فاذا نظر كل منا في نفسه أوّل شيء ، وراضها على الخلود إلى الحقائق، وعمل على أن يكون مثلاً أعلى ، لا بالقياس على غيره فقط ولا بالقياس على المجموع الذي هو عضو فيه ، وانما بالقياس على الفضائل العربية التي ورثها العرب عن أسلافهم الأولين ، كان ذلك المصدر وحده ، النبع الأول الذي يزوّد الجماعات العربية في كل دولة من الدول بالقوة المعنوية التي هي في الواقع أجلى مظهر من مظاهر الاتحاد القومي . إذا جرى كل عربي على هذا السنن القويم ، فهنالك يدخل الايمان في قلوبنا ، وتسيطر علينا قوة ذلك الايمان الثابت ، الذي أوحى لأسلافنا بما أوحى .

ينبغي لكل عربي أن يكون في دخيلة نفسه عربيًّا روحاً ونفساً . مثله الأعلى آداب العرب وآداب الاسلام ، وسياسته الدنيوية سياسة العرب وسياسة الاسلام . وبأي شيء يوحي ذلك المثل الأعلى ؟ يوحي اليك بأنك إذا لم تكن حرًّا ، فلست بعربي ولست بمسلم . وانك إذا لم تكن مستقلاً ، فلست بعربي ولست بمسلم . وإذا لم تكن صادقاً ، فلست بعربي ولست بمسلم ، وإذا لم يكن رائدك في الحياة الاخلاص لعروبتك والتفاني في خدمتها ، وإذا لم تكن صريح الفكر واللسان ، وإذا لم تعمل على قتل الشرور بلسانك ويدك ، وإذا لم تعتقد

انك إذا سكتَّ عن قول الحق والدفاع عنهُ ، فأنت شيطان أخرس ، إذا لم تكن شيئاً من ذلك ، فلست بعربي ولست بمسلم .

وإنما اقترن الكلام في العروبة بالاسلام، لأن الثابت الذي لا لجاج فيه ولاريب يداخله أن الاسلام لم ينزل بلغة العرب فقط ، وانما نزل بأخلاقهم وصفاتهم الروحية العليا . فالعربي النصراني مسلم بصفاته العربية ، والمسلم عربي بما في الاسلام من روح العرب .. هذه هي الجامعة التي تربط بين العرب على اختلاف عقائدهم وتباين مشاربهم ، وهي أعراض لا تؤثر في ذلك الجوهر شيئاً . فاذا نسيت هذه الحقيقة أو غفلت عنها ، فلست بعربي ولست بمسلم .

***

تقوم الجامعة العربية ، إذا قدِّر لها في العلم القديم أن تقوم ، لا على الحروف التي تتحرك بها الشفاه ، ولا على الأوراق التي تسوَّد بما تسوَّد به من السُّطور ، ولا بما يوضع من المبادىء التي نلوكها ولا نؤمن بها ، وإنما هي قبل أن تكون أي شيء من ذلك ، روح تجمع العرب جميعاً حول إيمان بشيء واحد ، هو أن بلاد العرب للعرب .

إذا جمعت هذه الروح بين العرب ، فلا شك عندي في أنها تكون كفيلة بأن ترأب تلك الصدوع التي فرَّقت بين العرب في سالف أزمانهم . ولقد تقوى هذه الروح ، إذا نحن نسينا كل الأسباب المسفة التي فرَّقت بيننا في الماضي . فليس لمسلم أن يقول هذا نصراني وإن كان عربيًّا بالأصل واللغة والوطن والنشأة ، وليس لنصراني أن يقول هذا مسلم وإن كان غير عربي ، ما دام قد اكتسب صفات العروبة بالبيئة واللغة والدين . هذه هي روح الاسلام ، التي هي لدى الواقع روح العرب أيضاً . هي روح أثينية ثبتت أصولها الأولى في نفوس أهل الجاهلية وربيها الاسلام .

***

أقول مملوءًا ثقة بصحة ما أقول إن الاسلام فكرة جامعة ، ومعنى أنه فكرة جامعة أنه دين ودولة . ومهما قيل اليوم بعكس ذلك ، ومهما حاول البعض أن يخرج عن الاسلام هذه الصفة ، ومهما قيدت نظامات الحكم ، فسيظل الاسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة في فكرة واحدة هي فكرة الدفاع عن المجموع الذي يستظل بظل الاسلام ، مهما تفرقت فيه النحل ، واختلفت المذاهب ، وتباينت النزعات . فاذا كانت حكومات المسلمين في هذا العصر قد اضطرت مغلوبة إلى مجاراة روح النظام الحديث في المدنية الأوربية ، ففصلت بين الدين والدولة ، فان هذا الفصل ينبغي أن لا يتعدى . إنه فصلٌ في الأوضاع لا في الروح . فكل حكومة من

أوصيك

١ ـ لا تؤجل الى غد ما تستطيع أن تعمل اليوم ٢ ـ لا ترهق أحداً بشيء تستطيع أنت فعله ٣ ـ لا تنفق نقودك قبل أن تحصل عليها ٤ ـ لا تشتر شيئاً أنت في غنى عنه لأنه رخيص ، فقد يكلفك ما لا طاقة لك به ٥ ـ يكلفنا الكبر أكثر مما يكلفنا الجوع والعطش والبرد ٦ ـ لعلنا لم نأسف أبداً على الاقتصاد في الاكل ٧ ـ ما من شيء فعلناه برغبة فيه ثم ندمنا ٨ ـ كم تحملنا من الالم ، توقعاً لشرور لم تحدث ٩ ـ خذ الاشياء من ناحيتها اللينة ١٠ ـ اذا غضبت فعدّ الى العشرة ، أما اذا غضبت جداً ، فعدّ الى المئة.

عن توماس جفرسن

حكومات الاسلام في هذا العصر ، وإن كانت قد قبلت الفكرة في فصل الدين عن الدولة ، وأقامت على ذلك نظاماتها المدنية ، فانها قد نصت مع ذلك في دساتيرها على أن دين الدولة الاسلام .

ولست أعرف حقيقة الباعث الذي حدى بالذين وضعوا تلك الدساتير على اثبات هذا النص . فالدولة شخص معنوي ، والنص على أن ذلك الشخص المعنوي له دين اسمه الاسلام ، أمرٌ لا يخلو من التناقض . لأن هذا الشخص المعنوي إنما هو شخص مجرد ، أي إنه فكرة مجردة تقوم في الذهن ، ولا حيز لها في خارج الفكر . ولكني أعتقد أن هذا النص لم يثبت في دساتير الدول الاسلامية الاّ استجابة لوعي خفي مستمد من روح الاسلام ، وأنه دين ودولة معاً ، أملته على أولئك المشترعين روح اسلامية لم تخبُ في انفسهم يوماً شعلتها ، وإن كانت قد استخفت فانما كان استخفاؤها تحت ضغط ظروف ، لا حاجة بنا إلى الافاضة فيها الآن .

كل هذا لأقول أن روح الاسلام ، تلك الروح التي نشأت بنشوء الاسلام ، وستظل باقية ما بقي الاسلام ، والتي أنشأت أول نظام موحد من الدين والدولة وأدمجتهما معاً ، هي روح لا تفرق بين رعايا الدولة من حيث العقائد ، بل انها روح تقدس الحرية أولاً وتحمي رعاياها حماية بلغت منتهى درجات التسمح في تاريخ الدنيا .

فاذا قال أحدنا الجامعة الاسلامية ، فانما يعني جامعة عربية روحها الاسلام ، واذا قال أحدنا الجامعة العربية ، فانما يعني جامعة اسلامية روحها العروبة .

وكل قول ينابذ هذا القول خطأ . وكل نزعة تخالف هذه النزعة ، شعوبية خسيسة .

اسماعيل مظهر

أرثر ادنجتن(1)

Sir Arthur Eddington

منذ برهة وجيزة أذاع رويتر ما يلي : (توفي السر أرثر أدنجتن العالم الفلكي الرياضي). وقد نشرت الصحف هذا الخبر في مكان غير بارز دون تعليق ، ومرّ الناس على نبأ الوفاة فلم يبعث فيهم انتباهاً أو اهتماماً . وليس غريباً ألاّ يحفل الناس بهذا الخبر ، فقد حصلت الوفاة في أيام حالكات ووسط عواصف الحرب حيث المصائب تنصب على العالم من كل جانب ، وحيث أسماء رجال الحرب والقتال ملء الاسماع وحديث المجالس والمجتمعات . ولئن مرّ ادنجتن عن الدنيا دون ضجيج، فقد خلف آثاراً خالدة وترك في ميادين العلم ثروة علمية ضخمة تجعله خالداً في الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم الفكر الرياضي وعلم الفلك في القرن العشرين

ولد ادنجتن في كندال بانكلترا عام ١٨٨٢ وتعلم في كلية أوين وفي منشستر وفي كلية ترنتي بجامعة كمبردج . وفي سنة ١٩٠٧ حاز جائزة سمث اعترافاً بنبوغه وفضله . وبعدها انتخب زميلاً في جامعة كمبردج تقديراً لجهوده وآثاره . وعهد اليه من ١٩٠٦ الى ١٩١٣ بمركز المساعد الأول في مرصد غرينتش الملكي . ويظهر أن عام ١٩١٣ الذي كان بداية شر مستطير على العالم، كان عام ألقاب وتقدير للاستاذ ادنجتن ، ففي هذه السنة صار أستاذاً لعلم الفلك في كمبردج ، وفي سنة ١٩١٤ عين مديراً لمرصدها، كما انتخب عضواً في الجمعية الملكية . وبدأت بعد ذلك آثاره تبرز للعيان بصورة واسعة، وقريحة تتحف العلم بالاضافات الجديدة، مما جعل الجمعيات العلمية والفلسفية خارج بريطانيا تعرض عليه عضويتها وتسأله قبول شرف الانتساب اليها . ويظهر ان مآثره كانت محل تقدير الهيئات والجامعات . فقد حاز جائزة Hopkins التي تمنحها الجمعية الفلسفية في كمبردج وجائزة Ponté Coulant Prize من الأكاديمية الافرنسية سنة ١٩١٩، والمدالية الذهبية من الجمعية الفلكية، ومدالية

(1) أذيع هذا الحديث في مساء ١٩٤٤/١٢/٣١ في محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية في يافا بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته .

بروس Bruce للجمعية الفلكية ومدالية هنري درابر وهي المدالية التي تمنحها الاكاديمية الوطنية للعلوم . وفوق ذلك فقد كان أدنجتن محل عطف الدولة التي منحته لقب (سير) وأحاطته بالرعاية الكبيرة والعناية الفائقة . ولسنا بحاجة الى القول ان هذا العطف من جانب الدولة وتلك الجوائز والمداليات من الجمعيات والهيئات على تعددها تدل دلالة واضحة على فضله وعلمه وعلى تقدير اضافاته القيمة الى العلم ، في الفلك والطبيعة والرياضيات .

كتب ادنجتن في الفلك وفي النجوم وتطورها،وقد أخرج بحثه الأول سنة ١٩٠٦ فتناول فيه حركات النجوم وتركيبها، وحرارتها وله في ذلك آراء ونظريات أخذ بها العلماء وأحلوها مكانها في الفلك الحديث . لقد درس الغازات وطبائعها والذرّات وجسيماتها وما لها من شأن في نقل الحرارة . وقد تبين له أن معدّل انسياب الحرارة من باطن النجم إلى سطحه يتوقف في الأكثر على كتلة النجم — وعلى هـذا فقد خرج بالرأي القائل بأن انسياب الحرارة يزداد بازدياد مقدار الكتلة ، وليس لقطر النجم أو بنائه الداخلي علاقة تذكر بالحرارة . ويعتبر علماء الفلك ان استخراج الصلة بين الاشراق والكتلة، من أهم القواعد في نظرية بناء النجوم الحديثة .

وبحث في السدم وانطلاقاتهـا وقد تبين ان السدم كلهـا تقريباً تجفل منا بسرعة بالغة وهي تتباعد عنا بسرعة فوق ما يتصور العقل البشري ، إذ منها ما يتباعد بمعدل ٢٦ مليون ميل في الساعة ! . وقد حسب ادنجتن انه إذا كانت السدم تبتعد عنا بالفعل بسرعة عظيمة جدًّا . إذن يتحتم أن يكون المجموع الكلي لمقدار المادة الموجودة في الكون بأسره قدر ما في (١١٠٠٠) مليون مليون مليون شمس ، أي قدر ما يرى العلماء بمراقبهم ثلاثة ملايين مرة تقريباً .

وامتاز ادنجتن بعمق تفكيره عند عرض آراء العلماء حين يختلفون في مسألة من المسائل . فهناك من العلماء من يؤكد وجود الأثير ، ومنهم من ينكر وجوده . وهنا تتجلى براعة ادنجتن بقوله [وكلا الفريقين يقصدون بقولهم شيئاً واحداً وهم لا يختلفون إلاّ في الألفاظ]

وتناول ادنجتن كغيره من علماء الفلك عوامل تكوين النظام الشمسي،وقد خرجوا بعد البحث والدرس بأن كتلة الشمس الأصيلة، كانت آخذة في التقلص بسبب اسراع دورانها حتى أصبحت تميل إلى الانشطار ، وانها لفي هذه الحالة إذ اتفق مرور شمس كبيرة قربها بسرعة متوسطة ، مما أحدث مدًّا في كتلة الشمس . وما زال هـذا المد يرتفع حتى بلغ درجة انتثر عندها إلى بخار من المـادة اللطيفة ، ما لبثت أن تقلصت وأصبحت سيارات . وقالوا بأن الحسابات دلتهم على ان ذلك حدث منذ ألف مليون سنة أو أكثر . ومنذ ذلك الحين سارت

الشمس الأخرى في طريقها، ونظام السيارات ليس إلاّ أثراً من آثارها . ويرى ادنجتن ان تألب كل هذه الحوادث غير محتمل حتى في حياة النجوم الطويلة فان توزع النجوم في الفضاء شبيهٌ بعشرين كرة من كرات التنس موزعة في كرة قطرها ٨٠٠٠ ميل ، واقتراب الشمس المذكورة من شمسنا، هو كاقتراب إحدى هذه الكرات من كرة أخرى،حتى تصير على بضع يردات منها . ويرى ادنجتن ان احتمال وقوع هذا هو كنسبة واحد إلى مئة مليون . ولاشك انه بحساباته هذه ، قد أدخل الطمأنينة إلى النفوس ، فلا خوف من اقتراب شمس من شمسنا تسبب تغيرات قد تؤدي إلى اختلال أو عدم توازن في حركات الأرض والكواكب . وما يدرينا فقد ينتج عن ذلك زوال الحياة ومن على هذه الكرة الأرضية .

ولعلّ من أبرز ما امتاز به ادنجتن تقديره لأهمية النظرية النسبية لاسيما في أول ظهورها فقد شغف بها وبحثها ودرسها درساً عميقاً وسلط عليها عقله ووجه اليها تفكيره، فتمكن من إخراجها إلى الناس في صورة تعدّ واضحة، إذا قورنت بالصورة التي جاء بها غيره من كبار العلماء الرياضيين . ولم يقف عند هذا الحدّ، بل استطاع أن يضيف إلى هذه النظرية إضافات هامة وضعها في رسالة ظهرت عام ١٩٢١ عنوانها :

Generalization of Weyl's Theory of the Electromagnetic & Gravitational Fields.

ولنأتِ الآن على مثل بسيط يتبين منه كيف فاق غيره ، في تفسير بعض نقط في النسبية كانت غامضة وغير مفهومة .

تشتمل النسبية على نظرية هامة ، هي ان كل جسم يتقلص في خط اتجاه سيره بنسبة ما بين سرعته وسرعة النور . وهو لا يتقلص البتة في الاتجاه المعامد لخط سيره . ولقد اعتبر (البرت اينشتين) هذا التقلص سنة طبيعية وجعله قاعدة لمبدأ النسبية ، بانياً عليه مباحثه فيها . وقد حاول بعض كبار الفلكيين والرياضيين تفسير سبب هذا التقلص فلم يخرجوا بطائل ، لكن إدنجتن في كتاب طبيعة العالم المادي تمكن من تفسيره تفسيراً لم يسبق اليه ، حالفه فيه التوفيق والنجاح .وهنا نضع خلاصة رأيه، كما ورد في كتاب خلاصة الكون للاستاذ نقولا حداد وهو : « . . إن بين الذرات Atoms مسافات بعيدة جدًّا بالنسبة إلى أحجامها . ولكن الذرات المتماثلة متساوية البعد . والذرات تحافظ على هذا التباعد المحدود فيما بينها،وعلى الحيز الذي تتحول فيه . وتحافظ على ذلك بتفاعل كهربائي فيما بينها منه قوات جاذبة ومنه حركات (قوات) أخري مختلفة تحاول أن تبعد الذرات بعضها عن بعض .

وكلتا الطائفتين من القوات متوازنتان بحيث يبقى حيز الذرة في سعة محدودة، ويبقى بعده عن غيره في مسافة محدودة أيضاً . ذلك على فرض ان الذرة ساكنة . ولكن متى كانت متحركة (أو متى شرعت تتسارع بحركتها أي تعجل) تتغير القوات الكهربائية التي كانت تقيدها بالمسافات المحدودة فيما بينها ، لأن تسارعها ينشىء أمواجاً كهربائية مغناطيسية Electro-mag-Waves وهو نوع من القوات يختلف عن النوع الأول فيختل توازنها السابق وينشأ لها توازن جديد . ومن هذا يُرى أن سر المسألة هو في التيار الذي أنشأته سرعة الذرة أو تسارعها ، وهو مطابق للرأي العلمي الذي سار عليه اينشتين وزملاؤه وهو أن الذرة المسرعة تنشىء حولها جواً كهربائيًّا مغناطيسيًّا . وفي هذا الجو تتخذ الكهارب أفلاكاً تدور فيها حول نواة الذرة، كما تدور السيارات حول الشمس في جوّ جاذبي — تدور بتأثير هذا الجو الذي يمنعها أن تشرد عن فلكها حول النواة (١). وما دمنا في صدد النسبية فنقول إن ادنجتن قد حسب نظريًّا وبطرق رياضية، السرعة التي يجب أن تتحرك فيها السدم فيما لو كان الكون يتمدد بحسب نظرية النسبية .

ولم تقتصر بحوث إدنجتن على النواحي التي ألمعنا اليها، فقد كتب في موضوعات كثيرة أخرى في الفلك والطبيعة، وله عدة قطع من قلمه في دائرة المعارف البريطانية . أما كتبه التي أخرجها الى الناس فهي :

(١) حركات النجوم ونشوء الكون (٢) رسالة في النسبية والجاذبية (٣) الفراغ والزمن والجاذبية (٤) نظرية النسبية رياضيًّا (٥) النجوم والذرات (٦) طبيعة العالم المادي (٧) الكون المتمدد

أضف إلى ذلك مقالات ومحاضرات في الفلك والنسبية نشرها في المجلات العلمية العالية في انكلترا .

هذا عرض موجز لحياة السير ارثر إدنجتن ، ولمحة بسيطة عن آثاره وإضافاته في الفلك والطبيعة والرياضيات . ولا شك أن العلم قد خسر بوفاته عالماً فلكيًّا ورياضيًّا قدم أجل الخدمات في ميادين المعرفة التي تجعله علماً بين أعلام العلماء المقدمين في تاريخ العلوم الدقيقة في القرن العشرين .

قدري حافظ طوقان

---

(١) اعتمدنا في هذا المقال على كتب صاحب الترجمة وكتب جينز وكتاب فتوحات العلم الحديث وآفاق العلم الحديث للاستاذ صروف وكتاب هندسة الكون للاستاذ نقولا حداد ودائرة المعارف البريطانية وغيرها من الكتب .

كنوز الصحارى

المصرية

الكنوز المهجورة ، فتنة حمام فرعون ، المناجم ، المعادن ، حقول البترول ، الفحم الابيض ، مرافق تجعل مصر من أقوى دول البحر المتوسط ، أسرار الصحراء ، فتوحات علمية ، واجب هذا الجيل

محاباة الطبيعة لمصر

إذا ألقينا نظرة على خريطة مصر ، رأينا مجرى النيل يتوسطها ويليه من الجانبين ، الشرقي والغربي ، أرض خضراء ثم صحراء وقفار . ولقد تعلمنا في أوائل هذا القرن العشرين ان مصر بلد زراعي وانه قطر عقيم في الصناعة — لأنه لم يرزق الفحم ولا الحديد . فهل كان حقاً ما يقولون ؟

والحق إن علم ما في باطن مصر كان سراً لم يحط به خبراً غير قدماء المصريين الذين أوتوا الحكمة والقوة ، وعلموا الأمم ما لم تعلم ، وكشفوا عن المناجم واستغلوا المعادن ، وصنعوا الأسلحة والآلات والفأس والمحراث من الحديد المصري والنحاس المصري . ثم بعض الخاصة من الفنيين الأجانب وفي مقدمتهم الدكتور هيوم مدير مصلحة الكيمياء السابق ، وقد وضع أول بحث علمي عن الحديد الخام في مصر وقدَّمه في سنة ١٩٠٩ الى المؤتمر العالمي للحديد الخام الذي عقد بمدينة « استكهلم » عاصمة السويد مكتوباً باللغة الانجليزية وظلَّ مجهولاً من الجمهور المصري . ثم تتابعت البحوث بعد الحرب العظمى الماضية وكان أبرزها بلا ريب ما وفق اليه المهندس لبيب نسيم في شرقي أسوان من بقاع غنية بالحديد جرى لها لعاب المانيا قبيل الحرب القائمة ، وشممنا رائحة المنافسة الدولية تداعب تلك الكنوز المرصودة ، ونحسب أن مصر وإن رحبت بالفنيين الأجانب وعُدد الفتح العلمي ، فستحرص أكثر من أيّ زمن مضى على الاحتفاظ برقابة المناجم ، وها هي سياسة الاقتصاد الأهلي في العالم المتحضر تسير قدماً صوب النظام القومي الذي يجمع بين تآلف الحكومة والأمة وتعاونهما ، فتؤسس شركات الاستغلال والاستثمار مساهمة بينهما : تحمل الطابع القومي . ونعتقد ان هذا يطابق الصالح الوطني ويرضي الشعور الشعبي .

تعلمنا أن أكثر من ٩٥ في المائة من مساحة مصر فيافي وقفار ، ولكن ما كشف عنه

البحث والعلم يدل على أن صحارى مصر تكنز لهذا الشعب من المعادن والكنوز ما لا يقل عن مبرات النيل، أبي الخيرات .

ماذا نعرف عن وطننا ؟

اننا نحب الوطن ، لأنه الشخصية المقدسة التي تربطنا بها الصلة الروحية والرابطة البنوية — وانه ليزداد تقديرنا للوطن واعتزازنا به بمقدار ما نعلم من كوامن قواته وفيض خيراته ، ولقد حبت الطبيعة بلادنا بأعظم آيات الغنى والجمال ، وأنعمت على كافة السكان بأغزر مرافق الثروة الكامنة. ومعلوم أن الحضارة والمدنية والنشاط الاقتصادي للبلاد تتوقف جميعاً على أحوالها الطبيعية من جهة مرافق ثروتها وموقعها الجغرافي ومناخها ، وكذا من حيث المستوى العلمي والاجتماعي ومدى جهود الأفراد وتوجيه الحكومات في تذليل قوى الطبيعة لاسعاد الجميع وهاكم نظرة في طبيعة مصر :

موقع مصر وثروتها المطمورة

لقد قسمت الطبيعة مصر ثلاث مناطق ليس في الدنيا أغنى منها ولا أبدع ، نجمل وصف خفاياها فيما يأتي :

١ — شرقي مصر : بحيث جزيرة سيناء الزاخر بمناجم الحديد والمنجنيز والفوسفات والرصاص والنحاس وزيت البترول، وهذه الجزيرة غنية بشواطئها الساحلية الرائعة وجبالها الشامخة التي يؤمها السائحون وتفتنهم ذكرياتها الروحية المقدسة في جبل موسى وجبل سنت كاترين ، وتخترق سيناء سكة حديدية تصل مصر بفلسطين وما يليها من الأقطار الصديقة ، ويحد سيناء غرباً شاطىء البحر الأحمر المترع بكنوز البحر وصيده ولآلئه، هذا إلى نافورات ساخنة ومشاتٍ طبيعية لا ترى العين أنزه منها للخاطر ولا أمتع للناظر ،وهي ترتقب من يعمرها . وعلى شاطىء سيناء يطل « حمام فرعون » على خليج السويس ، ويؤمه عارفوه القلائل لسلق السمك الطازج في ماء عينه الساخنة الفائرة .

٢ — وسط مصر : القسم الأوسط من مسطح مصر هو القلب النابض بالكنوز المهجورة، ونحسب أنه بحسب مصر أن تقوم قومة رجل واحد لاستثمار مرافق هذه البقاع من ثروتها المطمورة في صحاريها الذهبية لتصبح من أقوى دول حوض البحر المتوسط ويحد هذا القسم شرقاً بشاطىء البحر الأحمر وغرباً بشاطىء نهر النيل ، وتحفل الصحراء الشرقية بسلسلة من العيون المعدنية تبتدىء من « عين الصيرة » وتصل الى « القشن » ، ثم جبل الرخام بمديرية بني سويف والجرانيت والبازلت بمديرية اسوان وسلسلة المحاجر والجبس والفوسفات ، ونترات الصودا والألوان والمغرة والخزف ومواد الطوب الملون ومواد

الأسمنت والبناء والبلاط وهناك مناجم الحديد شرقي اسوان وقنا وبني سويف ومناجم الزنك والرصاص والنحاس والذهب. والقصدير والكروم وحقول البترول وخاصة في رأس غارب وجمسه والغردقة وسفاجه. ولقد جاء استغلال آبار رأس غارب في سنة ١٩٣٩ فتحاً اقتصاديًّا في مصر يبشر بأن يصبح هذا القطر عاجلاً أو آجلاً في مقدمة الدول استغلالا لهذه الثروة الحرارية التي تلعب الدور الأول في فلك الدول العظمى : فياليت مصر تستقر وتتدبر وتعمل وتنهض بادئة بتوليد الكهرباء من مساقط خزان اسوان حيث تشرف مناجم الحديد .

٣ — غربيّ مصر : يتوّج القسم الغربي للقطر المصري شاطىء البحر المتوسط ، وعلى هامته ميناء الاسكندرية محور الحركة والبركة في مصر ، ثم دلتا النيل شرقاً وصحراء لوبيا الزاخرة بالواحات العامرة وعلى رأسها واحة الفيوم والواحات البحرية والفرافرة والداخلة والخارجة وسيوه وجغبوب ، وتجمع هذه البقاع بين ثروة زراعية من الحبوب والفاكهة الحلوة وبين مستقبل صناعي بفضل غناها بالحديد والفوسفات المنثور في الصحراء . وهناك حقول البترول غربي الفيوم وفي وادي النطرون . ونذكر أن رحالة مصريًّا من معلمي المدارس أطلعني منذ سنوات على وثائق هامة عن اكتشافه بعض حقول زيت البترول في صحراء الفيوم ، فأحلته يومئذٍ على عميد كلية الهندسة وبعض الجهات العليا .

وتمتاز صحراء لوبيا بوديانها التي انتفع ببعضها قدماء المصريين ، فاتخذوا من وادي الريان خزاناً لأمداد الوجه البحري بالمياه ابان تحاريق النيل ، فضلاً عن اتخاذه حصناً أماميًّا للحد من غائلة الفيضانات العالية ، وتفكر وزارة الأشغال في هذا العصر في بعث خزان وادي الريان.

أما منخفض القطارة فقد ذهب المهندس حسين سري باشا إلى امكان توظيفه مع مجرى صناعي من مياه البحر المتوسط في احداث مسقط للمياه يولّد القوة الكهربائية التي تكفل أوسع الأغراض الصناعية في مدن الوجه البحري وقراه ، وتتيح لهذه المناطق شبكة مواصلات كهربائية وانارة رخيصة . فما أعظم آمال مصر في مرافقها وفي علمائها وفي مواردها المهجورة .

عظمة صحارى مصر

نرجو أن لا يستخف مصري بعد اليوم بلفظ صحراء ، فان الاستهتار بهذا المجهول جحود بنعمة من أعظم نعم الله — وحسب الأمة تواكلاً ، ولا يجوز لأمة ناهضة بعد اليوم أن تستخف بآيات الفن والعلم في استثمار مناجمها وثروتها المطمورة .

ان في صحارى مصر جمالاً وسحراً وفتنة وكنوزاً مهجورة يجب أن تكون حديث كل مصري ومصرية ، ويجب أن تشغلنا أفراداً وهيآت وحكومة عن كل ما عداها .

عبد الحليم العباسى نصير

بطاقات الوحدة

عن فاندا فاسيلفسكا

« تعاليْ . كاتيا . تعاليْ » .

عاجلةً ، وبأصابع محمومة ، أعدّت شريطاً جديداً . وكان شعرها غير نظيم تحت عصابتها . وقد صرف أليكس كل انتباهه الى المدفع السريع الذي كان بين يديه ، فلم يلتفت إليها .

« تعاليْ . كاتيا . تعاليْ » .

وأخذ المدفع السريع يقرقع ، ومضى الشريط يمرّ بسرعة من خلال علبة القذف . التقطت « كاتيا » الشريط الآخر ، ووقفت تنتظر » .

« كاتيا » .

« لبّيك » .

« اجتهدي واتصلي بهم مرة ثانية . اخبري الكولونيل بالموقف . أتسمعين ؟ عرفيه كل شيء » .

زحفتْ إلى الدغل واندست فيه ، ووثبت الى الناحية الأخرى من المنحدر ، وأطلقت ساقيها للريح جهد ما استطاعت ، الى بيت هنالك . وأسرعت الى المسرة .

«أعطني المدينة . أسرع : ٣—٥ » .

« انهم لا يجيبون النداء » .

« اجتهد ٣ — ٥ » .

« لا جواب » .

وانقطع الاتصال . فوقفت كاتيا حائرة تقلب يديها . أسرعت الى النافذة . سمعت قرقعة البنادق ، وطلقات متقطعة صادرة من مكان ما وراء الدغل . وبيدين مرعشتين استلمت المسرة مرة ثانية .

«أيها العزيز . هنا من أورلوفكا .... تتكلم . . . . أورلوفكا . تفضل وصلني بالمدينة ٣—٥ » .

« لا جواب » !

«ولكن من فضلك ... أفهم .... هنا اورلوفكا تتكلم . اورلوفكا لا بد من أن اتصل بالمدينة . أي رقم في المدينة يكفي — صلني بالمدينة » .

« سأبذل جهدي ، استمعي » . نقل السلك هذه الكلمات اليها .

قمت قشعريرة كادت تتولاها . فمن مكان ما ، مكان بعيد قصيٍّ ، سمعت «كاتيا» صوت التحام الخطوط السلكية ، ومعها

صوت حبيب هو صوت الفتاة أمام لوحة الاتصالات تكرر باطراد :

« المدينة .... المدينة .... المدينة » .

« هالو . أهذه أورلوفكا » !

« ان خط المدينة قطع . وهم يصلحونه الآن . عليك أن تنتظري » .

سقطت يدا « كاتيا » الى جنبيها معبرة عما أحست به من قنوط مرير .

همت خارجة من المنزل ، ومن أجل أن تصل الى الدغل ، كانت مضطرة الى الزحف على بطنها . هنالك وصلت إلى خط النار . فأدار اليكس رأسه هنيهة . «حسناً » .

« الخط مقطوع ، وهم يصلحونه » .

فصرّ بأسنانه .

« كاتيا . أنظري في أمر جريشا ، ألك أن تفعلي ؟ إني لا أسمع شيئاً من حيث هو »

زحفت إلى اليمين حتى حاذت قمة المرتفع . كان الفتى حارس الحدود راقداً هنـاك ، ووجهـه لاصق بالأرض . لمست وجنتيـه الغضتين بشفتيها في رفق ولين ، ثم وضعت يدها تحت صدرته — إن قلبه قد وقف عن النبض .

« مات » — هتفت بذلك الى اليكس « تسعة » . وإذ همس بذلك قال — « كاتيا : قليلاً من الذخيرة » .

وظلت تغذيه بما يطلب كلما احتاج إلى شيء . وكانت عيناها تمتدان دائماً إلى تلك البقعة الـكائنة هنالك على الشاطيء الآخر ، على الغدير الصغير والجسر الذي يعلوه . فمن هناك ، من مسافة ما بُعَيْـد الجسر ، كانت تنبعث ألسنة من النـار ، من وراء ذلك المرج الأخضر . هنالك الألمان .

« تعاليْ كاتـيا . تعاليْ »

رقدا منسطحين إلى الأرض تخفيهما الأعشاب وتمَوُّج الحشائش البرية . وظل يطلق النار من غير أن يتوقف دقيقة واحدة ، ناسياً كل شيء من حوله . وكان بينهما وبين الألمان رقعة لا تزيد مسافتها على مائتي أو ثلاثمائة ياردة .

وظلت « كاتيا » تمده بأشرطة الدفع . فعلت ذلك بحركة آلية ، ومع هذه الحركة مضت تعد : نعم بقي تسعة ، تسعة فقط .

« لا تعدي جريشا بعد الان » .

وارتفعت أنـّة من مكان قريب . لم يبق تسعة ، هم ثمانية الآن .

« كاتيا — جربي مرة ثانيـة — ربما يكون الخط قد أصلح » .

وثبت وأخذت تعدو .

« أورلوفكا . هنـا أورلوفكا تتكلم . كن شفيقاً ، وتفضل فَصِلْـنا بالمدينة » .

ألقت كاتيا السماع واتخذت طريقهـا بأسرع ما حملتها قدماها .

« اليكس . لا يمكن إصلاح الخط قبل ساعتين » .

« سوف لا نكون أحياء بعد ساعتين يا عزيزتي كاتيا » .

أمتعب أنت ؟

اذا شعرت بأنك متعب وبك ضعف ، فان الاسباب التي تتخيلها قلما تكون صحيحة . قد تتخيل انك في حاجة الى الفيتامين أو أنك مصاب بسوء الهضم أو ان بقلبك اضطراباً أو أن كبدك لا يفرز الصفراء . ان كثيراً من هذه الحالات لا تعود لمثل ما تخيلت من الاسباب . إذ دل البحث الطبي في ٣٠٠ شخص يشكون مثل هذه الاعراض ان ٢٠ في المئة منهم بهم أمراض جسمانية و ٨٠ في المئة ترجع متاعبهم الى اضطراب عصبي .

كثيراً ما يظن ان نقص الفيتامين سبب في احداث حالة الاجهاد البدني . ولكن الفحص الدقيق دل على ان واحداً فقط من ٣٠٠ فحصوا طبياً ، يشكون نقصاً في هذه المادة الحيوية . ولم يعثر على حالة واحدة كان سوء الهضم فيها سبباً في احداث هذه الظاهرة . بل اتضح ان ما يعزى الى سوء الهضم مبالغ فيه ، وان كسل الكبد بريء من ذلك . وقد يعزو كثير من الاطباء ظاهرة الاجهاد الى اسباب غير صحيحة . ففي تقرير نشر في صحيفة نيو إنجلند الطبية أثبت دكتور فرنك ن. ألن أنه في ٥ حالات من ٣٠٠ حالة ، كان فقر الدم سبباً في احداث حالة الاجهاد البدني ، ولم يجد حالة واحدة منها كان السبب فيها ضغط الدم .

ان هؤلاء يستفيدون فائدة جلى اذا تحققوا أن أعصابهم هي سبب متاعبهم . فقد يشعرون باضطراب داخلي وقلق مصحوب بأعراض عصبية كانسداد الزور وتوتر الرقبة وصعوبة التنفس . ومن العجيب ان أكثر المجهدين لا يعزون السبب الى أعصابهم ، ولكن مظاهرهم تنم عن حقيقتهم . فاذا شعرت بشيء من تلك الاعراض فاعزها الى أعصابك ، ثم عالج نفسك بمقتضى ذلك ، ولكن بعد أن تتأكد انك لست مصاباً بمرض نوعي .

وعدتهم بسرعة . سبعة . نعم سبعة فقط .

« كاتيا . إن يدك تدمى . أعصبيها بمنديل وازحفي لتنظري ماذا حل بصديقنا پلاتون » .

عصبت كاتيا يدها بسرعة وزحفت بين الأعشاب

« إنك مصاب بجرح بالغ يا پلاتون . أجدر بك أن تزحف إلى المؤخرة .

« إنه خمش لا أكثر يا كاتيا . إنه لا شيء .

« كاتيا » .

سمعت صوت زوجها يناديها فاتخذت طريقها إليه .

« إصغي يا كاتيا » .

لم يلتفت اليها اليكس إذ حدثها . كانت عيناه مثبتتان حيث تلك الخضرة دوين الجمر ، حيث زادت ألسن النيران عما كانت عليه .

« هل تقدرين أن تخرجي السيارة من المظلة » .

أُخِذَتْ كاتْيا متراجعة ، كما لو ان شخصاً ضربها على صدرها ضربة قوية .

« هيّا . أتقدرين » .

لم يلتفت اليها . كانت عيناه مركزتين في بقعة واحدة . في تلك الخضرة التي كانت تنبعث منها كرات حمر .

« نعم » . أجابت بصوت مختنق .

« أأنت مصغية . كاتْيا » . « نعم » .

إن الوثائق في القِمَطْر . ضعيها جميعاً في السيارة واذهبي إلى المدينة . سلميها إلى الكولونيل . اتفهمين »

« أليُوشا . يا حبة قلبي . أود البقاء . اني لا أستطيع »

« كاتيا . نفذي بسرعة . أأنت فاهمة ؟ توًّا . لحظة تلكأ واحدة تفوّت الفرصة . الوثائق . كل ما في القِمَطْر . أتفهمين . كاتيا»

« نعم » .

لم يلتفت وراءه ، ليتزود بنظرة منها . وهي . كذلك هي قد قمعت رغبتها في أن تمس يده عندما ناولته شريط الطلقات .

« جهزي السيارة واذهبي بها . ادفعيها بأقصى ما في إمكانك . خذي الغدارة . أتسمعين . وتذكري يا كاتْيا : سبع طلقات فقط في الخزانة ، اتركي واحدة فقط . استعداداً لما يتوقع . أتفهمين » .

«نعم» .

وفي سكون زحفت نحو الدغل . ولكنه ناداها فجاءة .

« كاتيا . انتظري برهة . خذي بطاقتي وخذي بطاقات الآخرين أيضاً . سلميها هناك » .

أخذت البطاقة الحمراء الصغيرة . وزحفت من واحد إلى الآخر . . خمس . خمس بطاقات لا غير .

« خذي البقية من الآخرين »

فتشت جيوب القتلى . لقد حصلت عليها جميعاً . البطاقات الحمر الصغيرة .

« كاتيا : لا تنسيْ أن تعدّي قليلاً من البترول للطوارىء — صبّيه على كل شيء واشعلي فيه ثقاباً . والطلقة السابعة لا تخفلي عنها . والآن أسرعي يا كاتيا بقدر ما تستطيعين . . . »

التفت هذه المرة ونظر اليها . عيناه الرماديتان الحبيبتان .

« أليوشا »

« لا تبتئسي . كاتيا — لا تبتئسي » .

وشاع في وجدانها فجأة حرّ ذلك الحب العميق الفائر نحو ذلك الرجل .

« امرعي . هذا حب صحيح يا كاتيا»

هذا حب صحيح . كزت على شفتيها وزحفت بحرص ، وأطراف تلك البطاقات الحمر الدبية تضغط على صدرها .

ثم أسرعت الى غرضها . كانت السيارة في المظلة خلف المنزل .

أدارت كاتيا الآلة ، ومن وراء ذلك الدغل سمع الذين هم كانوا هنالك هديرها .

وكذلك سمعه اليكس .

« هـذا حب صحيح . هـذا حب صحيح » . ومضت تكرر هذه الكلمات متمتمة بشفتين جافتين يابستين ، وكأنها في ضباب ثقيل وخرجت بالسيارة الى الطريق .

وانحنت على عجلة القيادة . وكان الطريق ممهـداً معبـداً . ومضت السيارة تنهب الطريق وأزَّ الهواء في أذنيها .

ومرت الى جانب الأشجار الخضر والأكواخ البيض، فكأنما كانت أقباساً من الضوء الخاطف . وأخـذت السيارة تطوي الطريق طيّاً ، متسـارعة كلما تقدمت إلى الأمام، وكلمات اليكس ترن في أذنيها .

« توّاً . لحظة تلكأ واحـدة تفوّت الفرصة » .

اضطرت عند مفترق الطرق أن تقف وتسأل عن الاتجاه . كانت جاهلة بمسالك تلك الناحية . فانها لم تزرها قبـل الآن . كانت بها يوماً وليلة ، بعد أن ظلت بعيداً عن اليكس ستة أشهر .

وصلت المدينة بعد جهد . أوقفها الجند وسألاها عن أمرها . فأجابت، وارشدوها كيف تصل إلى غرضها . ولقد شعرت أن قدميها أثقل من الرصاص عنـد ما أخذت تصعد درج السلم ، وثبة ، وثبتان .

كم هي مديدة تلك الدرجات . باب . بابان . ثلاثة أبواب . رجال في الملابس العسكرية وفي ثياب المليشيا ؟ جماعات من الناس . قلنسوات بشارات خضر . وضرب قلبها سريعاً عنـد ما رأت تلك القلنسوات التي هي شعار حراس الحدود .

سارت توّاً إلى المائدة وقالت : «القائد اليكس نازاروف أمرني بأن أوصـل اليك هذه الوثائق »

وسلمت الأوراق وحافظات الرسـائل والصرر . فتأملها الرجل الجالس الى الناحية الأخرى من المائدة بتؤدة وثقة وقال — «والآن يجب أن تجلسي وتستريحي » .

أرادت أن تقول انهـا غير متعبة ، ولـكن ركبتيها خانتاها ، فجلست بتثاقل على الكرسي الذي قدم اليها . كانت جلجلة نيران البنادق واهتزاز السيارة وهدير آلتها، كل ذا يرن في أذنيها رنيناً .

رفع الرجل الجالس اليها مسماع المسرّة

« اعطني أورلوفكا »

انتظرت كاتيا

« أورلوفكا . أورلوفكا . حالاً » .

كادت أنفاسها تقف . ووقعت أصابعها على طرف المائدة بحركة عصبية وشدّت عليها وجهدت عيناها المتعبتين أن تنفذا في ذلك الرجل الذي يتكلم . عملت على أن تقرأ في عينيه بصيصاً مما كان يجري في الطرف الآخر من ذلك السلك الممدود .

« هكذا . حسن » .

وأعاد المسماع إلى مكانه بتؤدة .

« ماذا » ؟

فدار نحوها من وراء المائدة وأخذ يدها المثلوجة بين يديه وقال :

« أورلوفكا لا تجيب »

« ألم يصلح الخط بعد » ؟

وشعرت بأن أصابعها تختلج، ورجلاها ترتجفان ، وسرى ذلك القرّ في جميع أجزاء جثمانها .

« عزيزتي . كوني شجاعة ، ماذا في مكنتنا أن نفعل . انها الحرب . ان الألمان في اورلوفكا » .

مرت بذاكرتها مرور الصدى البعيد ، نغمات أغنية كانت تسمعها . من ذا الذي كان يغنيها ؟ اليكس — عيناه الرماديتان ، من تحت حاجبيه الأسودين — معبودي . حبيبي . اليكس .

« وأسفاً . أأترك المرج الفسيح ، والشمس في السماء ، والحب من ورائي » ؟

واستجمعت نفسها واستلهمت قواها .

« إيذن لي . إني ذاهبة الى لجنة الوحدة الاقليمية » . فدلها على الطريق .

وجدت هنالك مائدة للكتابة أيضاً ثم رجلاً من ورائها . انقبض قلبها مرة أخرى . يشبه من ؟ من رأت ؟ نعم هو جريشا . جريشا الصغير . أول من سقط من الرجال .

« أحضرت هذه البطاقات الخاصة بالوحدة » .

أخرجت البطاقات من تحت قميصها . عشر بطاقات حمر صغيرة .

«من أين أتيت بها . بطاقات مَنْ من رجالنا » .

وقفت كاتيا ممدودة القامة بارزة الصدر وقالت بغير تلعثم أو اختلاج في صوتها :

« هي بطاقات عشر رجال . وحدة كاملة من حرس الحدود . ماتوا فجر اليوم في مراكزهم وهم يحاربون الألمان » .

نهض السكرتير . البطاقات ملقاة أمامه على المائدة . عشر بطاقات حمر صغيرة على الغطاء الأخضر ، كأنها قطرات من الدم الأحمر ، تنبىء عن مصير هؤلاء .

في حب الوطن

ولي منزل ، آليتُ أن لا أبيعَهُ ... وأن لا أرى غيري له الدهرَ مالكاَ
عهدتُ به شَرخَ الشباب ونِعمةً ... كنِعمةِ قومٍ أصبحوا في ظِلالكاَ
فقد ألِفَتْه النفس حتى كأنه ... لها جسدٌ، إن غاب غودِرْتُ هالكاَ
وحبّبَ أوطانَ الرجال إليهم ... مآربُ قضّاها الشباب هنالكاَ
إذا ذكَروا أوطانَهم، ذكّرتهُم ... عهودَ الصِّبا فيها، فحنّوا لذالكاَ

ابن الرومي

المذهب الشيعي

قبيل الدولة الفاطمية وفي أيامها

وضعت البذرة الأولى للمذهب الشيعي قبل استقرار الخلافة الفاطمية بمصر في الغزوات التي لم تقو فيهـا جيوش العبيديين على غزو البلاد المصرية ، فقام بعض أنصارهم بنشر الدعوة الشيعية بمصر ، ووجدوا من المصريين العدد الـكبير الذي يعطف عليهم ويعتنق مبادئهم ويميل لمعتقداتهم. ولما رأى ذكا الرومي والي مصر (٣٠٣—٣٠٧ ﻫ) شغف الـكثير من المصريين بهذا المذهب الجديد ، وازدياد اتباعه يوماً بعد يوم ، وما قد يؤدي اليه ذلك في المستقبل ، عزم على اضطهاد رجاله فسجن عدداً كبيراً منهم ونكّـل بهم .

ولـكن هذا الاضطهاد والتعذيب والتنكيل ، لم يفتّ في عضد أنصار المذهب الشيعي بل داوموا على نشره وتحبيبه الى المصريين لأنهم وثقوا من انه اذا أقبل الشعب المصري على هذا المذهب لم يضمنوا فقط التغلب على المذهب المنافس له والسائد في البلاد إذ ذاك وهو السني ، بل سيسهل عليهم أيضاً فتح مصر وانتشار مذهبهم وعقائدهم في ثلاث من الحواضر الاسلامية الـكبرى وهي الفسطاط ودمشق والمدينة .

ولما فتح جوهر الصـقِـلي قائد جيوش الخليفة الرابع الفاطمي المعز لدين الله مصر سنة ٣٥٨ ﻫ ٩٦٩ م) واستقلّ بها عن الدولة العباسية وعن الخليفة العباسي ، طبع سياسة الدولة الجديدة بصبغة دينية عميقة من مفتتح عهدها ، ونشر الدعوة للخليفة المعز لدين الله خاصة ، ولأهل بيته من العلويين عامة .

وكما منـع المهدي « عبيد الله أبو محمد » رأس الدولة الفاطمية الفقهاء بالمغرب من أن يفتوا إلاّ بمذهب جعفر بن محمد ، كذلك نجد أشباله العبيديين منذ استقرت أقدامهم في مصر ، عُنُـوا بتنظيم دعوتهم المذهبية وبثها في كل مكان ، فـكانت تلقى في مجالس الحكمة أحياناً بالقصر ، وأحياناً أخرى في الجامع الأزهر ، واحتضنها وليده قاضي قضاتهم ، فنمـّاها وسهر على تربيبها ، ثم تعهدها من بعده وغذاها داعي الدعاة ومعاونوه .

ولـكي يضمن العبيديون نجاح تغلب عقيدتهم على المذهب السني السائد بالبلاد المصرية قبيل قدومهم ، جلب الخليفة المعز لدين الله معه مع ما حمل عند رحيله لمصر من مكتبته

الخاصة بالقيروان ، عدداً عظيماً من الكتب التي كانت تتناول الكلام في المذهب الشيعي ، واستصحب جمعاً وافراً من فقهاء الشيعة وأعلامها مثل قاضي القيروان أبي حنيفة النعمان ابن أبي عبد الله بن منصور بن احمد بن حيون الاسماعيلي المغربي ، هذا الرجل المنتج الذي تحدثنا المخطوطات عنه بأنه كتب كتباً كثيرة في فقه الشيعة ، مثل دعائم الاسلام في الحلال والحرام ، وكتاب ابتداء الدعوة للعبيديين ، وكذا كتاب الهمة في اتباع الأئمة ، وكتاب اختلاف الفقهاء ، وكتاب شرح الاخبار ، وكتاب المجالس والمسايرات ، وغيرها مما يدل على علو كعبه في الفقه والدين ، وتوقد قريحته في التأليف والتصنيف

هذه الكتب الكثيرة المؤلفة في مذهبهم كانت ثروة عظيمة لنشر دعوتهم لأنها منشورة سهلة المنال وكان بنو النعمان وغيرهم من المغاربة من أكبر العوامل لنشر مذهب الشيعة بمصر. فكان عليّ بن النعمان مثلاً يجلس بالجامع الأزهر ويقرأ مختصر أبيه في فقه آل البيت ، وهو المسمى بكتاب الاختصار ، ويحدثنا المقريزي نقلاً عن المسبحي المتوفي سنة ٤٢٠ هـ إن الاقبال على حلقات بني النعمان بالأزهر وهي التي قرأوا فيها علوم الشيعة كان عظيماً حتى أن المسبحي مؤرخ الدولة الفاطمية والذي نال عطف الخليفة الحاكم بأمر الله وتدرج في مناصب الدولة حتى وصل إلى الوزارة يقول « إنه في ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ جلس القاضي محمد بن النعمان (شقيق علي) بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد ، فمات في الزحام أحد عشر رجلاً فكفنهم العزيز بالله » . كذلك صنف وزير المعز لدين الله ثم وزير ولده العزيز بالله من بعده وهو يعقوب بن كلس ، كتاباً في الفقه الشيعي يعرف بالرسالة الوزيرية ، أخذه عن المعز وابنه العزيز وتناول فيه الكلام عن العقائد الفاطمية . فكان ابن كلس يجلس في جمع من العلماء والعامة في داره وفي الجامع الأزهر ليقرأ على الناس خاصتهم وعامتهم مؤلفاته ، وكان يهرع لسماعه الفقهاء والقضاة ليفتوا بما فيها ، كما كان يدرس بالجامع العتيق للطلبة والأساتذة ، وكما عنيت الدولة الفاطمية في شرح علوم البيت وقراءتها للكافة على اختلاف طبقاتهم بفقهاء كان رائدهم بث الدعوة في المكاتب والمساجد وديدنهم غزو الأذهان بطرق منظمة ، كذلك استعانت على بث عقائد المذهب الاسماعيلي بين الناس بسلاح التشريع الذي كان أحد غزواً وأكثر نفعاً لنشر المذهب الشيعي بمصر ، فكما أسند العباسيون مناصب الدولة الهامة الى الخراسانيين أنصارهم ومؤسسي دولتهم ، كذلك نجد جوهراً أحل المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين في جميع المناصب الهامة . لأن المغاربة هم أنصارهم وأعوانهم الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم ، حتى قال المقريزي « إن جوهراً لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه » .

كذلك حتم الفاطميون على جميع موظفي الدواوين بمصر من المصريين ، أن يعتنقوا

المذهب الفاطمي ، كما ألزموا القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب

ولكن هل قضت هذه الطرق التي قصِدَ بها التهديد والوعيد أحياناً والتي فيها أصدر الخليفة الظاهر مثلاً أمراً باخراج الفقهاء المالكية وغيرهم من مصر فأخرجوا ، وأريد بها التشجيع والترغيب أحياناً أخرى عندما أمر هذا الخليفة الدعاة أن يُحَفِّظوا الناس كتاب دعائم الاسلام ومختصر الوزير، وهي الرسالة الوزيرية، وجعل لمن حفظ ذلك مالاً، على مذهب أهل السنة بمصر ؟ وبمعنى آخر هل تمكن جوهر وإمامه المعز من قطع دابر المذهب السني وابادته من مصر، واحلال المذهب الاسماعيلي محله ، أم انهما هما ومن جاء بعدهما من الخلفاء الفاطميين تركوا ذلك للزمن، واعتقدوا أنه الكفيل بمعالجة هذا الاشكال، لأنه يتصل بالاعتقاد الذي لا سبيل للوعظ والارشاد ولا للوعد والوعيد فيه ؟

نرجح أنه بقدر ما كانت الظروف مواتية لهم، وبالرغم من إنه كان بين الشيعة صلة متينة وعطف وتعاون حتى كان التآلف مضرب الأمثال ، وبرغم ما كان بين منافسيهم من أصحاب المذاهب السُّنّية من تقاطع وتنابذ، فقد ساد المذهب الفاطمي على مذاهب أهل السنة التي كانت منتشرة في مصر ولها الأغلبية الكبرى قبل الفتح الفاطمي وصار فقه الطائفة الاسماعيلية ومذهبهم هو المذهب الرسمي المعمول به في القضاء والفتيا مدة طويلة في أيام العبيديين بمصر وأنكر ما خالفه . نقول ساد مذهبهم وعمل به رسميًّا مدة طويلة من حكمهم للبلاد المصرية، ولا نذهب مع السيوطي حينما يقول: «في القرن الرابع الهجري ملك العبيديون مصر وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلاً ونفياً وتشريداً وأقاموا مذهب الرفض والشيعة ولم يزولوا منها إلا في أواخر القرن السادس الهجري فتراجعت اليها الأئمة من سائر المذاهب». ولسنا مع ابن خلدون في مقدمته حيث يقول :« انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة» لأننا سنبرهن بالبرهان القاطع فيما يلي، ومن السيوطي نفسه، على إن مذاهب أهل السنة أيام الفاطميين عاشت جنباً لجنب مع مذهب الفاتحين. ولكن لا بالسيادة ولا بالوضوح والرسمية التي كان يتمتع بها مذهب العبيديين . ولكنها عاشت وكفى . وعاش فقهاؤها من الأئمة زمناً في كنفهم وتحت رعايتهم .

فيحدثنا السيوطي ان أبا بكر النعالي المتوفى سنة ٣٨٠ ﻫ (٩٩٠ م) كان امام المالكية بمصر ، وكانت حلقته في الجامع تدور على سبعة عشر عموداً، لكثرة من يحضرها، بعد أن كان للمالكيين في سنة ٣٢٦ ﻫ (٩٣٨ م) في المسجد الجامع خمسة عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات فقط .

كذلك نجد الفاطميين أنفسهم لما قدموا مصر ، تألفوا أهل السنة والجماعة ومكنوهم من

إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم فلم يمنعوهم من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد معظم أيامهم ، مع ما في هذا من مخالفة لمعتقدهم . وكثيراً ما نقرأ في السجلات التي كانت تقرأ على المنابر بمصر « لا اكراه في الدين» و«صلاة الضحى وصلاة التراويح لامانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون » و« يخمّس في التكبير على الجنائز المخمسون ولا يمنع من التكبير عليها المربّعون » « ويؤذن بحيّ على خير العمل المؤذنون ولا يؤذي من بها لا يؤمنون ».

كما سمح لأهل السنة أن يكون لهم حلقات في المسجد الجامع وزوايا يدرس بها الفقه على مختلف مذاهبهم . وكان لكل فقيه منهم زاوية ، ويجري عليه الرزق حتى بلغت حلقاتهم العدد الكثير . ويحدثنا القلقشندي « ان مذاهب مالك والشافعي واحمد كانت ظاهرة في مملكتهم ، وان من سألهم الحكم بمذهب مالك أجابوه »

ويؤيدنا في رأينا هذا أمانُ جوهر للمصريين الذي يعتبر بحق وثيقة هامة في الكشف عن غايات السياسة الفاطمية وأصولها المذهبية ، حيث نص فيه على إقامة المصريين على مذهبهم ، وأن يتركوا على ما كانوا عليه .

نعم قد لبست الدولة الفاطمية أحياناً ظهر المِجَنّ لأصحاب مالك حتى انه في سنة ٣٨١ هـ (٩٨٩ م) أيام العزيز بالله ضُرِبَ رجل بمصر وطِيفَ بهِ في المدينة ، لأنهُ وجد عنده كتابَ الموطأ للامام مالك بن أنس .

وسمحوا للسنيين أحياناً بتولي منصب القضاء بشرط خضوعهم للمذهب الاسماعيلي ، فلما كان « أبو العباس بن العوام » حنبليًّا على غير المذهب الشيعي ، فقد اشتمل سجله على فقرة شُرِطَ فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقاً لقانون الشيعة ، وان يكون معه في مجلس القضاء أربعة من القضاة ، لا شك في أنهم كانوا من الشيعة ، عيّنوا من قبل الخليفة ليراقبوا انه يقضي بمذهب الاسماعيلية . وقد كان أبو العباس بن العوام قاضياً من سنة ٤٠٥ هـ بالبلاد المصرية حتى مات في عهد الخليفة الظاهر . وعلى ذلك فقد ولى القضاء أيام الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر .

كذلك ترك الشيعة لعلماء السنيين حلقات التدريس التي كانت لهم قبل قدومهم لمصر بالجامع العتيق . فلقد حدثنا السيوطي عمن كان بمصر من فقهاء المالكية في أيام العبيديين ، وان من حدث وتفقه عليه منهم خلقٌ عظيم . ومنهم من ألّف في فضائل مالك ، ومنهم من شرح المدونة ، وهو جالس في حلقة المالكية بالجامع

وان « عبد الجليل بن مخلوف » الفقيه المالكي أفتى بمصر أربعين سنة ، ومات بها سنة ٤٥٩ هـ ، وأن « أبا القاسم الجوهري عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الغافقي » الفقيه المالكي المصري المتوفي سنة ٣٨١ هـ صنف مسند الموطأ .

وان« أبا الطاهر محمد بن عبد الله البغدادي » المالكي المذهب المتوفى سنة ٣٦٧ هـ ولي قضاء الديار المصرية واستناب على دمشق وكانت له تصانيف

وان « أبا القاسم بن مخلوف الاسكندري » المتوفي سنة ٥٣٣ هـ الذي كان من أئمة كبار المالكية تفقه عليه أهل الثغر زماناً

فهذه الأمثلة تدل دلالة واضحة على أن العبيديين لم يستأصلوا شأفة المالكيين بمصر، بل سمحوا بوجودهم وعملوا على استمادة أهل مذهبهم منهم ، بتركهم أحراراً يعملون في بيئتهم الشيعية، فلم يستتروا ولم يتظاهروا بالمذهب الشيعي، بل تمسكوا جهراً بمذهبهم السني واعتزوا به حتى لدى أهل الشيعة أنفسهم ،فقد ذكر السيوطي أن أبا العباس أحمد بن عبد الله بن احمد ابن هشام بن الحطيئة» اللخمي الفاسي المتوفى سنة ٥٦٠ هـ عرض عليه القضاء لما شغرت مصر من قاض ثلاثة أشهر في سنة ٥٣٣ هـ أيام الخليفة الحافظ، فاشترط ألا يقضي بمذهب الدولة، فأبوا وتولى غيره القضاء . كذلك حدثنا السيوطي عن فقهاء الحنفية بمصر ، فاستلفت نظرنا أن « عبد الله بن سعد الله الجريري » المعروف بابن الشاعر وهو حنفي المذهب (٥١٣ — ٥٨٤ هـ) أقام يفتي ويدرّس بالمدرسة السيوطية إلى أن مات

وحدثنا السيوطي أيضاً عن عدد كبير من قضاة وفقهاء شافعيين بمصر أيام الفاطميين، منهم من ناظر تحت سمع الدولة الشيعية وبصرها، ومنهم من كانت له تصانيف، ومنهم من كان يقرأ عليه نفر كثير، بل منهم من ولي القضاء زمن الفاطميين دون أن ينص صراحة على أنهم اشترطوا عليه أن يحكم بمذهبهم الاسماعيلي، فقد تولى «أبو عبد الله محمد بن سلامه بن جعفر القضاعي » الشافعي المذهب المتوفى سنة ٤٥٤ هـ قضاء الديار المصرية كما تولى القاضي « أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجاة» قضاء الديار المصرية، ومات سنة ٥٥٠ هـ ، وعمل بمذهب الشافعي وأهل مذهب الدولة . كذلك تولى القاضي أبو الحسن علي بن الحسين المعروف بالخلعي الشافعي المذهب المتوفى سنة ٤٩٢ هـ قضاء الديار المصرية يوماً واحداً ثم استعفى ، كما تولى القاضي أبو محمد عبد الله بن رفاعه بن غدير الشافعي المذهب المتوفى سنة ٥٦١ هـ قضاء الجيزة .

ونرى أن المذهب الشيعي كان رفيقاً في الجملة بمعاملة من حوله من أصحاب المذاهب السنية، فكان يجامل بعضهم بعضاً، فلقد ذكر السيوطي مثلاً أن أبا العباس احمد بن محمد الديبلي الفقيه الشافعي عندما توفى بمصر في رمضان سنة ٣٧٣ هـ « لم يبق بمصر أحد إلاّ حضر جنازته »، وان القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر أبي محمد البغدادي المتوفى سنة ٤٢٢ هـ تولى القضاء ببغداد وما حولها، ثم تحوّل لضيق ذات يده إلى مصر العبيدية الشيعية، فأكرمت وفادته، حتى تبدّل عسره يسراً، ونعم بحياة هادئة سعيدة .

كل هذا يؤيد رأينا في أن العبيديين لم يفنوا من كان بمصر من أئمة المذاهب السنية

نفياً وتشريداً وقتلاً، ولم يقطعوا دابر تلك المذاهب السنية لأنهم علموا، وقد تمسك الجمهور المصري بها ولاسيما بمذهبي مالك والشافعي، أنَّ من حسن السياسة أن يتحببوا اليهم، ويعطفوا على أئمتهم وقضاتهم ويشجعوهم.

ويمكن أن نبرهن على رأينا هذا بوقائع حدثت في أول حكم الفاطميين وأواخر حكمهم، إذ لما وصل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر وجد جوهر مولاه وقائده قد استخلف على القضاء « أبا الطاهر محمد بن احمد بن عبد الله الذهلي » القاضي السني المالكي على أيام كافور، فأقره وسمح له أن يصدر حكماً يغاير مذهبه الاسماعيلي. فقد عرضت لهذا القاضي قضية رجل (هو ابن بنت أوليجور) تظلم في أمر حمام وادعى ملكيته لأن جده لامه أنشأه، وكان ينبغي أن تنتقل ملكيته إلى أمه حسب قانون الشيعة الذي ينص على توريث البنت جميع الميراث إذا لم يكن للميت أخ أو أخت، فأصدر أبو الطاهر حكمه وفقاً لمذهبه السني وقضى برفض دعوى المدعي في ملكيته الحمام، وبالرغم من تظلم المدعي بعد رفض دعواه للخليفة المعز لدين الله واحتجاجه لديه بأن القاضي حكم بمذهب يغاير مذهب الدولة الرسمي، فقد وقع المعز بخطه هذه العبارة التي لم نجد أقوى منها في تأييد رأينا هذا حيث قال: « يمضي في الحمام ما حكم به محمد ابن احمد ». فهذا مثل ظاهر ناطق بأن العبيديين سمحوا في أول عهد حكمهم لمصر، بأن يحكم القاضي السني في دولتهم الشيعية بمذهبه السني.

ولما ازدادت الدولة الفاطمية ضعفاً في أواخر حكمها تولى القضاء سنيون حكموا بمذهبهم السني دون مذهب الدولة الرسمي الاسماعيلي، فقد ذكر ابن ميسر أن أبا علي احمد بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، رتب أيام الحافظ لدين الله في سنة ٥٢٥ هـ في الحكم أربع قضاة يحكم كل قاضٍ بمذهبه ويورث بمذهبه، فكان للشافعية الفقيه سلطان، وللمالكية الفقيه الليثي، وللاسماعيلية الفقيه أبو الفضل بن الأزرق، وللامامية ابن أبي كامل، لتمسك المصريين بمذهبي مالك والشافعي، وعدم انتحالهم المذهب الاسماعيلي، وهي أول مرة يتعدد فيها القضاة في الاسلام وفي مصر.

ولما ولي صلاح الدين يوسف بن أيوب الملقب بالملك الناصر، وزارة الخليفة العاضد عبد الله أبي محمد، آخر خلفاء العبيديين، أزال مظاهر الدولة الاسماعيلية، ومحى دولة الرفض والشيعة، فهدم في سنة ٥٦٦ هـ دار المعونة بمصر وعمرها مدرسة للشافعية، وأنشأ مدرسة أخرى للمالكية وعزل قضاة مصر الشيعيين في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٦ هـ، وقلد صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي الشافعي سنة ٥٦٦ قضاء القضاة بالقاهرة، وجعل له الحكم في اقليم مصر كله، وعين بدل الشيعة قضاة من السنيين الشافعية الذين كان يدين بمذهبهم، بعد أن صرف قضاة

أمراض الوهم

ان عدداً كبيراً من الامراض قد تنشأ أو يتضاعف فعلها استجابة لانفعالاتنا . وبالرغم من أن كثيرا من المتاعب الجسمانية سببها عقلي، فانها ليست متاعب «خيالية» ، بل انها على العكس من ذلك ، أعراضها حقيقية واقعة . وما ينشر من المؤلفات الطبية مفعم بذكر حوادث عجيبة، أحدثت أمراضاً سببها انفعالي في أكثر الامر .

(١) فتاة مخطوبة لفتى تمنعت الانتحار إثر مشادة حادة معه ، ففزع أشد الفزع . وفي اليوم التالي بدأت رقبته تتورم ، وفي مدى شهر أجريت له عملية استئصال الادرة goiter .

(٢) امرأة كان يصيبها الحاق (جدري الماء) مساء كل يوم ، وظل يعاودها عشر سنوات كاملة . ولم يفد فيها علاج أية فائدة تذكر وكان لزوجها أخ اعتاد أن يحضر مساء كل يوم الى المنزل ، فلا يفسح لها مجال الانفراد بزوجها . فلما كف عن ذلك ، لم يصبها الحاق وزال كأنما السحر قد أخذ بيدها .

(٣) امرأة أجرت أربع عمليات في بطنها ولم تشف ، حتى علمت أن اختها تزوجت ، وكانت هي تخشى أن تظل اختها عانساً .

(٤) امرأة أخذها المخاض فعادها طبيب وقابلة ، وظلا ساعات ينتظران أن تلد. وأخيراً تبين انها ليست حاملا ، ولكن رغبتها الملحة في أن يكون لها ولد ، قد أحدثت فيها كل أعراض الحمل الطبيعي ، الى الحد الذي غرر بالطبيب

(٥) أب دخل مدرسة فرأى ابنه في الملعب معصوب الرأس ، فغشي عليه وحمل الى فراشه مريضاً وظل متقاعداً . فانه رأى في صغره أخاً له أصابه الصرع إثر جرح أصابه في رأسه ، وكان يخشى دائماً أن يحدث ذلك لبعض أولاده .

(٦) شاب حمل الى فراشه يشكو آلاماً شديدة في بطنه . وكان قد فشل في امتحان الحقوق . فاتضح ان مرضه يرجع الى الخوف من أبيه ، وكان زجلا شديد الاخلاق وحشي الطباع ، وكان الشاب يعلم ان فشله في ان يكون محامياً ، سوف يثير غضب أبيه .

الشيعة كلهم وأبطل الخطبة والتدريس من الجامع الأزهر رغبة في ازالة كل أثر للفاطميين . وبذلك أخذ المصريون يرجعون الى المذهب السني الذي كانت له السيادة قبل الدولة الفاطمية، وأصبح الشيعة يتظاهرون بمذهبي مالك والشافعي المحببين للمصريين ليبعدوا عنهم الانتقام

ولما تمّ لصلاح الدين الايوبي الأمر وأسس الدولة الايوبية ، وهم من الأكراد الشافعية ، زاد في محاربة المذهب الاسماعيلي ، حتى لم يبق له أثر، وقطع الصلة بيننا وبين العبيديين ، حتى لا نكاد نطلع على شيء من كتبهم في الفقه أو غيره

عطيه مصطفى مشرفه

الأخلاق

وتناسخ الشخصيات

في عالم الحيوان ظاهرة يدعوها علماء الأحياء ظاهرة الانسلاخ . ولنضرب لك مثلاً بدودة القز . فإن هذه الدودة تخرج من بيضة صغيرة كحبة البرسيم بيضاء اللون ، فتكون أشبه بخيط أبيض يدب دبيباً . فإذا اغتذت كبر حجمها وزادت سرعة تنقلها وتجاوز نهمها كل تصور ، فاذا أدركها دور الشرنقة (أو الفيلجة) نقصت قدرتها على الحركة ، وانقلب لونها من البياض إلى الاصفرار ، وقلت شهوتها إلى الطعام ، وجنحت إلى غصن أو زاوية في مكان أو عُصَيّة ، وأفرزت من جوفها لُعاباً إذا جفّ صار خيطاً حريريّاً ، ومضت تلف جسمها بذلك الخيط المتصل المشبع بمادة غروية القوام ، ليكون اذا جف كرة صلبة بعض الصلابة . فاذا انتهت من بناء هذه الفيلجة (الشرنقة) أصابها سبات ، فيجف قوامها ويتحجر ، حتى انك إذا هززت الفيلجة في يدك ، خُيِّلَ اليك أن في جوفها مدَرَةً لها في جدار الفيلجة صوت أشبه بذلك الذي تحدثه كرة صلبة صغيرة ، عند ارتطامها بجسم صلب

إن الدودة ما تزال حية ، ولكنها لا ترزق . فانها في طورها السباتي هذا يغتذي بعضها ببعض ، وتتزوّد مما كان بها من الرطوبات ، ولكنها في الوقت ذاته تكون ماضية في التَّخلّق ، إذ تمضي في سبيل الانحراف عن صورتها الاصلية لتأخذ صورة جديدة — هي صورة الفراش . هي إذ ذاك خلقٌ آخر لا أثر للدودة فيه ، كما كانت من قبل دودة لا أثر للفراش فيها . حكمة بالغة في قوة الخلق والتصوير ، تقتصد بها الطبيعة زمناً وجهداً ، وتحفظ بذلك صورة من صور الحياة بدورة محكمة من دورات التناسخ ، فاذا تخلّق الفراش ثقب جدار الفيلجة وخرج من جوفها حيوانا تام الخلق كامل الاستعداد للتناسل ، فاذا تم الضِّراب بين الذكور والإناث منها ، نبذت الطبيعة الذكور فماتوا لأنهم أتموا في الحياة واجبهم ، وخدموا الطبيعة فيما سخّرتهم له ، واذا وضع الاناث البيض ، حفظن بذلك مستقبل الحياة ممثلاً في تلك الصورة ، نبذتهن الطبيعة ايضاً فمتن في هدوء مستسلمات للقضاء

ءانيات للقدر ، منحدرات الى حيث انحدر قبلهنَّ آلاف وملايين من الأجيال سبقنهُنَّ إلى تلك المهواة ، مهواة اللانهاية والأبد .

هذه الصورة الرائعة التي ترسمها الطبيعة كل يوم على لوحتها الخالدة ، صورة بريئة من كل ما تتخيل من صور العنف أو الشدة أو الجهد، تلك التي تلحظها في حياة الحيوانات العليا ، حيث الألم سبيل البقاء ، والشقاء طريق الاحتفاظ بالنوع . فميلاد جيلٍ جديد من حيوان ضَرَبَ في نظام الطبيعة بسهم وارتفع الى صورها العليا ، يقتضي ألماً عند الولادة وألماً في التنشئة والحصول على الرزق ، وألماً في المرض ، وآلاماً مبرحة عند مفارقة الحياة . أما في تلك الدودة الحقيرة في صورتها ، العظيمة الفذة في حقيقتها ، فميلاد جيل جديد لا يقتضي إلا أن توضع البذرة ، وهي حمل تتخلص منه الأنثى ملتذة بالتخلص منه ، ولا ألم في التنشئة ، فان الطبيعة تتولى الصغار برحمتها ، ولا جهد في الحصول على الرزق ، فالرزق مكفول في جنبات تلك الأم العظمى ، ولا خوف من المرض لأن الحياة قصيرة ، والانتقال منها بلا تباريح من الألم ، بل ان موت الدودة عبارة عن انسلاخ من صورة الى صورة ، وموت الفراش انحلال طبيعي أشبه بانحلال البلورات في الماء ، وهو في الواقع تراخٍ يصيب الهيكل الحي ، وكلما اشتد غاض لهب الشعلة ، شعلة الحياة ، فاذا بلغ ذلك التراخي آخر درجاته ، انطفأت الشعلة ، كأنها قنديل هبت عليه النسمات .

* * *

لهذه الحالة العجيبة مثيلاتها في عالم الخلق الأعلى ، ونقصد بالخلق الأعلى خلق الانسان المتمدين الذي شبت في نفسه جذوة من جذوات الحياة لا يعرفها عالم الحياة الأدنى . وإذا قلنا إن لهذه الحال مثيلات في عالم الانسان ، فلا نقصد حالات الانسلاخ العضوي الذي يصيب الدودة فتصير فراشاً ، وإنما هو انسلاخ من نوع آخر . انسلاخ يصيب الشخصية بمقتضى مجموعةٍ من الظروف والشهوات والانفعالات التي ظهرت آثارها في الانسان ، ومضت تحتكم في ظواهره ، وفي بعض الأحيان في أهم ظواهره ، باعتباره انساناً له مفهوم خاص بعيد عن مفهوم غيره من صور الحياة .

ولا ريبة في أن أهم مظهر من مظاهر الانسان هو خلقه وصفاته الأدبية العليا التي قضت من ناحيتها على صلته الوثيقة بالحيوانية ، وجعلته في منطق الطبيعة مقولة برأسها ، تكاد تنفصل انفصالاً تامًّا عن بقية مقولاتها .

من رأي العلامة « دروين » ان الأشياء التي يمتاز بها الانسان على بقية الحيوان كثيرة

ومتعددة . غير أنها أشياء يمكن بالبحث الاحيائي أن يرجعها المتأمّل إلى أصول لها في صور الحياة الدنيا ، فيكون الاختلاف الملحوظ بينها باعتبارها أشياء انسانية أو باعتبارها أشياء حيوانية، إنما هو اختلاف من حيث الكمّ ، لا من حيث الكيف . ولقد استطاع العلامة «دروين» أن يستقرىء من صفات حيوانية، بدايات صفات انسانية عليا ، ردّها إلى النشوء وجعل مرجعها تأثيرات طبيعيـة كالبيئة والوراثة وغير ذلك . على انه على الرغم من ذلك وقف عاجزاً عن تعليل نشوء بضعة صفات انسانية ، وتعذر عليه أن يجد لها بدايات ترجع اليها في عالم الحيوان . من هذه الأشياء حسّ الموسيقى وحسّ الجمال وحسّ الضمير وغيرها من الحسوس الأدبية ، التي جعلت من الانسان تلك المقولة المنفردة بذاتها في منطق الطبيعة ، مقولة لا يشاركها من عالم الحياة شيء في بعض صفاتها التالية .

إذا خرجنا من هـذا البحث الاحيائي ، ومضينا في بحث نتناول فيـه بعض الظواهر الأخلاقية وتطورها المؤقت بحسب الظروف المحيطة بالفرد ، استطعنا أن نستدل منها على ان العلامة « دروين » أن عجز عن رد بعض الصفات العليا في الانسان إلى بدايات حيوانية ، فان

اقرأ وافهم

يقول رسكن : لا أعجب لما يقاسي الناس من الآلام والحرمان ، وانما أعجب لما يفوتهم من الفوائد .

ولاشك في أن الانسان لا يفوته من شيء تتعذر استعاضته ، لان فواته فوات لمتعة حقيقية، من القراءة بحذق وفهم . وقد دلت الاحصاءات الدقيقة على أن كثيراً من الشيوخ والشباب تفوتهم هذه المتعة العليا ، وان الذي يصرفون انتباههم في قراءته ، انما هي الاشياء ذوات اللذة العابرة التي لا بقاء لها في الذهن ، ولا أثر لها في التثقيف إلا قليلا ، وفي جهات قلما تفيد الانسان في حياته حكمة يرجوها أو تجربة يتعظ بها .

كان من المؤمنين بأن قراءة الفهم لذة تفوق كثيراً من اللذات ، طالب علم من بقرية أقيم في ناديها مرقص حافل في ليلة مرح ، فاقتحم الرقص وأخذ يتلو من كتاب « دون كيشوت » سطراً بعد سطر بصوت عال ، ويعقب على القراءة بشرح المغزى المستفاد مما قرأ .

سمع له أول الامر فتى أو فتيان ، تركا حلقة الرقص في خجل ، ولكن محاضرته انتهت بزمرة عديدة ضمت جميع المراهقين والمراهقات من فتيان القرية وفتياتها .

الفيلسوف المتأمل أو الباحث السيكولوجي ، قد يقع على طرف من تلك البـدايات إذا هو نظر فيما يصيب الانسان من تناسخ أخلاقي ، إذ تتعاقب عليه صور مختلفة من شخصـيات تلابسه ، ولـكل شخصية حالة تنتجها ، وصورة تؤول اليها .

والحالات التي تحـدث تعاقب تلك الشخصيات قسمان ، قسم ذاتيّ ، وقسم موضوعي ، ونقصد بالذاتي ما يصدر عن النفس مباشرةً ، فهي أشياء طبيعية فطرية ، وبالموضوعي ما يصدر عن ظروف تحيط بالفرد فتؤثر في نفسه تأثيراً يختلف باختلاف الاستعداد الخلقي ، فهي أشياء اصـطناعية مفتعلة . ومثلنا على الحالات الذاتيـة الحزن والفرح والخوف والانفعال والتّـشهّي وغيرها ، فجُمَّـاع هذه أشياء تصدر عن النفس بأفعال انعكاسية لا قِبل للارادة بالتحكم فيها . ومثلنا على الحالات الموضوعية ما يصطنع الفرد من ظواهر ، وما يتخـذ من أساليب ، تضيف إلى شخصيته الصحيحة أشياء تنكرها ، توصلاً الى إرضاء شهوات دُنيا تقوم في نفسه ، وقضاءً لمآرب دنيوية ، كالتشـامخ والتـكبّـر والترفع عن الناس والتنابذ بالألقاب وتخليط القيم الأخلاقية ابتغاء التمويه على مثالياتها حتى تـكن الصـفات الفاضلة ، فيروج في سوق الدنيا تـكبر المتكبر وتشامخ المتشامخ ، وما إلى ذلك من الصفات التي اصطلح الأخلاقيون على تسميتها رذائل الخُـلُـق .

***

وفي الحيوان من ذلك بدايات . ولـكنها ترتد جميعاً إلى انفعالات تفيد الحيّ في حالات حياته . فاذا انتفخ الهر أو كشر عن أنيابه الأسد أو هرّ الـكلبُ ، فتلك صـفات تلابس الحيوان اتقاءً لظروف تحيط به . فلما سيطر العقل على الأشياء الانسانية نهضت هذه البدايات الحيوانية ، فتطورت مستخفية في الخلق الانساني ثم ظهرت في صورة مصطنعة يلجأ اليها الفرد إذا أراد أن يحاكي الهر إذا انتفخ ، والأسد إذا كشّـر عن نابه ، والـكلب إذا هرّ . وبذلك بدا في أفق الخلق البشري طابع تلك البدايات مصورة في صورة خُـلُـقٍ اجتماعي مصطنع ، فيحاول أصحاب الخلق الخسيس الضعيف إحياءها في أنفسهم ، ليحصلوا بها على نفس الأثر الذي أرادت الطبيعة أن يكون لتلك الانفعالات الحيوانية التي صوّرناها . ذلك بأن طبيعة التطور ، لما رأت أن تلك الصفات لم يصبح للانسان المتمدين بها من حاجة ، مضت تكبتها وتقمعها ، ماضية بها في سبيل الاضمحلال ، شأنها في ذلك كشأنها مع كثير من الصـفات العضوية التي مضت بها في سبيل الزوال ، بزوال الحـاجة إلى الوظيفة التي كانت تؤدّيها . فالعودة الى استخدام مثل هذه البدايات كالعودة إلى تحريك عضلات الأذن في الانسان مثلاً ،

تكون مصطنعة مفتعلة بعيدة عن حاجات الطبع وأشياء الحياة الضرورية .

تلك أشياء تدلنا على أن الانسان الذي تنسخ شخصيته ، فتزول صورتها الأولى لتلابسه صورة ثانية ، بمقتضى ما يحيط به من ظروف المجتمع ، انما هو في ذلك كالمهرّج الذي يلبس من الثياب ما يلائم الدور الذي يحاول أن يلعبه أمام الناس ، فتتوالى عليه الصّور التي يصطنعها بنفسه ، وهو في جميعها كذّاب مُضَلِّل أفّاك .

وإنك ان تأملت في نفسية الطفل الصغير رأيت أن الطفل قد يلجأ إلى ما يلجأ اليه الحيوان بعض الأحيان من ضروب التنكّر الخلقي ، فقد ينتفخ كما ينتفخ الهر ويكشر عن نابه كما يكشر الأسد مثلاً . ولكن الطفل إذا أتى ضرباً من هذا التنكّر فانما يأتيه عن طبع أصيل . ذلك بأنه في طفولته يكون أكثر احتياجاً الى استخدام هذه الأساليب الحيوانية منه إذا كبر وشبّ واكتمل عقله ، واستبانت مواهبه الانسانية، وأصبح أكثر معرفة بطبيعة الظروف التي تحيط به . وهذه الظاهرة وندعوها ظاهرة « التنكر الخلقي » تبدأ بالضعف والاستخفاء كلما تحوّل الطفل إلى طور الفتوة والشباب ، وتكاد تزول إذا بلغ الفرد سن الرجولة العاقلة .

غير أن مقتضى الظروف المدنية في المجتمع الحديث قد تقلب تلك الظاهرة قلباً كليّاً ، فتخرجها من مجالها الطبيعي إلى مجال مصطنع مفتعَلٍ ، فتنقلب من « تنكّر خلقي » دعت إليه الطبيعة في الحيوان وورّثته الإنسان في بداياته الأولى لحاجات حيوية صرفة ، إلى ما ندعوه « تناسخ الشّخصيّات » ، وهذا التناسخ ان استمدّ أصلاً من صفة التنكّر الطبيعية، فانه في حياة الانسان العاقل المتمدين ليس إلا صفة أثرية يدعو الى استخدامها ضعف أخلاقي تأنسه في كثير من الناس ، إذ تجد أن الفرد الواحد منهم قد انتسخت شخصيته مرات عديدة في مدى حياته ، بحسب الظروف التي تحيط به . وهؤلاء هم أضعف الناس خلقاً وأرذلهم طبعاً وأدناهم نفساً . أولئك هم الارقاء ، الذين يخيل اليهم أنهم أحرار ، أولئك هم الديدان التي تنسلخ فتصير آناً فراشاً وأخرى دابة أو حشرة . هم أولئك الذين ضعفت عقولهم عن تقييم حقيقة الحياة الانسانية ، فارتدوا الى حياة الحيوان . أولئك هم الذين لا يعرفون لحياة الناس قيمة الا اذا عصرتهم ظروف الحياة ، فابتزّت منهم نزعة ذلك التصنع ، الذي هو من كواذب الأخلاق .

راقصة الفالس

لما تنازعها الهـوى واستحكم الوجد الدفين
قامت لتعرب عن جوًى وبجفنها دمعٌ سخين
فاستعجمت عن شرح شكواها وقد غلب الحنين
كم موقفٍ لَحَنَ اللسا ن به وأعربت العيون

عيَّ البيانُ ولم يحرْ لما تكلمت الفنون
وأصاخ مشتاق إلى الأوتار فانهلّت شؤون
فكأنما الألحان في الأسماع من شجوٍ أنين
شرقت بمدمعها العيو نُ وناح من وجدٍ حزين

لحنٌ أثار بها الهوى والوجد مبعثه لحون
تمشي ويثنيها الدلا ل كما تمايلت الغصون
حتى توسطت الجمو ع وساد في الجو السكون
فأتت من الابداع ما أغضت لروعته الجفون

نطقت بما راح الصبا يمليه والسحر المبين
فاذا الكلام اشارةٌ عن غامض المعنى تبين
صورٌ يخيـل أنها الأحلام تمليها الظنون
فارتابت العينان مما أعربت ، وهو اليقين

للجسم رعشةُ مدنف لما تساوره المنون
أو هـزة الداء الدفيـن اذا تملكت الشجون
والخصر من هيف يخا ل به سقام وهو لين
للفن ألوان كما للحسن في الدنيا فنون

وتدور كالمصروع عا وده من الماضي جنون
طوراً تسير الى الأما م كما تخلجت السفين
وتصد كالمذعور لما أرعشت منه اليمين
وبعينها للظامئين لمنهل الرؤيا عيون

دمشق عدنان مردم بك

ألكم الذكر وله الأنثى ؟

هل تسنّى للعلم أن يعين النسل؟

هل سيكون ذكراً أم أنثى ؟ سؤال يَتَردّد في نفس كل حامل — وتظل الأسرة في حالة ترقب حتى تنفصل حياة الوليد من عالم الغيب . فاذا تنفس صبح حياته ، وعرف نوعه قيل ذلك ما كنا نبغي. ولكن كثيراً ما يتلهف قلب أم لها ستة أبناء ، أن يكون لها بنت أو أب له ست بنات، يتمنى لو أن له ابن يحفظ اسم الأسرة ويرث مجدها . فاذا كان عاهلاً أو ملكاً ، فأعباء الملك ! من ذا الذي يضطلع بها من بعده ؟ تلك مشكلة من مشاكل الحظ التي نشأت بنشوء الانسان ، وكبرت مع آماله وانتعشت مع خيالاته وشهواته . أيستطيع الانسان أن يتحكم في الحياة فيتعين النسل ؟

ظلّ العلم حتى عهدنا هذا قليل الجدوى في هذه الناحية . والأحاديث المتناقلة بين الناس أقل منه جدوى ، وفيها من الخيال والأسطورة ، ما في قراءة الكف أو استقراء الحظ من أوراق اللعب . ولقد ذاعت منذ أزمان موغلة في القدم ، أحاديث ، ورويت مرويّات وماتت كما ولدت ، بلا فائدة جنيت ، ولا حقيقة كشفت ، وظلّ ذلك الأمر من المغيّبات . قيل بأن تعيين النسل يرجع إلى دور الأنوثة ، وإلى أوجه القمر ، والاستحمام بماء فيه قلوية أو حمضية ، عند اكتمال وجه من وجوهه . فلم يُجْدِ شيئاً من ذلك ، وظلّ معدل المواليد من حيث الجنس ، واقفاً عند ١٠٦ ذكور لكل ١٠٠ إناث .

غير ان التجارب التي أجريت حديثاً في الاستيلاد ، قد دلت على أن تعيين النسل ممكن ، وإن معرفة جنس المولود من المستطاع التنبؤ به . أجريت التجارب في ذبابة الفاكهة أول شيء ، فقال الذين يعلمون : إذا كانت آليّة الوراثة واحدة في الأحياء ، فلماذا لا يصدق على الانسان ما يصدق على غيره ؟ والعاكفون على مشكلة الاستيلاد الآن ، لا يستطيعون أن يعينوا جنس المولود أذكراً هو أم أنثى فحسب ، بل هم يقدرون على أن يعينوا جنس المولود بحسب اراداتهم باقترانات يختارونها. ومما هو جدير بالذكر إن لدى العلم الآن وسائل يُفْهِمُنا بها السبب في ذلك

كل ذلك إنما يرجع إلى الراهب النمسوي الخالد « جريجور مندل » الذي أدت تجاريبه الخالدة في نبات البسلّة ، إلى الكشف عن أساس الوراثة . فإذا فرضنا نباتاً يخرج بسلّة

سوداء ، وآخر يخرج بسلة بيضاء ، إذا تلاقحا ، لم يخرج تلاقحهما حبوباً كلها سود ، ولا حبوباً كلها بيض ، بل يجيء النسل خليطاً من اللونين ، بنسبة ثلاث حبات سود ، وواحدة بيضاء . فدلَّ ذلك على أن السواد صفة « نافرة » Dominant والبياض صفة « منفورة » Recessive . فاذا استنبتت هذه الحبوب عدداً مناسباً من الأجيال ، عادت جميعاً إلى السَّواد .

إن هذا انما هو تبسيط لقانون كثير الشعب كبير التَّعَقُّد . ولكن هذا البحث كافٍ لفهم المبادىء التي حققت في وراثة الجنس Six — فلون الشعر والعين أو تركيب الفك أو الجبهة في أسرة من الأسر ، إنما هي صفات تنحدر فيها من الآباء ، وكذلك يورث الجنس — الذكورة أو الأنوثة ، من نفس تلك الآلية الوراثية .

إنَّ العنصر الذي له الأثر المباشر في تعيين النسل من حيث الجنس ، هو في الواقع حقيقة طبيعية نستطيع أن نلحظها تحت عدسة المجهر . ففي كل خلية من خلايا الانسان ٢٤ زوجاً من العناصر الحاملة للصفات الموروثة نعرفها باسم الصبغيَّات : Chromosomes ، وواحدة فقط من هذه الصبغيات تؤثر في تعيين النسل . وقد عيّنت هذه الوحدة الصبغيّة في الأنثى بالرمز (س) . ولكن هذه الصبغية المعينة للنسل في الذكر تمتاز بعُقْدَة صغيرة مستقرة فيها ، ويشار اليها بالرمز (ي) .

عند التناسل تمتزج الصبغية السينية بالصبغية اليائية وبعيد قليل تبدأ الخلية الملقحة في الانقسام ، فاذا صارت خليتين ، أخذت كل منهما نصف الصبغيتين الممتزجتين . والنصف الذي يحتوي العقدة من العنصر اليائي (الذكري) يمَّحي ، مفسحاً الطريق للنصف الآخر حتى ينشأ وتتخلّق فرداً جديداً .

حدثت ظاهرة عجيبة لاحظها دكتور « و . جوون » ودكتور « هـ . نلسون » من جامعة « آميس » ، وكان كلاهما يجرّب في ذباب الفاكهة ، فان زوجاً من هذا الذباب ظلَّ يلد ذكوراً صرفاً ، لغير سبب معروف ، فأثار ذلك فيهما رغبة البحث العلمي ، فزاوجا أنسال ذلك الزوج ثمانية أجيال ، حدث خلالها أكثر من ٥٠٠ اقتران ، فلم تخطىء القاعدة ، وكان النسل ذكوراً كله . وكان قد سبقهما باحث آخر ، هو الاحيائي « جرشنسون » ، وقد استولد عشرة من هذا الذباب ، حملت إناثه ذلك العنصر الذي لا يحدث الذكور ، فكان نسلها إناثاً كله .

والوراثة في الذباب تُحكَم بنفس الآلية الصبغيَّة ، كما في الانسان . ومن المعروف أن الصبغيَّات نفسها ، تتألف من عناصر أصغر منها سميت المورِّثات : Genes تماسّ كأنها خرزات في سلك ، وكل مورّثة من هذه المورثات تعيّن صفة خاصة في الفرد الناشىء .

منزل في البادية

تزوج رجل من بني عامر بن صعصعة امرأة من قومه ، فخرج في بعض أسفاره ، ثم قدم وقد ولدت امرأته ، وكان خلفها حاملا . فنظر الى ابنه فاذا هو أحمر غضب أزب الحاجبين فدعاها وانت[illegible]يف وأنشأ يقول :

لا تمشطي رأسي ولا تفليني . وحاذري ذا الريق في يميني . واقتربي دونك خبريني .
ما شأنه أحمر كالهجين . خالف ألوان بني الجون .

فقالت تجيبه :

إن له من قبلي أجدادا . بيض الوجوه كرماً أنجاداً . ما ضرهم إن حضروا محاداً .
او كافحوا يوم الوغى الأندادا . أن لا يكون لونهم السوادا .

قال العربي بلغة العلم لزوجه وقد شك أن الولد ابنه : لا تقتربي مني فلا تنقي رأسي ولا تمشطي شعري، وحاذري السيف اللامع (ذا الريق) في يميني ، فاني أراه أحمر غضب (شديد الحمرة) أزب الحاجبين (كثير الشعر فيهما) تخالف الجون (اي السود) وهو لوني ولون قومه ؟ فقالت تجيبه بلغة العلم أيضاً : لي أجداد بيض الوجوه انجاد (شجعان شداد البأس) لا يضرهم ان كانوا في مجاد (اي في معارضة وتذاكر بالمجد) او حاربوا الانداد (النظراء) ان يكونوا بيض الوجوه ؟ فصفة البياض في الولد موروثة عنهم ، فظهرت فيه نافرة (غالبة) لصفة السواد فيك التي ارتدت منفورة (مغلوبة مقهورة)

والمعتقد عامة أنّ بعض هذه المورثات قد تبيد بعضاً ، عند حدوث الالقاح . فالصبغيّات البائية، عندما تدخل البيضة الملقحة فلا تجد لها زميلاً تقترن به، حيث يكون النصف الآخر من عنصري الجنس وهو النازع إلى الأنوثة قد بادَ وفَني ، يتحقق إذ ذاك أن ينشأ فرد ذكر.

وقد كشِف عن أنّ صفة إنتاج الذكور قد ترثها البنت عن أبيها ، وفي مثل هذه الحال تكون الأنثى مذكاراً ، بغير اعتبار لمن يستولِدها من الذكور . وبالرغم مما يعتور هذا البحث الاحيائي من تعقدٍ، فقد استبان للباحِثَيْن « جوون ونلسون » أن النزعة إلى إخلاف جنس بعينه، قد تنتقل في السلالات بمقتضى قانون مندل، وبذلك يمكن التحكم فيها .

ومحصل القول ان الذكورة صفة « نافرة » Dominant ، وبمقتضى قانون مندل الرياضي ينتج الجيل الثاني الناشيء عن الأبوين الأصليين ثلاثة ذكور تلقاء أنثى واحدة ، كما ينتج نبات البسلة ثلاث حبات سود وحبة بيضاء ، حذواً بحذو . فاذا استولدت أنثى من هذه الاناث من شقيقها ، فتغلب الصفة « النافرة » بتفوّق ، ويخرج نسلهما ذكوراً كله . وبهذه الطريقة استطاع المجربون في استيلاد ذباب الفاكهة أن يستولدوا نسلاً كله ذكور في ثمانية أجيال .

ثبت بذلك أن تعيين النسل في ذباب الفاكهة من المستطاع التحكم فيه إذا استهدينا بقوانين مندل في الوراثة. فهل يمكن تطبيق ذلك في الانسان. والجواب: انه لا يقوم حتى الآن سبب علمي يحملنا على الشك في إمكانه. ذلك بأن الانسان يحمل عنصر الوراثة البائي، كما يحمله ذباب الفاكهة.

إذا تزوج ستة عشر زوجاً، فولد كل منهم أربع بطون، فان قانون المرجحات الرياضية، يحملنا على أن ننتظر أن يكون منها أسرة واحدة تنجب أربع بنات. ولكن الآباء في مثل هذه الحال لا تكون منتخبة — فانها عند ما تزاوجت لم تكن قد زُوّجت بفرض انها تنجب جنساً معيّناً. على اننا نعرف جميعاً ان هنالك أسراً كثيرة، يغلب في نسلها أحد الجنسين، الذكور أو الاناث. وكثيراً ما نسمع ان أسرة « فلان » تنزع إلى الذكور وأسرة « علان » تنزع إلى الاناث. ولسنا فيما نسمع من ذلك إلاّ كمثل من يتلقى من ألسنة العامة درساً من أعمق ما توصل اليه علم الأحياء من بحث وتمحيص لحقيقة التناسل وتعيين جنس الانسال. والواقع في مثل هذه الحال ان الأبوين البشريين يكونان قد انتخبا لا شعوريًّا، في حين أن الأبوين في ذبابة الفاكهة يكونان قد انتخبا عمداً أي اصطناعيًّا.

فاذا استطاع العلم أن يحكم التناسل في الانسان كما يحكمه في ذباب الفاكهة، فأنت اذاً مخيّر في أن يكون لك ولد أم بنت، على شرط أن تنتخب المرأة التي تنجب منها. فان مطلق نثى لا تكفي للحصول على النتيجة المرغوب فيها. إنما تجدي في ذلك أنثى ورثت القدرة على تعيين جنس النسل بصورة « نافرة » عن أبيها.

لماذا يحدث الآن أن طائفة من الأزواج تنسل ذكوراً وإناثاً في آن واحد؟ ففي الأسر التي يغلب الذكور في نسلها، يعلل المندليون ذلك، بأن صفة الذكورة نافرة في الزوجين، وصفة الأنوثة منفورة. فاذا تزوج أبناء هذه الأسرة من أبناء أسر عرف أن النزعة في نسلها إلى الذكور، كان الأذكار طابعها. وهكذا يمكن أن تنجب الاناث بحسب إرادتنا، إذا عنينا بانتخاب الزوجين.

وقبل أن يصبح تطبيق قانون مندل على الانسان أمراً عمليًّا منتجاً، بحيث يمكن إنجاب نسل من جنس معين، ينبغي أن يسجل تاريخ كل أسرة وكل فرد من أفرادها. وبعد مرور عدد من الأجيال يسهل أن نزاوج أفراداً ينجبون الذكور أو الاناث باختيارنا. ولكن أنا لنا بالقانون الذي يحكم الانسان من حيث اختياره الجنسيّ، على نفس الصورة التي يحكم بها المجربون ذبابة الفاكهة في مختبراتهم؟

طابع السياسة الدولية

في عالم ما بعد الحرب

قد يتبادر إلى ذهن القارىء من عنوان هذا المقال ، أن ثمت مجالاً فسيحاً من الحدس والوهم يسود مرامي البحث وعناصره ، وأن الفروض الطليقة من كل قيد أو رابط، هي التي تصوغ الاتجاهات السياسية لعالم ما بعد الحرب،وتمنحها خصائصها الوهمية وطابعها المبتدع .

غير أن منطق الواقع ، أو وحي الحوادث ، الذي تستهديه الأبحاث السياسية المعاصرة وتحكمه الاجتماعات الدولية المتعاقبة في شتى ما يعرض لها من مشاكل الاجتماع الانساني المتطوّر ، هو الذي يوطّد الأسس الراكزة لجملة المناحي الجديدة وآفاق النشاط الموموقة في عالم الغد ، وهو الذي يُرجى لأن يُستخلص من مواضع النقص ومواطن الضعف في نظم الحاضر السياسية والاقتصادية ، مواد جديدة وعناصر حية ، يهتدي بها هذا العالم الجديد إلى تحقيق مثله المكنونة في واعيته الباطنة ، فتنفتح لطموحه واستعلائه ، أهداف السعي إلى ما ينشد من كمال ونضج .

والحق أن للانسانية في كل مرحلة من مراحل الزمن ، وفي كل طور من أطوار التقدم ، حاسة وجدانية مشبوبة، تُصوِّر لها في عالم الفكر المجرّد «مركبات الكمال» التي تعوز حياة الواقع وتُصلِح من تشوّه أوضاعه . وهذا الأمر المشاهد — وإن تبدّى لها في صورة « المثالية المحلقة » التي كثيراً ما تصول عليها سطوة الواقع ، فتنأى بها عن حيز الامكان والقدرة ، وتقف بها عند حدود الأحلام والأماني — لا يزال النبع الدافق الذي ترده هذه الانسانية الهائمة كلما أزمتها عواصف الانقلابات والقلاقل أو شتى العوارض التي تنتاب ركب الحضارة في مراحل الانتقال وأزمنة التحول .

والمثاليّة التي نعني هنا هي ضرب من « اليوتوبيا » التي يسوق إليها التطوّر ، بل ويفرضها منطق الحياة على الأحياء ، فيستهدونها بباعث من نزعات الالهام والخيال التي تسيطر على الحياة باعتبارها فكرة ، محاولين أن يستخلصوا من تطبيقاتها العملية في مختلف

مجالات نشاطهم، بالقدر الذي تسمح به ظروف الحياة وملابساتها ، وقد يذهب الغالون منهم في « المثالية » مذهباً بعيداً ، لا تحتمله أقيسة الواقع وتأباه طبائع الأشياء .

ومشكلة الحضارة العالمية الراهنة، تنحصر في كيفية التوفيق بين هذا الضرب من «اليوتوبيا» وبين منطق الواقع ، أو بمعنى اخر ، بين منازع الكمال والاستعلاء المستكنة في ضمير الانسانية ووجدانها ، ومقتضيات المحيط المادي بنظمه وأوضاعه ومذاهبه .

هذا الأفق المثاليّ الذي يكشف عنه اقتران عالم الواقع بعالم المثال ، هو مناط الحضارة الانسانية المثلى ، ولون الحضارة التي ينشدها الناس في عالم الغد .

ولقد كان الانسان وما زال محفوزاً بغريزته الاجتماعيـة الى مشاركة أفراد جنسه لون الحياة التي فرضها عليه المحيط المادي على تفاوت مراتبها عَبْر حقب التاريخ الانساني المتتابعة . ولما كان الفرد المعتزل كائناً خياليـًّا لا وجود له إلاّ في مخيلة القائلين بهـذا الوهم الجدليّ ، أمكننا أن نقطع باستحالة قيام مجتمع إنساني لا يكون قوامه روح التعاون وإرادة الحياة المتضامنة بين أفراده ، وأمكننا أن نقطع أيضاً بأن اطراد التضامن ودوامه بين أعضـاء الجماعة لا يتحقق بغير ضمانات إجماعيـة تحميه من طغيان الوثبات التي تنشز على الارادة العامة للجماعة ، وتعارض رغبتها في أن تحيا متعاونة متضامنة يشد بعضها بعضاً .

ومن ثمَّ كان نشوء فكرة «السلطة» إرادة أخلاقية منبثقة من ضمير الجماعة، صوّرتها الحاجة وحدّدتها الخصائص الاجتماعية المركوزة في طبيعة الانسان . وهذه الحاجة هي انعكاس لشعور الخوف الغريزي الذي ينتاب الانسان عند انفعاله بدوافعه ، فيحفزه إلى الاحتيال لتجنب عواقبه ودفع أخطاره جهد الطاقة. ولقد كان لعامل « الخوف» فضل يذكر في ترقية غرائز التضامن والتعاون عند الانسان وإكمالها تدريجاً ، حتى وصلت أوج نمائها الاجتماعي في صورة « الدولة » ، مما حدى ببعض أعلام الفكر السياسي الحديث إلى أن يعزو نشوء الحضارات وتطوّرها إلى عامل الخوف وحده ، لبروزه وتفوقه على سائر العوامل الأخرى[(١)]

فالدولة بشقيها الطبيعيين ، السلطة الحـاكمة والرعية المحكومة ، انعكاس واقعي لفكرة أخلاقية أصيلة في الطبع الانساني، قوامها إرادة الحياة في صورة أرقى، وهدفها حفظ هذه الصورة موصولة أبداً بالعوامل الاجتماعية التي تعين على استعلائها وتطورها حتى تماشي السنن التي تقضي بأن تجاوز الحياة نطاقها وتفوق نفسها على وجه الدوام .

ولعلّ الذي يؤكد سيطرة الفكرة الأخلاقية على نشأة الدولة، ما نشاهده في كل مجتمع

(١) راجع H. Laski; A Grammar of Politics, P. 20.

سياسي ، مهما كان حظه من مراتب التحضر ، من اقتران مبدأ « الجبر الاجتماعي « Cœrcion بحاسة الشعور العام، أو ما يمكن أن نسميه بالوعي « الجمعي» الذي يكاد يقوم من الجماعة مقام الضمير عند الفرد، وإن تفاوتت بالطبع معايير هذا الوعي ومثله العليا، بتفاوت حظوظ الرقي والاستنارة بين الجماعات .

فالدولة في جوهرها مزاج تألف من ازدواج جانبين بارزين من جوانب الطبيعة الانسانية ، وهما جانب الهيام بيوتوپيا المثل ، وجانب التقيد بمقتضيات الواقع والتزامات الحياة . والفكرة المثالية تتركز كما ذكرنا في إرادة الجماعة السياسية لحياة أرقى ، أما التزامات الواقع فتتمثل في الحرص على الاستعانة «بالقوة» كمبدإ ووسيلة، إلى بلوغ ما تهدف اليه تلك الارادة [1] من ممكنات .

وهكذا كانت «القوة» وما تزال قرين حق الحياة عند الأفراد والجماعات، وإن تفاوتت أقيستها فيما بينهم بتفاوت البواعث والغايات والأهداف .

بيد أن مراحل التحضر والرقي التي اجتازها الانسان على مدى الزمن ، عكست فيه شعور الايمان بجدوى « القوة » في تنظيم حياته إلى إحساس بالتوجس والحذر من شرورها ، بل لقد جاوزت الحذر إلى الخشية الدائمة من جانبها السلبي لطغيانه الدائب على نواحيها الموكولة بإقرار كل ما يرمي الاستقرار والتوازن في حياة الجماعة . ولما كان الانسان حريصاً على حريته ، مفطوراً على مناهضة كل ما يعوق انفساح مجال العمل أمام إرادته ، لم يجد بداً من استهداء حاسته الاخلاقية لترسم له ميزان التعادل بين كفة « القوة » ممثلة في سلطان « الجبر الاجتماعي » ، سواء أنهض به الفرد أم إجماع الأغلبية ؛ وبين كفة « اليوتوپيا » ممثلة في نزوعه الأخلاقي إلى صورة أفضل لحياة الواقع . وفي هذا يقول الاستاذ « نيبور » : «إن السياسة ستظل على مدى التاريخ ملتقى تتقابل عنده القوة بالضمير الانساني ، وحيث تجد المثل الأخلاقية تتصادم بالعوامل المكونة لسلطان الجبر المسيطر على الحياة الانسانية ، فهي لا تني ترقق من غلوائها ، حتى تقضي على تلك العناصر التي تعوق تحقيق التوازن والتعادل فيها » [2].

ومنذ أن نشبت الثورتان الأميركية والفرنسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر

---

(١) راجع E. H. Carr ; Twenty years' Crisis, P. 124.

(٢) راجع R. Niebuhr; Moral Man and Immoral Society, P. 4, 77

واعظ يؤيد وعالم ينفي

كوتون ماذر ـ Cotton Mather واعظ بيوريتاني (أي من المحضين) أيد بصلابة وشجاعة فكرة التطعيم اتقاء الجدري .

ولقد مضى في تأييد ذلك الكشف العلمي الخطير بالرغم مما نشر عنه من النشرات وقيام الجماهير بالتظاهر عليه ، وقد اتهموه بأنه يناصر الشيطان لانه عما يؤيد العلم ، يخرج العناية الآلهية من حياة البشر . ولكن «ماذر» ثبت في موقفه ولم يتزعزع ، وحمى بنفوذه ورجاله دكتور « زدبيل بويلستون » وهو طبيب علم نفسه بنفسه ، وكان في أثناء وباء بالجدري شديد الوطأة سنة ١٧٢١ ، قد طعم ابنه الوحيد ، وولداً آخر وخادمين أسودين . أما أبناء « ماذر » الستة عشر ، فقد أصيب أربعة منهم بالجدري من قبل .

وتلى ذلك صراع صحفي بين « ماذر » و « جيمس فرنكلين » شقيق بنيامين فرنكلين مكتشف مانعة الصواعق . واستمر ذلك الصراع بين أنصار الاول وأنصار الثاني . أولئك يؤيدون استخدام الطعم ، وهؤلاء يقاومون استخدامه ، وأنصار « ماذر » دينيون وعاظ ، وأنصار « فرنكلين » علمانيون . وهذا من روايات التاريخ الفذة . واعظ ديني يؤيد العلم ، وعالم يؤيد الدين .

أخذت طلائع « المثالية الجديدة » تصور فجراً جديداً لحقوق الانسان، وتصوغ له الضمانات الكفيلة بالذياد عن حرياته من شتى ضروب العسف التي تنتاب المجتمع السياسي في فترات تدهوره وانتكاسه ، ومن ثمَّ جازت الحضارة الانسانية ، بعد حقبة مديدة من الطغيان والجور ، بعصر « الفردية » التي تميزت بحقها المكتسب في أن تستقل باختيار لون الحياة التي تمكنها من استغلال قوى إنتاجها في محيط المجتمع . وقد كان لهذا الاتجاه الاجتماعي في مطالع القرن التاسع عشر ، رد فعل آخر أشد عمقاً وأقوى مظهراً من سالفه ، إذ انتظم الأفراد باعتبار أجناسهم ، وشمل الأجناس باعتبارها مجموعات سياسية ، ترغب في استكمال شخصياتها الدولية ، فانبعثت تيارات القومية من مهابها لتحقق وحدات الشعوب الأوربية المفككة ، ولتوجه السياسة العالمية وجهة جديدة متطرفة ، برزت خصائصها في أواخر القرن الماضي ، عند ما تلبدت في سماء الأفق الأوربي سحب الدعوة الى مناصرة الجامعات

العنصرية وجمع أشتاتها وتوجيه دفة السياسات القومية الى تحقيق برامج التوسع الاستعماري لاجتياز موارد الخامات (١).

وهكذا تمثلت فلسفة القوة من يومئذ في تيارين أصيلين كان لهما طابع بارز في تكييف العلاقات الدبلوماسية بين أمم المجتمع الدولي حتى نشوب الحرب العظمى الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨). وقد تمثل أولهما كما ذكرنا في استفحال شأن « الشعوبية العنصرية » على حين اتخذ الآخر مظهر الرغبة القومية في التوسع والامتلاك، حتى أطلق عليه كتاب السياسة في ذلك العصر « روح الامبريالزم » أو الرغبة في التسلط.

ولم يكن للعالم بدٌّ من أن يظفر طفرة معنوية جديدة يواجه بها رجحان كفة القوة رجحاناً ظاهراً على مثل الثورتين الاميركية والفرنسية، ويستعيد بها استقراره الروحي في ظل مثالية جديدة تحقق له ما عجزت الفلسفة الثورية القديمة عن تحقيقه وتوطيده. وكان أن تمخض هذا التطلع والقلق عن عاصفة الحرب العظمى الماضية التي حاولت أن ترسي من جديد قواعد الاخلاق، لتقيم عليها هيكلاً جديداً لنظم السياسة القومية والعالمية معاً.

وخرجت أميركا من الحرب لتبشّر العالم النزوف المحطم بـ «اليوتوبيا الولسونيّة» ذات الأربعة عشر مبدأ، فكانت « مثالية » ذات شقين، أحدهما قومي بحت، ويتمثل في مبدأ « تقرير المصير »، وثانيهما عالمي تحتضنه هيئة دولية عامة تضمّن ميثاقها ودستورها جملة الوسائل والأساليب المؤكّدة لاقرار السلام، وإحقاق العدل وإشاعة الوفاق بين عامة الأمم المشتركة في عضوية هذه الهيئة، التي سميت بعصبة الأمم.

وقد كانت العصبة بأغراضها الدولية الجديدة من نزع السلاح وتعزيز أساليب التقاضي والتحكيم والتطوّر الفقهي والاجتماعي بنظم الاستعمار، نمطاً رفيعاً من فلسفة الأخلاق الدولية ومحاولة طيبة لطبْع السياسة العالمية بالتعاليم الانسانية المثلى. ولكن فشلها المؤلم في تحقيق رسالتها لم يكن في حقيقة وضعه سوى دليل بيّن على العجز أو القصور عن التوفيق بين فلسفة الأخلاق وفلسفة القوة، أو بمعنى آخر، بين النزعة المثالية وحقائق الواقع السياسية والاقتصادية التي يحفل بها المجتمع الدولي.

وانهار التوازن العالمي مرةً أخرى واستشرت نزعات السلطان الفردي في الدول المغلوبة التي انطوت على نفسها لتستجيش رواقد القوميات وتلهب في الصدور عقيدة التعصب

---

(٢) راجع الفصلين الثاني والثالث من كتاب : E. Benes; Democracy To-day and To-morrow

العنصري، وتسخير الأخلاق الدولية وشتى وسائل التفوّق المادي، لأذكاء شعلة الحماس الوطني وحمت الضمير الانساني حَـيْـرة مطبقة، جعلته يتلفت ملهوفاً على ما يُـقيله من عثاره ويحفظ له ماينهار من تراثه الأدبي، وهكذا جاءت الحرب العالمية الحاضرة ضربة لازب لاقرار التوازن الدولي، مرة أخرى، بين فلسفة الأخلاق كما تفهمها الانسانية الجديدة، وفلسفة القوة في الحدود والضوابط التي ترسمها حقائق الواقع في تراكبها وتطوّرها .

وليس بِـدْعاً أن تجيء هذه الحرب مبشـرة بلوْن جديدٍ من فلسفة القوة، ولكنها ليست قوة القوميات أو الجامعات العنصرية، ولا قوة الفرد الطاغية الذي يتحكم في إرادة ملايين من شعبه، بل هي قوة « الدولة العالمية » أو الوحدة الأممية بين الشعوب التي تؤمن بأن وضعها من الحياة لايُـفهم إلاّ على معنى المشاركة في إعزاز الأمن الدولي وتقوية مقومات الرخاء العالمي في سـبيل النفع المشترك لشعوب البشرية كافة، بعـد إذْ آمنت بإفلاس تلك السياسة التي تقصد الى تخطيط مناطق النفوذ وسيطرة سـيادة الدول العظمى على سيادة الدول الصغيرة .

وكان إعلان ميثاق الأطلنطي بمثابة صَـدْعٍ جديد لنظريات « الاكتفاء الذاتي » وسياسة « التجميع » ومدارات « المجال الحيوي » واستفحال شأن « السيادات القومية » وإيثار « سياسة العزلة » فلا جَـرم عَـدّه العالم بداية عهد جديد لمبدأ الصـداقة مع التكافؤ في السيادات والتمتع بالنصيب المكافىء لرفع مستوى الحياة الانسانية في ظل اتحاد عالمي من جميع الأمم، يعالج مشا كل الحضارة من اجتماعية وسياسية واقتصادية ومالية وعسكرية،ويستمد سلطانه وكيانه من قوة الضمير الأدبي ممثلاً في اتجاهات الرأي العام العالمي كله .

بل ثمت ما يؤكـد هذا الاتجاه الاجتماعي نحو التضامن العالمي في أقوال رجالات السياسة الدولية وزعماء الأمم المتحدة، فها هو ذا المارشال ستالين يعالن العالم أجمع في المادة الأولى من تصريحاته عن أغراض الحرب، بوجوب « إلغاء عدم المساواة بين الأجناس » . ثم يدلي الرئيس روزفلت خلال بيان ألقاه عن مقترحات مؤتمر « دمبارتن أوكس » بأن « الهدف الأساسي للهيئة الدولية المقترحة هو الاحتفاظ بالسلم والأمن الدوليين، وإيجـاد الظروف التي تحقق السلام وخاصة « ونحن نعرف الآن حاجة الشعوب المحبة للسلام إلى مثل هـذه الهيئة، وإلى روح الاتحاد العالمي التي سيحتاج اليها في الابقاء عليها » .

وإذا كان الفيلسوف الانجليزي « برتراند رسل » في تحليله الفلسفي لمعنى « القوة السياسية » وآثارها في مجالات النشاط الدولي، قد ذهب إلى تقسيمها أقساماً ثلاثة، جعل

لكل قسم منها فتيجته المحتومة في مصير المجتمع الدولي [١] ، فان « اليوتوبيا » السياسية الجديدة ممثلةً في مؤتمر « دمبرتن أوكس » قد جعلت من خصائص هذه « القوة » وأقسامها سياجاً جديداً للتوازن الدولي، بعد أن صاغت له دستوراً يوفق، في وحدة شاملة، بين نزعات الانسان المثالية وحقائق العالم الوضعي ، وخاصة بعد أن أثبتت لنا تجارب الواقع السياسي خلال العقود الأربعة الأخيرة ، ان كل خطة للسلام العالمي يجب ، لكي تستقر وتحقق أغراضها ، أن تنهض على الحقائق كما هي ، لا كما يود خيال الساسة ان تكون .

فالقوة العسكرية التي عزا اليها « برتراند رسل » ، عند استفحالها وتفوقها، شرور الحروب ومضانكها ، هي في منطق النظام العالمي الجديد وسيلة من وسائل الأمن البوليسي أو ضبط الرقابة الجزائية الساهرة . فبهذا المعنى لم يعد ثمة مجال لفهم « الدبلوماسية » على اعتبارها « المقدرة على شهر الحرب . ولم يعد ثمة مجال أيضاً لترديد ما زعمه هتلر وأضرابه من الدكتاتوريين، من أن المحالفة التي لا تنطوي في صميمها على نية القتال والحرب، هي عبث لا معنى له ولا غناء فيه » [٢].

كذلك لم يعد للقوة الاقتصادية غرض قومي يُسلكها في حلقة مشتركة مع القوة العسكرية، أو بمعنى آخر لم تعد القوة الاقتصادية في منطق النظام الجديد، سناداً يظاهر القوة العسكرية لتؤدي أغراضها لحساب الوطن الواحد او لحساب محور عسكري واحد . وبالتالي لم تعد النظم الاقتصادية والسياسات التجارية، التي ترمم للشعب الواحد مجاله الحيوي، ذات طابع قومي، باعتبارها وظيفة طبيعية من وظائف الدولة تنفرد وحدها بوضع براجها غير متقيدة بمقتضيات الرخاء العالمي او ضروراته !

وستتخذ السياسة الاقتصادية في النظام العالمي الجديد ثلاث مظاهر رئيسية :

فأولى هذه المظاهر هو اتاحة الفرص الاقتصادية للشعوب المحرومة من نصيبها في موارد العالم ، حتى تستطيع أن ترقى بمستوى الحياة عند شعوبها ، وتكون عاملاً هاماً في الاستهلاك والمقدرة على الشراء . أما ثانيها فهو محاولة احلال التخصص الاقتصادي محل القومية الاقتصادية لتشجيع حركة المبادلات الدولية ، ويبقى المظهر الثالث : وهو يرمي إلى وضع نظم دولية مشتركة تكفل مراقبة أسواق العالم لصالح الامم كافة .

وهنا يؤدي بنا البحث إلى القسم الثالث من أقسام القوة السياسية ، ونعني به قوة الرأي أو سلطان الفكر . ولقد كان عهد العالم باستغلال هذه القوة في ميدان النشاط الدولي على

(١) راجع B. Russel ; Power ; P. 128 — 130.

(٢) R. G. Hawtrey ; Economic Aspects of Sovereignty, P 107

صورة منظمة خلال الحرب العظمى الماضية ، حيما اشتدت قوى الدعاية لخدمة أغراض الحرب، ولإقناع الشعوب بوجاهة مطالب المحاربين وعدالتها ومدى اتصالها بمصير الانسانية وسعادة الجنس البشري . ولما نشبت الحرب الحاضرة كان سلاح الدعاية قد بلغ أوجه ، ونظمت له برامج واسعة ، ورصدت له ميزانيات ضخمة تكفلت بها وزارات خاصة ، وأصبحت الحرب في جوهرها عراكاً بين المبادىء والآراء في سبيل السيادة على توجيه حضارة العالم .

أما اليوم فقد آمنت أمم الديمقراطية المتحالفة بأن حرية الفكر، يجب أن تكون في طليعة الأقانيم التي يستهديها العالم المتحضر في علاج مشكلاته القومية والعالمية ، ونادى رجالات السياسة الدولية بوجوب منح الصحافة في عالم الغد حرية شاملة تؤكدها ضمانات دولية قاطعة ، حتى تُصان حُرْمتها من نكسات الأهواء الفردية .

وهكذا يأخذ اتجاه السياسة الدولية طابعه الأصيل من «ميثاق الاطلنطي» ومقترحات مؤتمر «دمبارتن أوكس» ، (١) فتجيء عناصرها الانسانية ، في شتى نواحي الحياة الدولية المتضامنة تكملة مثالية لفلسفة الثورتين الاميركية والفرنسية، وتتطور في ظلهما الدعوة إلى مناصرة حقوق الأفراد واعلانها ، إلى مناصرة حقوق الشعوب والأمم التي تمقت الطغيان وتحاربه .

يقول المستر « إدوارد ستيتنيوس » وزير خارجية الولايات المتحدة . « إن الاتفاق بين الدول الكبيرة ركن أصيل للسلام ، ولكن الفرصة التي تتيح للدول الصغيرة في خطة « دمبرتون أوكس » أن تقف من الدول الكبيرة ومن مسلكها موقف المراقب المحاسب، هي بلا ريب أعظم كثيراً مما يتاح لها في عالم غير منظم متروك نهباً لعوادي المعتدين » .

لقد جاءت المرحلة الحاسمة التي يتخلص فيها العالم ، ممثلاً في سياسته العالمية الجديدة، من أوهام الفوارق العنصرية والنعرات القومية والتعصب الثقافي . فهل يستطيع أن يدلل بالعمل بعد القول ، على انهُ أهل لاعتناق هذه المثل العليا الجديدة فتقيله من عثاره ، وتشيع المحبة والوئام بين أبنائه في الشرق والغرب ، أم ما زال يعوزه هذا النضج المرتجى لبناء عالم الغد ، عالم الأخلاق الدولية المنبثقة من الضمير الانساني الحر ؟

إن جواباً شافياً على هذا معقود على نتائج مؤتمر « سان فرنسسكو » الذي سيعقد في الخامس والعشرين من هذا الشهر .

صلاح الدين الشريف

---

(١) راجع هذه المقترحات في نشرة الترجمة الرسمية لها (مكتب الاستعلامات الاميركي)

• الابتلاء بالملك

عن عمر بن عبد العزيز لما وَلي الخلافة :

« أيها الناس : إني قد ابتليت بهذا الأمر[1] عن غير رأي كان مني فيه، ولا طِلبة ، ولا مشورة من المسلمين . وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بَيْعَتي ، فاختاروا لأنفسكم .

فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك . فمضى يقول:

« أوصيكم بتقوى الله ، فان تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء . وليس من تقوى الله، عزّ وجلّ، خَلَف . إعملوا لآخرتكم، فانه من عمل لآخرته كفاه الله، تبارك وتعالى ، أمر دنياه . واصلحوا سرائركم ، يُصلح الله الكريم عَلانِيتَكُم . وأكثروا ذِكرَ الموت، وأحسنوا الاستعداد، قبل أن ينزل بكم . فانه هادم اللّذات . وإن من لا يذكر من آبائه ، فيما بينه وبين آدم ، عليه السلام ، أباً حيّاً ، لمُعرقٌ في الموت . وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عزّ وجلّ ، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا في كِتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدّرهم . وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقّاً . إني لست بخازن . ولكني أضع حيث أُمِرْتُ . أيها الناس : إنه قد كان قبلي ولاةٌ تَجْتَرُّون[2] مودتهم بأن تدفعوا بذلك ظُلمَهم عنكم . ألاَ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. من أطاع الله ، وَجَبت طاعته . ومن عَصى الله، فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله فيكم . فإذا عَصَيْتُ الله ، فلا طاعة لي عليكم .

عن ابن الجوزي وابن عبد الحكم ، من سيرة عمر بن عبد العزيز

(١) أي بالخلافة (٢) تجتذبون

اصلاح الخط العربي

— ٢ —

٥ — اقتباس الاتراك الخط اللاتيني

ربَّ متسائل كيف استطاع الاتراك اذاً أن يبدلوا حروفهم من العربية الى اللاتينية ؟ واننا اذ نجيب عن هذا السؤال لا بد لنا من الاشارة الى ان الدافع الذي حدا بالاتراك الى تبديل حروفهم لم يكن لغويـا بحتاً . بل كان من جملة الدوافع ، رغبة الاتراك في الانقطاع عن الشرق ، وفصم علاقتهم بالمدنية العربية والالحاق بالغرب . أما نحن العرب فلست أرى ما يدعونا الى أن نحذو حذو الاتراك في هذا . فنحن وان كنا نريد اقتباس الشيء الكثير من الغرب ، لا نريد أن نفصم علاقتنا بماضينا ومدنيتنا ومجدنا حتى ولو كان ذلك في الامكان.

هذا بعض الجواب . والبعض الآخر مستمد من بحثنا الذي أسلفناه . فالحق ان اللغات التركية والفارسية والأفغانية والأردية ، لغات غير سامية ، تختلف عن هذه كل الاختلاف. والخط العربي دخيل عليها كما كان الخط الهجائي دخيلاً على اللغات الاوربية في أصله . ففي اللغة العربية، أصوات غير موجودة فيها، كما ان فيها اصواتاً غير موجودة في اللغة العربية. فلما جاء الاتراك الى الشرق الأدنى في إبان الدولة العباسية وبعدها واقتبسوا من الأمة العربية الدين والمدنية ، اقتبسوا أيضاً خطها وكثيراً من مفرداتها حتى أصبح ما يزيد على نصف المفردات التركية عربيًّا . ولما كان الكثير من هذه المفردات ينطوي على حروف لا يستطيع الاتراك التلفظ بهـا كالحاء والخـاء والذال والظاء والعين والقـاف ، ولما كانت عند الاتراك أصوات لا توجد لها رموز في الخط العربي كالبا والچيم والڤاء والـكـا وال o وال e وال é كان من الطبيعي أن يحدث شيء غير قليل من التبلبل في اللغة التركية . ولايضاح ذلك نأخذ الكلمتين التاليتين : حَلْـق وخَلْـق ، فان فيهما ثلاثة حروف لا يستطيع الاتراك لفظها جيداً . فهم يلفظون الحاء والخاء كالهاء أو قريباً منها، ويلفظون القاف مثل الكاف أو قريباً منها . ولذلك يصبح لفظ الكلمتين مثل لفظ كلمة هلك، وفي ذلك

ما فيه من التبلبل . ومثل ذلك كثير في اللغة التركية إذا ما كتبت بالحروف العربية. واذا كان الاتراك قد حلوا مشكلة اليا والچيم والقا، بوضع ثلاث نقاط تحت الباء والجيم وفوق الفاء وحلوا مشكلة الكبا بوضع خط زائد على الكاف، إلا أنهم تركوا أصوات o و e é دون رموز خاصة . فاذا أضفنا الى هذا التبلبل في الاصوات اختلاف شكل الحرف العربي بحسب موقعه في الكلمة، وفقدان الحركات منه ، قدرنا ان نفهم ان الخط العربي لم يكن ملائماً للغة التركية كل الملاءمة، وقد يكون للاتراك شيء من العذر في محاولتهم ترك الخط العربي .

٦ — الاقتراحات (١)

نخلص من هذا البحث المسهب اذاً الى النقطة الأساسية التي بدأنا بها ، وهي ان الخط العربي خير ما تكتب به اللغة العربية . فانه مؤسس على أساس صوتي قويم تطابق حروفه أصواته أشد الطابقة ، ما عدا شواذ قليلة جداً ، وانه نشأ وترعرع مع نشوء اللغة العربية وأخواتها الساميات ، وأنه مستمد من طبيعتها منطبق عليها . وقد أدخلت عليه في صدر النهضة العربية الاسلامية تعديلات جعلته أقدر على كتابة الألفاظ العربية من قبل، دون أن تبدل في جوهره وأساسه . وإذا كانت فيه مشكلات اليوم، فعلينا حلها باصلاحه بنفس الروح التي أصلح بها من قبل ، أي بتعديله في تفاصيله دون أن يعمل ذلك على هدم أساسه القويم. واني لمقترح في هذا المقال مثل هذه التعديلات البسيطة في ذاتها ، ولكنني أعتقد انها تحل لنا جانباً مهمّاً من مشكلات الخط العربي دون أن تمسه في جوهره . وهي لبساطتها وقلة تبديلها في الخط الحاضر قد تكون أقرب الى أن يقبلها الجمهور العربي دون كثير تردد . وسأجمع هذه الاقتراحات حول نقاط خمس : (أ) تعديل أشكال الحروف . (ب) الحركات (ج) كتابة الهمزة (د) اضافة بعض الحروف والأصوات الجديدة التي تتطلبها العلوم الحديثة كما يتطلبها احتكاكنا بالعالم . (ه) بعض الاقتراحات في تحسين الاملاء. ولا بد لي من القول أنني لا أدعي لهذه الاقتراحات ابتكاراً ولا أية صفة نهائية، بل هي اقتراحات مبدئية وضعت لغرض الدرس والمناقشة ، ولغرض بيان وجهة نظر فرد من الأفراد في الاتجاه الذي يمكن أن يتخذه اصلاح الخط العربي .

(أ) تعديل أشكال الحروف

الاكتفاء بشكل واحد لكل حرف

يتغير الحرف العربي بحسب موقعه في الكلمة أي تبعاً لكونه منفصلاً أو واقعاً في

(١) قصدنا من هذه الاقتراحات في الاصل ان تطبق على حروف الطباعة . أما حروف الخط اليدوي فقد تتبعها او قد تبقى كما هي الآن . والخطاطون ان يتفننوا فيها ما شاءوا .

أول الكلمة أو وسطها أو آخرها . ولذلك فلبعض الحروف شكلان على الأقل، ولمعظمها أربعة أشكال أو أكثر بحيث يبلغ مجموع أشكال الحروف نحو المئة شكل . فاذا اعتبرنا أن كل واحد من هذه الأشكال قد يكون مفتوحاً أو مضموماً أو مكسوراً أو مسكناً أو مشدداً أو منوناً بالفتح والضم والكسر، أو منوناً مع التشديد اجتمع لدينا أكثر من الف وثلاثمئة شكل تضطر المطبعة العربية على الاشتغال بها . ولما كانت جميع هذه الأشكال لا تتوفر الاّ في القليل من المطابع العربية، نتج عن ذلك عادة اغفال الحركات حتى في الحالات الضرورية.

ولا تنحصر الصعوبة في المطابع فقط ، ولكن هذا التلون في الحرف العربي، يكوّن أعظم مشكلة تعليمية على الاطفال والمعلمين في السنوات المدرسية الاولى . وليست الصعوبة أقل بكثير على الأميين الذين يتعلمون القراءة والكتابة وهم في سن الرشد . حتى يصح أن يقال إن هذه الحالة في الخط العربي هي من أهم العوامل التي تؤخر حركة مكافحة الأمية وانتشار القراءة والكتابة بين أبناء أمتنا صغارهم وكبارهم . وقد آن الأوان لاصلاح هذه الحال واصلاحها ميسور غير صعب . والغريب أنه لم يجر حتى الآن رغم بساطته . وما هذا الاصلاح الذي نشير اليه إلاّ الاكتفاء بشكل واحد من أشكال الحروف العربية بدلاً من أربعة أشكال .

وقد خطا صانعو آلات الكتابة العربية الخطوة الأولى في هذا المضمار، إذ اقتصروا من اشكال الحروف على اثنين، هما شكل الحرف الكامل وشكله في اول الكلمة (ب ، بـ مثلاً) واستغنوا عن النوعين المتصلين من الحروف (ـبـ ، ـب مثلاً) بأن جعلوا كل حرف يتصل بما بعده اتصالاً مباشراً . وهكذا أنزلوا اشكال الحروف العربية من المئة الى أقل من الخمسين، على أنهم لم يعالجوا مشكلة الحركات ، بل أهملوها بتاتاً وأصبحنا لا نستطيع تشكيل الكلمات عند كتابتها على الآلة الكاتبة . وهكذا مشوا في اصلاحهم الى منتصف الطريق فقط .

وقد آن لنا أن نخطو الخطوة الثانية التي يقتضيها المنطق في تبسيط الخط العربي ، وهي أن نكتفي من الحروف بشكل واحد هو شكل الحرف في أول الكلمة . فنكتب الباء بـ ، والجيم جـ ، والسين سـ ، والصاد صـ ، والعين عـ ، والفاء فـ ، والكاف كـ ، واللام لـ ، والميم مـ ، والنون نـ ، والهاء هـ ، والياء يـ ، مهما كان موقعها في الكلمة ، أي سواء أكانت منفصلة أم جاءت في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها . ونكتب كل واحدة في الكلمات التالية على الطريقة المذكورة أدناه (الرسم ٢) : (١)

(١) أشكر للاستاذ منح الراسي رئيس تحرير جريدة الاسترن تايمس في بيروت كتابته لنماذج الحروف المقترحة بخطه الجميل مما زاد في رونقها ، كما أشكر لتلميذي السابقين السيدين كمال الجبوري وخليل اسماعيل الخشالي كتابتهما لبعض النماذج السابقة .

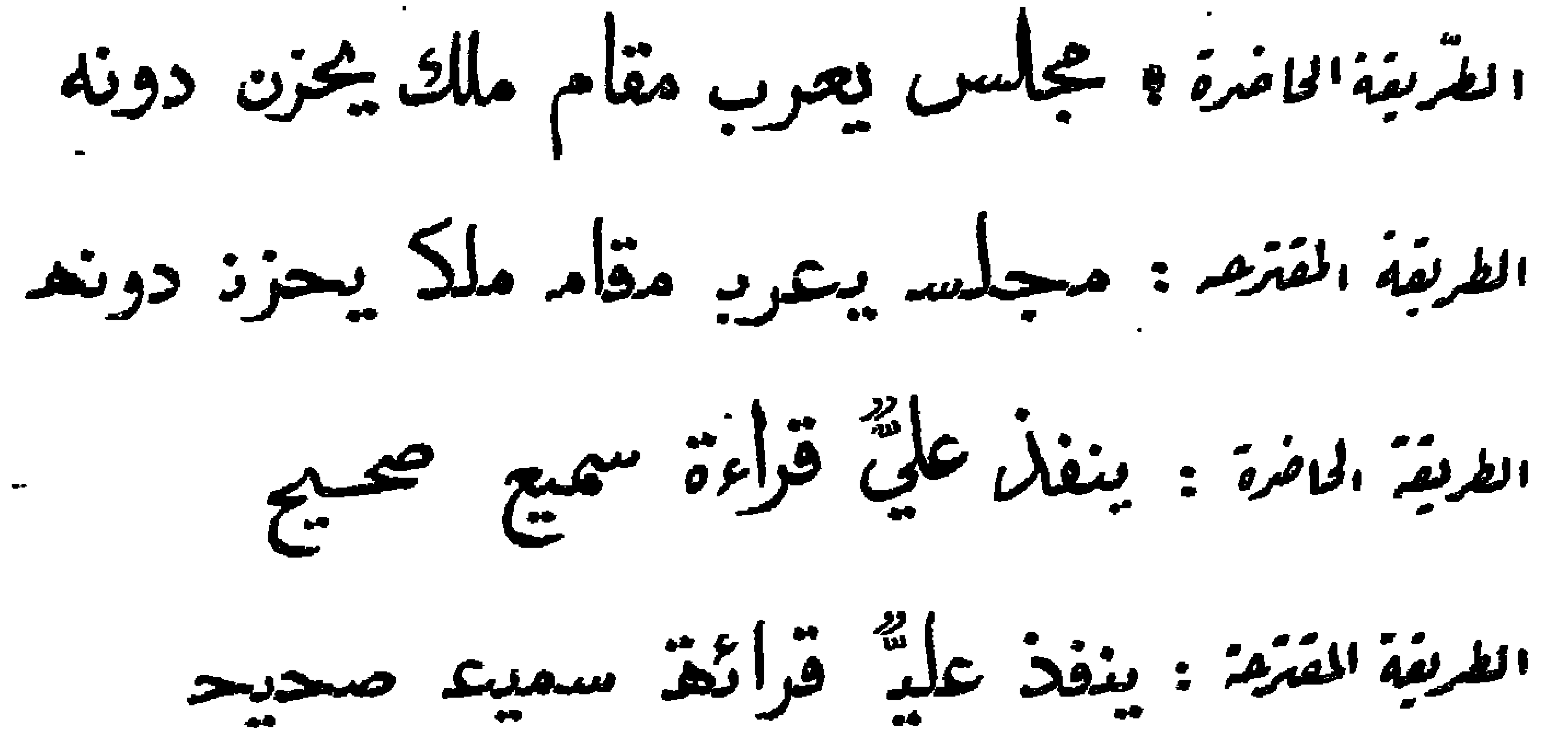

(الرسم ٢)

إننا بهذا الاقتراح لا نكون قد فعلنا أكثر من حذف الزوائد التي تشوب الخط العربي، وتجعله من الخطوط المعقدة الصعبة، وإبقاء أساس الحروف وجوهرها. أي اننا نكون من جهة قد حذفنا الوصلات التي تصل الحروف بما قبلها وجعلنا الحروف تتصل بعضها مع بعض اتصالاً مباشراً، ومن جهة أخرى نكون قد حذفنا أذناب الحروف وأبقينا أوائلها التي بها تتميز الحروف عن بعضها. وليس من الصعب على المسابك أن تصب الحروف بطريقة تجعلها تتصل بعضها ببعض عند الصف في المطابع. وإذا نجح أصحاب آلات الكتابة في ذلك فلا سبب لعدم النجاح فيه في الطباعة أيضاً.

ولاقتراحنا هذا البسيط عدة مزايا: (١) انه يسهل الطباعة العربية، فبدلاً من مئات الأشكال من الحروف يقتصر منها على عدد يساوي حروف الهجاء (٢) انه يسهل تعلم القراءة والكتابة، إذ ليس على المتعلم إلا أن يتعلم شكلاً واحداً لكل حرف، وبذلك نحل مشكلة مهمة من مشاكلنا التعليمية (٣) انه يجعل الكتابة العربية من أبسط الكتابات بين اللغات ان لم نقل أبسطها (٤) إنه رغم هذا التسهيل وهذه البساطة، يحتفظ بجوهر الخط العربي فلا يحدث فيه تبديلاً عظيماً. (٥) في الامكان عمل الحروف في الطباعة على الطريقة التي نقترحها بحيث تكون إما متصلة بعضها ببعض، كما هي الحال في حروفنا الحاضرة، أو منفصلة فصلاً خفيفاً بحيث يسهل تعلم القراءة على المبتدئين.

ولعلّ معترضاً يقول: انك نزعت من الخط العربي جماله. والجواب أولاً: ان الجمال أمرٌ نسبي، يعتمد على الألفة والتعوّد الى حد بعيد. ولا شك عندي انه بعد أن يألف الناس هذا الشكل الجديد من الحروف، سيجدون فيه بالتدريج شيئاً من الجمال: وثانياً لا شك

عندي أيضاً ان الخطاطين والطباعين سيصنعون على مرور الزمن أساليب جميلة لكتابة هذه الحروف . وثالثاً ان ما نتوخاه من الفوائد في تبسيط الكتابة وتسهيل تعلم القراءة ، يبرر تضحية شيء غير كثير من جمال الكتابة .

(ب) الحركات

سبق لنا أن أشرنا الى النقص الذي يُنَوِّه به البعض في الكتابة العربية ، وهو ان الحركات لا تكتب في صلب الخط ، بل تضاف اليه اضافة ، بل هي تهمل في معظم الأحيان حتى أن الضليعين في اللغة أنفسهم قلما يسلمون من اللحن أو الخطأ في القراءة . ولا بد لنا من التسليم بصحة هذا النقد للخط العربي الى حد ما ، فان معاني الكلمات قد تختلف في اللغة العربية باختلاف حركة واحدة . أضف الى ذلك ان أواخر الكلمات تتبدل حركتها تبعاً لمواقعها من الاعراب . وهذا يوقع القارىء في اللحن المعيب المستهجن عند العرب ، وقد يؤدي الى سوء الفهم في بعض الأحيان . ولست بحاجة الى ضرب الأمثلة على هذا الأمر فهو معلوم ، وهو شيء لا تنفرد به العربية، بل هو موجود في اللغات السامية الأخرى . وإذا علمنا اننا في الدراسة الابتدائية لا نستطيع تعليم جميع قواعد اللغة العربية ، فضلاً عن تطبيقها على حسن القراءة والالقاء . واذا علمنا أننا لا يمكن ان نلقن الطلاب في ستة صفوف ابتدائية شوارد اللغة ومفرداتها وقواعدها إلى حدٍّ كافٍ ، علمنا انه إذا بقيت طريقة كتابة الحركات على ما هي سيبقى السواد الأعظم من الشعب الذي لا يدخل أكثر من المدارس الابتدائية محكوماً عليه بعدم القدرة على القراءة المضبوطة دون لحن ، بل سيبقى المتعلمون فوق التعليم الابتدائي معرَّضين إلى اللحن والخطأ في القراءة بصوت جهوري . وهذا ما يدعو إلى التأمل والتفكير .

أجل لا بد لنا من التسليم بهذا النقص في الخط العربي ، ولكن لا بد لنا من القول أيضاً إن في هذا الرأي شيئاً من الغلوّ . ونحن أغلب ما نسمعه من الأجانب ، ومن كل من يضطر إلى تعلم العربية كبير السن ولم يرضع العربية منذ نعومة أظفاره . اما الذي تكون العربية لغة الأم عنده وينشأ عليها، فانه يجتمع لديه زاد من الوف الالفاظ العربية التي يتعلمها بالسماع . وقلما يخطىء في قراءتها فلا تراه يدعو الكاتب « كَاتَباً » ولا البئر « بَئْراً » لانه تعلم هذه الكلمات على الوجه الصحيح فأصبح يلفظها بسليقته . كما انه يستعين بالمعنى عادةً في الاستدلال على صحة لفظ الكلمات . وهذان الأمران لا يستطيع الأجنبي عن اللغة العربية القيام بهما بسهولة . فالمشكلة تنحصر على الأغلب في لفظ أواخر الكلمات التي تتبدل تبعاً للاعراب ، وفي المفردات التي لا ترد في اللغة اليومية عادةً ، وفي المفردات التي تتعارض فيها

اللغة العامية مع اللغة الفصحى ، وفي مضارعات الأفعال الثلاثية ، وذلك في القراءة الجهورية على الأغلب . أما في القراءة الصامتة — ومعظم قراءتنا صامتة — فالانسان لا يجد عادة صعوبة في القراءة والفهم سواء أوجدت الحركات أم لم توجد . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى ، إن عدم وجود الحركات في الخط العربي ، هو في الوقت نفسه مزية من مزاياه إذ هو اقتصاد في الجهد الكتابي ونوع من الاختزال . وهو الذي يجعل أحدنا حين كتابة خطاب أو مقال ، يستصعب تشكيل كل حرف مما يكتب ، بل يجد سهولة كبيرة في الكتابة باهمال الحركات .

أما في الطبع ، فلا شيء يمنع الطابعين نظريًا من تشكيل كل حرف . وإذا كانوا يمتنعون الآن عن ذلك في الغالب ، فلأن الجمهور أولاً لا يلح في طلبه . وثانياً لأن طريقة سبك الحروف الحاضرة عقيمة تضطر الطابع الى شراء كميات زائدة من الحروف . فان الحروف تسبك الآن وحركاتها متصلة بها فيجبر الطابع أن يشتري من حرف الباء مثلاً عدة اشكال أولية ووسطية وأخيرة ومنفصلة ، وكل واحدة من هذه يجب ان يقتنيها بضم وفتح وكسر وسكون وشد وتنوين فتح أو ضم او كسر وتنوين مع التشديد . وفي هذا ما فيه من الاسراف من جهة والصعوبة في صف الحروف من جهة أخرى .

ان هذه المعضلة في الخط العربي دعت بعض الكتّاب الى أن يعرضوا اقتراحات مختلفة لمعالجتها . وأهم هذه الاقتراحات ، فكرة استبدال الحركات بالحروف ، فنكتب الفتحة ألفاً والضمة واواً والكسرة ياء ونضاعف هذه الحروف عندما تكون الحركة ممدودة أي حرف علة . وهكذا نكتب «كتابا» بدلاً من كَتَبَ «والكااتيبو» بدلاً من الكاتب الخ .

ونحن لا نرى هذا الاقتراح موفقاً لثلاثة أسباب : أولاً لأنه يكاد يضاعف عدد الحروف في الكتابة ، فيذهب باحدى مزايا الخط العربي وهي اختصاره .

وثانياً : لأنه يثير لنا مشكلة جديدة هي أعقد من مشكلتنا الحاضرة . واليك البيان : لقد كان في الامكان تطبيق مثل هذا الاقتراح لو ان الجمهور العربي بقي على لغته وسليقته الأولى في الجاهلية وصدر الاسلام ، ولم تبتعد لغته العامية عن لغته الفصحى هذا البعد الذي نجده اليوم . وبهذه اللهجات المختلفة المتأصلة في كل قطر من الأقطار العربية ، بل في كل جزء من كل قطر . أما والحالة كما هي عليه اليوم ، والجمهور العربي ذو لهجات عامية مختلفة ، وأغلبه أمي ، والمتعلم منه لا يتقن قواعد النحو والاعراب ، فالأمر غير ذلك . إن نسبة المتعلمين عندنا ما زالت قليلة ، ونسبة من يتقن قواعد اللغة واعرابها اتقاناً جيداً قد لا تزيد على الواحد أو الاثنين في المئة من المتعلمين . ولنتصور أنصاف المتعلمين ، هؤلاء يحاولون وضع الحركات

حروفاً في أواسط الكلمات وأواخرها ، نفقه حينئذٍ مقدار الأخطاء والتبلبل الذي سيطرأ على كتابة أغلب الناس ، وخاصة في مكاتباتهم الخصوصية ، كما نفقه حيرة القارىء لمثل هذه الكتابة الخاطئة . إن القارىء العربي اليوم لا يجد صعوبة كبيرة في قراءة ما يكتب له إذا كان قريباً عن مداركه، ولا يجد ضيراً في تسكين الأواخر، فيسلم بذلك من معظم الأغلاط وهو يستطيع كتابة رسالة الى صديقه دون تشكيل ، ويسلم من معظم الأخطاء أيضاً . أما إذا طلب منه تثبيت حركة كل حرف مما يكتب، بطريقة الحروف أو بغيرها . فهناك الصعوبة ولا شك انها ستكون أشد وقعاً عليه ، وعلى من يقرأ كتابته من طريقة الكتابة الحاضرة .

وثالثاً : ان هذا الاقتراح ، وكل اقتراح غيره يحاول تثبيت الحركات برمتها حروفاً ، لا يلتئم مع طبيعة اللغة العربيـة خاصة وطبيعة اللغات السامية عامة . إن اللغة العربية لغة اشتقاقية في الدرجة الأولى. وهذا الاشتقاق يحدث بواحدة من طريقتين على الأكثر ، الأولى: وهي الغالبة هي طريقة التلاعب بالحركات، سواءً أكانت حركات قصيرة كالفتحة والضمة والكسرة والسكون ، أو ممدودة كالالف والواو والياء ، ويتبع ذلك تشديد بعض الحروف الصحيحة . فنشتق من وزن فَعَلَ مثلاً الأوزان الآتية : فَعُلَ ، فَعِلَ ، فَعِلٌ فَعَل ، فُعُلٌ ، فِعَلٌ ، فُعَلٌ ، .فاعلَ ، فاعِلٌ ، فِعال ، فُعال ، فَعال ، فَعيل فَعَيْلٌ ، فُوعِلَ ، فَعولٌ ، فُعولٌ ، فَعَّلَ ، فُعِّل ، فعَّال ، فِعيل الخ . والملاحظ في هذه المشتقات انها كلها لم تزد حرفاً صحيحاً على الأحرف الثلاثة الأولى ، وإنما تبدلت حركاتها القصيرة أو الطويلة (أحرف العلة) أو شدِّد أحد حروفها الصحيحة وليس التشديد إضافة حرف جديد بل مجرد توكيد حرف من الحروف. والطريقة الثانية للاشتقاق العربي هي زيادة حروف صحيحة في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها . وعن ذلك بعض أوزان الأفعال المزيدة كأفعل ، انفعل ، افتعل ، استفعل. أو بزيادة الميم في الأول كمفعل ومفعول، أو بزيادة التاء في الأخيرة كفعلة . أو بزيادة الميم والتاء معاً كمفعلة الخ . ولنلاحظ أيضاً ان هذا النوع من الاشتقاق يرافقه كذلك تلاعب بالحركات القصيرة أو الطويلة كالاشتقاق الأول فنقول : مَفعَل ، مُفعِل ، مِفعَل ، مِفعال مَفعيل ، مِفعيل ، مفعول مفيعل ، مَفاعل ، مُفاعِل، مُفاعَل، مفاعيل، مَفعلة، مِفعلة الخ. وصفوة القول ان الاشتقاق العربي يحدث في الغالب بالتلاعب بالحركات ، وذلك بادخال الحركات المختلفة على الحروف الصحيحة الأصلية أو المزيدة في اول الكلمة أو وسطها أو آخرها . أي ان الكلمة العربية مرنة مائعة تتبدل طوع رغبة الانسان يشكلها كما يشاء وكما تشاء المعاني التي يريد التعبير عنها .

وليس هذا شأن الكلمة في اللغات الغربية . فان الكلمة الأصلية في اللغات الاوروبية جامدة

لا تتغير عادةً وانما يحدث الاشتقاق منها إما باضافة حروف في أولها (Prefix) كقولك enter, reenter في الانكليزية و Pressentir, sentir في الافرنسية و Versuchen, Suchen في الألمانية . أو باضافة حروف الى آخر الكلمة Suffix كقولك commandant, command, commander, commanding الخ أو بوصل كلمتين أو أكثر بعضها ببعض كقولك في الانكليزية handbook وفي الافرنسية Portefeuille وفي الالمانية Dachshund . وأنت ترى أن الكلمة في اللغات الأوربية تبقى ثابتة لا تتبدل في جوهرها، سواء أ كان ذلك في حروفها الصحيحة أم في حروفها العلة . ولذلك كان من الطبيعي ان تثبت فيها عند الكتابة حروف العلة مع الحروف الصحيحة . أما الكلمة العربية، فلا تثبت فيها الاّ حروفها الصحيحة . أما حروف العلة (الطويلة والقصيرة) فهي في تبدل مستمر لا تستقر على حال . ولما كانت حروف العلة (بما فيها الحركات) ليست من الناحية الصوتية حروفاً مستقلة بل هي نوع من المد يدخل على الحروف الصحيحة ، ولا يمكن لفظها لوحدها دون اتصالها بالحروف الصحيحة ، لذلك كان من الطبيعي للعرب والساميين القدماء ، ان يحذفوا في كتاباتهم القصيرة منها ، أي الحركات . واذاً فحذف الحركات في الكتابة العربية أمر مساوق لطبيعة اللغة العربية، مستمد من هذه الطبيعة . ولنلاحظ ان معنى الكلمة في الجملة يقرر حركتها ، بقدر ما يساعد وجود الحركة عند الضرورة على فهم المعنى . وقد شكا البعض من أن القارىء العربي مضطر الى فهم المعنى أولاً قبل أن يستطيع تشكيل ما يقرأ على العكس من القراء في اللغات الأخرى ، وعزوا ذلك الى نظام الكتابة باهمال الحركات، والواقع انه ناتج عن طبيعة اللغة وتركيبها، وانما وضع نظام الكتابة موافقاً لهذا التركيب . ولن يغنينا تبديل نظام الحركات في الخط العربي غناءً كبيراً، ما دام نظام اللغة الأساسي كما هو .

وصفوة القول ان نظام الحركات في العربية أمرٌ مستمد من طبيعة اللغة وفيه حكمة أقل ما يمكن أن يقال فيها ، إنها تختصر الكتابة على الكاتب . والاستغناء عن نظام الحركات والاستعاضة عنها بعلامات أو رموز ثابتة ، يوقعنا في مشكلة هي أشد وقعاً من مشكلتنا الحاضرة .

. . .

وإذاً فما العمل ؟ أنبقي القديم على قدمه بابقاء نظام الحركات على ما هو ؟ ان في ذلك ولا شك تجاهلاً لا مسوغ له للمشكلة الحاضرة ، وهي مشكلة اللحن ، ومشكلة التباس المعنى أحياناً على القارىء . فلا بد اذاً من ايجاد علاج يخلصنا من هذين العيبين . ولعلَّ في الاقتراحين التاليين ، ما يخفف هذين العيبين ، إن لم يزلهما بتاتاً . أما الأول فهو ان يقلع الكتاب والمطابع عن عادة إغفال الحركات اغفالاً تاماً فيضعوا الحركات في الكتابة

والطباعة حيث تقوم لها حاجة . فنضم الحرف الأول من الفعل المبني للمجهول في قولنا «ضُرب الرجل» لكي لا يقرأه القارئ مفتوحاً فيتبدل المعنى ، وتفتح الراء الوسطية من فعل عرَف، لأن أغلب الناس يقرأونها بالكسر خطأ ، ونضم ياء المضارعة في مضارع وزن أفعل، لأن أغلب الناس يفتحها خطأ . ونضع تنوين الفتح على التاء في قولنا « ان في الاتحاد لقوةً » لأن الكثيرين يخطئون في نصب اسم إن المؤخر إلى ما هنالك من عشرات الأمثلة .

ويجب أن يتعوَّد الكتّاب والطابعون الدقة في هذا الأمر فلا يهملونه . على ان هذا يقتضي أن تقتني المطابع مجموعات كاملة من الحروف المشكلة (عدا غير المشكلة) بجميع قياساتها . وبما ان عدد الحروف في كل مجموعة يقرب من الألف والثلاثمئة حرف، ففي هذا من الاسراف ومن التكاليف ما لا تستطيع تحمله إلاّ المطابع الكبيرة . ذلك ان الطريقة الحاضرة الشائعة في صب الحروف والشكل في عينة واحدة طريقة سقيمة ، وهي عدا ما فيها من الاسراف متعبة للطابع العربي تجعل تعلم الطباعة من أصعب الأمور على العامل . وهنا يأتي الاقتراح الثاني بشأن الحركات ، وهو فصل الحركات عن الحروف في الطباعة واعتبارها كأنها حروف مستقلة تصب لوحدها وتصف مع الحروف (انظر الرسم ٣)

كيفية وضع الحروف والحركات في الطّباعة

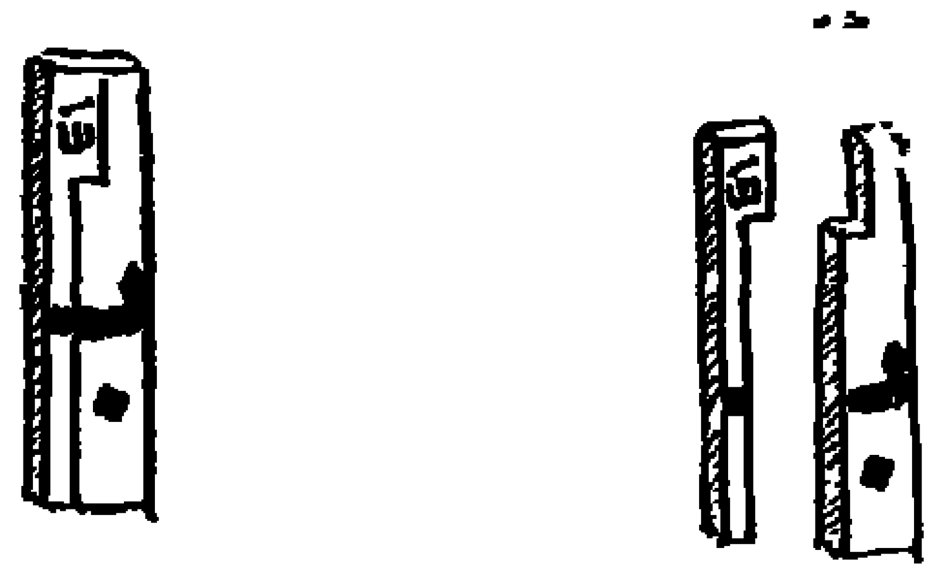

(رسم ٣)

ان مزية هذا الاقتراح انه يمكننا من وضع الحركات أينما شئنا ومتى شئنا ومهما كان مقياس الحروف (البنط) إذ أنه سيكون لكل مجموعة من الحروف حركاتها المستقلة تستعمل عند الحاجة . فان أردنا، جعلنا كل حرف مشكلاً ودفعنا بذلك كل لبس كما في طبع القرآن الكريم أو بعض الكتب المدرسية . وان شئنا لم نشكل إلاّ النزر اليسير من الحروف عند الضرورة . وهكذا نكون قد أبقينا اختصار الخط كما هو، وسهلنا وضع الحركات تسهيلاً عظيماً فيصبح من الميسور اقتناء المطابع لها واستعمالها دون كثير من النفقات .

ان في اقتراح الاكتفاء بشكل واحد لكل حرف من الحروف العربية وفي اقتراح

فصل الحركات عن الحروف لاقتصاداً هائلاً للمطابع العربية . ذلك ان عدد الحروف لن يزيد على الخمسة والثلاثين حرفاً وعدد الحركات مع التنوين والتشديد هو ثلاث عشرة حركة ، فان أضفنا إلى ذلك النقطة والنقطتين والفارزة وعلامة السؤال الخ وجدنا ان مجموعة الحروف ستتراوح بين الستين والسبعين حرفاً ، وهذا العدد هو واحد من عشرين من عدد الحروف في المجموعات الحاضرة المشكلة تشكيلاً تاماً . وللقارىء أن يتصور مقدار تسهيل تعلم فن الطباعة على العمال وما يرافقه من انخفاض في عدد الأغلاط المطبعية ، التي لا تسلم منها أية مطبعة عربية اليوم مهما كانت متقنة .

دكتور متى عقراوى

عميد دار المعلمين العالية ببغداد

بين ملك وعالم

ان تصور عمود الصواعق الذي يمنع الصاعقة من أن تحل بالاحياء والمؤسسات المدنية ، قد طاف بعقل بنيامين فرنكلين عندما أكب على درس تأثير القضبان المعدنية المدببة في اقصاء الكهربية أو تفريغها .

ولقد قلدت الجزر البريطانية أبناء الانجليز المهاجرين الى أميركا فأدخلت موانع الصواعق في بلادها . ولكن بعض علمائها كانوا يفضلون العمدان ذوي الرءوس المكورة ، على ذوي الرءوس المدببة ، في اجتذاب الكهربية الجوية .

وقام النزاع بين جدران الجمعية الملكية ، وامتد الى البيوت والمشارب ، حتى تدخلت الحكومة سنة ١٧٧٢ طالبة فض النزاع . فألفت لجنة للفحص والحكم في الموضوع . وانتهى بحثها فقضى أربعة بأفضلية العمدان المدببة ، ولكن خامسهم « بنيامين ولسون » كتب تقريراً منفرداً أيد فيه العمدان المكورة الرءوس . ومن ثمت انتقل النزاع من ميدان العلم الى ميدان السياسة .

كان « بنيامين ولسون » من أصدقاء الملك جورج الثالث الاخصاء ، وكان غاضباً من تبجح المستعمرين في الناحية الاخرى من المحيط . وكان فرنكلين في نظره ثائراً خارجاً على الامبراطورية . وتدخل الملك في الامر وأمر الى سير « جون برنجل » رئيس الجمعية الملكية ان يؤيد القائلين بأفضلية العمدان المكورة . ولكن هذا العالم الجليل قد أبان لجلالة ملكه ، في أدب واحترام ، انه بالرغم من رغبته الاكيدة في ارضائه ــ « لا يستطيع أن يقلب أوضاع الطبيعة »

فغضب الملك من وقاحة العالم وأمره ان يستقيل فاستقال . ومن أجل ان يظهر لرجال العلم ان عنادهم لا يفيد ، استبدل العمود المدبب الذي كان يحمي قصر « كيو » بعمود مكور . أما فرنكلين نفسه فتوارى مستخفياً ، لكي لا يغضب الملك ، ولا يقامر بالعلم .

كلمة الشاعر *

اللغة نشاط من حيث إنها إفصاح . والإفصاح ذهن يتحرك : هو فكرة أو صورة تسعى من المعقول إلى المحسوس . وعلى قدر تلك الحركة ينبض التعبير . والحركة لا تكون في حدود الجامد . ومن جوامد الكلم تلك الجمل المطروقات على دوران الأيام حتى إن مفاداتها ركّت وغاياتها كلّت . فهي المصبوبات في قوالب من حديد صدئ يستعصي على التبدل والصقل ، والمنصوبات كالوساوس في وجه استقلال القلم . ووالله لولا سلطان هذه المطروقات الباغيات ما ضؤل أكثر من نصف شعرنا القديم ولا شحب جلّ شعرنا الحديث

ولو لم تكن اللغة حركة ما خرجت ألفاظ من مدلول إلى مدلول بحسب ما يطرأ على القوم في مرافق عيشهم ومسالك فكرهم . فحالُ القوم حال الألفاظ . ألا تذكرون لمحة أبي العلاء :

والبرايا لفظُ الزمان ولا بدَّ   له من تغيّرٍ وانقلاب

هذا ، ولغة الشعر على التخصيص ذاهبة في الحركة ، لأن الشعر فيضان ورجفان ، فإما أن يتنزل المعنى من أعالي الأفق ، وإما أن يختلجَ الشعور في أقاصي الضمير : هنا ارتقاب الجائل في الأغوار ، وهناك استسلام إلى السائل من الأفلاك . هكذا الشعر : عمق ونور ، جوهرهما النقاء ، أعني الخلاص من الكثافة والكدارة . وإنما أصل النقاء صدقٌ ولطفٌ ، فالجولان في الضمير شرطه الصدق ، وأما اللطف فشرط السيل من الأفق .

لذلك تتميز لغة الشعر من لغة النثر : هذه يثقلها التعقل ، وتلك يُفلت بها الوجدان . وكيف لا تتميز لغة الشعر ، والشعرُ قوة متوهجة يتجاذبها الأمل واليأس وهي تحاول القبض على الطلق والزائغ . من هنا عسفُ من يُقدم على حل المنظوم وعقد المنثور ، وهمّا منه أن خصائص الشعر وأغراضه لاحقة بمقاييس النثر ، وأنها تقع تحت التجزئة ، فترونه

---

* ألقي جزء من هذا البحث في الجامعة السورية بدمشق في ٢١/١٠/١٩٤٤ ، وألقي الجزء الآخر في القاعة الشرقية للجامعة الاميركية بالقاهرة في ٣ / ٣ / ١٩٤٥

يفرز المعنى من المبنى ، ويُنحّي البيت عن القصيد ، ويقيم الوزن دون نبرات الحروف .

الشعر — بخلاف النثر — خارج على النطق الجاري لأنه أقرب إلى لطافة الهمس ، وفي براعة الرمز أدخل . وإن توافقت الكلمات في النثر والشعر فإنما قيَمُها على تباين . أليس الشاعرُ أسبقَ من الناثر في الجري إلى التقديم والتأخير ، والتلويح والتمثيل ، والحذف والإضمار ، والوحي والاخفاء ؟ وعلى هذا إن جاز الاتباع في النثر فلا بد من الابتداع في الشعر ، لأن الشعر تجربة على غرار التجارب الصوفية . ولكلٍّ طريقته في الوجد والتواجد ثم إن الكشف يرفع لأحدكم — بين الخلوة والجلوة — عما لا يرفع لغيره : اختلاف من جهة الإحساس الدفين والإدراك الرهيف ، يتبعُهُ اختلاف في التعبير والتصوير .

✡

من الثابت عند جمهرة الأدباء — جرياً على ما رأى القُدامىَ — أن الصياغة لا تحلو والديباجة لا تمتن الا من طريق الحفظ . فبالاضافة الى وفرة ما يروي الشاعر من القصائد والمقطوعات ينقاد اليه النظم . وذلك — في رأي الأدباء — لأن الأسلوب الذي نسج عليه الفصحاء الأولون مختزَن في حافظة الراوي ، وأن الطريقة التي سبكوا بها وحبكوا مرتسمة في مصورّته . فلولا انطباع الأساليب على صفحة الدماغ ، وانتقاش الطرائق في تجويفةٍ من تجاويفه لتخلّف الطبعُ أو نزفت المادّة ، وتعسّف الأداء أو سخُفت العبارة .

والرأي عندي أن الحفظ إن مكّن الشاعرَ من مناهج النظم يحبسْ قريحته بين جدران المنقول ويغلّق عليه أبواب المسموع . وأخوفُ من هذا أن يُقبل المقبل على لون من ألوان الشعر فيحفظه أو يختارَ شاعراً أو شاعرين أو ثلاثة فينقطع لخواطرهم ، وإن برَعت: فمثلُه كمثل المدني الذي لم يركب نهراً ولم يطلع جبلاً ، فقدَمُه يُعوزه الدفقان . والشر بعد ذلك في أن ينجذبَ إلى الشعر الليّن والسهل وأن يأخذَه التغني وحده . والشرُّ كذلك في أن يَهيم بالشعراء المتأخرين والمحدَثين ويقنعَ بالتلقي عنهم ، فيلتقط ألفاظاً وجملاً معدودات، كالتي استحدثها شوقي واللبنانيون في المهجر، فيهوّل بها على القارىء الذي ضاق وعاؤه كذلك .

وهذا هذا في المعاني الدوّارة في الشعر . وهي غالبة على الذهن الذي جعل الحفظ دأبه فاعتمده . بالله أيهُ زكّم بعدُ تشبيهُ الحبيب بالبدر والكريم بالغيث والشجاع بالأسد ؟ أوَ ينفَضكم بعدُ سهادُ العاشق النوّاح وثقلُ ردفِ المعشوق ؟ ويجري مجرى المعاني الدوّارة الصورُ الجوالةُ في الشعر القديم بين طَرفي الحقيقة والمجاز . وقد بطَلت مادّة طائفةٍ منها

أو صارت لا توحي شيئاً في نفس ابن القرن العشرين . . . ولا أريد التبسط في مطروقات المعاني والصور ، فإن بحثي ههنا في اللفظ وحده .

ألا أن النشاط الذي أشرت إليه قبلُ في شعرِ من يحوك على المنوال المسمَّر منذ الزمان الأول،من حيث لا يشعر أو وهو يشعر ، وفي تقديره أنه ذو فصاحة وذو بلاغة لأنه يعارض الفحول ويراسل المطبوعين . والحق أنهم أئمة مجتهدون، وأما هو فنساخ عاجز وإن حذق النقل . وترونهُ إذا أراد الابتداع فهجم على تحريك خاطره ، يخش أن يكون من الخوارج فيُحجم ، شأنَ الورع الذي نشأ على السجود يهاب الابتهالَ ووجهُه إلى السماء . وإن اتفق لهذا النظّام أن يستنبط تعبيراً أو تعبيرين في القصيدة كلها هلك رونقهما لضياعهما بين ألوانٍ شاحبة ، ألوانِ التراكيبِ البالية . فيقع عليه قولُ ابن الرومي في البحتري :

عبد يغيرُ على الموتى فيسلبهم حرَّ الكلام بجيشٍ غير ذي لجَبِ
ما إن تزال تراه لابساً حُللاً أسلاب قومٍ مضَوا في سالفِ الحُقبِ

ألا قد آن أن نرقُبَ الشاعر الذي في صدره قولُ أبي العلاء :

وإني وان كنتَ الاخيرَ زمانه

فيحوك ويوشّي على نحوٍ يخيَّل إلى أحدكم أنه غريب ، وما هو بغريب، ولكنه جارٍ على غير مثالٍ موقوف، ليس للمحفوظ سلطان عليه . وقد يستوحش أحدكم إذن لانه تعوَّد سماعَ ما ألف . فاذا كان مستطرفَ الحسّ ، مستطلع الفكر ، أنس وتمتع ، وقد فطن لأنّ الشاعر لا يحسُن به أن يكون عبدَ ما قيل فيصب خمره في كوب غيره .

ثم إن استقلال اللفظ يَفسح للمعنى لانه يُطلق المعقول من أسْر القول . فكثيراً ما تكون خمر الشاعر الحافظ لغيره أيضاً ، وذلك أن التركيب الراتب في الذهب يحدو التفكير ويغذو التمثيل ، فيستدعي المعنى ويستجلب الصورة ، كقول القائل عفواً واتباعاً : « غصن البان » و « غضّ الاهاب » و « الصخرة الصماء » . وأكثرُ ما يقع هذا في القافية إذ تجدون الشاعر الحافظ يستفرغ من أوعية السابقين فيختم السمْط بالخرزة التي تقبوها له وأحضروها . ومن العجيب أن البلاغيين يعدُّون هذا قدرة وحسنة . وقد آن أن نرى عكس ذلك ، فنرغب إلى الشاعر في أن ينظر إلى أبي تمام إذ يقول واصفاً لأبكار معانيه :

منزَّهةً عن السرَقَ الورَّى مكرمةً عن المعنى المعادِ

وفي أن يَطرح مثلاً ردَّ العجز على الصدر ، إلاَّ إذا اقتضاه السياق اقتضاءً فبرع المعنى به وزاد .

ولو كان في الزمن اتساع لضربتُ لكم في كل ما تقدَّم مثلاً قصيدة لابن الرومي قالها في مغنية اسمُها «وحيد» . فهل لكم أن ترجعوا اليها فتوازنوا بين ستة الأبيات الأوليات ومطلعُها :

يا خليليّ تيمتني وحيدُ ففؤادي بها معنًّى عميدُ

وتسعةِ أبيات في مجرى القصيدة ، أولها :

ليَ حيث انصرفتُ منها رفيق من هواها وحيث حلّت قعيدُ

وآخرها : حسنُها في العيون حسنٌ جديدٌ فلها في القلوب حبٌّ جديدُ

وفي هذا البيت رد للعجز على الصدر. ولكنَّ فيه تعظيماً للمعنى، ذلك أن حسن وحيد المغنية فيه « كل ساعة تجديد » يولد في القلوب هوًى جديداً(١) .

فاذا أنتم وازنتم هذه الأبيات بتلك ، توضَّح لكم الشسعُ الذي بين نفَسٍ أفلت مستقلاً بتعبيره ، وآخرَ انحبس مذعناً لمحفوظه .

وصفوة هذه المقدمة أنه كما أننا أدركنا في علم التربية أن حشو الدماغ لايخرّج التلميذ في فنّ من الفنون ، ولكنْ يخمد فطنته وينضب رويته ، كذلك يحسن بنا أن ندرك أن استظهار الأشعار لا ينمّي ملكة الشاعر، ولكن يحدُّ قريحته ويبلّدُ بادرته مبنىً ومعنى جميعاً . فلا انطلاق ولا انسراح ، بل قعود وركود .

✡

وإذا قال قائل بالأمس أو اليوم : للداخل على ساحة الشعر أن يحفظ ما استطاع ثم ينسى ليستقلَّ بملكته ويبتدع ، فإنما هو قول مرتجَل لا يثبت على التجربة من جهة ولا يرجع بين أيدي علماء النفس من جهة :

لا شك في أن النسيان سبيل التحرر مما يسدُّ على أحدنا مساربَ الفكر . وسلوان العاشق المتيَّم خير مثل لهذا . ولكنْ كما أن العاشق يستحيل عليه أن يسلو ما دام في إقبالٍ على معشوقةٍ نشطٍ ، أو ذكرٍ له مطّردٍ ، أو شغلٍ به مقيم ، كذلك يستحيل على الحافظ أن ينسى محفوظه وهو يتعهده بالقراءة أو بالاستذكار أو بالاستحسان. فإنما البعد أول شروط

---

(١) ومن رد العجز على الصدر ترثرةً أو حشواً قول البحتري يمدح علي بن محمد بن الفياض :

عيل صبر المحب مما يلاقيه ولا غرو أن يعال اصطباره

أنجبته أحرارُ فارس حرة البيت والبيت خيره أحراره

النسيان ، وقديماً قالت العرب: « البعد مسلاة العاشق » . لذلك ينصح الناصحُ لمن ولّـهه الحبُّ أن يمضي في الأرض، فيستشرف سماوات غير سماء الحبيب ويستروح أنساماً غير نسيمه.

فاذا حاول الحافظ أن يتباعد عن محفوظه بأن يهجره أو يهمله أو يتشاغل عنه ، شقّت المحاولة وبعد مرماها. وذلك لأنهُ ظلّ زماناً يدأب في الاستظهار الصرّ ، فاجتمع قلبه على ما وعى مجتهداً ، وتشرّب ذهنهُ ما تلقّف عامداً ، بخلاف ما ينشأ عن الحفظ الحاصل عرَضاً من طريق القراءة[1]. ونتيجة ذلك الاستظهار أن المحفوظ يرسخ أيما رسوخ ، يزيد في ثباته طراءة الفتوة وأثر المعاودة . والدليل على هذا أن أركز الذكريات هي أبعدها عهداً وأكثرها تردداً بحسب ما بيَّنته « سنة التقهقر » التي سنَّها العالم النفساني ريبو Ribot في شأن انحلال الذاكرة[2].

ثم إن ذاكرة المستظهر الصرّ أقرب إلى الآلة ، تندفع حركتها اضطراراً . أو هي تعلو على الارادة فتزيغ من حكمها ، لأنها أصبحت عادةً قد لابست الذهن بالارتياض ولازمته بالممارسة . والعادة — في مصطلح علم النفس — « استمداد دائم مكتسَب لتكرار الاعمال نفسها وقبول التأثيرات بعينها » . فاذا اقتضت العادةُ الجهدَ والتنبه في نشأتها فانما هي جمود عند غايتها . فمن أين انطلاق الملكة وكيف يكون التوليد، وهذه الذاكرة تُعدّ وتمدّ وتلهم وتدفع ؟ ذاكرة قويت وسَرُعت ورَحِبت وشمخت، مغتصبة حق الحس والفكر وحظ الخيال والخاطر .

لذلك من المستحيل أو من الشاق أن يتيسر لمن حفظ بهمة ونيّة أن يخرج عن رق المنطبع على صفحة دماغه والمنتقش في تجويفة من تجاويفه . هو أسير ما طلبه ورده وارتاح اليه . ولا يثور عليه غير جبار عبقري، فيناضله ، ولكن هل يصرعه ؟ فهذا أبو تمام الذي أسمعتكم وصفه لأبكار معانيه ، والذي كان كثير الاتكاء على نفسه كما قال فيه إسحق بن إبرهيم الموصلي ومن بعده الصولي، منفرداً بصوغه حتى إن محمد بن عبد الملك الوزير رثاه بقوله :

وكنتَ ضريب وحدِك يا ابن أوسٍ[3]

فأبو تمام هذا إنما احتذى تراكيب غيره أحياناً ولاذ بمعانيهم ، كما قد بيَّن الآمدي في

---

(١) راجع مثلا بحث Gates وعنوانه : Recitation as a Factor in Memorizing, Archives of Psychology, 1917, No 40, p 104

(٢) راجع كتابه Les maladies de la mémoire, chap. 2

(٣) راجع «أخبار أبي تمام» للصولي ، ص ٢٢١ ، ٥٣ ، ٢٧٨

« موازنته » وبيّن غيره . وفي شعر أبي تمام هذا قال دعبل إن ثلثه سرقة ، ولكنّ في هذا القول غلوًّا ،فقد كان دعبل ممن يميل على أبي تمام [1] .

وفي رأيي أن حذو أبي تمام حذو غيره ممن سبقه ، وإلمامه بحسناتهم يرجعان الى سببين: الأول سعة حفظ أبي تمام وهو الذي اختار نفائس الشعر القديم في « ديوان الحماسة » . وأما الثاني فملازمته عمود الشعر الجاهلي ، وسيعرض لنا الكلام على هذا في ما يأتي من البحث .

ثم هذا ابن الرومي الذي يقول :

كم كلماتٍ حُكتُ أبرادَها وسطتُها الحسنَ وطرَّفتها

كأنه يلمع إلى قدرته على الاشتقاق والاختراع ، هذا هو يعمل قصيدة في وحيد المغنية فينحبس نفَسه تارةً ، وينفلت أخرى ،كما ذكرتُ لكم .

وإنما حال ابن الرومي ههنا وأضرابه مثل المتنبي من حال أبي تمام .

✡

وإني أستأذنكم في التغلغل . فان للحفظ شأناً كبيراً عند جمهرة الأدباء .

إنما السبب في تعلق الاقدمين بالحفظ حتى إنهم جعلوه متكأ الملكة الشعرية تجدونه في ما أجمله ابن خلدون إذ قال في الفصل السابع والاربعين من المقدمة : « اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني ، وإنما المعاني تبعٌ لها ، وهي أصل » . وهذا القول يرتد إلى ما سطره الجاحظ من قبل ، قال : « إن المعاني مطروحة في الطريق... وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ ... »

والتحقيق أن في تغليب أكثر الأقدمين اللفظ على المعنى ، وأيضاً في تغليب بعضهم المعنى على اللفظ مفاضلة ، وفي المفاضلة تفريق . والفرق الذي أقاموه بين اللفظ والمعنى من قبيل الفرق الذي أقامه الفلاسفة بين الروح والبدن . وآية ذلك التشبيه قول ابن رشيق في « العمدة »[2] : « اللفظ جسم وروحه المعنى »، وكذلك قول الجاحظ قبله في رسالة « الجد والهزل»[3]: اللفظ للمعنى بدن والمعنى للفظ روح، ولو أعطى الله الاسماء بلا معان،كان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له ، وشيئاً لا حس فيه » .

---

(١) « أخبار أبي تمام » للصولي ص ٢٤٤

(٢) أول باب اللفظ والمعنى (٣) « مجموع رسائل الجاحظ » القاهرة ١٩٤٣ ص ٨٥

هذا رأي أصحابنا . غير أن الروح والبدن ليسا على الفرق الذي يتوهمه متوهم . فهل أذكركم ما انتهى اليه التفكير الحديث على أيدي علماء الحياة والفلاسفة الذين بينوا أن في المادة قوة (١) ، وفي مقدمة الفلاسفة : برجسن Bergson فقد تناول المطلب الذي نحن بسبيله في ثلاثة كتب (٢) .

أجل يُخرج البدن من صفة الجمود ذلك النشاط الكامن في ثناياه والذي نحسه ونختبره بوساطة العضلات ونحن نسلط الحركة الجسمانية على الأشياء الخارجية . والنشاط لا يُعقل من غير القوة ، والقوةُ حياة ، والحياة أصلها الروح بمعناه الأوسع . فالمادة أولى درجات الفكر من حيث إن كليهما استمرارٌ متحرك . هما من جوهر واحد ، وليس اختلافهما إلاّ من جهة الوجود : في الفكر ، لا تفتأ الحوادث تتجمع كأنها تريد الوثب ، وفي المادّة ، لا تنفك تتمدد كأنها تريد الراحة .

والذي أستخلصه من هذا أنه كما أن الروح والبدن ليسا على الفرق الذي يتوهمه متوهم كذلك اللفظ والمعنى هيهات أن يكونا على تباين أو تقابل — تخيلوا مجلس غناء ، فكأن اللفظ جرسٌ يتردد في ستائر المعنى . فاذا برز المعنى نبر الجرسُ ، وهذه هي الكلمة : خروجٌ التحمت فيه القوة بالفعل ، فأثر من طريق الحركة الدافقة .

لذلك ترونني أعتسف الحديث بعض الاعتساف وأنا أذاكركم هنا في لفظ الشاعر . فليس هذا اللفظ بموجود مستقل بذاته عن ذات المعنى . فليكن هذا مني على سبيل الترخص في العرض ، ومقصدي الكلام في ذلك الجرس قبل أن ينبر (٣) .

✡

الشاعر من يصوغ عبارته على حسب ما يستأنس حسُّه اللغوي بعفو طبعه ، فذلك تعبيره ، ومن هنا عظمة نفر من الشعراء الجاهليين والمخضرمين أصحاب القرائح الطلقة الغمرة . ولم

---

(١) Janet et Séailles, Histoire de la Philosophie, Suppl, Chap 16.

(٢) Bergson, Les données immédiates de la conscience-L'Evolution Créatrice - Matière et Mémoire.

(٣) ولأخي الاعز الاكرم الاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني مقال في « اللفظ والمعنى » (المقتطف « التعريف والتنقيب » مايو ١٩٤٤) يرى فيه أيضاً أن اللفظ والمعنى لا يتجانبان . ولكل منا اسلوب في الدلالة والاستخلاص والغاية .

يغب الأمر أو بعض الأمر عن بصراء العرب . أفلا ترونهم يمدحون امرأ القيس بما جاء به من البدائع والبداءه . قالوا : له « قيد الأوابد » ، وله « سموتُ إليها سموَّ حباب الماء ».. وهنالك غير هذا الشاعر وغير هذين المثلين ... ويا ليت الشعراء كانوا أكثر والأمثلة أوفر ! ثم إن أولئك النقاد ذموا من يطلق يده في شعر من تقدمه، ولكنَّ لهم في السرقات الشعرية رأياً بل آراء كان في الود أن تكون أقل تسمحاً ، ولولا قبولهم للتقليد وفرحهم ببقاء عمود الشعر ما تسمّحوا .

وربما ذهب الشاعر في الاستقلال اللفظي حتى انه يجدد الكلمات ويولد التعبيرات فيفحإ ويحير ، ذلك شأن شكسبير ومالارميه Mallarmé الفرنسيّ ، وان شئت فقل : ذلك شأن نفر من الصوفية عندنا ، فهذه أشعار التجلي بين أيديكم ، وهذا ابن سبعين الاندلسي ، وهو من المئة السابعة ، كان يقول بأن اللفظ يجب أن يبقظ السامع ويَبهته [1]. ثم إن في شعر أبي تمام شيئاً من هذا ، ألم يصف ثوباً من الكتان بهذه العبارة : «قصبيًّا تسترجف الريح متنيه» ؟ ولغيره مثل هذه الفلتات، كقول ابن أبي ربيعة « نام صحبي وبات نومي أسيرا ».

وقد يرتجل الشاعر لغته فيسبح في ملكوت كلمته ، ذلك ما ابتدعه أعجوبة القرن الماضي Rimbaud الفرنسي وقد نحا نحوه شعراء ما وراء الواقع les Surréalistes ، فأنشأوا أداءهم إنشاءً وتهوّسوا ، والحلاّج في أدبنا يجاريهم وهو في سبيلٍ غير سبيلهم ، وسأعود إلى لوامع الحلاج في آخر البحث .

✡

وليس الغرضُ من كل ذلك براعةَ الشاعر في استعمال اللفظ الغريب والمتروك دلالةً على إحصائه واستقصائه ، ولا في تذليل القوافي الجوامح برهنةً على قدرته الفائقة في نظم الكلام — وهنا وهنا عيب أبي العلاء — ولا في التحسين والتزويق ابتغاءَ الزخرُف المحض ، ولا في الاستطراد والإسهاب حيث لا وجه لهما رغبةً في سرد الألفاظ فتنزل منزلة الحشو أو الإقحام . ولكنَّ الغرض من كل ذلك أن يعبّرَ الشاعر التعبيرَ الرائع ، الحافل ، الصادق ، الخاصّ بانفعاله الذاتي . وتصيبون هذا التعبير في قول أبي النجم الراجز يصف زوال الشمس :

---

(١) أخبرني بذلك صديقي وأستاذي السابق المستشرق لويس ماسينيون L. Massignon

حتى إذا الشمس اجتلاها المجتلي بين سِماطي شفقٍ مرعبَلِ (١)
صغواءَ (٢) قد كادت ولمّا تفعلِ فهي على الأفق كعين الأحول

وفي قول ابن الرومي في الخمر :

ومدامةٍ كحُشاشةِ النفسِ لطُفت عن الإدراك باللمسِ
لنسيمها في قلب شاربها روْحُ الرجاء وراحة اليأس

هذا ، ومن وسائل ذلك التعبير ابتكارُ اللفظ ، ولا أعني ابتكارَه من جهة التلفيق ، كما صنع بشار بن برد يوم جاء بلفظ « الشنفران » وقد سئل عن معناه ، فقال للسائلين : إنه من غريب الحمار فاذا لقيتموه فاسألوه عنه . فإنّ هذا العبث ليس من الفن الصحيح في شيء وإن يَقْدُرْه بعضُ الشعراء الغلاة في فرنسة ، وقد شقّ لهم الباب رجل ذو بَدَوات اسمه Isidore Ducasse أو le comte de Lautréamont ، وعلى هذا أيضاً شعراء المذهب الاستقبالي les Futuristes .

إنما ابتكار اللفظ على جهة ما قال أبو العلاء :

وقد جدّ أهلُ اللعَبين فأثّلوا بناءً ولم يُعرَف لرافعه رسْمُ

وقد أراد بالملعبين : الليل والنهار (٣) ، ولم أجده بهذا المعنى في كتب اللغة ، ولعلّ أحدكم يهديني (٤) .

وليس ابتكار اللفظ من طريق الكناية والمجاز على أنواعه سوى بعض المنشود . فأعلى من هذا وأبعدُ في انعقاد السحر أن يَخرج الشاعر التعبير عن النسج المتواتر . وسبيله تخيّر لفظٍ زاخرٍ بإلهام جديد ، وضمُّ الألفاظ بعضها إلى بعض ضمّاً غير معهود ، وإيثارُ الاشارات والتلويحات بحسَب هواجس الساعة ، فيصبح الأداء قريباً شاسعاً في آنٍ واحد. أما قربه فبأنس اللفظ وسلامة التركيب ، وأما شسعهُ فبما يستحضره اللفظ في الوهم ، ويقترحه التركيب في الفهم .

وليس يخيب عني أن في هذا عدواناً على ما سموه قديماً « عمود الشعر » وتعصبوا له بل

---

(١) ممزق (٢) الشمس تميل للغروب

(٣) قرأ ذلك في كتاب قديم الاستاذ طه الراوي من أدباء العراق ، وأخبرني به وقد غاب اسم الكتاب عنه

(٤) من مبتكرات أبي العلاء أيضاً : وابيض امات ارادتْ صريحَهُ لاطفالها دون الغواني الصرائح
وقد اراد بأبيض امات : الحليب

أكبروه وقدّسوه . حسبي أن أقول : ليس للشعر عمود راسخ : الشعر هزّة ، وأصل الهزّة اضطراب ، وما الفن الا هكذا من جهة الإلهام والتأثير جميعاً . ذلك ما انتهى اليه أهل التأمل في عهدنا ، وعلى رأسهم الفيلسوف برجسن[1] .

✡

وليست الحيلة في توليد الهزّة أن يقتصر الشاعر على القصد إلى « الجلجلة في جزالة والدندنة في حلاوة » (I) أو إلى الجناس في تأنق . إنما يحسن بنا اليوم ألاّ نقنع بالضجة ارتفعت أو خفُضت . بل يخلق بنا أن نعدل عن بعض الحسّ الظاهر ، عن رِعدة الأذن ، إلى كلّ الحسّ الباطن ، إلى رجفة الوجدان . فالحيلة تكون في استعمال الكلمات من جهة قدرتهنّ على الأشياء الخارجية ، فيتخطّى الشاعرُ مضيقَ المحسوس الملقَى الينا ليسرَح في فُسحة المدرَك المطويّ عنا . وبهذا يعود إلى صناعته الأولى ، إلى الرُّقية . ألم يقل الراجز قديماً ، وهو رؤبة ، لأبي بكر بن الحكم وكان راوية شاعراً:

لقد خشيتُ أن تكون ساحرا   راويةً طوراً وطوراً شاعرا[2]

ألم يكن لشاعرنا شيطان يحدثه ، أوَلم تكن بينه وبين الجن مجاذبات ؟

يعود الشاعر الى طرح الجسر بين عالمين عالَم الفكر والمبادىء وعالَم العبر والوقائع ، بين الحقيقة والرمز . أوَما كان الشاعر والكاهن رجلاً واحداً في الأمم الغابرة ؟ وهذا الهجاء عند العرب كان أولجَ في الكهانة[3] . ألا قد فسد جوهر الشعر لما تناوله حذق الذهن واستبدّت بهِ ضوضاء الضلوع .

والاستحضار الذي ألمحتُ اليهِ أولاً — أعني ما يستحضره اللفظ في الوهم — يكون من جانب صفات الصوت : قوة أو ضعف ، تفخيم أو ترقيق ثم الأوزان وخصائصها . وبالجملة : طنين يتفاوت اهتزازه وانسجام أطرافه بتفاوت الطاقة التي تختزنها الحروف المنحبسات والمنطلقات ثم المصوّتات والصامتات . ومَثل النبرات في النطق كمَثل الأصباغ في الذّهن ، تماسك بها الصورة أو تتفكك ، تزهو أو تشحب ، تغوِر أو تنفر . ولعلّ هذا التقارب الذي جرّ نفراً من شعراء الافرنج إلى تلوين بعض الحروف ، فبدا لأحدهم — وهو رامبو Rimbaud — أن الألف سوداء والواو زرقاء إلى آخر ما بدا له .

(١) راجع مقالي « الشعور بالجمال عند برجسن » مجلة الثقافة ، العدد الـ ١٢٥ سنة ١٩٤١

(٢) عن « البيان والتبيين » للجاحظ ، القاهرة ١٩١١ ج ١ ص ١٢٣ .

(٣) انظر مادة « هجاء » في دائرة المعارف الاسلامية (طبعة هولاندة) بقلم ب . ف .

وأما الاقتراح — أعني ما يقترحه التركيب في الفهم — فيكون، أكثر ما يكون، من جانب تصويرات الوحي : أضواء وأفياء، مدّات وليّات . وبالجملة : تجاوب بين ما يعنيه ظاهر النطق وما يثار خلف حجاب السمع . فكأنما السامع يحيا — لحظةً — حياة اللفظ المنطوق بهِ . فإما حدث وإما حال، يسعى من الموضوع إلى الذات . وذلك بفضل التمثيل اللفظي، كقولكم: « العصف » و « الرعد » وقولكم « نَفَضه » و « صَرَعه » . ومحاكاة الأصوات مندرجة في هذا الباب . ثم بفضل تداعي الأفكار في خفية من طريق القياس على مسموع سابق أو الانتباه لشعورٍ مدفونٍ نبشه لفظ رجّاجٌ أو غير ذلك من الطرق مما لا أستطيع الاهتداءَ اليه أو الافصاح عنهُ لاتصاله بالحياة الغافية، أو كما يقول أهلُ العصر : « الحياة اللاواعية » .

هذا، وبديهي أن الألفاظ المبتذلة والتراكيب المطروقة قد سلبها فرطُ الاستعمال قوّتها، وغصبها سحرها، فأمست فاترة باردة .

✡

وليس معنى ما تقدم أن الشاعر يستحدث في اللفظ على حسب ما يبدو له. فان وراء ابتكاراته علماً بأصول الصرف والنحو، ودرايةً بمواقع الكلمات . وهل نرضى عن فئة هابطين علينا من ناحية الارتجال يعدّون الخيال والموسيقى كلَّ الشعر، فيذهبون إلى أن اللفظ فضل وأن الصيغة وهمٌ، فلا حاجة إلى التمكن من أساليب الأداء . هؤلاء يصحّ فيهم قولُ البحتري :

يا امرأ القيس لو رأيتَ حبيك الـ‍ـشعر يُغذى بماء لفظٍ ركيكٍ(١)

وقد يتذرّع أهل هذه الفئة بما سمّوه من باب التلفيق « التجديد » . على حين أن التجديد — وهو حال لاحقة — يفترض في ثناياه القديم — وهو حال سابقة . وإنما في الذي سبق مادة الكلام السليم، وليس في الذي يلحقُ إهلاك المادة ولكنّ بهِ انعاشها . كذلك الأمر في التصوير، فان المصور المبتكر في جسّات المرقم وطبقات اللون وهيئات الموضوع لا يُقبل على ذلك إلاّ وقد أشربت عيناه وأنامله أصول الفن المتواتر . ولكم في Paul Cézanne أبي التصوير الحديث — كما يُلقب — خير مثل لهذا، ولكم في Picasso المفرط في الافتنان مثل آخر .

(١) من شعره غير المنشور، أورده الدكتور محمد صبري في « الشوامخ » القاهرة ١٩٤٤ ج ٢ ص ٧٢

وليس العلم بالصرف والنحو ومواقع الكلمات سوى المدخل الى الصناعة. فالشاعر مهما تهيّب ربات الشعر له من طلاقة القريحة فلا بد له من استشفاف سر اللغة زيادة على الاستكثار من فرائدها ببصارة وتحقيق. فكما أن المتنبي وأقرانه خرجوا الى البادية يأخذون اللغة من أفواه الخلّص، كذلك ينبغي للشاعر الحديث أن ينغمس في دواوين اللغة حتى تدور له سنن العرب في نطقها، ويستقيم له جانب غير قليل من المفردات. فيعرف كيف يشتق الكلام وينزله ويجريه: وكيف ينقله من صعيد الحقيقة الى أفق المجاز — والمجاز عَصَب الشعر. والشاعر في كل لغة خير من يشتق وينقل. فهو الخلاق البشري الأول يعينه في ذلك ذوق نَعِم وتمده سليقة صفت، بفضل قراءات مستبصرات تزود ذاكرة الشاعر عرضاً، من حيث لا يدري. حتى إذا هجمت لحظة القول بذلت له الذاكرة مادة الكلام الأولى فألف، وبين يديه قربت الأشباه وقرنت الأضداد فتلطف، ثم وسعت له التخييل فاستطرف. هذه الذاكرة — على ضد ذاكرة المستظهر المصر، وقد تقدمت صفتها في هذا البحث — تدفع غزارة الكم إلى رهافة الكيف. وعلى الكيف أن يختار وأن يتصرف وأن يستنبط. وسبيله أن يجبل مادة الماضي بروح الحاضر، فيسلك نفضة الاحساس الطارئ في هدأة الحرف العاجز. وعلى هذا النحو يتلقى الهواجس ويتبصر الطوالع وقد نحّى عن ألفاظه ظل السآمة.

ولا بد أن تنبسط هذه القراءات على عهود شتى وفنون. يقرأ الشاعر الشعر الحسن كله ويقرأ النثر سواء جرى في الفن أو في الأدب أو في العلم. فان الشعر — على خلاف ما يظن الظانون — يشمل كل ما يضطرب في العالم. إذن بقيثاره حاجة الى الأوتار كلها من حادّ الحاد الى ثقيل الثقيل. ولولا هذا ما وسع الشعرُ — وهو فيضُ الروح الكليّة — تناغيم الكون النابض، ما وسعها على أيدي سوفوكلس ودانتي وشكسبير وجوته وتاجور ومن لحق بمرتبتهم. وقد آنس أبو العلاء جوهر هذا الشعر، ولا أشك أن ابن الرومي فطن له. لذلك نراهما أقدر شعرائنا على توليد الطريف بالتركيب الأخاذ المفاجئ، حتى إن أبا العلاء حقيق بأن يُصنع لشعره ونثره الجاري مجرى الشعر معجمٌ خاص كما وقع لشعر شكسبير، فمستنبطاتُ أبي العلاء وملاحنه كثيرة.

ومن هذا الباب أيضاً أن شعراء هذا الزمان في أوربة ولاسيما فرنسة وإنجلترة يستعملون في قصائدهم اصطلاحات العلوم والفنون كمثل الفلسفة والرسم والموسيقى والكيمياء والفيزياء. ومن قبلُ أمدت الصوفية عندنا لغة الشعر بطائفة من اصطلاحاتهم فأغنوها، وأدخل أبو تمام والمتنبي ألفاظ الثقافة الرفيعة. ولكن جلّ نقادنا، عفا الله عنهم، ما رضُوا كل الرضا عن

المعري وابن الرومي وأبي تمام والمتنبي ولا عن الصوفية ، ولا طربوا لآثارهم إلاّ بمقدار ، لغلبة التقليد على موازينهم .

وهؤلاء الشعراء الأربعة وكذلك الصوفية لم ينصرفوا ولم يفتنّوا بقدر قوتهم على التوليد وشغلِهم بالابتداع ، فشدّوا أوتاراً وأرخَوا أوتاراً ، فإذا القيثارُ تحت عناقهم لم يترنم الترنم الأتمّ . وذلك لأنهم تخرجوا في أروقة الأولين وفي حلقاتهم تربعوا ، وقد وُلدوا وإطار الشعر بنسجه ومائه ووزنه وقافيته مكين ، فجاء تصرفهم وافتنانهم في حدود ذلك الإطار ، ولم يفلقوه حتى في زاوية من زواياه . وأما الذين نثروا منهم كأبي العلاء والحلاج فلم يجدوا في سبيلهم عموداً راسخاً ، فطاروا . هل قرأتم «الفصول والغايات» ، وهل قرأتم كتاب « الطواسين » ؟(١)

✡

وجملة البحث أن الشاعر سيّدُ قوله . وهو لا يكون كذلك إلاّ اذا استطاع التعبير من ذات ملكته في صدق وحفل وسعة . فيسخّر الكلمات لغرضه ويروّض القوافي لنفسه ، وإنما أنامله التي تجتذب الأفكار من الغاوص ، وتختطف الألطاف من المفاتن ، وتلتقط أنوار اللوامع والهواجم .

بشر فارس

---

(١) وازن هذين البيتين للحلاج (« أخبار الحلاج » باريس ١٩٣٦ ص ٢٨) :

عجبت لكلي كيف يحمّله بعضي — ومن ثقل بعضي ليس تحملني ارضي
لئن كان في بسط من الأرض مضجعي — فقلبي على بسط من الخلق في قبض

بهذه اللامعة النثرية في كتاب « الطواسين » باريس ١٩١٣ ص ٣٩ : « الناموس نعته ، والشموس ميدانه ، والنفوس إيوانه ، والمأنوس حيوانه ، والمطموس شانه ، والمدروس عيانه ، والعروس بستانه والطموس بنيانه » . ففي البيتين اصطلاحات « الكلام » وغمزات التصوف مما هو خارج « عن الالفاظ المعروفة والامثلة المألوفة التي لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ولا ان يستعمل غيرها » كما يقول ابن رشيق (« العمدة » باب اللفظ والمعنى) . ولكن البيتين منسوجان على الطريقة المتبعة بلاغةً وبياناً وبديعاً .

وأما اللامعة النثرية فهي « شطحة » واردات تتصل بمذهب شعراء ما وراء الواقع Surréalistes الذين أشرت اليهم ، وهم شعراء الرؤيا والسرحان يرون مع عمدتهم أندريه بريتون A. Breton أن « الالفاظ قد فرغت من اللعب ، وان بعضها أصبح ينزو على بعض » Les mots ont fini de jouer. Les mots font l'amour . فهذه اللامعة النثرية أجنبية عن الوضع الشعري العربي من جهة التصوير والتأليف بين الالفاظ . وللحلاج — وهو « الرفيق الاعلى » كما لقبه بعضهم — إسراءات أخرى سأعود اليها في بحث آخر .

الريف والزراعة

في الولايات المتحدة

أتينا في عدد مارس الماضي من المقتطف على بعض نواحي الزراعة في ريف الولايات المتحدة الأميركية . وفي هذا المقال نشرح جانبين هامين من الزراعة الأميركية ، رامين بذلك إلى تنبيه أذهان الأمم الشرقية التي تعيش من الزراعة وعليها ، وإلى إرشادها عما يتبع في البلدان الأخرى من نُظم جليلة أثبتت نجاحاً باهراً في زيادة الثروة القومية ورفع مستوى معيشة الفلاحين .

١ — الجمعيات التعاونية القروية

في الولايات المتحدة الأميركية جمعيات وشركات تعاونية يبلغ عددها زهاء ١٥٫٠٠٠ جمعية بعضها مملوكٌ للفلاحين وبعضها يدار تحت إشرافهم ، تقوم معظمها بتصريف المنتجات الزراعية ومزاولة أعمالٍ وثيقة الصلة بمصلحة الفلاحين . وتقوم فئة صغيرةٍ منها بأعمال شركات التأمين ضد الحريق ، بينما تتولى فئة أخرى أعمال شركات الري والصرف .

وتدلّ الاحصاءات على أن ما يزيد على ثلاثة ملايين من فلاحي الولايات المتحدة أعضاء في هذه الجمعيات التعاونية . وان ما لا يقلّ عن نصف مليون من الفلاحين أيضاً يتتبعون الحركة التعاونية باهتمامٍ كبير . وتبلغ قيمة المنتجات الزراعية التي تقوم بتصريفها الجمعيات التعاونية حوالي ٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الريالات سنويّاً .

والجمعيات التعاونية الزراعية في الولايات المتحدة تدير أعمالها كأيّ مؤسسة تجارية أو كأيّ عملٍ فرديّ . والصفة الرئيسية للجمعيات الزراعية التعاونية هي أنها تدار لفائدة أعضائها لا كمساهمين ، بل كمنتجين .

وان الفوائد التي يجنيها أعضاء هذه الجمعيات التعاونية ، تنمو وتزداد لا للأموال التي يستثمرها الفلاحون فيها وحسب ، بل لرعايتهم ومراقبتهم لها . والغرض الأساسيّ من قيام هذه الجمعيات أن تبيع منتجات الفلاحين بأقصى سعرٍ ممكن ، وأن تمدّهم بأفضل المواد

الزراعيـة وأرخصها ، وأن تقوم بالخدمات الادارية التي تجعل عمليـات البيـع والشراء أوفر ربحاً .

وفي كل ولاية من ولايات أميركا المتحدة أسواق تجارية تبتاع حاجاتهـا من الجمعيات التعاونية من لحوم وخضر وبقول ، وتقوم الجمعيات التعاونية بشراء علف الماشـية وسماد التربة وآلات الحصاد وغيرها مما يحتاج اليه الفلاحون .

وكان الفلاحون الأميركيون من خمسين عاماً يقومون بانتاج الأدوات اللازمة للصناعات الزراعية . غير أن بعض الجمعيات التعاونية تقوم الآن بصناعة الجبن والقشـدة في مصانع خاصة ، بينما تتولى مصانع أخرى تنقية الحبوب وطحنها . كذلك تقوم الجمعيات التعاونية بحلج القطن في المصانع التابعة لها ، وتقوم أيضاً بتوزيع البترول ومنتجاته .

وفي السنوات الأخيرة ، زاد عدد جمعيات الشراء التعاونية على عدد جمعيـات البيع التعاونية . وكان من نتيجة مدّ القرى بالآلات الزراعيـة أن زاد إنتاج الجمعيات التعاونية التي تتولى صناعة منتجات البترول زيادة كبيرة . كذلك نمت مصانع حلج القطن التعاونية نمواً ملحوظاً حتى أصبحت تحلج نسبة كبيرة من المحصول السنوي .

ومع أن العمل الأساسي للجمعيـات التعاونية بيع المحصولات الزراعية وشراء المواد اللازمة للزراعة ، فانها تقوم بخدمات كثيرة متنوعة تختلف بين أعمال الانتاج والادارة . ومن بين تلك الخدمات تقدير الأسعار ، ولفّ البضائع ، ونقلها ، وخزنها ، وحلج القطن ، وتمويل المشروعات ، والاعلان ، وإجراء التجـارب ، وإدارة بساتين الفاكهة ، ومحاربة الديدان ، وحماية البضـائع من التلف ، وإيجاد الأماكن اللازمة في المدن والقرى ليباشر الفلاحون فيها عمليات البيع والشراء بأنفسهم .

ب — ملـكية الاراضي

توفي في العـام الماضي مزارعٌ أميركي كبير يدعى « لودن » وخلف وراءه ثروةً من الأراضي الزراعية مساحتها ٢١٣ ألف فدان في ولاية أركانساس بأميركا . ومما يروى عن المستر لودن انه كان نابغةً في الزراعة وحجةً في المسائل المتعلقة بهذا الفنّ . فأقام معملاً كبيراً لانتاج اللبن في مزرعته الخاصة . وكانت محصولات مزارعه من أجود المحاصـيل وأفضـلها ، كما انه كان يقوم بتجارب متعددة في الحقول ، وله مشروعات كبيرة تبحث في الانتفاع بأشجار الغابات . وقد عرض عليه المستر كولدج ، الرئيس السابق للولايات المتحدة ، منصب وزير الزراعة ، ولـكنه رفضه مع ما رفضه من المناصب الكبيرة التي عُرِضت عليه في حياته الطويلة .

وأوصى المُزارع بأن يؤول ٢١ ألف فدان من أراضيه بعد وفاته إلى « مؤسسة الريف الاميركي » ، وهي مؤسسة حُرّة للبحوث الزراعية . وجاء في نص وصيته : « إنني أوصي بمزارعي لمؤسسة الريف ، وأنا عالمٌ بأن عدد السكان الريفيين ونوعهم ، يعدُّ عاملاً رئيسيًّا هامًّا في تقرير قوّة الشعب ونوعه وصحته . وأرجو بل أرغب في أن تقوم مؤسسة الريف بتحسين جميع نواحي الحياة الريفية حتى تزداد نسبة العناصر الممتازة في سكان بلادنا ويستطيع شعبنا أن يعيش في المزارع والحقول تحت ظروفٍ ملائمة تدفع بالحضارة قُدُماً . وهذا على ما أعتقد ، خير ضمانٍ لاستمرار المؤسسات الحرّة » .

واستطرد المستر لودن في وصيّته فقال : إنه يرجو أن يتحسن نظام تأجير الاراضي ، لأنه يتطلّع إلى تحسين العلاقة بين الملاك والمستأجرين ، وإتاحة الفرصة لعددٍ كبيرٍ من المستأجرين النابهين والصناعيين والمدبّرين بأن يصبحوا مُلّاكاً لمزارعهم الخاصّة .

ولتحقيق الغاية التي رمى إليها المُزارع ، وهي زيادة عدد صغار المُلّاك ، تألفت لجنة لرسم الخطط ووضع الأسس . فاجتمع مجلس إدارة مؤسسة الريف ، ويتكوّن من رجلين من كبار مزارعي الحبوب وأحد تجار الماشية ، ورجل من أصحاب الصنائع القروية ، وعميد إحدى كليات الزراعة الأميركية الكبرى وتعاونوا على وضع البرنامج الذي يسيرون عليه .

وتسعى مؤسسة الريف إلى دراسة النواحي الاجتماعية للحياة الريفيّة في أميركا . وقد مدّها المزارع الاميركي بتفاصيل التجارب التي أجراها في مزارعه ، فذكر في وصيته : «أعتقد أن مؤسسة الريف يجب أن تهتمّ اهتماماً خاصًّا بالأسرة الريفيّة وبالمزارع الصغيرة الصالحة للأسَر . ولقد تتبعتُ باهتمام نموّ عدد المزارع الكبيرة ؛ غير أني أعتقد أن الإقطاعيات الصغيرة المتنوعة تستطيع أن تقاوم الأزمات المالية خيراً من المزارع الكبيرة التجارية ، وذلك لأن الفلاحين يستهلكون الموادّ التي ينتجونها فلا يتأثروا بارتفاع أسعار السوق » . وأشار المزارع الأميركي على مؤسسة الريف بأن تدرس وسائل تيسير حصول الأهلين على الأراضي وتسهيل مهمة سداد ديونهم .

وذلك مثال آخر للمجهودات الفرديّة والجماعية التي يقوم بها الأميركيون لتحسين حالة بلادهم الزراعية ، ورفع مستوى الشعب المادي .

وديع فلسطين

استمد اسم الشهر الاول من شهور السنة الميلادية من اسم المعبود الروماني «يانوس» ، اله كل البدايات . وكان «يانوس» حامي الابواب والنوافذ ، وله وجهان ، وجه لكل من ناحيتي الباب . والكلمة الانجليزية janitor ومعناها بواب ، مستمدة من نفس المصدر ، لان من خصائص هذه الوظيفة ان يلاحظ صاحبها الابواب والداخل من البيت.

الواجب

قصة عن اسكندر إزباخ

تطوعت لتكون في الصفوف الأمامية أول يوم في الحرب . كانت قد أتمت السابعة عشرة ، ولكنها أصبحت لرجال الجيش الأحمر ، الذين تمهدت جراحهم ، أختاً صغرى محبوبة مدللة ، تمر بيدها الناعمة الرخصة على جباههم المتوقدة .

وذات مرة ، بعد موقعة حامية الوطيس ، عهد الى الممرضة « تامارا كلنينا » بترحيل جرحى رجال الجيش الأحمر وقواده . ووقف في الخارج سيارات نقل الصليب الأحمر في مكان مكشوف ، وربما كان هذا هو السبب في أن الفاشيين صمموا على تحطيمها ، عساهم يقضون على رجال الجيش الأحمر الذين تقلهم .

وكان سبع طائرات معادية تحوم فوق الطريق ، فلما لمحت سيارات النقل ، انقضت جميعاً . ها هي ذي على ٣٠٠ قدم ، ثم ١٥٠ — ٢٠٠ — ٤٠ ، كادت تمس الأرض ، ومرت تلك الطيور المفترسة مبتعدة في الفضاء . ولكنها عادت ، ثم ابتعدت ، قاذفة قافلة النقل برصاصات محرقة .

جلست تمارا في مقعدها وكأنها سمرت فيه ، متقطعة الأنفاس . وعامل الجرحى . فردت لفائفهم وأصلحتها ، وأعطتهم ماء من صفواعها ، فهدأوا وشعروا بأنهم أحسن حالاً .

وانهمر الرصاص ، وطوقت ألسنة النار سيارة النقل . وقفت السيارة وسط الغابة ، يندلع منها اللظى الحامي كأنها صواريخ عاتية . وتدافع الجرحى وسقطوا من فوق الحمالات ، ورموا بعصائبهم بعيداً . ضاقت أنفاسهم وهم يبتلعون هواء مفعماً بالدخان ، محاولين أن يجروا إلى رئاتهم ما يسعفها بالحياة . لحظة واحدة فقدت فيها « تمارا » حضور ذهنها . غابت عن نفسها لحظة ، فوثبت من السيارة المحترقة ، لتهرب ، الى الغابة ، فراراً من موت مريع محقق .

ما هذا ؟ عاد اليها صوابها فجاءة .. فالى أين تهرب ، تاركة وراءها هؤلاء الجرحى الذين عهد اليها بهم ؟ هي الشيوعية الصغيرة المتطوعة . كيف تستطيع أن تحتمل الحياة بعد هذا ؟ كيف ترى الناس ويرونها ؟

اندفعت ثانية نحو السيارة ، وبيديها

الصغيرتين الضعيفتين ، بدأت تجر الجرحى الى الخارج . ساعدها السائق أول الأمر... ولكن هنالك ... ها قد قدمت طيارات الاعداء ثانية . وللمرة الثانية أخذت تهاجم السيارة المشتعلة . . . وجرح السائق جرحاً مميتاً فسقط فاقد الوعي .

أصبحت « تمارا » وحيدة ولا معين لها . فريدة في الغابة المخيفة ، وأمامها سيارة بها جرحى ، أخذ منهم القنوط وضرب على قلوبهم اليأس ، وهم في أشد الحاجة الى يدها ، ورصاص الأعداء يئز من فوق الرؤوس .

خمسة عشرة مرة وثبت الى السيارة المشتعلة . خمسة عشرة مرة لفت ذراعيها الصغيرتين من حول جثمان جريح هامد الجسد فاقد القوة عظيم الهامة ، وسحبته بعيداً، جارَّة ركبتيها المتعبتين الى هَزْمَةٍ من الأرض بمقربة من الغابة . ثم وقفت تلتقط أنفاسها ، وتشبع رئتيها بقليل من الهواء الصافي وتطفئ النار التي علقت بملابسها .

عمل شاق . يظهر انه مستحيل لأول وهلة . يلوح كأنه خارج عن طوق البشر . ولكنه لم يكن فوق طاقة مخلوق بشري حقيق بالبشرية . فتاة لم يدخل الخوف قلبها، فهزمت النار، وهزمت معها الصقور الفاشية، بل استقوت على الموت نفسه .

كان بعض الجرحى في غيبوبة غائبين عن الوعي . وفتح البعض أعينهم مرسلين على ذلك الخيال الذي تجسم في صورة فتاة ، نظرات الحب والشكران ، جزاء ما جاهدت في سبيلهم .

« لا تقلقوا أيها الفتيان » — قالت ذلك هامسة وهي تحرك شفتيها الجافتين بصعوبة . « لا بأس . سيعود كل شيء إلى مجاريه الطبيعية . إني سوف لا أتركم أبداً . سوف لا أتخلى عنكم » .

عيناها ، لاغيرهما ، هما اللتان كانتا تبتسمان لهم . عيناها الكبيرتان المفعمتان بالعاطفة .

ظلت السيارة تحترق طوال الوقت الذي كانت « تمارا » تنقل فيه الجرحى إلى الفجوة التي اختارتها لهم . وأخذت تمزق ثيابها المهلهلة ، غير آبهة بالآلام التي كانت تأكل أطرافها ، ومضت نصف حالة تجري طوراً ، ثم تمشي متباطئة وزاحفة على ركبتيها إلى أول محلة للاسعاف . وبهمس متقطع، روت لهم الحادث ودلتهم على المكان، ثم سقطت غائبة عن الرشد .

لقد نجا الجرحى . خمسة عشر فتى ، نقلوا إلى المستشفى .

إن كثيراً منهم لم يعرفوا اسم تلك البطلة التي أنقذتهم بتفانيها وشجاعتها . إنها « تمارا كالنينا » . لعلك لا تنسى الاسم ثانية :

هي في فراش المرض ، وهي على شفا الموت : حروق أكلت أطرافها ، والتهاب

حادٌّ في صدرها . ولكنها انقذت من الموت . وأنقذت منه ، بعد إن أنقذت أرواحاً كثيراً .

سوف تعيش .

وعند ما يفكّر عظام الفنّانين من مواطنينا في إقامة أثر يخلدون به ذكرى الانتصار والمجد ، إلى جانب محاربينا ، إلى جانب جاستلو وماميدوف ، وإلى جانب طيارينا ورجال الدبابات وحملة البنادق والرماة ، اذاً فليقيموا إلى جانب هؤلاء جميعاً تمثال فتاة صغيرة ضئيلة على ذراعها شارة الصليب الأحمر . تمثالاً صغيراً للشيوعية الباسلة « تمارا كالنينا » .

بأمر المجلس الحربي في الميدان الشمالي الغربي ، قلدت « تمارا كالنينا » وسام لينين .

أسنانك والحلوى

بالرغم من أن أطباء الاسنان غير متفقين على حقيقة السبب الذي يؤثر في الاسنان فيحللها ويفسدها ، فقد بدأ يستبين للباحثين ان كمية السكر المركز في الطعام ، لها أثر في ذلك . فان تخمر السكر في الفم تهيىء بيئة طيبة لتولد القصيات (البكتريا) المولدة للاحماض . وسواء أكانت القصيات أم الاحماض هي التي تؤثر في مينا الاسنان ، فان وجود الحمض في الفم له أثر كبير وعلاقة وثيقة بانحلال الاسنان .

في جامعة كاليفورنيا ، بحث أطباء الاسنان ١٢٥٠ مريضاً ظهر فيهم تأكل سريع في الاسنان بمعدل عشر فجوات في السنة . والى جانب هؤلاء انتخبوا ٢٥٠ مريضاً أسنانهم سليمة من التأكل . فاتضح من الفحص الطبي ان سبب التأكل يرجع الى التراكم الحمضي ، وان ذوي الاسنان السليمة أفواههم خالية من الاحماض .

حرم على الذين اشتكت أسنانهم بعض الاغذية ، وسرعان ما قل التأكل عندهم بنسبة ٨٧ في المئة في بضعة أسابيع ، وقل تكوين الفجوات . كذلك لم تتكون فجوات جديدة عند ٦٢ في المئة من أولئك الذين عرف انهم يصابون بمعدل عشر فجوات كل سنة ، و ١٨ في المئة أصيبوا بفجوة او فجوتين في خلال سنتين . وقد اتضح ان تحريم بعض الاغذية على الذين تأتكل أسنانهم ، قد أزل نسبة الاصابة او محاها في ٨٠ في المئة منهم .

ما هو ذلك السر الغذائي ؟ يقول أطباء الاسنان ان السر هو في الحرمان من الاغذية الفحمائية (Carbohydrates) كالسكر والحلوى والمشروبات السكرية والتين والعسل والمربى والهلام المسكر وأمثال ذلك . وقد عوض الجسم عما يفقد بالامتناع عن هذه الاغذية من وحدات السعر ، باللبن ومنتجاته واللحم والسمك والخضر .

الضمان الاخلاقي

يتجه العالم اتجاهاً جديداً . يتجه نحو المساواة الاجتماعية والقضاء على الفوارق البعيدة بين الطبقات . يتجه إلى الاشتراك الفعلي القائم على أساس توزيع خيرات الأرض والصناعة على الكبير والصغير ، وعلى صاحب الأرض والفلاح ، وعلى صاحب العمل والعامل ، بما يكفل للجميع التخلص من خمسة عمالقة ، ذكرها سير بيفردج في مشروعه عن الضمان الاجتماعي . أما العمالقة[1] فهي الجهل والتعطل والمرض والحاجة والقذارة .

إن لكل انقلاب اجتماعي تطوراً عقليًّا يسبقه . وما الحوادث التي تقع في حيز الوجود غير انعكاسات فعلية ، لما يقوم في النفس بالقوّة . فكل الآراء والحقائق والاعتبارات والمقاييس التي تقاس بها الأشياء الانسانية، تظل موجودة بالقوة في تضاعيف النفس البشرية حتى تختمر ، فاذا اختمرت وكملت كل مهيئات خروجها إلى حيز الفعل، ظهرت آثارها العملية، وأصبحت حقيقة واقعة فاعلة لها آثارها الحسيَّة في الناحية المرغوب فيها.

وليس في دنيا الفكر من شيء هو أدنى إلى الخطأ ، وأبعد عن الصواب، من القول بأن الظواهر الاجتماعية ، وبوادر القلق وعدم الاستقرار ، انما هي أعراض تغذيها الدعايات المختلفة ، وان ليس لها شيء من صفات الجواهر الثابتة . ذلك بأن الوعي الاجتماعي لا يستجيب لدعاية ما لم يكن في هذه الدعاية رموز وإشارات تخاطبه وتتصل به، فتظهر استجابته لها في صور مختلفة من الظواهر النفسية والروحية . ولذا كان من أوجب الواجبات على رجال الدولة والمصلحين ، أن لا يهملوا تقصِّي سبب كل ظاهرة من تلك الظواهر ، وبلوغ أسبابها الصحيحة ، لأنها في الواقع استجابات الوعي، لدعايات لها أصولها الثابتة . وكما أن العالِمَ لا يستحي أن يكب على حشرة دنيئة أو غلاف بزرة يدرسه ويفحص عن حقائقه تحت المجهر وفي أنبوبة الاختبار، كذلك لا ينبغي لمن يُنصِّب نفسه لتوجيه الجماعات، أن لا يهملَ أتفه الظواهر ، وقد تكون تلك الظواهر على تفاهتها ، مبعث النار الآكلة ومدرج العاصفة الهوجاء . والتاريخ شاهد عدل ، وكفى به شاهداً .

من الظواهر الحقيقية في هذا العصر، ونقصد بها الظواهر التي لها مصدر ثابت في النفس،

(١) انظر مقال الضمان الاجتماعي في مقتطف مارس الماضي ص ٢٢١

تغلب ملكة النقد على كثير غيرها من الملكات العقلية . وإن العصر الذي نعيش فيه لعصر النقد. فالقوانين والشرائع ، والحكومات والاحزاب ، والمعاهد والنظامات ، جميعها خضعت للنقد خضوعها في أزمان سالفة لغيره من الملكات العقلية . ولما كانت ملكة النقد تتطلب في أول ما تتطلب ، جوًّا من حرية الفكر تفرخ فيه ، وقسطاً وافراً من حرية القول والنشر، تجول في نواحيه وتتصل من طريقه بالجمعية ، كان أثرها في تكوين صور مختلفة من الوعي الاجتماعي أمرٌ محتوم واقع . فكل محاولة ترمي إلى تقييد حرية النقد في هذا العصر ، ليست بذاتها محاولة بائرة فحسب، فهي مع أنها محاولة بور مجدبة، من العوامل المؤدية إلى حبس الانفعالات التي تجد لها في النقد متنفساً ومخرجاً ، فاذا حبست كانت الانفجارات المحطمة، نتيجة لازمة لتراكمها في ذلك الوعي . واذن ينبغي أن يكون لهذه القوة حساب في تصور كل سياسي وكل مصلح اجتماعي وكل باحث في تقدير الظروف التي تحيط بجمعية من الجمعيات الانسانية ، بمقتضى منزلتها من إدراك لحقوقها في الحياة ، وفي متعلقات الحياة من حرية واستقلال وحقوق وواجبات الى غير ذلك .

من هنا ثبتت فكرة العمل على تحقيق الضمان الاجتماعي. ولهذا الضمان في الواقع صورتان: إحداهما اجتماعية وأخرى فلسفية . فالصورة الاجتماعية عبارة عن مختلف النظامات التي تنظم الحياة على قاعدة التخلص من عمالقة بيفردج الخمسة ، وما تستند اليه هذه النظامات من قوانين الدولة . والصورة الفلسفية عبارة عن تفسير عقلي للاسباب التي أدت الى العمل على تحقيق الضمان الاجتماعي . هي فعلاً تعبير عن حاجات تقوم في الوعي الاجتماعي، وفكرات اختمرت فيه وكادت تبرز الى حيز الوجود ، لتحقق ذاتيتها بالفعل ، بعد أن مضت كامنة بالقوة ، زمناً كافياً لأن تكون فاعلة . واذن فالعالم اليوم يعالج فتح باب ذلك المتجه الجديد الذي يتجه منه نحو المساواة الاجتماعية ، والقضاء على الفوارق البعيدة بين الطبقات . غير انه لا ينبغي ، مع وضوح ذلك ، أن نغفل عن أن الصورة الاجتماعية للضمان الاجتماعي انما تقوم على نظامات تدعمها قوانين ، فعلى أي شيء تقوم الصورة الفلسفية من ذلك الضمان ؟ تقوم على شيء واحد ، تقوم على ضمانات أخلاقية لها أصول ترعاها الجماعات وترعاها الدول . وكما أن القوانين التي تقوم عليها الصورة الاجتماعية من ذلك الضمان الاجتماعي ، إنما تستمد سلطتها من سلطة الدولة، وهي كفالة لا بأس بها، فان الحرية ينبغي أن تكون الركيزة التي تستند اليها الصورة الفلسفية من الضمان الاجتماعي . حرية الفكر وحرية القول ، والنشر ، وحرية التدين ، وعلى رأسها جميعاً حرية النقد . ففي عالم أساس نظامه الضمان من تأثير العمالقة التي ذكرناها ، يجب أن يرتفع كل صوت بشكواه، ويرتفع كل فكر في سماواته، وأن يتصل كل انسان بخالقه من الطريق الذي يختاره، وأن يُطارد النقد كل محب للتسلط، وكل نزعة

تسلطية ، مطاردة المردة والشياطين في ملك سليمان .

إذا لم تتحقق الحرية بأوسع معانيها في حدود الشرائع ، بل وفي حدود الحاجات التي تظهر بتطور الحالات القائمة في البيئات الاجتماعيـة المختلفة ، فان كل ضمان اجتماعي، أو غير اجتماعي ، يكون تافه الأثر ، عرضة لتقلب الأهواء ، خاضعاً لتلاعب الذين يفسرون الشرائع على ما يشتهون ، لا على ما تشتهي حقائق الاجتماع ومطلوبات الحياة . ذلك بأنّ الحرية هي الضمان الذي يتزوّد بهِ الفرد وتتزوّد بهِ الجماعة ، ليكون سلاحها المشهر على كل من يحاول العبث بقواعد الضمان الاجتماعي . أما إذا لم يتحقق ذلك ، فالضمان الاجتماعي يصبح قانوناً مشلولاً عند اللزوم ، منفذاً عند اللزوم أيضاً ، وبالجملة يصبح أشبه بالقانون الدولي الذي ساق الأمم إلى الحروب ، لا إلى السلام .

إنما الحرية هي القوة المنفّـذة ، هي القوة الحارسة ، هي الضمان الأول لقيام كل ضمان اجتماعي على صورة يتحقق معها الغرض الذي من أجله صيغ ذلك الضمان في القالب الذي يصاغ بهِ .

إذا أردنا أن نضرب بعض الأمثال على ما سقنا القول فيه ، فان مثلنا الأول هو موظف الحكومة . هذا الموظف له في النظام الحاضر ضمانات خاصة أقرّتها قوانين مالية ، مضافة الى القوانين العامة . وعلى الرغم من أن هـذه القوانين المالية قد كفلت للموظف حقوقه وحدّدت واجباته ، ولم تنص على حالة واحدة تحد من حرية الموظف بصفته عضواً في الهيئة الاجتماعية ، فان العرف الحكومي قد حدّد من حرية الموظف تحديداً ضيق من حوله حلقة الحياة، حتى كاد ذلك التضييق يذهب بكامل حريته . ففي الوقت الذي كفل القانون للموظف حقوقه وحدّد واجباته ، اعتدى العرف على الموظف اعتداءً شنيعاً ؛ وأسفّ في معاملته إسفافاً لا يرضي الضمير . اعتدى العرف على حريته ، فهو لا يستطيع أن يعبّر عن رأي مخالف لرأي الحزب الغالب في الحكومة ، إلاّ ويتلقفه قانون العرف بالتشريد ويطارده في عيشه وأولاده وبيته ، ويتعقبه تعقب الشرطة لمجرم اعتدى على المجتمع . واعتدى العرف على خلقه فجعله صورة مما يرضى عنهُ رجال الحكم ، وحفّه بكل ما يحف بهِ نظام بيروقراطي مستبد، تراكبت فيه السلطات بعضها فوق بعض ، من عبودية التقيد بصفات خلقية خاصة . فاذا لم يكن في موظف الحكومة استعداد لبيع حريته وتكييف خلقه بالكيفية الحكومية، وما يقتضيه نظام تراكب السلطات ، تلقاء ما يأخذ من القانون المالي ، فهو موظف ثائر على النظام ، فيلحقه الطّراد وينبذ من حلقة الموظفين الطّيّعين . ولن يكون للضمان الاجتماعي وقوانينه ومقوماته من أثر في سدّ حاجات الفرد والمجتمع ، أكثر مما يكون للقانون المالي من أثر في ضمان حياة الموظف ، إذا لم تقم من وراء ذلك ضمانات أخلاقية تضمن لكل فرد حرية رأيه ، بأوسع ما تحتمل حرية الرأي من المعاني ، بحيث لا يعاقب انسان على حريته

لا بالقانون ولا بالعرف ، ما دام استعماله لتلك الحرية في حدود القانون . بل لقد رأينا ان الكثيرين قد كوفئوا على رذائلهم ، ولم نقع على أمثلة تحقق فيها النفع لمن استمسكوا بمكارم الأخلاق ، وحققوا ذاتيتهم بتحقيق حريتهم .

كذلك الحال اذا فظرت في تبادل احترام الرأي بين الطوائف ممثلة في الافراد التي تتكوّن منها كل طائفة . ومما يجعل الضمان الاجتماعي في حاجة الى ضمان أخلاقي يعضده ويقويه ويجعله مثمراً الثمرة المرجوة ، أن بعض الطوائف قد تعتدي على بعض اعتداءات لا مبرر لها من عقل ولا موجب لها من فضيلة : فأهل الدين يرمون أحرار الرأي بالكفر والالحاد، وهو سلاح من أقوى الأسلحة المثيرة لحقد الجماهير ، وأحرار الرأي يرمون أهل الدين بالجمود والظلامية ، وهي سلاح من أمضى الاسلحة في تنفير أهل العلم ، وقد ينزل بمستوى الانسانية الى درجة لا تجيزها الشرائع الانسانية . فاذا لم يكن بين الطائفتين وازع أخلاقي ينزع بهما الى تحكيم العقل والمنطق فيما تختلفان فيه ، ويستنكر اللجوء الى مثل هذه الاسلحة الضارة العقيمة ، التي تضر باثارة الاحقاد ، ولا تنتج لأنها بطبعها عاقر لا تلد ، أصبح كل ضمان اجتماعي لا قيمة له ولا نفع فيه ولا قوة من ورائه، تسهر على تنفيذ قوانينه وشرائعه .

لا شك عندي في ان الاشياء الانسانية لن تبلغ الكمال ، بحسب ما يراه العقل كمالاً . ذلك بأن المثاليات تقفز بالانسان دائماً الى غايات عليا ، تتحول في العقل تحولاً بطيئاً الى مثاليات، يُنظَر اليها على اعتبار ان بلوغها الكمال . فاذا بلغها الانسان طفر به العقل طفرة أخرى ،خلفت ذلك الكمال وراءها ، وتخطته الى حالة بعدها ، يلوح للعقل انها حد الكمال . وهكذا تجد ان حياة الانسان عبارة عن طفرات تتالى وكمالات تتخيل ، كل هذا لنساق خطوة بعد أخرى الى الأمام .

لقد نشدنا الضمان الاجتماعي ، وبدأت جماعات من أرقى جماعات المدنية الحديثة تأخذ بنظرياته ، وتعمل على تحقيقها . ذلك وجه من الكمال المدني نشده الإنسان منذ عصور موغلة في القدم ، فلما لاح في الأفق أن تحقيقه ، أو على الأقل تحقيق مبادئه الأولية ، أصبح في حيز الامكان ، طفرنا الى القول بأن ذلك الضمان الاجتماعي لا يتحقق عمليًّا ويصبح ذا أثر ثابت في حياة الانسان ، الاّ اذا قام من ورائه ضمان أخلاقي أساسه الحرية واحترام الحقوق المعنوية ، احترامنا للحقوق المادية . ذلك ليكون لموظف الحكومة والمفكر الحر والعامل والصانع والتاجر، بل وكل فرد من طوائف الجمعية ، ضمان حقيقيّ ، يجعل لحياته صفة الاستقرار، الذي لا تقوم جمعية انسانية ثابتة الاركان بغيره . استقرار اساسه حقوق تعطى وواجبات تطلب، وحريات تحترم بحيث يكون أخذ الحق والقيام بالواجب، بمنجاة عن تعنت الشهوات، محصن عن أفاعيل الميول الخسيسة التي أفسدت الحياة وتفسدها في عصرنا هذا .

النظام الاقطاعي

الذي ورثه الملك اخ — ان — آتون

الملك إخْ ـ إنْ ـ آتون ، أو كما يسميه كثير من كتّاب التاريخ المصري القديم ، اخناتون على سبيل التخفيف هو ابن الملك امنحتب الثالث من زوجته «تي» التي اختارها الملك من طبقة الشعب المصري لا الاسيوي ، كما زعم بعض المؤرخين ، فهي كريمة الأبوين المصريين يويا وتويا .

وأهم دافع حفزني للبحث في هذا الموضوع هو دراسة نظام الحكم في عصر هذا الملك وسابقيه من ملوك عصر التوحيد الثالث (الدولة الحديثة) وبيان مبلغ سلطة هؤلاء الملوك : أكانت استبدادية مطلقة حقـًا كما يقول المؤرخون أمثال بريستد وماير وبونكر وموريه وبتري وسائر الباحثين ، أم أن الرأي بعكس ذلك كما انتهت اليه بحوثي وعلى ما سأعرضه الآن

كان نظام الحكم في مصر القديمة يتوقف على مقدار ما تتصف به سلطة الملك من القوة والضعف . واذا عرفنا أن الحكومة والملك شيء واحد ، وأن الحكومة قديمًا كانت تتمثل في شخص واحد هو الملك وتتجمع في شخصه مختلف السلطات ، أدركنا ان الحكومات كانت تتغير حسب سلطة الملك قوة وضعفًا فتصبح مطلقة أو مقيدة بقوة أخرى ـ وهذه الظاهرة لم تقتصر على عصور الفراعنة المصريين ، بل نجد ما يشابهها في فرنسا في زمن الملك لويس الرابع عشر حينما ابتدع نظرية « الحكومة أنا وأنا الحكومة » .

والرأي السائد حتى الآن بين العلماء والباحثين أن سلطة الملوك في الفترة بين احمس الأول واخ ـ ان ـ آتون كانت استبدادية مطلقة وان نفوذ الأمراء زال تمامًا تبعًا لانضوائهم في خدمة الملك كمديرين لمقاطعاتهم .

ولكن عند التعمق في دراسة هذا العصر وبحثه يجد الفاحص المدقق ان هناك مشكلة دقيقة تواجه المؤرخ وهي هل كانت سلطة الملك ايخ ـ ان ـ آتون ومن سبقه من ملوك عصر التوحيد الثالث استبدادية مطلقة ، أم كانت سلطتهم يضعفها وجود نظام اقطاعي خاص ؟

وبعبارة أخرى هل كان الملك ايخ ـ ان ـ آتون ومن سبقه من ملوك عصر التوحيد

الثالث منذ أيام تحتمس الثالث في قوتهم وسلطانهم كما يظهرهم التاريخ هم الواضعون لأساس النظام الاقطاعي الذي ظهر جليًّا في عهد الملوك الذين تولوا الحكم بعد تحتمس الثالث بحيث انه عند ما تولى ايخ ـ ان ـ آتون الملك ورث النظام الاقطاعي الخاص الذي كان على أيام سابقيه، والذي قيَّد من سلطتهم، خلافاً لما كان معروفاً عنهم من قبل ؟

للاجابة على هذا السؤال يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء، فنجد انه يمكننا القول ان الملوك المصريين القدماء لم تبلغ سلطتهم من القوة مثل ما بلغت في عهد الملك احمس الأول ومن تلاه من الملوك حتى عهد تحتمس الثالث (لأنهم أصحاب الفضل في تخليص مصر من أيدي الغزاة فأمكنهم أن يركزوا في أيديهم كل السلطات المختلفة في مقر عاصمتهم طيبة) ولكن من سوء الحظ كان الملك احمس ومن خلفه من الملوك على عرش مصر يمنح الآلهة المتعددة في مختلف الأقاليم (أمثال آمون في طيبة ورع في عين شمس وبتاح في منف وهكذا) أراضٍ يجعل ملكيتها باسم الآلهة المختلفة ويلحق بها امتيازات كان الملوك يعتبرونها في بادىء الأمر اعترافاً بجميل هذه الآلهة على ما نالوه من نصر في حروبهم أو بعثاتهم .

وهنا نرى شيئين خطيرين . أولاً : ان الملوك وهبوا أراضٍ واسعة للآلهة في مختلف الأقاليم . ثانياً : ان الملوك أعفوا هذه الأراضي من الضرائب بل وأضافوا اليها امتيازات أخرى .

***

وقد زادت هذه الأراضي زيادة غير منتظرة ولم يصبح منحها اعترافاً بالجميل للآلهة، بل أصبح دليلاً على الضعف والتودد وانعكست الآية في عهد الملوك اللاحقين لعصر تحتمس الثالث ، فلم يعد الكهنة خاضعين لسلطان الملك كما كانوا في أول الأمر بل شعروا بنفوذهم وسلطانهم الذي أخذ في الازدياد في الوقت الذي أخذ فيه سلطان الملوك يضعف ويتقلص .

فما بوادر هذا الضعف من جانب الملوك وما هي مظاهر هذا الجاه وتلك السطوة من جانب رجال الدين ؟ (أولاً) : لم تصبح ادارة المعابد بعد خاضعة لادارة الحكومة المركزية كما كانت من قبل، بل استقلت عنها تماماً . وبالتالي أصبح موظفو هذه المعابد ومديروها من الموظفين الدينيين تحت إمرة رئيس الكهنة في كل معبد .

وكانت ادارة هذه المعابد وأملاكها تتناول كثيراً من النواحي الزراعية والصناعية والفنية والاقتصادية والعلمية .

فمن الناحية الزراعية كان عدد كبير من العمال يعمل في زراعة الأرض والري والحصاد وتربية المواشي وشق الترع وغرس الحقول والحدائق بالفاكهة والأعناب .

ومن الناحية الصناعية كان عدد كبير يعمل في مستخرجات الماشية ومستخرجات الكروم وغيرها مثل عمال النسيج وعمال النبيذ .

ومن الناحية الفنية كان عدد كبير يعمل في بناء المعابد وملحقاتها وهندستها وفي النقش والنحت والرسم .

ومن الناحية العلمية ، كان عدد كبير أيضاً يعمل في علوم الدين وعلوم الفلك وفي الطب وشئون الكتابة والقضاء والهندسة والكيمياء والرياضيات .

أضف إلى ذلك ان جمهوراً عظيماً لا يستهان بعدده من الرجال، كان يعمل في كل معبد من هذه المعابد وملحقاتها في أعمال تتصل بالخبازة والحلاقة ومنهم الحلواني وصانع النعال والصائغ وحارق البخور وغالي الزيت وحامل المياه ومقدم القرابين .

يضاف إلى هؤلاء أيضاً أنواع من الخدم كالحارس والبواب .

أما فيما يختص بمدينة الأموات التابعة لكل رئيس كهنة فادارتها معروف أمرها للجميع.

ولم يكتف رجال الدين برعاية شؤون الدين وإدارة معابدهم بل كانت لهم في كثير من الأحيان صلات وثيقة بكثير من الأعمال الحكومية أو بعض المهام الملكية ، فكثيراً ما كانوا ينتدبون لادارتها أو للاشراف عليها ولعلّ من أهم الأمثلة التي تؤيد ذلك ما يلاحظ على ألقاب الكاهن الأكبر « حابوسنب »

بل وأكثر من ذلك أصبح منصب رئيس الكهنة وراثياً، فكان الخلف يعقب السلف دون أن يقوم نزاع أو خلاف كالذي كان يقوم عادةً بالنسبة لتوارث الملك في ذلك الحين .

وأظهر مثل لدينا على هذا كبير كهنة منف الذي مثّل سلالته على احدى الجدران في أربعة صفوف في كل صف منها خمسة عشر كاهناً من أفراد أسرته ، وظلوا جميعاً متربعين في منصب الرياسة الدينية في منف مايقرب من ألف وثلاثمائة عام تقريباً . وهناك قطعة أثرية أخرى بمتحف كوبنهاجن تمثل توارث كهنة عين شمس على هذا النسق .

أما كهنة آمون فقد نشر عنهم «لافيفر» الكثير كما هو معروف للجميع زد إلى ذلك أن سلطة الرئيس الديني لا تنتهي بوفاة الملك المعاصر له بل تستمر ولا تعتبر منتهية إلاّ بوفاة هذا الرئيس . وربما ازدادت بما يصيبهم من ثراء على أيدي الملك اللاحق، وبما يصيبهم من امتيازات جديدة وهدايا جديدة بصرف النظر عما وهبه لهم أسلافه . فيكدسون بذلك الأحجار الثمينة والذهب وتتكاثر الأراضي والمواشي ويزداد عدد اتباع كل معبد.

ولم يكتف الرؤساء الدينيون بكل ما نالوه من هذه الامتيازات بل أطلقوا على أنفسهم لقب أمير « حاتي عا » فتشبهوا بحكام المقاطعات في ألقابهم وفي نفوذهم .

(ثانياً) بينّا أن طبقات الكهنة أصبحت مستقلة عن السلطة المركزية. ولهذا الاستقلال مظاهر متعددة فمن الناحية السياسية تدرَّج الأمر برؤساء المعابد إلى أن أصبحوا في وقت واحد يجمعون بين منصبي « الرئيس الديني لجميع معابد الهيهم في مصر العليا والسفلى » ومنصب « الوزير » وهو رئيس الدولة بعد الملك مباشرة أي أنه قد تطور نفوذ رجال الدين بالتدريج حتى أمكنهم الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية أو الجمع بين السياسة والدين .

ويحدّثنا التاريخ أن « بتاح مس » كبير كهنة بتاح بمنف في عصر الملك أمنحتب الثالث جمع بين الوزارة ورئاسة كهنة بتاح بمنف ، كما أن « حابوسنب » كبير كهنة آمون في عصر الملكة « حاتشبسوت » قد جمع أيضاً بين الوزارة ورئاسة كهنة آمون بطيبه .

فأصبح رؤساء المعابد بذلك يشتركون اشتراكاً فعليًّا في حكم البلاد مع الملك .

ومن الناحية الادارية كان يقوم بادارة هذه المعابد وأملاكها من ضياع ومصانع وغيرها، رجال دينيون يخضعون مباشرةً للرئيس الديني الأعلى للمعبد لا للسلطة المركزية . وكان اختصاص هذا الرئيس يتسع ويضيق تبعاً لمقدار انتشار عبادة الاله القائم بعبادته وخدمته.

ومن الناحية الاقتصادية كانت معابدهم وما تملك من أرض وحيوان معفاة من باقي الموارد من الضرائب سنويًّا ، كما أن ميزانية هذه المعابد كانت منفصلة عن الميزانية العامة للدولة انفصالاً تامًّا، فكان لهذه المعابد بيوت للذهب وبيوت للفضة خاصة، ومخازن غلال خاصة ومراكب خاصة لجلب الدخل والخيرات من البلاد التابعة لهذه المعابد، غير بيوت الذهب والفضة ومخازن ومراكب الحكومة .

ومن الناحية الاجتماعية ، دلتنا النقوش على أن رؤساء المعابد كان لهم المقام الأول والاعتبار الأعظم . كما أن المعابد كانت تعتبر في ذلك الوقت بمثابة معاهد ثقافية تشبه دور العلم أو الجامعات في وقتنا هذا، وكان الرؤساء الدينيون يعتبرون كعمداء لهذه المعابد .

ومن الناحية القضائية كانت تمثل رجال الدين في مختلف المحاكم .

أما وقد رأينا الآن ما انتهى اليه أمر هؤلاء الرؤساء الدينيين، الذين يحق لنا أن نسميهم الكهنة الأمراء، من سلطان مطلق في ادارة معابدهم وعلى الشؤون المتعلقة بالمالية والقضاء ، نخرج بنتيجة واحدة وهي أن نفوذ هؤلاء الكهنة الامراء طغى على نفوذ الملك وتضاءلت هيبة الملك بجوار هيبتهم — فحقّ لنا أن نسمي هذه المعابد بدويلات داخل الدولة المصرية ، وان نسمي هؤلاء الرؤساء الدينيين « الكهنة الامراء » .

وكان طبيعيًّا ، وقد شبهنا هذه المعابد بدويلات ، ان يكون لكل منها بوليس خاص لمراقبة جميع الأعمال والعمال ولحفظ الأمن .

وكذلك كان طبيعيًّا ان يكون لكل منها جيش خاص يذود عنها ويدفع عنها اعتداءات المغيرين ، فكان وجود هذه الجيوش مما يقوي من هيبة الرؤساء الدينيين ويضعف من هيبة الملك .

زد إلى ذلك ان رؤساء المعابد كانوا هم رؤساء الجيوش ، في حين ان القاعدة ان الملك هو الرئيس الأعلى للجيش .

أصبح الكاهن الأعلى لكل معبد ، أو رئيس كل دويلة ، يزاحم الملك سلطته وسلطانه على البلاد .

فليس غريباً بعد كل ما رأيناه من مختلف المظاهر لازدياد سلطة الكهنة الامراء ، أن نحس بانكماش سلطان الملك وتضاؤل سلطته في هذه النواحي المتعددة التي سبق أن تكلمنا عليها

وأخيراً يجب ان نطرح السؤال الآتي : ما هي اركان النظام الاقطاعي وأهم خواصه وما مدى توافقها وانطباقها مع ما انتهى اليه حال الأمة والدولة المصرية وكهنتها عند ما ورث الملك ايخ — ان — آتون عرش مصر ؟

إن خواص النظام الاقطاعي وأركانه تنحصر في أربعة أمور رئيسية : (اولاً) الامارة — وقد رأينا ان الرئيس الديني انتهى الأمر به إلى لقب أمير (ثانياً) التوارث — وقد أصبح منصب الرئيس الديني وراثيًّا يتوارثه أولاده ثم أحفاده دون نزاع أو خلاف .

(ثالثاً) التعدد — وقد كان عدد هذه المعابد وممتلكاتها يتزايد للاله الواحد في جهات مختلفة فلما جاء ايخ — أن — آتون وجد عددها منتشراً في أجزاء مختلفة من أقاليم القطر المصري .

(رابعاً)ـ الانفصال عن السلطة المركزية — وقد بيّنا سابقاً أن هذه المعابد كانت منفصلة عن السلطة المركزية من جميع نواحي النشاط السياسي والاداري والمالي والقضائي والحربي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي .

من هذه الخواص مجتمعة ومما رأيناه من انطباقها وتوافقها على ما كانت عليه الأمة المصرية ، وما وصلت اليه حال الكهنة حتى عهد الملك ايخ ـ انـ آتون يمكننا القول أن كلمة « نظام اقطاعي » تنطبق على هذه التركة التي ورثها الملك ايخ ـ إن ـ آتون مع فارق فني بسيط، وهو أن هذا النوع الجديد من النظام الاقطاعي كان لأمراء المعابد بدلاً من أمراء المقاطعات المدنيين وذلك النظام الجديد من النظام الاقطاعي في هذا العهد يمكن تسميته بالانجليزية Temple Feudal System وبالفرنسية Féodalite de Temple وبالالمانية Templfürstendum والعربية « اقطاعيات المعابد » لأنه في هذا النظام الجديد حل العبد

وممتلكاته محل القاطعة ومشتملاتها وحل الأمير الديني محل الأمير الدني .

والملاحظ أن هذه الظاهرة الجديدة ليست قاصرة على عهد الملك ايخ — ان — آتون فحسب ، بل إننا نجد لها نظيراً في كثير من العهود الفرعونية الاخرى.

ولما جاء ايخ — ان — آتون الى العرش أخيراً وجد الحال كما بينا ، وهو حال من النظام الاقطاعي الخاص ، جعل الملك الشاب لا يستسيغه بل وينتهز الفرص للايقاع بهؤلاء الأمراء الكهنة الذين أصبحوا خطراً على ملكه، فشاء ان يتحرر من قيود هذا النظام الاقطاعي الذي ورثه عن أسلافه، فثار ثورته المعروفة في السنة السادسة من حكمه حوالي سنة ١٣٧٧ قبل الميلاد ليتخلص من اولئك الكهنة الامراء ومن سلطانهم، بل ومن معبوداتهم، وكثيراً ما تلعب السياسة دورها تحت ستار من الدين .

دكتور باهور لبيب

أهم المراجع :

Maj Sandman, Texts from the time of Akhenaten.

Én, Drio ton, Trois Documents d'époque Amarnienne

K. Sethe, Urkunden der 18. Dyn.

A, Moret, L'Egypte Pharaonique

(الجزء الثاني من مجموعة تاريخ الامة المصرية الذي نشر تحت رعاية المغفور له جلالة الملك فؤاد الاول باللغة الفرنسية)

Én Drionton et Vandir, L'Histoire de Peuples Mediteranean.

Scharff und Seidl, Rechtsgeschichte der alten Aegypten

W. Wolf, Vorläufer dea Reformation Echnatons

H. Schäfer, Amarna.

A, Erman, Die Religion der Aegypter

اختصر

اذا أخذت تمارس الكتابة فاقتصر على المفيد من المعاني ، واكتب على قدر الحاجة ، أما اذا أطلت مضطراً فلخص ما أطلت فيه ، وأوجز في عباراتك ، واجعل مختصرك رأساً لما تكتب اذا أردت الاطناب . في تسع حالات من عشر ، لا يقرأ لك إلا المختصر الذي لا تجهد نفسك في تسطيره .

ان قصة الخلق في التوراة قد رويت في ٤٠٠ كلمة ، والوصايا العشر في ٢٩٧ كلمة وخطاب لنكلن الخالد الذي ألقاه في جتسبرج كلماته ٢٦٦ . واعلان الاستقلال الاميركي ، كتب في ثلاث صفحات .

الاحلام والروح

نشر المقتطف الأغر في عدد فبراير سنة ١٩٤٥ مقالاً تحت عنوان « قمة الدنيا — إلهامك الروحي قد يرفعك لحظات اليها » ويتضمن هذا المقال حادثة واقعية تختص بأحلام تحققت رآها في نومه صاحب المقام الرفيع احمد محمد حسنين باشا يوم ضلّ طريقه في الصحراء في رحلة كشفية . وكانت معه في القافلة السيدة الكاتبة الجوّالة روزينا فوربس ، وقد روتها في كتابها « Gypsy of the Sun — غجرية الشمس » . وطلب المقتطف تعليلاً ممن يستطيع التعليل ، بشرط « أن لا ترد إلى المجهول الذي هو في الواقع اعتراف بالعجز عن التعليل » . فاليه التعليل : —

لكي نفهم طبيعة الأحلام يتحتم علينا أولاً أن نعرف طبيعة النوم . ولكي ندرك طبيعة النوم يجب أن نعرف طبيعة تكوين الانسان ، فنقول إن الانسان في الواقع جسد ونفس وروح ، فالجسد هو ما نرى وما نلمس ، والنفس جسم أثيري مطابق تمام المطابقة للجسد المادي خلية خلية ، والروح هي النفس والعقل المتلازمان دائماً أبداً . وقد استطاع العلماء تصوير أرواح الأحياء والموتى تصويراً فوتوغرافياً باستخدام الأشعة تحت الحمراء ، واستطاعوا وزنها وعرفوا تحليلها الذري والجزيئي ، لأن الروح لم تخرج عن كونها مادة لا تستجيب لها المشاعر تشتبك بالجسد اشتباك الماء بالعود الأخضر ، واستطاعوا كذلك تجسيد أرواح الموتى وأرواح الأحياء فيكون للحي المتجسدة روحه جسدان طبيعيان قد تفصل ما بينهما مسافات شاسعة . ونجد ذلك كله مشروحاً في الكتب الروحية الحديثة شرحاً مستخلصاً من التجارب المعملية . وقد يكون مستغرباً أن يحل جسمان (الجسد والروح) في مكان واحد في آن واحد ، ولكن الميكانيكا الموجية أثبتت خطأ القاعدة الطبيعية القائلة بذلك والتي تسمى قاعدة عدم التدخل ؛ وقالت انه يمكن لأكثر من جسمين أن تحل في مكان واحد ما دامت الأجسام من رتب اهتزاز متباينة .

ووصل العلماء إلى ذلك بعد أن أجروا تجارب أولية على أن هناك هيئاً ينسلخ من جسم الانسان ويجري أعمالاً وأحداثاً مادية . وكانت مدام كوري وزوجها العلامة كوري بين

جمهرة العلماء الذين أجروا في المعهد السيكولوجي بباريس تجارب معملية كهربية في هذا الصدد ، فجاءت بثلاثة كشافات كهربية وشحنتها بالكهربية فانفرجت الورقتان الذهبيتان لكل كشاف بالطبع ، واستطاعت وسيطة روحية أن تفرغ الكشافات الثلاثة في لحظة واحدة دون أن تلمسها . وراجع في ذلك كتاب « بحوث معملية في الظواهر الروحية » تأليف العلامة السيكولوجي الدكتور هيروارد كارنجتون ، ومحاضر جمعية البحوث النفسية البريطانية ، و « موسوعة العلم الروحي » لمؤلفها العلامة الدكتور ناندور فودور . ولما كان الكشاف الكهربي لابد أن يلمس لكي تفرغ شحنته خلال إصبع الشخص الذي يلمسه إلى جسمه إلى الأرض ، فالنتيجة المنطقية لهذه التجربة أن شيئاً ما انبثق من جسم الوسيطة البعيدة عن الكشاف ثم لمسه فتفرغت شحنته خلاله إلى جسم الوسيطة ثم إلى الأرض فاذا قلنا بعد هذا ، وبعد تجارب أخرى كثيرة لا يسمح المقام بشرحها ، ان الروح تنسلخ من البدن مع بقائها متصلة به لا نكون قد تخطينا الحق والواقع .

ويرى الدكتور الكسيس كاريل الحائز جائزة نوبل في الطب الجراحي والفسيولوجيا يقول في كتابه الفذ « الانسان ، ذلك المجهول » في الفصل الرابع الخاص بالمناشط العقلية : «في كثير من الحالات قد يتصل فرد آخر بشكل ما وقت الموت أو عند الخطر العظيم . ذلك أن الشخص المحتضر أو الذي يقع ضحية حادث ما يظهر لأحد أصدقائه بمظهره العادي حتى في حالة ما لم ينته الحادث بالموت ، ويسكت هذا الشبح لا ينبس بشيء عادة ، وأحياناً يتكلم معلناً عن موته » .

ويروي العلامة باترزبي في كتابه النفيس « الانسان خارج جسده » الذي ظهر في شهر مارس سنة ١٩٤٣ أن أحد أعضاء مجلس النواب الارلندي احتج يوماً لدى المجلس بأنه ليس عصفوراً ، وانه لا يستطيع أن يوجد في مكانين في آن واحد . ولكن هذا العمل العظيم إذا استحال على الطائر فقد أتاه غير مرة أعضاء مجلس النواب البريطاني . ذلك أن سير كارن راش رئي في مجلس النواب البريطاني بينما كان طريح الفراش في داره ، وأن سير جلبرت پاركر وسير آرثر هيتر قد رأياه . وقال سير جلبرت « لقد دهشت قليلاً حينما قابل راش هز رأسي بما بدا كأنه تملقه ، وقابل استفساره الهادئ بالصمت » . ومضى يقول انه حينما اختفى جسم صديقه فجأة وفي صمت أيقن أن ما رآه لم يكن إلاّ شبحاً ، وان راش لا بدّ أن يكون قد أمضه المرض وأضناه . وقال سير آرثر هيتر الذي رأى الشبح كذلك وحياه إنه لاحظ أن سير كارن راش كانت تعلو سحنته صفرة ، وانه جلس في مقعد بعيد عن مقعده العادي .

وروى باترزبي كذلك أن الدكتور مارك مكدونيل قد ظهر في المجلس بينما كان مريضاً طريح الفراش في داره ، وقد رآه زملاؤه أعضاء مجلس النواب البريطاني في يومين متتاليين وهو يعطي صوته .

في ضوء هذا الذي مرّ بنا — على اقتضابه — نستطيع أن نفسر طبيعة النوم . فما هو النوم ؟ يقول الدكتوران السيكولوجيان ملدون وكارنجتون في كتابهما « طرح الجسم الروحي » عن النوم ما يأتي :

« قدم البحّاث فيما مضى عدة نظريات لتفسير النوم ، ولكنها رفضت كلها إذ لم يكن من بينها واحدة ملائمة تفي بالغرض . فمثلاً تلك النظريات المسماة النظريات الكيماوية تحاول تعليل النوم بافتراضها تكوين مواد سامة داخل الجسم خلال ساعات اليقظة ، ثم تقريرها أن النوم يبيد هذه المواد . وترمي بعض النظريات إلى أن سبب النوم حدوث حالات غريبة في دورة المخ الدموية ، ويقول بعضها إن النوم راجع إلى وجود غدد خاصة ، وبعضها ينسبه إلى الاسترخاء العضلي ، ويقول بعضها إن الحاجة إلى منبهات خارجية تكفي لاحداث نوم عميق .

« ولكن هذه النظريات كلها عجزت في الواقع عن تفسير الحقائق ، ومما لا شك فيه أننا لن نصل البتة الى نظرية صحيحة ملائمة تفسر النوم ما لم نسلم بوجود قوة حيوية ووجود روح آدمية قائمة بذاتها تنسحب كثيراً أو قليلاً من الجسم خلال ساعات النوم للحصول على تقوية وتغذية روحيتين خلال استيطانها المؤقت في عالم الروح »

فالنوم على هذا الاعتبار طرح روحي مؤقت . ومعنى ذلك ان الروح خلال النوم تغادر الجسد ثم تمضي في سياحاتها فتجوب في عالم الروح وعالم المادة ، وينعدم لديها الزمان والمكان بالمعنى الذي نفهمه فترى من الأحداث الشيء الكثير وتكون خلال ذلك كله متصلة بالجسد المادي بحبل أثيري يستطيل وينكمش وينثني ويخترق الجدران والحوائل المادية . فاذا أفلت هذا الحبل من الجسد حدث طرح روحي دائمي للروح أي موت . فالموت طرح روحي دائم والنوم طرح روحي مؤقت . ويرى اصحاب الجلاء البصري منا نحن الأحياء أرواح الموتى وأرواح الأحياء المطروحة . ويقول الله تعالى في كتابه العزيز « الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الاخرى الى أجلٍ مسمى »

وما دام النوم طرحاً روحيًّا مؤقتاً فان الاحلام ، وعلى الأخص أو على الأقل الاحلام الشاذة ، تكون سياحات بالروح في عالم الروح وعالم المادة . وفيما يلي مثل توضيحي :

كتبت إليّ من الاسكندرية الآنسة أبكار السقاف تستفسر عن بعض ما ترى من الظواهر الروحية ومن بينها الأحلام . وعبارة الآنسة الفاضلة تنم عن أدب عميق واطلاع واسع . وفيما يلي الجزء الخاص بالأحلام من خطاب محرر منها اليّ بتاريخ ٢ يناير سنة ١٩٤١ قالت :« هل لعالم الأحلام ، عالم الرؤيا ، حقيقة كتلك التي لعالم الروح ؟ إن لي أختاً تتنبأ لنا في أحلامها قبل حدوث الوقائع الحاسمة في التاريخ . أقول الوقائع الحاسمة إذ أننا في هذه الآونة نتمثل . فمثلاً تنبأت لنا قبل الحرب بشهور طويلة وقالت لنا إنها ستعلن يوم أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وكذلك قالت ان في هذه الحرب فرنسا ستسلم .... وقد تحقق حلم آخر لها لعله على شيء من الغرابة يستحق الانتباه.

« كان لنا صديق يتردد على زيارتنا وإن كنا لم نزره في منزله ، وبيننا وبين المنزل مسافة لا بأس بها . وحدث أن مرض ذلك الصديق فأردنا عيادته . ولكننا لا نعرف منزله . وكانت ليلة وفي الصباح قالت لنا إنها رأت طريق المنزل في نومها وعرفت المنزل نفسه. وكان أن ذهبنا تحت إرشادها. ولما بلغت المنزل قالت «هذا هو الذي رأيته». ومن المدهش أنه كان هو !

«وغير ذلك حوادث أحلامها كثيرة جداً جداً. فهل لهذا علاقة بعالم الروح، وهل هناك أية كتب ترشد لحل سر هذه الظواهر المحيرة ؟ لقد سألتها كيف تفهم من الأحلام ما الذي سيحدث فقالت إن هناك رجلاً تراه في المنام يقول لها ذلك، هو نفس الرجل في كل حلم لا يتغير».

ومما جاء في كتاب « طرح الجسم الروحي » ويعد غريباً في الأحلام قول أحد مؤلفيه وهو العالم ملدون « لقد رأيت في الحلم مرتين أني أنقل أشياء في منزلي ، وعند استيقاظي وجدت الأشياء قد نقلت فعلاً كما رايت » وقوله « يتحدث الدكتور بيرز عن رجل رأى في حلمه أنه يدفع باب حجرة في بيت بعيد عنه ، وقد كان الدفع من القوة بحيث كاد يعجز الموجودون في تلك الحجرة عن مقاومة الضغط ! ! »

فاذا اعترض معترض على حلم ملدون بأنه كان جوالاً خلال النوم لأن الأشياء نقلت في المنزل الذي ينام فيه فبماذا نعلل حلم ذلك الرجل الذي رأى أنه يدفع باب حجرة في بيت بعيد عنه وشعر الموجودون بالدفع ؟ إنها الروح المطروحة دون شك .

بل أن ملدون يتحدث كذلك عن نوع من الطرح الروحي يقال له الطرح الارادي الواعي ، وفيه يطرح الانسان روحه طرحاً واعياً . وقد نهض بهذا الطرح كثيرون من بينهم الطبيب الذائع الصيت الدكتور الكسندر كانون . فقد كان يطرح روحه وهو في لندن ليقابل صديقاً له في الهند . وراجع في ذلك كتابه «التأثير غير المنظور» وكتابه « القوى الكائنة » . ويقول ملدون إنه طرح روحه ذات مرة طرحاً واعياً ثم ذهب الى الحجرة

التي تنام فيها أمه وأخوه الصغير ودحرجهما من فوق الفراش . ويقول انه طرح روحه مرة من حجرة نومه الى فناء منزله الخلفي وكان هناك حوض من الزنك فطرقه طرقاً شديداً بمطرقة كانت ملقاة بجواره، ثم عاد مسرعاً إلى جسده مخترقاً الجدران اليه وثوى فيه بسرعة وسمع صوت الطرق بعد أن ثوى في جسده . ويلاحظ أن سرعة الروح أكبر من سرعة الضوء بمراحل فما بالك بالصوت . وقد سمع الصوت كذلك ثلاثة أشخاص .

وقد يسأل سائل وكيف استطاعت الروح الأثيرية المطروحة أن تؤثر في جسم المطرقة المادي فترفعه . وهنا يقول كارنجتون وملدون في الرد على السؤال ان قوة الارادة الخفية الواعية تجعل الجسم الأثيري يتصلب فيتمكن من احداث طرق أو دفع أو رفع أو ما إلى ذلك . ويضاف الى هذا أن من وهب الوساطة الروحية يكون أقدر من غيره على إحداث هذه الظواهر المادية عن طريق الروح .

ونعود بعد هذا — على اختصاره بل على اقتضابه — الى رؤى السيد احمد محمد حسنين باشا فنقول إن حالة الطرح الروحي ظاهرة كل الظهور . وتلك السيدة التي رآها في حلمه متشحة بالبياض روح تحنو عليه أسرعت اليه لتدله على طريق النجاة ، وقد مرت به وهي تستصحبه على ما شاهده في طريقه بروحه المطروحة في الحلم ثم رآه بعد ذلك في اليقظة . وقد تكون هذه السيدة روح احدى قريباته اللاتي انتقلن الى عالم الروح .

وليس غريباً أن يحمل معه السلسلة وأن يدفنها كما حمل ملدون المطرقة وقد يلقي هذا النقل شيئاً من الضوء على مسألة المجلوبات الروحية التي ينقلها الوسطاء الروحيون ، أو يجيئون بها في لحظة من أقاصي الجهات ، من أمثال المرحوم الشيخ سليم الطهطاوي . وليس غريباً كذلك أن يرى آثار الأقدام ، فالضغط الحادث على الرمل واللازم لاظهار آثار الأقدام أقل كثيراً من ضغط ذلك الحالم الذي رأى أنه يدفع باباً وكان الدفع من القوة بحيث عجز الموجودون عن مقاومته .

وأما التنبؤات فتجيء عن طريق تتبع أشعة الضوء في لوحة الفضاء والزمن . وكلما كان الروح المتقصي أقدر على تتبع هذه الاشعة واستخلاص ما ترسمه من حوادث كان أقدر على معرفة الاحداث المقبلة . ويلاحظ أن العلامة اينشتاين قال في نظريته عن النسبية باندماج الماضي والحاضر والمستقبل معاً ، وأثبت أن في الكون نقطاً لو وجد فيها عقل واع لرأى الماضي والحاضر والمستقبل .

وفي كتاب « تجربة في الزمن » لمؤلفه العلامة دان Dunne شرح مستفيض لهذه الاحلام التنبؤية فليرجع اليه من شاء .

فالأمر من ثمَّ مقبول ومعقول في حدود قضايا العلم الروحي الحديث والعلم الفيزيقي الحديث. والذي يمكن استخلاصه من هذه الحادثة هو ان السيد احمد محمد حسنين باشا وسيط روحي موهوب، وان في استطاعته أن يدرّب نفسه على أنواع الوساطات الروحية ومن بينها الطرح الروحي الواعي.

والإلهام الروحي وساطة روحية ما في ذلك شك، ويفسره القانون الروحي القائل بتجاذب الأشباه بين الأرواح سواء أكانت متجسدة أم طليقة. ولكن المسألة هنا لم تكن الهاماً بل طرحاً روحيّاً كما مرَّ بنا.

احمد فهمي أبو الخير

مدير ادارة السينما التعليمية بوزارة المعارف

* * * * * * * * * * *

امبرلنكن ودروين

في أوائل سنة ١٨٦٠ ظهرت في اميركا الطبعة الاولى من كتاب أصل الانواع. وبالرغم من السحب المعتمة التي جالت في جو اميركا السياسي حول مسألة تحرير العبيد، فان ظهور كتاب «دروين» قد أحدث أثراً عظيماً في الناس. ولقد انقسم الناس ازاءه انقساماً شديداً، وكان جل اتجاههم ديني صرف. فبين أيديهم كتاب يمكن تفسيره بما ينزل الانسان عن المرتبة التي درجت عليها القرون.

وقف أكثر رجال الدين موقف العداء من «أصل الانواع» ونبذوه على انه كفر والحاد، ولكن بعضاً منهم قالوا بأن هذا الكتاب لا يسلب الانسان شيئاً من منزلته العليا في الوجود، ولا يؤثر في رفعة الانسان من حيث أصله وتسلسله. ولقد قبل «هنري وارد بتشر» مبدأ التطور، بالرغم من انه كان أعظم وعاظ عصره، قائلا انه مفتاح كثير من أسرار الحياة.

ولم يقتصر الامر على رجال الدين، بل جاراهم في ذلك رجال العلم. وان من أعظم احداث التاريخ الحديث آن «لويس أغاسيز» وهو من أكبر رجال علم الاحياء في أميركا، قد انضم الى المقاومين لفكرة التطور الدروينية، وأيده في ذلك زميله «جيمس روس لويد»، قائلا انه من المحافظين الذين يؤيدون الدين وينبذون التطور.

لقد كان موقف اغاسيز موقفاً عجيباً. فان هذا الرجل الذي يكشف عن السبب في حدوث العصر الجليدي ويعلله بأن قمة الارض الجليدية انحدرت من الشمال فغطت جزءاً عظيماً من شمال الكرة، يقف عاجزاً عن تفهم نظرية بسيطة كنظرية النشوء!

وهو الذي اشتغل بحفريات الاسماك فجمع بقايا ١٥٠٠ نوع منها، فلم تأته فكرة ان نوعاً قد يتطور فينشأ منه نوع آخر يقاربه تكويناً وقواماً! ولكن القدر قد خبأ ذلك المجد ليكون من نصيب مواليدي طاف الدنيا على ظهر بارجة انجليزية، كان فيها ضيفاً، لا عالماً اصليا، هو شارلز روبرت دروين العظيم.

* * * * * * * * * * *

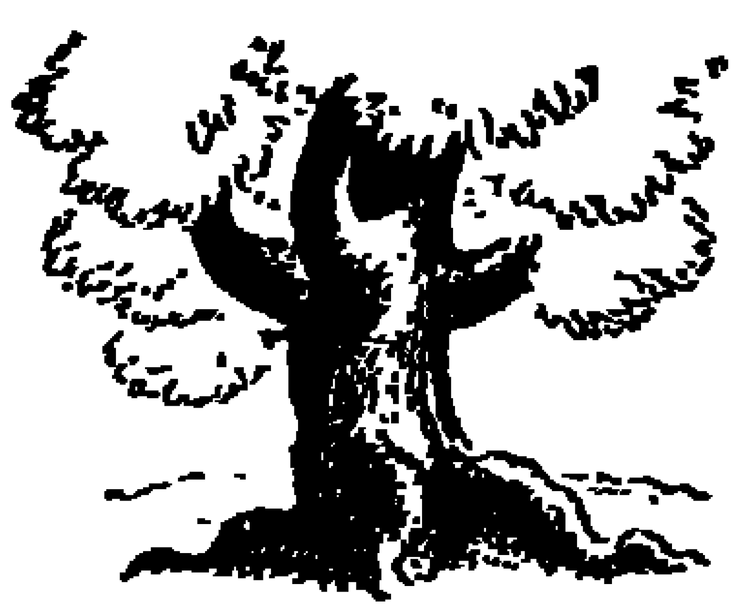

من أنواع النبات

الطبي

﴿ البَرَنجاسَف والبِرِنجاسِف ﴾ نبات من الفصيلة المركبة يعرف في مصر بالشيبة يشبه الافسنتين لهُ ورق دقاق بيض وصفر ويظهر في الربيع والصيف ويُسمّى « بالبزور الخراساني » وفي اصطلاح النباتيين Artemisia arborescens وبالانكليزية Shrubby wormwood وبالفرنسية Armoise en Arbre وهو مقوٍّ مدر للطمث طارد للدود

﴿ البُزور ﴾ اسم يطلق على « السُورنجان والسَورنجان » نبات من الفصيلة الزنبقية يكثر بالشام وأوربا وشمال افريقية اسمه النباتي Colchicum autumnale وبالانجليزية Meadow Saffron وبالفرنسية Colchique d'Automne; Tue—chien أصوله كالكمأ مستديرة بيضاء لينة تؤكل مشوية وهي تشتمل على شبه قلويّ يسمّى « كولشيسين » وتستعمل مسهلاً ومقيئاً ومنبّهاً موضعياً . والكولشيسين يحصل عليه من البزور أيضاً ويتداوى بهِ مضادّاً للألم العصبيّ ووجع المفاصل .

﴿ التُربَد والتُربَذ ﴾ أصول غليظة ودقيقة يُوتى بها من الهند وهو نبات من الفصيلة المحمودية أو اللّافة ينبت في بعض حدائق القاهرة والاسكندرية اسمه النباتيّ Ipoemaea Turpethum وبالانكليزية Indian jalap وبالفرنسية Turbith والتربد مسهل ويستعاض به عن الجلَبّة

﴿ التاريقة ﴾ هو الرَّند ويسمّى الغَار في مصر شجرٌ طيّب الرائحة من الفصيلة

الغارية اسمه النبـاتي Laurus nobilis وبالانـكليزية Laurel وبالفرنسـية Laurier تستعمل أوراقه اليابسة وثماره العنبية للحصول على دُهن الغار الكثير النافع .

﴿ ثاقِبُ الحَجَرِ ﴾ هو « البَسْفَايجُ » من الفصيلة البوليبودية اسمه النبـاتي Polypodium vulgare وبالانـكليزية Common Polypody وبالفـرنسية Polypode de Chêne; Polypode commun عروق دقاق الى السواد والحمرة اليسيرة أو الى الخضرة ذات شعب كالدودة الكثيرة الأرجل في داخلها شيء كالفستق عفوصةً وحلاوةٌ تُلتقَط من بين الصخور والأشجار الظليلة قيل تنفع للماليخوليا والجذام وتسمى « باضراس الـكلب » و « بالـكثير الأرجل »

﴿ الثُّفّـاء ﴾ الرَّشاد وقد يقال له الخردل أو الحرْف عشب من الفصيلة الصليبية ينبت في مصر وله اسـتعمالات طبية اسمـه النباتي Nasturtium afficinale وبالانـكليزية Water-cress وبالفرنسية Cresson de Fontaine .

﴿ الجَسَّاد ﴾ الزَّعْفَران نباتٌ له أصلٌ كالبصل وزهرهُ أحمر الى الصفرة من الفصيلة السوسنية اسمه النباتي Crocus sativus وبالانـكليزية Saffron وبالفرنسية Safran Cultivé تشتمل السِمَات اليابسة من أزهاره على غلوكوسـيد يُسمَّى « كروكتين » وتستعمل صِبْغاً أصفر في المأكولات وفي حانوت الحلويَّات وكذلك صبغة ودواءً طارداً للريح ومدرًّا للطمث

﴿ الجُمُسْفَرَم والجَمْسَفْرَم ﴾ ويقال له « رَيْحَانُ سُلَيْمَان » و « رَيْحَانٌ فارسيٌّ » نبات من الفصيلة الشفوية اسمه النباتي Ocimum gratissimum وبالانـكليزية Shrubby Basil وبالفرنسـية Basilic en Arbre قوَّتهُ شبيهة بقوَّة الشيح مفتِّحٌ محلِّلٌ للرياح . يوجد كثيراً في جبال أصفهان

﴿ الجَنَـلح الشاميُّ ﴾ الرَاسَن بالفارسية نباتٌ تنفرش أوراقه على الأرض وهي طويلةٌ تبلغ الورقة منها الى طول ذراع من الفصيلة الركبة ينبت بالولايات المتحدة الأميركية وأوربا

وآسيا الوسطى اسمه النباتي Inula Helenium وبالانكليزية Elecampane وبالفرنسية Aunée تشتمل أرومته على مواد كربوهيدراتية أي نشوية وهي عطرة الرائحة وتستعمل دواءً دافعاً للبلغم (منفثاً) ومنبّهاً .

﴿ جَوْزُ الجندُم وجوز جَندَم ﴾ ويعرف « بخرْء الحمام » و « شحم الأرض » شجر ينبت في جزائر ملوك وجاوة من الفصيلة الجتّيفرية اسمه النباتي Garcinia Mangostana وبالانكليزية Mangosteen وبالفرنسية Mangoustan وهذا الجوز يؤكل فاكهة لذيذة وله قوة مبرّدة مطفئة مليّنة قليلاً ومضادة للأمراض الحفرية (الاسقربوطية) وقشره قابض طارد الدود .

﴿ الحارّة ﴾ الحُرف ويسمّى في مصر الرَّشاد وحَبّ الرَشاد . وسُمّي بالرشاد تفاؤلاً لان الحُرف معناه الحرمان . بقل من الفصيلة الصليبية اسمه النباتي Lepidium sativum وبالانكليزية Garden Cress وبالفرنسية Cresson Alénois له منافع مذكورة في كتب الطب القديمة .

﴿ الحامُول ﴾ كما يسمّى في مصر هو الكَشُوث والكُشُوث والكَشُوثَى والكَشوثاء وقد تضم الكاف فيهما والأكْشُوث وبالتاء المثناة في الكل . جنس نبات طفيلي من الفصيلة المحمودية أو اللافة يلتف على أنبتة أخر ولا عرق له في الأرض يشبه الليف المكّيّ لا ورق له وله زهر صغار بيض فيه مرارة وعفوصة اسمه النباتي Cuscuta وبالانكليزية Dodder وبالفرنسية Cuscute له منافع مذكورة في كتب الطب القديمة .

﴿ حَبُّ الزَلَم ﴾ معروف في مصر بالسُّقَيْط وفُلْفُل السودان وحب العزيز . جذور نبات من الفصيلة السعدية اسمه النباتي Cyperus esculentus وبالانكليزية Earth Almond; Rush Nut وبالفرنسية Amande de Terre; Souchet Comestible له منافع مذكورة في كتب الطب القديمة .

محمود مصطفى الدمياطي

باب المراسلة والمناظرة

مقاومة مرض الملاريا

العدول عن سياسة تجفيف حقول الارز

وتوفير مبالغ ضخمة على الدولة

وافق مجلس الوزراء في الشهر الماضي على مذكرة لصاحب المعالي الاستاذ ابراهيم عبد الهادي بك وزير الصحة متضمنة وجهة نظر الوزارة في امر زراعة الارز بالمملكة المصرية وذلك في حدود علاقتها بمرض الملاريا ومقاومته ننشرها فيما يلي :

أتشرف بأن أعرض على دولتكم وجهة نظر وزارة الصحة في امر زراعة الأرز بالقطر المصري وذلك في حدود علاقتها بمرض الملاريا ومقاومته .

١ — انه مع التسليم بأن مزارع الأرز من الامكنة الأكثر صلاحية لتوالد بعض أنواع البعوض الناقل لمرض الملاريا فقد استقرت سياسة الدولة على وجوب الاحتفاظ بتلك الزراعة لما لمحصول الأرز من قيمة في ثروة البلاد ووضعت التشريعات المتعددة والأوامر العسكرية للمساعدة على منع انتشار المرض كالامر الخاص بردم البرك والمستنقعات ومنع احداث الحفر التي يتوالد فيها البعوض والقانون رقم (١) لسنة ١٩٣٦ الذي يعطي وزير الصحة بالاتفاق مع وزير الزراعة الحق في اصدار القرارات اللازمة لمنع زراعة الأرز في دائرة معينة من حدود أية مدينة أو قرية يسري على القانون المذكور .

٢ — ولقد كان رأي وزارة الصحة دائماً ولا يزال مستقراً على قصر زراعة الأرز بالمناطق الشمالية لأن برودة الجو بها نسبياً تعرقل نمو يرقات البعوض وتطور طفيلي الملاريا داخله حتى انه في الشتاء لا تحدث عدوى جديدة بالملاريا ، ذلك فضلاً عن ان تلك المناطق قد اعتادت زراعته من قديم فاكتسب سكانها بمرور الزمن مناعة نسبية من الملاريا . أضف الى هذا اتساق نظام الصرف بها واعتياد الاهالي على استعمال المصارف كوسيلة لغسل تربة

الأرض من الاملاح لاستصلاحها الأمر الذي يساعد على تجفيف المزارع عند اللزوم وازالة المياه الآسنة مما يخفف زيادة توالد البعوض نوعاً .

٣ — على أن بعض الافكار في وزارتي الأشغال والزراعة كانت تحبذ منذ سنة ١٩٣٦ زراعة الارز في جنوب الدلتا بل في بعض بلاد الوجه القبلي .

٤ — وفي سنة ١٩٤٣ زادت وزارة الأشغال في تصريحات زراعة الأرز ، ثم تلا ذلك ان اقترحت تجفيف مزارعه دورياً وكانت حالة المياه بادية القصور عن مواجهة المساحة الكبيرة التي زادتها التصاريح على غير سابقة .

وانه وان يكن اتخاذ قرار التجفيف قد لبس ثوب الدعوى بأنه في صالح زراعة الارز وزيادة غلتها على ضوء تجارب البرتغال كما قيل بأنه تقرر في صالح مقاومة الملاريا لأن التجفيف يقضي على توالد البعوض الناقل لها ، الا ان الحاجة الأولى لم تكن مفهومة كمبرر لتجفيف المزارع الضعيفة التربة الكثيرة الأملاح كأراضي شمال الدلتا . والرأي مجمع على أن تجفيفها معناه طغيان الاملاح على سطحها والقضاء على النبات او اضعافه كما وقع فعلاً ، وكانت النتيجة نقصاً في متوسط محصول الفدان .

كذلك فان عملية التجفيف التي لجأت اليها وزارة الأشغال رغم معارضة وزاة الصحة وأرصدت لها في سنة (١٩٤٣) ٥٠ الف جنيه كمرتبات للمشرفين من عمال وزارة الزراعة على ملاحظتها هذه التجربة قد فشلت تماماً على التفصيل الآتي :

فمن الناحية الادارية ظهر ان ٢٥٫١ في المائة من زراعات الأرز لم تجفف في المواعيد المقررة .

ومن الناحية الصحية ثبت ان نسبة مزارع الارز التي بها يرقات البعوض الناقلة للملاريا ٣٠٫٦٪ سنة ١٩٤٣ بينما كانت هذه النسبة في العام السابق لقرار التجفيف ٢٥٫٧٪ .

ومما تقدم يثبت أن إجراء التجفيف لم ينتج أثراً ، لا من الناحية الاقتصادية ، ولا من الناحية الصحية .

٥ — وكان المأمول أن تضع هذه التجربة الغالية الثمن حداً لمشروع تجفيف زراعات الأرز ، إلا أنه تقرر اعادة تلك التجربة في سنة ١٩٤٤ — رغم معارضة وزارة الصحة — تقرر فتح اعتماد قدره ١٢٣٠٧٠ جنيهاً في الجزء الباقي من سنة ١٩٤٤ وفتح اعتماد سنوي قدره ٣٠٩٨٦٠ جنيهاً في ميزانية وزارة الزراعة لانشاء وظائف دائمة لموظفين يكون تجفيف زراعات الأرز أحد واجباتهم، وصدر الأمر العسكري رقم ٤٧٢ لسنة ١٩٤٤ بالاستمرار في

تجفيف زراعات الأرز دورياً لمقاومة البعوض وأبيحت زراعته في كل من الدلتا والفيوم ، ومنعت في باقي الوجه القبلي بناءً على الحاح وزارة الصحة .

وقد استمرت وزارة الصحة من جانبها في استقصاء نتائج تجربة التجفيف مرة أخرى فأوفدت ملاحظيها تحت اشراف طبيب اخصائي في الملاريا لفحص مزارع الأرز دورياً وبعد قيامه بمهمته قدم تقريره النهائي وكانت خلاصته ما يأتي : —

١ — ان ١ر٨٤ ٪ من مجموع زراعات الأرز التي فحصت وقدرها ٥٦٨٠ زراعة لم تجفف مخالفةً بذلك الأمر العسكري .

٢ — وجدت يرقات الانوفيل الفرعوني ٥ر٢٦ ٪ من مزارع الأرز في يونيو سنة ١٩٤٤ وكانت في نفس الشهر من سنة (١٩٤٣) ٧ر٢٥ ٪ .

٣ — في جنوب الدلتا خصوصاً مديرية المنوفية،لا يمكن الزراع أن يجففوا أراضيهم ولو حاولوا في الجهات التي لم تمر بها المصارف العمومية،وهم في المناطق،التي بها مصارف عمومية لا يتمكنون من التجفيف لعدم وجود المصارف الفرعية :

والآن وبعد طول التجارب الكثيرة التكاليف ، نرجو النظر في تقرير برنامج لزراعة الأرز يلحظ فيه الاعتبارات الآتية :

١ — منع زراعة الأرز في الوجه القبلي واستمرار الأمر القاضي بحظر زراعته هناك .

٢ — حصر زراعة الأرز في مناطق شمال الدلتا حيث وسائل الصرف كاملة والجو أصلح

٣ — العدول عن سياسة التجفيف التي لم تفد من الناحية الصحية ولا من الناحية الاقتصادية ، توفيراً للمبالغ الضخمة التي أرصدت لتنفيذها على غير جدوى وعدم تجديد الأمر العسكري الخاص بالتجفيف .

وأريد،وقد انتهيت من بسط الموضوع،ان أرفق مع هذه المذكرة بياناً من وزارة الزراعة وآخر من وزارة الأشغال تتبينون دولتكم منه نسبة المحصول في سنة ١٩٤٢ أو سنة ١٩٤٤ وعلاقة ذلك بنسبة المياه من جهة ومساحة الأرض التي صرح بزراعتها من جهة أخرى وهو مصداق لكل ما ذهبنا اليه .

كما ترون دولتكم ان كمية الأرز الناتج من مديرية الفيوم محدودة لا تؤثر شيئاً يذكر في مجموع المحصول العام ولا تقاس قيمتها بالقيمة الصحية المحققة من عدم زراعته هنالك هذا العام .

العالم المجهول

في قمة الدنيا

نقل المقتطف في شهر فبراير الماضي واقعة تحت عنوان « قمة الدنيا » عن كتاب روزيتا فوربس التي صحبت رفعة حسنين باشا في رحلته في الصحراء . وعنوان كتابها عرافة الشمس Gypsy of the Sun . وموضوع القصة رؤيٍ رآها حسنين باشا في إبان تيه حملته في الصحراء ومعاناتها الظمأ لضلالها عن آبار الماء ، ونبوءات عن مستقبل رفعته المجيد . وفي سياق الحكاية أخبار التفريج لأزمات الرحلة المهلكة وتحقيق لنبوءات الرؤيا . وظهر ان بعض قراء هذه القصة أيقنوا بصحتها اعتماداً على إسنادها الصريح إلى اسم رائي الرؤيا حسنين باشا.

أما انهـا نشرت في كتاب « عرافة الشمس » للسيدة روزيتا فوربس فلا يهمنا كثيراً، لأن هذه الكاتبة تبتغي ترويج كتابها بين قراء الانكليزية بنسج مثل هـذه القصص التي تنطبق عليها تسمية الكتاب . ولـكن القصة نشرت في المقتطف المعلوم انهُ أرقى مجلة علمية عربية مدققة في مباحثها فاكتسبت اعتباراً من القراء،ولا سيا لأن المحرر علّق عليها بهذه الجملة : — ألا يحق لنا أن نعتقد أن الالهام الروحي قد يرفع الإنسان لحظات يكون فيهـا فوق قمة الدنيا فيغزو العالم المجهول من غير أن يدرك انه غزاه »

فنتمنى والحالة هذه أن نسمع القصة من قلم حسنين باشا لـكي نرى كم هي مطابقة للواقع. وكذلك نود أن نرى ما هو رأي رفعته في تعليل الرؤيا هذه . ورفعته مثقف ثقافة عليا منزهة عن الأوهام . وإذا سكت رفعته عن رواية السيدة روزيتا فوربس في كتابها المنتشر في عالم آخر غير عالمنا فلا حرج ، ولـكنهُ إذا سكت عن نشرها بلغتنا العربيـة فنخشى أن تغذي الأوهام الشائعة في عالمنا العربي .

بقيت كلمة أخرى استأذن حضرة المحرر أن يتسع صدره لها وهي بشأن تعليقه على القصة ان قوله : « ان الالهام الروحي قد يرفع الانسان لحظات يكون فيها فوق قمة الدنيا يغزو العالم المجهول » فمسألة فيها نظر أو نظرات .

ماذا يراد بالالهام الروحي ؟ من هو الملهم ومن هو الملهَم (بكسر الهـاء في الأولى وفتحها بالثانية) . ولا بدّ أن المراد برفع الانسان فوق قمة الدنيا ليغزو العالم المجهول هو روحه أو على الأصح هو عقله الباطن . أي ان الروح توعز إلى نفسها ان ترتقي إلى العـالم المجهول . وهذا يحدو بنا إلى التساؤل عمّا هو العالم المجهول .

فان كنا نعرف شيئاً من ظاهرات هذا العالم المجهول فيجب علينـا أن نعترف بوجوده

ولو كنا نجهل كنهه ، وعلينا أن نبحث عن سرّه . وان لم نكن نعرف شيئاً عن ظاهراته فلا يحق لنا أن نفترض وجوده، بل يجب أن ننكر وجوده . وإلاّ فيمكننا أن نفترض ألوفاً من المجهولات ونوجب على كل واحد أن يعترف بوجودها .

مثال ذلك ، يقول لك قائل : « لا تستطيع أن تنكر وجود الكهرباء فيما أنت تجهل سرّها » نعم لا أنكر وجود الكهرباء لأني أرى ظاهراتها وأشعر بوجودها في المصباح والترام والراديو، ولذلك أحكم بوجودها وان كنت أجهل سرها .

ولكني لا أستطيع أن أعترف بوجود عالم المجهول وأنا لا أرى ظاهرة منهُ تدل على وجوده أو على ماهيته . وإذا أريد أن تعتبر هذه الرؤى والأحلام ظاهرات هذا العالم المجهول . فلا بأس . ولكن هذه الظاهرات التي تدل عليه موجودة في أدمغة الرائين والحالمين وأمثالهم ، وليست فوق قمة الدنيا ، وما خرجت عن دائرة العقل، الذي هو من عمل خليات الدماغ لا غير . اذاً هذا العالم المجهول موجود في أدمغتهم .

واذا أريد بقمة الدنيا ما وراء الطبيعة، أي ما وراء الأكوان المادية المحدودة الحيّز ، فليس هناك إلاّ العدم أو الفضاء اللامتناهي . وان كان وراء العوالم المادية عوالم أخرى ، فلا ندري عنها شيئاً البتة ، ولا نستطيع الاتصال بها لأن مشاعرنا الخمس وحواسنا العقلية لا تتصل اليها . وبالتالي لا نعترف بوجود عالم مجهول مفروض إذ لا دليل لنا عليه .

نقولا الحداد

نظام الاكل

ان المآكل التي نتغذى بها ونعيش عليها مكونة من مواد زلالية ودهنية ونشوية وأملاح وماء ، وان الجسم البالغ يحتاج الى اقدار منها تختلف باختلاف العمل الذي يمارسه ، وان ما يولده الجرام الواحد من المواد الزلالية نحو ٤ وحدات حرارة والدهنية نحو ٩ والنشوية نحو ٤ ومعدل ما يستهلكه الجسم العامل نحو ثلاثة آلاف وحدة في اليوم .

ونسوق كلمة وجيزة عن النظام الذي يجب ان يعيش عليه الآكل عند ما يجلس الى المائدة. واحترام هذا النظام يعادل في أهميته الغذاء نفسه فعليك أن تغسل يديك ووجهك وفمك قبل ان تمد يدك الى الطعام . وهذا الشرط له أهمية عظيمة الشأن في عملية الهضم والصحة، تضارع أهمية الغذاء وما فيه من فائدة للجسم. فالحذار الحذار من اهماله او التردد في القيام به بدافع الجوع أو ضيق الوقت أو ماشا كل ذلك فقد يكلفك الاهمال فيه أضعاف ما دفعك اليه وحرضك عليه. فاذا كان الجوع هو الباعث الأول الى اهماله فقد تحرم من الاكل بسببه أياماً وأسابيع

وتفقد من الوقت أن كان ضيق الوقت الذي حرَّضك عليه: أضعاف الوقت الذي اقتصدته في اهماله . والذي يهمل غسل يديه قبل الأكل يهمل الشرط الثاني وهو الاعتدال بمقدار ما يأكل ومضغ ما يأكل جيداً . والشرط الثالث هو ان تأكل في ميعاد فلا تتعداه ولا تقدمه ولا تؤخره لأي سبب من الأسباب ، وعلم الوقاية يقول في ضرورة الأخذ به والعمل بالنظام العام كاملاً وعلى أتم وجه . ومن أكل في غير نظام وعاش على غير قاعدة يتبعها في أكله وعمله ، تسوء صحته ويضطرب جهازه الهضمي بين حين وحين ، كما تجده مضطرباً في أعماله وأقواله ، يأكل اليوم في الساعة الواحدة بعد الظهر ، وغداً في الرابعة ، وبعده في العاشرة صباحاً ، او لا يأكل الا في المساء او عند ما يشعر بالجوع ، وانه وعد بانجاز عمل كلف به لا ينجزه في الموعد الذي حدده ، وان ضرب ميعاداً لمقابلة تخلف عن الموعد الذي ضربه ، وان أخذ منك كتاباً يطالعه فلا يرجعه اليك ولا يطالعه وهكذا تجده في كل أعماله متقلقلاً .

وأكثر الناس انتاجاً واستقراراً هو الذي يعيش ويأكل ويعمل بنظام ، ومن أكل بنظام عمل بنظام أيضاً .

وفي الكتب المنزلة يفرض الصوم على المؤمن بها لا لتجويعه واذلال نفسه فحسب ، وانما لتعويده على الأكل بنظام وخير ما في الصوم من فائدة يستفيد بها الصائم ، هي ضبط مواعيد الأكل ، وتنسيق المعيشة على قاعدة منظمة صحية ، واحترام مواعيد الأكل ، لا تقديم فيها ولا تأخير . والأسرة التي تعيش على نظام في أكلها تنجب أولاداً منظمين ، وفي الأرجح يكونون من الناجحين في أعمالهم العامة والخاصة . واذا عمّ النظام معيشة أمة استقام امرها وعلا شأنها ، وارتفع مقامها بين الأمم ، ويقولون إن أسباب تقهقر الشرق عن الغرب ، بعد ان كان متقدماً عليه هو الدين وتعصب أتباعه على مختلف مذاهبهم ونحلهم . والواقع أن الدين بريء ، وانما تقهقر الشرق يرجع الى عدم احترامه للنظام سواء كان في أكله أو معاملاته ، كما نستطيع أن نقول إن أسباب تقدم الغرب هو احترامه للنظام في معيشته وسائر مرافق الحياة .

والخلاصة ان الأكل بنظام مقيد بميعاد ، مفضل على الأكل المطلق من التقييد . وان الطعام الناقص الذي نأكله بنظام خير من الطعام الكامل الذي نأكله بغير نظام . وان تقدم الغرب وتقهقر الشرق سببه أن الغرب يعيش ويعمل في نظام وان الشرق لا يتقيد في معيشته واعماله بنظام ، واذا أردت أن ينهض الشرق من كبوته ويتقدم في حلبة العمران نظم معيشته ، وبث فيه روح الثقافة الصحية والاجتماعية : عليه أن يحترم الوقت الذي هو جزء من حياته وان يحرص على الوقت الذي يعادل بقيمته الحياة وأكثر ما في الحياة من مباهج .

الدكتور شخاشيري

مكتبة المقتطف

الى توفيق الحكيم

أتذكر أيها الصديق يوم تلاقينا في ندوة الأستاذ العقاد ؟

أتذكر يوم أصدرت روايتك الأولى « أهل الكهف » فوقفت منك موقف التحدي أدل القراء على المصدر الذي أغرت عليه فانتزعت منه فكرة تلك الرواية ، وكيف لم أنكر عليك براعتك في عرضك إياها عرضاً فنيًّا بديعاً ، وفي تقسيمها المحكم الدقيق ، وحوارها البالغ حدًّا من الجودة والاتقان ؟

أتذكر يوم أصدرت قصتك الثانية « عودة الروح » وما قلته لك فيها بأنها سطور مرقعة من لغة سقيمة ، وتعابير مفككة ، واحصائيات فتوغرافية ، وصوَر ناصلة الألوان لفكرة قلقة مضطربة ؟

أتذكر يوم صارحتك القول في أين مقامك كأديب في كل ما كتبت حتى يومذاك ، وإن أقصوصة « أهل الفن » تحمل وحدها طابعك الشخصي ؟

إذا كنت تذكر ذلك ، فاعلم ان الشكوك قد لا بستني فيك ، وساورتني الريَب في أدبك فقد أخذت أتابع قراءة ما تؤلف وتنشر على الناس ولم يستقر لي قرار إلاّ يوم قرأت لك قصة « بيجماليون » فعندها قلت فيك . إنك أديب « صايغ » تحسن صناعة الصياغة الأدبية إحساناً مجيداً . أعني بذلك إذا أعطيت جوهرة ثمينة فأنت القادر العظيم على جعلها قلادة بارعة الفتنة الفنية تجمل بها أجمل عنق لأجمل سيدة .

***

تطوَّرت معرفتنا فتصادقنا . أخذت أتطلع إلى دخائل نفسك ، وأتلصص مكامن سريرتك لم تكن بالكتوم الحذور ، بل كنت الودود في صداقتك ، الجهور في اعلان سرك ، تطلق نفسك على سجيتها فتعبّر بأبسط بيان عما يجيش في صدرك ، ويضطرب في خاطرك .

لقد لمست فيك حياءً أصيلاً ، وشجاعةً ونبالة ، ورغبة صدئة ، وشهوة مكبوتة .

فقلت لك : لقد وصموك بعداوة المرأة فأنت والله راغب فيها لو كانت لك رغبة ، غير عيوف عنها لو كانت لك شهوة ، ولقد كذّبتني ليلة التففنا حول خوان عليه سائل مقطّر يطلق اللسان من عقاله ، ويفتح مغاليق الأسرار ، فحكيت « لنا » حكاية مغامرة واقعية تنفي ما توهمته فيك ، وكادت تنهداتك تذهب بالغبار العالق في ذهني منك ، ودموعك تغسل ما سطرته في لوحة صدري عنك ، فشاقتني حكايتك ، فقلت « لكم » بأني سأصور حكاية مغامرتك هذه لأنها نكأت في صدري جرحاً توهمت الله اندمل : فاستمهلتني ريثما أقرأ حكاية هذه المغامرة وقد خلدتها في كتاب أسميته « الرباط المقدس »

***

قرأت الكتاب فنسيت اني أقرأ لصديقي توفيق الحكيم ، بل فرحت لأني أقرأ لهذا الصديق الحكيم ، وتمنيت لو تضاعفت أعداد صفحاته لكنت قهرت النوم ، وتمرّدت على مفاتن الفجر الساحرة ، وبهاء شروق الشمس انجذاباً بقراءة هذه الحكاية البالغة حدّ الفتنة في العرض والسياق والتشويق والتصوير والمفاجأة والصراع والتفلسف والوصف والتحليل

انتزعت نفسي من مأخذ السحر ، وتجهمت لك تجهم الناقد . أخذت أقرأ القصة ثانية ، فما كدت أفرغ من قراءتها حتى تجلت لي أطوار حياتك الأدبية على النحو الآتي :

١ — طور الاغارة على « الفكرة » ومثله رواية « أهل الكهف »

٢ — طور استعارة « الفكرة » ومثله رواية « بيجماليون »

٣ — طور الانفعال ومثله « الرباط المقدس »

وهناك طور وسط بين الثاني والثالث يحسن السكوت عنهُ ومثله « عودة الروح » وأخواتها .

هوذا دليل ناهض على انك يا صديقي غير راضٍ الرضى المطلق عن كل ما أعطيت وجددت في حياة الأدب والفن ، وان قصتك الانفعالية هذه « الرباط المقدس » قد لا تقف بك عند هذا الحد لأنك دائم التطور لا تستريح إلى الاستقرار ، وأزعم ان هذه الانفعالية ستدفع بك إلى اقتحام طور آخر هو « الواقعي » وعندها ستكون الحكيم الحكيم في الانطواء على النفس ، لا انطواء الزاهد بالحياة بل انطواء العارف بها المتمرد عليها ، وعندنا ستكون من البارعين في وصف الخلجات وما يمتّ إلى الأحاسيس والشعور والوجدان . وصفاً بسيطاً صادقاً يجعلنا نؤمن انك حييت حقّاً حياة الحبيب السعيد أو الشقي .

ليس المفروض بالقاص أن تكون قصته واقعية معروفة الأشخاص والمعالم بالذات . بل المحتوم عليه أن لا يخرج عن حدود ما هو ممكن في الحياة ، وهكذا فعلت . في قصة « الرباط

القدس » ولكنك اعترفت ، أو بعبارة أصح انزلقت ففضحت ما كان يتمسس في ظلمات نفسك من ميل وشوق ورغبة وشهوة للمرأة التي تخافها وتجفل منها ، فوصفتها وصف غير النشوان برحيقها ، ولا المخمور من أنوثتها ، ولذلك سكبت عليها في الختام اللعنات خالدات ، وقذفت بها إلى درك الجحيم .

أنت لست إذن عدوًّا للمرأة يا صديقي ، بل هي التي ستجافيك ولا تناوحك لأنك لست كفؤاً للسيادة عليها .

***

ما رميت الى الوقوف من هذه القصة موقف المحلل المفصل لأدوارها . فقد فعل ذلك الأستاذ الكبير عباس العقاد ووفاها حقها من البيان والتوضيح نقداً وتقريظاً ، وقد حاول من قبل الناقد سيد قطب أن يقف هذا الموقف ، ولكنهُ تعمر فانزلق فعاب خلوها من عنصر « الشك » كأن الشك عنصر أساسي لا تستقيم القصة بدونه !!! وانه لمن المؤسف حقًّا أن يهفو ناقد زكن كسيد قطب هذه الهفوة الشنيعة .

أعود فأقول اني ما إلى هذا الموقف رميت . ولا إلى هذا القصد اتجهت ، انما هي لمحات في التطور النفسي والفني استلمحتها فيك فسجلتها في هذه السطور .

يخلق بي أن أقول لك يا صديقي انك لم تعتق نفسك بعد من طور الاغارة على أفكار المفكرين ، ولم تقوَ بعد على الاستقلال بفكرك وحدك ظنًّا منك بأن كل ما هو غربي يصلح لأن يكون شرقيًّا واليك المثل :

قلت في خاتمة القصة بلسان راهب الفكر تدلل على انزلاق المرأة العصرية في مساوئ المدنية الحديثة وتعدد أسباب هذه المساوئ الخلقية « هكذا في عصورنا الحاضرة ضعفت تيارات الأديان عن صد تيار المرأة » !!!

تعرف جيداً يا صديقي ان المرأة المسلمة غير ملزمة بأن تكون متدينة ، فلا رجلها ولا رجال الدين يطالبونها باقامة الشعائر والفروض ، انما الذي يفعل ذلك هو رجال الاكليروس المسيحي ولهم على المرأة المسيحية وعلى الرجل أيضاً سلطان أي سلطان ، فاحتجاجك بالدليل النصراني على المرأة المسلمة ، انما هو اقتباس غير موفق أو إغارة على فكرة طيبة لمصلح غربي ، لا يليق بك اقحامها في جونا الشرقي والصاقها بالمرأة المصرية المسلمة .

سلامٌ عليك يا صديقي الحكيم يوم تعتق ذاتك من كل هذه القيود ، وسلامٌ عليك يوم تبعث فينا أدباً رفيعاً مبتدعاً من ينبوع نفسك الفياض فتكون قدوة لطلاب المثل العليا في الفن والذوق ، وتحية اخلاص من صديقك .

حبيب الزحلاوي

أساطير الحب والجمال عند الاغريق

للاستاذ دريني خشبه — مطبعة الرسالة — ٣٧٥ صفحة من القطع المتوسط

كان لسليمان البستاني فضل أي فضل في ترجمة الالياذة الى الشعر العربي، بعد أن ظلت محجوبة عن المكتبة العربية زماناً طويلاً. وكان له فضل أي فضل في مقدمة جليلة قدمها بين يدي الملحمة، فجاءت مقدمته كتاباً برمته يحتل مكانه في تاريخ الأدب.

وظهر بعد البستاني كاتب أخذ يشق سبيله الى منزلة الأديب عن سبيل تعريفنا بقصص فاتنة من الحب والجمال عند الأغريق. وكان الذين يقرءونه من حين الى حين في مجلة الرسالة يعجبون به، ويتشوقون الى تلك القصص التي عرف ناقلها كيف يلمس بها مواطن التقدير في قلوب القارئين.

هذا الكاتب الناقل هو الاستاذ دريني خشبه الذي يقدم اليوم الى المكتبة العربية السفر الأول من ديوان الأدب اليوناني. وهو على ما أعلم ماضٍ في سبيله الى تقديم أسفار أخر. حتى لقد أصبح حبّه لقراءة الأدب الأغريقي هوًى لازماً.

ولهذا الكتاب مقدمة أبان فيها الكاتب بعض أغراضه، وقدّم لنفسه بعض العذر عما أورد من ألوان حب اغريقي، ليس من الصدق أن يتعمد الكاتب اخفاءها. الا انه على الرغم من ذلك راعى أكرم تقاليدنا، وحرص على ألاّ يجرح أذواقنا بألوان لا تجري على موروث عاداتنا. وقد يكون المؤلف في هذا التصرف خالف منهج الصدق قليلاً، أو جار على مذهب الأمانة النقلية قليلاً. ولكنه ما جاوز الانصاف لأدبه العربي وخلقه العربي ولسانه العربي، حين عمد الى حذف ما لا يتفق مع الطبع العربي الكريم.

وقديماً تحرّج أدباء العربية في عصور الترجمة العباسية من نقل الأدب اليوناني الى الأدب العربي خشية ما فيه من آلهة وثنية لا تتفق مع فكرة الاسلام الموحدة. وقد يكون للقدماء من أدباء العرب عذر في تحرجهم، وهم لم ينفضوا غبار الوثنية عنهم الا منذ قرن وبعض قرن من الزمان... أما اليوم وقد أصبحت فكرة الآلهة موضعاً للتندر والسخرية في قلب الرجل الموحد، فلا ضير اذن من ان تعرض علينا تلك الآلهة كما كان يتصورها الأغريق، ولا ضير على التوحيد الصحيح من أن يقرأ آثار الوثنية المغمورة في أطياف شاردة من الخيال.

ولقد تصرّف الأستاذ دريني خشبة تصرفاً آخر في النقل، فهو يعترف في مقدمة الكتاب بأنه ينقل نقل رواية لا نقل ترجمة، وكأنما أحسّ صديقنا وهو يقدم على هذا الصنع ان اعتراضنا سيوجه اليه، وانه غير مفلت من النقاد. فأراد أن يدفع عن نفسه،

وان يتخذ « لهيئة الدفاع » عنه الاستاذ « توماس بلفنش » الانجليزي من أدباء القرن التاسع عشر . فاتخذه دريني خشبة دليله في نقل الأساطير واتخذ طريقته في الرواية لا في الترجمة . ومضى في سبيله مطمئناً الى عمله ، معتذراً بأن ترجمة النقل قد يكون فيها من الجفاء والخشونة ما يباعد بينها وبين مساغ الذوق عند القارئين .

على ان هذا الدفاع قد لا يعفيه من النقد ، وقد يسلط عليه من يقول له انه أسرف في الرواية الى حد قد يباعد بينها وبين الاصل . فكأنه قد فرَّ من مباعدة عن الذوق الى مباعدة عن الأصل . ولكنه على كل حال قد أبدع في الرواية ، وأعانه على الابداع بيان قوي وأسلوب أخاذ يجري على الطبع العربي الاصيل .

والحق ان أسلوب دريني خشبة فيه من الجمال والقوة ما يجعله خليقاً بنقل الأدب اليوناني . وفيه من الحلاوة الفتية ما يناسب حلاوة هذه الأساطير . حتى لا نبعد عن الحق اذا قلنا ان «أساطير الحب والجمال» هي تحفة فنية للمكتبة العربية . ولا بدَّ انها لاقية من تقدير الأدباء والقراء ما يجتزي عن شكر الأستاذ ويقوم مقام ثوابه .

ولقد تميز الأستاذ الزيات صاحب الرسالة بأسلوب فني متفرد جعله مدرسة وحده . وجعل له تلاميذ يتأثرونه ويعشون على غراره . ولا يشك أحد في ان دريني خشبة متأثر في أسلوبه بأسلوب الزيات الى حدٍّ كبير . الاَّ ان دريني يخلع على الالفاظ من الأغراق والمبالغة ما لا يحتمله المعنى وقد ينوء به . وهذا الاسراف في أسلوبه قد يعيبه ويجعل سبيل الناقدين اليه مطروقاً .

وهذا الاغراق قد يدفعه — عن غير قصد — إلى التهاون في (استعمال) الأساليب . وهذا التهاون مما لا يجمل بأديب تقليديٍّ أن يصنعه . واذا جاز ذلك من المجددين الذين لا يبالون — في جهل وادعاء — بقيم الأسلوب الصحيح ، فانه لا يجوز من أديب مثل دريني خشبة رأينا منه في كل حالاته حفاظاً على اللغة .

وإلاَّ فما باله يستعمل ص ٢٠ « فرأى الى الخنجر » وحرف الجر هنا لا لزوم له . ولكنه يأتي مع الفعل المنفي دلالة على التعجب كقوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بعاد » . وقد وردت في القرآن على كثرة مع النفي لا مع الاثبات . وما أظن أني قرأتها في كتاب .

وفي ص ٣٦ « ولبث نركيسوس وحده يضرب أخماساً لأسداس » . فاستعملها بمعنى الحيرة والتردد في الأمر . وما قال بذلك شرَّاح الأمثال العربية — راجع أمثال الميداني في شرح « يضرب أخماساً لأسداس »

وفي ص ٦٣ « منية القلب وهوية النفس » . وأظنها هوى النفس

وفي ٤٥ « يصمد للعصبة القوية » بمعنى يثبت . والفعل معناه يقصد لا يثبت كما شاع ذلك على السنة الكتّاب خطأ ، ومنه « الله الصمد » أي المقصود في الحاجات .

وفي ص ٣٣٢ «وانسرق إلى الكهوف» وهو استعمال غريب لا أدري وجهه . ففي اللغة انسرقت مفاصله أي ضعفت . والمؤلف يريد تسلل إلى الكهوف . ولم يرد في معجم تحت يدي .

وفي ص٣٤٧ « بالعبير الفياح » والصحيح « الفواح » لأن الفعل فاح يفوح لا فاح يفيح بقيت في النفس كلمة . وأظن الأستاذ دريني لا يضيق بها ، لأن طلاب الكمال لا تضيق نفوسهم بكلمة الحق . فقد كانت الأساطير في حاجة إلى مقدمة علمية تاريخية في نشأة الأساطير وعقيدة اليونان في الآلهة وتصديقهم لنزولها على الأرض تخوض المعارك وتدبر الخطط وتجري مع البشر فيما يجرون من أمور . ولعلّ ذلك كان واجباً على من ينقل أساطير الأغريق إلى الأدب العربي بعد احتجابها عنه دهراً طويلاً . فتلك دراسة كانت تقف القارئ على كثير من أمور الفكر اليوناني . ولقد أنصف المستر Y. S. Marvin وزميلاه Mayar و Stawell حين قدموا بين يدي كتيبهم الصغير (مغامرات الأوديسة) . أما أن يمضي الأستاذ دريني في عرض القصص من غير تقديم تاريخي لها فذلك ما نرجو أن يستدركه في تراجمه المقبلة للأدب اليوناني .

والحق أن المكتبة العربية قد ظفرت بهذا الكتاب الذي جمع بين براعة الفكر اليوناني في أساطير حبه . . . وبغضه أيضاً وبين قوة الأسلوب العربي وطواعيته لحسن التصوير .

محمد عبد الغني حسن

قواعد الهرموني : علم توافق الاصوات

بقلم أحمد بيومي — ١٦٢ صفحة ٢٢ × ١٥ طبع مطبعة التوكل بمصر

كتاب جديد يضيف ثروة قيمة إلى خزانة المكتبة العربية ، فان المؤلفات الموسيقية العربية هي من الندرة بمكان . ولستُ موسيقيًّا ولا ممن يمتّ إلى الموسيقى بسبب ، إلاّ ما تولع النفس به من حب السماع والشغف به . ولكن هذا الجهد الحي الذي اضطلع به الأستاذ بيومي في إخراج هذا الكتاب يقتضيني تنويهاً بتلك البراعة التي نسج بها كتابه ، وتلك الروح التي أوحت اليه أن يضع هذا الكتاب ليغذو الفن الشرقي ، وليضيف إلى كنوز العربية نفائس لا يستهان بها ، من المصطلحات الفنية التي وضعها أو أحياها . وهو إذ يقدّم هذا الكتاب بتقديم حسن ، يأبى إلاّ أن يجعل للعرب سابقة في هذا الفن الحديث ، وهو علم توافق الأصوات (Harmony) فينقل عن ابن سينا قوله : « التركيب هو ما يحدث بنقرة واحدة تستمر على وترين النغمة المطلوبة والتي معها على الذي بالكل أو الذي بالأربعة

أو الذي بالخمسة وعلى غير ذلك، كأنهما يقعان في زمان واحد » . ويذكر من تاريخ هذا الفن عند الأوربيين أن الناس قديماً كانوا « يؤمون ساحة البابوات في الأعياد والمواسم يرتلون وينشدون الادعية والتهاني، في جماعات تجمع بين أسنان مختلفة وأجناس متباينة ، وأصوات تتفاوت علوّاً وانخفاضاً ، وليناً وقوة ، ومرونة وصلابة . وعن هذا الجمع المختلط كان يصدر ما يصدر، فيسمعه السامع فيحس فيه انسجاماً ، ويلمس معه توافقاً . ومن هنا عنّ للاستاذ هوكبالد في القرن العاشر أن يوجه نظر المشتغلين بفن الموسيقى إلى هذه الظاهرة والانتفاع بها، فكانت نشأة علم الهرموني ؛وكان مبدأ الانتفاع بالأصوات المختلفة التي تكوّن مجتمعةً أنغاماً فيها توافق وانسجام » .

وقد أتمّ الاستاذ المؤلف الجزء الاول من الكتاب في ١٦٢ صفحة تتخللها الرسوم الموسيقية وعقّب على فصول الكتاب بمسائل في الموسيقى التطبيقية . وقد لحظت أنه يبدأ هذه المسائل من يسار الكتاب إلى يمينه جرياً على ما هو متبع في المذكرة (النوتة) الأوربية وكان أولى به أن يعرب هذه الطريقة بأن يبدأ باليمين ، إذ ليست هناك أية ضرورة فنية لإيثار الطريقة الاوربية .

إن جهاد المؤلف في هذا الكتاب حقيق بكل حفاوة وتكريم وتهنئة ، كما أنه يستوجب شكر كل من يخدم اللغة العزيزة ويرعاها عبد السلام محمد هارون

الهجوم على اوربا

للملازم اول السيد فرج — ١١٩ صفحة من القطع الوسط — نشرته دار المعارف بمصر

للملازم أول السيد فرج نشاط محمود في نشر الثقافة العسكرية فقد أخرج عدة كتب عن الحرب المستعرة كان آخرها هذا الكتاب الذي تناول موضوعاً شغل أذهان الناس زمناً

فلقد بسط النازيون جناحيهم على القارة الاوربية وأقاموا ما أقاموا من حصون ومعاقل ثم أذاعوا على الناس ما اذاعوا عن قوة هذه الحصون والمعاقل وعن قوى ما لديهم من معدات واستعداد يقف حائلاً دون ان يخطو أقدام الديمقراطيات عتبة هذه القلعة. وظلّ غزو أوربا أملاً تتعلق به الانسانية الجريحة ليكون من ورائه نهاية آلامها ومتاعبها ولتقضي الديمقراطية على آثار الطغيان وترده الى صوابه حتى أقدمت جيوش الحلفاء على الغزو في صقلية اولاً ثم قفزت الى ايطاليا ثم هبطت على الجدار الاطلمي فجعلته خرافة وقضت على حلم النازية.

هذه هي المواضع التي تناولها الكاتب الفاضل. وهي موضوعات تحتاج الى كثير من التوسع . فعسى ان يستطيع الكاتب — بعد انتهاء الحرب واستطاعة الحصول على كثير من الوثائق والتقارير — جعل كتابه أكثر اتساعاً وأكثر شرحاً.

الاسلام والنصرانية
مع العلم والمدنية

أصدرته « دار المنار » وهو من تأليف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده مع شرح وتعليق بقلم السيد محمد رشيد رضا والكتاب دائرة معارف إسلامية ردَّ فيه المؤلف على كثير من الشبهات التي ألصقت بالدين الاسلامي كما بيَّن حقيقة هذا الدين وخدمته للعلم والمدنية وقارن بينه في ذلك وبين المسيحية وذكر نبذة تاريخية لكل منهما . ثم بيَّن حالة المسلمين الحاضرة وبحث عللهم وأمراضهم الاجتماعية كما بين علاجها، فهو كتاب جدير باطلاع الباحثين في الأديان بوجهٍ عام ولا يستغنى عنهُ مسلم ولا مسلمة . وفي آخره بحث فريد في نوعه عن فلسفة ابن رشد ومذاهب المتكلمين بقلم المؤلف أيضاً . ويطلب من «دار المنار» بشارع الإنشا رقم ١٤ بالقاهرة . وثمن النسخة خمسة وعشرون قرشاً وأجرة البريد قرشان .

الليلة الثانية عشرة

للشاعر شكسبير وتعريب محمد عوض ابراهيم بك — نشرته دار المعارف

عني الاستاذ محمد عوض ابراهيم بك بنقل آثار شاعر الانجليز الخالد وليم شكسبير إلى العربية ، فها هو ينقل رواية أخرى من روايات هذا الشاعر هي « الليلة الثانية عشرة » وهذا عمل مشكور وجهد طيب . ولعلّ المعرب الفاضل يولي ترجماته عناية باللغة بالاسلوب ليخلد أدب الشاعر في العربية كما خلد في لغات العالم الاخرى .

ضجعة العروس

قصة مصرية — بقلم ابراهيم عز الدين اسماعيل — مطبعة التوكل

هذه قصة طريفة لمأساة فتاة كتبها مؤلفها في مرارة وفي أسلوب جميل ونَفَس شاعري عذب ، ولكنه جرى فيها مجرى الأسلوب الانشائي. غير أنها منبئة عن إشراق جميل في عالم القصة للاستاذ ابراهيم عز الدين اسماعيل مؤلف هذه القصة .

سحر أميركا

بقلم حسن فريد — ٦٨ صفحة من القطع الوسط — المطبعة العصرية

هي خواطر ومشاهد يسردها مؤلف هذا الكتاب بعد رحلته إلى المعرض العالمي الذي أقيم في نيويورك عام ١٩٣٩ وقد كتبها ـ على حد تعبيره ـ باللغة السهلة البسيطة وتخللها بعض الفكاهات والحوادث المثيرة . ولكن ما يكاد القارىء يطالع صفحاتها حتى يرى ان المؤلف عني بأشياء خاصة به أكثر من العناية بالموضوع الذي يتبادر إلى ذهن القارىء من عنوان الكتاب .

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

القلاع الطائرة

هي الطائرات الأميركية قاذفة القنابل التي تصنعها مصانع بوينج لتحلق في أقصى طبقات الجو . بل هي الطائرات الهائلة التي أحدثت أعظم انقلاب في الحرب الجوية العصرية في أوروبة وافريقية حيث كانت وما زالت تنهال قنابلها الفتاكة من القبة الزرقاء ، وهي تكاد تختفي عن أبصار أعدائها وتغيب عن أسماع مراقبيها على الغبراء . فلا غرو إن عُدَّت أغرب حادث في الحرب الحاضرة الشعواء

مبلغ ارتفاعها ومقدار وسقها

المعروف أن البارجة التي تبعد عن الناظر اليها من علو ٣٠٠٠٠ قدم ، يراها مثل حجم رأس الدبوس . أما الأهداف التي تفوق ذلك البعد فان مطلق المدفع عليها من ارتفاع ستة أميال وهو العلو الذي تبلغه هذه القاذفات لا بدَّ له من كشفها بالمقراب «تليسكوب» ومع ذلك فان القلاع الطائرة تقلُّ في ذلك الارتفاع حملاً ضخماً من القنابل تفوق زنتهُ ، وسق أية طائرة من الطائرات الحربية جميعاً . وكذلك سرعتها وبعدها وسلامتها من الأخطار ، تبزُّ كل الطائرات التي تطير في جوٍ أخفض مما تحلق فيه القلاع الطائرة حيث تعمل أعمالاً محدودة. ومن ثمة تحققت أماني المخترعين الأميركيين الذين ابتدعوا هذا الضرب من الطائرات الحربية ، وذلك في زمن كان يسخر منهم فيه الخبراء الأجانب في فنّ الطيران ، لصعود تلك الطائرات إلى الطبقات الجوية السحيقة صعوداً كان الناقدون لا يرون لهُ موجباً . ولما أتيح للقلاع الطائرة التحليق إلى ٣٠٠٠٠ قدم ، لم يقنع مخترعوها بهذا الفوز الذي لم يسبق له نظير بل ظلوا يبذلون كل ما في وسعهم في سبيل قيام هذه القاذفات الجديدة بأعمالها الناجحة أيضاً عند ما ترتفع ارتفاعاً يتفاوت بين ٣٥٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ قدم موقنين أن منطقة القتال في المستقبل سوف تبلغ أخيراً ٥٠٠٠٠ أو ٦٠٠٠٠ قدم من الارتفاع أو ١٠ أميال أو أكثر فوق سطح الأرض .

ثياب الطيارين وخوذهم

وفي مثل تلك الارتفاعات العظيمة لا بدَّ للطيارين من ارتداء ثياب غريبة وخوذ

عجيبة الشكل ، تلائم خفة ضغط الهواء هناك ثم الاستعانة بغاز الاوكسجين المخزون لديهم تسهيلاً لمواصلة تنفسهم في خلال طيرانهم وكذلك وجوب مراعاة محادثة بعضهم بعضاً بأصوات مدوية في أجهزة التليفونات اللاسلكية التي يستعملونها .

أعظم منافع التحليق للقاذفات

وعليهم أيضاً اتقان تعلم الفنون الجديدة الخاصة بالقتال في أعلى طبقات الجو لأن الطائرات ورصاص البندقيات وقنابل المدافع جميعها تؤثر تأثيرات غريبة في الهواء البارد القليل الكثافة الذي تطير فيه هاتيك القاذفات الجهنمية . ولارتفاع القلاع الطائرة في الجو ارتفاعاً شاهقاً ، فوائد حربية جمة وذلك فوق ما ينجم عنه من الاقتصاد العظيم في النفقات الخاصة بالادارة ثم السرعة الفائقة لأن قاذفة القنابل تحلق فوق أغلب الأحوال الجوية جميعها ، فتسيطر عليها حيث تصير كمصطبة تصوب منها القنابل تصويباً محكماً نحو أهدافها . وقد ثبت ان المدافع المقاومة للطائرات لا تصيب تلك القاذفات الاميركية حتى في مستوى تحليقها الحالي . ثم ان الطائرات المعادية التي تطاردها ، في الجو لا تستطيع بلوغ شأوها في الارتفاع المشار اليه ، وهي ليست كثيرة العدد .

الاحوال الجوية في الطبقة العليا

ومن جهة أخرى إن درجة الحرارة العادية في علو ٣٥٠٠٠ الف قدم هي ٦٧ تحت الصفر ، ومقدار الضغط الجوي ٣٫٤٥ رطلاً فوق كل عقدة « بوصة » مربعة . وفي ذلك الارتفاع الشامخ لا يوجد غاز أوكسيجين كافٍ لمواصلة التنفس الضروري للحياة . وهذه الظروف مجتمعة ، وما يقترن بها من شتى المتاعب التي يتجشمها الطيارون كان لا بدَّ من تذليلها قبل الاعتماد على الاستفادة الفائدة المنشودة من تحليق القلاع الطائرة الى ارتفاع ٣٠٠٠٠ قدمٍ ، وكانت هذه العقدة نفسها أصعب حلاً بلا شك عند اجتياز الخطوة التالية من التحسين ، ونعني بها بلوغ ارتفاع القاذفات ٣٥٠٠٠ قدم . ومنها أن زفير الطيار يتكاثف على نوافذ طائرته فيتجمد فوق مادته الشبيهة بالزجاج . ولذلك شرع في تجربة جعل تلك النوافذ مدفأة كانت أو غير مدفأة ، مزدوجة الألواح . ثم إن ضؤولة كثافة الهواء في ذلك الارتفاع تجعل اشعال محرك الطائرة عسير الأحكام وهذا مما يفضي الى وضع جهاز الاشعال في غلاف خاص يحوي هواء مضغوطاً . وكذلك التأثيرات الكهربية في المرتفعات السامقة تحدث كهربية احتكاكية تعرقل مسير المحادثات اللاسلكية .

تأثير الاجواء

في القلاع الطائرة ومعداتها

ثم إن الهواء الشديد البرودة يحدث تقلصاً في الطائرات ، ينجم عنه تحلل الدهان الذي تدهن به بغية التعمية أو الاستتار

الحربي ، فيتساقط مثل الهبرية « قشور الرأس العالقة ببصيلات الشعر » وذلك عند هبوط الطائرة على سطح الأرض . وحينئذٍ تجف أيضاً أحذية المطاط الواقية من التجمد ، فتنقصم وتتشقق شققاً . ولذلك رُئي جعل تلك المعدات جميعها من مواد جديدة لا يجعلها البرد هشة ، صوناً للطائرات ووقاية لحياة ركابها ، إذ يتجمد الشحم المحيط بالبلي في محاور الأجهزة التي في جوف الطائرة ، كما تتجمد المفاتيح المدهونة بالشحم فتقاوم قادة الطائرات ، وكذلك يتجمد الزيت المودع في الزايت المستديرة في مراوح الطائرات ، ثم تهبط بغتة الابر المركبة على ميناء ضغط الزيت الذي في المحرك ، ولو كان ذلك الضغط سويًّا . وهذه الأمور جميعها مما يربك الطيارين . أما السائل الذي في الأجهزة المائية فلا يتأثر باختلاف درجات الحرارة التي تصادفه . غير انه لا بدَّ من اختراع قواعد جديدة لتركيب أغلب الزيوت والشحوم الأخر المستعملة في الطيران المرتفع . ويجب أن تقوم الأدوات جميعها المستعملة في الطائرات بوظائفها خير قيام في أشد درجات البرد ، كما تؤديها في درجة حرارة ١٥٠ فرنهيت .

الاحتياطات الواجبة لاجهزة الطيران ووقاية الطيارين

ثم ان زيادة الضغط في القناطيس الخاصة بالوقود ، مضافة الى استعمال الانابيب الفائقة الحجم ، أمران ضروريان . ومثلها أنابيب الوقود اذ يجب جعل ثنياتها طويلة ملساء ، بدلاً من الثنيات الحادة التي توجد حول الزوايا لأن الوقود يتحول قُفلاً لحبس البخار ، وذلك في الزوايا الحادة . وتسهيلاً لحل تلك العقد ، قامت الدائرة الخاصة بالطيران والغازات وضغطها وحركتها ، في شركة بوينج للطيران في مدينة سيتل بالولايات المتحدة الاميركية باجراء تجارب في الطيران بمجموعة كاملة من الملاحين اللازمين للطيران في ارتفاع ٣٥٠٠٠ قدم لأن الأحوال الجوية في ذلك العلو الفائق تكون شاقة جدًّا فتستوجب التذرع للوقاية من ضررها ، وذلك بزيادة عدد أقنعة الاكسجين دائماً فتوضع في حجرة الطيار لتستعمل عند حلول الطوارىء أي حينما يكسر الطيار أو يلوي عرضاً الانبوب الرقيق الموصل للاكسجين الى قناعه

عوض جندي

(استدراكان)

* جاء في مقال الخطايا العشر المنشور في مقتطف مارس الماضي ذكر العالم ألكسيس كاريل فكتب خطأ فرنسيس فنعتذر عن ذلك

* ضاق نطاق المقتطف عن نشر بقية بحث الاستاذ ادوار مرقص « الاتحاد القومي » وموعدنا به العدد القادم .

ألغاز العلم

(تابع المنشور على الصفحة ٣٠٤)

وقد عمد عالم اميركي منذ سنوات ، إلى أن يسأل نفسهُ ومعاونيه هذا السؤال : حين يصاب نسيج حيّ بجرح ما ، تنشط الخلايا المجاورة للخلايا المصابة ، فتتكاثر تكاثراً سريعاً ولا تعود الى حياتها السوية ونموّها المقيّد ، إلاّ بعد أن يتولد النسيج الجديد ويندمل الجرح . فلا بدَّ أن تكون هناك مادة تسيطر على حياة الخلية وتحركها حيناً بعد حين . فاذا كشفنا هذه المادة ، وما تفعل وكيف تفعلهُ ، فعسى أن نفوز بالمفتاح الذي يفتح أغاق مغلقات الخلية . ثم خطا هو ومساعدوه الخطوة التالية :

أحدثوا أذًى في خلايا حية ثم راقبوا ما يقع لها ويتمّ فيها . وقد استعملوا الأشعة التي فوق البنفسجي ، وهي مفيدة إذا كانت قوتها ومقاديرها يسيرة ، وهي فتاكة إذا كانت مقاديرها وقوتها كبيرة . فذهب هذا الباحث إلى إنهُ إذا استعملها في قوة ومقدار — فوق المفيد ودون الفتاك — حدث الأذى بالقدر المطلوب .

وقضت الجماعة سنوات ، ورجالها مكبون على أنابيب الاختبار تحت مصابيح الأشعة ، والخلايا المعالجة على هذا النحو تمرُّ أمامهم — خلايا انساج أجنة الفراخ ، وخلايا السحالي والسمك وأكباد الحيوان وما أشبه . جميعها عرضت لهذه الأشعة ، وكانوا إذا ما بلغ الضرر الواقع لها من التعرض للاشعة ، مرتبة معيّنة ، يأخذونها ويغسلونها في محلول خاص . ثم ترشح الخلايا من المحلول . فاذا كان في هذه الخلايا مادة ما تولدت فيها بفعل الضرر الذي أصابها فيجب أن تكون في هذا المحلول المعقم الخالي من الخلايا .

وقد وجدوا مادة جرَّبوها بتغطيس قطعة من نسيج جنين فرخ — لم تعرض للاشعة — في هذا المحلول فإذا نشاط عجيب في نمو الخلايا وتكاثرها .

✡

فهل أباحت الخلية سرًّا من أسرار نموّها ؟

لسنا نعلم ، وليس ثمة ريب في أن هذا البحث وعشرات من قبيلهِ ، تشغل عقول العلماء . وإلى أن يسفر عن كشف يؤيده العلماء ، يجب أن نعترف ، بأن العلم لم يزل مقصراً عن فهم نموّ الخلية وتكاثرها — وبخاصة سرّ خروجها على قيود النموّ السوي .

هدية المقتطف السنوية

لسنة ١٩٤٥

سبعة كتب في كتاب

قام المقتطف في حياته التي بلغت سبعين سنة ، وإلى جانب مجلداته التي بلغت ستة ومائة مجلد ، بخدمة أدبية لا تقل عن خدماته التي أداها للعالم العربي في حياته الطويلة بمجلداته تلك ، إذ جرى على أن يهدي مشتركيه كتاباً يعوّض به احتجاب المقتطف شهرين في نهاية كل سنة . وإذا استعرضت هدايا المقتطف منذ نشأته إلى اليوم وقعت على مكتبة كاملة في التاريخ الطبيعي والفلك والارتياد والكيمياء والموسيقى والأدب والقصص . وسيضم المقتطف إلى هذه الثروة الأدبية العلمية ثروة جديدة إذ يقدم لمشتركيه عن سنة ١٩٤٥ هدية ممتازة هي الجزء الثاني من كتاب

المنتخبات

بقلم العلامة الكبير احمد لطفي السيد باشا

الذي يضطلع اليوم برياسة مجمع فؤاد الأول للغة العربية بعد أن نشّأ جيلاً برمته عند ما كان رئيساً وموجّهاً لجامعة فؤاد الأول . هذا إلى ما ترّه الأدبية الأخرى التي يضفي بها على الأدب العربي لباساً جديداً بترجمة ارسطوطاليس ، يضاف اليها فصوله الباقيــة التي نشرها في « الجريدة » ومنها نستخلص هذه المنتخبات .

والجزء الثاني من هذه المنتخبات سبعة كتب في كتاب : وهذه موضوعاتها :

الكتاب الاول : في التربية والتعليم

التربية والتعليم — حالة التعليم عنــدنا — الى القائمين بالتربية والتعليم — مذاهب التربية — المذهب العلمي للتربية والتعليم

الكتاب الثاني : الى نواب الامة

الى نواب الأمة — حريتنا — الحرية ومذاهب الحكم — الاحزاب — حقوق الكافة وسلطة التشريع — حرية التعليم — حرية القضاء — حرية الصحافة — حرية الخطابة — حرية الاجتماع — مذهب الحرية مفيد للافراد وللامة جميعاً — خاتمة

الكتاب الثالث : مشاهدات عامة

اليأس — الحال الأخلاقية — حالنا الاقتصادية — حالنا السياسية — مشاهدة بسيكولوجية .

الكتاب الرابع : في اللغة العربية

التأليف باللغة العربية — الى الأمام : في اللغة أيضاً — اللغة العربية — رقوا لغتكم .

الكتاب الخامس : البنات والابناء

أبناؤنا وبناتنا — بناتنا وأبناؤنا — البنون والبنات — الى الفتيان : الوطنية .

الكتاب السادس : في التأمل

القدوة الحسنة — الآثار القديمة — آثار الجمال وجمال الآثار — ربيع الحياة — جني القطن — أول العام — الرجل السعيد — الرجل الصريح — زهر الربيع — الصداقة

الكتاب السابع : بحوث عامة

سلطة الأمة — في سبيل الارتقاء — الحرية — تضامننا — مصريتنا — المصرية — آمالنا — التقليد — سر تطور الأمم — الحرية الشخصية — خبز السجون — من أجل ذلك نطلب الدستور — حقوق الأمة — الكفاءة الاقتصادية — النظام الاقتصادي — وفاة فتحي زغلول باشا — وداع الوزارة — تأبين أحمد فتحي زغلول باشا — الحرب .

***

هذه سبعة كتب في كتاب نصلك هدية من المقتطف في آخر السنة . وسيتم طبع هذا الكتاب الفذ في حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير .

وترسل الهدية الى الذين سددوا قيمة الاشتراك عن سنة ١٩٤٥ وللمشتركين الجدد عن سنة كاملة . وثمن الكتاب لغير المشتركين أربعون قرشاً مصرياً بخلاف البريد .

فهرس الجزء الرابع

من المجلد السادس بعد المائة

٣٠١ ألغاز العلم : صلة المادة بالاشعاع ، سر الخلية المتكاثرة : فؤاد صروف
٣٠٥ جامعة الأمم العربية
٣٠٩ بلاد العرب للعرب : اسماعيل مظهر ٣١٢ أوصيك : عن توماس جفرسن
٣١٣ ارثر ادنجتن : قدري حافظ طوقان
٣١٧ كنوز الصحاري المصرية : عبد الحليم الياس نصير
٣٢٠ بطاقات الوحدة (قصة) : عن فاندا فاسيلفسكا ٣٢٢ أمتعب أنت ؟
٣٢٥ في حب الوطن : ابن الرومي
٣٢٦ المذهب الشيعي قبيل الدولة الفاطمية : عطية مصطفى مشرفة ٣٣٢ أمراض الوهم
٣٣٣ الاخلاق وتناسخ الشخصيات
٣٣٨ راقصة الفالس (قصيدة) : عدنان مردم بك
٣٣٩ ألكم الذكر وله الأنثى ٣٤١ مندل في البادية
٣٤٣ طابع السياسة الدولية بعد الحرب : صلاح الدين الشريف ٣٤٦ واعظ يؤيد وعالم ينفي
٣٥١ الابتلاء بالملك : من سيرة عمر بن عبد العزيز
٣٥٢ اصلاح الخط العربي : دكتور متى عقراوي ٣٦١ بين ملك وعالم
٣٦٢ كلمة الشاعر : الدكتور بشر فارس
٣٧٥ الريف والزراعة في الولايات المتحدة : وديع فلسطين ٣٧٧ يناير
٣٧٨ الواجب (قصة) : عن اسكندر إزباخ ٣٨٠ أسنانك والحلوى
٣٨١ الضمان الأخلاقي
٣٨٥ النظام الاقطاعي والملك ايخ ـ إن ـ آتون : الدكتور باهور لبيب ٣٩٠ احتضر
٣٩١ الأحلام والروح : أحمد فهمي أبو الخير ٣٩٦ اميركا تنبذ دروين
٣٩٧ من أنواع النبات الطبي : محمود مصطفى الدمياطي بك
٤٠٠ باب المراسلة والمناظرة * مقاومة مرض الملاريا : لمعالي ابراهيم عبد الهادي بك وزير الصحة . العالم المجهول في قمة الدنيا : لنقولا الحداد . نظام الاكل : للدكتور شخاشيري
٤٠٦ باب مكتبة المقتطف * الى توفيق الحكيم : لحبيب زحلاوي . أساطير الحب والجمال عند الاغريق . لمحمد عبد الغني حسن . قواعد الهرموني علم توافق الاصوات : عبد السلام محمد هارون . الهجوم على أوربا . الاسلام والنصرانية . الليلة الثانية عشرة . ضجة العروس . سحر اميركا
٤١٤ باب الاخبار العلمية * القلاع الطائرة . مبلغ ارتفاعها ومقدار وسقها . ثياب الطيارين وخوذهم . أعظم منافع التحليق للقاذفات . الاحوال الجوية في الطبقة العليا . تأثير الاجواء . الاحتياطات ووقاية الطيارين : لعوض جندي . استدراكات

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد السادس بعد المائة

١ مايو سنة ١٩٤٥ — ١٩ جماد أول سنة ١٣٦٤

المشكلة الاقتصادية الكبرى

في التسوية العالمية بعد الحرب

سوف تخرج قارة اوربا ، من محنة الحرب العالمية الثانية ، وقد تصدّعت أركان حياتها الاقتصادية . فليس في التاريخ ذكر حرب خلفت وراءها من الدمار ما خلفته هذه الحرب في أوربا . فأسباب المواصلات ممزقة ، ولقد تجد الفحم وخامات الصناعة فلا تستطيع أن تنقلها إلى المصانع . وقد ترى منتجات المصانع ومقادير الطعام مكدسة فلا تستطيع أن توصلها الى المستهلكين . والمصانع نفسها أنقاض . وكذلك محطات توليد الطاقة المحركة والمضيئة والجسور ومنشآت المرافىء ، وجانب كبير من الأراضي الزراعية ، تركتها الحرب كالقفر اليباب ، والناس أنهكتهم الحرب وأجاعتهم وأمرضتهم فتعمير أوربا أمر لا مفرّ منه منعاً للفوضى أن تعصف بشعوبها . وتعميرها يجب أن يخضع — في رأي ثقات المفكرين — لقاعدتين . أما الأولى : فأن يكون التعمير ملازماً ومؤيداً للتنظيم السياسي والحربي ، الذي غرضه أن يحول دون قيام قوة ألمانيا الحربية مرة أخرى ، وأما الثانية : فأن يكون أساساً يصلح لانتعاش الحياة الاقتصادية انتعاشاً يتيح لشعوب اوربا أن ترفع مستوى معيشتها رفعاً مطرداً ، ويضمن لها رخاء العيش ورضى النفس .

والقاعدتان متلازمتان ، لا ترجح إحداهما الأخرى . فإن لم تحقق القاعدة الأولى لم تطمئن النفوس الى سلامتها ، ولا انتعاش اقتصادي بغير هذا الاطمئنان . وإن لم تحقق الثانية ، تأصلت القوى الاجتماعية التي تنخر في جذور الحياة الدولية وتمهد للحرب .

فالضائقة الاقتصادية من ناحية ، وعدم الاطمئنان إلى أسباب العيش ، هما خير تربة تنبت فيها بذور الحرب . وسوف ينتهي احتلال المانيا العسكري يوماً ما ، ويومئذٍ يتقلد الألمان زمام أمرهم ، ولكن هذا لا يحتمل أن يتم ، ولا يقدّر له النجاح بعد أن يتم ، إلاّ إذا قام في أوربا بناء اقتصادي سياسي ، سليم مستقر ، يستطيع الشعب الألماني ، أن ينطوي فيه انطواء رضى ومشاركة . وليس الخطر في أوربا قاصراً على خطر انبعاث القوة الألمانية وحسب ، لأنهُ إذا تعطل ملايين عن العمل ، وأخذت الضائقة بخناق الملايين من الناس ، فلا بد أن تعمد أمة ما ، أو مجموعة من الأمم إلى أن تطلب الخلاص من طريق الحرب . فناحية الانشاء في التسوية الأوربية لها من خطر الشأن ما لناحية الأمن وصونه بالقوة .

وقد انحصر جانب من البحث ، في الوسائل الاقتصادية اللازمة ، للقضاء على أصول قدرة المانيا الحربية . واختلفت المقترحات ، من تدمير الصناعة الألمانية ، إلى تجزئة المانيا في الناحية الواحدة ، الى الحد من بعض صناعاتها التي لا بدَّ منها لشن الحرب . ومعظم هذه المقترحات ، لا يقوم على أصول من الواقع المعروف ، أو المستقبل المأمول .

ففي المقترحات ، المسندة الى مورجنتاو ، وزير مالية الولايات المتحدة ، يتلخص الرأي في القضاء على المانيا من حيث هي أمة صناعية . وهذا الرأي إذا صحَّ وتمَّ ، يعني أن يزداد عدد الذين يعيشون على الزراعة في المانيا ، من خُمُس الشعب الى نصفه : فترجع المانيا القهقرى الى ما كانت عليه منذ قرن ، حين كان عدد سكانها نصف ما هو الآن ، ويهبط مستوى العيش فيها . وأما مقترح تجزئة المانيا ، دويلات دويلات ، فلا يشجع على الأخذ به ، ما صارت اليه الدويلات التي قامت على أنقاض دولة هبسبرج في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وأجزاء المانيا أكثر اتكالاً وتعويلاً بعضها على بعض ، وأوثق صلة بعضها ببعض مما كانت أجزاء دولة هبسبرج . وإذا نحن بينا وجوه الضعف في هذه المقترحات ، فان ما نبينه لا يمنع في حال من الأحوال ، تنفيذ هذه الخطة أو تلك ، إذا حزم الحلفاء أمرهم وتوسلوا بالشدة اللازمة . ولكنهم اذا فعلوا فيغلب على الرأي أن الاقتصاد الأوربي يتدهور ، والخاسر في تدهوره ، ليس الشعب الألماني وحسب ، بل العالم قاطبة .

وأما المقترحات الخاصة بالقضاء على طائفة دون غيرها من الصناعات الألمانية ، فإنفاذها ليس بالأمر الميسَّر . فهي قائمة على رأي خاطئ ، مؤداهُ أن في الدولة الصناعية الكبيرة – كألمانيا – أجزاء من نظامها الاقتصادي ، لازمة للحرب ، كصناعة أدوات الصناعة ، وكرّات المحاور والنتروجين المثبت اللازم للمتفجرات ، والزيت الصناعي والمطاط الصناعي

وغيرها ، والرأي انهُ إذا قضي على هـذه الصناعات قضاء الأبد ، فإن ألمانيا تفقد قدرتها على شن الحرب .

وليس ثمة ريب ، في أن الدول المنتظمة في الهيئة العالمية الجديدة ، تستطيع أن تدمّر المصانع التي تخصصت في صناعة السلاح والذخيرة ، ويغلب على الظن أن هذا ضروري لكي تتاح فرصةٌ يبنى فيها العالمَ بناءً جديداً ، وفي مقترحات دمبرتون أوكس نصٌ على هيئةٍ تشرف على هـذا العمل . وقد يستغرب القارىء اذا عرف أن هذه الطائفة من المصانع الألمانية ، جزءٌ قليلٌ من الصناعة الألمانية ، وأن منزلتها في قدرة ألمانيا الحربية ، ليست بالمنزلة الأولى . فالأصول التي تنهض عليها قدرة أمةٍ ما على شن الحرب ، هي صناعاتها الهندسية والكيميائية ، وعمالها المدرّبون الحاذقون ، ومنشآت البحث العلمي والصناعي ، وطوائف الفنيين والمديرين . وقليلٌ من كل هذا ، يدخل في نطاق المصانع المتخصصة في صنع السلاح . فالجانب الأكبر من ذخيرة الحرب ، يصنع في أثناء الحرب ، في المصانع الهندسية والكيميائية العادية ، بعد توسيع نطاقها وضم ألوف من الرجال والنساء إلى عمالها المدرّبين. والحرب الحديثة ، تقتضي أن يكون جانبٌ كبيرمما يحتاج اليه الجيش ، مؤلفاً من سيارات وقاطرات وأجهزة لاسلكية ومسالف وجرّارات ، وهي مما يصنع في مصانع لا تعدُّ في أيام السلم مصانع حربية ، مهما يبلغ منك التطرُّف في التحديد والتعريف . وأجهزة الرادار ، التي تعدُّ من أهم المعدّات الحربية ، تصنع في مصانع الراديو ، وأجهزة الطائرات في مصانع السيارات والطائرات التي تصنع للسلم .

فالقدرة الحربية تزداد صلتها توثقاً على الأيام بالانتاج الهندسي والكيميائي في أثناء السلم ، وقد يشقُّ على الظافر في الحرب ، أن يتخيَّر من شبكة هذا الانتاج موقعاً بعينه ويحكم بالقضاء عليه . فالقضاء على قدرة ألمانيا الحربية يعني القضاء على جانبٍ كبير من صناعاتها الهندسية والكيميائية . ثم الحيلولة الدائمة دون بنائها . لأنهُ إذا لم تكن الحيلولة دائمة ، فالقدرة الحربية الألمانية تنهض حين تنهض على صناعةٍ أجدَّ وأكثر اتقاناً ومسايرة لتقدم العلم وأساليب الصناعة . فالقول بوجوب تدمير أصول الصناعة الحربية الألمانية ، يقتضي أنْ يكون التدمير شاملاً أو دائماً لكي يكون فعّالاً .

ولما كانت القدرة الحربية والإنتاج الهندسي والكيميائي في زمن السلم ، يكادان يكونان شيئاً واحداً ، كانت مشكلة تعمير أوربا الاقتصادي على قاعدتين من تقليم أظافر الالمانية الحربية وتوفير الرخاء للقارة الأوربية ، مشكلة معقدة . وقد كانت المانيا ، حتى قبل أن نشبت الحرب ، متفوّقة على سائر أوربا في قدرتها الصناعية . فسكان المانيا لا يزيدون

على خمس سكان القارة غرب روسيا ، ومع ذلك كانوا ينتجون ٦٠ في المئة من فحم أوربا ونصف حديدها الصب وصلبها ، وأكثر من نصف ألومينومها و٤٠ في المئة من أسمنتها وثلث حمضها الكبريتيك ، وكانت لها منزلة متفوقة في إنتاج الأجهزة الكهربية ، والآلات وأدوات الصناعة والقاطرات والأجهزة العلمية والبصرية وغيرها . وما يصدق على المنتجات يصدق على المصانع والمنتجين والمديرين . وقد كانت فرنسا تنافس المانيا في صناعة السيارات ، والسويد في صناعة كرات المحاور ، وسويسرا في صناعة الساعات ، ولكن دول القارة الاوربية مجتمعة لم تكن تجاري المانيا في عدد منتجاتها الهندسية والكيميائية ولا في مقدارها وكذلك أصبحت حياة أوربا الاقتصادية مرتبطة أوثق ارتباط بالمانيا ، من ناحية الاتجار معها ، ومن ناحية الجماعات الصناعية التي كان للشركات الألمانية الكبيرة ، سهم كبير فيها وكلمة عالية .

فلما نشبت الحرب وانقادت الانتصارات الحربية للجيوش الألمانية في عهدها الأول ، عمد حكام المانيا ، إلى خطةٍ قوامها أن تصبح أوربا وحدة اقتصادية فتكون المانيا قلبها الصناعي ، وتكون سائر البلاد الأوربية مناطق زراعة وصناعة صغيرة . ولكن اتساع نطاق الهجوم الجوّي البريطاني أولاً ثم البريطاني الاميركي ، جعل تفريق الصناعات الالمانية أمراً لا مفرَّ منهُ ، فعدل حكام المانيا عن الخطة الأولى ، وجعلوا يوسعون نطاق الصناعة في شرق أوربا ، ليجعلوها بعيدة عن القاذفات الحليفة . وقد تمَّ هذا التوسيع تحت إشراف شركاتهم الصناعية الكبيرة ، مثل مصانع هرمان جورنج ، وراينمتال ، وفاربن وغيرها ، ولم تراع فيهِ ، الحدود الجغرافية والسياسية ، فأصبحت الصناعة الأوربية مع تفريقها وحدة كبيرة ، وكانت تصنع أجزاءً في فرنسا وأخرى في بولندة أو سلوفاكيا ، ثم تجمع وتبنى منها الآلات الكاملة — دبابات أو طائرات او غيرها — في مكان ما بالمانيا ، وكانت لألمانية سيطرة تامة عليها من كلّ ناحية . وكذلك تمّت سيطرة المانيا على الصناعة الأوربية .

ومن هنا منشأ المشكلة .

ان تعمير القارة الأوربية تعميراً اقتصاديًّا ، يقتضي تياراً مستمرًّا من شتّى المنتجات الهندسية والكيميائية ويقتضي كذلك تنظيم شئونها الاقتصادية على نطاق أوربي ، وتطبيق أحدث وسائل الإدارة لخفض النفقات العامة ، ومنع مضاعفة الجهد . فإذا أخفق تعمير أوربا وتجديد حياتها الاقتصادية ، وانحدرت إلى وهاد التخبُّط وضعف الكفاية والمنافسة السخيفة ، صارت أوربا قرحةً كبيرة في جسم العالم الاقتصادي . ولما كانت المانيا سابقة سائر البلاد الاوربية في شؤون الصناعة وتنظيمها وتدبيرها ، فكيف يستطاع أن يتم

تعمير أوربا تعميراً اقتصادياً على القواعد التي تقدم ذكرها ، دون أن يفضي ذلك نهوض قدرة المانيا الحربية مرة أخرى وعودتها سريعاً الى السيطرة على حياة أوربا الاقتصادية .

هذه هي المشكلة الاقتصادية الكبرى في التسوية العالمية التي تلي الحرب .

***

من الواضح أن هذا التعمير ، يجعل أوربا في حاجة الى المنتجات الصناعية زمناً طويلاً . ومن الواضح كذلك أن الألمان أقدر أمم أوربا على صنع هذه المنتجات ، ولكن السماح لهم بأن يفعلوا يثير مسائل سياسية بعيدة المدى . لأنه اذا سمح لألمانيا أن توفر لأوربا هذه المنتجات ، كان من المتعذر أن تفرض على أصول القدرة الحربية الألمانية ، قيود دقيقة زمناً طويلاً ، وأن تسد على المانيا طريق العودة الى السيطرة على حياة اوربا الاقتصادية . والأمران كلاهما — نهوض قدرتها الحربية ، وسيطرتها على الاقتصاد الاوربي — من الأمور التي يريد الحلفاء أن يمنعوها منعاً باتاً . ومعظم الذين كتبوا في هذا الموضوع يتجاهلون هذه المشكلة ، ويقترحون مقترحات شتى للقضاء على الصناعة الألمانية مع أن هذا القضاء لا يفضي الى الفاقة في المانيا وحسب ، بل الى الفاقة في أوربا أيضاً . وإذن فلا مفر من البحث عن حل آخر يقيم الوزن الكافي للحقائق الاقتصادية دون أن ينطوي على لين وعطف في معاملة الألمان.

وقد عرضت جريدة التيمس رأياً في هذا الصدد . فهي تقترح أن تعان دول أوربا الأخرى ، على رفع قدرتها الصناعية والفنية ، فيفضي ذلك إلى لون من الاستقرار في حياة أوربا الاقتصادية ويغري بالتعاون ، ويمهد لرفع مستوى العيش في القارة كلها . وهو في الوقت نفسه موائم للضرورات الحربية . فالاعتراض على تدمير الصناعة الألمانية ، يرجع إلى أنّ معظم الصناعات في زمن السلم هي أساس للصناعة الحربية في زمن الحرب . فتدميرها يفقر المانيا وأوربا ، ويعوق تعمير أوربا الاقتصادي ويجعل شعوب أوربا في حدود الفاقة. وبقاؤها يحفظ الأصول التي يمكن أن تنبعث منها قدرة المانيا الحربية مرة أخرى . وإذن فيحسن أن تعزّز الصناعات في سائر بلاد القارّة ، حتى تكون من ناحية أساساً للتعمير ورفع مستوى العيش ، ومن ناحية أخرى قواعد للقدرة الحربية توازن قدرة ألمانيا إن لزم الأمر . ولو كانت بولندة ودول الاتفاق الصغير ،تنتج اثنى عشر مليوناً من الصلب، في سنة ١٩٣٨ ، بدلاً من أربعة ملايين وحسب ، فلربما كان الألمان راجعوا أنفسهم مراراً قبل إقدامهم على أعمال الاعتداء .

ولذلك تقترح التيمس ، أن تجري الدول المتحدة ، في مواجهة هذه المشكلة ، على خطة ذات شعبتين . أما الاولى : فنزع سلاح المانيا نزعاً دائماً ، ويدخل في هذا القضاء على طائفة

الصناعات المتخصصة في الانتاج الحربي، كالزيت الصناعي والطائرات الحربية والمدافع والدبابات والصواريخ وكرّات المحاور وما أشبه، وأن تكون الرقابة الحليفة بالغة الدقة في تنفيذ هذا. وأما الثانية: فبذل العون لدول أوربا الغربية والجنوبية والجنوبية الشرقية، لتعزيز قدرتها الصناعية. فهذه الدول تملك من اليد العاملة، ما يكفل لها إن عززت صناعتها واستطاعت أن تتماسك تماسكاً سياسيًّا، أن تمنع قيام خطر المانيا الحربية، ولو سمح لألمانيا بأن تحتفظ بصناعتها الهندسية والكيميائية لكي تعين الشعب الألماني على العيش ولكي تساهم في بناء أوربا الصناعي.

إن تعزيز القدرة الصناعية زمن السلم في دول أوربا التي لم تبلغ مبلغاً يذكر من التقدم الصناعي، يضمن أن يكون التعمير الاقتصادي ملازماً ومؤيداً للتنظيم السياسي الحربيّ في أوربا بعد الحرب، وأساساً يصلح لانتعاش الحياة الاقتصادية، في أوربا وتوسيع نطاقها ورفع مستوى معيشتها، حتى لا يكون الفقر والعوز فيها والتعطل عن العمل تربةً تنبت فيها بذور الحرب.

ولكن تعزيز القدرة الصناعية في الدول الأوربية غير الألمانية، يطوي في ثناياه خطراً عظيماً، ذلك بأن الألمان قد يحسنون العمل السياسي والاقتصادي فينشئون صلة وثيقة بينهم وبين هذه الشعوب، بما يحتمل أن يكون لهم من شأن في تعمير هذه الدول، فيفيق العالم ذات صباح ليرى المانيا، مسيطرةً على دول، بذل العالم ما بذل في تعزيز قدرتها الصناعية، فتكون الطامّة أعظم يومئذٍ. ولاتقاء هذا الخطر، لا بدَّ في نظر التيمس من أمرين أما الأول: فأن تشارك بريطانيا والولايات المتحدة في هذا التعمير، عن طريق البنك الدولي للتعمير والتحسين، فتكون المانيا إحدى الدول الصناعية وحسب التي تشارك في هذا التعمير. وأما الثاني: فأن تبقى بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا على يقظة وحذر دائمين. واذا جعلت مشروعات التعمير، جزءاً من خطة اقتصادية حربية منسّقة تتخذها الدول المتحدة، كان اجتناب هذا الخطر أيسر.

ولكن « اليسر » ليس مطلق المعنى. فاليسر، يقتضي تعاوناً طويل الأمد في مراقبة المانيا والدول التي يُبذل لها العون، فاذا كان ذلك مستطاعاً فهذه الخطة أهدى إلى حلّ هذه المشكلة المعقدة، من مجرَّد القضاء على قدرة المانيا الصناعية، لأن في هذا القضاء نقضاً لما تتوخاه الدول المتحدة، ولما يقضي به العقل، من تجديد حياة أوربا الاقتصادية وتوسيع نطاقها وتوفير الأسباب التي تضمن لشعوبها الأمن من الفاقة.

فؤاد صروف

الخبز

الخبز عماد الحياة لو صنعناه من القمحة كاملة كما أراده الله سبحانه ، أتى لنا غذاء مفيداً نافعاً.

ومطحون القمح بجميع أجزائه يتكون من الدقيق الأبيض ومن النخالة ، وهذه تتركب من دقائق خشنة صفراء اللون، هي أغلفة القمح، ومن دقائق أخرى دهنية الملمس مائلة الى الصفرة الشاحبة وهذه هي أجنة الحبوب .

والدقيق الأبيض لا يحتوي إلا على مادة نشوية نقية تتركب من الكربون والايدروجين والاوكسجين .

وأما النخالة فهي تتركب من الفيتامينات وبعض المركبات الهلامية القرائية والفسفور والحديد والكلسيوم والسليكون واليود والنتروجين والكبريت والبوتاسيوم والمنجنيز .

وأنت اذا عرفت أن الفيتامينات تقيك شر الاصابة بأمراض عديدة مختلفة ، وان الفسفور يقوي أعصابك، والحديد يمنع فقر الدم ، والكلسيوم يقوي العظام ، والأسنان والغضاريف ، ويحافظ على قلوية الدم ، والسليكون يمنع الصلع وسقوط الشعر ، واليود يغذي الغدد ، والنتروجين والكبريت ينميان الأنسجة، والبوتاسيوم والمنجنيز من العناصر اللازمة لعمليات الجسم ووظائفه البيولوجية والفسيولوجية ، إذا عرفت كل هذا تألمت كثيراً من أن المدنية قدمت لك خبزها المصنوع من الدقيق الأبيض النقي الخالص غذاء تافهاً ، وفي الوقت نفسه سلبتك كل هذه العناصر الغذائية النافعة .

والنخالة التي تعاف أن نكمل بها دقيق خبزنا والتي نرميها للدواب والماشية ، كان يقول النبي صلوات الله عليه لكل من أتاه مريضاً « عليك بالبغيض النافع » وهذا البغيض النافع ما هو إلا نخالة مخلوطة بعسل النحل .

ومن خصائص نخالة القمح ان لها قدرة على امتصاص كميات كبيرة من الماء فتمنع تيبس الكتلة الغذائية في أثناء مرورها في الأمعاء ، وتساعد على انزلاق البراز الى الخارج فلا يحدث الامساك الذي يتسبب عادة من تناول الخبز المصنوع من الدقيق الابيض النقي .

ويتبين مما تقدم ان الخبز الكامل المصنوع من القمح بنخالته من سن وردة وغيرها يحوي جميع العناصر الغذائية الضرورية لحفظ صحة الانسان من الامراض التي تتسبب عن نقص الفيتامينات — ومن أمراض الاسنان والامساك والاملاح والروماتزم والبول السكري وفقر الدم .

لذلك لا تشغل بالك أن الحرب قد فرضت أكل خبز قريب بعض الشيء من الخبز الكامل — بل عود نفسك من الآن أكل الخبز الكامل في أيام الحرب والسلم معاً .

واعلم أن الخبز الابيض آفة المدنية وان الخبز الاسمر الكامل رسول الصحة .

وإذا أكلت الخبز فامضغه جيداً حتى يصير كالماء في فمك ، ومعنى هذا إنه قد اختلط بأكبر كمية ممكنة من اللعاب الذي يهضم المادة النشوية الموجودة بالخبز .

وكل الخبز مرة واحدة في اليوم ولا تأكله مع المواد البروتينية كاللحمة والفول وانما كله مع المواد الدهنية كالزبد أو المواد السكرية كالعسل الأسود وكله أيضاً مع الخضروات على اختلاف أنواعها مطبوخة أو غير مطبوخة كالسلاطة مثلا .

وأحسن الخبز ما كان مقدداً لأن نشاه يتحول الى مادة تسمى « ديكسترين » وهذه أسهل هضماً من النشا .

ان الخبز الذي أزحت لك عنه غيوم المدنية الكاذبة هو الخبز الأول الهام الذي يحفظ عليك صحتك . صمم من بعد قراءة هذه السطور القليلة المتواضعة أن يكون الخبز الكامل رغيفك اليومي .

فهمي عطا الله

اذا ..

للشاعر الانكليزي الكبير رديارد كبلنج

« في عدد قديم من المقتطف الاغر قرأت الترجمة النثرية لهذه القصيدة وقد حاولت إذ ذاك أن أنظمها شعراً عربياً ، فكانت هذه الابيات »

إذا استطعتَ ـ دواماً ـ أن تكون على رباطة الجأش ، حين الكل يضطربُ
وكنتَ ذا ثقةٍ بالنفس تعلوها عزماً ، على حين تجري حولك الريبُ
وكنتَ تطمحُ ... لكن ليس يجعلك الطموح عبداً لنأيٍ منه تنتحبُ
وكنت تعمن في الأفكار تجعلها لا غايةً لنجاح ، بل هي السببُ !
وكنت تقدر في فوزٍ وفي فشلٍ بأن يجدد منك السعي والدأب
وكنت لست الذي يخشى مخاطرةً بكل أمرٍ إذا ما استوجب الطلبُ
وكنت تقدم للأهوال معتقداً أن التفوق بالاقدام يكتسبُ
وكنت فرداً وديعاً في كياسته تماشياً كل قوم بالذي يجب ...
لدى الجماهير لا تأبى مسايرةً مع التحفظ كي لا يعكس الأرب
وفي مصاحبة (الأقيال) ذا أدبٍ لا يستحفك اسفافٌ ولا لعبُ
وكنتَ لستَ بهيّابٍ ولا وجلٍ وليس يثنيه عن غاياته تعبُ
تأبى البطالة إحساساً بذلتها وتملأ الوقت فعلاً منك يُرتقبُ
إذا استطعت لهذا ... يا ابن بجدته فليس تعوزك المصقولة القضُبُ
فأنت أنت الفتى السامي بعزته فوق السماك اليه ترمق الشهبُ
وأنت أنت الذي تأتي الحياة له بكلٍ ما يتمنى السادة النجبُ
لك التفوق في الأحياء قاطبةً ، لك النجاح ، لك العلياء والحسبُ

مكة : محمد سعيد العامودي

عالم المجهول

كما ان الشبح المنعكس من عدسة زجاجية على حائط ليس سوى صورة مكبرة من ذلك الشبح الكائن في العدسة ، كذلك النظريات الخاصة بهذا العالم ، ليست سوى صور مكبرة من نظريات العقل الانساني ، تبنى عادة على نماذج تستمد من تجاربنا الذاتية

كروزيار

لا نشك في اننا اذا انكرنا العالم المجهول ، نكون قد بعدنا جهد البعد عن أسلوب العلم نفسه . فان العلم لم يحط بكل شيء ، وميدانه محدود بالظاهرات المحسوسة دون الماهيات . فعالم الماهيات برمته عالم مجهول ، ولا يدعي العلم ان في مستطاعه ان يكشف سر الماهيات بطرقه المعروفة . وما دام العلم قاصراً عن ذلك ، فان من الطبيعي عند الذين يعرفون حدود العلم ، ويؤمنون بقصوره عن ادراك الماهيات، وحتى عن تعليل جميع الظاهرات ،أن يعترفوا بأن أشياء العالم المجهول لا ينبغي ان ترفض لأول وهلة، لأن العلم لا يتناولها بأسلوبه ، أو لأنها بعيدة عن أسلوب العلم.

ان نزعة العلم — Science — وطريقته ووجهة نظره ، وعلى الجملة كل ما يقع تحت مفهوم العلم من أشياء العقل البشري ، شيء حادث من مكتشفات الأعصر الحديثة . بل اننا لا نبالغ اذا قلنا مع القائلين بأن تحديد طريقة العلم ووضعها على قواعد خاصة ثابتة ،كان أبلغ أثراً وأعمق فائدة للانسان من أعظم المستكشفات الحديثة جميعاً ، اذ باستكشافها ، لم تعد قضايا العقل الانساني وكفاياته ، تتخالط ذلك التخالط الذي ظهر جليًّا واضحاً في صفحات التاريخ طوال العصور الأولى .

مما لا مشاحة فيه ان جنوح العقل الى التساؤل عن حقيقة الأشياء ومصادرها ، وحوادث الكون وظاهرات الطبيعة ، كان في الواقع أول الضرورات الجوهرية التي أفضت بالانسان منذ أبعد العصور الى البحث وراء الحقيقة . فالانسان الأول عندما نزع به الفكر الى تصوير نظرياته الروحانية التي كان يعلل بها حقائق هذا الوجود ، لم يضع البزرة الأولى للدين وحده ، بل غرس مبادىء العلم وقضايا الفلسفة .

فالأساطير والخرافات ، قد تضمنت من العلم بزوراً ، كما حوت من الدين مبادىء . فير

ان العلم قد احتاج الى عصور متطاولة وموغلة في القدم، حتى أصبح له وجود مستقلٌ بذاته. فان نزعة العقل الى البحث ، ان كانت قد صورت منذ القدم مختلف صور الاديان ونظمت مبادىء الفلسفة الأولية ، فان العلم لم ينفصل عن الفلسفة ولم تفرق كفايات العقل بين قضايا الفلسفة ومبادىء العلم ونظرياته ، الا منذ عهد قريب .

إن كل الباحثين في تاريخ الفكر الانساني يعتقدون بحق ان فرنسيس باكون أول من وضع للعلم حدوداً فصلته عن الفلسفة . وذيوع « منطقه الحديث » يعد أول عهد العلم بالوجود المستقل . أما ما ندعوه اليوم «الاستكشاف العلمي» الراجع الى العكوف على درس الطبيعة ، فقد أدى بباكون الى القول بأن الطريقة المثلى التي يجب ان نمضي عليها في حل مشكلات الحياة ومسائلها ، هي الطريقة العملية المعارضة للطريقة الفلسفية ، التي ذاعت في القرون الوسطى ، وكانت تعمد الى المناقشات الكلامية ، والعلم الضروري .

ان من أخص ما نحتاج اليه في هذا الموطن أن نظهر الفرق بين نزعة العلم ونزعة الدين والفلسفة . أما الدين والفلسفة فنزعتهما ذاتية Subjective محدودة ، في انها تنسب ، أو تحاول ان تنسب ، قيمة ذاتية خاصة لحادثات الحياة وظواهرها ، وهي في أهم وجوهها عبارة عن معرفة الوجود بشكل عام مطلق مستمد من الرغبات والضرورات الراجعة الى الشعور أو الوعي الكامن ، والى روح الانسان اذ ترتد الى النظر في حياتها الداخلية أكثر من نظرها في عالم الطبيعة الخارجي . أما نزعة العلم فيقرر العلماء بأنها غير ذاتية ، بل موضوعية Objective عامة . والعلم ان كان في حقيقة وجوده ومرجعه ، وبحكم العقل الانساني ازاء الكون ، ذاتي كالدين والفلسفة ، الاّ ان موضوعية العلم تنحصر في انه ينظر في عالم الطبيعة الخارجي ، أكثر من نظره في طبيعة الروح المستترة المختفية وراء الظواهر المرئية .

يصل الدين كما تصل الفلسفة الى العالم المنظور مزودان بمطالب يحاولان من طريقها ان يخلقا جوًّا ملائماً لمجموعة من الرغبات والانفعالات الخاصة . أما العلم فيظهر خلوًّا من كل شيء ولا يصل الى العالم، الاّ ليعرف الكون من طريق النظر في طبيعته . يترك العلم الطبيعة حرة في أن تلقي في روع كل بشر سرها وروايتها بلغتها الخفية . أما الدين والفلسفة فلا ترضيان الطبيعة أن تتكلم بلغتها ، فيضعان لها لغة ، وينتحيان لها أسلوباً من البلاغة مخالفاً لبلاغتها ، يرجع في كل الحالات الى استيفاء أغراضه الأولية ، لا الى الترجمة عن حقائق الكون كما تريد الطبيعة ان تلقيها في روعنا .

ولعلهُ يكفينا في هذا البحث أن نعرف مما سبق القول فيه اننا لا نقصد بالعلم إلاّ كل ما خرج عن حيز الآداب والفن والدين والفلسفة . بحيث يكون ذا قواعد راهنة لا ينتابها

التغيير والتبديل . ولا شك عندي ان من أعظم ما كشف للعقل عنه في الأعصر الحديثة ، لا طريقة العلم ، ولكن تيقّن أهل العلم بأن للعلم حدوداً يقف عندها . فان هذا الكشف قد جعل العلم يترك ادعاءه بحق التفرد بالوجود والتسلط وحده على كفايات العقل البشري ، إذ بان لأهله أن وظيفة العلم تنحصر في « وصف » حقائق الكون . لأن العلم يتناول معرفة الظاهرات وآثارها وعلاقة بعضها ببعض ، وان وظيفته بعيدة عن « تفسير » الماهيات . بذلك نامت عاصفة العلم وانتصرت الطبيعة البشرية على نزعات الوهم التي سادتها زمناً ، وتحددت المعارف الانسانية بحسب كفايات العقل ، فترك للدين والفلسفة سلطانهما ، وحُدِّد للعلم حيزه .

ولكنْ هنالك بعضاً من الذين لم يهتدوا بعد إلى تحديد كفايات العقل ، مَنْ يزالون ينكرون بأن هذه العاصفة ، عاصفة العلم ، قد نامت ، ولا يزالون يريدون أن يخضعوا طبيعة العقل إلى ناحية واحدة ، ناحية العلم الموضوعية ، مستبدين غير محرَّرين من فورة القول بأن العلم هو الجدير وحده بأن يتبناه العقل .

أما هؤلاء فينكرون « العالم المجهول » ويقولون لا « مجهول » في عالم العلم ولا في عالم العقل. وهؤلاء نضع أمامهم ست مسائل من مئات المسائل ، ونتحداهم أن يثبتوا لنا انها لا تدخل في عالم المجهول، وان العلم يمكنهُ أن يفسرها بطرقه المعروفة فاذا استطاعوا فليس هنالك عالم مجهول ، وإذا عجزوا ، كان اعترافهم بالعجز ، اعترافاً بأن عالم المجهول أرحب وأوسع من عالم المعلوم ، واستتبع ذلك الاعتراف بحقيقة أخرى هي ان كل خطوة يخطوها العلم نحو معرفة شيء من عالم المجهول، إن ضيقت شيئاً مّا من أفق الجهل، فانها تزيد كثيراً من آفاق المجهولات .

١ — المسألة الأولى : الاعتقاد بوجود عالم خارج عن حيزك .

خذ مثلاً التكأة التي تكتب عليها . كيف تعرف أنها خارجة عن حيزك ؟ إذا نظرت اليها أو لمستها أو وقعت تحت حسك بحال من الأحوال ، فكل ما في مستطاعك أن تعرف منها ليس سوى مدركات حواس مختلفة موجودة فيك ، وليست خارجة عن حيزك . لا في لونها أو صورتها ، بل أيضاً في صلابتها وقوتها . والدليل على ذلك أن فقد أعصاب البصر يمنع عليك أن تراها . وان فقد أعصاب اللمس يمنع عليك أن تحس بها . وان فقد الحواس جميعها يمنع عليك أن تدرك أن لها وجوداً البتة . ذلك في حين انه وان لم يكن في مستطاعك أن تعرف من وجود تلك التكأة « علميًّا » إلاّ إحساسات كائنة في حيزك ، إلاّ أن تركيب عقلك قد وضع على نظام يحملك على الاعتقاد بأنها كائنة في حيز خارج عنك . فاذا اعتقدت

بما يخالف ذلك ، وأخذت تؤدي عملك بما يوحي اليك به اعتقادك هذا ، كان ذلك دليلاً على ان ميزان العقل قد اختلّ وتفككت ألفته .

٢ — المسألة الثانية : وجود ذلك الشيء الذي ندعوه العقل في ذوات من البشر غير ذواتنا .

كيف أستطيع أن أعرف أن صديقي الذي يعاشيني يحوز شيئاً يقال له العقل ؟ اني لا أستطيع أن أراه أو أحس به أو أتناوله بتجربة اتخذ مجهر الطبيب أو مشرط الجراح أو مجهزات الكيماوي ، أداة لها . فاذا كان معتقدي في عقل صاحبي يعود إلى مقدار ما أستطيع أن أعرف منهُ علميًّا ، لما استطعت أن أعتقد في وجوده مطلقاً ، لأن مفخرة العلم ادعاؤه بأن كل مستنتجاته من المستطاع أن توضع تحت حكم الحواس . فان وجود العقل في صاحبي كوجود « واجب الوجود » : كلاهما اعتقاد إلزامي . إننا لا نستطيع أن نعرفه من طريق العلم ، وفي الوقت ذاته ملزمون بالاعتقاد به ، كأحد الفروض الضرورية الجوهرية التي يقوم عليها أكبر جزء من معرفتنا .

٣ — المسألة الثالثة : الاعتقاد في تفوق العقل على المادة ، والشجاعة على حب الملذات .

كيف ندرك أن العقل متفوق على المادة ، وان العواطف العقلية أزكى طبيعة من العواطف الحسية أو حب الذات ؟ كيف ندرك ان الشجاعة وكرم الأخلاق وتضحية النفس ، أصفى طبيعة من حب الملاذ والخشونة والحسيات بضروبها ؟ ان خلايا المخ التي تنشأ من نشاطها وحركتها تلك الانفعالات والخصائص المختلفة ، كلها تماثل المادة ، ولا تدرك ، كالمادة ، شيئاً من هذه الانفعالات . ونعرف من جهة أخرى ، وبقدر ما يسمح لنا بهِ العلم الطبيعي ، ان هذه الخلايا متشابهة في المرتبة والقدر . ومع كل هذا نجد أنفسنا مسوقين الى الاعتقاد بأن هنالك فرقاً في المرتبة واقعاً بين الانفعالات المتشاكلة ، ولولا هذا الاعتقاد لأصبحت العلوم والمجادلات الأدبية برمتها سخرية وتضليل . وهنالك تتعطل المصالح العظمى في حياة الانسان ، كالتفريق بين درجات الفضيلة والرذيلة ، والمدح والذم ، والشرف والاسفاف ، أو انها تصبح على الأقل أشياء غير واقعة أو مضادة للبديهة .

٤ — المسألة الرابعة : الاعتقاد في بقاء القوة . أي حقيقة أن كمية القوة الموجودة في الكون ثابتة لا تزيد ولا تنقص .

يقول العلامة هربرت سبنسر ، كبير مفكري العلماء في القرن الماضي ، إن هذا الاعتقاد أساس كل العلوم الحديثة ، وانه النبع الخفي الذي تستمد منه كل النواميس الطبيعية . يقول سبنسر إن كل النواميس الطبيعية الأخرى ليست سوى توابع تعود إلى هذه الحقيقة

العظمى . وكل الاستنتاج العلمي « يفرض » ان القوة ثابتة ؛ لأنهـا إذا لم تكن كذلك ، أصبحت أدوات قياس الأبعاد ، التي هي في ذاتهـا عبارة عن قياس القوة الجاذبة ، وكل أدواتنا الأخرى التي نحقق بها استنتاجاتنا العلمية ، متغايرة بين يوم وآخر ، أو بين ساعة وأخرى ، وبذلك تصبح كل المعارف الطبيعية غير ممكنة . لذلك كان مبدأ بقاء القوة ، ولو لم نستطع أن نثبته علميًّا ، اعتقاداً إلزاميًّا . والعلامة « سبنسر » يعتقد أن هـذا الفرض ، وان كان أساس العلم ، إلاّ أن العلم يعجز عن إدراكه . وهـذا مثال حق يثبت قاعدة ان كثيراً مما لا يمكن أن يدركه العلم الطبيعي ، يجب أن يعتقد في وجوده . إذ لولا هذا الأمر ، لتحلّل ذلك الهيكل النظامي الذي ترتكز عليه معرفتنا .

٥ — المسألة الخامسة : الاعتقاد في أن المادة توجد بوجود قوّتي الجذب والدفع .

وهـذه مسألة أخرى تحقق لدينا أن من الحقائق ما لا يفقهه العلم ، مع استحالة عدم الاعتقاد به .

أما ان قوتي الجذب والدفع حقيـقة طبيعية ، فذلك ما لا سبيل إلى إدحاضه . فاننا إذا أخذنا جسما وأردنا أن نفصل بعض أجزائه عن بعض فانهُ يقاوم مجهودنا . وكذلك يقاومنا إذا أردنا أن نضغط أجزاءه ، مثبتاً بذلك انه إنما يتركب من دقائق تتجاذب وتتدافع في آن واحد . وإلى هذه الحقيقة تعود ظاهرة التفاعل وعدم التفاعل في العلم الطبيعي ، بل وفي أجزاء الطبيعة برمتها . ومع كل هذا فان هذه الحقيقة تعدو الادراك العلمي في تعليل كيف ان دقيقة واحدة تجذب أخرى في حين انها تدفعها وتقاومها .

وفي ذلك يقول « سبنسر » — « إننـا لا نستطيع أن نأتي بقطعة من المادة يظهر فيها أن جزءاً يجذب آخر في حين انه يدفعهُ . ومع هذا ، فان الاعتقاد بذلك الزامي ضروري »

٦ — المسألة السادسة : الاعتقاد في السببية العلمية .

وهو عبارة عن الاعتقاد في إن كل نتيجة لا بد لها من سبب يناظرها في القيمة . وهو اعتقاد في حقيقة نساق الى اليقين بها ، ولا يمكن معرفتها من طريق علمي .

ليس في تتابع وقوع الظاهرات ما يسوقنا إلى الاعتقاد باتصالها اتصال العلة بالمعلول . وكل ما في مستطاعنا ان نرى ان هنالك سلسلة من سوابق ولواحق . ومع ذلك نجد أنفسنا مسوقين الى الاعتقاد بتلك الحلقات غير المرئية من السببيات التي تربط بعض الأشياء ببعض ، ذلك الاعتقاد الذي يحفظ علينا ألفة العقل ونظامه . والسبب في ان حقيقة السببية العلمية لا تقتدر على الوصول الى الكشف عن ماهيتها ، راجع الى انها ليست غير مظهر من مظاهر بقاء القوة . وما دام بقاء القوة لا يمكن معرفته من طريق العلم ، فيتبع ذلك ان يمتنع على العلم

معرفة ماهية السببية . فاننا عند ما نقول إن نتيجة مّا يجب ان يكون لها سبب ،فانما ننسى ان القوة التي يتكوّن منها ذلك السبب لا بدٍ من ان تكون قد استمدت من ناحيةٍ اخرى، أي ان لها سبباً عنه حدثت . فان نتيجة ما مثلاً قد تقع تحت حسنا، وقد نمثل لها بعدد أربعة، فاننا حينذاك نعتقد أيضاً ان اثنين واثنين او ثلاثة وواحداً ، لا بد من أن تتقدم وجودها . أما الاعتقاد بأن الاربعة يمكن وجودها من غير وجود اثنين واثنين أو ما يساويهما وجوداً سابقاً على الاربعة ، فاعتقاد بأن القوة قد حدثت بعد العدم ، وفي ذلك نكران لحقيقة بقاء القوة

بذلك نرى ان القواعد الأولية التي تقوم عليها مدركاتنا ومعارفنا المنظومة ، يجب ان يعتقد بها ولو لم يكن في مستطاع العلم أن يعرفها .

أليست هذه عوالم مجهولة ، يعترف بها العلم ؟

اسماعيل مظهر

عن جزر ألوشيان

لأهل جزر الوشيان عادة في الزواج من أعجب ما يروي الاجتماعيون . فللرجل منهم حق التزوج من عدد من النساء بقدر ما يستطيع أن يكفل بالصيد . وللمرأة حق التزوج من عدد من الرجال بقدر ما تستطيع أن تخدم منهم في بيتها ، والزوجات يؤخذن بالاسر أو بالشراء من الآباء . فاذا أسرت زوجة أو اشتريت أبق بها زوجها ، أي هرب بها واختفى عن الاعين ، تشبهاً بعادة جرى عليها انسان الكهوف منذ أزمان موغلة في القدم .

فاذا تزوج رجل من امرأة عمل جهده في أن يضم الى حريمه معها كل أخواتها الصغيرات وبنات عمومتها وخئولتها . وعلى العكس من ذلك ، فان امرأة متزوجة من رجل ما ، تصبح بحكم العادة زوجاً لاخوة بعلها وأبناء عمومته وخئولته أيضاً .

وعقاب الاولاد نادر . وصنف العقاب الشائع عندهم ، هو ذلك الصنف الشائع بين الاسكيمو عامة . فان الطفل اذا لج في البكاء والصخب ، عمدت أمه الى الماء فغطته فيه . فاذا كان الفصل شتاء ، غمرته في فجوة بين الثلوج ، فاذا احتواه الماء البارد المقرور فعل فيه ما يفعل السحر ، فكف عن البكاء وهدأت أعصابه .

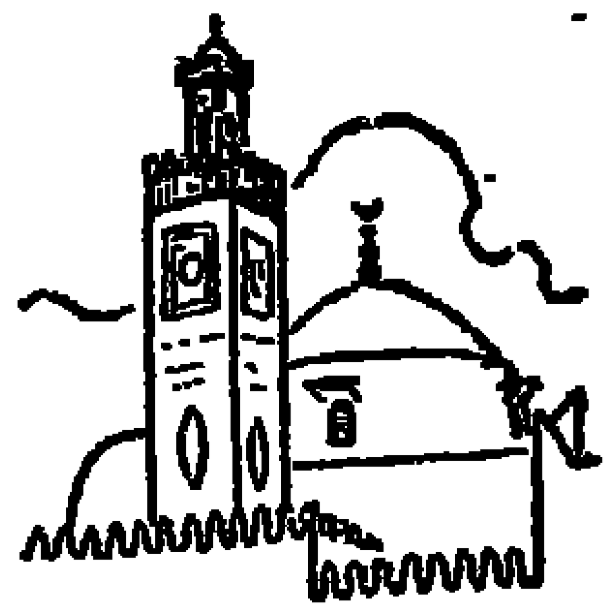

اصلاح الخط العربي

— ٣ —

(ج) كتابة الهمزة

كتابة الهمزة من المعضلات الاملائية التي لا ضرورة لوجودها في اللغة العربية . فأنت قلما ترى بين عامة الناس الذين يحسنون القراءة والكتابة ، بل بين الكثيرين ممن بلغوا شأواً بعيداً في تعلم اللغة العربية ، من يتقن كتابة الهمزة دون ما خطأ لكثرة تعقد قواعدها . وقد يجد المدقق في هذه القواعد شيئاً من المنطق والتناسق كعادة قواعد الصرف والنحو العربيين . ولكن يجد أيضاً الهمزة هي في الناحية الصوتية صوت حلقي بسيط ولكنها من ناحية الكتابة مضطربة لا تستقر على حال . فهي كالطفل اليتيم الذي لا مأوى له ولا محل يطمئن اليه ، تكتب وحدها تارة ، وعلى الياء طوراً ، وعلى الواو آونة ، وعلى الألف حيناً . ثم هي على الألف في أول الكلمة قد تكتب فوقها أو تحتها . ولعلّ شيئاً من التحليل لخصائص الهمزة ومقابلتها بالحروف الأخرى وبالصوت نفسه باللغات الاوربية يهدينا الى حل لمعضلة الهمزة، ينسجم مع ما نتوخاه من تبسيط الكتابة العربية وتيسيرها.

ان الهمزة في اللغات الأوربية لا ترد عادة الا في أول الكلمة عندما تبتدىء الكلمة بحرف علة . فاذا جاء حرف العلة في وسط الكلمة كان حرف مد ولم يلفظ همزة البتة . فحرف (e) في كلمة election يلفظ همزة في أول الكلمة ولكنه في وسطها حرف علة بحت ، أي حرف مد، ولا تلفظ الهمزة في وسط الكلمة الا إذا كانت الكلمة مركبة مثل قولنا reelection ، maladministration وغيرها من الكلمات المماثلة التي تبتديء الكلمة الثانية منها بحرف علة . وهي الى هذا يخفض فيها لفظ الهمزة في الوسط فتلفظ لينة في الغالب قريبة من لفظ حرف العلة . فالهمزة في اللغات الاوربية اذاً هي حرف علة يلفظ همزة في ابتداء الكلمة بحكم الضرورة .

أما الهمزة في اللغة العربية فلا يقتصر ورودها والفظ بها في أول الكلمة ، بل هي كثيرة الورود جداً في وسط الكلمة وآخرها . فهي في العربية أقرب الى كونها حرفاً صحيحاً من كونها حرف علة . يدلك على ذلك انها تقبل الحركات جميعها من ضم وفتح وكسر وسكون وتنوين لقيل أي علامة الشدة، كما تقبلها الحروف الصحيحة فنقول : أميمة ، سأل، سُئِل، رأفة ، شيءٌ ، ترأّف . وهي تسبق أحرف العلة كما تسبقها الحروف الصحيحة فنقول : آمنَ (أ امنَ) ، إيمان ، مسؤول . على ان خاصية واحدة من خصائص الهمزة تجعلها شبيهة بحروف العلة في بعض الأحيان، فانها إن جاءت في وسط الكلمة مسكنة بعد ضم أو فتح أو كسر جاز في بعض الأحايين قلبها واواً أو الفاً أو ياءً . فلك أن تقول سؤددٌ وسودد ، شأن أو شان ، سائل أو سايل وان كانت هذه الأحوال قليلة بالنسبة إلى الأحوال التي تلفظ فيها الهمزة مقطوعة صريحة وبما يقرّب الهمزة من حروف العلة حذفها في اللفظ عندما ترد همزة وصل في أول الكلمة كأن تقول في « احتمال وبانقسام » .

والحق انها هنا ليست همزة حقيقية، بل صوتاً اقتضته ضرورة النطق بحرف العلة في أول الكلمة ، فاذا اتصل بما قبله حذف .

إن هـذا التحليل يمهد لنا السبيل إلى ايجاد حل لمشكلة كتابة الهمزة . إن الأقدمين اعتبروا الهمزة أقرب إلى حروف العلة .ولذلك اصطلحوا على كتابتها على أحرف العلة الثلاثة أو كتبوها وحدها ، وهم بذلك خلقوا لنا معضلة كتابة الهمزة وقواعدها المعقدة . ونحن نزعم ان الهمزة ليست حرف علة ، بل هي أقرب إلى أن تكون حرفاً صحيحاً . وهي كحرف صحيح ، يجب أن يكون لها رمز واحد ثابت ، كما لسائر الحروف الصحيحة . ونقترح لذلك أن توضع الهمزة على كرسي الياء فتكتب دائماً هكذا (ئـ) [1] أينما وجدت في وسط الكلمة وآخرها وتوضع عليها الحركات كما توضع على سائر الحروف الصحيحة . أما في أول الكلمة فنرى ابقاء كتابتها على الألف لأنها الطريقة المألوفة ولا صعوبة فيها ، ولأن أغلب الهمزات في أول الكلمة هي همزات وصل تحذف في النطق عند الاتصال بما قبلها فلا يبقى إلاّ الألف . وفي الرسم (٤) بعض كلمات مهموزة كتبت على هـذه الطريقة مع وضع الشكل عليها عند الاقتضاء .

....

(١) اقترح علي أستاذي الفاضل أنيس الخوري المقدسي أستاذ اللغة العربية وآدابها في الجامعة الاميركية في بيروت بعد قراءته هذا المقال، أن تكتب الهمزة على الالف في أول الكلمة ، وعلى كرسي الياء في وسطها ، ووحدها في آخر الكلمة .

الوادي أمين إيمان الإيمان مُئمِن نَئمَن سُئال وِئام رئبال

عمائِم سَيِّدٌ شَيءٌ عِبْءٌ سائِد رجاءٌ تشائُم برائَة

الرسم ٤ — الطريقة المقترحة لكتابة الهمزة

وربَّ معترض أنَّ كتابة الهمزة على الطريقة الشائعة الآن تدلنا على حركتها أو حركة ما قبلها ، وهذا ما يفقدنا إياه أسلوب كتابتها المقترح هنا . وجوابنا هو ان شأنها في ذلك شأن جميع الحروف الصحيحة الأخرى ، فانها معرَّضة للالتباس إذا لم تشكل ، وان العلاج الصحيح لهذا الأمر هو تحريك الهمزة أو ما يسبقها من الحروف عند الاقتضاء كما اقترحنا عند الكلام على الحركات ، وليس العلاج وضع قواعد عويصة، لكتابة الهمزة هي أشد وطأة من الالتباس . وحينئذٍ لا نكون قد فعلنا سوى أننا حللنا مشكلة بخلق مشكلة أخرى . أما إذا عملنا بالاقتراح الجديد فاننا نكون قد حذفنا باباً عويصاً من أبواب الصرف ، قلما يتقنه أحد ، هو باب كتابة الهمزة وخلصنا من العلمين والمتعلمين والناس أجمعين وجعلنا كتابتنا أقرب إلى المنطق .

(د) اضافة بعض الحروف والاصوات

من المشاكل التي تعترض القارىء العربي في هـذا العصر ، عصر الاقتباس الجديد من الثقافات الأجنبية وتبادل الثقافات ، وعصر الاتصال بجميع أنحاء المعمور ، وتوارد المعلومات والأخبار بالكتب والجرائد والمجلات ، وعلى أجنحة البرق والراديو ، مشكلة ضبط الأسماء الأجنبية الداخلة على اللغة العربيـة وقراءتها قراءة صحيحة . ومن هذه أسماء المواقع الجغرافية التي تتقاطر علينا في كل يوم بالعشرات ، وأسماء الأعلام الأجانب من سـياسيين وعلماء وأدباء وغيرهم ، ومصطلحات العلوم المختلفة المنقولة على علاتها في كتبنا العلمية . وقد كثر استعمال هذه في كتبنا ونشراتنا وأحاديثنا اليومية وتعددت أساليب لفظ الناس متعلمين وأميين للكلمة الواحدة ، حتى لم يعد يصح السكوت عن هـذه القضية . والسببان الأساسيان لسوء لفظ هذه الكلمات هما . أولاً : أنها تتضمن في كثير من الأحيان حروفاً وأصواتاً لا وجود لها في اللغة العربية . وثانياً : انها غير صادرة من المحيط العربي فهي إذاً غير مألوفة لديه .

ويهمنا هنا قضية الحروف والاصوات غير الموجودة في الهجاء العربي ، وهي في رأينا أربعة حروف صحيحة ، وحرفان من حروف العلة. أما الصحيحة فهي پـ (p) ، چـ (ch الانكليزية) ، ڤـ (v) ، گ (Gu) . وأما العلة فهي (o) و (é , ai) . ولا شك في أن هنالك حروفاً وأصواتاً أخرى لا وجود لها عندنا كحرف (e) الصامت الافرنسي (ö الالماني) وحرف u ، الرقيق الافرنسي (ü الالماني) وحرف (j) الافرنسي (zh الروسي) وغيرها . إلاّ أن هذه في نظرنا تقرب من الاصوات الموجودة عندنا قرباً كافياً يبرر اهمالها. واني مقتنع ان إدخال الاحرف الستة التي ذكرتها على هجائنا ، يقرّبه من الكمال ويجعله صالحاً لكتابة كل ما يرد علينا تقريباً من الكلمات الاعجمية وضبطها ضبطاً ان لم يكن تامّاً فلا بأس بقربه من الاصل .

أما الأصوات الأربعة الصحيحة وهي پـ ، چـ ، ڤـ ، گ (١) فقد سبقنا الأتراك يوم كانوا يكتبون بالحروف العربية إلى ايجاد رموز لها مستمدة من الخط العربي وليس لنا ما نزيد عليها. وإنما بقي أن نجد رموزاً لكل من الصوت o والصوت é ، ai ونحن نقترح واواً مقلوبة للأول (ۉ) تكون كبيرة عند ما تكون حرفاً وصغيرة تشبه الضمة المقلوبة (،) عند ما تكون حركة . ونقترح وضع الرمز (ـه) للدلالة على الصوت الثاني (é) فان كان حركة وضعناه مصغراً فوق الحرف (ٓ) وبهذا نستطيع كتابة ما نشاء من الأسماء الأجنبية أما إذا أردنا التنوين في هاتين الحركتين فنضاعفهما على هذا الشكل (،،) و (ٓ) .

وها نحن نعطي بعض الأمثلة على استعمال هذه الحروف (الرسم ٥)

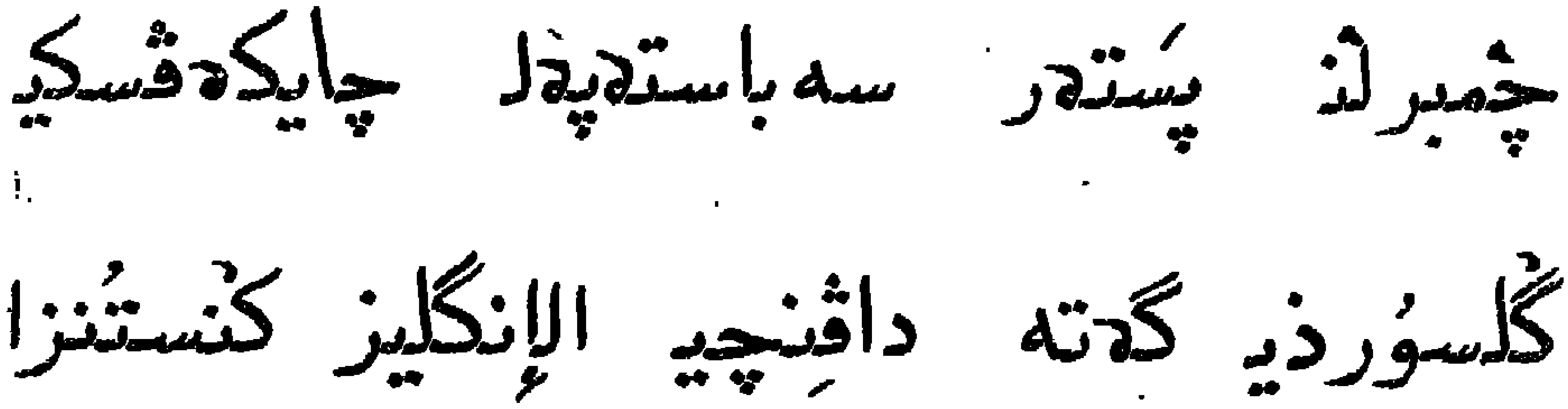

الرسم ٥ — كيفية ضبط الكلمات الاجنبية

---

(١) ان كتابة الصحف والمجلات والكتب المصرية لحرف (G) الاجنبي بحرف الجيم العربي في الكلمات الاعجمية مثل جمرك ، انجليز ، جوته ، قد أدى الى سوء لفظ أمثال هذه الكلمات من قبل الجمهور العربي خارج مصر وخاصة من كان لا يعرف اللغات الاجنبية منه ، فأصبحت هذه الكلمات تلفظ Jumruk ، Injiliz ، Joete) ولذلك نقترح ان نكتب الكلمات العربية الاصل بالجيم كالعادة فنكتب جاء ، وجندي ويلفظها كل قطر بحسب لهجته . أما الكلمات الاجنبية فيعبر عن هذا الصوت فيها بحرف گ الجديد فنكتب گمرك ، انگليز ، گوته فيزول الالتباس .

(هـ) اقتراحات املائية

إن مشكلة الخط متصلة اتصالاً وثيقاً بمشكلة الاملاء ، وما دام المراد تيسير الكتابة العربية فلا بأس من ايراد بضعة مقترحات املائية أخرى يكون من شأنها تيسير تعلم الاملاء العربي على المتعلمين . وها هي بعضها :

(١) اعادة الألف المحذوفة من بعض الكلمات كأسماء الاشارة . فنكتب هاذا ، وذالك وأولائك . كما أننا نكتب الآن هاتان ، وهاتيك . ومثل ذلك يجب ان نكتب عبد الرحمان بدلاً من عبد الرحمن . وقد جرى المحدثون على كتابة كلمات الصلاة والحياة والزكاة بالألف بدلاً من الواو .

(٢) حذف الألف الزائدة من الأفعال المجموعة في الماضي والمضارع والأمر فنكتب قالوا ، لم يقولو ، قولو ، كتبو ، ان يكتبو ، اكتبو بدون الف فنتخلص بذلك من غلطة شائعة في الاملاء . كما نتخلص من غلطة أخرى شاعت بين كتبة دواوين الحكومة خاصة وهي ان يضعوا الألف في آخر الجمع المذكر السالم المحذوف النون فتراهم يكتبون « موظفوا الحكومة » بالألف ولا الف هناك ، وانما قاسوها خطأ على الأفعال المجموعة .

(٣) الغاء الألف المقصورة الغاءً تامّـا وكتابة أواخر الكلمات المقصورة كلها بالألف الطويلة فنكتب مصطفا ، نها ، علا (حرف الجر) ، رما ، استغنا الخ . وبذلك نخلص من بضعة قواعد زائدة في الصرف والاملاء العربيين . ولا عبرة في القول بأن كتابة الأفعال الثلاثية بالألف الطويلة او المقصورة ، وضعت للدلالة على كون الفعل واوياً أو يائياً . فاننا عادة نسأل أنفسنا اولاً هل الفعل واوي أم يائي فنقرر ذلك تبعاً للسليقة، ثم نكتب الفعل باحدى الألفين . ولا نستعمل العكس الا في الأفعال القليلة الورود .

(٤) حذف الألف من كلمات مائة وخمسمائة فنكتب مئة وخمسمئة كما جرى عليه الكثيرون .

اننا نعتقد ان هذه الاقتراحات مع اقتراح كتابة الهمزة الذي سبق ذكره تخلص الاملاء العربي من معظم مشاكله وتخفف على المعلمين والمتعلمين في جميع البلاد العربية عملهم والمشكلة المهمة الباقية في الاملاء هي التمييز بين التاء الطويلة والتاء المربوطة . ويزاد عليها عند أهل العراق التمييز بين الضاد والظاء . وبذلك نجعل الاملاء العربي أيسر املاء في الدنيا تقريباً

اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المطلب جم الفوائد
شريف الغاية، اذ هو يوقفنا علا احوال الماضين
من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم،
والملوك في دولهم وسياستهم حتا تتم فائدة
الاقتداء في ذالك لمن يرومه في احوال الدين
والدنيا .

الرسم ٦ — وهو يبين ان التعديل المقترح يحتفظ بجوهر الخط العربي مع استعمال شكل واحد لكل حرف لا غير ومع تطبيق بعض الاقتراحات الاملائية

٧ — الخلاصة

لقد حاولنا في بحثنا أن نعالج مشكلة اصلاح الخط العربي فقرّرنا ان هذا الاصلاح ضرورة يحتمها العصر كما تحتمها ضرورة تعليم جميع أفراد الأمة العربية وإزالة الأمية من بينهم . ثم نظرنا في نشأة الخط العربي وقابلناه بالخط اللاتيني، فرأينا ان الخط العربي خير ما تكتب بهِ اللغة العربية لأنهُ نشأ معها ومع اخواتها الساميات ، وتطوَّر بتطورها فهو يفي بحاجاتها كما لا يفي بها أي خط آخر ، وتنطبق رموزه على أصواتها انطباقاً يكاد يكون تامّاً. ولذلك قررنا أن أي اصلاح للخط العربي يجب أن يستمد من روحه ويحتفظ بجوهره ولا يتناول تعديله إلاّ في بعض تفاصيله تعديلاً يؤدي إلى تسهيل تعلمه ، وتيسير طباعته ، وجعله أكثر انسياقاً ، لتدوين اللغة تدويناً أدق مما هو عليه الآن .

وقد اقترحنا لذلك خمسة اقتراحات أولها الاكتفاء بشكل واحد من أشكال الحروف هو شكل الحرف في أول الكلمة وبذلك تنزل أشكال الحروف من نحو المئة إلى نحو الثلاثين، وثانيهما فصل الحركة عن الحرف في الطبع فتصف الحركات كما تصف الحروف بعضها إلى بعض في الوقت الحاضر ، وبذلك لا يضطر أصحاب المطابع إلى تحمل النفقات التي يتطلبها اقتناء عشرات الأشكال من كل حرف ، ولا يضطر الطابع إلى اغفال الحركات لعدم وجود أحرف محركة عنده . وثالثها اعتبار الهمزة حرفاً صحيحاً تكتب على الألف في اول الكلمة

وعلى كرسي الياء في وسطها وآخرها . ورابعها اضافة ستة أحرف مستمدة من اللغات الأوربية تساعدنا على ضبط الأسماء الجغرافية وأسماء الأعلام والمصطلحات العلمية التي كثر

موسكو – اغارت القوات السوفيتية علا مدينة كرش في شبه جزيرة القريم وتتقدم الجيوش الروسية باستمرار في ساحة نوفگورود .
لندن – يقول مراسل رويتر الديپلوماسي إن المستر چرچل ألقا بيانًا في مجلس العموم البريطاني

الرسم ٧ — كيف يمكن للقارىء العربي ان يقرأ الاخبار اليومية دون ان يخطىء في لفظ الاعلام الاجنبية والمواقع الجغرافية . ومثل هذا ينطبق على الاصطلاحات الاجنبية المنقولة الى اللغة العربية .

الحروف :

ا ئ ب پ ت ث ج چ ح خ د ذ ر ز س ش
ص ض ط ظ ع غ ف ڤ ق ک گ ل م ن و
ه ة ه (o) ه (é, ai) لا

الحركات :

الرسم ٨ — الشكل النهائي للحروف والحركات المقترحة .

استعمالها في العربية . وأربعة من هذه الأحرف هي أحرف صحيحة وهي پ ، چ ، ڤ ، گ واثنان حرفا علة هما ، و ه وما يتبعهما من حركتين هما ، و . وأخيراً أتينا ببعض

الاقتراحات لتيسير الاملاء العربي هي اعادة الألف المحذوفة من أسماء الاشارة وأمثالها من الكلمات ، وحذف الالف الزائدة من الافعال المجموعة ، وحذف الالف المقصورة والاستعاضة عنها بالالف الطويلة في جميع الكلمات المقصورة أسماءً كانت أم أفعالاً أم حروفاً ، وحذف الالف من كلمة مئة ومركباتها .

وها نحن نقدم للقارىء نموذجين من الكتابة على الأسلوب الذي نقترحه أحدها فقرة من مقدمة ابن خلدون والثاني خبر برقي نشر في الجرائد ، (الرسم ٦ و ٧) وجدول كامل للحروف والحركات كما نقترح أن تكون (الرسم ٨) .

***

٨ — اصلاح الخط والحكومات العربية

وفي الختام لا بد من القول ان اصلاح الخط العربي ليس قضية اقتراح او مجهود شخصي ولا هو في شأن قطر عربي واحد ، إذ أن ما بين الاقطار العربية الآن من اتصال ثقافي وثيق وتبادل واسع للمطبوعات، يمنع ان يستقل أي قطر في القيام بمشروع لاصلاح الخط . فلا بد اذاً من تعاون البلاد العربية وحكوماتها في هذا الأمر . ولعلَّ هذا الموضوع من أفيد الموضوعات التي يمكن بحثها في المؤتمر أو المؤتمرات الثقافية المقترح عقدها بين البلاد العربية فيؤلف المؤتمر هيئة من الخبراء لدرس موضوع اصلاح الخط وتمحيص جميع الاقتراحات المقدمة بشأنه ورفع تقرير ينطوي على اقتراحات عملية عن هذا الاصلاح . فان أقرها المؤتمر عملت الحكومات العربية على تطبيقها بأن تعممها في مطابعها الرسمية ، وبأن تساعد المطابع الخصوصية على تبديل حروفها ، إذ ان كثيراً من المطابع قد لا يستطيع تحمل نفقات تبديل الحروف بكاملها .

ان موضوع اصلاح الخط عظيم الأهمية للبلاد العربية ولمستقبلها الثقافي ، وقد تكون معالجته فاتحة حسنة للمؤتمرات الثقافية المؤمل اقامتها في المستقبل القريب .

دكتور متى عقراوي

عميد دار المعلمين العالية ببغداد

تحقيق

كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء

يضم هذا الكتيب النفيس طائفة من شعراء العرب الذين عرفوا بنسبتهم إلى أمهاتهم وهو ضرب من التأليف طريف، يعالجه إمام من أئمة الاخبار والأنساب ورواية الشعر، وهو محمد بن حبيب. ومن هذا الكتاب نسختان في دار الكتب المصرية: إحداها برقم ٦ مجاميع ش، وهي التي رمزت إليها بحرف ا. والثانية برقم ٥٧ ش أدب، وقد رمزت إليها برمز ب.

كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء

صنعة محمد بن حبيب وتصنيفه، من رواية عثمان بن جني رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قرأت على أخي محمد قال: سمعته يُقرأ على أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة(١) قال: قرأت على ثعلب(٢) قال: قال أبو جعفر محمد بن حبيب:(٣)

---

(١) هو ابراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة العتكي الأزدي الواسطي، أبو عبد الله الملقب نفطويه. كان عالماً بالعربية واللغة والحديث، أخذ عن ثعلب والمبرد، وكان فقيهاً على مذهب داود الظاهري رأساً فيه. وكان بينه وبين ابن دريد منافرة، وهو القائل فيه:

ابن دريد بقره وفيه عي وشره

وله من التصانيف: إعراب القرآن. المقنع في النحو. الأمثال. المصادر. أمثال القرآن، وغيرها. ولد سنة ٢٤٤ وتوفى سنة ٣٢٣. انظر ارشاد الأريب، وبغية الوعاة. وابن النديم ٧٨.

(٢) هو أحمد بن يحيي بن يسار الشيباني البغدادي، أبو العباس ثعلب، امام الكوفيين في النحو واللغة، لازم ابن الأعرابي بضع عشرة سنة، وسمع من محمد بن سلام الجمحي وسلمة بن عاصم، وخلف، وروى عنه اليزيدي والأخفش الأصغر، ونفطويه، وأبو عمر الزاهد. وكان بينه وبين المبرد منافرات. وأشهر تصانيفه كتاب الفصيح. ولد سنة ٢٠٠ وتوفى سنة ٢٩١. انظر بغية الوعاة. وابن النديم ١١٠-١١١

(٣) هو محمد بن حبيب أبو جعفر. قال ياقوت: من علماء بغداد باللغة والشعر والأخبار والأنساب، ثقة مؤدب، ولا يعرف أبوه، وحبيب أمه. روى كتب الكلبي وقطرب، وكانت أمه مولاة لمحمد بن العباس الهاشمي. وقال ابن النديم مرة: أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو. ثم روى عن عبد العزيز الهاشمي قال كان محمد بن حبيب مولى لنا - يعني لبني العباس بن محمد وكانت أمه حبيب مولاة لنا. روى عن ابن الأعرابي وأبي عبيدة وأبي اليقظان، وله مصنفات كثيرة أشهرها نقائض جرير والفرزدق. توفى بسامرا سنة ٢٤٥. انظر ابن النديم ١٥٥ وبغية الوعاة. ومن نسبه تدرك سر اهتمامه بهذا البحث.

ذكر من نسب إلى أمه من الشعراء :

١ — (ابن شَعُوب) أمه شَعوب من خزاعة ، واسمه عمرو بن سُمَيّ بن كعب ابن عبد شمس بن مالك بن جَعْونة بن عُويرة بن شِجْع بن عامر بن ليث بن بكر بن كنانة. وهو الذي يقول :

ماذا بالقليبِ قَليب بدرٍ   من القَينات والشَّرْب الكرامِ
وماذا بالقليب قَليب بدرٍ   من الشِّيزى تكلَّلُ بالسَّنامِ
تحيِّي بالسلامة أمُّ بكرٍ   وما لي بعد قومي من سَلامِ
يخبِّرنا النبيُّ بأن سنحيا   وكيف حياة أصداء وهامِ

وله شعر كثير ، قاله وهو كافر ، ثم أسلم بعد .

٢ — و (ابن أم حَورِيّ) من بني الحارث بن همَّام ، شاعر أغار على بني يربوع ، فلحقه منهم قوم ، فقاتلهم حتى أحرز غنيمته ، وقال :

نحن بني الحارث قد آلينا   لا يُؤخذُ النهبُ الذي حوينا
أبالصياح عوَّلوا علينا   إنا إذا صِيح بنا أبَيْنا
لا نجعلُ الطَّعن بنَقْدٍ دَيْنا

٣ — و (عَطّاف بن بَشَّة[1] الشيباني) ، قال لخاله عديّ بن ضبّ :

عديَّ بنَ ضبٍّ من تكن أنتَ خالَهُ   أخا أمِّهِ تُدرجْ بلُومٍ رِكائبُه

وقال : وطالبِ وترٍ قد أبى الليلُ دونَهُ   وما سَبْقُ وترٍ أدرك اليوم أو غَدَا

وقال : أنا ابن الذي لم يُخزِني في حياته   ولم يُخزهِ عند الوفاة بلائيا

٤ — و (ابن طوعة) الشيباني ، واسمه ناصر بن عاصم[2] وأمه « طوعة » أمَة أو أُخيذة من آل ذي الجدَّين ، قال[3] :

تعطَّفَ اللُّوم على عَطَّافِ   بين بني الحارثِ والأحلافِ

٥ — و (ربيعة بن غزالة) السكندي[4] شاعرٌ حليف بني شيبان، وأمه غزالة . قال :

---

(١) في المؤتلف ٢٩٩ : « نشة » بالنون .

(٢) في المؤتلف ١٤٨ أن ابن طوعة الشيباني من آل ذي الجدين . وفصل بينه وبين ابن طوعة الفزاري ، ونسب هذا الفزاري نصر بن عاصم بن عقبة بن جصن بن حذيفة بن بدر الفزاري . وقد جعلهما ابن حبيب هنا واحداً . وانظر ألقاب الشعراء لابن حبيب ص ١٣٣.

(٣) يهجو عطاف بن نشة الشيباني كما في المؤتلف ١٤٨ .

(٤) اسمه ربيعة بن عبد الله بن ربيعة بن سلمة بن الحارث بن سوم بن عدي بن أشرس بن شبيب ابن السكون ، شاعر جاهلي أدرك الاسلام فأسلم . وينسب أيضاً « السكوني » بفتح السين ، نسبة إلى السكون بن أشرس بن ثور بن كندي . انظر الاشتقاق ٢١١ والمؤتلف ١٢٥ والاصابة ٢٧٢٧ وألقاب الشعراء لابن حبيب ص ١٤٠.

كأني إذ وضعت الرحل فيهم   بمكة حيث حلّ بها هشامُ [(١)]

٦ — و (ابن حجلة الأسدي) وهي أمه ، واسمه عبد بن مُعَرِّض، أحد بني ثعلبة ابن سعد بن دُودان من بني أسد، شاعر ، وهو الذي يقول :

من أخطتهُ ولادتنا فإنا   ولدنا سيِّد الناس الوليدا [(٢)]

٧ — و (السَّندري بن عَيْساء [(٣)] الجعفري) وهي أمه ، أمَة لشريح بن الأحوص ابن جعفر [(٤)]. وهو الذي يقول :

هل فيكم يوم كيوم جبله   يوم أتتنا أسدٌ وحنظله
والمِلكان والقطينُ أزفلَه [(٥)]   نعلوهم بقُضبٍ منتخَله
لم تعْدُ أن أفرشَ عنها الصَّقله [(٦)]

وقال : أنا لمن يسأل عني السَّندَري   أنا الغلام الأحوصيُّ الجعفري

٨ — و (حبيب بن خدرة الهلالي) خارجي [(٧)] ، كان مع شبيب ، وذكر انه أدرك الحكمين ، وبقي حتى أدرك الضحاكَ الذي أُخذ بالكوفة . وقال :

نهيتُ بني فهرٍ غداة لقيتهم   وحتى نُصيب والظنون تطاعُ
فقلت لهم إن الجريبَ وراكساً   بها نعمٌ يرعى المرارَ رتاعُ [(٨)]
ولكن فيه السم إن ريعَ أهله   وإن يأته قومٌ هناك يراعُ

وقال : تفرقتم أن تذكوا لحيّ بيضة   فظلّ لكم يومٌ إلى الليل أشنع [(٩)]

---

(١) ا : « بهاشآم » تحريف .

(٢) أخطته ، هي أخطأته ، سهل همزتها ثم عاملها معاملة المعتل فحذف الألف للجازم. ف : «أخطأته» تحريف ، صوابه في ا .

(٣) عيساء ، مؤنث الأعيس ، وأصله في الابل الأبيض يخالط بياضه شقرة ، وبه سميت المرأة . وفي ا : « عبساء » بالموحدة ، تحريف . وقد جاء على الصواب الذي أثبت في كتاب ألقاب الشعراء الملحق بكتاب أسماء المغتالين من الأشراف لمحمد بن حبيب ، المحفوظ في دار الكتب المصرية برقم ٢٦٠٦ . انظر منه ص ١٣٤ وكذا الأغاني (١٥ : ٥٣).

(٤) في المؤتلف ١٢٥ أنه السندري بن يزيد بن شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، وهو ينسب أيضاً « الكلابي » . وفي الأغاني ان « عيساء » اسم جدته.

(٥) الأزفلة : الجماعة من الناس

(٦) أي لم تجاوز أن أقلع عنها الصقلة . والرجز منسوب في اللسان (٨ : ٢٢١) الى يزيد بن عمرو ابن الصعق ، وفي معجم البلدان إلى رجل من بني عامر .

(٧) في القاموس : « حبيب بن خدرة تابعي » .

(٨) الجريب : واد كانت به وقعة لبني سعد بن ثعلبة . وفي الأصل : « الحريب » بالحاء ، تحريف . وقد أنشد هذا البيت ياقوت ونسبه إلى عمرو بن شأس الكندي . وعجزه عنده : « به إبل ترعى المرار »

(٩) صدر البيت محرف ، وموضع كلمة : « تذكوا » بياض في ف .

وقال: أصاحِ ترى بريقاً هبَّ وهنا يؤرِّقني وأصحابي هجودُ

٩ — و (ابنَ عَيْزرة الهذلي) وهو قيس بن خويلد[1] ، شاعر . قال :

لعمرك أنسى روعتي يوم أقتدٍ وهل تتركاً نفسَ الأسير الروائعُ

وقال: يا حارِ إني يا ابن أمَّ عميدُ كمدٌ كأني في الفؤاد لهيدُ

١٠ — و (قُطبة بن الزِّبعرا)[2] . وهي أمه . وهو قطبة بن زيد بن سعد بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مالك بن كنانة بن [القين بن] جسر ، شاعر قال :

حميتُ القوم قد علمت معدٌّ ومَن للقوم من مولىً وجارِ
حبوتُ بها قضاعة إنّ مثلي حقيقٌ أن يذبّ عن الذمارِ
ولستُ كمن يغمّز جانباه كغمز التّين تجنيه الجواري

وكان قطبة سيّد قضاعة في الجاهلية وأول الاسلام .

١١ — و (قيس بن الحُدادية) وهي أمه ، من محارب ، حضرمية[3] . وله شعر . قال ابن الأعرابي : حداد من كنانة . وهو الذي يقول :[4]

أنا الذي أطرده مواليه وكلهم بعد الصفاء قاليه

١٢ — و (عمرو بن الصماء الخزاعي) له شعر ، قال في حرب بينهم وبين كنانة :

إلاّ تعاجلني النية أستقد مقاد جيادي من عُمير ومعبد
ولو أدركتْ خيلي عُميراً ومعبدا ونُبهان ما آبوا بنا فلّ بعدي
لكانوا لأطراف القنا أو لنازعوا إلى الحيّ أعناق المطيّ المعضّد[5]

١٣ — (وعياض بن أم شهمة[6] الخزاعي) إسلامي قال :

....

(١) هو قيس بن خويلد بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة ، أخذته منهم وأخذ تأبط شرا سلاحه ، ثم أفلت قيس ، وأنشد أبياتاً رواها المرزباني في المعجم ٣٢٦ وأولها هذا البيت الذي رواه ابن حبيب .

(٢) كذا في أ لكن في ب : « الزبعرا » وأصلحها الناسخ : « الزعيرا » وظني أنها « الزبعراة » .

(٣) هو شاعر جاهلي فاتك صعلوك خليع ، خلعته خزاعة بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها اياه ، فلا تحتمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه . وهو قيس بن منقذ بن عمرو بن عبيد بن ضاطر ابن صالح بن حبشية بن سلول . انظر الأغاني (١٣ : ٢ — ٨) : وبنو حداد بضم الحاء وتخفيف الدال . انظر الاشتقاق ٢٧٧ وقد نسبه « قيس بن عمرو بن منقذ » . وفي ألقاب الشعراء لابن حبيب أن أمه من محارب بن خصفة . انظر ص ١٣٩ .

(٤) قاله في الوقعة التي قتل فيها ، وهو يشير إلى ما كان من خلع قومه أياه .

(٥) ب : « كأطراف القنا » . وقد اختلفت ضروب الأبيات فأتى أوسطها صحيحاً بين ضربين مقبوضين .

(٦) في معجم المرزباني ٢٦٩ : « عياض بن أم سهمة » بالسين المهملة .

هاجتك أطلالٌ ومُبتركٌ قفرُ خلا منذ أجلى أهلها حججٌ عشرُ(١)

١٤ — و(العريان بن أم سهلة النبهاني) وهو من طيِّىءٍ . قال :

لمن الديار غشيتها برماحِ فصمايتين فجانب السِّرداحِ

فجنوب فيخان كان رسومها حُللٌ يمانيةٌ على ألواحِ

١٥ — و(ابن السَّجراء) من حُرَقة جهينة . قال : وحرقة هم بنو خميس بن عامر بن مودوعة من جهينة ، كانوا حلفاء للحصين بن الحمام السهمي من بني سهم بن مرة ، وبشامة ابن الغدير السهمي . قال ابن سجراء يوم دارة موضوع :

لما أتانا جمعُ قيس وواجهت كتائب خرس بينهنَّ زفيفُ

فلما علت دعوى خميس بن عامر وقد كلَّ مولانا وكاد يحيفُ

هممنا به ثم ارعوينا حفيظة فذلَّ بنا غاشٍ وعزَّ حليفُ

١٦ — و (حميد بن طاعة السكوني(٢)) قال :

ولما استقلَّ الحي في رونق الضحى قبضن الوصايا والحديث المجمجما

وكان لمُوحٌ من خصاصٍ ورقبةٌ مخافة أعداء وطرفا مقسَّما

ولما لحقنا لم يقل ذو لبانة لهم ولا ذو حاجة ما تيمما

من البيض مكسال إذا ما تلبست بعقل امرىء لم ينج منها مسلما

وقال لعمر بن الخطاب :

إنك مسترعًى وإنا رعيَّةٌ وإنك مدعوٌّ بسيماك يا عمرْ

لدى يوم شرٍّ شرُّه لشراره وخيرٌ إن كانت معائشه الخِيَر(٣)

وقال : ما إن رأينا مثلك ابن الخطاب أبرَّ بالدين وبالأحساب

بعد النبي صاحب الكتاب

١٧ — و(ابن الدمينة الخثعمي) واسمه عبد الله . وله شعر كثير(٤) .

١٨ — و(يزيد بن ضَبَّة) أمه ضَبَّة(٥) ، وأبوه مقسم ، وهو كثير الشعر ، وهو

---

(١) في الأصل : « حاجتك » محرف . وفي المرزباني : « ومنزلة نفر »

(٢) جعله الآمدي في ص ١٤٩ : « الشكوى » ، نسبة إلى « شكو » بفتح الشين وسكون الكاف ، وهو أبو بطن .

(٣) ا : «معائيشه » معائيش : جمع معيشة ، وفيها شذوذان ، همز الياء الأولى ، وإلحاق الياء الثانية وإلحاقها مذهب للكوفيين يجيزونه . وأثبت ما في ب .

(٤) انظر الاغاني (١٥ : ١٤٤ — ١٥٠) .

(٥) في ا : « ضنة » ، بالنون وفي ب : «ضنة» لكن أصلحت في النسخة فجعلت : « ضبة » بالباء .

مولى لثقيف . وهو الذي يقول :

مشيُ البريّ مع المقارف تهمة ويُرى البريّ مع السقيم فيُلطخُ

وهو الذي يقول :

صبا قلبي إلى هند وهند مثلها يصبي

١٩ — و (ابن الطَّثرية [١]) وهو ابن عبيد بن عمرو بن الحارث بن كعب بن سعد ابن زيد مناة بن تميم [٢] ، وهو الذي يقول :

ألا عتبت عليَّ وصرّمتني وأعجبها ذوو اللمم الطوالِ
فاني يا ابنةَ السعدي أربي على فعل الوَضيِّ من الرجالِ

٢٠ — و (ابن فسوة) فهو عُتيبة بن مرداس الكعبي [٣] . وإنما قيل له ابن فسوة لأنه نزل بهم رجل من عبد القيس يقال له ابن فسوة ، فكان يعيَّر به . فقال له مرداس : أنا أشتريَ منك هذا الاسم بكبش ، فاشتراه ، فقال [أخو] عتيبة : [٤]

حوّل مولانا علينا اسم أمه ألا ربَّ مولىً ناقص غير زائدِ

٢١ — و (ابن الهيجُمانة العبسي) لم نعرفه ، وذكر أنّ الهيجمانة بنت العنبر بن عمرو بن تميم .

٢٢ — ومن شعراء ربيعة (ابن أم الحزنة العبدي) وأم حزنة أمه ، وهو ثعلبة بن حزْن بن زيد مناة بن الحارث بن ثعلبة بن سُليمة بن مالك بن عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لُكيز بن أفصى بن عبد القيس . وله شعر كثير .

٢٣ — و (عمرو بن مبردة) ، عبدي . [٥]

٢٤ — و (ابن الذيبة) وهي أمه ، امرأة من فهم ، واسمه ربيعة بن عبد ياليل ، واسم الذيبة قِلابة ، فلقبت الذيبة . وهو الذي يقول :

---

(١) الطثرية : أمه ، من بني الطثر ، بالفتح ، وهم حي من اليمن . قال ابن خلكان : « الطثرية بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة » . وضبطها صاحب القاموس بالتحريك ، والوجه الاسكان كما جاءت مضبوطة به في نسخة ليدن من الشعراء . انظر شرح الحيوان (٦ : ١٣٧).

(٢) كذا ورد في النسختين ، وهذا النسب يخالف ما في كتب التراجم ، فلعل في الكلام سقطاً .

(٣) في الأغاني (١٩ : ١٤٣) وكذلك ألقاب الشعراء لابن حبيب ص ١٢٨ـ ١٢٩ : « عيينة » . ويدل على صواب ما هنا قول ابن قتيبة في الشعراء : « هو عتيبة ويقال عتبة » .

(٤) التكلة من كني الشعراء لابن حبيب ص ١٢٩ .

(٥) ذكره المرزباني في المعجم ٢٤٠ وقال : « هو أحد بني محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس ... وهو إسلامي أنشد عبد الملك بن مروان لما استبق بنوه فسبق مسلمة — وكان ابن أمة — :

«نهيتكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدركوا »

إني لمن أنكرني ابن القديه كريمة عفيفة منسوبه

٣٥ — و (شبيب بن البرصاء[1]) ، وهي أمه . وهو شبيب بن يزيد بن جمرة[2] بن عوف بن أبي حارثة ، وأمه القرضابة بنت الحارث بن عوف بن أبي حارثة ، وأختها عمرة بنت الحارث أم عقيل بن علّفة[3] . وهو الذي يقول :

قامت وأعلى خلقها في ثيابها قضيبٌ وما تحت الازار كثيبُ

وقال: لا خير في العيدان إلاّ صلابها ولا ناهضات الطير إلاّ صقورُها

تبيّنُ أدبارُ الأمور إذا انقضت وتقبل أشباهاً عليك صدورُها

٣٦ — وبعض (بني أم قرفة) وأم قرفة اسمها فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزاري ، وأبوهم مالك بن حذيفة بن بدر تزوج ابنة عمه .

٣٧ — و(ابن ميادة المري) من بني غيظ بن مرة ، واسمه الرماح بن الأبرد بن ثريان[4] كثير الشعر . وهو الذي يقول :

اعرنزمي ميّاد للقوافي واستسمعيهنّ ولا تخافي[5]

وقال : ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة بحرّة ليلى حيث ربّتني أهلي

وهل أسمعنّ الدهر أصوات هجمة تطالع من هجل قريب الى هجل[6]

يقال ربيت الصبي أربه ربا فأنا رابّ وهو مربوب ، وربيته أربّيه تربية فأنا مربّ وهو مربى ، وربّبته أربّبه ترببياً فأنا مربّب وهو مربَّب . ويقال رَبيت في بني فلان وربوت فيهم وتربيت وتربّبتّ ، كله فصيح مقبول .

٣٨ ـ و (بشامة بن الغدير) وهي أمه ، وهو بشامة بن عمرو بن هلال[7] بن وائلة بن

---

(١) قال ابن دريد : « كان النبي صلى الله عليه وسلم خطب البرصاء إلى أبيها فقال : إن بها سوءاً — وهو كاذب — فرجع فوجد بها برصاً » وسماها ابن حبيب في ألقاب الشعراء ١٣٢ « أمامة بنت الحارث بن عوف » .

(٢) ويقال : «حزة» ويقال : « خمرة » . انظر حواشي الاشتقاق ١٧٦ . وفي ألقاب الشعراء ١٣٢ : «حيوة» .

(٣) في الأصل : «علقمة» وهو تحريف . انظر حواشي الاشتقاق .

(٤) في الاغاني «أبرد بن ثوبان» وفي المؤتلف « ابرد بن ثريان» . وفي معجم البلدان : « الرماح ابن يزيد وقيل ابن الأبرد » . وفي ألقاب الشعراء ١٣٢ : « الرماح بن الأبرد بن مرداس » .

(٥) الاعرنزام : الاجتماع والتقبض . وفي الاصل : «أعزترحي» والصواب فيما أثبت كما صححت بذلك في ب. وفي ا : «واستسمهن» ، محرفة .

(٦) في معجم البلدان (٣ : ٢٦٠) : « من هجل خصيب » . وروى ياقوت هذين البيتين في خمسة أبيات قالها ابن ميادة حين استخلف الوليد بن يزيد بن عبد الملك فاستقدمه وأقام عنده دهراً ثم اشتاق إلى وطنه .

(٧) في الأصل : « ملاك» والصواب ما أثبت . وانظر المؤتلف ٦٦ ، ١٦٣ والمفضليات (١ : ٥٣ طبع المعارف) .

سهم بن مرة . كثير الشعر . وهو الذي يقول :

فإنكم وعطايا الرها ن إذ جرّت الحرب جلاً جليلا
كثوب ابن بيض وقاهم به فسد على السالكين السبيلا (١)

٢٩ — وأخوه (أسعد بن الغدير) شاعر ، وهو خال أبي سلمى (٢) زهير بن أبي سلمى الشاعر .

٣٠ — و (زميل بن أم دينار) أبوه أبير بن عبد مناف ، من مازن بن فزارة ، وهو قاتل ابن دارة . وابن دارة اسمه سالم بن مسافع بن عقبة بن يربوع . هو دارة القمر ، سمي دارة ، شبه بدارة القمر لحسنه ، وهو من بني عبد الله بن غطفان . وزميل الذي يقول :

أبلغ فزارة أني قد شريت لهم مجد الحياة بسيفي بيع ذي الخلق
وقال : انا زميل قاتل ابن داره وكاشف المخزاة عن فزاره
ثم جعلت عقله البكاره

٣١ — و (قعنب بن أم صاحب الفزاري (٣)) وهو الذي يقول :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدرُ

وهو الذي هجا الوليد بن عبد الملك فقال :

فقدت الوليد وأنفاً له كَشِيلِ البعير أبى أن يبولا

٣٢ — (وابن أم حزنة) (٤) وأم حزنة أمه وهو ثعلبة بن حزن بن زيد مناة بن الحارث ابن ثعلبة بن سليمة (٥) بن مالك بن عامر بن الحارث بن [أنمار بن عمرو بن] وديعة بن لكيز ابن أفصى . شاعر ، وهو الذي يقول :

نهيتكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدركوا

٣٣ — و (بشر بن شلوة التغلبي) وشلوة أمه . وهو بشر بن سوادة (٦) . وهو الذي

---

(١) انظر شرح البيتين في المفضليات (١:٥٨) .

(٢) أبو سلمى كنية زهير بن أبي سلمى ، كما في كنى الشعراء لابن حبيب ص ١٢٣ من مصورة دار الكتب . وقد زاد الشنقيطي كلة : « أبي » قبل « زهير » فلم ينتبه إلى ما ذكرت .

(٣) هو قعنب بن ضمرة ، أخو بني سحيم بن عمرو بن خديج بن عوف بن ثعلبة بن بهثة كما في ألقاب الشعراء ص ١٣٣ . وقيل : أحد بني عبد الله بن غطفان ، وكان في أيام الوليد بن عبد الملك . انظر شرح التبريزي للحماسة (٤ : ٢٤) .

(٤) هذا تكرار لما سبق في رقم ٢٢ .

(٥) كذا ضبطت في الأصل بالضم . وفي الاشتقاق ٢٩٢ بفتح السين .

(٦) انظر المؤتلف ٦٠ . وضبطت « شلوة » في الأصل هنا بالفتح . وقال ابن حبيب في ألقاب الشعراء ١٣٦ : « أخو بني مالك بن بكر بن حبيب » .

يقول في يوم ذي قار ، وكان مع الفرس :

لما سمعت نداء مرة قد علا وأبو ربيعة في الغبار الأقتم

٣٤ — و (ابن الواقفية [1] السدوسي) ينسب إلى أمٍّ من أمهاته . وهو عبد الله ابن عبد العزي كليب [2] بن الحارث بن سدوس ، شاعر قال :

أتاني عن أبي بكر ألوك يخب بها المبين والنذير

وقال: ألمَّ خيال العامرية موهناً خيال بأعلى حضرموت غريبُ

أرى المرء أمسى للحوادث غاية نوائبه تغتاله فيصوبُ

وقال يهجو ابن عنمة الضبي [3] :

إن الشاعر الضبي عبد كزائدة النعامة مستعارُ

وقال يمدح الحوفزان [4] :

لمن الديار بجانب الغمر آياتهنَّ كواضح السطر

يا حار أعطاك الإله كما أثنى عليك أخو بني جسر

فلأنت أكسبهم إذا افتقروا ولأنت أجودهم إذا تثري

٣٥ — و (ابن دغماء العجلي) أمه دغماء بنت مرة ، أخت جعونة بن مرة ، وهو الذي يقول لسويد بن حطان ، وكان سويد الضبعي نزل في بني عجل فانتسب إلى مرة أبي جعونة [5] فقال أنا سويد بن حطان بن مرة ، فقال ابن دغماء :

لعمرك ما أدري وإني لسائل سويد بن حطان بمتّ وما أدري

---

(١) في الأصل : « الرافقية » . تحريف ، وهي بالواو نسبة إلى بني واقف ، وهم بطن من الأنصار ، وواقف لقب مالك بن امرىء القيس . انظر القاموس (وقف) والاشتقاق ٢٦٥ وانظر ابن قتيبة في المعارف ص ٥٠ .

(٢) كذا في الأصل . ولعله : « من بني كليب بن الحارث بن سدوس» .

(٣) هو عبد الله بن عنمة بن حرثان بن ثعلبة بن ذؤيب بن السيد بن مالك بن بكر بن سعد ابن ضبة . « وعنمة » بفتح العين المهملة والنون والميم . وفي أ : « غنمة » محرف . قال البغدادي : «الظاهر أنه من المخضرمين » . الخزانة (٣: ٥٨٠) .

(٤) الحوفزان لقب له ، واسمه الحارث بن شريك بن مطر ، قالوا : «وإنما سمي الحوفزان لأن قيس بن عاصم اقتلعه عن سرجه بالرمح . وكل ما قلعته من موضعه فقد حفزته » الاشتقاق ٢١٥ .

(٥) في الأصل : « مرة بن أبي جعونة» وكلمة « بن» مقحمة .

سوى أنكم دربتم فجربتم على دربة والضب يختل بالتمر (١)
فما أنتم منا ولا نحن منكم دعاوة كذب أنتم آخر الدهر

فغضب جعونة خال ابن دغماء ، فقال :

ان ابن دغماء الذي حدثته بيض الدجاجة لا يحس له أب
إلاّ الرماد فإنها اعتركت به بين الرماد وبين أمك تنسب (٢)

٣٦ — و (عبد المسيح بن عسلة الشيباني) أمه عسلة بنت عامر بن شراكة من غسان ، إليها ينسبون(٣) وهو شاعر . قال :

يا كعب إنك لو قصرت على حسن الندام وقلة الجرم
لصحوت والنمري يحسبها عم السماك وخالة النجم (٤)

٣٧ — وأخوه (حرملة بن عسلة) قال له المنذر بن ماء السماء : اهج الحارث بن أبي شمر . فقال :

ألم تر أني بلغت المشيب في دار قومي عفتا كسوبا (٥)
وأنّ الإلـه تنصفتـه بألاّ أعقّ وألاّ أحوبا
وألاّ أكافر ذا نعمـةٍ وألاّ أخيبـه مستثيبـا
وغسّان حيّ همُ والدي فهل ينسينهم أن أغيبا
فأَرْ بها بعض من يمتريك فإنّ لها من معدٍّ كليبا

---

(١) رواه الجاحظ في الحيوان (٦ : ٦٢) : « يحبل بالتمر » وقال : «فجعل صيده بالتمر كصيده الحبالة» . والضب والعقرب يعجبان بالتمر عجباً شديداً .

(٢) مما يزعم العرب أن بيض الطير يتولد حيناً من التراب ومن الريح . قال الجاحظ في الحيوان (٣:١٧١)) : «والبيض الذي يتولد من الريح والتراب أصغر وألطف ، وهو في الطيب دون الآخر . ويكون بيض الريح من الدجاج والقبج والحمام والطاوس والاوز » . !

(٣) أما أبوه فهو حكيم .بن عفير بن طارق بن قيس بن مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ابن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل . انظر المؤتلف ١٥٧ وشرح الأنباري للمفضليات ٥٥٦ وما ورد من التحقيق فى المفضليات (٢:٧٨ طبع المعارف) .

(٤) انظر لفهم هذا البيت ما ورد في جو المفضليات.وفي الأصل : «والنمري يحسبه * عم السماك وخاله النجم » وهو تحريف .

(٥) رواية الخزانة (٤:٢٣٠) : « بلغت المشيبا * وفي دار قومي » .

فانبرى عمارة بن العيّف العبدي (١) من سليمة بن عبد القيس ، وهم حلفاء في بني شيبان في بني سعد ، فقال :

لا هم إنَّ الحارثَ بن جبله عقَّ أباه ظالماً وقتله
وأيَّ فعل سيئ لا فعله (٢)

٣٨ — و (عِتبان بن وَصيلة) وهي أمه (٣) . وهو عتبان بن شراحيل بن شريك ابن عبد الله بن الحصين بن أبي عمرو بن عوف بن مرة بن ذهل بن شيبان

٣٩ — و (عمرو بن الإطنابة) وهي أمه (٤) ، وهو الذي يقول :

قرت أحسابنا كرماً فأبدت لنا الضراء عن أدمٍ صحاحِ
ولم يُظهر لنا عَثَراتِ سوء جودُ القطر أو بكء اللقاحِ

[في ختام نسخة (ا) تجز الكتاب والحمد لله رب العالمين . نقلت جميعه من نسخة نقلت جميعها من خط أبي الفتح عثمان بن جني وصححها رضي الدين الشاطبي رحمهما الله.

وفي نسخة (ب) : « قال في أصل هذا : تجز الكتاب . . الخ » وزاد : « وتجزت هذه النسخة في يوم الاثنين المبارك ١٤ صفر الخير سنة ١٣٠٠ بالمدينة المنورة رحم الله كاتبها ومستنسخها والمسلمين أجمعين].

عبد السلام محمد هارون

---

(١) ينسب الرجز أيضاً إلى «شهاب بن العيف» . وفي نسخة البغدادي من كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء : «عامر بن العيف» . (انظر الخزانة ٤ : ٢٣١)

(٢) انظر رواية الرجز وتمامه في الخزانة.

(٣) عتبان ، بكسر العين ، ووصيلة بفتح الواو . انظر الاشتقاق ٢١٦ . وفي معجم المرزباني ٢٦٦ : «عتبان بن أصيلة ، ويقال وصيلة ، الشيباني. وأصيلة أمه وهي من بني محلم». وأورد من شعره قوله لعبد الملك ابن مروان :

فبلغ أمير المؤمنين رسالة وذو النصح لو برعي إليه قريب
بأنك إلا ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب
فإن يك منكم كان مروان وابنه وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنا سويد والبطين وقعنب ومنا أمير المؤمنين شبيب

وللبيت الأخير قصة يتداولها الرواة .

(٤) عمرو بن الاطنابة شاعر جاهلي . وأمه الاطنابة بنت شهاب بن زبان ، من بني القين بن جسر وأبوه عامر بن زيد مناة بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج . انظر المرزباني ٢٠٣ والكنى والألقاب لابن حبيب ١٣٩ . وأصل الاطنابة سير يشد في وتر القوس العربية لتحزق به . الاشتقاق ٢٦٨

فيلسوف العرب

والمعلم الثاني

تأليف الاستاذ مصطفى عبد الرازق باشا الرئيس الفخري للجمعية الفلسفية . والكتاب من منشورات الجمعية الفلسفية المصرية ، ويقع في ١٢٦ صفحة من القطع الكبير ، ونشرته دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .

صدّر هذا الكتاب بعبارات غاية في الجودة ، إذ أشار حضرة رئيس الجمعية الدكتور علي عبد الواحد وافي ، وسكرتيرها العام الدكتور عثمان أمين إلى تهيب الناس من قراءة الفلسفة أخذاً منهم بفكرة فيها تجانب الصواب ، إذ خيل اليهم أن الفلسفة ترادف في اللغة الكلام الغامض والأقوال المبهمة والصيغ المعقدة والأفكار المجردة . جاء في ذلك التصدير :

«ولعلّ السبب في تهيب الناس لبحوث الفلسفة أن بعض المشتغلين بها قديماً وحديثاً قد عمدوا الى التعمية والابهام ، فصاغوا موضوعاتها في مصطلحات وعبارات غريبة ، وألقوا بذلك على حقائقها حجباً وأستاراً ، وبعدوا بها عن الحياة والواقع» .

« وإذا أراد الله بالفلسفة خيراً ألهم أهلها أن يسلكوا سبيلاً أخرى ، فيعنوا بالشئون الانسانية ، وبالأمور التي يتجه اليها التفكير في كل زمان ومكان ، ويعالجوا بحوثهم في أسلوب سائغ جذّاب يفتح باب الفلسفة على مصراعيه لجمهور المثقفين » اهـ ..... وهذه فاتحة مباركة إن شاء الله .

القصد من النقد المقابلة والتحليل ، وأساسه حرية الفكر . عنصران يقوم عليهما النقد الصحيح ، فاذا استطاع الناقد أن يتجرد مع هذا من أحاسيس التحامل والتحيز ، جاء نقده أقرب ما يكون إلى الغاية المرجوة من النقد ، وجاءت أحكامه أوفى ما يمكن من الترجيحات المعقولة . ذلك بأن ارسال الاحكام القطعية، سواء أفي الفلسفة، أم النقد، ارسالاً لا تبرره المعلومات التي يقوم عليها الحكم ، هي من الأشياء التي أغمضت الفلسفة وأعمت النقد. لهذا نقتصر في نقد هذا الكتاب على جزء منه هو الخاص بالكندي فيلسوف العرب ، ثم نعود في عدد آخر الى نقد بقية أبواب الكتاب ، فان الفراغ والوقت لا يأذنان لنا بأكثر

من ذلك ، وقيمة الكتاب وقيمة مؤلفه ، تقضيان علينا بالنظر فيه نظراً يكون الى التقدير الصحيح جهد المستطاع .

يظهر لنا جليًّا من هذا الكتاب أن الكندي ، فيلسوف العرب ، قد ظلم حيًّا وميتاً . ظلم حيًّا لأنه أول فيلسوف من العرب اشتغل بالعلوم والآراء الأجنبية ، وكانت وقفاً على غير المسلمين من حرانيين وسريان ويهود حتى زمان ظهوره وأخذه بما لم يعتد العرب الاشتغال به من أشياء العقل . وظلم ميتاً لأن آثاره قد ضاعت فلم يبق منها ما يمكن أن يتخذ ركيزة لبحث يظهرنا على أصل حكمته . فكان بذلك أول عربي واجه العاصفة ، عاصفة الآراء التي قامت في عصره ، فألقته صريعاً وتركته في حياته موضع سخرية أهل الفراغ ، وبعد مماته موضع العطف من الأخلاف الذين لم يجدوا أمامهم من شيء يصلحون به ما أفسد الدهر من أمر الكندي ، الاّ رحمة من الله يستمطرونها عليه .

ان تضارب أقوال المصادر القديمة عن الكندي متناقضة ، وتحليلها والمقارنة بينها من أصعب الأشياء ، فهي نتف وعبارات مقتضبة لا تزوّدك بشيء اللهمّ إلاّ بفكرات متناثرة لا يصح أن تتخذ أساساً لنقد مستفيض قائم على نصوص شاملة

تقرأ في كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » : « ومما اشتهر من كتب بطليموس وخرج الى العربية كتاب الجغرافيا في المعمور من الأرض . وهذا الكتاب نقله الكندي الى العربية نقلاً جيداً ويوجد سريانيًّا » . وفي كتاب طبقات الأطباء نقلاً عن أبي معشر : « حذّاق الترجمة في الاسلام أربعة : حنين بن اسحق ، ويعقوب بن اسحاق الكندي ، وثابت بن قرة الحراني ، وعمر بن الفرخان الطبري » . وفي الفهرست لابن النديم : « فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها » . ويقول صاحب كتاب أخبار الحكماء : « المشتهر في الملة الاسلامية بالتبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية » (انظر ص ٢٢)

وتقع في الكتاب على ما يناقض هذا تماماً . ففي ص ٢١ إن الكندي كان « يقتحم غمار الفلسفة وما اليها من العلوم المنقولة عن يونان وفارس والهند ، ولا يجد فيما يترجمه النقلة غنى ، فيحاول إن يَردَ هذه العلوم في منابعها ، ويتعلم اليونانية ، ويترجم بها ويصلح ما يترجمه غيره ، ويتصل بالثقافة اليونانية اتصالاً ظاهر الأثر في عواطفه وتفكيره » ..... حسن جدًّا . فهذا خبر مستوى الأجزاء . ولكن اقرأ ما يليه :

« قال المسعودي في مروج الذهب — وقد كان يعقوب الكندي يذهب في نسب يونان إلى ما ذكرنا : انه أخ لقحطان ويحتج لذلك بأخبار يذكرها في بدء الأشياء ، ويردها من حديث الآحاد والأفراد ، لا من حديث الاستفاضة والكثرة . وقد ردّ عليه أبو العباس .

عبد الله بن محمد الناشي في قصيدة طويلة ووكّد خلاطه نسب يونان بقحطان جاء فيها :

وتخلط يونانًا بقحطان ضلّةً   لعمري لقد باعدت بينهما جدًّا

ومقابلة النقد هنا تظهرك على أشياء هي غاية في التناقض . فيلسوف يشتغل بحكمة اليونان وكان « يقتحم غمار الفلسفة وما يليها من العلوم المنقولة عن يونان وفارس والهند » — وقد تعلّم اليونانية وترجم بها وأصلح ما ترجمه غيره، يقول إن يونان أخ لقحطان، وشاعر يصحح له ما أخطأ فيه ! وكيف يتفق لمن لا يعرف أن يونان شيء وقحطان شيء آخر ، هذا أعجمي وذلك عربي ، ان يكون عارفاً باليونان وعلومهم ؟ والظاهر أن كثيراً من أهل العربية ، ومنهم الكندي ، كانوا يعتقدون أن يونان شخص لا قبيلة . وذلك يدل عقلاً على ان علمهم بتاريخ اليونان كان قريباً من لا شيء .

وجاء في ص ٢٤ : « ومع ممارسة الكندي للأدب وما إليه حتى قال صاحب كتاب « اخبار الحكماء » — وخدم الملوك مباشرة بالأدب — وحتى نقلوا عنه حكايات في نقد الشعر وفي الجدل في أسرار البلاغة العربية، وحتى ذكروا له أن له كتاباً في صنعة البلاغة، مع ذلك فان الأدب لم يكن هو الميدان الذي ظهرت فيه مواهب الكندي وآثار عبقريته » .

ومع إننا لم نقع على موضع واحد في الكتاب ظهرت فيه آثار عبقرية الكندي في غير مجال الأدب ، فان في صحيفة ٢٦ ما يدلك على انه لم يكن بليغاً ولا أديباً في العربية : جاء ما يلي :

« روى عن ابن الانباري انه قال : ركب الكندي المتفلسف الى أبي العباس وقال له : إني أجد في كلام العرب حشواً . فقال له أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم : والألفاظ متكررة والمعنى واحد . فقال ابو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ : فقولهم عبد الله قائم : إخبار عن قيامه ، وقولهم : إن عبد الله قائم : جواب من سؤال سائل ، وقولهم ان عبد الله لقائم ، جواب عن إنكار منكر لقيامه . فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني ، قال : فما أحار المتفلسف جواباً » .

فكيف يتفق لمن لا يعرف مثل هذه المعاني الأساسية البسيطة في العربية، أن يكون ممارساً للأدب وصناعة البلاغة ؟ ولكن الظاهر اجمالاً ان الكندي بحكم أنه أول فيلسوف مسلم اشتغل بعلوم الأعاجم ، وأنت تعلم ماذا كانت الأعاجم في نظر العرب المسلمين ، قد حيكت من حوله شبكة من الدسائس ودبرت مؤامرة ، جائز أن تكون بقصد ، ولكن أكثرها كان بفعل عكسي من أفعال الوعي الديني قام في ذهن الناس في عصره ، فلفقت هذه الروايات عنه

جنة الشوك

وصل اليّ ذلك الكتاب وعليه هذه الكلمات « الى مجلة المقتطف » وتحت هذه العبارة طبعة خاتم مطموسة لا تعرف لمن ؛ ولكن يتبيان من وصفها تحت العدسة المكبرة انها للاستاذ طه حسين . وليس هذا اهداء ؛ وانما هو أمر يصدره طه حسين لمجلة « المقتطف » او لغيرها من المجلات او الصحف ؛ والظروف تمر بما يختفي وراء هذه العبارة من أوهام ، وكلها اوهام تثير في النفس العاقلة دواعي الابتسامات المرة .

قرأت في سنة ١٩١٣ بحثاً في ملحق جريدة التيمس الادبي عن محاضرة ألقاها الفيكونت هولدين اوف كلون حامل أختام الملك في بريطانيا العظمى عنوانها « القومية السامية » Higher Nationality . فاستهواني ذلك البحث ورغبني في الاطلاع على اصل المحاضرة فبحثت عن نسخة منها في جميع مكاتب القاهرة وكتبت أطلبها من الناشر فلم أفز بطائل . فكرت أن أكتب للفيكونت نفسه فجاءني منه نسخة عليها اهداء هذا نصه : « الى المحترم . . . أرجو أن تتقبلوا هذه الهدية المتواضعة من خادمكم المطيع : هولدين أوف كلون » وجاءني مع النسخة خطاب فيه بيان عن معنى كلمة المانية اضطر أن يستعملها بحرفها الالماني هي كلمة Sittlichkeit لانه لم يجد ما يقابلها في لغته ، وخشي أن يكون قد أوجز في بيانها ، فجاء بكتابه يزيدني بها شرحا وتعريفا .

وكذلك ترى ان المقابلة بين اهداء « جنة الشوك » للاستاذ طه حسين واهداء « القومية السامية » للفيكونت هولدين أوف كلون ، حامل أختام المملكة المتحدة البريطانية ، ومن أعاظم أدباء عصره وعلمائهم ، مما يثير في النفس العاقلة مرة ثانية ، دواعي الابتسامات المرة .

وسوف ننظر في هذا الكتاب ونقدره ، بالنقد الحر ، التقدير اللائق به وبمؤلفه ، ولن يكون لتلك الدواعي التي تثير هذه الابتسامات ، من أثر في نقدنا . ونود قبل أن نقدم على نقده ، أن نصف هذا الاهداء المصبوب في قالب أمر الى مجلة المقتطف ، فنقول فيه كلمة ، ملخصها انه يدل على إرتكاس سببه وعي باطن ، يحتاج إلى علاج .

تلفيقاً قُصِد به التأثير في موضعه من العلم ومنزلته من المجتمع ، ردّاً لأثره الفلسفي وقعوداً به عن الذيوع بين الناس . فينبغي اذن أن نأخذ كل ما يروى عن الكندي من مثل هذا بتحفظ شديد .

مثالنا على ذلك رواية الجاحظ عنه في البخلاء . جاء فيها .

وحدثني عمرو بن نهيوي : قال تغديت يوماً عند الكندي فدخل عليه رجل كان له جاراً ، وكان لي صديقاً ، فلم يعرض عليه الطعام ونحن نأكل . وكان أبخل من خلق الله . قال

فاستحيت منه : فقلت : سبحان الله لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل : قال : قد والله فعلت . فقال الكندي ما بعد الله شيء . قال عمرو : فكتفه والله كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، وتركه ولو مدَّ يده الى الطعام كان كافراً ، ولكان قد جعل مع الله جل ذكره شيئاً » .

والذي نعتقده ان أكثر الروايات التي رواها الجاحظ في البخلاء مختلقة اختلاقاً أو كانت نكاتاً سائرة على الألسن فصاغها الجاحظ بقلمه المر ، ونسبها الى أعدائه . وكان معتزليًّا ، وأعداء المعتزلة كثيرون .

***

ينفي عن الكندي ذلك رواية أخرى (ص ٣٦) فقد روى الشهرزوري عن الكندي «من ملك نفسه ملك المملكة العظمى ، واستغنى عن المؤن . من كان كذلك ارتفع عنه الذم وحمده كل واحد ، وطاب عيشه » .... فكيف نوفق بين من يقول هذا وبين رواية الجاحظ ، والبخيل لا يملك نفسه ؟ أما إذا صحت رواية الجاحظ فالكندي ممن لا يؤمنون بالحكمة ، لأن من آمن بالحكمة كانت له فلسفة ، ومن يكون له فلسفة ، طبق نظرها على الفعل .

ومما يؤيد مذهبنا في الروايات التي رواها الجاحظ في البخلاء ما جاء في ص ٣٧ إذ يقول المؤلف :

« لا جرم كان الجاحظ يسخر من الكندي ويشنع عليه لبعد ما بين طباعيهما وبعد ما بين سبلهما في الحياة . وكان الجاحظ بصريًّا ، وكان الكندي كوفيًّا ، وبين أهل البلدين عداوة وتنافس . والجاحظ معتزلي ، ولم يكن يسلم من لذعاته إلاَّ من تحرَّم بحرمة الكلام »

مما يوصف بأكثر ما نقل عن الكندي من أمثال كلام الجاحظ وغيره ، عبارة نقلها المؤلف في ص ٣٩ : وقال يوماً لجارية كان يهواها : إني أرى فرط الاعتياصات من المتوقعات على طالبي المودَّات مؤذن بعدم المعقولات . فنظرت اليه وكان ذا لحية طويلة فقالت : ان اللحى المسترخيات على صدور أهل الركاكات محتاجة الى المواسي الحالقات .

إن أثر الكذب في هذه الرواية لظاهر كل الظهور ، بيِّن كل البيان . وإذن فكل الروايات التي ترمي إلى تشويه سمعة هذا الرجل الكبير مدخولة بالشك ، مغزوة بالريبة . وعلى ذلك فقس أكثرها أو كلها إن شئت . والسبب في ذلك ظاهر فان الكندي (على ما جاء في ص ٤١ من الكتاب) هو بلا ريب اول فيلسوف مسلم عربي اشتغل بالفلسفة التي كانت الى عهدم

وقفاً على غير المسلم العربي .... لهذا كان الهدف الأول وموضع السخط الرئيسي، لقوة الدفع التي استجمعت من حوله كل قوى الرجعية في ذلك العصر .

***

من الروايات التي تظهرنا على شيء من علم الكندي ، والتي تدلنا على ان علمه بالحكمة لم يكن من العمق والقوة بحيث وضعه كثير من أصحاب الروايات، عبارة وردت في ص ٢٨ من ذلك الكتاب : قال الشهرزوري في كتاب (نزهة الأرواح) » — ذكر أبو سليمان السجزي انه اجتمع هو وجماعة من الحكماء عند الملك ابي جعفر بن بويه بسجستان، فجرى حديث فلاسفة الاسلام : فقال الملك ! ما وجدنا فيهم على كثرتهم من يقوم في أنفسنا مقام سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس . فقيل له ولا الكندي ، قال : ولا الكندي ، فان الكندي على غزارته وجودة استنباطه ، رديء اللفظ ، قليل الحلاوة ، متوسط السيرة كثير الغارة على حكمة الفلاسفة » ..... وإذا صحت هذه الرواية بحروفها وضح لنا أن الكندي لم يكن صاحب فكرة مبتكرة في الفلسفة ، ولم يكن فيلسوفاً بالمعنى المعروف ، وانما كان ممن يغيرون على حكمة الفلاسفة فينسبونها لأنفسهم . ويؤيدنا في هذا المؤلف نفسه (ص ٣٠) حيث يقول : «والواقع أن الأصول التي كان يرجع الكندي اليها مترجمة كانت الى اللغة العربية أو غيرها ، أو موجودة في لغاتها الأصلية ، لم تكن تخلو من تحريف ومن غموض . وكان طبيعياً أن يجد الكندي عناء في استخلاصه معانٍ منها سقيمة في نظر العقل منتظمة النسق » ... واذا كانت هذه مصادر علمه ، فما قولك في علمه نفسه .

ولقد أورد المؤلف بعض عبارات استدلّ منها على أن أسلوب الكندي كان فيه غموض . قال :

«والذي يلاحظ من أسلوب الكندي، اعتماداً على هذه المصادر الضئيلة، ان فيه غموضاً يأتي بعضه من أن الألفاظ الاصطلاحية الفلسفية لم تكن استقرت في نصابها ، وتحددت معانيها » . ولست أدري كيف نحكم بأن الغموض أتى من ناحية الألفاظ الاصطلاحية لأنها لم تحدد ، والذي وصل الينا من آثار الكندي قليل لا يواتينا بما نصدر به هذا الحكم من الاحتمالات . والأمثال التي أتى بها المؤلف تناقض هذا الحكم . قال (في ص ٢٩) :

« ومن أمثلة ذلك (أي الأمثلة على الغموض) ما جاء في كتاب أتولوجيا ص٢ » : ولما قد ثبت في اتفاق أفاضل الفلاسفة إن علل العالم القديمة البادية أربعة : وهي الهيولى والصورة والعلة الفاعلة ، والتمام ، والذي سماه التمام هو الذي سمي فيما بعد العلة الغائية ، كما يؤخذ من

سابق كلامه ولاحقه » اه ..... ولست أرى في ذلك غموضاً ، ولعله يريد : والعلة التام ، تعقيباً على العلة الفاعلة ، لا سيما إنه قال : الهيولى والصورة والعلة الفاعلة والتام ، فالتام هنا مفهومها « العلة التام » بالاضافة الى ما قبلها . وقد استعمل الكثيرون العلة التامة بدلاً من الغائية ، ولا فرق بين التام والتام، فالكلام بيّن ظاهر لاغموض فيه . والذي يقرأ الفلسفة القديمة، ينبغي له أن يوطن النفس على شيء من التبصر ونفوذ النظر ، وان لايتوقع أنه سوف يستقي حكمة القدماء ، كما يشرب كوباً من الماء البارد في يوم قائظ .

وجاء في الصحيفة نفسها : ومن أمثلة ذلك أيضاً : استعماله في كتاب « أتولوجيا » كلمة « مبسوط » بمعنى بسيط : وهذا هو النص : « وما الذي يمنع النفس اذا كانت في العالم الأعلى من أن تعلم الشيء المعلوم دفعةً واحدة، واحداً كان المعلوم أم كثيراً . لا يمنعها شيء من ذلك البتة ، لأنها مبسوطة ذات علم مبسوط . فعلم الشيء الواحد مبسوطاً كان أو مركباً دفعةً واحدة » ... والواقع انه لا يستدل من هذه العبارة مطلقاً على ان الكندي يقصد هنا ان علم الروح يكون بسيطاً بالمعنى الذي ندركه من البساطة أي الغرارة والأولية ، وانما يقصد انه لايمنع النفس مانع اذا كانت في العالم الأعلى من أن تعلم الشيء المعلوم دفعةً واحدة لا بالتدريج شيئاً بعد شيء ، سواء كان الشيء المعلوم واحداً أو كثيراً ، لأنها هنالك تكون مبسوطة أي غير مقيدة وعلمها مبسوط أي مفصل ، لا اجمال فيه فقد رمى هنا إلى التفصيل معبراً عن ذلك بكلمة مبسوط ، والمبسوط هو المفصل الواسع الذي لا اجمال ولا اقتضاب فيه. ومفهوم العبارة على هذا التفسير صحيح جليّ ، على الضد مما لو قلنا إنه أراد « البسيط » أي الأوّلي . وإذن لا يكون هنالك غموض فيما ورد بالكتاب من العبارات التي استدل بها على غموضه .

إما ما أورد المؤلف نقلاً عن « جِلْسُن » حيث يقول (ص ٢٩) « المعاني ضعيفة كأن الكندي كان يكابد في امتلاك ناصيتها بعناء » — فتدل على انه لم يهضم ما درس ولم يمثله تمثيلاً عقليًّا يكفي أن يضع الكندي مع الفلاسفة ، فكيف به يكون فيلسوف العرب ؟ الاّ ان يكون المعنى انه أول عربي مسلم اشتغل بالفلسفة .

هذا التناقض يسوقنا الى القول بأنّ الكندي شخصية غامضة، وان علمه مشوب بالشك ، وفلسفته مدخولة بالقلق محوطة بالريبة ، وانه يصعب ان تصدر فيه حكماً مقطوعاً بصحته ، وحالتنا من العلم بآثاره على ما وصف هذا الكتاب .

الزمان الوجودي

كتاب ظهر في المكتبة العربية، ونال به مؤلفه الاستاذ عبد الرحمن بدوي درجة في الفلسفة من جامعة فؤاد الاول، دكتوراه بها. ولقد عمدنا الى درس هذا الكتاب درساً يتناسب ومنزلته من البحث وموضوعه من الاساسيات الفلسفية في الغيبيات: Metaphysics. وفي الحق ان الكتاب يمتاز بأسلوب كأنه الرصاص: صلب بارد ثقيل. أو كأنه الليل: مظلم هامد صفيق. ومن الحق أن نسجل اليوم ما سمعنا عن هذا الكتاب.

سمعنا ان الاستاذ لويس ماسينيون قال ان هذا الكتاب كالمرقعة المؤلفة من قصاصات بالية، حاكها شخص، فخيل اليه انه نسجها. وروى لنا أحد الاساتذة أن هذا الكتاب استخلاص من عدة كتب، ومداره كتاب في «الزمان والوجود» ألفه باحث ألماني يدعى «هيدجر: Heidegger» وصلت منه نسخة فرنسية الى مصر، اطلع عليها أحد أعضاء لجنة الامتحان، فوجد ان المؤلف قد ترجم منه بالحرف أكثر من ثلاثين صحيفة متوالية من غير أن ينسب كلة واحدة منها الى المرجع الذي أخذها منه، ولما سئل في ذلك أجاب بأقرب أسلوب عملي: وهو السكوت.

أما التصدير العام الذي صدر به الكتاب فسطران هما: «غاية الموجود ان يجد ذاته وسط الوجود. وها هنا صورة اجمالية لمذهب فسرنا فيه الوجود على أساس الزمان، وحاولنا تحقيق هذه الغاية للانسان»

وبالطبع لا يمكن لمن لم يقرأ الكتاب ويستطيع فهمه، أن يعرف ما هو المقصود من عبارة «غاية الموجود أن يجد ذاته وسط الوجود». ولعلي لا أبالغ اذا قلت أنه قد يعجز عن فهمها حتى اذا قرأ الكتاب وفهمه. فالعبارة مخلخلة مائعة. فما المقصود بكلمة «غاية» أهي نهائية أم نسبية. وما المقصود «بالموجود» أكلي أم جزئي. وما المقصود «بوسط» أمادي أم معنوي. وما المقصود «بالوجود» أهيولاني أم روحاني؟

ويقول ان الكتاب «صورة اجمالية لمذهب»، واذن فالكتاب ليس في مذهب ولا في أساسية فلسفية، وانما هو صورة اجمالية من مذهب، حوول فيه تفسير الوجود على أساس الزمان. وان المؤلف حاول تحقيق هذه الغاية للانسان. ومن هنا يظهر ان الكتاب برغم انه «صورة اجمالية» لمذهب، فالعلة فيه محاولة أريد بها تحقيق غاية لم تحدد، وان هذه الصورة الاجمالية وتلك المحاولة. قد استحق بهما مؤلف الكتاب درجة في الفلسفة، ولقب أول فيلسوف مصري، على ما يروى عن الاستاذ طه حسين، ولعلها أسطورة.

ولقد يدلنا هذا التصدير على حالة نفسية غير مستقرة تفسيرها: انك اذا سألت المؤلف أهذا مذهب؟ قال لا: انه صورة اجمالية من مذهب. واذا سألته أفيه أساسية فلسفية يدور من حولها المذهب قال لا: انها محاولة. فالكتاب اذن «صورة اجمالية» لمذهب فيه محاولة لتحقيق شيء غامض مبهم». وثمن هذا، درجة في الفلسفة.

ولعلي لا أخطىء اذا تخيلت ان موجة من الرمزية المكفوفة تسوق أمامها الفكر في هذا العصر، فتعدت الفن والادب الى الفلسفة. فقد يصور لك المصور صورة حيوان برأس فيل وقوائم حصان وقرن كركدن وذنب عقرب وأجنحة ظليم. فاذا سألته أي حيوان هذا قال: انه صورة اجمالية من حيوان. واذا سألته أي قصد قصدت من تصويره قال: انها محاولة لا صورة. فأمامك حيوان ولا حيوان، ومحاولة ولا صورة. أما اذا سألت الفيلسوف: أهذا مذهب: قال انه صورة اجمالية من مذهب واذا سألته الى أي قصد رميت: قال انه محاولة بلا قصد. فأمامك مذهب ولا مذهب. ومحاولة ولا قصد.

وأظن اننا سوف نتقدم لرجال لجنة الامتحان بعبارات من هذا الكتاب غمضت علينا نسألهم تفسيرها، حتى نكون فيما سوف نعقد من نقد، بعيدين كل البعد عن كل عوامل الاعتساف، أو التفرد بتفسير عبارات بلغ بها الغموض مبلغاً قصياً.

المرأة والمجتمع (*)

سيداتي سادتي : يسرني أن أقف الليلة محامياً عن المرأة ، مدافعاً عن حريتها ، مصححاً لكثير من الآراء الخاطئة التي أحاطت بقضيتها . والحق انني لست الاول في هذا ، فان كثيرين من الكتاب الحديثين راجعوا الموضوع وغربلوه ، وراجعوا أصوله ، واستعرضوا المسألة بيولوجيًّا وفسيولوجيًّا، وسيكولوجيًّا، فأمكن أن يضعوا الكثير من الامور في نصابها. ولقد تناول الباحثون دراسة المرأة : (أولاً) على ضوء الفروق الفسيولوجية والتشريحية بينها وبين الرجل . (ثانياً) على ضوء الفروق السيكولوجية بين المرأة والرجل . (ثالثاً) على ضوء الاحصائيات والأرقام . (رابعاً) على ضوء الوقائع المثبتة في التاريخ والسير . (خامساً) على ضوء البيانات والحقائق المستمدة من علم الحياة — وبخاصة ما جرى في سلسلة التطور — واني شخصيًّا أفضل أن أبدأ من هذه النقطة الأخيرة ؛ لأصل الى نقطة تهمني جدًّا في البحث ، وهي ان المشكلة كلها نشأت من ان الانثى رضيت أن يكون نصيبها من العمل حفظ الذرية ، بواسطة التناسل ، والسهر على النوع ورعايته خوفاً من انقراضه . وتركت للرجل النصف الثاني من العمل ، وهو جلب القوت ، والتنقل في سبيله ، والتفنن في اجتلابه . معنى ذلك أنها اضطلاعاً منها بالمسئولية الكبرى ، وهي حفظ النوع وانتشاره ، رضيت أن تبقى حيث هي في مكانها — على رأي الانكليز Tends & attends — ومعها أولادها ، في انتظار ما يأتي به الرجل ، أي أنها رضيت في سبيل المصلحة العامة ان تعتمد على الرجل وتركت له أن يعولها اقتصاديًّا ، مؤمنة بأن قيمة العمل المنوط بها جديرٌ بأن يعادل ما فقدته من حريتها الاقتصادية ، جديرٌ بأن ينسيها الأسر والقيود التي كبلتها بها الأمومة بالنسبة للحرية التي يملكها الرجل والتي أعطته صورة من صور السيادة أساء استعمالها فيما بعد . إن المسألة البيولوجية مشت على الوجه الآتي : كل الذين درسوا علم الحياة ، يعلمون أن الاميبا تنقسم عدة أقسام لا تلبث أن تنفصل ويصير كل منها جزءاً مستقلا . ولقد كان في الامكان أن تظل هذه الوسائل قائمة ، أي انقسام الخلايا ، ما دامت هذه هي الطريقة

(*) ألقيت بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول في شهر ابريل

التي يتكوّن بواسطتها الجنين وينمو . . . ولـكن الذي جرى أن الطبيعة ، حرصاً منها على الذرية ، رأت في مرحلة التطور الثانية ، ان يبقى الصغار على الأم حتى ينضجوا ، ورأت كذلك ان من الجائز ان يعطوا عملاً بدل بقائهم على الأم عاطلين ؛ فلما أعطوا عملاً مختلفاً تميزوا ، ولما تميزوا ؛ صار هناك ذكر وأنثى بعد ان كانوا متشابهين ، فلما انفصلوا عن الأم صار كل نصف يبحث عن نصفه الضائع ، وهذا هو الحب في أول حواشيه . فاذا التقى الذكر بالأنثى ابتلعته انثى وطوته في داخلها ، ثم جعلت حولها سوراً يتكوّن في داخله المخلوق الجديد ، وكل ذلك يحدث في مكان أمين . . . هو ما نسميه نحن الآن Home أو Foyer . من ذلك الوقت اصطبغت بصبغة الأمومة ، واصطبغ الرجل بصبغة الحارس الحامي للذمار الجالب للقوت المتفنن المغامر . ومن ذلك الوقت صارت الأمومة صبغة الانثى التي لا تفارقها — وصارت الحركة والمغامرة ومظاهر القوة من خصائص الرجل التي لا تفارقه . . . وصارت العاطفة الطابع الخاص للمرأة ، بصفتها أمّـا تضم حولها صغارها برباط المحبة ، وتجتذب الذكر بصفات العطف والحنان . وصار التعقل والتخيل والتحايل والابتداع أشياء أساسية في حياة الرجل ومنطبقة على طبيعة عمله الذي وصفناه وهو طلب الرزق وجلب القوت ..

وما دامت الحياة في أساسها استجابة لعوامل خاصة ، فقد صارت فسيولوجية الانثى عند ما تطوّرت وصارت امرأة انسانة ، مماشية لخصائصها كامرأة ، وصار تشريحها عند ما تطورت مماشياً لخصائصها كامرأة ، وصارت سيكولوجيتها ، مطابقة لوصفها كأم تتناسل وتتكفل بتربية الأولاد والسهر عليهم ، ولما كانت الحياة كذلك تفاعلاً بين الشخص والوسط ، فقد كان خُـلُـقُ المرأة — من حيث ان الخلـق — هو كيفية تصرفه ، استجابة لعوامل الوسط .

ولقد كانت استجابتها لـكل ما كلفت به كاملة ورائعة . وقامت بواجبها على أتم ما يمكن وساعدتها الطبيعة أحسن مساعدة ، فمن جهة الفسيولوجيا منحتها تركيباً فسيولوجيًّا مطابقاً كل المطابقة لما أعدت له ، فان تركيبها العصبي في شدة حساسيته ، وفي استجابته السريعة للمؤثرات ، والغدد الصمّ في المرأة وافرازاتهـا المدهشة ، كل ذلك وغيره ، ساعدهـا على أن تؤدي وظيفة المرأة الأم أحسن تأدية . ومن جهة التشريح : أثبت علم التشريح المقارن ان المرأة هي التي تحمل علم التطور . ولقد قال هافيلوك : أليس بحق أن المرأة هي التي تحمل علم شباب الانسانية . بدليل ان في الطفل والمرأة تركيب الرأس وغير ذلك من دلائل التطور ، تدل على أن التطور هو فيهما وبهما . . . . وأما الانسان البالغ ، فكلما تقدم في العمر ، ينحدر شكله الى شكل القرود ، فهو بذلك يمثل مرحلة سالفة ..

فمن يقول إن المرأة أقل في أي صفة تشريحية أو فسيولوجية فهو مخطىء . . . واذا

اعتقد أحد ان الرجل يزيد في صفة من هذه الصفات عن المرأة فقد ضلَّ الصواب . فلقد نسمع من يقول إن وزن المخ يختلف ، أو أن هذا العضو أو ذاك أكبر في الرجل من المرأة . ان المرأة مخلوق كامل في نفسه ، ومن حيث وظيفته كامرأة — والرجل في ناحية تامّ التركيب كرجل ، فلا معنى اذاً للتفاضل .

نأتي الآن لنقطة هامة جدًّا ، وهي مسألة السيكولوجية . وهذا أهم ركن في موضوعنا هذا . لقد نشأت الخصائص السيكولوجية للمرأة من شيئين — الأول : طبيعتها كامرأة ، والثاني : من وظيفتها كأم — ولقد قال الباحث ڤارنج انه في عدة قبائل كان الرجل مكلفاً بما تقوم به الأم الآن من تكاليف البيت والسهر على الأولاد ، والأم مكلفة بما يقوم به الرجل الآن من السعي وراء القوت . فكان للرجل خصال المرأة ، وللمرأة خصال الرجل . ومن يدري لعله لو طال العهد بذلك لحدث ما نسميه الخصائص الثانوية للجنس ، أي لالتحت المرأة ونعم جلد الرجل ورقّ صوته . . . وعلى كل يقول ڤارنج : انه من الظلم أن نجمل وجهاً للمقارنة في عصرنا الحاضر بين المرأة وبين مدنية ، هي في الواقع « مدنية رجال » ! إذ الصواب أن نقارن بين مدنيتين ، واحدة من صنع المرأة والأخرى من صنع الرجل ...

أما وظيفة المرأة فجعلت مركزها الاجتماعي الحالي مخالفاً لمركز الرجل . ولم يكن كذلك في العصور القديمة ، فان حركة مطالبة المرأة بحقوقها ، حركة حديثة جدًّا ، والسبب في ذلك ان مركز المرأة قديماً كان مركزاً لا جدال في أهميته في العائلة . فقد كانت هي التي تحيك ، وتطبخ ، وتقوم بالجملة بكل احتياجات المنزل ، وكان الرجل يأوي الى هذا المكان الذي هو كله . وكل شيء فيه ، من صنع ، يدي المرأة وتدبيرها . فلما أخذ العالم يصير ميكانيكيًّا صناعيًّا ، أخذت أغلب الأشياء التي صنعتها المرأة بيديها في المنزل ، تصنع في الخارج ، وتشرى من السوق ، وزاد على ذلك ان الرجل نفسه هجر ذلك الوكر الذي كانت المرأة تتفنن في اعداده ، رويداً رويداً ، لأنه شغل بمهام العصر الميكانيكي الصناعي واندمج فيه ، وقد مرّ عليه وقت كان هو هو ذاته يعمل بيديه ويخلق من فكره . فصار آليًّا ، استعبدته الآلة وقضت على فنه . ولكنها لم تقلل من غروره واحساسه بالسيادة والسلطة .

الخلاصة من ذلك ان المركز الاجتماعي للمرأة تقلقل بتقلقل القيمة التي كانت لها في البيت والعائلة . وبتغير العصر وصيرورته آليًّا ميكانيكيًّا . ولما أخذت المرأة تنادي بحقها ، كانت في الواقع تنادي بوضعها في مكانها الذي كانت قيمته عالية ومقدرة ، فصار الرجل يتهمها بسوء الخلق ، والخروج على المألوف ، ويندد بصيحتها ، وأخيراً صار هناك من يقول إن المرأة يجب أن تعود إلى المنزل ، وفاتهم شيء يجب أن يلتفتوا إليه ، فاتهم شيء لا

عميت عنه أعينهم ، وهو أن العالم تغير تماماً ، وإن المرأة لا تستطيع أن تعود كما كانت عليه منذ آلاف السنين ، بل يجب أن نجد حلاً يتفق مع أمرين : طبيعتها كامرأة ، ومركزها الجديد في العالم الحديث المتغير . يجب أن نضع الخمر القديم في زجاجات جديدة . أما من يقول ان ذكاءها أقل من الرجل فهو واهم . ما هو الذكاء ؟؟ الذكاء هو سرعة الادراك ، وسعة الخيال ، والانتباه . أما سرعة الادراك فواضح جداً في المرأة ، بل إننا نجد ذلك في روايات كثيرة ، فانه اذا ارتبك الرجل والمرأة في موقف ما ، فان المرأة هي التي تلمح شبح الخطر ، وهي التي تنقذ الموقف ، ومن سرعة الادراك ما يسمى بالمأثرات الثانوية ، أي مقدار ثبات المدركات الحسية في اللاشعور . فلقد ثبت ان المرأة يبقى في ذاكرتها الأثر الصغير لمدة طويلة . أما الخيال ، فلا ينقصها ، وان كان الرجل يمتاز عنها فيه . ويبقى الانتباه Interest . وأعتقد أن كل ما يعاب على المرأة من جهة عدم نجاحها في العلوم والرياضيات ، ليس ناشئاً من قصور ذكائها ، بل من عدم ميلها وانقيادها لهذه الناحية ، لأنها لا تتفق وعاطفتها السيكولوجية المبنية على الانفعال . والانفعال لا يُعنى بالتجريد ، بقدر ما يعنى بالحقائق الجامدة Concrete

ينقلنا هذا إلى انفعال المرأة Emotion فان تركيبها كأم ، جعل العاطفة محور حياتها ، وغددها جميعاً تخصصت لذلك . وطبيعة الانفعال تميل إلى النظر للحقائق والجوامد .

ومن هذا كانت المرأة مقتصدة أكثر من الرجل ، لأنها تميل إلى الجمع والتجميد .

ومن هذا كانت المرأة لا تميل إلى التحليل ، بل الى الأخذ بجملة الشيء .

فاذا أحبت أحبت بلا تشريح ولا تدقيق . وإذا نظرت في حساب نظرت للجملة . وإذا نظرت لقضية سألت عن النتيجة . وإذا اقتنعت لم تقتنع بالكلام والشرح ، بل بحقيقة ملموسة ، كهدية أو فستان . من هذا يتضح أن المرأة عملية ، بينما الرجل خيالي .

ولقد اتضح من الأرقام والبيانات في المدارس والجامعات ان البنات أميل إلى النظام ، وأكثر اجتهاداً وأحسن نتيجة ، وان كان ينقصهن الخَلْقُ والابتكار ، ويختلفن عن الذكور في أنهن يستطعن أن يركزن فكرهن في أكثر من شيء واحد في وقت واحد ، وذلك لضيق الوعي عندهن . ولكن الاختلاف ناشيء على كل حال من أن المرأة ذات طبيعة انفعالية لا تساعد على التجريد والتخيل . وكذلك لا تساعد حدة الانفعالات على النبوغ في الفنون والآداب ، لأن الفن الخالد محتاج إلى انفعال لا يغمر الوعي ويغرقه .

فهؤلاء الذين يقولون ان ذكاء المرأة ناقص يتكلمون عن الذكاء ككمية ، بينما الذكاء عناصر تتكون معاً مزيجاً اسمه (ذكاء) والصفة هي التي تختلف . وبينما الذين يقولون ان

المرأة لا تنفع لهذا الشيء أو ذاك، يجهلون طبيعة المرأة كل الجهل . فان في طبيعتها ما يؤهلها لأعظم الأعمال . خذوا مثلاً ، طبيعتها العملية، وخذوا مثلاً نجاحها في المسائل الاقتصادية ، وخذوا مثلاً اهتمامها بالحقائق الملموسة ، وايمانها بالواقع المحسوس ، هذه الفضائل بقيت محصورة في دائرة العائلة ، وعلى مر الأجيال ، نسيت هاته الفضائل ، وصارت البنت تنمو في وسط تسمع فيه تحقيرها بأذنيها، وترى تفضيل الذكور عليها ، وكثيراً ما تسمع ذمّاً في جنسها كله ، مما اضاف إلى الثورة الحاضرة، وجعل للمرأة عذراً في المناداة بحقوقها ، والواقع انها لا تنادي بحقوق ، وانما تنادي باستعادة مكان ضائع ، والاعتراف بفضائل أنكرت .

فاذا نظرنا إلى المجتمع ، الذي تنادي بالدخول في غماره ، وجدناه مكوّناً من شيئين: أحدهما كمالي وهو الفنون والآداب . فاذا سلمنا جدلاً انها بطبيعتها لا تنبغ فيهما لأن الفن والأدب يستلزمان مؤهلات خاصة ، نتركهما للرجل يتمتع بهما ويخلد فيهما - والثاني ضروري - بل هو المجتمع بأجمعه ، وهو الصناعة والسياسة . ومن جهة الصناعة فحسبكم روسيا الحديثة ، فان المرأة أثبتت هناك ان هذا مجالها ، ونجاحها في المسائل الصناعية جعل لها مكاناً ممتازاً ، ومن يدري ربما كان انتاج روسيا الرائع في الآلات وغيرها هو من زيادة الأيدي باقبال النساء على الصناعة . ولقد أقبلنَ عليها بدون أن يضايقهنَّ الحمل والولادة ، فقد تكفلت الحكومة بمراعاة الحوامل، والالتفات للأولاد ، حتى لا يكون منهم عائق للأمهات .

أما من جهة السياسة فقد راجع «برداخ» عصور النساء اللواتي تولينَ الحكم . فوجد ان عصورهنَّ من أزهى عصور التاريخ . وذكر ذلك انه في اكثر القبائل نجد النساء هنَّ اللاتي يتولينَ حل المشاكل ويتفاهمنَ على المسائل الكبرى .

وكذلك اثبتت البيانات الحديثة ، وبخاصة في الحرب الحاضرة ، نجاح المرأة في الأعمال الكتابية والادارية . اذا كانت هذه هي المرأة : هي السبب في عمران العالم ، وهي التي قبلت التضحية، وهي التي رضيت باستعباد الرجل على شرط ان تحفظ قيمتها — وقد ظلمها الرجل ، وأشاع انها قاصرة العقل ، وأنكر عليها مواهبها - وحين يتغير العصر ، وتعصف بالدنيا احوال جديدة ، وحين تريد هي أن تبذل مواهبها الكامنة وتقدم استعداداتها للمشاركة في اصلاح العالم ، يجيء من يقول لها : مكانك البيت ! فتلتفت لترى « البيت » . فاذا الحال غير الحال . . تراه مقفراً وقد خلا من معاني العائلة ، وترى الرجل في حياته الجديدة، حياة العمل وحيداً ، وتجده مرتبكاً ، وقد ستر متاعبه بأنانية كاذبة ؟ أليس لها الحق في أن تقتحم هذا المجتمع ؟ أعتقد أن لها الحق وأعتقد أنها ستفوز . . . .

دكتور ابرهيم ناجي

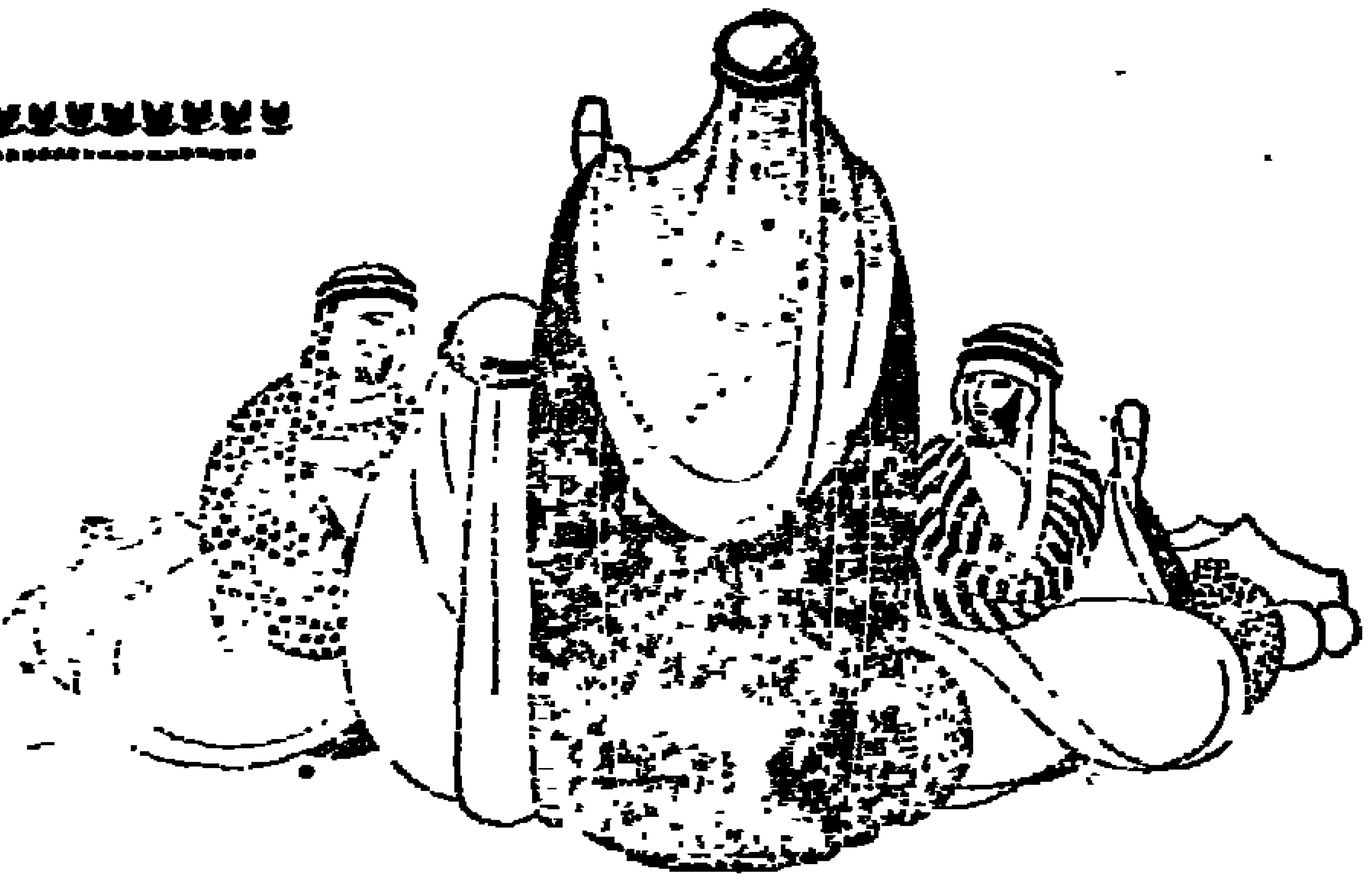

الاتحاد القومي

داؤه وأدواؤه [1]

— ٢ —

تنبهت أمم أوربا منذ مئتي سنة وأكثر الى وجوب التخلي عن نعراتهم الدينية والطائفية وحصر تلك النعرات، وما بنيت عليه من عقيدة الدين ورسومه ورموزه ضمن نطاقها الطبيعي أي المعابد، وما يتصل بذلك عن قرب كمعاملة رجال الدين والدور الأسقفية والأوقاف المنتمية اليها ونحو هذه الامور . وأما في ما خلاها ، وهو القسم الأكبر من مظاهر المعيشة وأحوال الحياة ، فقد أقاموا الرابطة الوطنية مقام تلك النعرات، وحمدوا كل الحمد مغبة هذا التعديل وهذا الاستبدال كما حصلوا عليه من راحة أيديهم وراحة بالهم وطيب سمعتهم في المدنية والرقي ومن معزة جانبهم ونيلهم الشيء الكثير من ربح مادي ومعنوي . أفلم يكفنا نحن اننا تأخرنا في هذا السبيل النبيل مئتي سنة عن أمم اوربا ، وهم في الاصل تلاميذ وطننا برقيهم وتنورهم . تلاميذ هذا الشرق البائس وأبنائه عند احتكاك أجدادهم بأجدادنا في أثناء الحروب الصليبية بسورية ولبنان وفلسطين ، مدة تقارب مئتي سنة وكان منتهاها في نحو سنة ١٣٠٠ للميلاد . ثم باحتكاك الأجداد بالأجداد في بلاد الأندلس مدة ٧٥٠ سنة . وكان منتهاها في نحو سنة ١٤٧٠ للميلاد . وهذا التبدل المجيد المعقول بتغليب الرابطة الوطنية على كل رابطة سواها لم يقتصر على المشهور من أمم الغرب المبتدئة ذروة العلم والأدب والفلسفة والفن والصناعة، بل تجاوزه إلى أمة صغيرة غير عظيمة الحظ من هذه المزايا وهي مثلنا شرقية بتقاليدها ومشاربها وان حسبت أوروبية بموقع بلادها وأريد بها الأمة الالبانية أو الأرناؤوطية . فان الالباني شديد الحرص والغيرة على رابطته الوطنية والقومية . قليل المبالاة بكل رابطة تخالفها . أفتكون عقولنا في استيعاب هذا الناموس العمراني دون عقول الارناؤوط عشاق الطبنجة والبلقان ؟ .

ان الغربة التي تحرم صاحبها قوته ومعزته بحرمانه الاستناد إلى أهله وصحبه ومراجع تربيته ومواقع غبطته ، ومن ثم تجعله بعيداً عن الغرور والطمع والعدوان ، هي خير محك للمرء في استجلاء ميوله الطبيعية وفي استلهام وجدانه وغريزته . هذا شأن الغربة التي تصفي

النفس البشرية من كثير من أكدارها وأقذارها وتوسع نطاق معلوماتها عند اطلاعها على أشياء جمة كانت محتجبة عنها . استفتوا الغربة ومن يقاسون كربتها ووحشتها في ما نحن بصدده يخبركم كل مغترب مهاجر، وأنا كنت أحدهم، ان عاطفة الحب الوطني في أعماق نفسه تنتفض من تحت رمادها، وتتأجج نارها ويسطع نورها أضعاف ما كانت عليه، فيعلم حينئذٍ علم اليقين ان الرابطة الوطنية ليس من رابطة تمادلها أو تقاربها في عموميات الحياة ، حتى إذا لقي أحد أبناء وطنه ولو لم يكن من عشرائه وأشكاله، شمله بوده وعطفه، وبذل مجهوده في إرضائه ونفعه .

ولا شك ان الذي أسلفنا ذكره من شأن النعرات الطائفية وتقاليدها يحسب العائق الأعظم في سبيل اتحادنا الوطني الذي هو شرط أساسي لا بد منهُ لأجل استحقاقنا الاستقلال وانتفاعنا بهِ واطمئناننا عليه . ولكن لا بدَّ لي من الاعتراف بأنه يعترض اتحادنا الوطني مع هذا العائق الأعظم عوائق أخرى لا يجوز غض النظر عنها وان كانت دونه سطوةً وتأثيراً ولاسيما عائقان منها . أولاً : ما تعوَّده أبناء الطائفتين في بلادنا من تفرقة وانقسام في مظاهر المعيشة من مساكنة ومعاشرة ومجالس لهو يومية واجتماعات مختلفة ونحو ذلك . فقد تعوَّدوا ان يتنحى بعضهم عن بعض في معظم هذه الأحوال . وضرورة الاتحاد تقضي بإنماء الألفة . وإنماء الألفة يقضي بإبطال هذا التنحي، واقامة التمازج الكافي مقامه . والعائق الثاني: حرص أفراد من أبناء وطننا على ابقاء النعرات الطائفية بيننا مع ما فيها من عار ومضار وسعيهم في تحقيق هذه الأمنية، لأنهم يتوقعون اذا فقدوها أن يفقدوا جل ما لهم من حول وطول ومغنم . ولهؤلاء الأفراد أتباع وأعوان ينصرونهم وأناس بسطاء تجوز عليهم حججهم الزائفة . ولكن ينتظر أن يكون بين هذه الفئات أصحاب فضل وفضيلة يرضون أن يضحوا بشيء من مصلحتهم الخصوصية في سبيل مصلحة الوطن العامة . واما الباقون فلا بدَّ من اجتذابهم الى السبيل السوي بالتي هي أحسن ، وإلاّ فبالتي هي أخشن ....

وصلت الآن إلى شرط جوهري لا يقل في سمو شأنه عما تقدم معنا بيانه . وهذا الشرط هو أن يحصر نصارى العرب في بلادنا آمالهم بقوميتهم وبمن يترأسون هذه القومية ومن ينضوون تحت لوائها، حين يرون منهم اخلاصاً وروحاً وطنية نزيهة لا تجعل أقل تمييز بين فئات الوطن . ويدخل في هذه الناحية من بحثنا الحاضر الأبيات التالية من قصيدة لي نظمتها في مقام اقتضاها ولعلّ المقام الحاضر أجدر بها من ذاك :

وطنية الشهم الكريم يمينه ويقينه ولو اللئيم ارتابا
وطنيــة الشهم الكريم نخاره ونضاره ان داء فقر نابا

وطنية الشهم الكريم تصونه من أن يضيع الفهم والآدابا
فهو الذي يعطي القريب حسابه وهو الذي يعطي الغريب حسابا
يدري لهذا حقه في أرضه ولذاك حق الضيف يقرع بابا
لا تظهروا بالحزم ضعفاً لا ولا بالعزم عنفاً جائراً صخابا
هذي هي الوطنيـة المثلى التي تبغي رجالاً لم تكن أنصابا
هذي هي الوطنيـة المثلى التي تروي القلوب وتبرىء الأوصابا

***

ولا بد لنا هنا من التصدي لملاحظة تخطر على بال كثيرين ومؤداها ان الطائفة الاسلامية في بلادنا هي اكبر الطوائف الدينية وأقواها ، فلا غرو ان يكون لها حق التصدر والامتياز في كل أمر من أمورنا وكل حالة من أحوالنا .

والجواب على هذه الملاحظة إيجابي محض . فالطائفة الاسلامية هي أكبر وأعظم طوائف هذا الوطن فلها حق الصدارة والامتياز . وهي حاصلة اليوم على هذا الحق بكيانها المعنوي في التعيينات والانتخابات والتشريفات وغير ذلك من مظاهر رسمية وشبه رسمية ما دمنا جارين في هذه الأمور على النسبة الطائفية ، وهو مجرى خطر قبيح مخجل كما تقدم معنا بيانه. والأمل ان نتخلص من هذه الخطة في أقرب وقت . وهيهات ان يفقد اخواننا المسلمون شيئاً اذا فقد من بيننا هذا التدبير الوبيل . فان لهم من كثرة عددهم وكثرة أهل العلم والفهم فيهم ونشاطهم ونضج تجاربهم واختبارهم ما يصون حقوق افرادهم كل الصيانة ، فيظل مجموع ما يحرزونه فوق كل مجموع آخر ، ويظل لممثلي الدين بينهم حق التقدم في المواقف والأحوال التي لها علاقة طبيعية بالدين والطائفة ، دون ان تسطو على ما هو خارج عن هذه العلاقة مما نشاهده في خططنا الحاضرة .

إلاّ ان المسلمين والنصارى اذا ألغوا من بينهم قاعدة النسبة الطائفية في الأعمال والمعاملات فهم لا يفقدون إلاّ شيئاً واحداً . أتعلمون ما ذلك الشيء أيها السادة والاخوان ؟ انهم يفقدون حينئذٍ الخطر الداهم على جسم وطنهم الشريف وروحه الطاهرة .

ادوار مرقص

عضو المجمع العلمي العربي

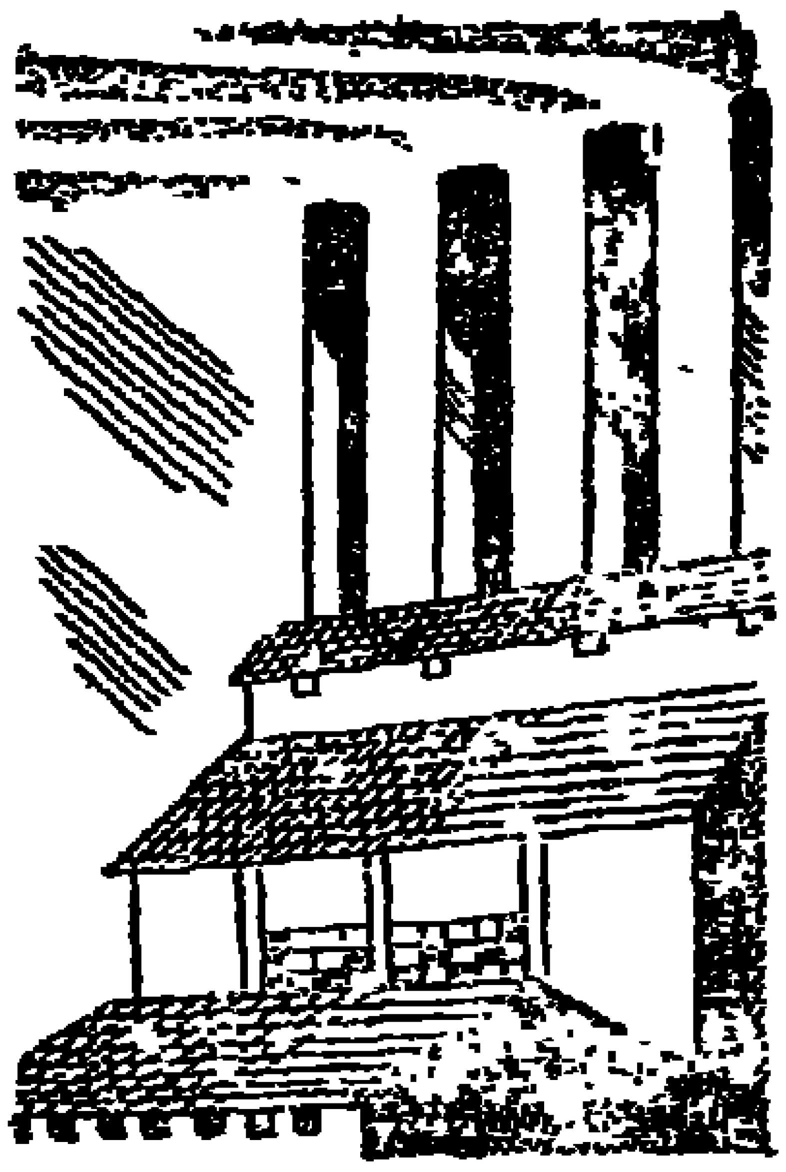

إعداد الفرد

لتأسيس مجتمع صالح

لا أكون مبالغاً اذا قلت ان هذا الموضوع يشغل في الوقت الحاضر جميع الأذهان . بل سيظل شاغلاً لها ما دام الفرد عندنا على هذا الوضع وفي هذه الحال التي نرى . وان كنت في ريب من هذا ، فتسمَّع الى الناس في الطريق وفي غير الطريق . في مجتمعاتهم الخاصة والعامة ، فماذا يقولون ؟ انهم يسبون هذا الزمن ويلعنون الناس . ويستجيرون بالله من فساد الأخلاق وخراب الذمم ، والكل تقريباً في تشاؤم وقليل من تراه متفائلاً ينتظر صلاح الحال . وهذه الثورة الفكرية هي في نظري أول مراتب الكمال . فما دمنا نطمح إلى الرقي وما دامت مصر ترى أن تساهم بنصيب في رفع المستوى الانساني ، ينبغي أن نعمل جادين في سبيل إيجاد فرد قوي يتكوَّن منه مجتمع صالح لتلك الحياة الجديدة التي ستخلفها لنا هذه الحرب العبوس . ينبغي ان نعمل حذرين مما لا يتفق فيها مع ما ورثناه من عرف صحيح .

وسأبني كلمتي في هذا الموضوع على أساسين اثنين : —

الأول : إن الحضارات كلها تقوم على الفرد ، بمعنى ان العلم الذي أوجد الطائرة أو المذياع أو الكهرباء ، هو نتيجة عمل الفرد أولاً ، لا عمل جماعة . وعلى ذلك يجب أن تقوم الدولة على خدمة الفرد ، وأن تسير الأوضاع فيها على ذلك لا على نظم من مقتضاها أن يضيع الفرد في الدولة .

الثاني : ان سعادة الفرد خاضعة للظروف والأحوال التي تحيط به ، لا أن سعادته خاضعة لاستعداده النفسي فحسب ، كما يذهب بعض فلاسفة الأخلاق . وعلى هذا سأطرح من حسابي من يدين بهذا المذهب الأخير ، لأنهم أقلية لا يصح أن نأخذ بهم حكماً عاماً .

ولننظر الآن الى الواقع من أمر الفرد في مجتمعنا الحالي ، وذلك بالنظر إلى ما يحيط به من حيث الصحة والمرض والغنى والفقر ، والعلم والجهل . ثم ننظر فيما يجب أن يكون عليه الفرد لتأسيس مجتمع صالح لهذه الحياة الجديدة التي سنقابله حتماً بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها .

فهل الظروف المحيطة بالفرد عندنا الآن ترضى عنها عزتنا القومية وماضينا المجيد؟ وهل من شأنها أن يشعر الانسان معها في الأغلب الأعم، بحس مريح أو بحس مؤلم؟ إذا نظرنا إليها من حيث الصحة والمرض رأينا عجباً. فلقد أثبت المغفور له المرحوم عبد الواحد الوكيل بك في محاضرة له بناءً عن احصاء سنة ١٩٣٨ أن في مصر من الأمراض ما لو قسم على عدد السكان لخرج كل فرد بثلاثة أمراض. وأثبت أن مصر في وفيات الأطفال متأخرة حتى عن الهند. وأن ٧٥ ٪ من عدد السكان مصابون بمرض البلهارسيا و٥٠ ٪ بالانكلستوما. ومثل هذه النسبة الأخيرة مصابون بالديدان المعوية. وأحسبني من هذه الناحية لست في حاجة الى الكلام بعد هذه الأرقام وبعد هذه النتيجة التي تعتبر وصمة في جبين الأمة بأسرها. فهذه الأمراض تحط من قيمة الفرد ماديًا ومعنويًا، فهي من ناحية لا تمكنه من الموازنة بين انتاجه واستهلاكه، ومن ناحية تجعله في شذوذ خلقي بحيث لا يستريح معه غيره في عشرة أو معاملة. وكل ذلك وبال وخسران.

***

وإذا نظرنا في واقع الأمر مع هذا الفرد من جهة الغنى والفقر رأينا حالاً ليست بأحسن مما قد رأينا. ذلك أن النظام الاقتصادي في هذا البلد قائم على أساس ليس من شأنه أن يحقق للفرد حياة سعيدة. وإلا فأي نظام ذلك الذي يقضي بأن يأخذ ٩٣ ٪ من الملاك ٢٠ ٪ من الاراضي الزراعية، ثم يقضي بالباقي وهو ٨٠ ٪ من مجموع الاراضي لـ ٧ ٪ من عدد الملاك. ولست أقصد هنا أن نسلب مالكاً حقاً مكتسباً. فانا لو قسمنا الاراضي على الأفراد بالتساوي لما خرج الفرد الواحد بعشر قراريط. بل أقصد أن أقول إن هذا النظام نشأ عنه بعد النسبة بين طبقات الشعب. فعلى من يريد أن يعد الفرد لمجتمع صالح — والكل طبعاً مريد — عليه أن يعمل أولاً وقبل كل شيء على التقريب بين طبقات الشعب، ويكون ذلك من طريق الضرائب التصاعدية بحيث يعفى منها الفقراء وصغار الموظفين، على أن يتحمل الضريبة كبار الأغنياء بنسبة تتصاعد بزيادة الثروة. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لا يجوز أن تبيح الدولة لزيد من الناس أن يمتلك من الأرض القابلة للاصلاح من غير أن تشترط عليه اصلاحها في زمن محدود. فانا نرى فلاناً من الناس يمتلك من هذه الأرض ما يربو على الألف، ثم يتركها للزمن على حد تعبيره من غير أن يجري فيها إصلاحاً يذكر، وبجواره من الأسر ما لو وزعت عليهم هذه الأرض ملكيات صغيرة، لأصلحوها واستثمروها وعادت عليهم بالخير وعلى المجتمع بالأمن.

ننظر بعد ذلك الى الظروف المحيطة بالفرد عندنا من حيث العلم والجهل. وهنا سوف لا أنظر إليها من جهة الكم أو الكيف، بل سأنظر إلى النتيجة التي يخرج الفرد بها عندنا

من هذا التعليم . فقديماً قالوا : « القدم يدل على المسير » فهل واقع الأمر نتيجة لهذا التعليم،أن الفرد يخرج من هذه الرحلة مزوداً بالعادات والآداب العامة التي يكون لها أثر صالح في سلوكه الشخصي ، يقربه من الفضيلة ويبعده عن الرذيلة ؟

هل يخرج الفرد من هذا التعليم قادراً على أن يشق لنفسه طريقاً قويًّا في الحياة ؟ هل يخرج الفرد من هذا التعليم مغرماً بالاطلاع والبحث الشخصي بعد المدرسة ؟ هل خلق هذا التعليم للفرد عقلية ممتازة بالنظام الذي يظهر أثره في حياة الفرد والأسرة ؟ هل هدانا هذا التعليم إلى حل مشاكلنا الاجتماعية ؟ وهل أخرج لنا هذا التعليم فرداً مستقلاً في عمله حرًّا في رأيه ذا شخصية محترمة له إرادة وفكر لا يخجل ولا يتردد ولا يخاف من مسابقة نظرائه في المجتمعات الطيبة ؟ الأحوال والأرقام تنطق بالعكس . فمثلاً كان عدد المتعطلين عندنا في سنة (١٩٢٧) ٢١٦٢٤٣ أتدرون كم وصلوا في تعداد سنة ١٩٣٧ ؟ إنهم وصلوا ٤٧٨٤٨٦ أي الى الضعف تقريباً،وفي كم سنة؟ في عشر سنوات. وهذه نتيجة ليس من شك في أنها تقلق بال الغيورين على شؤون هذا البلد .

أنظروا إلى المرافق الحيوية في البلاد تروها ليست في أيدينا ولو كان توجيه التعليم عندنا حسناً لما كان هذا . نحن لا نزال عيالاً على غيرنا حتى في السماد الكيماوي ، بالرغم من أن بلادنا زراعية . أنت حينما تمشي في شوارع القاهرة الكبرى تكاد تسلم بأنك غريب في بلدك . أين نحن في هذه الناحية إذاً،ممن يحاولون الآن إسماع الصم بوساطة الأسنان؟وأين نحن ممن يحاولون إخضاع الطبيعة لتجمع لهم غيومها في مكان واحد وتفرغ ما بها فيه .إنهم الآن يحاولون اختزان أشعة الشمس لما رأوا أن مادة الوقود يخشى من نفادها في هذه الحرب الضروس التي لا تبقي ولا تذر . الحق أن هذه الناحية هي الأخرى تحتاج إلى وضع جديد يلائم روح العصر، ويتمشى مع ما ورثنا من عرف صحيح .

***

نستطيع إذاً بعد هذا العرض السريع أن نقول إن الظروف المحيطة بالفرد عندنا ليس من شأنها أن توجد فرداً سعيداً يحيا حياة فاضلة — وطبعاً نفتح باب الاستثناء لأقليَّة، هي في الواقع مثل للفرد الفاضل عندنا بلا نزاع — لذلك لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الأفراد عندنا الآن يحيون حياة مبعثرة مرتبكة مضطربة ليس فيها انسجام حتى بين أعضاء الأسرة الواحدة . بل هناك خصام وتنازع وشقاق وفوضى جرَّتها علينا هذه الظروف المحيطة بالفرد .

اترك الأسرة وانظر إلى نفسك في خارج بيتك وفي عملك،أترى في عملك اطمئناناً ؟ كلاً ، بل

هناك حقد وحسد ودس ونفاق وكذب . لماذا ؟ لأن الظروف المحيطة بنا كوّنتنا على هذا الوضع . هذا ولأن العدل الاجتماعي لم يُنَفَّذ بعد بكل ما تحمل هذه الكلمة من مدلول . لذلك لا تعجب إذا أنت قد رأيت الكذاب الذي يشبع عنك السوء لحاجة في نفسه . ولا تعجب إذا أنت قد رأيت المتزلف الذي يشبع شهوته على حسابك . وفي النهاية لا تعجب إذا أنت قد رأيت مجتمعاً مريضاً . وما دمنا نعترف للفرد بحق الحياة ، فالطريق إذاً لاعداده إعداداً حسناً أحد أمرين اثنين لا ثالث لهما : إما أن نمده شريراً خبيثاً جباناً سارقاً منافقاً ليلائم بينه وبين بيئته ، ويكيف نفسه وفق هذه الظروف المحيطة به ليعيش كما تدفعه الغريزة . وهذا طبعاً لا يرضى عنه دين ، ولا ترضى عنه فضيلة ، بل ولا يرضى عنه عقل سليم ، بقطع النظر عن الدين والفضيلة : فالفسق مثلاً لو لم يحرمه الدين لحرمته الفطرة السليمة . وإما أن نحسّن للفرد هذه الظروف المحيطة به ، وهذا هو الاصلاح من بابه . أما أن نترك الظروف تنخر في عظام الافراد ونفوسهم ونطلب منهم بالكلام والكلام فحسب ، أن يكوّنوا لنا مجتمعاً صالحاً ، فهذا الغالط للعقل ، ومنطق معكوس ، ووضع للشيء في غير موضعه .

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

والا فكيف تطلب من الفرد ألا يسرق وأنت تسرقه . كيف تطلب منه أن يعدل وأنت تظلمه . وكيف تطلب منه أن يزهد في الدنيا وأنت منها متخوم . علموا الأفراد معنى العدل برفع الظلم عنهم . علموهم معنى الحرية برفع الاستبداد عنهم . علموهم معنى الصدق بعدم الكذب عليهم . وما أحوجنا في هذه الناحية الى القدوة الصالحة وضرب الأمثال حين نوجه الأفراد .

***

ولتحسين هذه الظروف المحيطة بالفرد ، ينبغي أن نتجه الى التجارة والصناعة بجوار الزراعة وأن نجعل التربية هي الغرض من التعليم ، لا مجرد حشو الذهن بمعلومات فارغة لا تنفع الانسان حين يخرج الى معترك الحياة . والآن وإلى أن نحسن هذه الظروف ، ينبغي أن نعلن الحرب على أنفسنا ، فليتعرّف كل منا عيوب نفسه ، وليحاربها بغير هوادة حتى يردها الى الصراط السوي ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

منصور رجب
المدرس في كلية أصول الدين

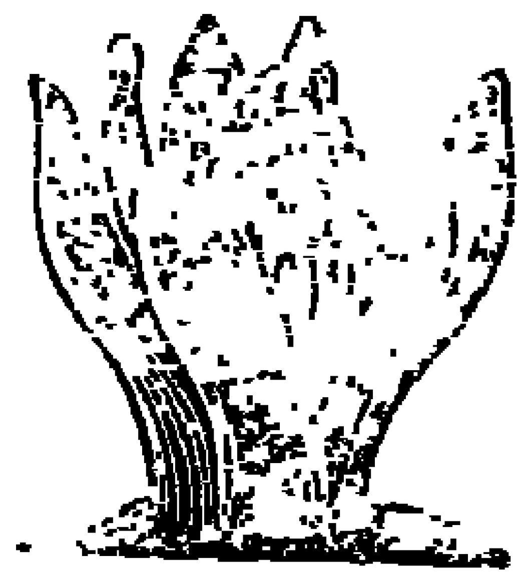

ذوقوا فتنتكم

نشرت مجلة ساينس دايجست Science Digest الاميركية في عددها الصادر في شهر مارس الماضي مقالاً بعنوان : « الاسترخاء طريق المصريين في الحياة » نكتفي بترجمة فقرات منه والتعليق عليها ، فان ترجمة ذلك المقال بحروفه أمر يجر الى أشياء نتحرز من الخوض فيها . قال الكاتب :

« منذ آلاف من السنين ، وضع المصريون مشروعاً حكومياً لتشييد المباني ، فأنتج ذلك المشروع الاهرام وأبا الهول . وإذا خدم المصري صديقاً مدفوعاً لذلك بدافع الكرم ، فقد لا يتورّع عن أن يطلب ما يسميه البقشيش . وليس هذا لأنه في الحقيقة يريد بقشيشاً ، بل لأنه يريد أن يمد العلاقة بصاحبه بمتابعة كلام يستهويه به » .

« ان احتقار المصري للمال يظهر جلياً من أسلوبه في التجارة . فاذا فرض ان رجلاً طماعاً أخذ يتاجر ، فانه يجتهد أولاً في أن يقع على شيء يحتاج اليه الناس ويشتريه بأقل مما يساوي ، ثم يبيعه بأكثر مما اشتراه به ، وليس المصري كذلك . فان المصري إذا اراد الاتجار يعمل بطريقة مصرية فذة . فيجمع قليلاً من زمارات الغاب القديمة ويضمها بعضها الى بعض أو يحصل على عناكب مصنوعة من الجص أو زجاجة فارغة من زجاجات الوسكي يضع فيها سمكات ويمشي بها في الطرق العامة باحثاً عمن يبيعها اليه » .

« لا شيء حقير عند المصري ، فلا يمعن فيه تأملاً واستبصاراً . فانه يقف أحقاباً متطاولة ليقرر بأية قدميه يبدأ المشي . وقد يظل ساعات جالساً ليقرر هل يقوم » .

« يتكلم المصريون لغة لا يشاركهم فيها أحد . ويدل على جمالها ذلك المدى الواسع الذي يستعملونها فيه . فانهم يتكلمون بغير توقف وبحماسة . واللغة المصرية المكتوبة أشبه شيء بخط محسن من الاختزال ، وقد نشأت بالطبع مع الفراعنة . ويحب المصريون الصور المتحركة الأميركية ومسرحيات وليم شكسبير ولاسيما عُطَيل » . (وقد خصّ الكاتب مسرحية عُطَيل بالذكر لأن بطلها من البربر وفيها تصوير لناحية الشهوة الجنسية وحب الانتقام والفتك)

ولا أدل على جهل ذلك الكاتب من قوله ان المصريين كالألمانيين ، يعتقدون ان تخميش الوجه يدل على حسن الخلق ، فيخمشون وجوههم

« ان صداقة المصريين تمتد الى جميع الحيوانات كبيرة وصغيرة ، من الجمل الى العصفور . ويجدون في الحمار وسيلة أمثل من السيارات للجولان في أنحاء بلادهم »

« ان هذه الحمير هي من مملوكات هذه الأمة المتوارثة . فان حماراً مصريـاً من الصنف الجيد قد يحمل مصريـاً أثقل منهُ وزناً . فاذا ركب أب مصري حماره جلس على مؤخرة ظهره وبقية الأسرة من أمامه »

« ان المعزى ذائعة في مصر . وقد تعيش في المدن أو في الأقاليم في داخل البيوت أو في خارجها ، بمقتضى حالة الجو . وقد يعامل المصريون حتى الحشرات، معاملة القديس فرنسيس للعصافير » .

« يغشى القاهرة قطعان من البواشق الأليفة تعيش على كرم الناس . والعصافير تجثم على الموائد وتقتات بفتاتها ، وللمصريين عيون سود ، ولون يختلف من لون القهوة الممزوجة باللبن الى لون الفحم الحجري ».

« لعلمه بانه يعامل أناسي فيهم رصانة وتعقل ، تجد ان الذباب المصري آلف من غيره من الذباب في أماكن أخرى . فبدلاً من أن يطير مؤزّاً لاقل سبب، يشعر الذباب المصري إنه في بيته ، إذا ما وقف على جبهة واجتهد في أن يبني عشه هنالك » ...

***

إذا قيل هذا عن مصر في هـذا العصر، فانه يدل على ان الـكاتب وأمثاله إنما يستغلون شهوة الجمهور المضلل في أميركا ليكسبوا المـال من أخس وجوه الـكسب . فان مصر التي أنشأت أقدم مدنيَّةٍ عرفها العالم وكانت ضفاف نيلها مرصعة بالمدن والهياكل والمعابد عند ما كانت القارة الأميركية خواء خلاء يسكنها البهور والقاطور والبوماء،تتقبل هذه المدنية من ذلك الـكاتب كما يتقبل البحر الواسع الجيفة المنتنة . فكم من جيفة ابتلعهـا البحر ، وكم من جيف سوف يبتلعها على مرّ الزمن ، فلم تـكدّر من صفوه ولم تغيّـر من طبعه.

إن الوجوه التي يعشش فيهـا الذباب في مصر لأشرف الف مرة ومرة ، من تلك الوجوه التي نعرفها في شيكاغو وعصـابات شيكاغو . من وجوه آل كابوني وديلنجر وأمثالهما من عصابات الـكوكلوكس كلان . إن هذه الوجوه وجوه بريئة ، والجباه التي يقف عليها الذباب لا تمر بها ذكريات كذكريات استئصال الهنود الحمر،وذكريات حروب الاستئصال التي شنها أهل جنوب أميركا على سكان أميركا الأصليين. واذا أردت أيها القارىء ان تعرف شيئاً من

عقدة التربية

تعالى الله . لا ندري أصحيح ما نعلم من طبائع الاشياء ، أم نحن بيننا وبين الواقع حجاب من الاصلاح اللفظي ، وان وسائطنا لادراك الحقائق ليست إلا حواسنا غير الكاملة المتغيرة في كل لحظة.

ليكن ما نعلم منطبقاً على الواقع من أمر تلك المعلومات . فهل نحن نعلم شيئاً كثيراً من خواص الاجسام التي بين أيدينا نتخذها موضوعات للتحليل والتركيب والمشاهدات ؟ وهل نحن نعلم طبائع ما فيها من القوى ذات الآثار المادية اليومية والمستمرة في حياتنا الدنيا حتى نستطيع أن نكيف نفس الطفل ، تلك النفس الطلعة المتمردة ، وذلك العقل الوثاب الذي لا يقر على شيء ، مع اننا لا نستطيع مشاهدتنا أن نضع قانوناً ثابتاً لحركات الطفل المادية . فانه ينط في البيت وفي الارض من هنا الى هنا ، ولو شددنا وثاقه لظلت تلعب أطرافه في كل الاتجاهات .

ليس معنى ذلك أن نكف عن البحث في قوانين التربية ونيأس نهائياً من الوصول الى اكتشاف الغرض الاخير ، والوسائل المؤدية لهذا الغرض لنحصل على المثل الأعلى للرجل . ذلك ما لا نريد ، وفي ظني اننا لو أردنا لما استطعنا تنفيذ تلك الارادة ، لأن هذا الشوق الى الكمال يظهر عليه انه بعض طبائعنا . ولكننا نرمي بما نقول الى أن التربية الانسانية عقدة ما ظنناها حلت الى الآن ، فلا بد أن يكون الخوض فيها مصحوباً بالحاسبة بعض الشيء . ويكون تقرير خير الطرائق بغلبة الظن لا بالصورة القطعية .

احمد لطفي السيد باشا

نقلا عن الجزء الثاني من « المنتخبات » هدية المقتطف المقبلة

تاريخ هذه الوجوه التي لا يعشش فيها الذباب ، فارجع الى كتاب « سياحة حول الأرض » للعلامة دروين لتعرف كيف يكون فن القتل وفن الافناء بدم أبرد من أن يحس به الذباب الذي لا يعشش في وجوه أولئك .

نعم اننا لم نخترع المدفع الرشاش، ولا البارجة الحربية، ولا القنابل السامة . وخير لنا ان يعشش الذباب في وجوهنا من أن يخترع لنا التاريخ ذباباً خاصاً يرصع به جباهنا تلقاء تلك المخترعات ، أشبه بذلك الذي سيخترعه لأولئك الذين نشأوا مدنية صناعية مادية، ثم أخذوا يقوضونها ، لأن أرواحهم لا تحتمل الذباب، إذا أراد أن يعشش في وجوههم

إن مصر والشرق العربي كله من ورائها لن تنسى حسنة تأتيها من إنسان . ولكنها لن تتجاوز عن سيئة ترمى بها . وان الامة الأميركية الحرة ، لتنظر الى أمثال هذا الكاتب نظرة استخفاف ، عالمة ان تبادل الاحترام بين الشعوب أساس المودة والاخاء وتبادل المنافع .

الانجليزية الاساسية

يكثر الكلام في هذه الأيام عن لغة جديدة تسمى « الانجليزية الاساسية » أو Basic English . وكلمات هذه اللغة انجليزية ولكنها ليست كل الانجليزية، إذ هي لغة كاملة بمعنى ما ، أي من حيث التعبير عن الحاجات المألوفة سواء بالحديث أم بالكتابة . وكلماتها ٩٤٦ كلمة مختارة من الكلمات الانجليزية التي يجري استعمالها أكثر من غيرها، كما تمتاز أيضاً بوضوح معانيها ، وقواعدها هي قواعد اللغة الانجليزية ، بحيث ان من يتحدث بها أو يقرأ بعض مؤلفاتها من الانجليز أو الأميركيين، لا يشعر بأنه يقرأ لغة جديدة تقل كلماتها عن الف كلمة.

وقد كثر الاهتمام هذه الأيام بهذه اللغة التي وضعها صاحبها « أوجدين » منذ أكثر من خمس عشرة سنة . والسبب في هذا الاهتمام يعود إلى الاتجاهات والفكريات الجديدة التي بعثتها هذه الحرب . فان الدنيا كلها تكاد تلهج بلهجة فكرية واحدة ، هي ان هذا الكوكب يحتاج الى نظام للأمن العام يعمه كله، فلا يجوز لأمة أن تثب فجأة الى الغزو والفتح كما فعلت المانيا . وهذا الاتجاه هو الذي نجده في ميثاق الاطلنطي، وفي الحريات الاربع، وفي كثير من خطب الرئيس روزفلت، وتصريحات المسئولين في الأمم المتحدة .

ولا بد أن الاتجاه نحو نظام كوكبي ، يعم فيه الأمن والطمأنينة جميع الأمم الصغيرة والكبيرة ، يبعث أيضاً الاهتمام أو على الأقل التفكير في لغة عامة . وليس هذا التفكير جديداً في أيامنا ؛ وليست الحرب القائمة السبب الوحيد فيه . فاننا كلنا نذكر لغة « اسبيرانتو » ولغة « نوفالي » اللتين حاول الذين وضعوهما وروّجوا لهما ، تعميمها بغير نجاح كبير . والميزة الكبرى لكل من هاتين اللغتين انها تحتوي كلمات ترجع في أصولها وتأليف جملها إلى اللغات الاوربية بحيث ان الانجليزي أو الفرنسي أو الهولندي أو الالماني لا يجد مشقة كبيرة في تعلمها . ولكن كلاً من اللغتين جديدة . أما « الانجليزية الاساسية » فليست جديدة ، لأن الذي يتعلم الانجليزية يعرف كلماتها ولا يجد كلمة واحدة غريبة فيها . وقد كان غرض « أوجدين » واضع هذه اللغة أن يهتدي الى لغة اقتصادية تحوي جميع الكلمات الضرورية ، بحيث يمكن الأجنبي أن يتعلمها في نحو شهرين أو ثلاثة أشهر . وقد جمع نحو تسعمئة كلمة عني باختيارها

عناية كبيرة جدًّا . وحسب أن المتعلم لا يحتاج الى أكثر من شهرين إذا كان سيستظهر خمس عشرة كلمة كل يوم أو ثلاثة أشهر إذا كان سيستظهر عشر كلمات فقط كل يوم . ومما يدل على قيمة هذه اللغة انه أمكن تأليف الكتب الجدية بها في العلوم والآداب والاجتماع والتاريخ الخ .

ويجب هنا أن نزيل التباساً . فان « الانجليزية الأساسية » ليست كل ما يجب على المتعلم أن يتعلم . ولكنها هي البداية التي تمكن المبتدىء من قراءة أكثر من مئة كتاب ألفت بها، وأيضاً من التوسع بتعلم كلمات أخر . والنجاح الأول يحفز على الاستمرار في التوسع والدراسة. ولذلك فان المستر «أوجدين» الذي وضع ٩٤٦ كلمة قد ألف معجماً يحوي عشرين ألف كلمة مشروحة بالانجليزية الأساسية .

وكلمة « الأساسية » تعني ان اللغة تتصف بصفة الأساس . وهي كذلك . وقد قصد المؤلف إلى هذه الغاية . ولكنه مع هذا يقول ان الكلمة Basic مؤلفة من حرف B لكلمة بريتش أي بريطاني . وحرف A لكلمة اميركان أي أميركي . وحرف S لكلمة سينس أي العلم. وحرف I لكلمة انترناشنال أي الدولي أو العالمي . وحرف C لكلمة كوميرشيال أي التجاري . فكلمة « بيسيك » تعني انها لغة بريطانية اميركية علمية عالمية تجارية .

واللغة كلها مؤلفة من ٩٤٦ كلمة انجليزية ، وليس فيها من الأفعال سوى ثمانية عشر فعلاً ، وسائر الكلمات أسماء وحروف وظروف الخ . وقد اختيرت هذه الكلمات باعتبار إنها ضرورية كثيرة الاستعمال . فنحن نجد فعل Will بمعنى يريد، ولكننا لا نجد فعل Shall بهذا المعنى ، لأن الأول قد أغنى عن الثاني . ونحن الذين تعلمنا الانجليزية وحطمنا رءوسنا في تفهم الفروق الرقيقة الدقيقة بين Shall و Will نأسف لأننا لم ندرك «الانجليزية الأساسية».

والآن لا بدّ أن نتساءل: كيف اختار المستر «أوجدين» هذه الكلمات والى أي المبادىء استند ؟

وللاجابة على هذا التساؤل نقول: ان المستر «أوجدين» قبل أن يكون لغويًّا كان من رجال السيكلوجية أي علم النفس المعدودين . وقد وجد نفسه انه وهو يؤلف كتاب «معنى المعنى» انه استغرق في دراسات حملته على أن يبحث الكلمات من حيث قيمتها في التفكير . فوجد أن بعضها يؤدي الى الدقة والفهم . وبعضها لا يؤدي الى غير الغموض والابهام . ووجد ان في الانجليزية من المترادفات واشباه المترادفات ، ما يمكن الاستغناء عنه دون أي نقص أو خلل يصيب التعبير . ففكر في إيجاد لغة يتيسر تعلمها في أقل الوقت وبأقل المجهود ، فكانت « الانجليزية الأساسية »

والباعث الأصلي ان «أوجدين» أراد الوصول الى لغة دقيقة محكمة تؤدي المعنى الذي نريد

بلا زيادة وبلا نقص، كما يدل على ذلك اسم كتابه « معنى المعنى » فهو في هذا الكتاب يشرح التغيرات التي تطرأ على معاني الكلمة بانتقالها من مناخ ذهني الى مناخ ذهني آخر . وبعد عناء ودراسة فكر في إيجاد لغة حسنة يتيسر تعلمها في أقل الوقت وبأقل المجهود . فكانت « الانجليزية الاساسية »

ففي اللغة الانجليزية مثلاً كلتا small و little بمعنى واحد تقريباً ، وكذلك large و big وكذلك commence و begin وكذلك band, riblon, strip وكذلك skin, rind, jacleet, peel وكذلك thread, toine, cord, string, rope فهو يستغني بكلمة عن هذه المترادفات . فهو يأخذ thread بمعنى خيط فيسمي الحبل « خيط ثخين » a thick thread ويستغني بذلك عن rope و cord و twine و strip وهو يستعمل skin بمعنى جلد للانسان والشجرة والثمرة .

والغرض الأول من « الانجليزية الأساسية » هو تيسير اللغة لمن يريد تعلمها من الغرباء عنها ، وكذلك تيسيرها للمبتدئين من أبنائها . أما الغرض الثاني فهو امكان استعمالها لغة اضافية لجميع أبناء الامم الأخرى . لأنها تفضل لغتي الاسبيرانتو والنوفالي . اذ هي تمتاز منهما بانها كما قلنا — ليست جديدة إذ ينطق بها أكثر من مئتي مليون، وهي حافلة بالمؤلفات والصحف . في حين ليست للغتين الآخرين شيء يستحق الذكر من المؤلفات أو الصحف . وقد أدخل المستر «أوجدن» في لغته اكثر من خمسين كلمة تستعمل في جميع اللغات مثل تليفون . اتومبيل . تلغراف . راديو . بار . هوتيل . كلوب . فالأجنبي الذي ينوي تعلم « الأساسية » يجد قبل أن يتعلم منها حرفاً، انه يعرف نحو خمسين كلمة منها، لأنها كانت جميعها في لغته الأصلية.

ثم هو عند ما يتعلم هذه اللغة يستطيع أن يتوسع . وهو في توسعه سيحتاج إلى كل كلمة من « الأساسية » إذ ليست فيها كلمة مضيعة أو مخزونة أو نادرة الاستعمال ، كما هو الشأن في جميع لغات العالم .

وقد اختار «أوجدن» لهذه اللغة ثمانية عشر فعلاً ، واستغنى عن جميع الأفعال الأخر في اللغة الانجليزية . وأفعاله هذه هي

Come, get, give, go, keep, let, make, put, seem, take, be, do, say, see, send, begin, may, will

وقد نعجب كيف يمكن أن تكفي ثمانية عشر فعلاً للغة ! ولكن « أوجدن » يستعمل الأسماء الكثيرة مع الأفعال القليلة ، فيصل منها إلى كل ما يحتاج اليه المتكلم أو الكاتب في الحاجات المألوفة . ولننظر مثلاً إلى فعل go فان هذا الفعل يمكنه أن يؤدي نحو عشرين معنى فنقول مثلاً

يحيط	go round
يعبر	go across
يسافر	go away
يتعقب	go after
يعود	go again
يهجم على	go against
يسبق	go before
يمر	go by
ينزل	go down
يذهب ليحضر	go for
يجري	go very fast
يدخل	go in
يتابع	go on
يطوف	go from place to place
يخرج	go out
يخترق	go through
يزور	go to
يصعد	go up
يشاكل	go with

وفي اللغة الانجليزية نحو أربعة آلاف فعل، ولكن «أوجدين» يقول ان استعمال ثمانية عشر فعلاً يقوم مقامها، أو على الأقل يقوم مقام أكثرها وهو هنا بمثابة من يستعمل فعل ذهب فيقول:

ذهبت حول الحديقة بدلا من طوفت. وذهبت من جانب الى آخر بدلاً من عبرت.
وذهبت الى الاسكندرية بدلاً من سافرت. وذهبت خلفه بدلاً من تعقبت.
وذهبت الى سفح الجبل بدلاً من نزلت. وذهبت الى قمة الجبل بدلاً من صعدت.
وذهبت بسرعة بدلاً من عدوت. وذهبت الى منزله بدلاً من زرته.
وذهبت خارج الغرفة بدلاً من خرجت. وذهبت الى الغرفة بدلاً من دخلت.

وواضح ان ثمانية عشر فعلاً تستطيع أن تؤدي مع نحو ثمانمئة اسم وحرف وظرف، آلافاً من المعاني، اذا اتبعنا هذا الأسلوب. وهذا الاقتصاد في الكلمات يشجع الاجانب على تعلم الانجليزية. فان اللغة كلها تكتب كلماتها في ورقة واحدة تلحق بالكتب المؤلفة بهذه اللغة، وهي كما قلنا تزيد على مئة كتاب تعالج الفنون والعلوم والآداب وتترجم مجلداتها من مئة صفحة الى أربعمئة أو خمسمئة صفحة.

وسواء قدّر لهذه اللغة أن يتعلمها أبناء الأمم الأخرى أم لا، فانهُ من الجلي أن الطريقة التي ألفت بها، تجعل تعلمها للمبتدئين ميسراً. وكثير ممن شرعوا في تعلم الانجليزية انقطعوا عن متابعة الدراسة وهم في وسط الطريق لوفرة ما فيها من كلمات تزحم الذهن وتبلبله، مع أن القليل من هذه الكلمات المختارة في « الانجليزية الأساسية » يكفي للتعبير الدقيق والفهم الصحيح. وإذا كان المبتدىء سيجد نفسه قادراً على أن يقرأ نحو مئة كتاب في مختلف المعارف البشرية، فانه سيتجرأ ويتغلغل في الانجليزية، وعندئذٍ تنفتح أمامه مملكة كبرى من ممالك الفكر، لا يقل ما يطبع فيها في اليوم عن مئتي كتاب جديد.

سلامه موسى

تطورات الاجتماع الانساني بين حربين

الاتجاه الحضاري

لديمقراطية الغد

تجوز الانسانية اليوم مرحلة حاسمة من مراحل تاريخها الحافل ، وتشرئب أعناق روادها والمهيمنين على أقدارها إلى رحاب الآفاق الجديدة ، ليتلمسوا من بين أحداث الحاضر ووقائع الماضي أوضاع الحقائق السياسية والاقتصادية التي يجب أن يقوم عليها عالم الغد . وهو عالم عقدت عليه هذه الانسانية آمالها الكبار ، عساها تنعم في ظلاله بحياة رخاء وإخاء وسلام لا يقصر لها أجل .

واستقراء الأدوار التاريخية التي جازت بها الحضارة الانسانية في مختلف صورها وعصورها ومناشىء تكوينها ، يقطع بأن هذه الحضارة المتحركة ستظل محكومة بقانون أبدي هو قانون التطور الاجتماعي ، بمظهريه المادي والروحي .

فمادية التاريخ ، سواء على الوضع الماركسي المتطرف ، أو الوضع الرأسمالي الجشع ، أو الوضع الاشتراكي المعتدل ، ليست سوى السناد الجوهري أو المادي لشتى نظم العمران التي تناوبت عالمنا الأرضي منذ فجر حضاراته . أما روحية التاريخ أو حركة العقل في مسالك الزمن ، على حد ما ذهب اليه الفيلسوف «هجل» ، فهي الصورة أو الأسلوب الذي تتطور به الأحداث المادية لتاريخ الانسان ، والقالب الذي تنصب فيه اتجاهات نشاطه في هذه الحياة ، ومن هنا كان العقل والمادة كلاهما ملاك الحياة الانسانية كلها ، لا عمل لقانون التطور إلا بهما جميعاً ، وإن تفاوتت بينهما النسب والاوضاع حيناً وتقاربت حيناً آخر ، على حسب الظروف والملابسات وخصائص البيئات .

والحق أن فلسفة التاريخ الحضاري كله ، قوامها نزعة سيكولوجية مركوزة في أعماق الفطرة الانسانية ، تحفز قواها وملكاتها إلى نشدان ما يكمل نواحي النقص الكامن في طياتها ، وتستهدي بها هذه الفطرة إلى تحقيق التجاوب بين عناصر الشخصية الانسانية وعناصر المحيط الخارجي كله . وبمعنى آخر بين عالم المُثُل الذي تتجمع في رحابه أحاسيس النفس ورغباتها ، وعالم الواقع الذي يباين في كثير من أوضاعه وحقائقه ، خيالات الانسان .

ومن ثمَّ كانت الحياة الانسانية سلسلة موصولة الحلقات متلاحقة الأدوار من الانقلابات المادية [١] والثورات العقلية والروحية [٢] ، ولعلَّ هذه الانقلابات والثورات تكون بمثابة التمديد والبسط لتلك النزعة السيكولوجية العميقة التي تهدف بالانسان الى دوام التطلع الى تجديد القيم التي تحكمه وتخط له اقداره ، والى التسامي الأبدي الى بعث رواقد المثل المكبوتة في أعماق وعيه الباطن ، ليراها ممثلة في شرائعه ونظمه وأساليبه المادية في استغلال الحياة . هذا الانسياق الحثيث وراء نزعة الكمال الروحي ، وذلك الدأب المتصل في سبيل الهيمنة المادية على قوى الحياة ، هما الطابع المميز لحركة التطوّر التاريخي التي انتظمت أجيال البشرية في ظل أنماطها الحضارية المتلاحقة ، وهي حركة تنطق بروعة هذا الكفاح الهائل ، تبذله النفس الانسانية لتحقق به لذاتها مستوىً اجتماعيًّا أقوم وأرفع ، وتستوفي به ما ينقص شخصيتها من عناصر تقدمية وصفات سلوكية ، تؤهلها لملاحقة موجات التطور ومسايرة وثباتها القريبة والبعيدة ما استطاعت إليها سبيلاً .

والشخصية الانسانية المحفوزة الى أن تستوفي بالتطور حظها من المدركات والتجارب ، وإلى أن تحقق في العالم الخارجي مكنوناتها التي أنضجها التأمل والنظر ، هي الشخصية الاجتماعية المتوازنة ، التي يكون في مقدورها أن ترسم لذاتها مجالات النشاط والحرية ، أو بمعنى آخر حدود الحق والواجب ، حقها على المجتمع أو الدولة وواجبها إزاءها .

وحدود الحق والواجب على وجهٍ عام ، لا تعدو استعداد الفرد وتهيؤه لادراك حقيقة الروابط والعلاقات التي تصله ببقية أفراد مجتمعه ، ليبادلهم تضامناً معنويًّا وحسيًّا قوامه فهمه لالتزاماته الاجتماعية والقومية بوصفه عضواً في مجتمع مدني ، وكذلك فهمه لالتزامات دولته إزاء سائر الدول ، بوصفها عضواً في مجتمع دولي متشابك الأواصر والعلاقات ، ولن يؤتي هذا الفهم نتائجه ، إلاَّ إذا بني على قواعد مستقيمة قوامها ثقافة اجتماعية حرة ، تؤكدها شواهدُ إنسانية عامة ، وتضبطها مبادىء عالمية مشتركة ، تساهم في اعتناقها واعلائها شعوب العالم المتمدين كله لا فرق بين أجناسها وأوطانها جميعاً .

ولعلَّ من الشواهد الاجتماعية التي تكاد تجري مجرى البداهة في تاريخ الحضارة ، استحالة تدرج هذا التطور في مدارج سلمية ، وإباءه للانسياق في سلسلة من الاطرادات الهادئة المطمئنة ، ومن ثمَّ تراءت لنا حلقات التطوّر التاريخي المتعاقبة ، في صور متباينة

---

(١) فالعصور التي توالت منذ العصر الحجري الى البرونزي الى الحديدي الى العصر الحاضر عصر القوى الكهرطيسية الخارقة ، ليست جميعاً الا سلسلة انقلابات مادية متعاقبة في تاريخ الانسان .

(٢) كالاديان السماوية والعقائد الوضعية وشتى المبادىء الاجتماعية الاخرى التي خضع لها الانسان .

من الالتواءات والانقلابات التي نستبين في وقائعها وأحداثها عناصر داوية للكفاح والصراع في سبيل الغَلَب والبقاء .

وكما أن من الجائز أن يظل دأبُ الحضارة الانسانية وسعيُها إلى الوصول إلى مثلها العليا منوطاً بهذا الكفاح الملحوظ في تاريخها ، فان من الجائز أيضاً أن نرجح ظهور عوامل فعّالة قد تقلّل من حدته وتطامن من عنفوانه ، وخاصةً وأن الانسانية تستشعر اليوم بحدس يقرب من اليقين الصائب ، أنها تجوز بعصر من عصور الاستنارة واليقظة، يعينها على أن تفيد من اتجاهات هذا التطور وانقلاباته منذ عصر الثورتين الاميركية والفرنسية، فعصر الحرب العظمى الماضية ، فهذه الحرب العالمية المعاصرة.

وثمة ما يؤكد هذا الأمل المرتجى في ظهور هذه العوامل الخيّرة التي تطب أدواء البشرية وتخفف من نكبات الحضارة . على أن التفاؤل المطلق أو التشاؤم المحض، لا يمكن اتخاذ أيهما معياراً سليماً لقياس مذاهب الحياة الانسانية أو ميزاناً دقيقاً لتقدير طبيعة الخصائص والمشكلات التي ينطوي عليها الاجتماع البشري . فليست الحياة الانسانية معركة لاهبة من الصراع الحيواني فحسب ، وليست هي كفاحاً دامياً تؤججج هواجه غريزة إفناء الذات التي يحدّثنا عنها علم النفس ، ويعزوها إلى الصفات البدائية التي تسربت في أغوار الانسان منذ عصور همجيته البائدة ، بل انه الى جانب هذه الغريزة الكامنة غريزة أخرى تعارضها ولا تني تكظم ثوائرها ، هي غريزة حب الذات والحرص على حفظها من عوارض الهلاك والفناء .

وغريزة المحافظة على الذات هي التي حفزت الانسان الى إيثار التعاون والتضامن مع أبناء جنسه ، وزفقت حواشي الحياة وعمرتها بالتراحم والمحبة الى الحدّ الذي يرجى معه إقالة الانسانية من عثارها في أعقاب الانقلابات الدامية والحروب المدمرة التي تهدد مصاير الحضارة ، وهكذا تحيل هذه الغريزة عوامل الحروب الى عوامل للسلام ، وتطلع على العالم بمُثُلٍ جديدة وأوضاع أقوم، تعزز جوانب الخير في شخصية الانسان ، وترفع مستوى حياته مراتب ودرجات .

جاءت الثورة الفرنسية الكبرى في أعقاب أختها الأميركية بانقلاب اجتماعي زلزل قوائم الحياة في مؤخرات القرن الثامن عشر ، وأخذ يتجه بالحضارة الأوروبية وجهة جديدة لم تكن تعرفها من قبل ، وان كانت أماراتها قد ظلت مستسرة في أعماق الضمائر التي أضناها شذوذ أوضاع الحياة، وفداحة مظالمها في ظل الطغيان الفردي الغاشم ، حتى جاءت أفكار الكتّاب والفلاسفة، وهم طلائع التقدم ورواد البحث الجديد ، يفسرون مكنونات النفس الأوروبية المكبوتة ، في صور مثالية رائعة، هي مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، ونادوا

بها حقوقاً طبيعية أبدية للانسان، في كل زمان ومكان.

غير أن بيئة المجتمع الأوروبي لم تكن مهيأة يومئذٍ لتمثيل هذه المبادىء واستهوائها في تطبيقات الحياة والعمل، فالتفكك الاجتماعي بين الطبقات ظلّ ضارباً أطنابه خلال شطر كبير من عصر الانقلاب الصناعي في القرن التاسع عشر، والطبقة الوسطى التي ألهبت أتون هذه الثورة واضطلعت بتوجيه أقدار المجتمع الثوري في فرنسا ساست الحياة الاجتماعية في ظل أوضاع «البورجوازية» مستهدية بأغراض نظامٍ سياسي يمكن أن ننعته باسم «الديمقراطية الرأسمالية» التي تجعل فرص الحياة وقفاً على طبقة الرأسماليين من رجال المال والأعمال، وهكذا أخذ «المشروع الاقتصادي» في صورة «الانتاج الكبير» مظهر الاستغلال الفاحش، تثرى به طبقة على حساب أخرى، ويهيء للطبقة الممتازة كافة فرص الحياة من تربية وثراء وعمل رابح وحظٍّ موفور من سلطان السياسة وجاه الأحزاب.

وظلّت العلاقة بين طبقة «السادة» وطبقة «المسودين»، أو بمعنى آخر بين طبقة أرباب الأعمال وطبقة العمال، ملتزمة حدود هذا الوضع الناشز، حتى هيأت ظروف الحضارة الصناعية الجديدة، في النصف الثاني من القرن الماضي، أذهان الناس لاستشعار مساوىء الحياة على هذا النحو الظالم، ومن ثمّ توالت حركات «النقابية» في شتى أشكالها تغزو المجتمع الأوروبي وتؤثر في اتجاهات نظمه السياسية، وترسم حدوداً جديدة للعلاقات التي يجب أن تربط بين الطبقات.

وانبعثت في الأفق الأوروبي نزعة المذاهب الاشتراكية لتبشر الطبقات المهيضة بحلم العدالة الاجتماعية، واستحلّ متطرفو الاشتراكيين وسائل العنف الثوري لتحقيق هذه العدالة على الأوضاع التي صوّرتها كتابات دعاتهم وجعلتها شرطاً أوليًّا لرجحان كفة العدل والحق والمساواة على كفة الجور والباطل والاستبداد في المجتمع البشري.

وشبت الحرب العالمية الماضية في ظل عراكٍ لاهب بين هذين المبدأين الاجتماعيين، مبدأ الفردية على المعنى الذي أرادته ثورة فرنسا الكبرى من جعل قوة الفرد الاساس الذي يبني عليه المجتمع، ومبدأ الاشتراكية على المعاني المتعددة التي أتاحت لها الظهور، ما جدّ من ظروف اقتصادية في ظل ذلك الانقلاب الصناعي الكبير. فمن ناحية السياسة القومية إذن، كان الفرد الاوروبي، وكذلك أخوه الأميركي بطل الحرب الأهلية عام ١٨٦٠ والحرب العظمى عام (١٩١٤—١٩١٨) يجاهدان ليحررا الحياة الاجتماعية من آثار المظالم الاقتصادية ما استطاعا السبيل إلى هذا التحرير، ويصوغان لهذه الحياة «يوتوبيا» جديدة يقوم فيها توزيع الانتاج واستهلاك ثمراته على مبادىء ديمقراطية عادلة تحارب شرور العوز والفقر،

تلك التي كانت وما تزال مصيبة المجتمع البشري في شتى أطوار حضارته .

أما من ناحية السياسة الدولية فقد كان المظنون أن تكون هذه الحرب العالمية الماضية فاتحة عصر جديد للاخاء الشعوبي تمحى فيه فوارق العناصر والاجناس وتندمج فيه تخوم الأوطان والقوميات ، وبهذا تحقق آمال هذه البشرية العانية في أحلام السلام والوئام .

لقد جاءت تلك الحرب لتصفية التركة الاستعمارية في ظاهر الأمر ، وان باينت الحقيقة المرة ، هذا الظاهر الخداع ونبت عنه . إذ كان أول ما ألهب جذوتها نزعات « الامبريالزم » والتزاحم الاقتصادي على مناجح الطبيعة فيما وراء البحار ، وموالاة خدمة الأغراض التي أتاحها عصر الكشوف الجغرافية في مطالع عهد الاستنارة في اوربة ، تلك الأغراض التي ترمي الى الفتح للامتلاك والاستغلال والاثراء !

لقد علل دعاة التوسع الاستعماري في أواخر القرن الماضي حرص الدول الكبرى على تملكاتها بنظرية اجتماعية مصطنعة ، قوامها ان الاستعمار ركن من أركان الحضارة ، ولما كان من اخص ما يعيب هذه الحضارة ذات الطابع العالمي الشامل عدم استغراق مبادئها لشعوب البشرية كافة ، كان حتماً مقضيـاً على شعوب الحضارة ان تستعمر الشعوب المتأخرة عنها لتسوسها وتنظم حياتها وتنهض بمرافقها ، ثم لتردها من بعدُ الى حظيرة الانسانية المتمدينة ، أمماً مصقولة راقية !

كانت هذه «الحقيقة» المزعومة ماثلة سافرة أمام أعلام السياسة العالمية في مؤتمر السلام عام ١٩١٩ ولم يكن امامهم من سبيل الى انكارها دفعة واحدة ، او لعلّ رجة الحرب الهائلة لم تكن كافية لأحداث تطور بعيد في سبيل الاخاء الشعوبي العام ، ومن ثمت اضطروا أمام وعودهم ومواثيقهم أن يحوّروا في صور الاستعمار وأشكاله ، ليوفقوا قدر الطاقة بين مبادىء ولسون الأربعة عشر وأسس هيئة السلام الجديدة ، وبين حقائق الأوضاع الدولية في ظل نظام الاستعمار . وعلى ذلك ابتكروا ما سموه بالوصاية أو الانتداب أو الحكم الذاتي ، وسائر هذه النظم التي عدوها مرحلة انتقال لابد منه كي يُعدوا الدول الخاضعة له للاضطلاع بأعباء الاستقلال ، وممارسة حقوق السيادة ، وكسب القدرة على ملاحقة ركب الحضارة .

ومن أسف أن تجيء الأوضاع الجديدة والنظم المستحدثة في ظل تركة مثقلة بالمشكلات المتخلفة عن تلك الحرب ، سواء أفي المحيط القومي أو الدولي ، مثاراً لسلسلة جديدة من الاضطرابات السياسية والأزمات الاقتصادية تلاحقت في أعقابها هزات اجتماعية مهدت بدورها لاثارة حرب عالمية أخرى جاءت أهول من الحرب الأولى وأبشع نكيرا .

لم يتجه ساسة العالم إلى رفع مستوى الحياة الانسانية في ظل رفاهية اقتصادية وتقدم

اجتماعي يقيلان هذه الانسانية المفككة من حضيضها الأوهد ، اللهمَّ إلاّ محاولات نظرية وجهود طيبة ، وإن كانت متواضعة ، أرادت أن تثبت بها عصبة الأمم كيانها وتبرّر وجودها في ناحية جليلة من نواحي العمران البشري ، هي ناحية الاصلاح الاجتماعي الذي ينتظم شعوب البشرية بغير ما فارق في الدين والجنس والوطن .

جاءت النكسات السياسية في صورة انقلابات فاجعة في نظم الحكم ، حوّرت الأوضاع الدستورية وزلزلت قوائم الديمقراطية في الأمم التي خرجت مهيضة الجناح من تلك الحرب العالمية الأولى ، ومهّدت من ثمت لقيام نظم الطغيان في أسلوب دكتاتوري شلّ إرادة الفرد واهتضم شخصيته وسخرها للدولة ممثلةً في حاكمها المطلق ، الذي رفعه الشعب المخدوع إلى أعلى مراتب التقديس والعبادة .

وسايرت الانقلابات الاجتماعية تلك النكسات السياسية مسايرة الظل لجسمه، لأنهما لم يمهدا لغير لون واحد من ألوان الجهاد، هو جهاد العدوان البربري والصراع الحيواني على إهدار حقوق الأمم وسلب مرافق الشعوب وحرياتها في سبيل ما زعموه « منادح للحياة » !

وكأنما استشعرت الانسانية المتحضرة شذوذ ما فرض عليها من أوضاع للحياة، لا تلائم طبيعة العيش في ظل الحضارة ، وأحست فداحة العبء الذي فرضته هذه الأوضاع على الأفراد بعد أن حرمتهم حقهم الآدمي المعقول في فرص عادلة لحياة خصبة مثمرة ، حياةٍ اجتماعية مطمئنة تجعل الانسان يجاوز نفسه ، ساعياً بالفكر والعمل وراء الحق والخير والكمال ، فتطلبت الفيض والتنفس في لونٍ آخر للجهاد .

أرادت هذه الانسانية ان تتنفس إذن لتفرّج عنها أوجاعها وتفرز خبائثها وترحض عن جراحها نجيعها الفاسد ، فامتشقت السلاح مرة أخرى وخاضت معركة الحياة والموت لتعيد إلى القيم الانسانية حرمةً، طاحت بها هذه النكسات العارضة في سير الحضارة .

وجاء وحي الجهاد الجديد في ظل هذه الحرب العالمية الثانية ، ذا آثار بعيدة ونتائج قيمة أدت إلى تطورات ذات بال في اتجاهات السياسة العالمية وأحدثت تقدماً محسوساً في مجالات الاصلاح الاجتماعي والتعاون الانساني العام .

وكأنما أراد ساسة العالم الديمقراطي ألاّ تسبقهم عجلة الحوادث وتزحمهم مشاكل السلام وتبلبل أفكارهم عقده ومفاجاءاته . فبدأوا بتحديد أهداف الانسانية من وراء هذه الحرب ثم أخذوا يطبون لها بألوان العلاج في نواحي السياسة والاقتصاد والاجتماع، حتى تخرج هذه الانسانية من الحرب وقد برئت من أدوائها وعيوبها ما استطاعت إلى هذا الأمل العزيز من سبيل .

ولسنا هنا في حاجة إلى تكرار ما سبق أن سجّله الباحثون من تفاصيل الأحداث العالمية التي تعاقبت بعد ذلك ، ولا نحن بصدد ترديد نظريات التفاؤل والتشاؤم ومراقبة أثرها في سير العمران البشري وبعث رواقد الحياة أو تعويقها فيه ، وإنما سبيلنا هو تصوير الأهداف وتسجيل الخصائص البارزة التي ستعطي لحضارة المستقبل طابعها الخاص ، مستهدين بهدى التطورات التي ما زال بعضها آخذاً برقاب بعض حتى ساعة كتابة هذه السطور .

١ — تطور نظم الاستعمار وسياسة الحكم وسيادة الدول

ليس من شك أن ثمت تطوراً ملموساً بدأت تنداح دائرته في محيط السياسة العالمية من حيث علاقة الشعوب الكبيرة بالشعوب الصغيرة . وسواء أكانت النظريات السياسية الجديدة التي يجري وفقها هذا التطوّر بمثابة عودٌ إلى نظم الماضي بعد تحويرها وتعديلها لملاءمة الظروف الجديدة ، أو كان أفق التعاون الدولي سيطالعنا بصور جديدة معقولة قوامها العدالة الدولية الى أقصى ما يستطيع أن يصل اليه ضمير الانسان في ظروفه المادية والأدبية الحاضرة ، فانه مما لاريب فيه ان الاتجاهات السياسية التي ستعم عالم ما بعد الحرب ستنطوي على أقصى صور التفاهم والتسامح والتعاون بين شعوب العالم كبيرها والصغير ، وخاصة وقد أظهرت هذه الحرب ضرورة إيجاد هذا التعاون لتخليص الأمم المنكوبة والشعوب المنهوكة من عقابيل هذا الصراع ومغباته الحالكة .

ولا شك أيضاً ان المجتمع الدولي سوف يتخلص إلى حدٍّ كبير من شرور السيادات الباغية التي كانت تغذيها العصبيات القومية وأحلام الجامعات العنصرية وأساطير التفاضل بين الاصول والأجناس . وسيكون ميزان النظر الجديد إلى مشكلة السيادة قائماً على أساس مرافق عالمية ومصالح دولية مشتركة وتضحيات تساهم فيها الامم جميعاً لتحقيق أقصى ما تستطيعه للعالم من سلام ورخاء . ولعلَّ أبرز خصائص الطابع الديمقراطي الحديث هو تحقيق هيئة دولية عامة تكون بمثابة « برلمان » لأمم العالم ، على ان يُزَوَّدَ في دستوره بقواعد وحقوق وسلطات تخرج به عن مجرّد الأوضاع الصورية والمذاهب النظرية إلى مجال التطبيق الحاسم الذي يصون حرماته إجماعٌ دوليٌّ على توحيد علاج المشاكل العالمية من حيث المبادىء العامة ، والقضاء على العدوان والبغي ، والمساهمة الفعّالة في نشاط هذا المجلس من النواحي الاجتماعية والاقتصادية الأخرى . وها نحن أولاء في انتظار نتائج مؤتمر سان فرنسيسكو الذي سيناقش مبادىء مؤتمر دمبرتون اوكس ، راجين أن يكون مظهراً مشرّفاً رائعاً للتعاون بين أمم العالم المكافحة في سبيل إقرار حقوق الانسانية وحرياتها .

ب — اشتراكية التضامن الاجتماعي

وإذا كانت الانسانية تكافح اليوم في سبيل إقرار قواعد جديدة للقانون الدولي تحتكم إليها الشعوب كافة ، فأنها تكافح أيضاً في سبيل أقداس اجتماعيـة وأخلاقية تحكم وتنظم الروابط والصلات بين أعضاء كل مجتمع بشري . فما نسميه بربرية الفوضى الدولية التي تحكم القوة الغاشمة وتغلبها على حق العهود والمواثيق ، ليس إلا مظهراً لوضع قومي آخر هو فوضى النزاع بين الطبقات في المجتمع الواحـد ، وانعكاساً واضحاً لحقيقة الصراع الاجتماعي الدائم بين هذه الطبقات .

إن أمثل أسلوب لديمقراطية الحكم هو الذي ينزل الى صعيد الحقائق ليستكشف أدواء الجماعة ويتعرّف الى أسبابها ليعالجها لا بأساليب الارتجال والدجل ، بل ببصائر التجارب وسلاح العلم والايمان بأن الحياة أخذ ورد ، وبمعنى آخر يجب ان يصل المجتمع الانساني إلى حالة من التوازن والعدالة يحصل كل فرد في ظلها على ما يحتاج اليه ، لا ليكفي ضرورياته هو وأسرته فحسب ، بل ليرقى كذلك بالمستوى الاجتماعي الذي له ولأسرته . ومن شأن هذا الوضع ان يقفنا على حقيقة معنى التضامن الاجتماعي الذي تمليه روح هذا العصر ، وهو تضامن يقتضي تهيئة الفرص التي كانت ظروف الحياة الاجتماعية الماضية تجعلها وقفاً على الطبقات الممتازة المثرية دون سواها . فحق الحياة الطبيعي هو حق الانسان في أن يوفر له مجتمعه الغذاء والكساء والمأوى والعمل والحصول على نصيبه من ثمرات التقدم والرقي . والناس ما عاشوا في مجتمع الاّ ليتمتعوا بحق الحياة ويصونوا حرمة الآدمية وكرامتها في أسلوب هذه الحياة وصورتها . والمصالح الفردية المتعاكسة يجب أن تكون مصالح متضامنة يكمل بعضها بعضاً ، وإلاّ انهارت قيم التضامن في الجماعة ، وتقوّض بناؤها .

لهذا لم يكن عجيباً أن نلمس مظاهر الكفاح الحكومي تتعدد جوانبه في الأمم الراقية لمحاولة القضـاء على العوز والفقر الذي يحول بين الفرد وبين نصيبه من الصـحة والغذاء والتربية من يوم أن ينشأ في مهده إلى ساعة دَرْجه في لحده ، حتى لقد حقّ لنا أن نسمي هذا العصر بعصر الضمان الاجتماعي الحديث .

إن رفع مستوى المعيشـة للشعوب أصبح هدفاً قومياً وعالمياً معاً . فهـذه انجلترا تشفق مقـدماً من أهوال مشكلات السلام وما قد تعرّض المجتمع البريطاني إليه من أخطار الاضطرابات والقلاقل المنذرة بعواصف اجتماعية لا تبقي ولا تذر ، فنراها من ثمت تسارع إلى دراسة قواعد السياسة الاجتماعية السليمة التي يجب أن تنظم الصـلات والروابط بين

طبقات المجتمع الانجليزي ، وتمخض دراساتها عن مشروعها القيم المسمى باسم واضعه السير وليم بيفردج لتقضي به على عمالقة العوز والمرض والجهل والقذارة. والتعطل التي لا يتحقق للجمعية البشرية معها ضمان اجتماعي ، ما دامت هذه العمالقة تسيطر على حياة الانسانية ، كما قال أستاذنا الفاضل رئيس تحرير هذه المجلة. ولسوف تتوازن دخول الأفراد وحقوقهم الاجتماعية والسياسية بفضل هذا المشروع، لو صدقت النية على إنفاذه وتحقيقه واقتباس الدول لما يتمشى من مبادئه مع ظروفها .

ورفع مستوى المعيشة هدف عالمي أيضاً ، وحسبنا أن يسجل ميثاق الاطلنطي في بند أساسي من بنوده الاربعة ، عزم الدول المتحالفة على مساعدة الشعوب لتتحرر من العوز والفقر . ولقد تألفت اللجان الدولية التي نيطت بها مهام اجتماعية حميمة سيتقرر بها المصير العمراني للعالم ، وتعددت نواحي نشاطها ، فواحدة للمساعدة والتعمير، وأخرى لحل المشاكل الاقتصادية والمالية ، وثالثة لدراسة الوسائل المنشطة للمرافق العامة من زراعة وصناعة وتجارة ومواد خام وهكذا

والاعتقاد السائد اليوم هو أن الفقر إذا حلّ في مكان سرت عدواه الى أماكن أخرى ، فهو يكون محليًا في بداية أمره ، ثم يصبح أهليًا فوطنيًا ، ومع مضي الزمن يستحيل الى داء عالمي ، وذلك لأن الانسان لايستطيع أن يعيش وحيداً بمعزل عن الناس في هذه الحياة فالاتجاهات الاقتصادية لها طابع الشمول والعموم على الدوام .

حـ — حرية الرأي والاعتقاد

كفلت الدساتير القومية في كافة الأمم المتحضرة تلك الحريات الفردية التي لا يستقيم بغيرها تقدم اجتماعي أو رخاء مادي . ولقد أحاط كثير من هذه الدساتير تلك الحريات والحقوق بضمانات تشريعية كافية .

ولم تكن حركة الدساتير التي ظلت مشبوبة الأوار طوال القرن الماضي ومطالع هذا القرن، سوى انعكاس قوي لنزعة التحرر الفردي والاستماتة في سبيل اجتياز الحقوق التي تفرضها كرامة الحياة على الآدميين ، ولم يكن انقلاب الثورة الفرنسية الكبرى وما تبعها من انقلابات سياسية واجتماعية إلاّ استطراداً لصور هذه النزعة الفطرية في سبيل الخلاص من ربقة الضغط والاستبداد وتكميم الأفواه ومحاربة العقائد .

لقد واجه العالم في أعقاب الحرب العالمية الماضية نكسة قوية من نكسات الحضارة كانت أعراضها تلك الأنماط الدكتاتورية التي قضت على أسمى مبادىء النظام الديمقراطي ونعني به مبدأ الحرية في أشمل معانيه .

وإذا كان أروع مظهر تتراءى فيه الحرية الانسانية هو حرية القول والرأي ممثلة في معاهد التربية ودور العلم وسلطان الصحافة ، فليس بعسير علينا أن نتصور مدى النكبات الفادحة التي أصابت الحضارة عند ما فرضت بعض الدول القيود والسدود والأغلال على هذه الحرية . لقد أثبتت وقائع التاريخ أن المستحيل بعينه،هو أن يحكم شعب أو يقوم له نظام وهو محروم من حرية القول والرأي . ذلك لأن الناس كما قال بعضهم أو كما يقول الواقع،يتنفسون بعقولهم مثلما يتنفسون برئاتهم ، فلا جرم كانت هذه الحرية أولى دعائم الحضارة الانسانية وكانت لها أيضاً مرتبة الصدارة في استحثاث خطوات تقدمها .

ولقد جاءت أحداث الكفاح الحالي مدللة في منطقها بأصرح دلالة على أن الحضارة الانسانية لا تقبل بطبيعتها انتكاساً يسلبها ما جاهدت القرون والأجيال من أجله ، كما ان عوامل التقدم والارتقاء المبثوثة في روحها تأبى تحكم القوة وتنبذ شريعة الغاية .

لقد عددت لنا الحضارة الحديثة وسائل التعبير عن الفكر في شتى اتجاهاته . فثمة الطباعة التي تربت في حجرها الصحافة ، وهناك « السينما » ذات السلطان الساحر على نفوس الجماهير ، وجاء « المذياع » و « التليفزيون » يكملان ما كان ينقص الانسان من أسباب التعبير والتصوير عن الافكار والمشاعر والآراء .

ان الاتجاه الديمقراطي لحضارة الغد لايمكن أن يمهد طريقهُ ولا تذلل عوائقه ، إلاّ إذا نظمت أمم العالم المتحضر هذه الحرية،وجعلتها الناموس الأول في نظام حياتها .

فاذا كان ميثاق الاطلنطي قد عرف خطورة مشاكل القوت والكساء عند الافراد والجماعات، فهو قد عرف أيضاً هذه الخطورة لقوت العقول والاذهان . وليس شك في أن كل من جاهد في هذا السبيل الشريف ستقدر له الانسانية ، أنه كان من صنّاع التاريخ وبناة الحضارة .

صلاح الدين الشريف

مصادر المقال

(١) E. Benes : Democracy to-day & to-morow

(٢) H. G. wells : The Rights of Man

(٣) مجموعة خطب ومقالات بالانكليزية لكل من تشرشل وروزفلت وسمنر ويلز

مكتبة المقتطف

ابن رشد الفيلسوف

حلقة من سلسلة « أعلام الاسلام » التي تنشرها لجنة دائرة المعارف الاسلامية . تأليف
الاستاذ محمد يوسف موسى — ١١٨ صفحة من القطع الصغير : ١٩٤٥

حلقة من سلسلة « أعلام الاسلام » وضعها حضرة الأستاذ محمد يوسف موسى المدرس بكلية أصول الدين ، والمعروف للقراء بكتاب « فلسفة الأخلاق في الاسلام وصلتها بالفلسفة الاغريقية » وكتاب « تاريخ الأخلاق » وغيرهما من البحوث القيمة . وكنا بحاجة حقًّا الى كتاب في ابن رشد يعين الطلاب على دراسته بعد أن نفد كتاب فرح انطون ، سيما ان المستشرقين إجمالاً يعنون بابن رشد شارح أرسطو أكثر من عنايتهم بمحاولته التوفيق بين الفلسفة والدين ، تلك المحاولة التي قال ليون جوتييه بحق أنها « معقد الطرافة في الفلسفة الاسلامية » (ص ٣٦) والتي لم يوفق هذا المستشرق الى عرضها عرضاً شاملاً . وقد جعل منها حضرة المؤلف موضوع كتابه بعد الترجمة للفيلسوف والتأريخ لعصره ، تأريخاً مستوعباً في إجمال ، فقال ان « رسالة ابن رشد كانت الانتصاف للفلسفة بعد ما لقيت من الغزالي ، والتوفيق بينها وبين الدين » (٢٦) ثم حصر المسائل (٣٧) وعالجها واحدة بعد أخرى علاجاً منهجيًّا موفقاً وبأسلوب رصين واضح ، مستنداً الى المراجع الأصيلة الموثوق بها . فكانت النتيجة أن ابن رشد لم يفلح في تبرئة الفلسفة من تهمة الكفر في المسائل الثلاث التي ذكرها الغزالي ، وهي القول بقدم العالم ، وقصر علم الله على الكليات ، وانكار بعث الأجساد ، وأنه من ثمت لم يتم له ما أراد من الانتصاف للفلسفة . وما كان هناك سوى طريق واحد للانتصاف لها ، هو تعديل مواقف الفلسفة اليونانية في هذه المسائل . واعتقادنا ان هذا التعديل ممكن بالفلسفة نفسها أي بالاستدلال العقلي فحسب ، وان الغزالي وفق اليه في كتاب « تهافت الفلاسفة » فكان أكثر حرية وأكثر ابتكاراً من الفلاسفة . وقد يكون لحملته العنيفة على الفلسفة نصيب كبير فيما أصابها من بعده في العالم الاسلامي . ولكن

عذره انه أراد الدفاع عن الدين ، وهذا حق له لا ينكره عليه أحد ، وانه ظن الفلسفة كلا لا يتجزأ فاعتبرها عدوة الدين ، وهذا ظن وصل اليه من الفلاسفة أنفسهم الذين اقتصروا على ترديد أقوال اليونان معتقدين انها كالبنيان المرصوص لا يمس حجر منه إلاّ انهار كله .

هذا ، ومن الحق أن نشير إلى الفصل الذي عقده لبيان أثر ابن رشد الفيلسوف من بعده في الشرق والغرب ، وبيّن فيه في استقراء العوامل التي من أجلها لم ينتفع الشرق بجهوده في سبيل الفلسفة والتوفيق بينها وبين الدين ، بينما كان أثره في الغرب كبيراً وعظيماً حتى كان كبار مفكريه يختصمون من أجله .

وأخيراً ينبهنا الأستاذ المؤلف الى ان كتابه ليس « رسالة خاصة عن ابن رشد وفلسفته » (٩٨) ، ولعله مقبل هذه الأيام على هذه الرسالة الخاصة كما نرجو ، فان ابن رشد حقيق بدراسة مفصلة عميقة ، والمؤلف قمين بالقيام بها .

يوسف كرم

***

[المقتطف] — نعقب برأي المقتطف في هذا الكتاب ، فقد رأينا فيه أشياء لا ينبغي أن تفلت من حلقة النقد في عصرنا هذا .

أصدر الامام المحدِّث الفقيه ابو عمر تقي الدين الشهرزوري المعروف بابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣ هـ . فتوى بتحريم المنطق والفلسفة ، فكان لهذه الفتوى خطر وسلطان ظلا قويتين دهراً طويلاً . سئل عن حكم الله فيمن يشتغل بكتب ابن سينا وتصانيفه فقال : «من فعل ذلك فقد غدر بدينه وتعرّض للفتنة العظمى » . لأن ابن سينا : « لم يكن من العلماء ، بل كان من شياطين الأنس »

وفي فتوى أخرى يقول : « إن الفلسفة أسّ السفه والانحلال ، ومادّة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة،ومن تفلسف فقد عميت بصيرته عن محاسن الشريعة ، ومن تلبّس بها تعليماً وتعلّماً قارنه الخذلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان » — وقضى بأن الواجب على السلطان أن — « يعرض من ظهر منهم اعتقاد الفلاسفة على السيف أو الاسلام ، لتخمد نارهم ، وتمحى آثارهم » .

كانت هذه هي روح الدين في عصر ابن رشد ، وإن أردت أن تخفف شيئاً من حدّة القول فقل كانت هذه هي روح رجال الدين ، وهي أشبه بالروح التي أملت على النّصارى في العصور الوسطى أن يضعوا نظاماً يقال له نظام الفهرست الذي يتضمن الكتب التي يحظر على المؤمنين من النصارى قراءتها ، وكان منها كتب كوبرنيكوس وغليليو وجوردانو برونو وغيرهم.

تلك إذن كانت روح العصر التي أحاطت بابن رشد ، وهي روح عتية قاسية لا تترك من أثر لروح التفكير الحر ، بل لروح الاسلام ذاته الذي حض على اطلاق الفكر اطلاقاً سوّد فيه الارادة البشرية تسويداً قد يضيق به بعض المتطامنين من أهل زماننا هذا ، على النقيض مما جاء في القرآن وآيته العظمى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

من الظلم إن نسوق النقد في آثار الماضي فنقيسها على حالات عصرنا . وللنقد ثلاثة أساليب تخضع لها الآراء الفلسفية ، بل وكل الآراء والأساسيات التي تنزع إلى التأمل . فجمهورية أفلاطون بما فيها من ألوان الرأي وضروب النظر ، يمكن أن يخضعها الناقد جميعاً إلى هذه الأساليب ليكشف عما فيها من الخطأ والصواب . وهذه الأساليب هي :

الأسلوب المذهبي . وهو طريقة للحكم في مستفادات العقل الانساني ، وان بعدت عن فكر الناقد وعصره ، بمقتضى تلاؤمها وموافقتها للمبادىء التي قال بها كونت او اسبينوزا او هيجل او ميل ، مقيسة على أفضل ما يتعلق به الناقد من المتجهات العقلية .

ثم الأسلوب الانتقائي او التلفيقي او التوفيقي : وهو أسلوب يرمي إلى أن ينتقي الناقد من المذاهب المتنابذة او المتعارضة ، ذريرات الحق المتناثرة في ثناياها ، بحسب ما يراه منها حقاً . وهو اسلوب يشيع في العصور التي تقوى فيها نزعة القراءة وتتسع فيها المعلومات ويكثر شحن الأذهان بالآراء والفكرات ، ولكن يندر أن يكون للمعلومات المستجمعة على هذه الصورة قوة أولية خاصة بها . ومثلها مذهب الأفلاطونية الجديدة كما عرف في مدرسة الاسكندرية في القرن الثالث الميلادي ، أو كما عاش في فلورنسا في القرن الخامس عشر . وأهم نقائص هذا الأسلوب الرئيسة فيه ، هي نزعته الى تشويه المذهب الأصلي الذي يدعي أهل هذا الأسلوب انهم يعملون على تبيانه وجلاء غوامضه ، حتى يمكن بذلك ان يلفق أو يؤلف بين أحسن ما فيه ، وبين العناصر الأولية في نظام فلسفي آخر مسلّم وموثق به من ناحية الناقد .

هذان أسلوبان نقديان نحّيا الطريق في القرن العشرين ، بتأثير نظرية هيجل الثابتة التي كوّنها في ما دعاه « روح العصر » الدائمة التغير المستمرّة الفيض والتدفق ، لأسلوب ثالث في النقد ، هو الأسلوب التاريخي . وهو أسلوب يحملنا على ان نرد المذهب الذي نكب على نقده او الأثر الفلسفي الذي انحدر الينا من مخلفات الماضي المجيد ، كجمهورية أفلاطون مثلاً ، بقدر المستطاع وجهد ما يصل الجهد ، الى مجموعة الحالات العقلية والاجتماعية والمادية التي أحاطت به حال نشوئه ، إذا ما أردنا صادقين أن نتفهمه ونتفقه فيه . فان هنالك بضع مسائل اقناعية ، نستطيع بقوتها أن نحكم من طريقها من أشياء العقل أسوية هي أم غير سوية ،

لدى أول تأمل نحصره فيها ، كما أنها عدنا بمعنى يقبله العقل من ناحية أصلها وكيفية نشوئها.

أول هذه المسائل اعتقادنا بأن لكل عصر عبقرية خاصة به ، أشبه شيء بعبقرية الأفراد ، وان لكل عصر صورة عامة او « طابع عام » يستمد من الحالات التي تدمغ كل ما ينتج في ذلك العصر من عمل او فن او تجديد او تأمل او دين او اخلاق ، بل ويدمغ وجوه الناس انفسهم ، وانه ما من شيء استخلص الانسان من طبيعة نفسه ، يمكن ان يُفهم حق الفهم ويدرك حق الادراك ، الا في عصره الذي نشأ فيه ، ومن ينبوعه الأصيل الذي خرجه من تضاعيف تلك الحركة الدائمة التي يختص بها هذا النظام الدنيوي ، وان أسمى ما ينبغي أن يتعرّف اليه من يتصدّى لدرس المذاهب الفلسفية ، انما هو تنمية « الملكة التاريخية » في نفسه .

إن كل شيء في الوجود هو مقولة منطقية قائمة بذاتها من مقولات الضرورة القاسرة. لذلك ترى أن العقائد مهما ضربت في الخيال ، ومشت مع التصور الصرف ، كشيوعية أفلاطون مثلاً ، أو تلفيقية بن رشد ، انما تقع على أصولها الطبيعية ، إذا ما رددتها الى تلك المقولات . وما نقصد بمقولات الضرورة الا الحالات التي أحاطت بها ، والتي لم تخرج تلك العقائد عن أن تكون جزءاً منها ، ونبذة من مجموعها .

***

وإذن فلقد نظلم ابن رشد أبين الظلم ونتعسف معه كل تعسف ، إذا لم نمض في نظر مذهبه محيطين بحالات عصره متشبعين بجملة الحالات التي قامت في بيئته حتى نستطيع أن ندرك طرفاً من ذلك التضارب الذي شاع في مذهبه تلقاء التوفيق بين الشريعة والحكمة ، حتى لقد اضطر الى القول بأن الشرع شرعين ، شرع لمن هو من حقه التأويل ، وشرع لمن ليس من حقه ذلك ، كل هذا تحت تأثير مثل تلك الفتوى التي أصدرها الشهرزوري في عصره كما سنرى في سياق نقدنا هذا . بل نقول ، ونحن على يقين ، أن ابن رشد كان ضحية عصره . فان الذي يستوعب منطق أرسطوطاليس ويعلق على كتبه ، لا شك يأبى عليه ذلك النطق كما يأبى عليه عقله الممتاز ، أن يقع في مثل ما وقع فيه ابن رشد من تضارب في الرأي وضعف في التدليل ، عندما تكلم في ضرورة التأويل ، تأويل الشرع ليسير في ركاب الحكمة . هذه نظريتنا في ابن رشد . نظرية تقوم على أن مذهبه في التأويل هو نبات عصره لا نبات عقله ، هو مستفاد الحالات التي قامت في بيئته ، لا مستفاد عقيدته الحقيقية . وانما هو في ذلك مضطر الى القول بتعليل يستند اليه في اشتغاله بالحكمة ، يبرر به عند أهل « عصره » موقفه من الأخذ بعلم اليونان وحكمتهم . فلجأ الى التمحل ، واصطناع مذهب

التأويل ، وهو يعلم أن مذهبه فيه سنادة يستند اليها في اشتغاله بالحكمة . هو مسألة ظاهرية يخفي وراءها قصداً يمنعه « روح عصره » أن يجاهر به . وعلى هذا الرأي سنمضي في نقد ابن رشد لا كما صوّره الاستاذ الفاضل مؤلف الكتاب .

أول نقد نوجهه إلى هذا الكتاب ان المؤلف لم يتخذ الملكة التاريخية أساساً لعرض مذهب ابن رشد . بل انه وجه كل همّه إلى مقابلته بالغزالي في تهافت الفلاسفة ، متخذاً من موقف خصمه أداة لعرض مذهبه ، من غير أن يحاول الالمام بشيء من الأسباب التي اضطرت ابن رشد الى ركوب ذلك الركب الخشن ، مركب القول بتأويل الشرع ، ليوافق الحكمة .

ولعمري كيف يستطيع ناقد يحاول نقد ابن رشد نقداً قائماً على مقتضيات « الملكة التاريخية » أن يعلل السبب في أن يركب هذا الفيلسوف ذلك الركب الخشن ، لو لم يقم من ورائه ومن حوله من يقول « السيف أو الاسلام » لمن يظهر منه اعتقاد الفلاسفة ! وأي شيء كان يحمل ذلك الفيلسوف العبقري على أن يكتب « تهافت التهافت » وهو يعلم ان الغزالي ما كتب « تهافت الفلاسفة » إلاّ متحاملاً على أهل الحكمة ، وانه لم يقصد بهم إلاّ سوء السمعة وإغراء الجماهير بهم ، وإيقاظ روح الفتنة الدينية . وإلاّ فماذا يكون علم الكلام الاسلامي ، إذا أخرجنا منه مبادىء الحكمة اليونانية ، وبخاصة قضايا المنطق كما وضعه أرسطو ؟ ولكن هل يستطيع ابن رشد أن يقول ان علم الكلام الاسلامي هو حكمة يونانية في قالب اسلامي ؟ لا شك في أن ابن رشد كان يعلم هذا حق العلم ، ويدركه حق الادراك ، ولو انه استشمّ شيئاً من ريح الحرية الفكرية في جوه الذي احتواه ، إذن لما حرّك قلمه بكلمة واحدة يرد بها على الغزالي . ولكن « السيف أو الاسلام » ! ذلك هو الحافز الذي اختفى وراء كتابه « فصل المقال » ، والذي حمله على أن يقول بالتأويل ، ليخفف بذلك توازن الكفتين ، كفة الشرع ، وكفة الحكمة . فذلك دينه بحكم البيئة ، وتلك هوايته بحكم الصناعة .

بهذا وحده نستطيع أن نردّ قول المؤلف الفاضل إنّ — « الاحساس بالحاجة إلى التوفيق بين الفلسفة ، والحكمة والشريعة عاطفة طبيعية يحس بها كل من عني بالبحث في هاتين الناحيتين ، ومحاولة هذا التوفيق تعتبر إلى حدٍّ ما واجباً لازم الاداء وأمراً ينساق اليه الفيلسوف المتدين صاحب العقيدة التي لها قداستها في رأيه ، وذلك لأكثر من عامل واحد الخ » . . (ص ٣٢) .

فليس هناك من شيء يقال له « عاطفة طبيعية » تدعو الى التوفيق بين الفلسفة والحكمة .

أما ذلك الاحساس عند ابن رشد فكان ضرورة أملتها عليه قاعدة « السيف أو الاسلام ». وهي قاعدة لا تترك للحكمة مجالاً للحياة إلاّ بالتزلف للشريعة . أما في عصرنا هذا فليس لهذا الاحساس من وجود البتة . فإما الشريعة ، وإما الحكمة . يختار بينهما العقل لأنه حرّ تحميه روح العصر وقوانينه في أن يفكر كيف يشاء وأن يؤيد ما يشاء أو ينفي ما يشاء بغير حساب . ولو ان ابن رشد قد يبعث اليوم ويعلم ان قاعدة « السيف أو الاسلام » قد دالت دولتها ، واننا نتفكر في خلق السماوات والارض بعقول حرّة طليقة من قيود عصره ، إذن لقال بأن دينه الحكمة ، وظلّ مع ذلك مسلماً له ما لبقية المسلمين وعليه ما عليهم .

يجري ذلك المجرى قول المؤلف الفاضل (ص ٣٣) — « واذا كانت محاولة التوفيق بين الوحي والعقل ، مما لا يجد منه بُدًّا كل من يشتغل بالفلسفة بصفة عامة ، فهي كذلك بالنسبة لفلاسفة الاسلام » .. والظاهر من هذا ان المؤلف قد انتقل بعقله وروحه إلى عصر ابن رشد ، فابتلعه ذلك العصر ، وترك من ورائه القرن العشرين بما فيه . ذلك بأن الفلسفة ليست ملزمة ولا مقصورة على أن تماشي الوحي ، ولا الوحي مقصور على أن يماشي الفلسفة . ولا كل مشتغل بالفلسفة مضطر الى التوفيق بينها وبين الوحي ، وان ما بين الفلسفة وبين الوحي ، لأقرب منه ما بين السماء والأرض . فالفلسفة منطق وفكر ، والوحي تسليم على طول الخط .

يؤيدنا في أن الفارق بين الفلسفة والوحي كبير قول المؤلف (ص ٣٥) إن الشقة بعيدة ... « بين الدين وفلسفة ارسطو في كثير من المسائل ، كمسألة الالوهية وتحديد صفات الله وخصائصه ، وخلق العالم وقدمه وحدوثه والصلة بينه وبين الله ، والنفس وخلودها » .

إن ابن رشد لم يذهب مذهب التأويل للتوفيق بين الشريعة والحكمة الاّ متصنعاً مضطرّاً اتقاء لحالات قامت في عصره، ومذهبه الفلسفي لا يستقرأ مما كتب في هذه الناحية إن كان من الممكن استقراؤه على الاطلاق . يؤيدنا في هذا قول المؤلف (ص ٣٥) إن من العوامل التي اضطرت المشتغلين بالحكمة الى التوفيق بينها وبين الشريعة ..... « مهاجمة كثير من رجال الدين للبحوث العلمية الحرة التي لا تتقيد في نتائجها بأية عقيدة مقررة سابقاً، ويضاف الى هذا تعصب الشعب والأمراء أحياناً من المفكرين الأحرار مدفوعين بدوافع مختلفة لا تتصل بالدين في الحقيقة في أكثر الأحيان » .... وكذلك .... « الرغبة في أن يكونوا بنجوة من هذا التعصب وآثاره ، ليستطيعوا العمل في هدوء ، ولئلاّ يتحاماهم الناس حين يرون أو يظنون انهم على غير وفاق مع الشريعة والدين » ..... وأيّة من حكمة : مهما كان نوعها أو متجهها ، تقع تحت مثل هذه العوامل والمؤثرات ، لن تنتج من ثمرة حرة ولن

تكون سبيلاً الى معرفة حقيقة الرأي الذي قام في أذهان القائلين بها على وجه التحقيق والتمام . ولقد تتضح من نفس الأقوال التي ذهب إليها المؤلف ونقلناها آنفاً ، ان هؤلاء المؤولين كانوا في حقيقة أمرهم انتقائيين،والانتقائية أخطر الأساليب التي تعالج بها الحكمة فانها كما قلنا من قبل في تقسيم أساليب النقد ، تنزع دائماً إلى تشويه المذاهب الأصلية ، لأنها مهما أخذ فيها بالحيطة والحذر وموازنة الآراء ، لا بد من أن تعمد قصداً أو اتفاقاً ، إلى التضحية بناحية من الناحيتين التي يرغب في التوفيق بينهما . اما ابن رشد فقد ضحّى بالشريعة، لأنه جعلها شريعتين،اذ إضطر أن يقول بأن الشرع ظاهر وباطن،ولكل منهما أهله. وسبب ذلك أن الناس مختلفون في الفطر والعقول . (ص ٤٠) .... » ومن أجل ذلك يقسم فيلسوف قرطبة الناس ثلاث طوائف : الخطابيون وهم الكثرة الغالبة السهلة الاقتناع التي تصدق بالأدلة الخطابية ، وأهل الجدل — ومنهم المتكلمون — الذين ارتفعوا حقاً عن العامة ولكنهم لم يصلوا لمرتبة أهل البرهان الحقيقي ، والبرهانيون بطبائعهم المواتية وبالحكمة التي راضوا عقولهم عليها وأخذوا أنفسهم بها » (ص ٤١) ..... وتقسيم ابن رشد هذا تقسيم اجتهاديّ قد يستطيع أي انسان أن يجادله فيه بالتي هي أحسن وبالتي هي أسوأ ، ما دام أن التقسيم اختياري لا ضابط له ولا قانون يحكمه ، لا من جهة العقل ولا جهة النقل

***

اما إذا أردنا أن نسوق القول في هذا النقد فنتناول كل ما عنّ لنا فيه من رأي لاحتجنا الى الكثير من الوقت والفراغ . ولكن حسبنا أن نكون بهذا قد عثرنا على مفتاح « ابن رشد » . وفي الكتاب مواضع عديدة تؤيد مذهبنا الذي نذهب إليه قد يعثر عليها القارىء الناقد بسهولة فلا داعي لنقلها هنا . ولا شك عندي في أن هذا الكتاب جديرٌ بالبحث والدرس ، وإن مؤلفه الفاضل ليستحق على ما بذل فيه من جهد أطيب الثناء .

بوشكين

أمير شعراء روسيا

تأليف نجاتي صدقي — مطبعة المعارف — ١٣٤ صفحة من القطع الصغير

كانت المكتبة العربية لا تسمع عن أدباء الروس إلاَّ قليلاً : ولا تعرف عنهم إلاَّ أقل من القليل . على حين تَمُوجُ تلك المكتبة ذاتها بأسماء كثيرة في الأدبين الانجليزي والفرنسي .

وعاة ذلك يسيرة: فقد مكّن اتصال الشرق العربي بانجلترة وفرنسة من معرفة لغتي القوم ودراستهما والترجمة عنهما والتأثر بأدبهما الى حد نرى أثره واضحاً في انتاجنا الحديث .

أما الروس فقد كان دون الوصول الى ثقافتهم أهوال ... فاللغة مجهولة ، والطريق إليهم نائية . ومذهبهم الجديد أراب فيهم الظنون فقطع ما بينهم وبين غيرهم .

ولا شك أن هذه القطيعة زادت من جهلنا بأدب القوم وزادت من تخلفنا عن متابعة لون من الأدب له في العالم الواسع مكانته وقدره .

وهذا تخلف ماكان يجيزه جهلنا باللغة الروسية : فان كثيراً من روائعها قد ترجم الى الانجليزية والفرنسية . فكان من السهل أن يترجم إلى العربية حتى يتيح ذلك للأدب العربي المعاصر اطلاعاً واسعاً على ألوان شتى من الثقافة الاوربية .

والتقريب بين البلاد المتباينة ليس من عمل السياسيين أو الدبلوماسيين وحدهم . فقد يكون للأدباء من ذلك حظ عظيم . فحين يترجم أديب عربي لشاعر رومي مثلاً فانه لاشك يمهد طريقاً للتعارف الانساني بين بلاده وبلد المترجَم له . وتلك من خُطى التقارب بين الشعوب .

على أنك لو نظرت إلى المسألة من وجهة الأدب المحض لوجدت من العيب أن تجهل أمة أدب أمة : وأن تقف إحداها من الاخرى بمنعزل بعيد ....

وفي الأدب الروسي — على قدر ما أعلم — روح انساني وفيه عاطفة بشرية وفيه حيوية انعكست على موقف الروس في دفاعهم المجيد عن أرضهم الحبيبة .

ولقد أتاحت الظروف لشاب عربي أن يتعلم الروسية في وطنها . وأن يظفر من أدبها بنصيب يجعله حريصاً على نقل أطايبه إلى لغته العربية . وفي ذلك الصنيع وفاء من ناحيتين: وفاء الكاتب لعربيته ، ووفاؤه للغة ثقافته . وما أجمل الوفاء من الأدباء ...

بدأ الأستاذ نجاتي صدقي — من أدباء فلسطين — بتعريف الشاعر الروسي بوشكين الى قراء العربية تعريفاً يلقي اضواء ساطعة على هذا الشاعر الذي لم تظفر المكتبة العربية قبل ذلك بترجمة مفصلة لحياته . وإذا كان بوشكين يقول في قصيدته « التمثال » (سيجتاز صيتي روسيا العظمى . وسيذكرني فيها كل لسان كائن : من صقلبي وفنلندي ومن تونغوزي وكالميكي !) فان الأستاذ نجاتي صدقي يحق له أن يفتخر بأنه جعل صيت بوشكين يجتاز حدود الروسيا الى كل صقع عربي سيقع فيه حتماً هذا الكتاب .

ولما كانت حياة بوشكين تتصل بتاريخ روسيا القيصرية في القرن التاسع عشر فان الأستاذ نجاتي استطاع ان يعرض حياة القيصرية في ذلك العهد عرضاً يجعل القارىء على بينة من حياة الشعب وحياة البلاط . وهما حياتان كان من الضروري أن يظهر في خلالهما شاعر مثل بوشكين استطاع أن يحس آلام الشعب واستطاع ان يرى بعينيه حياة البلاط وأن يسمع في أبهائها أنغام الترف والشبع على حساب أنات الجوع والحرمان ...

ولقد وفق المؤلف في تصوير نفسية بوشكين تصويراً يشيع في النفس الأبية الممتنعة أجمل معاني الآباء والكرامة البشرية . والمؤلف لا يدع ظاهرة من ظواهر الكرامة والحرية عند بوشكين الا جلاها في ثوب أنيق فيه من الايحاء ما هو خليق بالكاتب الكريم . فهذا الشاعر الحر تفرض عليه وظيفة صغيرة تحت سلطان الكونت فورونتشوف المتكبر المتعجرف الزور من صلف . ولكن بوشكين نفسه نفس حر ترى المذلة كفراً . فيقابل سلطان المتعجرف بكرامة الكريم ، وهنا تصطدم الكبرياء الكاذبة مع الحرية الأصيلة . وهنا تظهر نذالة الموظف الكبير مع الموظف الصغير ... ولكن بوشكين يقف موقف الرجل بما تحمله الكلمة من معانٍ .

ويثور الرئيس الصلف فيرسل الشاعر الموظف في حملة لمقاومة الجراد ويكلفه كتابة تقرير عن مهمته ... كما يفعل الرؤساء المتعجرفون مع أباة الضيم في ذلك الزمان ، وفي زماننا هذا . وفي كل زمن ومكان ... ولكن بوشكين يذهب في الحملة ويكتب التقرير في هذه الكلمات : « طارت الجرادة ثم هبطت ، ثم طارت ثم هبطت ، ثم أكلت ، ثم طارت ! . . . مع الاحترام . بوشكين »

***

وحياة بوشكين في هذا الكتاب النفيس هي قصة الآباء المنيع تجري في تاريخ شاعر لم يعرف الذلة في حياته القصيرة ولم يرد أن يعترف بها . فهو ثائر على الأرض وثائر على السماء ... ولقد كان هيّناً على بوشكين أن يصادف العيش المريء لو انه كان يسعى للعيش الدنيء . وما أشبهه في ذلك بامرىء القيس أمير الشعر العربي القديم حيث يقول .

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ــ ولم أطلب ــ قليل من المال

ختم المؤلف كتابه بقصيدتين من شعر بوشكين احداهما « النبي » والأخرى « الطلسم » ولو أنه أطال مدى الاختيار لامتع القراء بكثير من شعر بوشكين ، وهو شعر لم يُتح لكثير من قراء العربية أن يعرفوه ، وقصيدتان من شعر شاعر كانت حياته كلها غناء وأنيناً

لا تكفيان للتعريف بأدبه . ولعلّ المؤلف يتداركُ ذلك فيما هو بسبيله من تعريفنا بالأدب الروسيّ والأدباء الروس في ثمراته المقبلة .

ولقد ازدحم الكتاب بأعلام روسية كثيرة لم يَدَعْها المؤلف من غير تعريف بها . فجعل في ذيل الكتاب فهرساً بها وعرَّفها الى القراء في ايجاز تعريفاً ينشر الضوء على مواقعها . والحق أن الكتاب ليس تاريخاً لشاعر فحسب ، ولكنه تاريخ موجز شائق لحياة روسيا في الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

ولم يسلم الكتاب – على العناية بطبعه في دار المعارف – من أخطاء مطبعية كثيرة لم نتعودها من هذه الدار التي عُرفت باتقانها ودقتها . وليس بعذر أن الكتاب الشهري الصغير تخرجه العجلة على هذه الصورة . فنحن نقرأ مجموعة فلاماريون Flammarion الفرنسية المسلسلة ومجموعة The Kings Treasuries الانجليزية فلا نجد فيها خطأً واحداً .

والحق أن النفس العربية الظامئة الى الحرية في عالم لا تصح فيه الحياة إلاّ للأحرار لتستقبل هذا الكتاب وهي مشتاقة الى الحرية التي هي من أصول الطبع العربي .

ولقد أنصف الأستاذ نجاتي صدقي حين استهل انتاجه الأدبي بهذه الصفحات المنطوية على كثير من مبادىء الحرية الانسانية عند شاعر حر كبير . فنهنئه بما أخرج وننتظر من عمله الجديد في عالم الأدب الروسي خيراً كثيراً .

محمد عبد الغني حسن

• كتاب الاغاني • تأليف أبي الفرج الاصفهاني

٢٠ × ٢٨ سم ٤٨٧ ص دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٨

صدر الجزء الحادي عشر من كتاب الأغاني الجليل الحافل بعد ارتقاب طويل كاد يورث اليأس في نفوس المقبلين على عيون الأدب العربي القديم . وفي هذا الجزء اخبار النابغة ونسبه والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وأوس بن حجر وعائشة بنت طلحة وعمرو بن شاس والاقيشر واعشى بني تغلب وابي النضير والعبلي وأبي جلدة وحلوية ثم ذكر اتصال الجهال بين جرير والأخطل ، ومقتل زهير بن جذيمة ، ومقتل خالد بن جعفر ، وخبر الحارث وعمرو بن الاطنابة ، وتوبة بن الحمير مع ليلى وذكر فضله . ويلي ذلك المصادر المختلفة التي عودتنا دار الكتب وضعها وضعاً محكماً .

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

كيف تدور محركات قاذفات القنابل

تتسنى ادارة محركات القلاع الطائرة بكباس هوائي تربيني ايجابي اخترع لهذه الغاية . وهو يدار باطلاق غازات المحرك ، وهذا الكباس هو الذي يكبس الهواء القليل الكثافة في مخزن الهواء حيث يمزج بالبنزين . وعند ما تحين الفرصة للبنزين ، يتحول بالحرارة تحولاً وئيداً ، غازاً في القنطاس ، وذلك في المرتفعات الشاهقة .

قاذفات القنابل طراز E ١٧ — B

وقاذفات القنابل التي من طراز بوينج الجديد الموسوم برقم E ١٧ B هي من أحدث النماذج وأكبرها حجماً وأشدها فتكاً بأعدائها . وقد بذت سابقاتها من النماذج . بل هي الأنماط التي تقوم بانتاجها بالجملة مصانع أميركا . وفي سقف جسم كل منها وقعره برجان قويان للمدافع الصغيرة وبرج آخر في ذنبها . وسطوح ذنبها واسعة جداً قصد زيادة توازنها كطائرات الركاب .

التجارب الارضية تغني عن الجوية

وتقوم مصانع بوينج ودوجلاس وغيرها من المصانع بمقدار كبير من مباحثها الخاصة بالطبقة الطخرورية الجوية (١) وذلك على سطح الأرض حقيقة ، إذ أن التجربة الوحيدة الجوية لطيران قاذفة القنابل التي من نوع القلاع الطائرة تبلغ نفقاتها زهاء ألف ريال في كل ساعة من زمن طيرانها الاختباري . ولهذا السبب تستغني الشركات عن التجارب الجوية بالتجارب الأرضية بأن تستخدم حجراً كبيرة للضغط يفرغ منها الهواء تفريغاً مساوياً له تقريباً في الطبقات العليا من الجو ، حيث تستطيع ادارة الشركة توليد ضغط صناعي منخفض يعادل ما يوجد في ارتفاع ٦٠٠٠٠ قدم في

---

(١) طبقة جوية عليا متساوية الحرارة يتفاوت ارتفاعها في المنطقة المعتدلة من ٦ الى ٨ أميال ويبلغ علوها في المنطقة الاستوائية ١١ ميلا . وفي المنطقتين القطبيتين ٤ أميال . وتقع تحتها طبقتان هما تروبوسفير وتروبوبوز

الجو . وفي وسعها أيضاً تبريد الحجر الى درجة ٧٠ تحت الصفر أو أقل منها . وقد أنشأ مصنع بوينج لذلك الغرض حجرة تشمل برودة الطبقة الطخرورية وحالتها الجوية ، مبطنة بغلاف من الفلين ثخانته ١٢ بوصة ، حيث يتاح خفض الضغط والحرارة الى درجتهما في الارتفاع المنشود تماماً .

قاعة التبريد وحجرة الضغط

ومما يجدر ذكره أن قاعة التبريد التي انشأتها شركة بوينج بلغت من الرحابة مبلغاً يتاح فيه تجربة جهاز القيادة لمجموعة ذنب طائرة بحجمه الطبيعي . وفي قاعة دوجلاس الخاصة بالتبريد ، يرتدي عمال الباحث ثياباً من جلود الخيل مبطنة بالصوف ، تعلوها خوذ من معدن الاليومينيم ، ذات نوافذ من البلكسي جلاس[1] لا يغشاها الضباب حيث يزودون بتليفونات داخلية . واجتناباً لتعرض العمال للاصابة بالالتهاب الرئوي ، تراهم يتنفسون هواءً مدفئاً بأجسامهم أي بالزفير الذي يخرج من أنوفهم ، ثم يتبدد من الصمامات التي في الخوذ التي تعلو رؤوسهم ولا يسمح لأي طيار منهم باختباره منفرداً في الصندوق الثلجي حيث تنخفض درجة حرارته تحت الصفر ، بل يعين له رقيب ليراقبه دائماً عن كثب وذلك من خارج تلك القاعة القارة عن طريق نافذة زجاجية مؤلفة من أربعة ألواح يعلو بعضها بعضاً ، وهذا إلى جانب مواصلة دراسة كيفية تأثر المواد التي تصنع منها القلاع الطائرة حينما تتوغل في طبقات السماء .

وما زالت المباحث دائرة أيضاً في أحوال الطيارين وطرق وقايتهم من الاخطار الجوية حيث لا بدَّ لهم من استنشاق الاكسيجين فان هم تركوا نوافذ الطائرة مفتوحة لكي يديروا منها مدافعهم ، فلا مناص لهم من لبس الثياب والقفافيز المدفأة بالكهربية لأن الطيار حينما يبلغ ارتفاع ٣٠٠٠٠ قدم عن سطح الأرض ، يفقد رشده في أقل من دقيقة واحدة ، هذا إذا حرم من الأوكسيجين . وإن حصل عليه حينئذٍ أخذ يتألم من ضعف الضغط الجوي . ولذلك يحتاج الطيارون بغية القيام بأعمالهم على ما يرام عند صعودهم الى علو ٣٥٠٠٠ قدم أو ما يزيد عليها ، الى بعض أنواع الضغط الصناعي . ولعلَّ حجرة الضغط التي تستعملها عابرات الجو التي من طراز بوينج أصلح حل لهذه المعضلة . ومع ذلك فثمة عقدة أخرى هي خطر انخفاض ضغط الهواء بغتة عندما ينشق جسم الطائرة بضربة تصيبها من عدوها .

عوض جندي

---

(١) البلكسي جلاس plexiglass ـ ألواح لتغطية ما يبح هبوط الطائرات ، ومقاعد الطيارين وحجب القيادة ونوافذ الطائرات وأبراج مدافعها وذلك لخفة هذه المادة (التي هي من المجانس السكيميائية) ثم لمقاومتها الريح ولشفوفها . وهي عامل خطير لتيسير الرؤية والبلاكسي جلاس من طائفة الصموغ الصناعية .

أقمشة غير منسوجة

من أخبار العلم الأميركية أن القوات الأميركية المسلّحة تستهلك نوعاً جديداً ممتازاً من الأقمشة إسمه «ماسلين» Masslin وهو قماش غير منسوج يمكن انتاجه بعمل عجينة من تيلة القطن ومزجها بسائل لزج (لا يزال يُعدُّ سرًّا من أسرار الحرب) واتباع نظام يشبه إلى حدٍّ كبير النظام المتبع في صناعة الورق بآلاتٍ تشبه آلات هذه الصناعة . والأقمشة الناتجة عن هذه العملية، علاوة على كونها متينة ملساء ، فإنها خفيفة الوزن إذ تزن القطعة التي طولها ١٤ ياردة إلى ١٦ ياردة رطلاً واحداً . وهي مع ذلك رخيصة لدرجة تبعث على الدهشة ، سهلة التعقيم ، تتشرّب السوائل بدرجةٍ عالية ، وتصبح وهي مبللة أمتن منها وهي جافة .

ولما كان إنتاج هذا النوع من الأقمشة أسرع من انتاج الأقمشة المنسوجة وأيسر منها ، وكانت خالية من المسامّ والفتحات ، فقد أصبحت تتفوّق على جميع انواع الملابس المضادة للحوامض والحرائق والموادالكيميائية الملتهبة . و « للماسلين » مستقبل مضمون ، غير أن انتفاع الأهلين به رهين بانتهاء الحرب.

عصر العجائن

أصبح منتجو السيارات في الولايات المتحدة الأميركية يعتقدون أن سيارات المستقبل سوف تصنع من العجائن لأنها أخف وزناً وأكثر صلابة وأزهد قيمة وأجمل شكلاً من السيارات المعدنيّة .

والعجائن — كما يفهم من اسمها — تصنع من تيلة القطن أو لبّ الخشب أو الحشائش والأعشاب ويسهل تلوينها وتشكيلها تحت تأثير الضغط في قوالب خاصة . (١) وتمتلك شركة فورد للسيارات في الوقت الحالي امتياز إنتاج هياكل للسيارات من العجائن .

ويمكن الحصول على العجائن حالياً دون نَصَبٍ لأن مخلفات صناعة الورق وعيدان الذرة وكيزانها وتبن القمح والشعير ونشارة الخشب أصبحت اليوم أساساً لعجائن ذات مستقبل مضمون النجاح. كما أن مخلفات المدابغ أصبحت تُعدُّ أساساً لنوع جديد من العجائن أثارت مميزاته الجمة اغتباط العلماء وترحيبهم.

وسيصبح في الامكان إنتاج طائرات مصنوعة هياكلها من العجائن لأن التجارب التي أجريت على هذا النوع من الطائرات نجحت نجاحاً باهراً وسيصبح من الميسور أيضاً إنتاج عدسات القراءة وزجاج النظارات الطبية غير القابلة للكسر من العجائن . وحتى الصحف أمكن طباعتها بواسطة حروف طباعة مصنوعة من العجائن كما أمكن إنتاج الأقمشة وصحاف المائدة وعدد لا يحصى من الأدوات التي نستعملها في حياتنا اليومية من العجائن الكيميائية .

وديع فلسطين

(١) راجع مقال « العجائن » للاستاذ أمين ابراهيم كحيل . مقتطف يونيو ١٩٤٤

فهرس الجزء الخامس

من المجلد السادس بعد المائة

---

٤٢١ المشكلة الاقتصادية الكبرى : فؤاد صروف

٤٢٧ الخبز : فهمي عطا الله

٤٢٨ إذا (قصيدة) للشاعر رديارد كبلنج ، نظم محمد سعيد العامودي

٤٢٩ عالم المجهول : اسماعيل مظهر

٤٣٤ عن جزر الوشيان

٤٣٥ اصلاح الخط العربي : دكتور متى عقراوي

٤٤٣ تحقيق كتاب من نسب الى أمه من الشعراء : عبد السلام محمد هارون

٤٥٤ فيلسوف العرب والمعلم الثاني

٤٥٧ جنة الشوك

٤٦١ الزمان الوجودي

٤٦٢ المرأة والمجتمع : دكتور ابرهيم ناجي

٤٦٧ الاتحاد القومي : داؤه وأدواؤه : ادوار مرقص

٤٧٠ إعداد الفرد لتأسيس مجتمع صالح : منصور رجب

٤٧٤ ذوقوا فتنتكم

٤٧٦ عقدة التربية : احمد لطفي السيد باشا

٤٧٧ الانجليزية الأساسية : سلامه موسى

٤٨١ الاتجاه الحضاري لديمقراطية الغد : صلاح الدين الشريف

---

٤٩١ مكتبة المقتطف * ابن رشد الفيلسوف . بوشكين امير الشعراء : لمحمد عبد الغني حسن . كتاب الاغاني .

٥٠١ باب الاخبار العلمية * كيف تدور محركات قاذفات القنابل . قاذفات القنابل طراز E ١٧ - B . التجارب الارضية تغني عن الجوية . قاعة التبريد وحجرة الضغط : عوض جندي . أقمشة غير منسوجة . عصر المجائن : وديع فلسطين

January — May 1945 · يناير — مايو سنة ١٩٤٥

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

أنشئت سنة ١٨٧٦

المجلد السادس بعد المائة

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : Ismail Mazhar

VOL. 106

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد السادس بعد المائة

من المقتطف

(ا)

ابو العلاء وبيئته ٢٥
الاتجاه الحضاري لديمقراطية الغد ٤٨١
الاتحاد القومي داؤه ودواؤه ٣٦٥ و٤٦٧
الاخلاق وتناسخ الشخصيات ٣٣٣
ادنجتن ارثر ٣١٣
الأديب وحرفته ٨٤
الاستدراك :
الأشعة السينية جهاز لها ٩٠
اعداد الفرد لتأسيس مجتمع صالح ٤٧٠
الآلات الحديثة تأثيرها الامتاع والمؤانسة ٧٨
في حياة الفلاح المصري ١٣٩
امريكا والعرب ١٥٥
الأكل نظامه ٤٠٤
الانجليزية الأساسية ٤٧٧
الاورانيوم رقم ٢٣٥ ٩٠

(ب)

البرد الحذر من أمراضه ١٧١
بلاد العرب للعرب ٣٠٩
البنسلين ٩٢
بيفردج مشروعه ٢١١

(ت)

تاريخ يومك ما هو ١٦٥
التجارب الأرضية تغني عن الجوية ٥٠١
تحقيق كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء ٤٤٣
التراب يغزو الموت ١٣٤
التليفون اللاسلكي ١٩٥
التمثيل الخارجي ٤٤

(ج)

جامعة الأمم العربية ٣٠٥
الجذام والسل عقار لهما ١
جزر ٤٣٤
جزيرة العرب ارتيادها ٢٦٩
جنة الشوك ٤٥٧

(ح)

الحرب الحالية ثمراتها ٨٨
الحرية والعالم العربي ٢١٠
الأحلام والروح ٣٩١

(خ)

الخبز ٤٢٧
الخط العربي اصلاحه ٢٤٥، ٣٥٢، ٤٣٥
الخطايا العشر ٢٥٨

(د)

الدبلوماسية البابوية ٢٢٧
الدنيا قمتها ١٥٢
الدولة الأتابكية ٤٠
الدولة مبدأ سيادتها وقضية السلم العالمي ١١٣

(ذ)

الذكر والأنثى تعيينهما ٣٣٩
ذوقوا فتنتكم ٤٧٤

(ر)

الراديو المصور في السيارات ٢٩٤
الراديو والاجهزة الكهربية في القطارات ٢٩٤
رداء يقي من البلل ٩٢

(ز)

الزراعة أعظم اكتشاف فيها ١٩٢
الزراعة والريف في الولايات المتحدة ٢٣٤
الزومالقة وأصلها ٢٣٨
الزمان الوجودي ٤٦١

(س)

السبعون وبلغتها ٢٣٩
السل والجذام علاجهما ١

سموم الأفاعي والمقارب
والبحث الحديث ١٩١
سنة مضت ٦١
السياسة الدولية طابعها
في عالم ما بعد الحرب ٣٤٣
(ش)
الشعراء من نسب الى أمه ٤٤٣
الشيعي مذهبه قبيل الدولة
الفاطمية وفي أيامها ٣٢٦
(ص)
الصاروخ سلاحه ٩٣
الصحاري المصرية
كنوزها ٣١٧
الصحف الشرقية مجموعة
فريدة منها ٩٤
الصخرة السوداء فوقها ١٤٤
صمام الأمن البشري ٢٩٥
الصمامات الكهربية ٢٩٣
(ض)
الضمان الاجتماعي
ومشروع بيفردج ٢٢١
الضمان الاخلاقي ٣٨١
(ط)
الطب على هامشه
١٧ ، ١٠٣ ، ٢٠٣
الطعام الصحي قواعده ٩٤
(ع)
العالم المجهول في قمة الدنيا ٤٠٣
عالم مجهول ٤٢٩
العجائن عصرها ٥٠٣
العرب وأميركا ١٥٥ ، ٢٨٧
عقدة التربية ٤٧٦
العلم الغازه ٩٧ ، ١٩٧ ، ٣٠١
العلم وتعيين النسل ٣٣٩
عين الفيجة مياهها ٣٢
العيون الكهربية ٢٩٥
(ف)
الفيل ذلك المجهول ١١٨
(ق)
قصة :
بطاقات الوحدة ٣٢٠
عدو الكذب ٢٧٨
على الشنقة ٨
في الكوخ ١٢٢
لحظة الصفر ٢١٦
الواجب ٣٧٨
قصيدة :
إذا ٤٢٨
راقصة الفالس ٣٣٨
قيود ٢٥٣
قاذفة القنابل ومعركاتها ٥٠١
قاذفات القنابل طراز
١٧ — ٥١٠
قاعة التبريد والضغط ٥٠٢
القطن الطبيعي مستقبله ٩٣
قماش غير منسوج ٥٠٣
قول حكيم ١٣٨
القلاع الطائرة ٤١٤
(ك)
كانت والعقل الجرماني ٣٥
الكتب :
ابن رشد الفيلسوف ٤٩١
أبو العلاء المعري ١٨٧
أبو نواس ٦٢
الاخلاق والواجبات ٢٩٢
أساطير الحب والجمال
عند الأغريق ٤٠٩
الاسلام والنصرانية ٤١٣
الأغاني ٥٠٠
البستان ٢٩٠
بوشكين امير الشعراء ٤٩٧
تاريخ جرح ٧٠
تاريخ ما قبل التاريخ ١٨٨
التعليم الريفي والزراعي
في تركيا الحديثة ٢٩٠
توفيق الحكيم ٤٠٦
جبران خليل جبران ٧٠
جمهورية ارسطفانس ٦٤
رابندرانات تاجور ٢٩١
رسالة الملائكة ٦٦
رسالة الهناء للمعري ٧٠
سحر أميركا ٤١٣
الشوامخ ٧١

صلاح الدين وأحمد شوقي ٢٨٩
ضجعة العروس ٤١٣
الطب التجريبي ١٨٣
العربية وشاعرها
الاكبر احمد شوقي ٢٨٩
عطر ودخان ٢٩٢
الغرر التاريخية في
الأسرة اليازجية ٧٢
الفتح مستمر ١٨٢
فتوح افريقية والأندلس ٦٨
فيلسوف العرب والمعلم
الثاني ٤٥٤
قاعدة جليلة في التوسل
والوسيلة ١٩٠
قصة البنيسلين ٧٢، ١٨٩
قلب عربي وعقل أوربي ٢٨٨
قواعد الهرموني : ٤١١
لا فوازيه ١٨٩
الليلة الثانية عشرة ٤١٣
محمد عبده ١٨٥ ، ٢٨٥
مقام ابراهيم ٢٨٩
الهجوم على أوربا ٤١٢
من حرب عالمية الى
سلم عالمي ١٨٤
كل مرحاً تعش طويلاً ١٦٤
كلمة الشاعر ٣٦٢
الكبر باعلاه وتشخيص
الأمراض ١٤٨
الكهيربات مجاريها
وموجات الضوء ٨٩

(ل)

لبنان ومصر ٢٨٣
لغز الاشعة الكونية ٩٩
لغز بدء الحياة ١٩٩
لغز الزكام ١٠٢
لغز سر الخلية المتكاثرة ٣٠٤
لغز صلة المادة بالاشعاع ٣٠١
لغز عصر الجد ٩٧
لغز اللاعمة في الاحياء ٢٠٢
لغز الورقة الخضراء ١٩٧

(م)

المآصر في بلاد الروم
والاسلام ٥٧
مأثورات ١٧٠ و٢٠٩ و٢٢٦
و٣٢٢ و٣٢٥ و٣٣٢ و٣٤١
و٣٤٦ و٣٥١ و٣٦١ و٣٧٧
و٣٨٠ و٣٩١ و٣٩٦
المجهار الكهيربي ٨٩
المجلات :
الأديب عدد خاص بأبي
العلاء ٧٣
مادة تلميذ : لغويًّا ٢٥٤
المذياع في المحطات ٢٩٥
المذهب الشيعي قبيل الدولة
الفاطمية وفي ايامها ٣٢٦
المرأة ثم المرأة ١٠٨
المرأة والمجتمع ٤٦٢
المسائل :
الأديب وحرفته ٨٤
المسرح :
صفق الجمهور فصفق النقاد ٧٤
مصابيح لاشارات المرور
في السيارات ٢٩٣
مصر القديمة والحروب
بين الشمال والجنوب ١٧٥
المغنيزيوم استخراجه
من البحر ٩١
الملاريا مقاومة مرضها ٤٠٠

(ن)

النبات الطبي ٢٨١ و٣٩٧
النباتات المتطفلة ٢٧٤
النبات مفرداته ١٧٨
النظام الاقطاعي والملك
ايخ — ان — آتون ٣٨٥

(هـ)

هيبارين ٨٩

(و)

الوجود وحدته ، مذهب
أم فكرة ؟ ١٦١
وصايا صحية ١٣٣

(ي)

يومك ما هو تاريخه ١٦٥